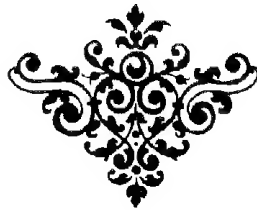


مَلَا تُهْبِ فِكْرِي
مُعَاظِرَةً



مَحَمَّدٌ قُطَيْبٌ

دار الشروق

مَذْهَبٌ
فِكْرِيَّةٌ
مُعَاصِرَةٌ

الطبعة الثالثة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
الطبعة الرابعة
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م
الطبعة الخامسة
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م
الطبعة السادسة
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
الطبعة السابعة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م
الطبعة الثامنة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
الطبعة التاسعة
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروكة

أسسها محمد العتيم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي بويه المصري -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

محمّد قطب

مَآذِهُبُ فِكْرِيَّةٍ مَعَاصِرَةٍ

الديموقراطية

الشيوعية

العلمانية

العقلانية

القومية والوطنية

الإنسانية

الإلحاد

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

”وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ“

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

مقدمة

تسيطر اليوم أوروبا « ١ » بكل قوتها على العالم كله .
ومع السيطرة تتسرب مجموعة من الأفكار والمذاهب والمعتقدات ، بل
الخرافات كذلك - كخرافة الطبيعة الخالقة ، والمادة الأزلية الأبدية المتطورة -
فتنصب في أذهان الشعوب التي غلبت عليها أوروبا ، إما عن طريق التسرب
التلقائي الذي ينشأ من تقليد المغلوب للغالب ، وإما عن طريق الغزو الفكري
المتعمد ، الذي يبثه الغالب في فكر المغلوب ليضمن تبعيته له وعدم خروجه على
طاعته .

ولم تكن سيطرة أوروبا - بكل قوتها - هي السبب الوحيد في الحقيقة
لهذا التسرب التلقائي أو ذلك الغزو الفكري ، إنما كان هناك سبب لا يقل أهمية
عن هذه السيطرة إن لم يكن - في نظرنا - أهم ، هو غياب البديل الذي يمكن أن
يتأخذ مكان هذه الأفكار والمذاهب والخرافات إذا تبين عدم جدارتها بالاتباع ،
بل الذي يحول أصلاً دون التوجه إليها واتباعها في حالة وجوده ، ونعني به
الاسلام .. ذلك أن غيابه يعطى هذه المذاهب والأفكار في نفوس الناس حجية
الأمر الواقع وثقل الأمر الواقع . أي أنها تصبح في حس الناس جديرة بالاتباع لا
لجدارتها الذاتية ، ولا لأنها في ذاتها صحيحة ، ولكن فقط لأنها موجودة
بالفعل ، والبديل غير موجود !

« ١ » ليس المقصود بأوروبا حدودها الجغرافية ، إنما المقصود « الغرب » كله بامتداده الأمريكى والروسى على
السواء.

ولن نتعرض في هذا الكتاب لأسباب غياب هذا البديل ، ولا للنتائج الخطيرة التي نتجت عن غيابه بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للعالم كله « ١ » . إنما أردنا في هذا الكتاب أن نتعرض لهذه الأفكار والمذاهب ذاتها ، فنعرضها عرضاً موضوعياً نبين فيه ما تحتوى عليه من حقائق وما تحتوى عليه من أباطيل ، ونبين فيه - أهم من ذلك - الظروف التي أدت إلى نشأتها وتشكلها على هذه الصورة ، فإن كثيراً من الناس الذين يأخذونها على أنها أمر واقع ، لا يسألون أنفسهم كيف نشأت ، وما الظروف التي جعلتها تأخذ هذه الصورة ، كأنهم يعتقدون - من ثقله الأمر الواقع على حسهم - أنها ذات وجود طبيعي ، وأن الصورة التي هي عليها هي الصورة الطبيعية لهذا المذهب أو ذاك ، ولا يضعون في حسابهم أن ظروفًا محلية بحتة في أوروبا هي التي جعلت الفكر الأوروبي يتجه هذه المتجهات ، ويسلك هذه المسالك ، وأنه لو كانت هناك ظروف مختلفة ، لاعتنقت أوروبا أفكاراً أخرى ومذاهب من نوع آخر .

بعبارة أخرى إن هذه الأفكار والمذاهب هي انعكاس لظروف محلية بحتة في أوروبا ، وليست كما هي في حس الأوروبيين ومن يدور في فلكهم من الشعوب المغلوبة « قيما » قائمة بذاتها ، ولا أفكاراً « إنسانية » تنبع نبعاً ذاتياً من كيان « الإنسان » بوصفه إنساناً . ولم يكن من الحتم أن تعتنقها أوروبا ذاتها - لو أتاحت لها ظروف أفضل - وليس من الحتم أن يعتنقها أحد في خارج أوروبا مادامت ظروفه غير ظروف القوم هناك .

وهذا الكتاب لم يكتب للمسلمين وحدهم ، وإن كان المسلمون يستطيعون أن يفيدوا منه مزيداً من المعرفة بدينهم ، على قول الفاروق عمر رضي الله عنه : « لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية ! » فمعرفة المسلمين بانحرافات الجاهلية المعاصرة تزيدهم معرفة بكمال الدين المنزل من عند الله .

ولكني كتيبت لكل من يرغب أن يعرف شيئاً عن هذه المذاهب المنتشرة في الأرض اليوم ، وأسباب نشأتها وتشكلها على هذه الصورة . ولم أقصد به أن يكون دراسة متخصصة ، ولكني حاولت أن أضع فيه القدر المناسب من المعلومات ، الذي يلقي ضوءاً معقولاً على هذه المذاهب والأفكار .

« ١ » في النية إصدار كتاب في هذا الموضوع بعنوان « واقعنا المعاصر » .

ولم أتحدث عن كل المذاهب المعاصرة ، فلم يكن قصدى الاستقصاء ، إنما
رضت لأبرز هذه المذاهب وأكثرها انتشارا في عالمنا المعاصر ، فاخترت منها :
ديمقراطية والشيوعية والعلمانية والعقلانية والقومية والوطنية والإنسانية
الإلحاد .

فإن كنت قد قصرت فيما بذلت من الجهد فهذا هو العجز البشرى ، وإن كنت
د وفقت فمن الله التوفيق .

محمد قطب

التمهيد الأول

الدين والكنيسة

نبذة تاريخية

أولا : تحريف الدين :

لم تعرف أوروبا قط دين الله المنزل على حقيقته الربانية .
إنما عرفت صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوروبية لاصلة لها بالأصل .
المنزل ، الذى أرسل المسيح ليبلغه لبنى إسرائيل : « ورسولا إلى بنى إسرائيل
أنى قد جئكم بأية من ربكم ... » « ١ »
وإذا استثنينا أفرادا قلائل ، متناثرين على طول التاريخ المسيحى من بعثة
عيسى عليه السلام إلى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الجماهير الأوروبية
ظلت تستقى دينها من رجال الدين من البابوات والكرادلة ، ومن الجامعات
المقدسة وشراح الأناجيل المحرفة ، وتعتبرهم مرجعا لا يرقى إليه الشك ولا يجوز
أن يناقش ! فاتخذوهم - على الحقيقة لا على المجاز - أربابا من دون الله :
« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا
إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » « ٢ »

« ١ » سورة آل عمران [٤٩]

« ٢ » سورة التوبة [٢١]

وفي القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح كان الأباطرة وثنيين لا يؤمنون بدين منزل ، فكانوا يضطهدون النصارى من صبح اعتقاده منهم ومن انحرف وحرف ، يسومونهم سوء العذاب ، ويشردونهم في الأرض ، حتى اتخذ فريق منهم الأديرة والملاجئ في أطراف الأرض فرارا من العذاب .

وفي القرن الرابع تغير الأمر حين اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية وفرضها على الامبراطورية . ولكن الدين الذي فرضه قسطنطين هو - باعتراف المؤرخين والمفكرين الغربيين أنفسهم - شيء آخر غير الدين الذي بشر به المسيح .

يقول درابر الامريكى في كتابه « الدين والعلم »

« ودخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرها بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام .. وكذلك كان قسطنطين .. فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا في آخر عمره (سنة ٣٣٧ م) .

« إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء .. هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى على منافسه « الوثنية » قضاء باتا ، ونشر عقائده خالصة بغير غش ..

« وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبدا للدنيا ، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين - النصراني والوثني - أن يوحدتهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ! وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من ألداس الوثنية وأرجاسها « ١ »

ويقول فشر المؤرخ الانجليزى :

١ « نقلا عن كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد ابى الحسن الندوى

« إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت أباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعاً من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات » !! « بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها » ١ !!

ويقول رينان الفيلسوف الفرنسي :

« إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام . ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح بل حملة على محمل آخر ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم . وبولس كما لا يخفى كان رسولاً للأمم ، أو رسول الجدل والمنازعات الدينية ، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره ، فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحي فأفسده . ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس . وأما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي فخرص صفته الإلهية الكمالية ، بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحي التي أولها منذ ابتداء العالم وآخرها في عصرنا الحالي ، والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وإن أولئك الشراح والمفسرين يدعون المسيح إلهاً دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار : موسى والزبور ، وأعمال الرسل ورسائلهم ، وتآليف آباء الكنيسة ، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله » ٢

ويقول برنتن :

« إن المسيحية الظاهرة في مجمع نيقية - وهي العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم - مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليل » ٣

ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعاً لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب ، بل

« ١ » تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج ١ ص ٨٠

« ٢ » عن « مخاضرات في النصرانية » للشيخ محمد أبوزهرة ص ٢١٥ . ووضح إن رينان قد ركز على نقطة الفساد الحقيقية في تعاليم الكنيسة وهي تأليه المسيح ، ولكنه خلط بها مسألة الختان وغيرها مما سماه « مظاهر خارجية » ولم تكن مسألة الختان التي عجزت الكنيسة عن تطبيقها هي التي أفسدت المسيحية - وهي من تعاليم إبراهيم عليه السلام التي تلقاها من الوحي - إنما كانت مسألة التثليث وتآليه عيسى عليه السلام

« ٣ » أي المسيحية الأولى كما جاء في كلام الكاتب بعد ذلك .

بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا « ١ » .

ويقول المؤرخ الإنجليزى ويلز :

« وظهر للوقت معلم آخر عظيم يعده كثير من الثقاة العصريين المؤسس الحقيقى للمسيحية وهو شاول الطرسوسى أو بولس .. والراجح أنه كان يهودى المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك ، ولا مرأى فى أنه تعلم على أساتذة من اليهود بيد أنه كان متبحرا فى لاهوتيات الاسكندرية الهلينية .. وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهلنستية ، وبأساليب الرواقيين ، كان صاحب نظرية دينية ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل .. ومن الراجح جدا أنه تأثر بالثرائية إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية . ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنبا إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تظهر قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا وهى فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية . أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة . ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء لاسترضاء الإله « ٢ »

ويقول أيضا :

« وفى أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أى التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التى تكاد تضارعها فى سعة انتشارها بين سواد الشعب ، ونحلة سيرابيس إبزيس حورس ...

« على أن ما أسهمت به نحلة الاسكندرية فى الفكر المسيحى والطقوس المسيحية كان أعظم قدرا أو يكاد .. إذ كان طبيعيا أن يجد المسيحيون فى شخصية حورس (الذى كان ابنا لسيرابيس وهو سيرابيس فى نفس الوقت) شبيها مرشدا لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا ... « ٣ »

وتكفيينا هذه الشهادات من مؤرخى الغرب ومفكره ، لنذكر مدى التحريف

« ١ » كتاب « افكار ورجال » تأليف جرين برنتن وقرجة مصمود محمود ص ٢٠٧ من الترجمة العربية .

« ٢ » معالم تاريخ الإنسانية ج ٢ ص ٧٠٥

« ٣ » المصدر السابق ج ٢ ص ٧٠٨ - ٧٠٩

والتشويه الذى أدخله بولس والمجامع المقدسة من بعده على العقيدة الصحيحة التى جاء بها رسول الله عيسى ابن مريم عليه السلام .

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم . وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شئ شهيد » ١

صدق الله العظيم .

على أن التحريف الذى وقع فى العقيدة من جعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم ، وتأليه عيسى عليه السلام وادعاء بنوته لله تعالى ، وتأليه مريم وروح القدس جبريل عليه السلام ، واختراع قصة الصلب والفداء ، وعبادة الصليب وعبادة التماثيل والأوثان .. الخ ... الخ .. هذا التحريف على بشاعته لم يكن هو التحريف الوحيد الذى أدخلته الكنيسة والمجامع المقدسة على دين الله المنزل ، بل أضافت الكنيسة انحرافا آخر لا يقل سوءا ولا تشويها للدين المنزل من عند الله ، وذلك بعزل العقيدة عن الشريعة واتخاذ الدين عقيدة فقط ، وترك القانون الرومانى يحكم الحياة .

إن الدين المنزل من عند الله كان دائما عقيدة وشريعة فى ذات الوقت : عقيدة فى الله الواحد الفرد الصمد ، الذى لا شريك له ولا ولد ، وتنظيمات تنظم حياة الناس فى الأرض فى إطار أوامر الله ونواهيه .

فأما العقيدة فقد جاءت واحدة فى جميع الرسالات السماوية لأنها - بطبيعتها - غير قابلة للتغيير ولا التبديل . فإله سبحانه واحد . وكل الرسل المرسلين من عند الله جاءوا بعقيدة التوحيد - عقيدة الحق - فقالوا لأقوامهم كما يحكى القرآن الكريم عنهم : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » أما الشريعة وما تخويه من تنظيمات فقد تغيرت - بحسب أحوال الأقوام الذين أرسل المرسلون إليهم ، وانحرافاتهم الخاصة التى كانوا واقعين فيها - حتى اكتمل الدين فى الوحى المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم نزل قوله تعالى : « اليوم

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً « ١ » ولكنها
- أى الشريعة - كانت دائماً هناك ! كانت موجودة في كل رسالة أنزلت على
رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً . وقد أشار القرآن إلى
بعض تفصيلاتها في مثل قوله تعالى :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا
تنقصوا المكيال والميزان ، إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط .
ويا قوم أوقوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في
الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا
يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا « ٢ » أو أن نفعل في أموالنا ما
نشاء ؟ « ٣ » . « ٤ »

وقوله : « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إني لكم
رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على
رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ،
وإذا بطشتم بطشتم جبارين ؟ فاتقوا الله وأطيعون » « ٥ »

وقوله : « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إني
لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا
على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من
أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون .. » « ٦ »

وما كانت الرسالة المنزلة على عيسى ابن مريم بدعا من الرسالات في هذا
الشأن . بل ينص القرآن الكريم نصاً صريحاً على أن عيسى ابن مريم جاء
مصدقاً لما بين يديه من التوراة - وهى حافلة بالتشريعات التفصيلية في كثير من
شؤون الحياة - وليحل لبنى إسرائيل بعض الذى كان قد حرم عليهم من باب
العقوبة على ما اجتروحوا من السيئات :

« ١ » سورة المائدة [٢]

« ٢ » هذه خاصة بالعقيدة

« ٣ » وهذه تتعلق بالشريعة وكلتاها متصلتان بالصلاة التى يصلّيها شعيب لله كما هو واضح من استنكار القوم

« ٤ » سورة هود [٨٤ - ٨٧]

« ٥ » سورة الشعراء [١٢٢ - ١٢١]

« ٦ » سورة الشعراء [١٦٠ - ١٦٦]

« ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأجل لكم بعض الذي حرم عليكم . وجئتمكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » « ١ »

كما ينص على أن الله جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ، وأمر كل قوم أن يحكموا بمقتضى الشرع الذى نزل عليهم وإلا فهم كافرون وظالمون وفاسقون ، حتى يأتى الرسول الأخير صلى الله عليه وسلم فيحكموا جميعاً إلى شريعته .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . ولحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه . فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » « ٢ »

ورغم أن وجوب تحاكم النصارى إلى ما جاء في التوراة والإنجيل من تشريعات واضح تمام الوضوح في الكتب المتداولة بين أيديهم بالرغم من كل ما حدث فيها من تحريف ، فإن الكنيسة زعمت أن القانون الرومانى - قانون قيصر - له شرعية تبيح اتباعه وهو يحكم بغير ما أنزل الله ، ونسبت هذا الزعم

« ١ » سورة ال عمران [٥٠]
« ٢ » سورة المائدة [٤٤ - ٥٠]

إلى السيد المسيح ، كما نسبت إليه من قبل أنه قال إنه إله وإنه ابن الله .. سواء بسواء !

جاء في أناجيلهم هذه القصة :

« ذهب الفريسيون وتشاؤروا لى يصطادوه (أى السيد المسيح) بكلمة ، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيروودوسيين قائلين : يا معلم ! إنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن ؟ أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربوننى يا مرءون ؟ أرونى معاملة الجزية . فقدموا له دينارا فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر ! فقال لهم : أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا » ١

وليس لنا من سبيل إلى الجزم فى أمر هذه القصة ، هل حدثت بهذه الصورة أم بغيرها أم لم تحدث على الإطلاق . وإن كنا أقرب إلى الشك فيها منا إلى إثباتها . ولكننا نفترض جدلا أن القصة حدثت على هذا النحو ، وأن المسيح تكلم بهذه الألفاظ ، فهل يمكن أن يكون قصده منها هو إعطاء الشرعية لأمر قيصر الذى لا يؤمن بالله ورسوله ولا يتحاكم إلى شريعة الله ، وقسمة شؤون الحياة بين قيصر وبين الله سبحانه وتعالى بحيث يكون لقيصر نطاق يتصرف فيه على هواه ويطاع فيما يأمر به ، وتكون بقية الشؤون - التى لايهتم بها القيصر - هى النطاق المتروك لله ؟

وما الشك إذن فى أجلى صوره ؟

إن هذا المعنى يستحيل أن يخطر فى بال المؤمن العادى الذى يؤمن بلا إله إلا

الله . فكيف بنبى مرسل من عند الله ؟

إن أقصى ما يمكن أن تدل عليه القصة - على فرض صحتها جدلا - أن المسيح عليه السلام يقول لهم : إننا لم نؤمر الآن بقتال قيصر ، فإذا فرض عليكم الجزية - ولا قبل لكم اليوم برد سطوته عنكم - فادفعوا له الجزية حتى يأتى اليوم الذى يؤذن لكم فيه بالقتال لإخضاع قيصر لشريعة الله . وهذا كما قيل للمؤمنين فى مكة : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ٢ « حتى جاءهم الأذن بالقتال فى قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله

١ . « انجيل متى ٢٣ - ١٤ - ٢٢ »
٢ . « سورة النساء [٧٧] »

على نصرهم لقدير « ١ » ثم جاء الأمر بالقتال لإخضاع الأرض كلها لشريعة الله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » « ٢ » ولكن الكنيسة حملت هذه القصة - على فرض صحتها - فوق ما تحتمل، وزعمت أن معناها أن من حق قيصر أن يحكم عالم الأرض على أن يحكم الله عالم السماء ، أو أن الأبدان لقيصر يفعل بها ما يشاء في الحياة الدنيا ، والله الأرواح في الآخرة ! وهكذا سمحت للعالم المسيحي أن يحكمه القانون الروماني في كل شؤونه ماعدا « الأحوال الشخصية » من زواج وطلاق .. الخ .. وأن ينحصر سلطان الله على عباده في مشاعر الخشوع والتقوى والشعائر التعبدية .. والأحوال الشخصية التي لايهتم بها قيصر إذا ما تركت لشريعة الله ! ... وتم بذلك فصل العقيدة عن الشريعة ، وتم المسبغ الكامل لدين الله !

هذا الدين - بهذه الصورة - لم يكن صالحا للحياة .
فما يصلح دين تشوه عقيدته على هذا النحو ، ثم تفصل الشريعة فيه عن العقيدة وتحصر في أضيق نطاق .

إن الدين يأتي لإصلاح الأرض وإقامة حياة الناس بالقسط .
« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » « ٣ »
« ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطعما . إن رحمة الله قريب من المحسنين » « ٤ »
« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » « ٥ »

وهذا الإصلاح الذي يقيمه الدين في الأرض ينشأ من انصياع الناس لحقيقة ضخمة هي حقيقة التوحيد ، بكل أبعادها وكل مقتضياتها ، فتتضبط بها حركة النفس وحركة الحياة البشرية على السواء .

« ١ » سورة الحج [٢٩]

« ٢ » سورة الانفال [٢٩]

« ٣ » سورة الاعراف [٨٥]

« ٤ » سورة الاعراف [٥٥ - ٥٦]

« ٥ » سورة الحديد [٢٥]

التوحيد هو « الميزان » الذى يضبط النفس والحياة .

فالإنسان عابد بفطرته ..

« وإن أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم :

ألسنت بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا » « ١ »

وقد تهتدى النفس بميثاق الفطرة وقد تضل عنه . ولكنها - بما أودع في

فطرتها - تظل دائماً تبحث عن الإله ... تبحث عن « المعبود » « ٢ »

ومن ثم فإن الإنسان لابد أن يعبد .. يعبد الله أو يعبد شيئاً غير الله .

وليس الفارق بين إنسان وإنسان أن هذا يعبد وهذا لا يعبد . إنما الفارق في

المعبود : أهو الله سبحانه وتعالى ، المستحق للعبادة ، أم غيره من الآلهة التى لا واقع لها فى الحقيقة .

وتتعدد المعبودات من دون الله وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، واختلاف

مبلغ الجاهلية من « العلم » الأرضى ، وتتوحد عبادة الله فلا تتغير طبيعتها

باختلاف الزمان والمكان « ٣ » .

كان الناس فى جاهليتهم المختلفة يعبدون « الأرب » أو يعبدون « الطوتم »

أو يعبدون « قوى الطبيعة » المختلفة من رعد وبرق وريح ومطر ، ويعبدون

الأفلاك من شمس وقمر ونجوم ، أو يعبدون الأصنام والأوثان ، أو يعبدون

البشر من الأنبياء والقديسين والأحبار والرهبان ، أو يعبدون الطبيعة .. ثم عبد

الإنسان ذاته فى الجاهلية المعاصرة ، ثم تعددت المعبودات فصار اسمها الوطن

أو الدولة أو القومية أو المذهب أو الحزب أو الزعيم ... أو الجنس أو الانتاج

المادى أو الدولار « ٤ » !

كلها معبودات يتخذها الناس أرباباً من دون الله ، وتتحكم فى حياتهم

فيسيروا على مقتضى ما تأمرهم به فى الوهم أو الحقيقة .

وفى جميع تلك الأحوال يكون الناس عابدين لأربابهم وخاضعين لما تأمرهم به

تلك الأرباب .

« ١ » سورة الأعراف [١٧٢]

« ٢ » فى فصل « الألحاد » فيما يلى من الكتاب حديث أكثر تفصيلاً عن هذه النقطة .

« ٣ » يقول علم مقارنة الأديان أن الدين قد « تطور » على مدى التاريخ ، والحقيقة أن عقائد الجاهلية هى التى تطورت أما عقيدة التوحيد فلم تتغير من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

« ٤ » يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ،

أما في حالة الهدى فيعبد الناس الله وحده بلا شريك ، ويتبعون أوامره ونواهيه ، أى : يحكمون بما أنزل الله .
ويختلف الأمر اختلافا بينا ما بين هذه العبادة وتلك ، أمر النفس وأمر الحياة سواء .

فأما النفس فما أبعد الفارق بين أن تعبد الوهم وأن تعبد الحقيقة !
« وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات » « ١ »

هل يستوى من يخطئ في الظلمات خبط عشواء يبحث عن شيء يظنه ظنا ولا وجود له في الحقيقة ، ومن يمشى على النور إلى وجهة يعلمها ويتوخاها ويسير قاصدا إليها ؟

« أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » « ٢ »

أيهما أضبط حركة وأيسر مسيرا ؟

أيهما أروح نفسا وأكثر طمأنينة ؟

ثم إن النفس البشرية في رحلتها على الأرض لتواجه أسئلة ترد - لا محالة - على الفطرة وتطلب الجواب .

من خالق هذا الكون ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

من يدير الكون وينشئ الأحداث ؟

لأى شيء نعيش ؟

أفمن يملك دليل الرحلة يده إلى معالم الطريق أهدى أم من يخطئ خبط عشواء بلا دليل ؟

أيهما أضبط حركة وأيها أكثر أمنا وطمأنينة ؟

ثم أيهما أضبط حركة وأكثر طمأنينة .. من له غاية موحدة يهدف إليها يحدوه حاد واحد إليها ، أم من له غايات متعددة متضاربة يحدوه إليها حداة مختلفون كل يدعو إلى طريق ؟

« ١ » سورة فاطر [١٩ - ٢٢]

« ٢ » سورة الملك [٢٢]

« ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا ؟ » [١] .

« أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » [٢]
ثم .. أيهما أكثر كرامة ؟!

من يعبد الله الحق ، ويتحرر - من ثم - من عبادة الأرباب الزائفة كلها ، ويستعلى عليها ، ويحس بوجوده الإيجابي تجاهها ، سواء كانت بشرا طاغين في الأرض بغير الحق ، أو كانت « قوى » مادية أو معنوية ، أو كانت « حتميات » زائفة كالحتمية المادية أو الحتمية الاقتصادية أو الحتمية التاريخية ، أو كانت أهواء وشهوات ذاتية .. أم من يعبد هذه الأرباب الزائفة المتفرقة ويخضع لسلطانها فتستعبده بذلك السلطان ؟!

ثم .. أيهما أكثر كرامة ؟!

من يعبد الإله الذى يكرمه ابتداء ويمنحه الوجود ويمنحه المكانة العالية .
« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » [٣] .

أم من يعبد الآلهة التى تستعبد أصحابها فتذلها وتسلبها الإرادة وتسلبها الوجود ؟

ذلك أمر « النفس » مع عقيدة التوحيد .

الاستبصار والأمن والكرامة وتوحد الهدف وتوحد الطريق .

وإن النفس التى تعبد الله الحق ، وتطمئن بذكره وعبادته ، وتعرف دليل رحلتها على الأرض ، من أين وإلى أين ، لتتوحد طاقتها وتترتب ذراتها كما تترتب ذرات الحديد فى قطعة المغناطيس ، فتصبح طاقة كونية هائلة بدلا من أن تصبح بددا ضائعا فى التيه .

أما الحياة البشرية - حياة المجموع البشرى - فميزانها كذلك هو التوحيد .
من الذى يرسم للبشرية منهج الحياة ؟ من الذى يقول هذا حلال وهذا حرام ؟ هذا مباح وهذا غير مباح ؟ هذا حسن وهذا قبيح ؟ هذا طيب وهذا خبيث ؟!

« ١ » سورة الزمر [٢٩]

« ٢ » سورة يوسف [٢٩]

« ٣ » سورة الاسراء [٧٠]

إنه - من جهة - حق الاله الحقيقي على عباده ، وليس حق الآلهة المدعاة ،
فبما أنه هو الخالق فهو - سبحانه - صاحب الأمر - « ألا له الخلق
والأمر » ١ »

ثم إنه - من جهة أخرى - حق العليم الخبير ، وليس حق الجهال المحدودى
الآفاق : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر
لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ٢ »
وفي عقيدة التوحيد تكون الحاكمية - أى حق التحليل والتحريم والإباحة
والمنع - لله وحده دون شريك .

وفي الجاهلية تكون الحاكمية للبشر ، مع الله ، بخلط شيء من التشريع الإلهي
مع شيء من التشريع البشرى ، أو من دون الله ، بنزذ التشريع الربانى جملة
واتخاذ شرائع كلها من صنع البشر ، سواء كان البشر فردا حاكما بأمره ، أو
فردا حاكما بمشورة طائفة غيره من البشر ، أو كانوا كل البشر على السواء ..
وكل ذلك إشراك مع الله وكفر بالله « ٣ » :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » « ٤ »

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » « ٥ »

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » « ٦ »

ويختلف الأمر اختلافا بينا ما بين عقيدة التوحيد ، التى تجعل الحاكمية لله ،
وعقائد الشرك والكفر التى تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله .

يختلف أولا من ناحية الكرامة البشرية ، ويختلف ثانيا من ناحية الواقع
البشرى . فأما من ناحية الكرامة البشرية ففى عقيدة التوحيد ، التى تجعل
الحاكمية لله ، يكون الناس عبيدا لله وحده - وهو الكريم المكرم - متحررين من
كل عبودية لغير الله ، مستعلين بوجودهم على الطواغيت . وفى عقائد الشرك

١ « سورة الاعراف [٥٤]

٢ « سورة البقرة [٢١٦]

٣ « فى ظل الاسلام يجتهد البشر » المؤمنون ، فيما لانص فيه . ولكن هذا ليس تشريعا من عند انفسهم ، فهم
إنما يجتهدون فيما أذن الله لهم أن يجتهدوا فيه ، ولولا إذن الله لهم ما كان لهم أن يجتهدوا ولا يضعوا
الأحكام ، فهم - بهذا الإذن - يضعون الأحكام ولكنهم لا يشاركون فى الحاكمية التى هى حق التحليل والتحريم
والإباحة والمنع ، فضلا عن ذلك فإن الاجتهاد محكوم بالاصول العامة للشريعة لا يخرج عن إطارها

« ٤ » سورة الشورى [٢١]

« ٥ » سورة الاعراف [٣]

« ٦ » سورة المائدة [٤٤]

والكفر ، التى تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله . يكون بعض البشر أربابا وهم المالكون المسيطرون المشرعون ، وبعضهم عبيدا لأولئك الأرباب . وهم الذين يقع عليهم سلطان الطواغيت .

وأما من ناحية الواقع البشرى فالعدل والرشد هو طابع الحياة فى ظل عقيدة التوحيد التى تجعل الحاكمية لله ، والظلم والتخبط هو طابع الحياة فى ظل عقائد الشرك والكفر التى تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله . فأما الظلم فينشأ - دائما - فى الجاهلية من كون الذين يشرعون - سواء كانوا فردا أو طبقة « ١ » يشرعون لمصلحتهم الخاصة على حساب مصالح الآخرين .

وأما التخبط فينشأ من عجز البشر عن الإحاطة بالأمر من كل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والمادية والروحية .. الخ . وعجزهم عن رؤية النتائج المستقبلية المنزبة على أعمالهم الحاضرة فهما قدروا وتخللوا فإن الواقع العملى يأتى دائما مخالفا لما قدروه وتخللوه فى بعض جوانبه أو فى كل جوانبه ، وتنبت دائما مشاكل جديدة من الحلول المبتسرة التى يواجهون بها مشاكلهم ، لم تكن فى حسابان الذين وضعوا هذه الحلول . وهكذا تظل الحلقة المفرغة : مشكلات قائمة ، وحلول مبتسرة تنبت منها مشكلات جديدة توضع لها حلول مبتسرة جديدة ! وهذا إذا أحسننا الظن بواضعى الحلول وافترضنا أنهم مخلصون فى وضع ما يضعون من حلول وانهم لا يخطئون لإيقاع البشرية فى الخبال لغايات شريرة « ٢ »

بينما تقوم شريعة الله على العدل ، لأن الله - سبحانه - ليست له مصلحة ذاتية يطلبها من وراء تلك الشريعة ، وهو الغنى الحميد ، مالك الملك كله الذى لا تنفذ خزائنه . إنما يريد الله الخير لعباده والبر بهم والزكاة والطهر والنظافة والارتفاع .

« والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » « ٣ »

كما أن شريعة الله تتسم بالرشد ، لأن منزلها - سبحانه - هو اللطيف

« ١ » لا يوجد فى الواقع فرد واحد يحكم بمفرده ، إنما يكون الحاكم دائما طبقة يمثلها فرد أو أفراد

« ٢ » سيأتى فيما بعد حديث عن دور اليهود فى افساد أوروبا

« ٣ » سورة النساء [٢٧]

الخبير ، الذى يعلم حقيقة النفس البشرية التى خلقها « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » « ١ » ويعلم ما يصلحها وما يصلح لها ، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة الذى لا يند عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، والذى يحيط علمه بالماضى والحاضر والمستقبل فى كل لحظة من لحظات هذا الوجود كله ، فينزل التشريعات التى يعلم - سبحانه - أنه يتحقق منها الخير ولا يقع منها الشر ، والتى تكون فى كل لحظة مناسبة لما نزلت من أجله

والتوحيد يشمل ذلك كله .. يشمل العقيدة التى تستقيم بها النفس ، والشريعة التى تستقيم بها الحياة .

إذ التوحيد - الذى يقوم عليه الدين المنزل من عند الله - هو توحيد الله فى ذاته وتوحيده فى صفاته وأفعاله . ومن صفاته التى ينفرد بها - سبحانه - أنه صاحب الخلق وصاحب الأمر كما مر بنا فى آية الأعراف :

« ألا له الخلق والأمر » « ٢ »

وأن الحكم - أى الحاكمة - له وحده فى كل شئ .

« إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ولكن أكثر

الناس لا يعلمون » « ٣ »

أما الشرك - المقابل للتوحيد - فهو يقع إما فى العبادة - بمعنى التوجه لغير الله بالشعائر التعبدية مع الله أو من دون الله - وإما فى الاتباع - بمعنى التحريم والتحليل والمنع والإباحة من دون الله وبغير إذن من الله - أوفيهما جميعا كما فى آية النحل :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آبائنا

ولا حرمنا من دونه من شئ » « ٤ » .

والتوحيد هو الذى يصلح الأرض ، والشرك هو الذى يحدث الفساد الذى

ينهى الله عباده عنه :

« ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا . إن رحمة الله

قريب من المحسنين » « ٥ »

« ١ » سورة الملك [١٤]

« ٢ » سورة الأعراف [٥٤]

« ٣ » سورة يوسف [٤٠]

« ٤ » سورة النحل [٣٥]

« ٥ » سورة الأعراف [٥٦]

إذا علمنا ذلك كله ، وهو من بديهيات الدين المنزل من عند الله ، استطعنا أن ندرك مدى التحريف البشع الذى أحدثته الكنيسة فى دين الله المنزل على عيسى ابن مريم ، سواء فى تشويه العقيدة بقضية التثليث وتأليه عيسى عليه السلام ، أو بفصل العقيدة فى ذلك الدين عن الشريعة ، وتقديمه للناس عقيدة منفصلة خلوا من التشريع إلا القليل ، واستطعنا أن ندرك مدى الشرك - فى العقيدة والاتباع معا - الذى أدخلته الكنيسة على دين التوحيد الذى يلتقى فيه الرسل جميعا من أولهم إلى خاتمهم عليه الصلاة والسلام .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » « ١ »
ذلك الشرك الذى أشار القرآن إلى أحد طرفيه فى هاتين الآيتين :
« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » « ٢ »
« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » « ٣ »
وأشار إلى طرفيه معا فى هاتين الآيتين :

« وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنى يؤفكون
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله الا هو سبحانه عما يشركون » « ٤ »
وأخيرا نستطيع أن ندرك أن ذلك الدين - بصورته المشوهة تلك - لم يكن صالحا للحياة .

ومع ذلك فإن الكنيسة ورجالها لم يكتفوا بهذه الخطيئة الكبرى فى حق الدين السماوى ، إنما أضافت إليها خطايا أخرى ومنكرات !

« ١ » سورة الشورى [١٢]

« ٢ » سورة المائدة [٧٢]

« ٣ » سورة المائدة [٧٣]

« ٤ » سورة التوبة [٣٠ - ٣١]

ثانيا : طغيان الكنيسة ورجال الدين :

حولت الكنيسة دين الله المنزل إلى روحانيات صرفة أو روحانيات غالبية بقصره على شعائر التعبد ومشاعر التبتل والخشوع والتقوى ، وإبعاد الجانب الذى يحكم الحياة العملية - أى الشريعة - إلا قليلا منه ، وترك هذا الجانب لقيصره، يتصرف فيه بمقتضى القانون الرومانى غير متقيد بما أنزل الله .

وكان المظنون أن تكون مهمتها تعميق الجانب الروحى - الذى قصرت الدين عليه - وأن تكون وسيلتها إلى ذلك هى التربية الروحية التى تربط القلوب بالله ، لتحبه وتخشاه .

ولكن الكنيسة لم تكثف بهذا الجانب - المنطقى مع تصورها وتصويرها للدين - بل مارست سلطانا « دنيويا » هائلا يتنافى مع هذا التصور ، ولا يفسره شئ فى حقيقة الواقع إلا رغبة الطغيان !

بل إنها - حتى فى الجانب الروحى البحت - قد مارست طغيانها الهائل، فأبت أن تتصل قلوب المؤمنين بربهم مباشرة بلا وسيط ، وأصررت أن تكون هى وحدها - ولا سواها - الواسطة التى تتصل القلوب عن طريقها بالله ! ويجدر بنا أن نفصل هذا الطغيان إلى أبوابه المختلفة التى مارستها الكنيسة على العقول والأرواح والأبدان ، مستغلة سلطانها على القلوب ، الذى يصاحب الجانب الروحى عادة فى حياة الناس .

ونحتاج فى هذا الشأن أن نتحدث أولا عن « رجال الدين » ثم نتحدث بعد ذلك عن طغيان رجال الدين ، الذى اتخذ مظاهر متعددة أهمها :

الطغيان الروحى .

الطغيان العقلى والفكرى .

الطغيان المالى .

الطغيان السياسى .

الطغيان العلمى .

(١) رجال الدين :

لكل دين - سماوى أو غير سماوى - رجال يقومون بتلقين الدين للناس ، وتعليمهم إياه ، ويكونون - فى نظر الناس على الأقل - الصق بأمور الدين

وأعرف بها من سواد الناس الذين يكتفون - عادة - بممارسة ما يتلقونه من أولئك المعلمين دون تعمق فيه ، وإذا كان هذا شأن كل دين - سماوى أو غير سماوى - فإن الدين المنزل من عند الله يفترق في هذا الشأن عن الأديان المصنوعة على يد البشر في خصلتين اثنتين على أقل تقدير .

الأولى : أن يكون الذين يعلمون الدين للناس أقرب في سلوكهم إلى حقيقة هذا الدين ومقتضياته أى أكثر وعيا وأكثر إخلاصا وأقرب الى الله ، كما كان المهاجرون والأنصار بالنسبة للجيل الأول من المسلمين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

والثانية : أن يكونوا متفهمين في أمر الدين ليجيبوا الناس على أسئلتهم التي تخطر لهم بشأنه ، سواء في الجانب التعبدى المتصل بالعقيدة والشعائر ، أو الجانب العملى المتصل بالشريعة .

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » « ١ »

وأمر طبيعى أن يكون مثل هؤلاء الرجال موضع التقدير والاحترام من بقية الناس ، ولكنهم - بحكم طبيعة الدين المنزل من عند الله - لا يكونون موضع التقديس . أولا : لأنهم يعلمون الدين الحق ، والدين الحق يجعل التقديس لله وحده وليس لأحد من البشر ، وثانيا : لأنهم يعلمون الدين بجانبيه : ما يتعلق منه بالعقيدة والشعائر وما يتعلق بتنظيم أمور الحياة الدنيا بمقتضى الشرع الربانى، فيخاطبون في الناس جانبهم الروحى وجانبهم العقلى والعملى التطبيقى ، فيظل ارتباط الناس بهم ارتباطا واعيا لا سحرفيه ولا غموض ولا أسرار . ومن ثم لا يصبحون - في حس الناس - وسطاء بينهم وبين الله ، وإنما وسطاء بينهم وبين المعرفة الصحيحة بأمور الدين . وفرق بين الوساطين كبير ! ومن ثم فلا يوجد في الدين المنزل من يطلق عليهم « رجال الدين » إنما يوجد رجال صالحون من جهة ، وعلماء وفقهاء في الدين من جهة أخرى . وليس لهؤلاء ولا هؤلاء على الناس سلطان إلا سلطان المحبة والتقدير ، ومكان القدوة الصالحة في النفوس .

وحقيقة أن موسى عليه السلام - بوحي من ربه - قد ناط بكل سبط من أسباط

بنى إسرائيل الاثنى عشر أعمالا معينة يتوارثونها بينهم ، ومن بينها إقامة الشعائر والنسك مما أوجد فيهم كهانة وكهانا .. ولكن هذا كان أمرا تنظيميا فيما بين الأسباط لربط بنى إسرائيل بعضهم ببعض حتى لا يتفرقوا ولا يختلفوا فيما بينهم ، ولم تكن كهانة للدين ذاته ، آى وساطة بين بنى إسرائيل وبين الله .

أما الأديان الموضوعة فلها شأن آخر ..

إنها أولا أديان موضوعة لا تعرف الله الحق ولا تعرف الناس به . ومن ثم فإن مفهومها الدينى ليس هو المفهوم الصحيح ، والقداسة فيها ليست وفقا على الله وحده كما ينبغى فى الدين الحق .

وهى ثانيا تتكىء على الجانب الروحى : جانب العقيدة والشعائر والنسك ، أكثر بكثير من الجانب العقلى والعمل . التطبيقى - إن اهتمت بهذا الأمر على الإطلاق - ومن ثم يصبح ارتباط الناس بهم ارتباطا روحيا ووجدانيا خاليا تقريبا من الوعى ، أو - عند البسطاء من الجماهير - خاليا من الوعى على الإطلاق .

ومن هنا يصبح فى هذه الأديان كهان أو رجال دين يمارسون سلطانا روحيا هائلا على الجماهير ، وتحيط بهم هالة من الغموض والأسرار .. ويصبحون هم الوسطاء بين الناس وإلههم الذى يعبدون !

وقد كان هذا هو شأن المسيحية المحرفة التى وضعتها الكنيسة الأوروبية . إنها دين وضعى وإن تمسح بالمسيح عيسى ابن مريم وبالوحي الربانى ، وزعم أنه من عند الله .

ومن ثم كانت له كهانة ، وكان له رجال دين .. وكان هؤلاء الكهان - والبابا على رأسهم - وسطاء بين الناس وبين الله !

لقد حاولت الكنيسة أن تسند وجودها وسلطانها إلى المسيح عليه السلام ، إما بتأويل كلمات قالها بالفعل تأويلا يناسب أهدافها ، وإما باختراع كلمات لم يقلها وإصاقها به ، كما فعلت فى قضية البنوة والتأليه ، وإعطاء قانون قيصر شرعية كشرعية الله .

تزعم الكنيسة أن المسيح قال لبطرس كبير الحواريين : أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة ابنى كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل

ما تحله على الأرض يكون محلولا في السموات» ١ « وأنه قال : « إني أهب سلطانى لكنيستى »

ورثت الكنيسة على هذا الزعم أن المكان الذى مات فيه بطرس - وهوروما - لابد أن يكون مقرا للنفوذ الدينى الذى يبسط ذراعيه على الأرض كلها ممثلا في الكنيسة ، وأن ما تقوله الكنيسة - وعلى رأسها البابا - واجب الطاعة لأنه من أمر الله .

ولكن القضية كلها قائمة على أساسين واهيين هامين :
قائمة على أساس أن المسيح عليه السلام ذو طبيعتين إحداهما لاهوتية والأخرى ناسوتية ، ومن ثم فهو إله وبشر في ذات الوقت ، وهو على هذه الهيئة وسيط بين البشر وذوى الطبيعة الناسوتية الخالصة والاله ذى الطبيعة اللاهوتية الخالصة !! فهو ليس رسولا يبلغ وحى الله للناس - كما هو في الحقيقة - إنما هو حلقة وسيطة تمر بها مشاعر الناس وأعمالهم لكي تصل إلى الله ، كما تمر من خلاله كلمة الله إلى الناس !

وقائمة - من بعد - على أساس أن الكنيسة هي وريثة المسيح ، ومن ثم فإن لها ذات الوضع وذات السلطان الذى كان للمسيح ، فهي مقدسة، و« قداسة » البابا - ومن يكل الأمر إليهم من الكرادلة وغيرهم - هم الوسطاء الذين تمر بهم مشاعر الناس وأعمالهم لكي تصل إلى الله ، كما تمر من خلالهم كلمة الله إلى الناس !!

وكلا الأمرين لا يقوم على أساس في دين الله ..

فالرسل في دين الله هم رسل فحسب .

« قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » . « ٢ »

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » « ٣ »

« قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك .

إن أتبع إلا ما يوحى إلى » . « ٤ »

« قل : لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب

١ « انجيل متى ، الاصحاح السادس عشر » ١٩ - ٢٠ «

٢ « سورة الاسراء [٩٣]

٣ « سورة آل عمران [١٤٤]

٤ « سورة الانعام [٥٠]

لاستكثر من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤقنون^١»

وعيسى ابن مريم عبدالله ورسوله :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا : ثلاثة ! انتهوا خيرا لكم . إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد . له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلًا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته فسحقه الله جميعًا . فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهما أجورهم ويزيدهم من فضله . وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » ٢

إنما وقع الخط عندهم من أنهم قالوا : « في البدء كان الكلمة . والكلمة كان الله .. فجعلوا كلمة الله هي الله ! وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون آدم كذلك هو الله - نستغفر الله - لأنه كلمة الله : « قال له كن ، فيكون » ٣ « ولأن الله نفخ فيه من روحه : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ٤ .

أما القولة التي نسبوها إلى المسيح وأولوها على هواهم فهي لا تعنى أن تكون هناك كنيسة بالمعنى الذي صار إليه الأمر في الكنيسة الأوروبية ولا رجال دين لهم وجود متميز وسلطان على المؤمنين بذلك الدين . إنما هي على فرض صحتها لا تعنى أكثر من قول الله عن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم . « والله العزة وإرسوله وللمؤمنين » ٥ « فهي عزة يمنحها الله للمؤمنين بدينه ، يعتزون بها في الأرض على الكفار والمنافقين ، وليست سلطانا ذاتيا يمارسونه على المؤمنين ، ولكن على هذا الفهم الخاطيء والتأويل المعوج سارت الأمور في المسيحية المحرفة فصار لها كنيسة ورجال دين » ٦ « يرأسهم « قداسة » البابا ويرسمهم

١ « سورة الاعراف [١٨٨]

٢ « سورة النساء [١٧١ - ١٧٢]

٣ « سورة آل عمران [٥٩]

٤ « سورة ص [٧٢]

٥ « سورة المنافقون [٨]

٦ « مربنا قول المؤرخ الانجليزي ويلز « فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الانسانية اما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة . ديانة الكاهن والمذبح »

ذلك البابا أى يضعهم فى مناصبهم ، وصار لهم على الناس ذلك السلطان المعروف فى التاريخ الأوروبى الذى لم يكن سلطانا عاديا ، وإنما وصل إلى حد الطغيان المتعدد الألوان .

(٢) طغيان رجال الدين :

(١) الطغيان الروحى :

أشرنا من قبل إلى أن الطغيان الروحى هو من طبيعة الأديان الموضوعة التى تركز على الجانب الروحى . كذلك كان الأمر مع سحرة فرعون . وهم كهنته فى ذات الوقت .. الذين يروى القرآن عنهم .

« فلما ألقوا سحرروا أعين الناس واسترهبوهم » ١

وكذلك كان الأمر مع كهنة الديانات الوضعية القديمة كلها . فالكاهن محوط بالأسرار والغموض ، على أساس أن له صلة خفية بالاله المعبود ، ومن ثم ففيه عنصر إضافى غير بقية البشر العاديين يتيح له ذلك السلطان المرهوب على القلوب ، لأنه يملك - فى حسهم - أن يستنزل رضا الرب وغضبه على السواء ... وبعد قليل يصبح غضبه - فى حسهم - كأنما هو غضب الرب ، وكذلك رضاه ! وإذا كان الأمر لم يصل فى المسيحية المحرفة إلى صورة السحر المادى لأن لها أصلا سماويا على أى حال ، فقد كان دور رجال الدين فيها قريبا من دور الكهنة فى الديانات الوثنية الخالصة « ٢ » وكان لهم سلطان روحى طاغ على الناس بوصفهم الوسطاء بينهم وبين الله . فالطفل لا يعد مسيحيا حتى يعمد . والتعميد لا يتم إلا على يد الكاهن . ومن ثم تبدأ حياة المسيحي بتلك الوساطة الكهنوتية التى تدخله - ابتداء - فى الدين . ثم يظل حياته كلها مرتبطا بالكاهن . هو الذى يزوجه ، وهو الذى يصلى به صلاة الأحد فى الكنيسة ، وهو الذى يتقبل اعترافه بخطاياهم ويتقبل توبته (وإلا فلا توبة ومن ثم لا غفران !) ثم هو الذى يصلى عليه فى النهاية حين يموت . فهو من مولده إلى مماته مرتبط بالكاهن ذلك الرباط الذى يمثل فى حسه الكوة المفتوحة على عالم الغيب ، والصلة التى تصل قلبه

١ . « سورة الاعراف [١١٦]

« ٢ » من هنا قال من قال من كتابهم « وعلمائهم » الجاهليين إن تاريخ البشرية قد مر فى ثلاث مراحل - مرحلة السحر ومرحلة الدين ومرحلة العلم التى يتخلص الناس فيها من الدين ! وهم يتكلمون عن جاهليتهم هناك

بأنه ! ولا يستطيع مهما كانت حرارة وجدانه أن يعقد صلة مباشرة بالله بعيدة عن سلطان الكاهن أو غير معرضة لتدخله في أى وقت من الأوقات !
فإذا كان هذا سلطان الشمس الصغير في القرية (الأبرشية) فما بالك بالأسقف وما بالك بالكردينال ؟!
ثم ما بالك برئيس هؤلاء جميعا الذى يجلس على عرش البابوية هناك في مقر السلطان ؟!

أو تعجب إذن إذا قيل لك إنه « قداسة » - البابا - وإنه المتحدث باسم الرب الاله في الأرض .. وإنه مقدس الذات ومقدس الكلمات ؟!
ثم هل تعجب - من جهة أخرى - إذا رأيت رجال الدين قد طغوا في الأرض بغير الحق ، وقد أوتوا على القلوب ذلك السلطان ؟!
إن السلطان بطبيعته يُطغى : « كلا ! إن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » « ١ » ولا يحد من هذا الطغيان إلا تقوى الله وصدق الايمان به : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . والله عاقبة الأمور » « ٢ »

فإذا فرغت القلوب من التقوى .. فما الذى يمنع الطغيان ؟
ولقد كانت قلوب أكثرهم خالية من التقوى كما يشهد كتابهم ومؤرخوهم .
عباد دنيا .. عباد مال ونساء وشهوات .. لذلك كان الدين بالنسبة إليهم حرفة يحترفونها ، وسبيلا يلجونه ليوصلهم إلى المناصب ذات المكانة الرفيعة في المجتمع وذات السلطان .

ولذلك كان طغيانهم من أبشع ألوان الطغيان في التاريخ .. وكان حقا على أوروبا - حين تنورت - أن تخلع هذا السلطان الطاغى وتنسلخ منه ، إحساسا بالكرامة وفرارا من الذل والهوان .. وإن كانت قد تحركت - في هذا الأمر وفي غيره - حركات هوجاء بعيدة عن المنطق والرشد ، أخرجتها من ضلال إلى ضلال .

يصف تشارلس ديكنز في قصة المدينتين التى يتحدث فيها - بطريقة روائية - عن مقدمات الثورة الفرنسية والأحوال التى هيات لقيامها ، مشهدا من مشاهد

١ . سورة العلق [٦ - ٧]
٢ . سورة الحج [٤١]

ذلك الازلال الروحى الذى كان يمارسه رجال الدين على الناس ، أو الذل
الروحى الذى كان يمارسه الناس لرجال الدين - وكلاهما سواء فى دلالتيه -
فيصف شارعاً من شوارع باريس وهى يومئذ غيرها اليوم .. والمطرينهم
بقوة ، والشارع مملوء بالطين والأقذار والوحل ، وموكب الكاردينال على حصانه
يمر فى الطريق ، والناس محتشدة على الصفيين ترقب ذلك المشهد بقلوب خائفة
واجفة ، وتنتظر اللحظة الهائلة التى يحاذى الموكب فيها رؤوسهم ، فتتهوى هذه
الرؤوس خشوعاً - أو مذلة !! - للموكب الموقر ، وتظل تهوى حتى تلتصق
بالأرض .. فى الوحل والطين والقاذورات !
بأبى أنت وأمى يارسول الله !

« لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم » ١
« إنما أنا ابن امرأة من مكة كانت تأكل القديد » ٢ .
ولم يكن ذلك هو الباب الوحيد للطغيان الروحى الذى مارسته الكنيسة
ورجال الدين .. ففى صلب العقيدة المسيحية كانت هناك أبواب للطغيان ..
فهناك « الأسرار » التى لا يعلم تأويلها إلا الراسخون .. لا فى العلم ولكن فى
الكهنوت !

أسرار التثليث .. والعشاء الربانى الذى يتحول فيه جسد المسيح إلى خبز
ودماؤه إلى خمر ! وما إلى ذلك من معتقدات وطقوس .
ولئن كانت هذه القضية داخلية فى الطغيان العقلى والفكرى - من حيث حظر
التفكير فيها ومناقشتها ، ووجوب التسليم الأعمى بها ، وسنتكلم عنه بهذه
الصفة هناك - فإننا نتحدث هنا عن جانبها الروحى . ذلك أنها عندهم من صلب
العقيدة .. والمفروض فى العقيدة أن تكون خالصة بين القلب البشرى وبين الله لا
يعترضها فى الطريق معترض ، لأنها هى الصلة المباشرة التى تربط قلب المؤمن
بالله .. إنما ينزل الله كلماته على رسوله لتبين للناس حقيقة الألوهية .. ثم ينعقد
الايمان فى داخل القلب البشرى فيتجه مباشرة إلى الله .
وبصرف النظر عما فى تلك « العقيدة » من زيف ما أنزل الله به من سلطان ،
فإنها - عندهم - هى العقيدة ! بل هى العقيدة الصحيحة التى لا يقبل من أحد

« ١ - رواد البخارى

« ٢ - رواد ابن ماجه

سواها ! وليس المفروض في العقيدة الصحيحة أن تحتوى على أسرار مغلقة لا يعرف حقيقتها إلا فئة معينة من الناس محدودة العدد محدودة الذات ! إنما كان يحدث هذا في الديانات الوثنية السالفة ، حيث الأوهام بديل من الحق ، وحيث الأسرار تحيط بالأوهام ، ليظل الناس خاضعين لها لا يفيقون من سحرها ، ولا يتمردون على كهنتها الذين في أيديهم - وحدهم - وصل القلوب بالأسرار ، بطريقة خفية لا تدركها الأفهام ولا الأبصار !

وإذ كانت مسيحية الكنيسة في حقيقتها ديناً من صنع الكنيسة ، أو من صنع بولس الذى قدمها لأوروبا فقد احتوت شيئاً من طبيعة تلك الديانات الوثنية التى وضعها البشر من قبل ، فتضمنت تلك الأسرار التى لا يملك مفتاحها إلا أصحاب القداسة العليا .. أو هكذا يقولون للناس ! فما يملك مفتاحها أحد في الحقيقة لأنها وهم لا وجود له على الإطلاق !

ومارست الكنيسة طغيانها الروحى كاملاً في هذا الجانب ، فقالت للناس : لن تؤمنوا بالله حتى تؤمنوا بتلك الأسرار .. ثم قالت لهم إن مفتاح تلك الأسرار عندنا نحن ولن نعطيه إلا لمن نختار !!

(ب) الطغيان العقلى والفكرى :

إذا عدنا لتلك الأسرار ذاتها ، وموقف الكنيسة منها ، وجدنا هذا الموقف ينطوى على لون اخر من الطغيان غير الطغيان الروحى .. مارسته الكنيسة لا على أرواح الناس هذه المرة ولكن على عقولهم وأفكارهم ، حين فرضت عليهم هذه الأسرار فرضاً ومنعتهم من مناقشتها ، واعتبرت المناقشة فيها أو الشاك في أمرها كافراً مهرطقاً وجبت عليه اللعنة الأبدية .. وخرج من رضوان البابوية فخرج - من ثم - من رضوان الله !

ولقد كانت تلك الأسرار كلها منافية للمنطق ومنافية للعقل . ولا شك أن واضعيها كانوا يعلمون ذلك أو يحسونه على أقل تقدير ، ويحسون أنها لو نوقشت - بالعقل والمنطق - فلن تصمد للنقاش ! وإذا كانوا يصرون عليها ، وعلى أنها هى الحقيقة - تضليلاً بوعى أو ضلالاً منهم بغير وعى - فلم يكن أمامهم إلا أن يستخدموا سلطانهم الطاغى لمنع المناقشة في هذه الأمور لئلا تنكشف عن وهم لا وجود له إلا في أذهان واضعيه أو لا وجود له حتى في أذهان واضعيه !

ويذكرني هذا بحق الاعتراض « الفيتو » الذى تمارسه الدول « الكبرى » فى الجاهلية المعاصرة ! فما إن تشعر إحدى تلك الدول أن نقاشا ما سيخرجها أو يكشف زيف موقفها وبعده عن الحق ، حتى تبادر بإسكات الألسنة باستخدام « الفيتو » فيسكت المناقشون صاغرين !

ولئن كان هذا طغيانا تمارسه القوى الطغيانية التى تسمى نفسها الدول العظمى فى الجاهلية المعاصرة فقد كان طغيان الكنيسة فى جاهلية القرون الوسطى - المظلمة فى أوروبا « ١ » - أنكى وأشد ، فقد كانت تمارسه فى أمر يمس العقيدة وهى ضرورة بشرية لا غنى عنها للبشر ، الذين خلقوا - بفطرتهم - عابدين ، والذين تظل فطرتهم - بما أودع الله فيها - تبحث عن الله لنتجه إليه بالعبادة وتقديسه فى علاه .

وحين كان أى عقل مفكر يتجرأ فيسأل - مجرد سؤال - عن ماهية هذه الأسرار ، ولو كان سؤاله من أجل الإيمان بها أو الاطمئنان الذى يزيده الإيمان ، كانت الكنيسة تسارع إلى زجره عن هذا الإثم الذى يهيم به،والذى يوقعه لاشك فى المهالك ! وتقول له إن هذا أمر خارج عن نطاق العقل . إنما يسلم المؤمن به تسليما بغير نقاش !

وهنا وقفة ربما كانت ضرورية فى هذا الشأن .

فقد يخطر على البال قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب » « ٢ » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله « ٣ » وقد تعرض هذه القضية من أساسها : هل الدين من شأن العقل أم من شأن الوجدان ؟ وما دور العقل فيه إن كان له دور على الإطلاق ؟ وهل عليه - من أجل الإيمان - أن يسلم تسليما أعمى بكل ما يأتى عن طريق « الدين » أم له أن يناقش ويطلب الدليل ؟

« ١ » كانت القرون الوسطى مظلمة بالنسبة لأوروبا فهم صادقون فى تسميتها كذلك بالنسبة إليهم ولكن كتابا « مسلمين ! » يستخدمونها على أنها صفة شاملة للعالم كله فى تلك القرون وقد حوت تلك الفترة أشد القرون نورا .. تلك التى استضاءت بالإسلام ! « ٢ » سورة آل عمران [٧] « ٣ » عن ابن عباس رضى الله عنهما رواه أبو نعيم « انظر صحيح الجامع الصغير ، ، الشيخ ناصر الدين الألبانى ٤٩/٣

ونبدأ أولاً بالنص القرآني فنجد فيه إشارة إلى المحكم والمتشابه . ويجمع المفسرون والعلماء على أن أصول العقيدة - وكذلك أحكام الشريعة - هي من المحكم الذي لا يدخل التشابه فيه . وأن الأمور المتشابهة - التي لم تحدها الآية ، والتي اختلف المفسرون في تحديدها ، والتي منها على سبيل المثال الصورة المفصلة لأحوال الجنة وأحوال النار ، وصفة العرش وما إلى ذلك من الأمور - ليست من الأصول التي يكفر المختلفون في تأويلها ، ثم إن الراسخين في العلم - وهم ليسوا فئة محددة كفئة رجال الكهنوت - لا يزعمون أن عندهم تأويلها ، ولا أن تأويلها سر خاص بهم يحتجزون به عن الناس ثم يطالبونهم بالآيمان به بلا دليل . بل تنص الآية على أن الله وحده هو الذي يعلم تأويلها - أى حقيقتها - لأنه - سبحانه - هو العليم الخبير الذي يعلم كل شيء على إطلاقه ، إنما الراسخون في العلم يسلمون فقط بأن الآيات كلها - محكمها ومتشابهها - من عند الله ، ويعلمون أن علم هذه المتشابهات هو عند الله وحده فيؤمنون بها على إطلاقها لأنها منزلة من عند الله ، ولكنهم لا يزعمون لأنفسهم خصوصية في التأويل ، ولا يحتجزون لأنفسهم شيئاً من العلم يحجبونه عن الناس .

وهذا أمر يختلف تمام الاختلاف عن موقف الكنيسة الأوروبية في قضايا العقيدة . فقد جعلت تلك الأسرار من أصول العقيدة ، ثم زعمت أن عندها وحدها مفاتيحها .. ثم قالت للناس : لن نعطيكم المفتاح ! ولكن عليكم أن تؤمنوا بها كما نقدمها لكم دون سؤال ولا نقاش ! وإلا فأنتم زائغو العقيدة مهرطقون .. وعليكم اللعنة إلى يوم الدين !

إن الكنيسة هنا وضعت نفسها في موضع الإله ، بل افترضت لنفسها على الناس ما لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يفترضه لنفسه على عباده رحمة بالناس ! فالله - وحده - هو الذي يحق له أن يتعبد عباده بأمور ليس من الضروري أن يدركوا حكماتها ، ليعلم - سبحانه - من يطيعه بالغيب . ولكنه - من رحمته - قد جعل ذلك في أمور التعبد وليس في أمور العقيدة التي جعلها الله سهلة وميسرة ومفتوحة بلا ألغاز ولا غموض ، ليستوعبها كل قلب ويطمئن إليها كل قلب . أما الكنيسة فجعلت ذلك في أمور العقيدة ، وجعلت لنفسها حقوقاً أكثر مما افترض الله على العباد !

ثم نخرج على الحديث الشريف فنجد أن فيه نصيحة للبشر أن يتعرفوا على الله سبحانه من خلال آياته الدالة على وحدانيته ، والدالة على تفردّه في كل شيء بلا شريك . وألا يحاولوا أن يتفكروا في ذات الله لكيلا يضلوا ولا يهلكوا . هل هو حجر على العقل البشرى أن يبحث وأن يناقش وأن يعرف ؟

كلا ! فالدعوة إلى التفكير واردة في أول الحديث . « تفكروا في آيات الله » إنما هو بيان للمنهج الصحيح للتفكير ، ودعوة إلى صيانة العقل البشرى أن تتبدد طاقته فيما لا طائل وراءه !

فماذا يملك العقل البشرى أن يحيط به من ذات الله التي لا يحدها زمان ولا مكان ولا بدء ولا انتهاء ؟

وإلى أي شيء وصل العقل البشرى في أمر الذات الالهية حين خالف النصيحة ومضى يخطئ في الظلمات ؟ إلى أي شيء وصلت الفلسفة في القديم أو الحديث ، وإلى أي شيء وصل علم الكلام بعد المعاملات الذهنية التي لا تؤدي إلى شيء إلا إجهاد الذهن بلا نتيجة ؟!

إن العقل ليعجز عن إدراك « الكنه » حتى في أمور الكون المادي ، فيكتفى بتسجيل الظواهر دون الدخول في الكنه ، فكيف بالخالق الذي لا تحده الحدود ؟ كلا ! إنها الصيانة وليست الحجر .. ومن خالف النصيحة فليضرب في التيه !

أما العقيدة فمن ذا الذي خرج على العقل أن يدلى فيها بدلوه ويكون فيها له نصيب ؟

فأما الاسلام فقد دعا العقل دعوة صريحة إلى التفكير والتدبر ليصل في أمر العقيدة إلى اليقين .. بل نعى على الذين يرفضون التفكير ، اتباعا للهوى ، أو اتباعا لما ورثوه من عقائد الآباء والأجداد ، أو إغلاقا للحس والبصيرة ، عن التأمل والتفكير :

« بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » « ١ »
« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ! أولو

كان أبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟! « ١ »
وجاء في وصف عباد الرحمن نفى للصفة الذميمة عنهم وهي إغلاق الحس
والبصيرة عن التفكير :

« والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً » « ٢ »
أى لم يوصدوا عقولهم عن التفكير الذى يؤدى إلى معرفة الحق .
كذلك يوصف المؤمنون بأنهم « أولو الألباب » وأنهم هم الذين يتفكرون في
خلق السماوات والأرض فيهديهم التفكير إلى الايمان بالله واليوم الآخر وخلق
السماوات والأرض بالحق لا بالباطل :

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ،
الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات
والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النار » « ٣ »
كما ينعى على الذين لا يتدبرون القرآن ولا يتفكرون فيما يحويه من الآيات :
« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً » « ٤ »

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ » « ٥ »
والأدلة العقلية والجدل العقلي كثير في القرآن :
« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » « ٦ »
« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا
بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون » « ٧ »

« أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ ! » « ٨ »
ويشهد التاريخ أن « العقل » في ظل الاسلام قد قام بنشاط فكري ضخم في
كل اتجاه ، ولكننا نعود فنسأل ، لنحدد بالضبط جريمة الكنيسة الأوروبية في

« ١ » . سورة البقرة [١٧٠]

« ٢ » . سورة الفرقان [٧٢]

« ٣ » . سورة ال عمران [١٩٠ - ١٩١]

« ٤ » . سورة النساء [٨٢]

« ٥ » . سورة محمد [٢٤]

« ٦ » . سورة الانبياء [٢٢]

« ٧ » . سورة المؤمنون [٩١]

« ٨ » . سورة الطور [٣٥]

الحجر على الفكر البشرى : ما دور الوجدان وما دور العقل في قضية الايمان ؟
وهل هناك أمور يختص بها الوجدان وليس للعقل فيها إلا التسليم ؟
إن الدين - كما نعرف صورته في الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - يخاطب الانسان كله : وجدانه وعقله في آن . وقد يكون الوجدان أوسع الأوعية البشرية التي تستوعب أمر العقيدة وقضية الإيمان . ولذلك فإن الخطاب الوجداني هو الغالب في السور المكية التي يتركز الحديث فيها على العقيدة . والقرآن يستثير الوجدان البشرى بالطرق على جميع نوافذ القلب والتوقيع على جميع أوتاره ، ثم - بعد استثارته - يلقي إليه الحقيقة المتعلقة بالعقيدة ، فينفع بها القلب ، وتصل منه إلى القرار .. ويكفينا مثال واحد من سورة الأنعام :

« إن الله فالحق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالحق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » « ٢ »

ولكن هذا ليس معناه أن الوجدان يستقل بأمر العقيدة .. وليس معناه أن الدين يفرض على العقل - في شأن العقيدة - أمورا لا يستسيغها ولا يتقبلها ، ويطلب منه أن يسلم بها تسليما أعمى بلا دليل .

فأما ما يتصل بالذات الإلهية فنعم .. لا يملك العقل أن يستوعب . والوجدان أقدر على الاستيعاب من العقل المقيد في تصويره بحدود الزمان والمكان والبدء والانتها .

ولكن الدين لم يطالب الإنسان - من أجل أن يؤمن بالله - أن يتفكر في الذات الإلهية التي يعجز عن الإحاطة بها ، إنما طالبه بالتفكر في آيات الله التي

تستجيش النفس بدلالاتها الواضحة على تفرد الله سبحانه وتعالى بالالوهية والربوبية ، فيؤمن الانسان بالله الواحد الذى لا شريك له ، ثم تستقيم حياته بمقتضى ذلك الايمان .

ومن ثم يشترك العقل والوجدان معا فى أمر العقيدة ، كل يؤدى دوره على طريقته .. وفى النهاية يستقر الايمان فى القلب ، ويصبح حقيقة واقعة فى كيان الانسان، تتبدى فى فكره وشعوره وسلوكه على السواء .

وإذن فادعاء الكنيسة أن العقل لا ينبغى له أن يسأل وأن يناقش فى أمر العقيدة ، وإنما عليه أن يسلم تسليما أعمى ويترك الأمر للوجدان ، هو ادعاء ليس من طبيعة « الدين » كما أنزله الله . إنما كان هذا من مستلزمات الأديان الوثنية التى تحوى أوهاما لا يمكن أن يسيغها العقل لو فكر فيها ، فتسكت صوت العقل وتمنعه من التفكير ، بالسحر تارة ، وبالتهديد بغضب الآلهة المدعاة تارات !

وإذا كان هذا الأمر - وهو إسكات صوت العقل ومنعه من التفكير - غير مستساغ حتى فى بداوة الانسان أو ضلالة البشرية ، فهو من باب أولى غير مستساغ فى دين تزعم الكنيسة أنه هو الدين المنزل من عند الله ، وأنه يمثل مرحلة راشدة فى تاريخ البشرية !

ولو كانت هذه الأسرار من الدين حقا ، ولو كانت من أمور العقيدة التى يلزم الايمان بها ، ما منع الله الناس أن يناقشوها بعقولهم ليتبينوا ما فيها من الحق ويؤمنوا به ! فإن الله لا يقول للناس - فى وحيه المنزل - آمنوا بى دون أن تفكروا وتعقلوا . ولا يقول لهم : إنى ساضع لكم الألغاز التى لا تسيغها عقولكم ثم أطالبكم أن تخروا عليها صما وعميانا لا تتفكرون ، وإلا طردتكم من رحمتى ! إنما يقول الله للناس من خلال القول الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا » ١ « ويندد بهم حين لا يتفكرون ولا يتدبرون : « أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ » ٢ «

ويناقش شبهاتهم ، ويطالبهم بوضعها على محك المنطق السليم وأن يأتوا عليها بالبرهان .. حتى يتحصل لهم من الوعى ما ينفى كل شبهة ويجعل العقيدة

١ « سورة سبا [٤٦]

٢ « سورة محمد [٢٤]

مستقرة على يقين لا مجال فيه للتردد ولا للشك : « قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . الله خير أم ما يشركون ؟ أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون : أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ؟ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ! » « ١ »

ويرتب الايمان على مجيء « البيئات » وهى الأدلة الواضحة التى تبين الحق وتزيل الشك : « قل : إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البيئات من ربى » « ٢ »

ويقيم الحجة على الناس قبل أن يطالبهم بالإيمان : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » « ٣ »

كلا ! لا يطلب الله من عباده التسليم الأعمى ، إنما يطلب منهم التسليم البصير : « قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » « ٤ »
إنما كان الأرباب المزيقون - فى المجامع المقدسة وعلى « عرش » البابوية - هم الذين حرموا على العقل أن يفكر ، وفرضوا عليه أن يسلم تسليما أعمى بأمور لا يستسيغها ولا يعقلها ، وإلا كان من الكافرين !

ولم يكن للناس بد تحت هذا التهديد الطاغى ممن فى أيديهم - وحدهم - الوساطة بين الله وعباده - كما يزعمون ! - أن يسلموا تسليما أعمى بأسطورة التثليث وأسطورة العشاء الربانى وأسطورة الأب الذى صلب ولده فداء لخطيئة آدم .. وغيرها من الأساطير المفروضة عليهم ، لكى يأمنوا غضب الوسطاء ، المؤدى - فى وهمهم - إلى غضب الله ، وأن يلتزموا بهذا الحجر البشع على العقول والأفكار عدة قرون .

« ١ » سورة النمل [٥٩ - ٦٤]

« ٢ » سورة غافر [٦٦]

« ٣ » سورة النساء [١٦٥]

« ٤ » سورة يوسف [١٠٨]

ولكن .. هل كان من الممكن أن يستمر ذلك إلى الأبد دون أن تتمرد العقول المكبوتة وتدعو إلى حرية التفكير ؟!

(ج) الطغيان المالي :

لم يكن « رجال الدين » من أهل التقوى والزهد كما يتوقع من القوم الذين حولوا الدين إلى روحانية غالبية ورهبانية وأمروا الناس أن يكتفوا بعيش الكفاف لكي يدخلوا الجنة ويجلسوا عن يمين الرب في الآخرة ! وأبلغتهم أنه « من أراد الملكوت فخير الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير عليه » وأن « مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » « ١ » وأن « لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا فروداً للطريق ، ولا ثوبين » « ٢ » ولا أحذية ولا عصاً « ٣ » !

إنما كانت الكثرة منهم ممن فتنوا بالدنيا ونسوا الآخرة .

يقول « كرسون » في كتاب « المشكلة الأخلاقية » .

« كانت الفضائل المسيحية كالفقير والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة ، كل ذلك كان خيراً للمؤمنين وللقسيسين وللقسيسين وللخطب والمواعظ . إما أساقفة البلاط والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شيء آخر : البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والشهرة في المجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب » « ٤ »

ويقول « ول ديورانت » :

« أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا . فقد كان دير « فلدا » مثلاً يمتلك خمسة عشر ألف قصر صغير ، وكان دير « سانت جول » يملك ألفين من رقيق الأرض ، وكان « الكوين فيتور » « ٥ » سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض ، وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة والأديرة وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون

« ١ » إنجيل مرقس [١٠ - ٢٢]

« ٢ » أي أنه يكفي ثوب واحد

« ٣ » إنجيل مرقس : ١٠ - ١١

« ٤ » المشكلة الأخلاقية ص ١٦٧

« ٥ » أحد رجال الدين

بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية .. وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً من النظام الإقطاعي .

« وكانت أملاكها الزمنية ، أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلب بالعار كل مسيحي متمسك بدينه ، وسخرية تلوكها السنة الخارجين على الدين ، ومصدرا للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات » « ١ »
وكانت مصادر تلك الأملاك متعددة ، فمنها الأوقاف ، ومنها العشور ، ومنها الهبات ومنها الضرائب ، ومنها السخرة .

فأما الأوقاف فقد كانت الكنيسة تستولى على أراض زراعية واسعة وتوقفها على نفسها لتنفق منها على الأديرة والكنائس وتجهيز الجيوش للحروب الصليبية أو الحروب التأديبية التي تقوم بها ضد الملوك والأباطرة الخارجين على سلطانها . وفي ذلك يقول ويكلف وهو من أوائل الذين ثاروا على الفساد الكنسي وطلبوا بالإصلاح الشامل : « إن الكنيسة تملك ثلث أراضى انجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقي » « ٢ »

كما فرضت الكنيسة على أتباعها أن يدفعوا إليها عشر أموالهم ضريبة سنوية لا يملكون التملص منها تحت وطأة التهديد بالحرمان وغضب الرب !
يقول ويلز :

« كانت الكنيسة تجبى الضرائب . ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها ، وهي لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملاً من أعمال الإحسان والبر ، بل طالبت به كحق » « ٣ » !

وفرض البابا يوحنا الثاني والعشرون بالإضافة إلى ذلك ضريبة جديدة سميت « ضريبة السنة الأولى » وهي دخل السنة الأولى لأية وظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية يدفع إلى الكنيسة بطريق الإجبار !

أما الهبات فهي هبات في ظاهر الأمر فقط ! ولكنها تؤخذ بالإجرا ح والتوريث ، والترغيب والترهيب ! وخاصة الهبات التي تمنح للكنيسة في الوصايا التي

١ « قصة الحضارة ج ١٤ ص ٤٢٥ »

٢ « فشر : تاريخ أوروبا ج ٢ ، ص ٣٦٢ »

٣ « معالم تاريخ الانسانية ج ٣ ص ٨٩٥ »

يكتبها الناس قبل موتهم . فقد فرضت الكنيسة على الناس ألا يكتبوا وصاياهم إلا على يد القسيس ! وما دام القسيس حاضرا وقت كتابة الوصية فقد أصبح الواجب - من باب « المجاملة » على الأقل - أن يهب الوصى شيئا من ماله للكنيسة حتى لا يكون مجافيا للذوق ! أو حتى يتحاشى ما هو أخطر من ذلك : غضب الأرباب المؤدى إلى غضب رب الأرباب !!

أما السخرة فقد كانت الكنيسة تفرضها على رعاياها بالعمل يوما واحدا في الأسبوع بالمجان في أراضي الكنيسة الواسعة . فيعمل التعساء ستة أيام في الأسبوع ليجدوا خبز الكفاف لهم ولأسرهم ، ثم يعملون اليوم السابع - يوم الراحة - سخرة في أراضي الكنيسة لكي توفر الأخيرة أجور العمال التي كان المفروض أن تدفعها لقاء زراعة إقطاعياتها الواسعة وجنى حاصلاتها وتزداد بذلك اكتنازا وضراوة في طلب المزيد من المال !

لقد كان من السهل على الكنيسة أن تمارس ذلك الطغيان المالى وهى تملك ذلك النفوذ الطاغى على أرواح الناس وعقولهم . فما هى إلا أن تصدر الأمر فيطيع العبيد صاغرين !

(د) الطغيان السياسى :

زعمت الكنيسة أن المسيح عليه السلام قد أعطى قيصر وحكمه شرعية الوجود ، حين وضعت على لسانه هذه الكلمات : « إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وفسرتها - عمليا - بترك القانون الرومانى يحكم العالم المسيحى بدلا من شريعة الله .

ورغم أن هذا تفسير خاطئ لدين الله المنزل على عيسى ابن مريم رسول الله ، فقد كان مقتضاه - المنطقى - أن تتفرغ الكنيسة لشؤون الآخرة وشؤون الروح ، وتترك قيصر يحكم عالم الأرض وعالم الأبدان .

ولكنها لم تكن فى شىء من سلوكها العمل منطقية مع الذى تقوله بأفواهها أو تعلنه من مبادئها . فقد ادعت لنفسها سلطة دنيوية (أو زمنية Temporal كما يسمونها فى التاريخ الأوروبى) نازعت بها الأباطرة والملوك وأخضعتهم لسلطانها .

ونحن المسلمين لا ننكر - من حيث المبدأ - أن يكون لمن يقوم على أمر الدين فى الأرض سلطان على الأباطرة والملوك ، وإن كنا لا نعرف - فى الاسلام - شيئا

يمكن أن يسمى « الكنيسة » ولا شيئاً يمكن أن يسمى « رجال الدين » إنما هم علماء الدين وفقهاؤه . إنما نقصد أننا لا ننكر على الذين يقع على عاتقهم مراقبة إقامة الدين في الأرض أن يكون لهم على ذوى السلطان سلطة النصيحة والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولكن ... لأى شيء تكون هذه السلطة وعلى أى شيء تدور ؟!

إنها - في دين الله المنزل - تكون لتنفيذ شريعة الله ومراقبة الأمور كلها لكي تكون خاضعة لشريعة الله .

فهل من أجل هذا طالبت الكنيسة بأن يكون لها على الأباطرة والملوك سلطان ؟! بل ذلك أبعد شيء عن الحقيقة .

إن الكنيسة - وهى تطالب بسلطانها الطاغى على الأباطرة والملوك - أوحين مارست هذا السلطان بالفعل - لم تطالبهم قط بالانصياع إلى شريعة الله وتطبيق أحكامها على الناس (فيما عدا قانون الأحوال الشخصية الذى لم يجد معارضة من الحكام من قبل !) . إنما كانت تطلب - وتمارس - سلطاناً شخصياً بحتاً ، وأرضياً بحتاً ، هو أن يطأطئ الملوك والأباطرة لها الرؤوس وأن يعلنوا أنهم خاضعون لسلطانها !

إن الكنيسة - بذلك - قد أوجرت في حق دين الله جريمتين مزدوجتين : الأولى أنها عزفت عن تطبيق شريعة الله ، واجبتها الأول ، والمبرر الأكبر لوجودها إن كان لوجودها مبرر على الإطلاق ، بينما كانت تملك سلطة تطبيق هذه الشريعة بما كان لها على قلوب الجماهير من سلطان من جهة ، وبما صار لها من سلطان على الملوك والأباطرة فيما بعد ...

والثانية أنها استخدمت سلطانها الذى حاربت من أجل الحصول عليه وأراقت الدماء في إخضاع الناس جميعاً ، ملوكهم ورعايهم ، لهواها هى ، وجبروتها هى ، فجعلت من رجالها أرباباً من دون الله ، وعبدت الناس لهم من دون الله حتى حق عليهم قول الله فيهم : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » « ١ » ..

إنها جريمة بشعة - أو جرائم بشعة متراكب بعضها على بعض - من أى زاوية نظرت إليها .

فمن ناحية الدين المنزل شوهته بفصل العقيدة عن الشريعة وتقديمه للناس عقيدة صرفا بلا تشريع أى مسخا مشوها لا يمثل دين الله الحقيقى .. ثم ادعت للناس أن هذا هو الدين ! وزرعت فى عقول الناس تصورا خاطئا بأن الدين علاقة خاصة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا علاقة له بواقع الأرض .. فسهلت على الشياطين - فيما بعد - اقتلاع آثاره من واقع الحياة ، لأنه لم يكن عميق الجذور فى واقع الحياة ! « ١ »

ومن ناحية الواقع أسهمت فى إفساد الأرض بتعطيل شريعة الله ، والسماح للجاهلية الرومانية أن تحكم العالم المسيحى - فى صورة قوانين وتنظيمات - ومنعت الإصلاح الذى أراده الله للناس حين نزل عليهم الدين ، فنشأت عن ذلك مظالم سياسية واقتصادية واجتماعية تمثلت فى نظام الاقطاع الذى ساد العالم الأوروبى - فى ظل الكنيسة - أكثر من عشرة قرون ! وسهل على الشياطين - فيما بعد - اقتلاع آثار الدين وتحطيمه باسم الإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى !

فضلا عما أثارته من المنازعات مع الأباطرة والملوك ، مما أدى بهم - فيما بعد - إلى الانسلاخ من سلطان الكنيسة الذى يحمل عنوان الدين بالحق أو بالباطل ، وتعميق مفهوم الفصل بين الدين والسياسة الذى كان قائما من قبل بالفعل بتعطيل شريعة الله ، ليصبح عداا كاملا بين الدين والسياسة فى أى صورة من صور السياسة وأى صورة من صور الدين !

يروى التاريخ الكثير عن قصة النزاع بين الكنيسة وبين الأباطرة والملوك .

أصدر البابا « نقولا الأول » بيانا قال فيه :

« ان ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها . وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل ، ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين ، حكاما كانوا أو محكومين » « ٢ »

وفى القرون الوسطى مارست الكنيسة ذلك السلطان بالفعل على الحكام والمحكومين ، مع وجود فترات من الصراع المتبادل ، حيث يتمرد بعض الملوك

« ١ » سنتحدث عن ذلك فى التمهيد الثانى « دور اليهود فى إفساد أوروبا »

« ٢ » قصة الحضارة لول ديورانت ج ١٤ ص ٣٥٢

والأمراء على سلطة البابا ، ويشتد آخرون في حربهم للبابوات حتى إنهم ليعزلون البابا أو ينفونه أو يسجنونه ! ولكن السلطة الغالبة كانت للكنيسة ، تستمدّها من سلطانها الروحي الطاغى على قلوب الناس ، ومن جيوشها الكثيفة ومن أموالها التى تضارع ما يملكه الملوك وأمراء الإقطاع !

يروى « فيشر » قصة الصراع بين البابا هلدبراند وهنرى الرابع إمبراطور ألمانيا فيقول : « .. ذلك أن خلافا نشب بينهما (بين البابا والإمبراطور) حول مسألة « التعيينات » أو ما يسمى « التقليد العلماني » فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ورد البابا بخلع الإمبراطور وحرمه وأحل أتباعه والأمراء من ولائهم له وألبهم عليه ، فعقد الأمراء مجمعا قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد ، فوجد الإمبراطور نفسه كالأجرب بين رعيته ، ولم يكن في وسعه أن ينتظر وصول البابا ، فضرب بكبريائه عرض الحائط واستجمع شجاعته وسافر مجتازا جبال الألب والشتاء على أشده ، بيتغى المثل بين يدي البابا بمرتفعات كانوسا في تسكانيا ، وظل واقفا في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام وهو في لباس الرهبان متدثرا بالخيش حافى القدمين عارى الرأس يحمل عكازه مظهرًا كل علامات الندم وأمارات التوبة حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا العظيم » « ١ »

كما يروى التاريخ قصة مماثلة عن ملك انجلترا هنرى الثانى الذى أصدر دستورًا يلغى فيه كثيرا من امتيازات رجال الدين ، الذين كانوا يملكون الكثير ، ولا يدفعون شيئا من الضرائب التى يدفعها الشعب ، بل يفرضون هم لأنفسهم ضرائب خاصة .. فحرّمته الكنيسة فأصبح غريبا في وسط شعبه لا يطاع له أمر .. فأعلن ندمه وتوبته ، وسار إلى مقر رئيس الأساقفة في كنتربرى يسترضيه ، ومشى على الأرض الصلبة الثلاثة الأميال الأخيرة من رحلته حافى القدمين حتى نزف الدم منهما ، وطلب من الرهبان - وقد استلقى على الأرض - أن يضربوه بالسياط حتى يرضى عنه الغاضبون !

ولكن سلطان الكنيسة ظل يتداعى في نهاية القرون الوسطى حتى قام الملوك يعلنون أنهم هم الحكام في الأرض بمقتضى « الحق الإلهي المقدس » وأنه ليس

للبابوات عليهم سلطان إلا السلطان الروحي وحده .
فاستبدلت أوروبا في الحقيقة طغيانا بطغيان مع فارق واحد ، أن الطغيان الجديد يبعد تدريجيا ويبعد الناس معه عن سلطان الدين ! وفضلا عن ذلك فقد كان انشقاق الملوك عن سلطان البابا يتخذ شكلا قوميا متزايدا ، تسانده العوامل الأخرى - السياسية والاقتصادية - التي أحاطت بأوروبا وشجعت على ظهور القوميات ، التي كان لها دور كبير في بروز الصراعات الحادة في أوروبا أولا ، ثم في العالم كله في صورة حروب استعمارية فيما بعد ، بالإضافة إلى ما أثبتناه من قبل من تعميق الفصل بين السياسة والدين .

(هـ) الطغيان العلمي :

كان المفروض أن يأتى الحديث عن الطغيان العلمي بعد الحديث عن الطغيان العقلي والفكري فإنه وثيق الصلة به . ولكننا أخرنا الحديث عنه باعتبارين .

الأول أنه جاء متأخرا في الترتيب الزمني إذ حدث في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بينما كانت ألوان الطغيان الروحي والعقلي والمالي والسياسي قائمة في العالم المسيحي قبل ذلك بعدة قرون ، والثاني أنه في الحقيقة لون جديد من الطغيان غير الطغيان العقلي الذي كان سائدا من قبل بمنع المناقشة والتفكير في أمر الأسرار المقدسة المتصلة بالعقيدة ، فقد كان هذا الطغيان الجديد يفرض على العقول ألا تفكر في أمور الكون المادي بما تقتضيه الملاحظات والمشاهدات العلمية ، وأن تلتزم بالتفسيرات الكنسية لما جاء من إشارات في التوراة عن شكل الأرض وعمر الإنسان ، ولو خالفت هذه التفسيرات كل حقائق العلم النظرية والعملية على السواء !

بدأت القصة ، أو بدأت الزوبعة حين قال العلماء إن الأرض كروية وإنها ليست مركز الكون ' ويعرف التاريخ الأوروبي من أبطالها ثلاثة أسماء شهيرة غير الأسماء الأخرى التي لم تلمع على صفحات التاريخ ، وهؤلاء هم كوبرنيكوس وجردانو برونو وجاليليو

الأول عالم فلكي بولندي عاش ما بين ١٤٧٣ و ١٥٤٣ م

والثاني فيلسوف إيطالي عاش ما بين ١٥٤٨ و ١٦٠٠ م

والثالث عالم فلكي إيطالي عاش ما بين ١٥٦٤ و ١٦٤٢ م

وقد قامت قيامة الكنيسة عليهم وعلى غيرهم فأحرقت من أحرقت ، وعذبت من عذبت ، وهددت من هددت بالتعذيب والحرق في النار إن لم يكفوا عن هذه « الهرطقة » التي تقول إن الأرض كروية وإنها ليست مركز الكون ! « ١ » بحجة أن التوراة قالت إن الأرض مستوية (أى مسطحة) وإنها هي مركز الكون ، والانسان مركز الوجود !

ويقول التاريخ الأوروبي إن الكنيسة قد فزعت فزعتها تلك حفاظا على كيائها ، الذي يقوم على الخرافة ويستند إلى انتشار الجهل بين الجماهير، وإنها خشيت على هذا الكيان أن يتصدع وينهار إذا انتشر العلم ، وتبين الناس أن ما تقوله الكنيسة ليس هو الحقيقة المطلقة في كل شيء .

ولا شك أن هذا - في جملته - صحيح .

ولكن هذه المقالة تغفل شيئين مهمين في هذا الشأن ، أولهما عن غفلة والثاني عن قصد .!

أما الأول فهو أن أباء الكنيسة ورجالها كانوا مخلصين في صيحتهم - في أول الأمر على الأقل - لأنهم كانوا يتصورون أن ما جاء في التوراة حقيقة ، وأن تفسيرهم له هو الصحيح . وسبب ذلك هو الجهالة التي كانت مخيمة على أوروبا كلها ، وعلى رجال الدين فيها بصفة خاصة ، فقد كانوا من أقل الناس ثقافة ومن أبعدهم عن تعلم العلم الصحيح - إن وجد - اكتفاء بالمجد الروحي والسلطان الطاغى والأموال الطائلة التي يتمتعون بها بوصفهم « رجال الدين » !

إنما يجوز بالفعل أن يكونوا قد استمروا في حرب العلم - عن وعى وعمد - فيما بعد خوفا على سلطانهم أن يتصدع حين يكتشف الناس أن شيئا مما يقولونه كاذب لا أساس له ، فيكون وجودهم كله عرضة لأن يوضع موضع التساؤل والمساءلة .. فينهار !

أما الأمر الثاني الذي يغفله المؤرخون الأوروبيون عن عمد - رغم ظهوره - فهو أن هذا العلم الذي قامت الكنيسة بحربه كان آتيا من مصادر إسلامية ، وكان يحمل معه خطر انتشار الإسلام في أوروبا، ومن ثم انهيار الكنيسة ذاتها حين ينهار الدين الذي تمثله وتدعى حمايته !

١ - مات كوبر نيكوس قبل أن يقع في قبضة محاكم التفتيش أما جوردانو برونو فقد أحرق حيا وأما جاليليو فقد سجن حتى أشرف على الهلاك فتراجع - ظاهريا - عن معتقده وإن ظل مقتنعا بها في الحقيقة .

يقول « ألفارو Alvaro » وهو كاتب مسيحي أسباني عاش في القرن التاسع الميلادي :

« يطرب إخواني المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق . فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة ؟ وأين ذلك الذي يدرس الانجيل وكتب الأنبياء والرسل ؟ وأأسفا ! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ، ليسوا على علم بأى أدب ولا لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وإنهم ليتزنمون في كل مكان بمدح تراث العرب . وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية - إذا ذكرت الكتب المسيحية - بأن تلك المؤلفات غير جديرة باحترامهم » « ١ »

وظاهر من هذا النص إلى أى مدى كان تأثير الإسلام على المسيحيين من أهل الأندلس ، ونستطيع أن ندرك منه كذلك كيف كان تأثير الإسلام على المبتعثين الأوروبيين إلى بلاد الإسلام .

ذلك أنه حين استيقظت أوروبا وبدأت تنهض كان لابد لها أن تتعلم . ولم يكن ثمت علم إلا ما كان عند المسلمين ، وفي مدارسهم .. ومن ثم أرسلت أوروبا أبناءها ليتعلموا في مدارس المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وغيرها من أماكن العلم .. فتعلموا هناك الطب والهندسة والرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء على أيدي الأساتذة المسلمين فتأثروا بهم ، وتأثروا بالإسلام كذلك ، فجن جنون الكنيسة من تأثير الإسلام الزاحف على أوروبا مع حركة العلم .. ومن ثم قامت تضع السدود بين الإسلام وبين أوروبا ، وكلفت كتابها أن يهاجموا الإسلام ويشوهوا صورته في نفوس الأوروبيين ، وأن يهاجموا الرسول صلى الله عليه وسلم وينعتوه بكل نعت قبيح ، لمقاومة ذلك « الغزو الفكرى » المتسرب مع المبتعثين العائدين من بلاد الإسلام . وكذلك كانت الحرب المعلنة ضد العلم « المستورد » من البلاد الإسلامية جزءا من هذه الحرب الشاملة ضد الإسلام، وإن كانت قد خصت قضية كروية الأرض بأشد الحرب لأنها وجدت نصا مقدسا في التوراة تستطيع أن تصعد به المعركة إلى حد الحرق والتعذيب !

« ١ » عن كتاب « حضارة الإسلام » لفون جرونبيوم ص ٨١ - ٨٢ من الترجمة العربية

وأيا كان السبب فقد وقفت الكنيسة من العلم والعلماء ذلك الموقف الشائن الذى ترتبت عليه - ككل خطايا الكنيسة وأخطائها - نتائج بعيدة المدى فى الحياة الأوروبية حتى اللحظة الراهنة .. فقد بدأ منذ تلك اللحظة الفصام الأحمق بين العلم والدين الذى ما يزال يغشى بدخانهِ الأسود حياة أوروبا حتى اليوم .

إن جريمة الكنيسة - فوق تشويه صورة الدين وتنفير الناس منه ، الذى تلتقى عنده وتنتهى إليه كل جرائمها - أنها تفصل بين نزعتين فطريتين سويتين متكاملتين - نزعة التعلم ونزعة العبادة - وتنشئ بينهما عداوة لا وجود لها فى أصل الفطرة ، وصداما لا ينبغي أن يوجد فى النفس السوية ، قتمزق النفس الواحدة مَرَقاً وتثير فى داخلها القلق والاضطراب .

لقد خلق الله الانسان مقطوراً على حب المعرفة كما خلقه مقطوراً على العبادة :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم :

أليس بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا » « ١ »

« وعلم آدم الأسماء كلها » « ٢ »

« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » « ٣ »

وفى النفس السوية تتجاوز النزعتان وتتكاملان بلا تصادم ولا تضاد . فالفطرة تتطلع إلى ربها لتعبده ، والفطرة تتطلع إلى الكون من حولها تحب أن تتعرف عليه ، وأدواتها هى الحس والعقل :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » « ٤ »

وتلتقى نزعة الإيمان بالغيب والإيمان بما تدركه الحواس ، وتؤيدان مهمتهما معا فى تشكيل إنسانية الانسان على الصورة التى أرادها الله له ، وكرمه بها وفضله على كثير من الخلق .

ولكن الكنيسة بموقفها الأحمق - أيا كانت الأسباب التى دفعتها إليه - راحت

١ « سورة الاعراف [١٧٢]

٢ « سورة البقرة [٣١]

٣ « سورة العلق [٣ - ٥]

٤ « سورة النحل [٧٨]

تفصل بين هاتين النزعتين الفطريتين المتكاملتين، وتقول للناس : إن أردتم الدين فاتركوا العلم .. ومن أراد العلم فقد خرج على الدين ! فتخير الناس بين حاجتين فطريتين لا تغنى إحداهما غناء الأخرى ، ولا يسد إشباع أيهما جوعة الثانية !

وهل كانت هناك نتيجة منتظرة من هذا الموقف إلا أن يترك الناس ذلك الدين الذى يجلبهم عن العلم ويحجر عليه ، وأن يسيروا مع العلم فى تياره الزاخر الذى يأتى كل يوم بجديد ، وإن كانوا مع ذلك لا ينجون من القلق والاضطراب !!؟

على أن الشر لم يقف عند هذا الحد - وهو بشع فى ذاته - لم يقف عند هجر الدين من أجل العلم ، بل وصل إلى كراهية الدين والنفور منه ، ونفيه نفيا باتا من مجال البحث العلمى على وجه الخصوص .

لا تجد فى الجاهلية المعاصرة حقيقة علمية واحدة تسند بإرجاعها إلى أصل دينى ! بل على العكس . مجرد ذكر الدين أو الله - سبحانه وتعالى - فى مجال البحث العلمى كفيل - عندهم - بالشك فى الحقيقة العلمية ، أو باستهجان المنهج على الأقل ، لأنه منهج غير علمى !! كفيل بإثارة الامتناع فى جميع الأحوال !

وصدق الله العظيم : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » !! « ١ »

وإقامة التصور - فى أى مجال من مجالات البحث - على أساس المفهوم الدينى هو عندهم هدم للمنهج العلمى وتشويه له ، وإعطاء حصيلة محوطة بالشك ولو كانت كل الأدلة تؤيدها ! وخذ مثالا لهذا الموقف المعادى للدين ولو كانت الحقائق العلمية متفقة معه ومؤكدة له قول جوليان هكسلى فى كتاب « الانسان فى العالم الحديث » : Man in the Modern World

« وهكذا يضع العلم الحديث الانسان فى مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان .. ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة فى تفاصيلها أو فى كثير مما تضمنته .. ولكن كان لها أساس جيولوجى متين » « ٢ »

« ١ » سورة الزمر [٤٥]
« ٢ » من فصل « تفرد الانسان » ص ٣٦ من الترجمة العربية لحسن خطاب

كذلك نُفِيَّ القصد والغاية من أى شىء فى هذا الكون نفيا « علميا » !!
وراح « العلماء » ! يتذرعون بشتى الذرائع لإبعاد الحديث عن القصد
والغاية من مجال البحث العلمى، كقوهم إن هذا من شأن الفلسفة ، أما العلم
فمهمته تسجيل « الحقائق ! » كما هى دون إعطاء تفسير مسبق لها . أو قولهم
إن هذا شأن « الميتافيزيقا » (أى ما وراء الطبيعة) ولكن العلم محصور فى
ظواهر الطبيعة يسجلها ويحاول أن يفسرها تفسيرا « علميا ! » أى فى حدود ما
تدركه الحواس ..

والحقيقة من وراء ذلك هى إبعاد كل ظل للدين من البحث العلمى انتقاما من
موقف الكنيسة التى حاربت العلم باسم الدين !! ذلك أن الحديث عن « الغاية »
هو حديث عن الله سبحانه وتعالى وغايته من خلق هذا الكون على الصورة التى
خلقه عليها . ثم إنه يتضمن التزاما معيناً تجاه الله سبحانه وتعالى ، هو التزام
الغاية التى من أجلها خلق الله الإنسان فى هذا الكون .. والعلم الذى نشأ فى ظل
العداء مع الدين لا يريد أن يلتزم بشىء ألبتة تجاه الدين وتجاه الله ! لأن الالتزام
- عندهم - لا يجرى إلا من خلال الكنيسة ، والكنيسة هى الطغيان !

بل بلغ الأمر إلى نفى القصد لا إبعاده عن مجال البحث العلمى فحسب !
وخرجت نظريات « علمية !! » تقول إن الكون وجد بالصدفة ! وإن الحياة
ظهرت على سطح الأرض بالصدفة !

بل حين أسند الخلق إلى « الطبيعة » بدلا من الله نفى القصد عن الطبيعة
وقال قائلهم « دارون » إن الطبيعة تخبط خبط عشواء ! Nature woks
haphazadly

وهذه « الطبيعة » ذاتها ، وتأليها ونسبة الخلق إليها .. لقد كانت إحدى
الخطايا المترتبة على الخطيئة التى اقترفتها الكنيسة من قبل بوقوفها موقف
العداء من العلم والعلماء ..

إن تأليه الطبيعة - سواء فى مجال العلم أو الفن أو أى مجال آخر - لهو
المهرب الوجدانى الذى لجأت إليه أوروبا لتهرب من إله الكنيسة الذى تستعبد
الناس باسمه فى كل مجالات الحياة : الروحية والفكرية والمالية والسياسية
والعلمية .. الخ ، وتخترع إلها آخر له معظم صفات الله الخالق البارئ
المصور ، ولكن ليست له كنيسة وليست له التزامات !

وإلا فما « الطبيعة » في مجال البحث العلمى على الخصوص ؟
ومن أين لها صفة الخلق ؟ والخلق بهذه الدقة المعجزة التى يتحدثون عنها
سواء فى الفلك أو الكيمياء أو الفيزياء أو الطب أو علم وظائف الأعضاء أو علم
الحياة ؟!

ثم إذا كانت - كما يقول دارون - تخلق دون قصد معين ولا تدبير ، فكيف
خلقت الانسان الذى يتصف بالقصد والتدبير ؟ أى بعبارة أخرى : كيف يخلق
الخالق من هو أعلى منه وأكمل وأدق ؟!

ألا إنها أسطورة « علمية ! » ضخمة فى عصر العلم ! ومع ذلك فهى العملة
السارية فى كل كتب العلم الغربى بلا استثناء ! اقرأ فى أى كتاب علمى تجد
« الطبيعة » Nature مشارا إليها على أنها الخالق الفعال لما يريد ، الذى لا
يسأل عما يفعل وهم يسألون !

إنها المهرب الوجدانى الذى لجأت إليه أوروبا لتهرب من إله الكنيسة وتجد ما
تتعبد به فى ذات الوقت ، إذ الانسان مفطور على العبادة سواء فى ضلاله أو
هداه .. أما أن يتحدث عنها الذين يسمون أنفسهم « علماء ! » وبصيغة الجد
لا الهزل .. فمهزلة لا يفسرها شيء إلا حقيقة واحدة ، هى أن الانسبان حين
ينتكس فى جاهليته - بعيدا عن الهدى الربانى - يمكن أن يصدر عنه أى
شيء على الإطلاق .. مهما كان بعيدا عن المنطق وبعيدا عن المعقول .

ولكن الجريمة الكبرى فى هذا الشأن تقع على عاتق الكنيسة بادية ذى بدء ،
التي أقامت ذلك الحاجز من العداء بين الدين والعلم ، الذى ظل يتفاقم حتى
وصل - على يد الشياطين - إلى استخدام العلم ذريعة إلى القضاء على الدين .

ثالثا : فساد رجال الدين :

المفروض فى « رجال الدين » - إن كان ثمة مبرر لوجود رجال دين على الإطلاق -
أن يكونوا قدوة صالحة للمؤمنين بالدين ، ونموذجا يحتذى فى الفكر والشعور
والسلوك .

ولكن رجال الدين الكنسى فى أوروبا البابوية لم يكونوا يؤمنون بشيء من ذلك
ولا يحتفلون به !

بل كانت حياة الغالبية منهم حياة ترف وملذات وشهوات !
يقول الله ليحذر المؤمنین :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ! » « ١ »
كبر مقتا لأنه صد عن سبيل الله .. وأى جريمة أكبر من الصد عن سبيل الله ؟

إن الناس قد يتقبلون من الشخص العادى أن يكذب أو يغش أو يلتوى في سلوكه .. أو يقع فريسة للشهوات .

أما أن يقع ذلك ممن ينصب نفسه قدوة للناس ، أو ممن يدعو الناس إلى التمسك بالفضيلة والبعد عن الرذيلة .. فهذا الذى لا يستسيغه الناس من جهة ، والذى يصددهم عن القيم الرفيعة من جهة أخرى ، لأنه يئسهم من قيام تلك القيم في عالم الواقع ، ويشعرهم أنها مجرد شعارات معلقة في الفضاء . ويهون لهم من جهة أخرى ارتكاب الرذيلة بكل أنواعها ، لأنه إذا كان دعاة الفضيلة يفعلون ذلك ، فما بالهم هم ، الذين لم يزعموا لأنفسهم ذات يوم أنهم من أصحاب الفضيلة ؟!

لذلك كبر مقتا عند الله أن يقول المؤمنون بالسنتهم ما يخالفونه في سلوكهم الواقعى .

وهذا الذى كبر مقتا عند الله كان هو السلوك الغالب على رجال الدين الكنسى في أوروبا البابوية ! مما أدى - كما أدت خطايا الكنيسة كلها - إلى نبذ الدين في النهاية والانسلاخ منه .

يقول « ول ديورانت » في فصل بعنوان « أخلاق رجال الدين » من كتاب « قصة الحضارة » (ج ٢١ ص ٨٣ - ٨٦) :

« لقد كان يسع الكنيسة أن تحتفظ بحقوقها القدسية المستمدة من الكتب المقدسة العبرية والتقاليد المسيحية لو أن رجالها تمسكوا بأهداب الفضيلة والورع .. ولكن كثرتهم الغالبة ارتضت ما في أخلاق زمانها من شر وخير ، وكانوا هم أنفسهم مرآة ينعكس عليها ما في سيرة غير رجال الدين من أضداد . فقد كان قس الأبرشية خادما ساذجا ، لم يؤت في العادة إلا قسطا ضئيلا من التعليم ، ولكنه غالبا ما يعيش معيشة يقتدى بها (وإن خالفنا في هذا رأى الراهب الصالح أنطونيئو) لا يعبأ به رجال الفكر ، ولكن يرحب به الشعب .

وكان بين الأساقفة ورؤساء الأديرة بعض من يحيون حياة منعمة ، ولكن كان منهم كثيرون من الرجال الصالحين ، ولعل نصف مجمع الكرادلة كانوا يسلكون مسلك أتقياء المسيحيين المتدينين الذى يخزى مسلك زملائهم الدنيوى المرح .

« وانتشرت فى جميع أنحاء إيطاليا المستشفيات وملاجئ اليتامى ، والمدارس وبيوت الصدقات ، ومكاتب القرض وغيرها من المؤسسات الخيرية يديرها رجال الدين . واشتهر الرهبان البندكتيون ، والفرنسيس المتشددون ، والكرثوزيون بمستوى حياتهم الخلقي الرفيع إذا قيس إلى أخلاق أهل زمنهم .. وواجه المبشرون مئات الأخطار وهم يعملون لنشر الدين فى أراضى « الكفار » وبين الوثنيين المقيمين فى العالم المسيحى . واختفى المتصوفة عن أعين الناس وابتعدوا عما كان فى زمانهم من عنف ، وأخذوا يعملون للاتصال القريب بالخالق جل وعلا .

« وكان بين هذا التقى والورع كثير من التراخى فى الأخلاق بين رجال الدين نستطيع أن نثبتته بما نضربه من مئات الأمثال . فها هو ذا بترارك نفسه الذى بقى مخلصا لدين المسيح إلى آخر حياته ، والذى صورما فى دير الكرثوزيين ، الذى كان يعيش فيه أخوه ، من نظام وتقى فى صورة طيبة مستحبة ، ها هو ذا يندد أكثر من مرة بأخلاق رجال الدين المقيمين فى أفنيون . وإن الحياة الخليعة التى كان يحياها رجال الدين الايطاليون والتى نقرأ عنها فى روايات بوكاتشيو المكتوبة فى القرن الرابع عشر إلى روايات ماستشيو فى القرن الخامس عشر ، إلى روايات بنديتلو فى القرن السادس عشر ، إن هذه الحياة الخليعة موضوع يتكرر وصفه فى الأدب الايطالى ، فبوكاتشيو يتحدث عما فى حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ومن انغماس فى الملذات الطبيعية كانت أو غير طبيعية . ووصف ماستشيو الرهبان والإخوان بأنهم « خدم الشيطان » منغمسون فى الفسق واللواط ، والشره ، وبيع الوظائف الدينية ، والخروج على الدين ، ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقا من رجال الدين .

« وها هو ذا أريتينو الذى لم يتورع عن أية قذارة يسخر من الطابعين بقوله إن أخطاءهم لا تقل عن خطايا رجال الدين ، ويزيد على ذلك قوله . « والحق إنه لأسهل على الانسان أن يعثر على رومة مستفيدة عفيفة من أن يعثر على كتاب

صحيح « ويكاد بجيو يفرغ كل ما عرفه من ألفاظ السباب في التشنيع على فساد أخلاق الرهبان والقسيسين ، ونفاقهم ، وشرهم ، وجهلهم ، وغلطهم ، ويقص فولينجو في كتاب أرنلدينو هذه القصة نفسها ، ويبدو أن الراهبات ملائكة الرحمة في هذه الأيام كان لهن نصيب في هذا المرح ، وأنهن كن مرحات رشيقات في البندقية بنوع خاص حيث كانت أديرة الرجال والنساء متقاربة قربا يسمح لمن فيها بالاشتراك من حين إلى حين في فراش واحد . وتحتوى سجلات الأديرة على عشرين مجلدا من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات . ويتحدث أريتينو عن راهبات البندقية حديثا لا تطاوع الانسان نفسه على أن ينطق به . وجوتشياردينى الرجل الرزين المعتدل عادة يخرج عن طوره ويفقد اتزانه حين يصف رومة فيقول : « أما بلاط رومة فإن المرء لا يستطيع أن يصفه بما يستحق من القسوة ، فهو العار الذى لا ينمحي أبد الدهر ، وهى مضرب المثل في كل ما هو خسيس مخجل في العالم » .

« ويبدو أن هذه شهادات مبالغ فيها ، وقد تكون غير نزيهة ، ولكن استمعوا إلى قول القديسة كترين السينائية :

« إنك أينما وليت وجهك - سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا ، سواء كانوا صغارا في السن أو كبارا - لم تر إلا شرا ورذيلة ، تزكم أنفك رائحة الخطايا الأدمية البشعة .. إنهم كلهم ضيقو العقل ، شرهون ، بخلاء .. تخلوا عن رعاية الأرواح .. اتخذوا بطونهم إلها لهم ، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة حيث يتمرغون في الأقدار ويقضون حياتهم في الفسق والفجور .. ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء .. ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجون .

« وهنا أيضا يجب أن نسقط ما يحتويه هذا الوصف من مبالغة ، إذ ليس في وسع الانسان أن يثق بأن الولى الصالح يتحدث عن سلوك الأدميين وهو غير غاضب .. ولكن في وسعنا أن نصدق هذه الخلاصة التى يعرضها مؤرخ كاثوليكي صريح .

« وإذا كانت هذه هى حال الطبقات العليا من رجال الدين فإن المرء لا يعجب إذا كان من دونهم من الطبقات ومن القساوسة قد انتشرت بينهم الرذيلة على اختلاف أنواعها وأخذ انتشارها يزداد على مدى الأيام . إلا أن الحياء قد زال

من العالم .. ولقد كان أمثال أولئك القساوسة هم الذين دفعوا إرزمس ولوثر إلى وصفهما المبالغ فيه لرجال الدين حين زارا رومة في أيام يوليوس الثاني . غير أن من الخطأ أن يظن المرء أن القساوسة كانوا في رومة أكثر فسادا منهم في غيرها من المدن . ذلك أن لدينا من الوثائق ما يثبت بالدليل القاطع فساد أخلاق القسيسين في كل مدينة تقريبا من مدن شبه الجزيرة الإيطالية . بل إن الحال في كثير من الأماكن - كالبندقية مثلا - كانت أسوأ كثيرا منها في رومة . فلا عجب والحالة هذه إذا تضاعل نفوذ رجال الدين كما يشهد بذلك مع الأسف الشديد الكتاب المعاصرون ، وإذا كان المرء لا يكاد يجد في كثير من الأماكن أى احترام يظهره الشعب للقسيسين . ذلك أن الفساد قد استشرى بينهم إلى حد بدأنا نسمع معه آراء تحبذ زواجهم ..

« ولقد كان الكثير من الأديرة في حال يرثى لها . وأغفلت في بعضها الأيمان الثلاث الأساسية بالتزام الفقر ، والعفة ، والطاعة إغفالا يكاد يكون تاما .. ولم يكن النظام في كثير من أديرة النساء أقل من هذا فسادا » .
ويقول أيضا في مكان آخر :

« ... وظل كرسى البابوية عدة سنين بعد ذلك لا ينال إلا بالرشا أو القتل أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنىء . وبقيت أسرة بثوفيا لكت أحد كبار الموظفين في قصر البابا ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مريوزا أن تنجح في اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسى البابوية (٩٠٤ - ٩١١) كما أفلحت زوجته ثيودورا في تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ - ٩٢٨) وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ولكن هذا الاتهام لا يقوم على دليل قاطع .

« .. وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحدا بعد واحد حتى تزوجت جيدودوق تسكانيا وأخذوا يأتمران لخلع يوحنا .. ثم رفعت مريوزا في عام ٩٣١ يوحنا الحادى عشر (٩٣١ - ٩٣٥) إلى كرسى البابوية وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعى من سرجيوس الثالث (ص ٣٧٨ - ج ١٤)

« .. وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثانى عشر إمبراطورا في عام ٩٦٢ ، فلما عاد إلى روما في عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء رجال الألب دعا يوحنا إلى

المحاكمة أمام مجلس كنسى .. واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشى نظير تنصيب الأساقفة وأنه عين غلاما فى العاشرة من عمره أسقفا ، وأنه زنى بخليته أبيه وضاجع أرملة وابنة أخيها وأنه حول قصر البابا إلى مأخور للدعارة (ص ٣٧٩ ج ١٤) .

رابعاً : الرهبانية وفضائح الأديرة :

« ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » « ١ »
يروى عن السيد المسيح أنه قال : « من أراد ملكوت الرب فليترك ماله وأهله وليتبعنى » وأنه قال : « من أراد الملكوت فخير الشعير والنوم فى المزابيل مع الكلاب كثير عليه » .

وسواء صحت هذه النصوص أم كانت ألفاظها قد حرفت أو زينه عليها ، فلا شك أن المسيح دعا إلى الزهادة والارتفاع عن متاع الأرض كما دعا كل نبي قبله ، وكما قال صلى الله عليه وسلم من بعده : « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه » « ٢ »

ولكن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنشأ عنها رهبانية ، بل لم يتقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الرهبانية حين جنح إليها بعض المسلمين كما يتضح من الواقعة الآتية :

« ذهب ثلاثة رهط إلى بيت من بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عن عبادته صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ! فقال أحدهم أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثانى وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام ، وقال الثالث ، وأما أنا فلا أتزوج النساء . فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله انى لأعبدكم وأخشاكم لله ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » « ٣ »

ولكن شيئا ما - فى دعوة السيد المسيح - قد شجعت على ابتداء الرهبانية

١ « سورة الحديد [٢٧]

٢ « رواه احمد والترمذى

٣ « رواه الشيخان والنسائى

فيما يبدو . فقد بعث السيد المسيح إلى بنى إسرائيل وقد غلبت عليهم مادية كافرة ، يعبدون الذهب ويعيشون للحياة الدنيا ، ولا ظل في حياتهم للإيمان باليوم الآخر، ولا حساب له في قلوبهم . جفت أرواحهم فلم تعد فيها نداوة الحب ولا إشراقة النور التى تصاحب الايمان بالله .

من أجل ذلك كانت الروحانية هى السمة الغالبة على دعوة السيد-المسيح ، وكان الإكثار من الحديث عن الزهد والارتفاع على شهوات الأرض ، لعل الدعوة على هذا النحو تلين القلوب القاسية التى قال الله عنها :

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار . وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافل عما تعملون » « ١ »

وهل أدل على هذه القسوة من أن تبيع لهم وحشيتهم أن يقتلوا « الأمميين » في عيد الفصح ليعجنوا بدمائهم فطيرة « مقدسة ! » ثم يأكلوها ابتهاجا بالعيد ؟!

وَفَجَّرَ بنو إسرائيل فلم يستجيبوا لهذه الدعوة المترفعة التى دعاهم إليها السيد المسيح ، بل سعوا إلى إثارة الحاكم الرومانى « بيلاطس » ليحكم عليه بالقتل صلبا .. لولا أن الله نجاه منهم ورفعهم إليه فلم يقتلوه ولم يصلبوه . وقال الله عنهم :

« ولقد أتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وأتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ؟ » « ٢ »

ولكن الدعوة المترفعة التى أعرض عنها قساة القلوب تسربت - بقدر من الله - إلى قلوب أخرى اعتنقتها وأمنت بها وتلقت روحانياتها الندية بالترحيب :

« وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » « ٣ »

وهؤلاء هم الذين ابتدعوا الرهبانية ..

« ورهبانية ابتدعوها . ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله »

وسواء كان الاستثناء فى الآية منقطعا بمعنى : ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ولكن كتبنا عليهم أن يبتغوا رضوان الله (فابتغوا ذلك عن طريق الرهبانية

١ . سورة البقرة [٧٤]

٢ . سورة الحديد [٢٧]

٣ . سورة البقرة [٨٧]

التي ابتدعوها) أو متصلا بمعنى : ما كتبناها عليهم إلا لأنهم ابتغوا بها رضوان الله .. فإن الآية تسجل عليهم أنهم هم الذين ابتدعوها وليس الله هو الذى كتبها عليهم بادئ ذى بدء ، أى أن عيسى عليه السلام لم يأمرهم بها ولم يقل لهم إن الله يريد بها منهم . ولكنهم هم تطوعوا بها - متأثرين بتعاليم المسيح أو مؤولين لها على هذا النحو - فقبل الله منهم ما تطوعوا به ما داموا قد ابتغوا به رضوان الله .

ولكن أيا كان الدافع لهم على ابتداء الرهبانية : التأثر بتعاليم السيد المسيح أو تأويلها على نحو معين كما أول الصوفية الآيات والأحاديث الواردة في ذم الدنيا فجعلوها ذما مطلقا وفي كل الحالات ، بينما هى واردة في ذم الدنيا حين تصد عن الايمان بالله أو تصد عن الجهاد في سبيل الله ..

نقول أيا كان للدافع ، فإلى الرهبانية مضادة لدعوة الحياة السوية التى خلقها الله لتعمل لا لتكبت وتحجز عن الحركة والنشاط . فقد جعل الله الانسان خليفة في الأرض وكلفه عمارتها :

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » « ١ »

ومن أجل القيام بأمر الخلافة أى الهيمنة والاشراف والتمكن ، ومن أجل القيام بعمارة الأرض ، أودع الله الفطرة مجموعة من الدوافع المحركة إلى العمل والنشاط ..

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا .. » « ٢ »
وصحيح أن الله سبحانه وتعالى لا يحب لعباده أن ينطلقوا إلى آخر المدى مع هذه الشهوات لأنها عندئذ لاتكون معينة على الخلافة الراشدة ولا على عمارة الأرض على النحو اللائق بالانسان ، بل تكون شاغلا عن الارتفاع وداعيا إلى الهبوط إلى مستوى الحيوان ، وعندئذ يكون الانسان أضل من الحيوان :

« أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » « ٣ »

وصحيح أن الله أحب لعباده أن يتخففوا من متاع الأرض ليفرغوا إلى القيم العليا الجديرة بالإنسان ، ووعدهم على ذلك الجنة ، وجعل ذلك هو الابتلاء الذى

« ١ » سورة هود [٦١]

« ٢ » سورة آل عمران [١٤]

« ٣ » سورة الأعراف [١٧٩]

يخوضه الانسان في الأرض :

« .. ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أُوْنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » « ١ »

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » « ٢ »

كل ذلك صحيح . ولكن الله لم يحرم متاع الأرض :

« قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هي

للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » « ٣ »

إنما وضع حدودا لذلك المتاع يباح في داخلها ويكون محرما في خارجها :

« تلك حدود الله فلا تعتدوها » « ٤ »

« تلك حدود الله فلا تقربوها » « ٥ »

وتلك الحدود هي التي يعلم سبحانه أنها تعين على أمر الخلافة وعمارة الأرض على المستوى اللائق بالإنسان ، دون أن ينشغل الإنسان بها عن قيمه وأهدافه العليا كما بينها الله له على يد رسله وأنبيائه ، وفي الوقت ذاته تعطي قسطا معقولا من المتاع لكيلا ينشغل الإنسان عن الحركة والعمل بلذع الحرمان .

وهناك أفراد - أفذاذ - يستطيعون أن يتخففوا من متاع الأرض إلى أقصى حد دون أن يشغلهم الشعور بالحرمان عن الحركة والنشاط والعمل بإيجابية كاملة ، أولئك هم الزهاد على بصيرة . وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم إمام الزاهدين ، وهو أكبر طاقة إيجابية حركية عرفت البشرية ..

ولكن الرهبانية ليست كذلك .. إنها اعتزال .. إنها ترك للحياة الواقعية بكل ما فيها ولياذ بالأديرة المنقطعة عن تيار الحياة . ولقد يتربى الراهب على تعود الحرمان حتى لا يعود يحس بلذع الحرمان .. نعم .. ولكنه في الوقت ذاته يفقد

« ١ » سورة آل عمران [١٤ - ١٧]

« ٢ » سورة الكهف [٧]

« ٣ » سورة الاعراف [٣٢]

« ٤ » سورة البقرة [٢٢٩]

« ٥ » سورة البقرة [١٨٧]

إيجابيته الفاعلة في واقع الأرض ويتخلى عن دوره في عمارتها ، ويلغى طاقات كيانه فلا يتزوج ولا يعمر وجه الأرض بالنسل ولا ينتج .. إلا مشاعر ذاتية في طي الكتمان .

لذلك نقول إن الرهبانية مضادة لدفعة الحياة السوية كما خلقها الله .
وإذا كان الله قد قبلها منهم - لفترة معينة - هي المحدودة بمجىء الرسول صلى الله عليه وسلم مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه ، وناسخا ما شاء الله أن ينسخ من الشرائع - المحلية - السابقة ، لينشر في الناس كلمة الله الأخيرة وشريعته الباقية ..

إذا كان الله قد قبلها منهم لتلك الفترة المحدودة فإنهم وهم مبتدعوها والمتطوعون بها من عند أنفسهم لم يرعوها حق رعايتها !
« ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » « ١ »

ولقد كان المتوقع ألا يرعوها حق رعايتها .. أى لا يصبروا على تكاليفها .
فهى سباحة دائمة ضد التيار .. تيار الحياة .. وجهد مجهد لا يصبر عليه كثيرون ..

أما أن تنقلب - وهى المنوطة بالتقوى والزهد والتعفف والارتفاع عن الشهوات - إلى مباءة للقذارة الحسية والمعنوية يتعفف عنها الرجل العادى أو الفتاة العادية .. فهذا الذى لا يمكن أن يتوقع على الإطلاق !
فإذا كانوا لا يصبرون على تكاليفها فما الذى يجبرهم على المضى فيها وهى تطوع غير مفروض ؟!

أما أن يستمروا فيها عنوانا ولافتة ، ومظهرا خادعا من الخارج ، ثم يحولوها إلى حانات للخمر ومواخير للفساد ، ومباءة للشذوذ الجنسى بين الرجال والرجال والنساء والنساء ، بالاضافة إلى ما يحدث من العلاقات السرية بين أديرة الرجال وأديرة النساء .. فهذا أمر يشده الحس ويبعث على التقزز والنفور .

يقول أصدق القائلين جل وعلا :

« ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها

« ١ » ، سورة الحديد [٢٧]

حق رعايتها ، فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون « ١ » ،
فاسقون .. بكل معانى الفسق التى تخطر والتى لاتخطر على البال !

خامسا : مهزلة صكوك الغفران :

لم يكف الكنيسة ورجال دينها هذا الفساد كله ، فأضافوا إليه مهزلة من
أكبر مهازل التاريخ . تلك هى مهزلة صكوك الغفران .
فقد أصدر مجمع لاتيران سنة ١٢١٥ القرار التالى لتقرير أن الكنيسة تملك
حق الغفران للمذنبين :

« إن يسوع المسيح ، لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات ، وقد
استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من العلا منذ الأيام الأولى ، فقد
أعلم المجمع المقدس وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية
للشعب المسيحى والمثبتة بسلطان المجمع ، ثم ضرب بسيف الحرمان من
يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها . غير
أنه قد رغب فى أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة
المحفوظة قديما والمثبتة فى الكنيسة لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط
التساهل » « ٢ » .

ولكن الكنيسة لم ترع ذلك التحفظ الوارد فى القرار ، وهو « استخدام هذا
السلطان باعتدال واحتراز » فقد كانت راغبة فى زيادة سلطانها - وزيادة
أموالها كذلك ! - فعمدت إلى منح المغفرة بصكوك تباع بالمال فى الأسواق !
يقول الصك :

« ربنا يسوع يرحمك يا ... » « ٣ » ويشملك باستحقاقات آلامه الكلية
القدسية وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات
والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبته ، وأيضا من جميع الإفراط
والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وإن
كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقدار
الذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة، وأرفع

« ١ » سورة الحديد [٢٧]

« ٢ » محاضرات فى النصرانية ص ١٩٤

« ٣ » يترك فراغ يكتب فيه اسم « المغفور له » كما تملأ الاستثمارات فى المصالح والدواوين

القصاصات التى كنت تلزم بمكابدتها فى المطهر ، وأردك حديثاً إلى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرتك فى شركة القديسين ، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك ، حتى إنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح . وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الأب والابن والروح القدس « ١ »

وإنها - والحق يقال - لمهزلة فريدة فى التاريخ !
فقد عرفت الديانات الوثنية - من قبل ومن بعد - عملية إرضاء الكاهن ابتغاء رضوان الإله المعبود ، باعتبار أن الكاهن هو الوسيط بين العبد والرب ، وأن رضاه يؤدى - فى وهمهم - إلى رضا الإله ، وغضبه يؤدى إلى غضب الإله . والنذور للأوثان أمر معروف فى التاريخ .. وكان العرب فى الجاهلية يؤدون الشعائر والنسك للأوثان - ومن بينها تقديم النذور - ليقرّبوهم إلى الله زلفى .

« والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى » « ٢ »
ويجىء الدين المنزل ليصحح العقيدة ويصحح السلوك ، فيجعل الشعائر والنسك لله وحده ، وبين العبد وربه مباشرة بلا وسيط :

« وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه » « ٣ » .
ويكون للرسول - فى حياتهم - خصيصة يختصون بها هى أن دعاءهم يستجاب عند الله حين يدعون بالصلاح أو البركة أو المغفرة لمن يستحق ذلك عند الله :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ؟ » « ٤ » .
أما لمن لا يستحق فالدعاء - حتى من الرسول - غير مستجاب :

١ « كتاب المسيحية تأليف أحمد شلبى - ص ٢١٤ .

٢ « سورة الزمر [٢]

٣ « سورة البقرة [٢٧٠]

٤ « سورة التوبة [١٠٢ - ١٠٤]

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » ١ .
فإذا كان هذا شأن الرسل - بل شأن سيد الرسل صلى الله عليه وسلم -
فمابالك بالبابا الذى لاحظوه له عند ربه ولا إذن له من الله بقبول الغفران ؟!

بل ما بالك حين يكون الأمر لا عن نية حقيقية فى التوبة يعلمها البابا -
تقدس سره ! - بل عن مبلغ من المال ؟ ! بل مابالك والمال - فى أكثر الأحيان -
ليس مدفوعا لله على سبيل الصدقة للفقراء والمساكين ، مما يقبله الله من
المؤمنين ويحط به من خطاياهم ، وإنما هو لشراء الصك كما تشتري أى سلعة
معروضة فى الأسواق ، والمال يذهب إلى خزائن البابوات والكرادلة حتى يكتنزوا
بالذهب والفضة التى يكتنزونها ، ولا يذهب إلى مستحقيه من الفقراء
والمساكين ؟!

ولانشك فى أن المهزلة فى بادئ الأمر كانت جادة ! أى أن الذى يشتري
الصك كان راغبا فى التوبة ، ظانا أن هذا السبيل يؤدي بالفعل إلى التوبة
والمغفرة ورضوان الله ، وكان المال المدفوع يأخذ فى حس صاحبه مكان الصدقة
المرفوعة إلى الله . كما أن الكنيسة استخدمت صكوك الغفران فى مبدل الأمر لتشجيع المقاتلين
على خوض المعارك الصليبية ضد المسلمين ، فكانت تمنح الصك لمن ينخرط فى
سلك الجيوش الصليبية فتحمله الرغبة فى الفردوس الموعود أن يلقي بنفسه فى
أتون الحرب التى يرجع منها أو لا يرجع .. وهو غالبا لا يرجع !

ولكن الجد فى هذا الأمر الهازل لا يمكن أن يستمر !
ولئن استمر البسطاء مخدوعين فى قداسة البابا وقدرته على محو الذنوب من
صحيفة الأعمال بما له عند الله من الوساطة والحظوة و« القداسة » .. فقد
انكشف الأمر عند العقلاء ولاشك عن أن قداسة البابا قد أصبح تاجرا كبيرا ،
وأنة على نسق معظم التجار الكبار مدلس غشاش !! يبيع بضاعة لا يملكها
ويقبض الثمن لنفسه ليثرى الثراء الفاحش ، ثم ينفق هذا الكسب الحرام فى
المتاع الدنس ويغرق به فى الشهوات !
ومع أنها مهزلة مضحكة - ومكشوفة - فقد ظلت قائمة فى المجتمع

١ . « سورة التوبة [٨٠]

الأوربي - مجتمع الظلمات - فترة غير قصيرة من الوقت ، وإتسع نطاقها وكثرت أرباحها حتى فاضت عن مطامع قداسة البابا ، فتنازل عن شيء من الفائض لكبار أعوانه ، فصرح لهم بإصدار صكوك لحسابهم ، استرضاء لهم ، واستعانة منه بهم في « جلائل الأعمال » !

ولكنها كانت لابد مؤدية إلى نتائجها الطبيعية ، وهى النفور من الدين في النهاية والنفور من رجال الدين .

فحين يرى الناس الحصيلة المتحصلة من الصكوك تذهب إلى الترف الماجن والمتاع الفاجر الذى يغرق فيه معظم البابوات وكبار رجال الدين ، وحين يرون نفرا من أصحاب الصكوك - وقد ضمنوا مغفرة ماتقدم من ذنوبهم وماتأخر - غارقين في الفساد اتكالا على أن ذنوبهم تمحى أولا بأول بسحر الصك الذى ابتاعوه ، وحين يرون السلطان الطاغى الذى تحصل عليه الكنيسة بأموالها المقدسة التى أصبحت بها أغنى من الملوك وأمراء الإقطاع ينصرف إلى مزيد من الطغيان ومزيد من الظلم ومزيد من التحكم في رقاب العباد وعقولهم وأفكارهم .. حين يرون ذلك كله فلا شك أنهم ينفرون في النهاية وينسلخون من الدين الذى ينتج كل تلك الأفاعيل !

يقول ويلز في كتاب « معالم تاريخ الانسانية »

« ولقد قضت (أى الكنيسة) على هيبتها بعدم مراعاتها لتعاليمها ذاتها الداعية إلى الصلاح والبر . وقد سبق أن تكلمنا عن نظام التحلة « ١ » ، وكان خاتمة حماقاتها في القرن السادس عشر بيع « صكوك الغفران » التى بها يمكن اقتداء الروح من عذاب المطهر بدفعة مالية . على أن الروح التى دفعتها (أى دفعت الكنيسة) آخر الأمر إلى هذه الفعلة المتبجحة التى كانت نكبة عليها ، كانت واضحة ملحوظة من قبل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر « ٢ » .

« ١ » نظام التحلة نظام كان البابا بمقتضاه يعفى نفسه من التزام الأوامر والنواهي التى تفرصها الكنيسة ذاتها على رعاياها ! وقد أشار إليه ويلز في فصل سابق فقال « ص ٨٩٦ » وثمة دعوى أخرى ادعتها الكنيسة كانت هى أيضا أكثر سريفا وبعدا عن الحكمة هى قولها بأن لها « حق التحلة » ومعنى ذلك أن البابا كان يستطيع في كثير من الأحيان أن يهمل قوانين الكنيسة في حالات فردية خاصة . « ٢ » ج ٢ ، ص ٩٠٥ - ٩٠٦ .

سادسا : محاكم التفتيش :

يقول « ول ديورانت » بعد أن يعدد مبادئ البابوات وانحرافات رجال الدين في النص الذي أشرنا إليه أنفا : « وإذا ماعفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسي والانهماك في ملاذ المأكل والمشرب فإننا لا نستطيع أن نعفو عن أعمال محاكم التفتيش » ١ .. ولهذه الشهادة دلالتها في استفظاع تلك الأعمال التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش ، ذلك أن الأعمال التي سمح « ول ديورانت » لنفسه أن يعفو عنها هي في الحقيقة أعمال لا تغتفر من الرجال الذين - في زعمهم - وهبوا أنفسهم لنشر العقيدة التي يؤمنون بها وتثبيت أركانها في الأرض .. فكيف بالأعمال التي لم يجد في نفسه القدرة على العفو عنها ، وهو بهذه الدرجة من التساهل فيما وقع من رجال الدين من انحرافات ؟! الحقيقة أنها كانت أبشع من أن يعفو عنها أحد في قلبه ذرة من مشاعر الإنسانية .

يقول ويلز :

« شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة في الكنيسة هي محكمة التفتيش البابوية . ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم في بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد في هذا الإقليم أو ذاك ، ولكن « إنوسنت الثالث » وجد الآن في عقد الرهبان الدومينيكيين الجديد أداة قوية للقمع ، ومن ثم نظمت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم . وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنساني بالنار والعذاب ، وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الوحيد في السيادة على العالم .. وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادرا بالملاحظة والكفار . فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مئة ساحة من ساحات الأسواق في أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها - وهم في غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم - تحترق بالنار وتخدم أنفاسهم بجالة محزنة ، وتحترق وتخدم معهم في نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رمادا تذروه الرياح » ٢ .

« ١ » قصة الحضارة ج ٢١ « ٨٦ .

« ٢ » معالم تاريخ الإنسانية ج ٣ - ص ٩٠٨ - ٩٠٩ .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن الكاتب الذى يتفطر قلبه أسى على ضحايا محاكم التفتيش من المسيحيين لا يذكر كلمة واحدة عن الفظائع البشعة التى ارتكبتها محاكم التفتيش فى الأندلس وهى تطارد المسلمين لتطرد الإسلام نهائيا من اسبانيا .. وقد كانت تلك الفظائع أفظع ماعرفه التاريخ كله من ألوان الوحشية البربرية ، التى تعد أعمال محاكم التفتيش فى أوروبا المسيحية - على شناعتها - هينة لينة بالنسبة إليها ، وبالنسبة لأدوات التعذيب الخاصة التى استخدمت فيها ، فى الوقت الذى كانت أوروبا تعلم أنها مدينة للأندلس الاسلامية بكل ماكان فى حوزتها يومئذ من علم يعتقد به ، بل مدينة بنهضتها كلها إلى القيم والمبادئ الحضارية التى تعلمتها من هناك .

ونعود بعد هذه الملاحظة إلى ويلز ، ليشرح لنا العوامل التى حدثت بالكنيسة إلى اتخاذ العنف ضد أعدائها :

« فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريب رجالا مكيفين وفق مذاهب اعتقادات حتمية وإجراءات مقررّة وثابتة .. ولم تعد لهم بعد رغبة فى رؤية مملكة الرب موطدة فى قلوب الناس . فقد نسوا ذلك الأمر ، وأصبحوا يرغبون فى رؤية قوة الكنيسة التى هى قوتهم هم ، متسلطة على شئون البشر .. ونظرا لأن كثيرا منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة لم يسمحوا بأية مناقشة فيه . كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون فى مخالفة ، لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين فيها ..

« وقد تجلّى فى الكنيسة عندما وفى القرن الثالث عشر مايساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التى تنخر بناء مدعياتها بأكملها ، وقد تجعله أثرا بعد عين . فلم تكن تستشعر أى اطمئنان نفسى . وكانت تنصيد الهراطقة فى كل مكان ، كما تبحث العجائز الخائفات - فيما يقال - عن اللصوص تحت الأسرة وفى الدواليب قبل الهجوم فى فراشهن » « ١ » .

بهذا الهزال المتفشى فى كيائها ، والقلق المستتر فى أعماقها من بدء يقظة العقل بعد طول سبات، راحت تكيل الضربات المجنونة لكل من يسألها ويناقشها ، أو من يخيّل إليها أنه سيسألها ويناقشها ، لتحاول أن تدفع عن

١ . المصدر السابق - « من ٩٠٢ - ٩٠٣ »

نفسها المصير الأسود الذى كان ينتظرها على بعد خطوات من الزمن غير بعيد .. وينبغى أن نقرر هنا ما كان للاسلام من أثر عميق في تلك البقعة التى فزعت منها الكنيسة ، فما كان أى عقل يقترب من الثقافة الإسلامية والحياة الفكرية الإسلامية ليرضى أن يظل عبداً لذلك الطغيان الفكرى والروحى الذى تمارسه الكنيسة أو يتقبل ترهاتها بلا مناقشة . وسواء اعترف المؤرخون الأوروبيون بهذا الأثر أم لم يعترفوا (والمنصفون - وهم قلة - يعترفون) فلنعد إلى ويلز مرة أخرى يفسر لنا تلك الحالة النفسية التى ساورت الكنيسة ضد أى لون من المعرفة يأتى من مصدر غير مصادرها .

« كان هذا التعصب الأسود القاسى روحاً خبيثاً لا يجوز أن يخالط مشروع حكم الله فى الأرض . وإنه لروح يتعارض تماماً مع روح يسوع الناصرى ، فما سمعنا قط أنه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له أو غير المستجيبين لدعوته ، ولكن البابوات كانوا طوال قرون سلطانهم فى حقن مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل فى كفاية الكنيسة الذهنية .

« ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها . فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهة السريعى الهياج الحقودين ، الذين من الجلى أنهم كانوا الأغلبية المتسلطة فى مجالس الكنيسة ، كانوا يضيقون ذرعاً بأية معرفة عدا معرفتهم ، ولا يتقون بأى فكر لم يصححوه ويراقبوه ، فنصبوا أنفسهم للحد من العلم ، الذى كانت غيرتهم منه بادية للعيان ، وكان أى نشاط عقلى عدا نشاطهم يعد فى نظرهم نشاطاً وقحاً » « ١ » ..

وأياً كانت الأسباب فقد كانت محاكم التفتيش وما صاحبها من الفظائع عميقة الأثر فى الحس الأوروبى ، وسيئة النتائج بالنسبة للحضارة الجاهلية التى انبثقت فى أوربا منذ عهد النهضة .. لقد أصبح عداء « الدين » المتمثل هناك فى الكنيسة ورجالها أمراً « لازماً » لكل صاحب فكر حر أو ضمير حى .. لأن هذا العداء هو أبسط تعبير عن الثورة ضد الذل والمهانة التى تفرضها الكنيسة على الكرامة الإنسانية، كما تفرضها على العقل الذى خلقه الله ليفكر لا ليمتحن بالحبس فى داخل سدود وقيود ما أنزل الله بها من سلطان ، إنما هى من صنع بشر يبدول للعقول المفكرة مدى تفاهة تفكيرهم وعجزهم ، وغطرستهم الطاغية فى

« ١ » المصدر السابق ص ٩٠٥ .

ذات الوقت . ولئن كان كل ما ارتكبه الكنيسة من الخطايا كان جريمة في حق الدين ، فإن هذه الخطيئة البشعة كانت ولاشك من كبريات الجرائم التي سجلها التاريخ .

سابعاً : مساندة الكنيسة للظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي المتمثل في الاقطاع :

أصبحت الكنيسة - بفضل الهبات والإتاوات والعشور والهدايا والغصب والنهب والتدليس وغير ذلك من الوسائل - أصبحت من ذوات الاقطاع . بل كانت أملاكها في بعض الأوقات تفوق أملاك الأباطرة وأمراء الإقطاع . ومن ثم فقد تحدد موقفها من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فوقفت في صف الظلم تسانده وتزود عنه وتحارب حركات الإصلاح ! وكانت في ذلك منطقية مع وضعها باعتبارها من كبار الملاك ! فهل كان يمكن - عقلاً - أن تحارب الإقطاع وهي جزء منه ، بل من أكبر ممثليه ؟!

ولقد بدأت أوروبا تتملل من رقبتها - بعد احتكاكها بالعالم الإسلامي - وتطلب الإصلاح . وقد كان احتكاكها بالعالم الإسلامي عن طريقين عظيمين وشديدي التأثير . أحدهما الاحتكاك السلمي بطلب العلم في مدارس المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وغيرها من الأماكن القريبة من أوروبا ، والآخر الاحتكاك الحربي في الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي . وفي كلا الاحتكاكين تفتحت عيون أوروبا على عالم مختلف كل الاختلاف عن عالمها ، لا من ناحية العلم والحضارة فقط ، بل من حيث القيم والمبادئ وأفاق الحياة وأفاق التفكير .

فأما العلم فمعروف أن أوروبا بدأت نهضتها بالتعلم على علوم المسلمين .. ودعك من المكابرة الأوروبية المغرورة التي تقول إن المسلمين لم يكن لهم فضل في ذلك إلا الاحتفاظ بعلوم الإغريق في الفترة التي غفلت فيها أوروبا عنها في عصورها المظلمة ، فلما استيقظت أوروبا - كأنما استيقظت من ذات نفسها !! - استردت بضاعتها القديمة وانطلقت - منها - تبني حضارتها !

دعك من هذه المكابرة لأن الواقع لايسندها . وتكفى شهادة « روجريكون »
التي قال فيها من أراد أن يتعلم ، فليتعلم العربية « ١ » !
ولو كان كل فضل المسلمين أنهم احتفظوا بعلوم الاغريق وثقافتهم ما
احتاجت أوروبا أن تتعلم العربية ، فقد كان يكفيها أن ترجع إلى أصولها
الاغريقية باللغة الإغريقية ، وهى لغة لم ينقطع العلم بها حتى في العصور
المظلمة ، فقد كانت إحدى اللغات « المقدسة » ، لغات الكتاب المقدس .
وقد يكون هذا الوصف صادقا على مايسمى « الفلسفة الإسلامية » فقد
كانت إغريقية حقا وإن لبست ملابس المسلمين ! فقد كان منهج التفكير فيها
إغريقيا وإن تناولت موضوعات إسلامية . وهذه - في رأى - هى أضعف
نقاط الثقافة الاسلامية على الاطلاق .

أما أن توصف الحركة العلمية والفكرية الإسلامية كلها بأنها إغريقية ،
لمجرد أنها استمدت من الثقافة الإغريقية عند البدء،فمغالطة متبجحة لايسندها
الواقع ، كما لو قلنا إن العلم الحاضر إسلامى كله ولافضل لأوربا فيه ، لمجرد
أنه استمد أصوله كلها من المسلمين ! وهذه مغالطة لايقولها أحد منا - ولو
قالها لكانت مضحكة غير مقبولة - لأن الله أمرنا - إذا قلنا - أن نعدل ..
ولو كان ذا قربى :

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » « ٢ » .

« ولايجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » « ٣ » .
إن أهم ما أخذته أوربا عن المسلمين كما يعترف المنصفون منهم - وما
أقلهم ! - لم يكن العلوم في ذاتها ، وإن كانت هذه تستحق أن يشار إليها
ويشاد بها ، خاصة في الكيمياء والفيزياء والطب والفلك والرياضيات ، إنما كان
المنهج التجريبي في البحث العلمى ، وهذا هو الذى يرد إليه - بحق - كل
التقدم الذى أحرزته أوربا في ميدان العلوم فيما بعد ، لأنه شئ جديد لم تكن
تحسنه من قبل ، ولأن التقدم العلمى كان مستحيلا بدوننه .. ويبقى لأوربا
فضلها - بعد ذلك - في المثابرة والصبر والمتابعة ، بينما ركن المسلمون إلى
سبات عميق .

« ١ » انظر كتاب « تجديد الفكر الدينى في الاسلام » تأليف محمد اقبال ترجمة عباس محمود - ص ١٤٨ من
الترجمة العربية

« ٢ » سورة الانعام [١٥٢] « ٣ » سورة المائدة [٨]

وأما الحضارة بصورها المادية وقيمها ومبادئها فهذا الذى أيقظ أوربا من سباتها ودفعها إلى طلب الإصلاح للواقع الفاسد الآسن المنتن الذى كانت تعيش فيه .

ويكفى أن نقول بالنسبة للصور المادية للحضارة إن أوربا - لوقت احتكاكها مع المسلمين - لم تكن تعرف الحمامات الخاصة داخل البيوت ! إنما كانت منذ العهد الرومانى تستخدم الحمامات العامة سواء فى تنظيف ملابسها أو تنظيف أجسادها .. إلى حد أن محاكم التفتيش التى أنشئت لمطاردة الإسلام فى الأندلس بأفزع وحشية عرفها التاريخ ، كانت تتعرف على بيوت المسلمين الذين تنصروا ظاهرا للقرار من التعذيب بإحدى وسيلتين . الهينة الخافتة فى جنح الليل التى كانت تدلهم على قراءة القرآن ، أو العثور على حمام خاص فى البيت ، وكانت هذه علامة مميزة قاطعة ، فما يرتكب هذه الجريمة - جريمة وجود حمام خاص فى البيت - إلا المسلمون !!

أما من ناحية القيم والمبادئ فهذا - فى الواقع - أهم ما أيقظ أوربا من سباتها ..

كانت أوربا تعيش فى ظلمات الإقطاع .. وما أدراك ما ظلمات الإقطاع ! أمير الإقطاعية هو الحاكم المطلق فى إقطاعيته .. لا قانون إلا قانونه .. هو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها فى أن . هو المالك لكل شئ والباقون عبيد .. إما عبيد السيد وإما عبيد الأرض يورثون ويبيعون ويشتررون ، وينتقلون - مع الأرض - من سيد إلى سيد ، لا يملكون حق الانتقال من إقطاعية إلى إقطاعية ولو كان يفصل بينهما سور واحد ! عليهم كل ثقل من التبعات وليس لهم شئ يذكر من الحقوق !

فأما الحقوق السياسية فلا نصيب لهم منها على الإطلاق ولا يفكر أحد ولا يتصور أحد ، أن يكون لهم مشاركة فى السياسة من قريب ولا من بعيد .. وكيف يشاركون ؟ وأين هم حتى يشاركوا ؟ ! إنهم قابعون هناك - فى الإقطاعية - فى بيوتهم الريفية القذرة ، على استعداد أبدا لخدمة سيدهم أمير الإقطاعية ، والشرف لأحدهم أن يندبه الأمير لخدمة خاصة غير بقية الأصفار الأدمية التى تمتلئ بها الإقطاعية ، فذلك تمييز وتكريم أى تكريم !

وكان الإقطاعى بدوره يقوم « برعاية » هذه القطع الأدمية المتناثرة في أرضه !

فهو يشهد أفراح زفافهم ويستخدم - في كثير من الأحيان - حق الليلة الأولى ، أى حق الخلوة بالعروس ليلة عرسها ، قبل أن يتسلمها زوجها ! وبذلك يعيش هوى عرس دائم متجدد ويتسلم العبيد فضلاته ! وهو يطحن لهم غلالهم في مطحنه وهو المطحن الوحيد المصرح به في القرية ، لقاء أجر يحدده هو على مزاجه ، وكذلك يعصر لهم كرومهم في معصرته ، ليشربوا .. وينسوا !

كما أنه يدافع عنهم ضد أى هجوم من أمير آخر - وما أكثر ما يحدث الهجوم - وذلك بتجنيدهم ودفعهم إلى القتال .. ليموتوا ! كما يفرض عليهم من الضرائب ما يرتاح إليه ضميره ، وما يستريح ضميره حتى تمتلئ خزائنه ، وما تمتلئ حتى تفرغ من جديد ! وهكذا تتنوع ألوان « الرعاية » التى يقدمها لهم .. له منها كل حلوة ولهم العذاب ..

وحين كانوا في هذه الظلمات ، احتكوا بالمسلمين ، سواء الاحتكاك الحربى أو السلمى الذى استمر عدة قرون .

وجدوا عند المسلمين « دولة » منظمة ، يحكمها حاكم يعاونه معاونوه ويخضع الناس لحكمه سواسية على درجة واحدة من الخضوع . وكان هذا شيئاً جديداً عليهم ، فقد كانت لديهم « دولة » نعم ولكنهم لا يتصلون بها - وأنى لهم ؟ - ولا يتصل هى بهم إلا من خلال أمراء الإقطاع ، وأمراء الإقطاع هم حكامهم الحقيقيون المباشرون ، وليس لرئيس الدولة سلطان عليهم فيما يفعلون في إقطاعياتهم ، إنما سلطانه عليهم محصور في المال الذى يطلبه منهم - فيأخذونه هم من دماء فلاحيههم ، وتبقى خزائنها الخاصة لاتمس - وفي المجندين الذين يطلبهم منهم إذا قامت الحرب - وكثيرا ما تقوم - فيقدم الإقطاعى ما استطاع من دماء فلاحيه لكى يرضى الملك أو الإمبراطور عنه ، ويدع يده مطلقة بعد ذلك يفعل بعبيده وأقنانه « ١ » ما يشاء .

ووجدوا قضاء منظما .. أى قضاة يحكمون بين الناس فيما شجر بينهم ،

« ١ » القر هو عبد الأرض ، تحرر من عبودية السيد ولكنه مازال عبدا للأرض لا يملك مغادرتها

يعامل الناس أمامهم على السوية ، ويملك الانسان إذا شاء أن يختصم إلى ذلك القضاء مع واليه أو رئيسه أو من يكون من خصمائه فيحكم القاضي بمايرضى ضميره هو لابهوى السلطان .

ووجدوا شريعة حاكمة .. شريعة ليست هى هوى الإقطاعى .. إنما هى شرائع ثابتة يضبطها الكتاب الذى أنزلت به ويضبطها اجتهاد فقهاء الأمة - وهم ليسوا طرفا فى خصومة مع أحد بعينه ، وليسوا حكاما يجورون بالسلطان - وإنما هم مجتهدون يفسرون النص القرآنى ويستنبطون الأحكام منه ، أو يقيسون عليه ، أو يبحثون عن المصلحة « العامة » لا الخاصة فيما يجتهدون به من الأحكام .

باختصار وجدوا الإسلام ..

وقد كان كل شئ وجدوه جديدا بالمرّة عليهم ، فقد كان الذى يعرفونه من قبل هو ذلك الطاغوت الذى يحكمهم فيكون هو الخصم والحكم وهو المشرع والقاضى والمنفذ .. وهو الذى يتصرف فيهم بلا مراجع .. لايسأل عما يفعل وهم يسألون !

كان ذلك هو الذى استجاش أوربا لتتبرّد على هذا الظلام الشامل أو الفساد الشامل الذى تعيش فيه .. وتطلب الإصلاح .

وكان الإقطاع - بكل مايشتمل عليه من ظلم سياسى واقتصادى واجتماعى - هو الهدف الاول لمحاولات الإصلاح . وإن كان طلب الإصلاح الذى نشأ من الاحتكاك بالمسلمين شاملا فى الحقيقة كل ميادين الحياة .

عندئذ بدأت أصوات المصلحين تتتابع ، ثم بدأت أنات خافتة تسمع من أفواه « الكادحين » .

فكيف كان موقف الكنيسة الغارقة فى الإقطاع وفى الطغيان ؟!

لقد وقفت تتهدد التأثيرين على الظلم ، المتمردين على الطواغيت بأنهم مارقون من الدين ، وأنهم ملعونون عند الله !

ووقفت تحاول تخدير التأثيرين على الظلم ، بأن الرضا بالظلم فى الحياة الدنيا هو مفتاح الرضوان فى الآخرة .. فأما العبيد الثائرون والأقنان فقالت لهم إن السيد المسيح يقول : « من خدم سيديين فى الدنيا خير ممن خدم سيديا واحدا » .. وأما المظلومون عامة فقالت لهم إن من احتمل عذاب الدنيا فسيعوضه الله بالجنة فى الآخرة .

ومن هنا قال ماركس قولته الشهيرة : الدين أفيون الشعوب ! وهى قولة صادقة كل الصدق على دين الكنيسة المحرف ، ولكنها كاذبة كل الكذب حين تطلق على الدين المنزل من عند الله .

لقد كانت خطيئة الكنيسة هنا خطيئة مثلثة .

فهى أولا لم تسع قط منذ تسلمها السلطة إلى تحكيم شريعة الله المنزلة عليهم فى التوراة والإنجيل :

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ١ .

والسلطان الذى نازعت فيه الملوك والأباطرة وغلبتهم عليه فترة من الوقت كان - كما أشرنا من قبل - فرصة مهيأة لفرض شريعة الله على أولئك الملوك والأباطرة ، وإزالة الظلم السياسى والاقتصادى والاجتماعى المتمثل فى القانون الرومانى من جهة ، والإقطاع من جهة أخرى .. كما فعل الإسلام فى الأرض التى حررها من السيطرة الرومانية - والسيطرة الفارسية كذلك - فألغى فيها حكم الجاهلية إلغاء كاملا ، وحكم فيها شريعة الله ، فعاشت فى ظلال العدل الربانى عدة قرون ، سواء دخل أهلها فى الإسلام أو بقوا على دينهم الذى كانوا عليه قبل الفتح الإسلامى .

ولكن البابوات الذين نازعوا الأباطرة سلطانهم - وغلّبهم عليه - لم يفكروا أبدا فى تحكيم شريعة التوراة والإنجيل الواجبة التنفيذ - فى إبانها - حتى ينزل الله شريعته الأخيرة فتصبح هى الواجبة التنفيذ .. إنما استخدموا سلطانهم السياسى (أو الدنيوى) كله فى إخضاع الأباطرة لنفوذهم الشخصى وأهوائهم الشخصية ، وأذلّوهم بها أيما إذلال !

والخطيئة الثانية هى صد أوروبا عن الإسلام حين بدأت تتفتح له عن طريق التأثير المصاحب للمبتعثين الأوربيين العائدين من أرض الإسلام ، وموقفها المتعصب الأحمق ضد الدين السماوى المنزل للبشر كافة ، وتكليف كتابها بتشويه صورة هذا الدين وتشويه صورة رسوله صلى الله عليه وسلم بتصويره

« ١ ، سورة المائدة [٤٦ - ٤٧]

بأنه ساحر وأنه كذاب ، وأنه همجى وشهوانى وسفاك دماء .. الخ مما لاتزال أوروبا تلوكة بغير وعى إلى هذه اللحظة !

والخطيئة الثالثة أنها لم تكثف بذلك كله بل وقفت موقفا صريحا إلى جانب الطواغيت - وهى ممثلة الدين السماوى ، دين الرحمة والرفقة - وهددت الثائرين على الظلم باللعنة الأبدية وغضب الربء واتهمتهم بالمروق من الدين !

الخلاصة :

حين يستعرض الانسان هذا التاريخ الحافل بالمخازى والخطايا والأخطاء .. من طغيان روحى وفكرى ومالى وسياسى وعلمى ، وفساد خلقى ، وانحراف فكرى وسلوكى ، ومساندة للظلم فى جميع ألوانه ، وتخذيلى للمصلحين وتخدير للمظلومين ، وصد عن سبيل الله ، وتشويه لصورة الدين .. هل نعجب من النهاية التى وصلت الأمور إليها من انسلاخ الناس فى أوروبا من ذلك الدين ونفورهم منه ، وثورتهم على رجاله وإبعادهم له عن كل مجالات الحياة ؟ إن الفطرة البشرية لتثور على الظلم وتمجه ولو احتملته عدة قرون ! وهذا البطء فى قيام رد الفعل هو الذى يغرى الطغاة بالاستمرار فى طغيانهم ، ظانين أن الأمور ستظل فى أيديهم أبدا ، وأنها غير قابلة للتغيير . ولكن عبرة التاريخ قائمة لمن يريد أن يعتبر .. وما يعتبر إلا أولو الألباب .. أما الطغاة مطموسو البصيرة فأنى لهم أن يعتبروا ؟!

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ؟ » « ١ »

« وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرمهم ! وعند الله مكرمهم وإن كان مكرمهم لتزول منه الجبال » « ٢ » .

وهذا البطء فى قيام رد الفعل هو الذى أغرى كذلك بعض « العلماء » أن يقولوا إنه لاتوجد فطرة للإنسان ! وإن الإنسان ليس له قالب محدد . وإنما هو يصب فى أى قالب يراد له فيتشكل بشكله ، ويظل قابعا فيه حتى يصب فى قالب جديد « ٣ » .

« ١ » سورة يونس [١٠١]

« ٢ » سورة ابراهيم [٤٥ - ٤٦]

« ٣ » سنناقش هذا الزعم فيما بعد ، عند الحديث عن التفسير المادى للتاريخ .

ولله في خلقه شؤون . وتركيبه للنفس الإنسانية على الصورة التي ركبها عليها فيه حكمة ولاشك .. ولكننا نتحدث هنا عن الواقع التاريخي ودلالاته .

إن النفوس تخضع لجبروت الطغيان خوفا وطمعا في أول الأمر ، لأن الطغاة يحمون جبروتهم بشتى وسائل الحماية من ترغيب وترهيب .. ثم تتبدل النفوس من جهة ، ويأخذ الطغيان صورة الأمر الواقع من جهة ، فيستقر في الأرض فترة تطول أو تقصر ، هي التي يتخيل الطغاة فيها أنهم باقون أبدا ، مسيطرون أبدا ، لا يمكن زحزحتهم ولاتبديل الأحوال التي مكنت لهم في الأرض .

ثم تبدأ نفوس تتململ . هي أكثر وعيا وأكثر حساسية أو أصلب عودا أو أكثر مخاطرة .. أو ما يكون من الأسباب .

وهنا يلجأ الطغاة إلى جبروتهم مرة أخرى ، ويستخدمون وسائل الإرهاب لوقف هذه الظاهرة « المبكرة » عن الانتشار ، وتأديب الخارجين لكي يكونوا عبرة للآخرين .

ثم يكون هذا ذاته هو بدء النهاية ! يشتد الجبروت وتتولد مقاومة متزايدة له في داخل النفوس بمقدار ما يشتد ويمعن في الطغيان .

وفي لحظة معينة يحدث الانفجار .. ويكون كالطوفان !

« أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لامعقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » « ١ »

ولقد بدأت نذر الثورة على الكنيسة ورجال الدين ، وعلى الدين المزيف الذى تقدمه الكنيسة ، بدأت منذ عصر النهضة . وبدأ الكتاب يتمردون على سلطان الكنيسة الطاغى ويهاجمون رجال الدين ، بل يهاجمون كذلك خرافات ذلك الدين الكنسى ومعمياته .

ولكنها كانت أصواتا متناثرة ، فظن القوم أنهم قادرون عليها وعلى إسكاتها .

ولكن سنة من سنن الله كانت تجرى ، وما يستطيع أحد أن يقف سنة الله عن الجريان .

كانت هذه الأصوات تهز النائمين ليصحوا .. تزيل عنهم تلبد نفوسهم .. وتزيل ثقله « الأمر الواقع » من حسهم ، وتشعرهم أن التغيير ممكن ، وأن هذا

الأمر الواقع ليست له صفة الخلود ، ولا هو كذلك في منعة من النقد والتجريح .
وبذلت الكنيسة جهدها في محاولة إسكات هذه الأصوات ، مستخدمة في ذلك
نفوذها على قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم ، وسلطانها « التقليدى » الذى
كانت تأمر به فتطاع ، وينظر إلى كلمتها على أنها موضع التقديس .. لأنها
مرتبطة في حس الجماهير بالدين .. وما أعظم سلطان الدين على النفوس . كما
استخدمت محاكم التفتيش حين اشتد فزعها وخافت على ما في يدها من
السلطان .

ولكن رويدا رويدا زادت الأصوات عددا ، وزادت جرأة ، وزادت استخفافا
بالجبروت .

علماء .. ومفكرون .. وفلاسفة .. ومصلحون .. وحاقدون ! حاقدون على
سلطان الكنيسة الطاغى وما تتمتع به من المزايا بغير استحقاق ..
وكانت العملية بطيئة .. بطيئة .. بطيئة .. !! فقد كان حجم الطغيان هائلا
مخيفا ، وكان له في الأرض تمكن طويل يبلغ عدة قرون .
ولكن في النهاية حدث الانفجار !

وكان بشعا في شدة انفجاره ، بشعا في سرعة اكتساحه ، بشعا في قسوة
الحمم الذى تفجر من بركانه .
كانت الثورة الفرنسية بكل ماتضمنت من ألوان العنف والبطش والقتل
وإسالة الدماء ..

واكتسحت الثورة الفرنسية في طريقها ما كان قد تراكم من المظالم خلال ألف
وأربعمئة عام ! وأزالت الطبقتين الحاكميتين الطاغيتين المتحالفتين ! رجال
الإقطاع (الأشراف !) ورجال الدين !

ومع ذلك فإن الأمور - في تلك الثورة - لم تسر في مسارها الطبيعى .. فعلى
الرغم من كل الظلم المتراكم أكثر من ألف عام ، من الإقطاعيين ورجال الدين
سواء ، وعلى الرغم من كل الحقد المشحون في الصدور تجاه هاتين الطبقتين ،
وعلى الرغم من وحشية الجماهير حين تتولى هى القيادة .

على الرغم من ذلك كله فقد كان يمكن أن تسير الثورة في تمرد لها وقضائها على
الظالمين مسارا آخر .. لولا أن يدا خبيثة تدخلت لتتجه بالثورة في مسار معين ،
يخدم أغراضها هى قبل كل شيء آخر .. سواء خدم أو لم يخدم أهداف
الآخرين !

تلك هى يد اليهود ..

التمهيد الثاني

دور اليهود في إفساد أوروبا

اليهود لا ينشئون الأحداث كما يزعمون لأنفسهم وكما يتوهم الذين تبهرهم سيطرة اليهود في الوقت الحاضر .
ولكن لاشك أنهم يجيدون انتهاز الفرص واستغلالها لتنفيذ مخططهم الشرير .

ولحكمة ما أخرج الله هذه الأمة وناط بها دورا تؤديه في التاريخ .
ومشكلة هذه الأمة كامة في جبلتها المنحرفة التي لا تستجيب لدواعي الخير ولا تستقيم على الهدى ولا تشرق روحها ببارقة من نور ..
جحدوا فضل الله عليهم ، وجحدوا أنبياءهم ، وجحدوا كل فضل قدمه إليهم أحد من البشر .. وقابلوا كل ذلك بإنكار الجميل أو الطمع والجشع والحسد وقساوة القلب .

كرهتهم كل الأمم لخصالهم تلك ، فانطوا على أنفسهم ، يملأ نفوسهم الحقد الدفين على الأمم كلها ، يريدون أن يقضوا على كل شعوب الأرض ليقبوا هم وحدهم ، أو يريدون أن يستعبدوا الأمم كلها ويسخروها لمصالحهم .
وعقدتهم الكبرى اعتقادهم أنهم شعب الله المختار . ومن ثم فينبغي أن يكون بقية البشر خدما وعبيدا لهم ، ويكونوا وحدهم هم المسيطرين .
ولقد اختارهم الله حقا ذات يوم وكانوا شعب الله المختار .

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين ، وأتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » « ١ »

١٠ سورة الدحر [٣٠ - ٣٣]

ولكنهم عند الابتلاء سقطوا ، وجحدوا تلك النعمة الهائلة فلم يرعوها حق رعايتها ، بل لم يرعوها بشيء على الإطلاق ! « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » « ١ »
فهل ذكروا !؟

« أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوئ أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون !؟ » « ٢ »

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم . ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجدا ، وقلنا لهم : لاتعدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم : قلوبنا غلف ! بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالمهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا .. فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » « ٣ »

تلك صفحتهم السوداء التى أدت إلى نزع العهد منهم ورقع الاختيار عنهم ومنحه لأمة سواهم .

ولقد كان هذا الأمر واضحا ومقررا فى أمنية إبراهيم عليه السلام ورد الله عز وجل عليه :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : إنى جاعلك للناس إماما .

١ . سورة البقرة [٤٧]

٢ . سورة البقرة [٨٧]

٣ . سورة النساء [١٥٣ - ١٦١]

قال : ومن ذريتى ! قال : لا ينال عهدى الظالمين ! « ١ »
فقد ابتلى الله إبراهيم جملة ابتلاءات كان أشقها وأصعبها أمره له أن يذبح
ولده الحبيب إسماعيل ، واستجاب هو وولده للابتلاء العظيم :
« وقال إنى ذاهب إلى ربى ، سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه
بغلام حلیم . فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك
فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من
الصابرين ! فلما أسلما ، وقته للجبن ، ونادىناه أن يا إبراهيم قد صدقت
الرؤيا ! كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح
عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين ،
إنه من عبادنا المؤمنين » « ٢ »

فلما أتم إبراهيم الابتلاء وجازه بنجاح كبير كافاه الله على ذلك بجعله إماما
للناس . وهنا تحركت فى إبراهيم عليه السلام رغبته البشرية فى أن يكون هذا
الفضل مستمرا فى عقبه ، وأن يكون العهد باقيا فى ذريته لا ينقطع ، فهل جامله
الله سبحانه وتعالى وهو يصطفيه ويقربه ويجعله خليلا له ، بأن أجابه إلى طلبه
على إطلاقه ؟ كلا ! بل جاء الرد حاسما قاطعا : « قال : لا ينال عهدى الظالمين ! » ،
وكان المعنى به هم بنو إسرائيل بالذات .

فلما اختار الله بنى إسرائيل فقد اختارهم للابتلاء : « وأتيناهم من الآيات ما
فيه بلاء مبين » « ٣ » فكانت نتيجة الابتلاء هى هذا التاريخ الأسود الذى
اقترفوه فى الأرض ، والظلم الذى أنذرهم الله أن يرفع عنهم العهد بسببه ولا
يبقيه فى أيديهم .. ونزع العهد منهم بالفعل تحقيقا لسنة الله الجارية التى لا تتغير ولا تبدل
ولا تحابي أحدا من البشر . نزع العهد عن « شعب الله المختار » فلم يعد مختارا بعد . ومنح الله
فضله ونعمته لأمة أخرى هى التى قال لها : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم
نعمنى ورضيت لكم الإسلام ديناً » « ٤ » وقال عنها : « كنتم خيراً أمة أخرجت للناس تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » « ٥ » .

١ . سورة البقرة [١٢٤]
٢ . سورة الصافات [٩٩ - ١١١]
٣ . سورة الدخان [٢٣]
٤ . سورة المائدة [٣]
٥ . سورة آل عمران [١١٠]

واشتد الحسد والحقد منذ ذلك الحين .
« ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » « ١ » .
ولقد جهدوا جهودهم كله لمحاولة القضاء على الأمة الإسلامية في مهدها ، حتى يئسوا فانكمشوا إلى حين :
« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم واخشون » « ٢ » .
ولكن حقدهم ظل معهم ، بل ظل يتزايد على طول الزمان وزاد تصميمهم الخبيث على نشر الشر في الأرض وسحق كل أمة عداهم .. حتى وانتهم الفرصة السانحة في العهد الأخير ..
وهنا يخطر سؤال : أليس الله سبحانه وتعالى قد تكفل بقهرهم وتسليط العذاب عليهم إلى قيام الساعة جزاء كفرهم وتبجحهم ؟
« وإن تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » « ٣ » .
بلى ! ولكن هناك حالات استثنائية في تاريخهم يشير إليها كتاب الله :
« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » « ٤ » ..
بحبل من الله وحبل من الناس ترتفع عنهم الذلة - مؤقتا - ويمكنون في الأرض ، لحكمة وغاية يريدتها الله .. ثم يعودون إلى الوعد المسبتر :
« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا » « ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » .
والآن هم في هذه الفترة الاستثنائية التي أشارت إليها الآية الكريمة من سورة آل عمران .
ولئن كان مخططهم هو استعباد البشرية كلها وسحقها تحت أقدامهم ، ولئن كان الإسلام عدوهم الأول الذي يحقدون عليه الحقد الأشد ، فما كانوا - حين بدأوا ينشطون نشاطهم الضارى في التاريخ الحديث - ماكانوا يجدون

١ . سورة البقرة [١٠٩] .
٢ . سورة المائدة [٢] .
٣ . سورة الأعراف [١٦٧] .
٤ . سورة آل عمران [١١٢] .

الفرصة السانحة للانقضاض على الإسلام ، فبدأوا بأوروبا ، إذ وجدوها أيسر منالاً لما كان في حياتهم من الثغرات التي أحدثتها الكنيسة بحماقاتها وخطاياها ، فيسرت لليهود أن يخرجوا من أحجارهم ويعيثوا فساداً في الأرض .
والآن فلننظر كيف تحرك اليهود لتنفيذ مخططهم الشرير ، انتهازا للفرصة السانحة واستغلالاتاً للأحداث الجارية ، لا إنشاء للأحداث كما يدعون عن أنفسهم ، وكما يرسمهم من يهول من مقدرتهم الشريرة من أمثال « وليم كار » مؤلف الكتاب الشهير « أحجار على رقعة الشطرنج » الذي ينسب فيه كل أحداث التاريخ لفعل اليهود !

يقول التلمود (١) لليهود : الأمميون (أى كل الأمم غير اليهود) هم الحمير (دواب الحمل) الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار ، وكلما نفق منهم حمار ركبنا حماراً آخر ! ..

وبصرف النظر عن وقاحة التعبير وغلظته فهو واضح الدلالة على هذا الكبر الذى وصفه الله فيهم : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم .. » فإنهم إذا كانوا يستكبرون على الرسل فكيف يكون استكبارهم وغطرستهم وصلفهم على البشر من غير الأنبياء ؟!

ثم يصف لهم التلمود كيف ينبغي لشعب الله المختار أن يعامل الأمميين : « اقتل الصالح من غير الإسرائيليين . ومحرم على اليهودى أن ينجى أحداً من باقى الأمم من هلاك أو يخرج من حقرة يقع فيها لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين » ٢ « .

« إذا سرق أولاد نوح - أى من غير اليهود - شيئاً ولو كانت قيمته طفيفة جداً يستحقون الموت ، لأنهم خالفوا الوصايا التى أعطاهها الله لهم ، أما اليهود فمصرح لهم أن يضرروا الأممى » ٣ « .

« إن تجارة البغاء بالأجنبى والأجنبية ليست إثماً ، لأن الشريعة براء منهما » ٤ « .

١ « التلمود هو كتاب اليهود « المقدس » غير المنزل ، انما هو من تأليف حكمائهم وله عندهم قداسة أكثر من الكتاب المنزل !!

٢ « الكنز المرصود ص ٨٤ - ٨٥ . د . روهلنج وآخر ، ترجمة يوسف حنا نصر الله ، بيروت

٣ « الكنز المرصود ، ص ٧٢ - ٧٣ .

٤ « همجية التعاليم الصهيونية ، بولس حنا سعد ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ص ١٧٢

وهذه التعاليم أكثر قداسة عندهم من التعاليم الواردة في كتاب الله المنزل ،
التي تدعو إلى البر والخير الذي لم يطبقوه أبدا ولم يطبقوه في حياتهم أبدا ، إلا
قليل منهم ، وهذا هو الذي أشار إليه القرآن الكريم :
« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه
بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في
الأميين سبيل ! ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ! » ١ .
فهم يدعون على الله أنه أذن لهم أن يعاملوا الأميين (وهم الأمميون في
التعبير الآخر) على هذا النحو ، وهم يعلمون أنهم يكذبون على الله . ثم يطيعون
الكذب الذي يعلمون كذبه ، ويعرضون عن الصدق الذي يعلمون أنه الحق !
وإذ كان مخططهم هو استعباد البشرية و« استحمارها » وتسخيرها
لمصالحهم ، فقد علموا أن أنجح الوسائل لذلك هي نزع عقائد الأميين وإفساد
أخلاقهم .

يقول القرآن عنهم :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس
مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين » ٢ .

ورغم أن هذا القول نازل فيهم ، فقد وعوه وطبقوه على غيرهم !
إن العبرة في الآية الكريمة أن الأمة التي أنزل الله كتابا من عنده لتحكمه في
شئون حياتها وتجرى حياتها بمقتضاه ثم أعرضت عنه ونبتته ، تفقد آدميتها
وتتحول إلى دواب كالحمير . وهو نفس المعنى الذي تحمله الآية : « أولئك
كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » ٣ .

وإذ وعى اليهود هذه الحكمة من قديم - وإن كانوا يستثنون منها أنفسهم
باعتبارهم شعب الله المختار ! - فهم يسعون أبدا إلى نشر الفساد في الأرض ،
الفساد العقيدى والفساد الخلقى .. وكل أنواع الفساد :

« ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين » ٤ .

تقول البروتوكولات :

١ . سورة آل عمران [٧٥] .

٢ . سورة الجمعة [٥] .

٣ . سورة الأعراف [١٧٩] .

٤ . سورة المائدة [٦٤] .

« يجب علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول غير اليهود ، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورات مادية » « ١ » .
« ومن المسيحيين أناس قد أضلّتهم الخمر وانقلب شبابهم مجانين بالكلاسيكيات والمجون المبكر الذى أغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا ، ونساؤنا فى أماكن لهوهم والراغبات من زملائهن فى الفساد والترف » « ٢ » .
وهذا هو المخطط الشرير ..

ولقد ظل اليهود قرونا طويلة يسعون إلى تحقيق هذا المخطط ويحطمون باليوم الذى يجردون فيه الأمم كلها من دينها ، ليبقى شعب الله المختار وحده هو صاحب الكتاب وصاحب الدين .. وعندئذ يتحقق الوعد المزعوم ويحكمون كل البشرية !

ولكن هذا السعى ظل خائبا عدة قرون سواء فى العالم الاسلامى أو العالم المسيحى - رغم كل محاولاتهم الشريرة فى القضاء عليهما - حتى سنحت الفرصة الكبرى أمامهم حين أخذت أوروبا تنسلخ من دينها وتسعى إلى التحرر « من ذلك الدين » ..

هناك وابتدأت الفرصة المرتقبة منذ قرون . لا لأن اليهود دبّروا الأحداث - كما يزعمون فى البروتوكولات - ولا لأن تراكم التخطيط عبر القرون قد أتى ثماره آخر الأمر كما يرى أمثال وليم كار فى كتاب الأحبار .. ولكن لأن أوروبا هى التى « استحمرت » نفسها لشعب الله المختار حين فرت من الدين « كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسوة » « ٣ »

لو ظلت أوروبا ذات دين وعقيدة ما استطاع اليهود أن يصنعوا ما صنعوا ولا أن يفسدوا ما أفسدوا .

صحيح أن العقيدة التى قدمتها الكنيسة - أو قدمها بولس اليهودى الأصل - إلى أوروبا كانت فاسدة منذ أول لحظة ، وأن الدين الذى نشرته الكنيسة لم يكن هو دين الله المنزل .. وأنه منذ اللحظة الأولى كان يحمل الثغرات التى يمكن أن ينفذ منها أولياء الشيطان . ولكن شدة تمسك أوروبا بعقيدتها - رغم فسادها - قد جمّد محاولات اليهود لتنفيذ الخطط الشريرة فترة طويلة ، رغم أنهم لم يكفوا عن المحاولة خلال تلك القرون كما يقول - بحق - وليم كار فى

« ٢ » البروتوكول الأول .

١ . البروتوكول الرابع

« ٣ » سورة المدثر [٥٠ - ٥١] .

كتاب « أحجار على رقعة الشطرنج »

لقد كانت العقيدة فاسدة نعم ولكنها كانت تدعو الناس إلى الفضيلة وتحذرهم من حبائل الشيطان وتحذرهم من فتنة الجنس خاصة ، وتصل بهم إلى درجة التزمت والرهبانية ، والجنس من أشد أدوات اليهود فعالية في إفساد الأمميين ! كانت الأسرة متماسكة، والشباب - في الغالب - يتزوج مبكراً، والاختلاط محدود ، ودواعي الجريمة محدودة ، والحياة بسيطة أقرب إلى الشظف وعيش الكفاف .. وفي مثل هذا الجو ماذا يملك اليهود مهما كانت براعتهم في الشر ؟! لقد كان أقصى ما يفعلون هو جمع المال ، وإقراضه بالربا الفاحش للمحتاجين ، وإيقاع أمراء الإقطاع في الدين ليستولوا في النهاية على ثرواتهم . ولكن تأثيرهم في مجموع الناس كان معدوماً أو ضئيلاً إلى أقصى حد ، خاصة واليهود في أوروبا في ذلك الحين محتقرون مهينون فوق البغضاء الموجهة إليهم والاضطهاد الحائق بهم على أساس أنهم قتلوا المسيح كما يعتقد المسيحيون ! ولكن الحماقات المتوالية للكنيسة والخطايا التي ارتكبتها في حق الدين وحق الناس هي التي صدعت الكيان الديني في النهاية وأوجدت الثغرات الواسعة التي نفذ منها الشريريون .

منذ بدء « النهضة » وجدت الثغرات التي تمناها اليهود وجلسوا في انتظارها عدة قرون . فقد قامت تلك النهضة منذ مبدئها على أسس إنغريقية رومانية غير مسيحية ، بل إنها في الواقع قامت على أسس مضادة للمسيحية معادية لها ، وإن كانت لم تستطع أن تخوض المعركة الحاسمة مع المسيحية إلا بعد ذلك بأجيال ، ظلت الكنيسة خلالها ذات نفوذ واسع على الجماهير على أقل تقدير .

ويوماً بعد يوم كانت تقترب اللحظة التي يمكن أن ينهار فيها سلطان الكنيسة ويصبح دينها الذي فرضته على الناس عديم السلطان أو ضعيف التأثير .

وفي الثورة الفرنسية وقع ذلك الانفجار الحاد ، الذي دوى في أرجاء أوروبا كلها فأودى بالإقطاع وزلزل كيان الدين .

ومع ذلك فقد كان من الممكن أن تسير الثورة في مسار آخر لو لم يتدخل ذلك العنصر الشرير في توجيه الأحداث وجهة معينة تخدم أهدافه الخاصة بصرف النظر عن أهداف الثائرين !

كانت أهداف الثائرين هي القضاء على ذينك الحليين الطاغيين المستبدين :

رجال الإقطاع (الأشراف !) ورجال الدين . وكان الإقطاع شرا خالصا فكان ينبغي أن يزول ، وكان الدين الذي تقدمه الكنيسة وتطفي به على الناس يحوى بعض الحقائق وكثيرا من الأباطيل ، فكان يمكن أن تصحح أباطيله ، ويستبدل به الدين الحق ، الخالي أساسا من الأباطيل .

ولكن اليهود حين دخلوا في الأمر لم يدعوا الفرصة لتصحيح الدين .. وإنما اهتملوا فرصة سانحة لتحطيم الدين ! وهذا هو الدور الحقيقي الذي لعبوه في الثورة الفرنسية ، لا أنهم هم الذين أنشأوها كما يزعمون في البروتوكولات ، ويتابعهم في زعمهم وليم كار في كتاب الأحجار ..

حقيقة إن المحافظ الماسونية المنتشرة في فرنسا في ذلك الوقت هي التي قامت بالتحضير للثورة ، وهي التي رفعت شعاراتها الخاصة - الحرية والإخاء والمساواة - شعارات للثورة الفرنسية ، على غير وعى من « الأمميين » الذين قاموا بها ! وإن بعض الخطباء من اليهود اشتركوا في إلهاب حماسة الجماهير وتفجير الغضب المكبوت .. ولكن هل كان في طوق اليهود - مهما فعلوا ، ومهما تكن براعتهم الشريرة - أن يشعلوا الثورة لولم تكن خاماتها موجودة في النفوس ومستعدة للاشتعال ؟

أما دخول اليهود في الثورة فقد كان لتحقيق هدفين كبيرين من أهدافهم الخاصة ، أحدهما كانت الثورة تتجه إليه من تلقاء ذاتها ، والثاني كانت وجهة الثورة فيه تيسر لهم الوصول إلى هدفهم الخاص حين يستغلون الأحداث على طريقتهن الشريرة في استغلال الأحداث .

فأما الهدف الأول فقد كان تحطيم الإقطاع وهذا كان يوافق هدفا مرحليا خاصا لليهود .

وأما الهدف الثاني فقد كان تحطيم نفوذ الكنيسة ورجال الدين ، وهذا الذي حوله اليهود - لحسابهم الخاص - إلى تحطيم لذات الدين .

كان لليهود أكثر من مصلحة في تحطيم الإقطاع ، فلا عجب أن يدخلوا في الثورة التي رأوها متجهة - من تلقاء نفسها - إلى تحطيمه .

كانت الثورة الصناعية تدق الأبواب .. وكان اليهود يقدررون لأنفسهم فيها أرباحا طائلة عن طريق الإقراض بالربا . فمنذ مولدها واحتياجها إلى المال لتمويل الصناعة الناشئة ، سقطت فريسة في يد اليهود .. وما تزال حتى هذه اللحظة في أيديهم .

كان المال الوفير الذى يصلح لتمويل الثورة الصناعية في يد طائفتين اثنتين في ذلك الحين : طائفة أمراء الإقطاع وطائفة المراهبين من اليهود . فأما أمراء الإقطاع فقد رفضوا تمويل الصناعة الناشئة وأبوا أن ينقلوا أموالهم من دورتها الزراعية المألوفة لديهم ، والمضمونة الربح لهم ، إلى عملية جديدة لا يعرفونها ، ولا يطمئنون إليها لعدم تمرسهم بها ، خاصة وأن كثيرا من العمليات الصناعية كان يفلس في مبدأ الأمر بسبب نقص الخبرة أو عدم توفر الأسواق أو عدم وجود المواصلات الميسرة ؛ أو عدم إقبال الناس على الأشياء المصنوعة بالآلة وتفضيل المصنوعات اليدوية عليها بحكم الألفة الطويلة ، وعلى أساس أن استخدام المصنوعات الآلية سيمحق البركة من حياتهم لأن فيه أصبعا من أصابع الشيطان !

عندئذ تقدم اليهود لتمويل تلك الصناعات مرحبين ، لأنهم - على طريقتهم - لا يخسرون شيئا سواء ربحت الصناعة أو خسرت أو أفلسوا كاملا ، ذلك أنهم لا يشتركون اشتراكا مباشرا برؤوس أموالهم ، وإنما يقرضون أصحاب الصناعات بالربا الفاحش مقابل ضمانات تضمن لهم رجوع أموالهم إليهم مع الفوائد المضاعفة دون أن يتعرضوا للخسائر التي كانت تتعرض لها الصناعة الناشئة في ذلك الوقت في كثير من الأحيان .

وفكرة المصرف (البنك) فكرة يهودية بحته ، تقوم على تشجيع الناس على إيداع أموالهم - أو ارتهانها - لديهم مقابل إعطائهم صكوكا بها ، بينما يشغلون هم هذه الأموال في عمليات إقراض ربوية يربحون عن طريقها الكثير ، فيعطون المودعين جزءا من هذه الأرباح ويستأثرون هم بمعظمها دون مخاطرة ولا جهد يذكر !

وهكذا أصبحت لليهود مصلحة أكيدة في قيام الثورة الصناعية لما تدره عليهم من أرباح لم يكونوا ليحصلوا على مثلها من قبل من أمراء الإقطاع ، بالإضافة إلى الجلوس في مقعد السيطرة بدلا من الذل المهين الذى كانوا يعاملون به في عهد الإقطاع حتى وهم يقومون بإقراض المال للطالبين ! وقرأ إن شئت وصفا قصصيا لهذه الأوضاع في قصة « الزنبقة القرمزية » تأليف البارونة أورتنى حيث يطلب أمير الاقطاعية قرضا من المراهب اليهودى ، فإذا جاء هذا يسلمه القرض المطلوب وهو ينحنى أمامه في ذلة (ولا ضير عندهم في التذلل ما دام

وراءه ربح !) إذا الإقطاعى ينهره لأنه يمد يده إليه بالمال ، ويقول له : لا تدنس يدي بلمسها بيدك ! ضع المال هنا (مشيرا إلى مكان معين) وسأتسلمه أنا من ذلك المكان بعد انصرافك أيها اللعين !!

ولكن العقبة أمام الصناعة الناشئة لم تكن عقبة التمويل فحسب ، وهى بالنسبة لهم لم تكن عقبة بل كانت مصدر ربح وفير ، إنما كانت العقبة الكبرى هى توفير العمال اللازمين للصناعة .. فقد كان العمال فى الريف يحتجزهم الإقطاع ، سواء كانوا عبيدا للسيد أو عبيدا للأرض ، أو من العمال الزراعيين الأحرار وهم قلة قليلة إلى جوار العبيد والأقنان ، وكلهم لا يملكون الانتقال إلى حيث تقوم الصناعات - بالضرورة - فى المدينة ، حيث توجد الأسواق المعقولة لتصريف المنتجات الصناعية . ومن ثم كان لابد من تعطيم الإقطاع لتحرير العبيد - عبيد السيد وعبيد الأرض - وتقرير « حق الانتقال » لكل من يريد ، وهو حق لم يكن قائما فى ظل الإقطاع .

وهذا الهدف - وهو تحرير العبيد لتوفير العمال اللازمين للصناعة فى المدن - لم يكن فى حساب الثائرين ولا شك يوم قاموا بثورتهم العنيفة ضد مظام الإقطاع ، ولكنه كان هدفا واعيا للراسمالية القائمة فى أحضان اليهود منذ أول لحظة ، أى أنه كان هدفا واعيا فى تخطيط اليهود ، ومن أجله شاركوا فى الثورة الفرنسية وقامت مؤسساتهم الماسونية لها بدور التحضير ، أو التفجير ! « ١ »

أما الدين فلم تكن قصته كذلك .

كان الثوار ينقمون على رجال الدين طغيانهم الذى أذلوا به الناس عبر القرون ، كما كانوا ينقمون عليهم مساندتهم لأمراء الإقطاع ضد دعوات التحرر من الظلم ، وكانوا يريدون أن يتحرروا من ذلك الطغيان ومن تلك المساندة الظالمة للطغاة ، ولكنهم لو تركوا لأنفسهم دون تدخل الأشرار ، فلربما اكتفوا بقتل من قتلوا من رجال الدين دون التوجه لقتل الدين ذاته ، أو لربما طالبوا بالإصلاح الدينى الذى يدع الناس أحرارا فى عبادتهم ، ويزيل عن البابا ورجال الدين قداسهم ، ويصحح العقيدة من انحرافها ، وينى الأباطيل والمعميات عنها .

« ١ » أشرنا من قبل أكثر من مرة الى أن مشاركة اليهود فى الثورة أو تحريكها للتفجير ليس معناه أنهم هم الذين انشأوها إن شاء كما يزعمون ، لأنهم ما كانوا ليستطيعوا إيجادها من عدم ، ولا كانوا يستطيعون إشغالها لو لم تكن هى من ذاتها قابلة للاشتغال .

ولكن التدبير اليهودى كان يسعى إلى تحطيم الدين فى أوروبا جملة لتحقيق مرحلة من مراحل المخطط الشرير الذى يهدف إلى تجريد « الأمميين » جميعا من عقائدهم وأخلاقهم ، لأجل « استحمارهم » والسيطرة عليهم ، وتسخيرهم لشعب الله المختار ، بالإضافة إلى الانتقام الشخصى من الدين الذى اضطهدهم واستذلهم على اعتبار أنهم قتلوا « الرب » المعبود فى ذلك الدين وصلبوه ! لذلك سعوا بجمعياتهم الماسونية المنبثة فى أنحاء فرنسا ، وبخطبائهم وكتابهم إلى توجيه غضب الجماهير المجنونة نحو الدين ذاته لا نحو رجاله فحسب .. وكان أن أعلنت فى « فرنسا الثورة » أول حكومة لا دينية فى العالم المسيحى لا تجعل الدين أساسا لأى شئ فى حياة الناس .

وكانت خطوة جريئة وجبارة بلا شك ، جلس اليهود يفركون أيديهم سرورا بها فى غفلة من الأمميين ، الملتهمين - حسبما تقرر البروتوكولات - بشعارات « الحرية والإخاء والمساواة » والغارقين فى شرب الكأس حتى الثمالة ، المنتشرين بما صار فى أيديهم - فجأة - من سلطان يقتلون به الملوك والأشراف ورجال الدين ، وكل من حامت حوله شبهة من قريب أو من بعيد ، أو أشارت إليه الجماهير المجنونة بأصبعها : خائن ! أوجاسوس !

وهكذا خرج « الأمميون » الثائرون بشئ من النفع المشوب بكثير من الشر ، بينما خرج اليهود بتحقيق أهدافهم كاملة سواء فى تحطيم الإقطاع لترسيخ قدم الرأسمالية المولودة فى أيديهم ، أو تحطيم الدين تمهيدا « لاستحمار » أوروبا وتسخيرها لمصلحة اليهود .

كانت الثورة الفرنسية حدثا ضخما فى حياة أوروبا دون شك ، لا للأسباب التى يدرسونها للأولاد فى المدارس ، ولكن لأسباب أخرى أخطر وأهم .. فقد أطلقت يد اليهود لتحقيق مخططاتهم الشريرة بصورة لم تكن متاحة لهم من قبل فى عهد الإقطاع .. فقد ولد من جراء الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية التى كانت الأولى تحضيرا وتمهيدا لها ، مجتمع جديد كل الجدة عن المجتمع الإقطاعى ، استطاع اليهود أن يعيشوا فيه فسادا بكل قوتهم ، لأنه ولد فى أيديهم من اللحظة الأولى فاستطاعوا أن يشككوه على النحو الذى يريدون ، إذ كانوا هم - عن طريق البنوك والإقراض بالربا - ممولى الرأسمالية وصادتها المسيطرين عليها ، والمسيطرين - من خلالها - على صياغة المجتمع الجديد بكل ما فيه من عقائد وتصورات وأفكار وسلوك .. وإذ كان « الأمميون » فى أوروبا

قد بدأوا ينسلخون من دينهم ويسلمون قيادهم للشيطان !

وسنتحدث فيما بعد عن « الحتميات » التي زعمها التفسير المادى للتاريخ لتفسير الانتقال من طور في حياة البشرية إلى طور ، وخاصة الانتقال من الطور الزراعى إلى الطور الصناعى ، وسنرى عند الحديث عنها أنها حتميات زائفة ، وأنها ليست هى - أوليست هى وحدها - التي تحرك حياة البشر على الأرض ، وتنقل خطاها من طور إلى طور ، وأنه لم يكن من الحتم على الإطلاق أن تكون صورة المجتمع الرأسمالى الصناعى هى الصورة التي وجد عليها بالفعل لولا التخطيط الشرير الذى شكلها على هذه الصورة ! « ١ »

استطاع اليهود - بعقريتهم الشريرة - أن يتسلموا قياد المجتمع الأوروبى الآخذ فى الانسلاخ من دينه بتأثير انحرافات الكنيسة الأوروبية وجرائمها وخطاياهم فينشئوا على أنقاض المجتمع الإقطاعى المنهار مجتمعا جديدا بلامدين ولا أخلاق ولا تقاليد .. وقد سلطوا على هذا المجتمع كل قواهم الشريرة لينشئوه على هذه الصورة ، فوضعوه بين ذراعى كماشة هائلة تعصره عصرا وتفتت كيانه وتحيله كيانا ممسوخا مشوها بلا قوام !

إحدى ذراعى الكماشة كانت نظريات « علمية ! » زائفة ، تحارب الدين والأخلاق والتقاليد من كل زاوية مستطاعة ، تحتوى - لاشك - على شيء من الحق ، ولكنها تلبس الحق بالباطل على يدن يهود من أول التاريخ :

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ! » « ٢ »

« ٣ »

« يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ! »

وكان أبرز « الأبطال » فى هذه المعركة ثلاثة من « أساطين » اليهود هم

ماركس وفرويد ودركايم ..

« ١ » الحتمية الوحيدة فى هذا الوجود كله هى حتمية السنن الربانية . وما حدث بالفعل فى هذا الكون فقد كان محتم الوقوع فى قدر الله . ولكن قدر الله يجرى فى الأرض من خلال أعمال البشر إن خيرا أو شرا . « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » [سورة الروم . ٤١] ولكن قدر الله لا يفرض الفساد على الناس ، إنما يرتب على الفساد نتائجه وعلى الصلاح نتائجه « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ، ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » [سورة المائدة ٦٥ - ٦٦] « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » [سورة الاعراف . ٩٦]

« ٢ » سورة البقرة [٤٢]

« ٣ » سورة آل عمران [٧١]

وأما الذراع الأخرى للكماشة فكانت واقعا فعليا يقوم من أول لحظة على عداء مع الدين والأخلاق والتقاليد ، ويظل ينزلق خطوة خطوة ، كل خطوة تؤدي إلى ما بعدها كأنما بصورة تلقائية (ومن طبيعة المنزلق أن يهوى بصاحبه إلى الهاوية مادام قد سار فيه) وتؤدي في النهاية إلى الانسلاخ الكامل من كل مقومات الدين . وكان اللاعب الأكبر في هذه العملية الضخمة هو المرأة « المتحررة » اقتصاديا ، والمتحللة في ذات الوقت من سلطان الدين والأخلاق والتقاليد ..

وفيما يلي نتحدث عن كل من الذراعين الشريرتين ، وأثارها في إفساد المجتمع الأوروبي .

١ - النظريات العلمية

دارون ونظرية التطور

ليس دارون يهوديا ، فقد ولد لأبوين مسيحيين ، ولكن اليهود استغلوا نظريته على نطاق واسع وعملوا على نشرها في الأرض لما رأوه من إمكان الاستفادة بها في تحطيم عقائد الأممين كما تقول البروتوكولات : لقد رتبنا نجاح نيتشه ودارون وإن تأثير أفكارهما على عقائد الأممين واضح لنا بكل تأكيد .

فلا عجب إذن أن تجد نظريته تدرس في معظم مدارس الأرض لا على أنها فرض علمي (كما هي في حقيقتها) ولا حتى على أساس أنها « نظرية » علمية (أى لم تثبت ثبوتا قاطعا يرشحها لأن تكون حقيقة علمية) بل على أنها حقائق نهائية في علم الحياة !

ولد دارون في بريطانيا عام ١٨٠٩ ، وفي سنة ١٨٥٩ أصدر كتابه في « أصل الأنواع »

وقد كان متخصصا في علم الحياة ، وأدت به ملاحظاته العلمية إلى أن يكتشف أنه يمكن عن طريق « الانتخاب الصناعي » تأكيد صفات معينة أو إضعافها في النسل الناتج من زوجين منتخبين بصفات معينة ، وأنه يحدث مثل ذلك في « الطبيعة » عن طريق الانتخاب الطبيعي أى التزاوج الحريين الكائنات الحية .. وأن التغيير الناشئ من هذا الانتخاب يمكن أن يصل إلى حد استحداث صفات جديدة لم تكن في أى من الأبوين كطول المنقار في بعض الطيور ، أو الألوان الزاهية في بعضها الأخرى أو غير ذلك من الصفات . فافترض أن مثل هذه التغيرات قد حدثت في « الطبيعة » من قبل خلال ملايين السنين من عمر الحياة على سطح الأرض ، مما أدى على الدوام إلى ظهور « أنواع » جديدة وأدى كذلك - بتراكم التغيرات - إلى ظهور « أجناس » جديدة لم يكن لها وجود

من قبل .. ثم تصور أنه من خلال هذه العملية التي سماها عملية « التطور » سارت الحياة في سلسلة طويلة من الرقي التدريجي بدأت بالكائن الوحيد الخلية وانتهت بالإنسان على النحو التالي (باختصار كثير من التفاصيل) :

كائن وحيد الخلية (كالأميبيا) - فطريات متعددة الخلايا - نبات - نبات يشبه الحيوان (كالهديرا) - حيوان يشبه النبات (كالمرجان) - حيوانات لافقارية - حيوانات فقارية دنيا (كالأسماك والطيور) - حيوانات فقارية أرقى (كالثدييات الدنيا) - الثدييات العليا - القردة الدنيا - القردة العليا (الغوريلا والأورانج أوتانج « إنسان الغاب » والشمبانزى والجيبون) - الحلقة المفقودة (القرد الشبيه بالإنسان أو الإنسان الشبيه بالقردة العليا) - الإنسان .

وقال دارون - فيما قال وهو يشرح نظريته : إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق Nature creates everything and there is no limit to its creativity.

وقال كذلك : « إن الطبيعة تخبط خبط عشواء »

Nature works haphazardly

وبصرف النظر عن صحة المعلومات الواردة في نظريته وصحة تفسيراته لها أو عدم صحتها « ١ » ، فقد أنشأت رجة كبيرة في المجتمع الغربي ، اهتزت لها الكنيسة من جهة « ٢ » والدوائر العلمية من جهة أخرى والجماهير من جهة ثالثة . فأما الكنيسة فقد كفرت دارون ابتداء وقالت عنه إنه زنديق مهرطق مارق من الدين ، لأنه ينفي الخلق المباشر من الله للإنسان على صورته (تفسر الكنيسة كلمة « على صورته » الواردة في التوراة على أن الله قد خلق الإنسان على صورة نفسه - تعالى - أي على صورة الله) بل ينفي يد الله من عملية الخلق كلها كما ينفي الغاية

١ ، لا ندخل في نقاش مع نظرية دارون فهذا مجاله الكتب العلمية المتخصصة في علم الحياة وتفسير الظواهر المتصلة بالكائنات الحية ، ولكننا نذكر فقط أن هناك علماء آخرين لهم قدم راسخة في مجال البحث العلمي يعارضون دارون معارضة تامة في تفسيره لظاهرة نشوء الحياة وتطورها .

كما أن علم « الجينات » (المورثات) يميل إلى اعتبار الصفات الخاصة بكل جنس ثابتة وغير قابلة للنقص أو الزيادة مما يعارض فكرة نشوء الأجناس الجديدة من الأنواع المتطورة بتغير صفاتها الوراثية تغيرا جذريا ينقلها إلى جنس جديد (كنتشاء الفقاريات من اللافقاريات أو نشأة القردة من الثدييات العليا أو نشأة الإنسان من القردة العليا) كما أن « الباروينية الحديثة Neo Darwinism » ذاتها تقررتفرد الإنسان عن بقية الحيوانات تفردا جوهريا .

٢ « إذا كانت الثورة الفرنسية قد قضت على نفوذ رجال الدين في فرنسا فليس معنى هذا أن الكنيسة قد فقدت وجودها تماما في ذلك الحين وخاصة خارج فرنسا

والقصد، لأنه يقرر أن الحياة قد وجدت على الأرض بالصدفة في ظروف معينة (لم تتكرر مرة أخرى) ! وأن تفسير الحياة وتطورها بإرجاعها للإرادة الإلهية يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحث !

This would be to introduce a supernatural element in a completely mechanical position

وقد جاوبها دارون من ناحيته باتهامها بالجهل والتخريف ومحاربة العلم بحقائقه ونظرياته .

وأما العلماء فقد انقسموا إلى ثلاث فرق . فرقة تؤيد دارون وتحمس له ، وفرقة تعارضه وتندد به ، وفرقة تحاول التوفيق بين ما تقوله النظرية وما يقوله الدين ! وأما الجماهير فقد وقفت في مبدأ الأمر موقفا حاسما مع الكنيسة ضد دارون ! فقد عز عليها أن يسلبها دارون إنسانيتها ويردها إلى أصل حيواني ، وينفى التكريم الرباني الذي كرم به الله الإنسان حين خلقه على صورته ، وزينه بالعقل وميزه بالقدرة على النطق .. ولكنها رويدا رويدا بدأت تغير موقفها ، وتعتنق أفكار دارون ، وتتغاضى عن مسبة الحيوانية التي ألحقها بها في نظريته ، بل بدأت تهاجم الكنيسة لموقفها من دارون، وترى في نظريته معولا هداما يهدم ما بقي لها عليهم من سلطان !

هل تم هذا التحول في موقف الجماهير تلقائيا أم كان وراءه ذلك العنصر الشرير ؟!

وهل كان يمكن -لولا ذلك التدخل الشرير - أن يتغاضى الناس عن إنسانيتهم المسلوبة وعن كرامتهم المُلغاة ، ويعتبقوا نظرية تقرر صراحة أن الإنسان إن هو إلا امتداد لسلسلة التطور الحيواني ، لا قصد من خلقه ولا غاية ، وما يزيد عن القردة إلا ما أضافه التطور خلال مئات الألوف من السنين من تغير عشوائى غير مقصود ؟!

حقيقة إن « العلماء » هم الذين بدأوا باعتناق نظرية دارون ، ثم تبعتهم الجماهير . ولكن هؤلاء وهؤلاء ما كانوا ليفعلوا ذلك لولا عنصران قائمان في الموقف ، عنصران غير « علميين » ، أحدهما موقف الكنيسة الطغيانى من الأمور كلها ومن العلم والعلماء خاصة ، والآخر هو الدعاية الضخمة التي قام

بها اليهود للنظرية وإلحائها المصادمة للعقيدة بصفة خاصة .

ومرة أخرى لا نتعرض هنا للنظرية بالنقد . وإن كنا سنشير فيما بعد إلى آراء الدارونية الحديثة نفسها في هذا الأمر ، بعد ما تقدم العلم كثيرا عما كان عليه أيام دارون ، وكشف عن أشياء لم تكن مكشوفة له في ذلك الحين ، إنما نتكلم عن إلحائها المصادمة للعقيدة ..

إن النظرية - بصرف النظر عن صحتها أو عدم صحتها من الوجهة العلمية البحتة - لم يكن من الحتم أن تصاغ بالطريقة التى تصادم العقيدة لولا ذلك الصراع القديم الذى قام بين الكنيسة والعلماء، واستمر إلى وقت دارون وما بعده ، وجعل « العلماء » يتعمدون تجريح الدين ورجاله انتقاما مما فعلته الكنيسة من قبل ، كما جعل أوروبا تهرب من إله الكنيسة وتضع « الطبيعة » إلها بدلا منه !

لو قال دارون إن الله حين خلق الحياة على الأرض هيا لها ظروفها معينة تساعد على وجود الخلية الحية ونموها واستمرارها ، ثم نوع الله الخلائق على نسق معين بدءا من الكائن الوحيد الخلية إلى أكثر الخلائق رقيا وتعقيدا وهو الإنسان ، وإن قمة الإعجاز فى الخلق - والخلق كله معجز - هو خلق الانسان على هذه الصورة، وإمداده بالمزايا التى تؤهله للقيام بدوره على الأرض « ١ » .

لو قال هذا ، ثم أورد كل ما أورده من التفصيلات العلمية التى أتى بها فى نظريته - بصرف النظر عن صحتها أو خطئها من الناحية العلمية - فماذا كان يمكن أن يحدث ؟

كانت النظرية تظل موضع أخذ ورد بين العلماء للاستيثاق من صحة تلك التفصيلات ، كما يحدث مع أى فرض علمى أو نظرية علمية ، حتى تمحص وتثبت حقيقتها، ولكن دون رجة ولا ضجة ولا هزات .. ولكنه - لأمر ما - لم يقل ذلك ولم يرد أن يقوله !

« ١ » هذا الذى اثبتته الداروينية الحديثة فيما بعد ، وإن كانت ما تزال فى خصامها التقليدى مع الدين !

إنما قال بدلا منه إن « الطبيعة » هي التي خلقت . وقال إنها تخبط خبط عشواء . وقال إنه يرفض تفسير نشوء الحياة وتطورها بإرجاع ذلك إلى الإرادة الإلهية لأن ذلك خلط علمي غير جائز ، وإنه بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحث !! ثم تحايل على الحرج الذي يواجهه ويواجهه كل منكر للإرادة الإلهية في قضية الخلق كله ، وخلق الحياة أول مرة من الموات ، والذي يوجه إليه هذا التحدى : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » « ١ » تحايل على ذلك تحايلا سخيلا - من وجهة النظر العلمية البحتة - فقال إن الحياة نشأت صدفة على الأرض !!

ومن ثم وجدت فيه اليهودية المتربصة فرصة سانحة لتقويض عقائد « الأمميين » وإزالة ما بقى من أثر للدين في حياة الناس !

وينبغي - لكي ندرك دور اليهود في إفساد أوروبا دون تهويل في تقدير مقدرتهم الشريرة كما فعل وليم كار - أن نقول إن عالما سابقا هو « لامارك » La Marke كان قد قال شيئا قريبا مما قاله دارون ، ولكن اليهود لم يستطيعوا استغلال نظريته لتقويض عقائد الأمميين كما فعلوا بنظرية دارون ، لأن الحدث العظيم الذي رج المجتمع الأوروبي كله - وهو الثورة الفرنسية - لم يكن قد وقع بعد ، وكان المجتمع - على كل ما كان يحمل من الفساد والظلم - ما يزال متماسكا بالصورة التي لا تدع لليهود فرصة الدخول ، فعجزوا يومئذ عن الدخول ! ولكن الرجة التي أحدثتها الثورة الفرنسية - التي اشتركوا هم في توجيهها وجهة معينة - هي التي قربت الهدف وأحدثت الثغرات التي يمكن أن ينفذوا منها . فلما قام دارون تلقفوه وأمسكوا به معولا هائلا لتحطيم كل القيم في حياة البشرية .

أيا كان القول في نظرية دارون من الوجهة العلمية ، فقد كانت نظرية محصورة في « علم الحياة » تحاول أن تفسر نشأة الحياة وتطورها ، فلم تكن نظرية فلسفية ، ولا سياسية ، ولا اقتصادية ، ولا اجتماعية ، ولا نفسية ..

١ . سورة الطور [٣٥]

ولكنها انقلبت - في فترة وجيزة من الزمن - فأصبحت كل هؤلاء !
وحقيقة أن من أراد أن يستخرج منها إحياءات فلسفية أو غير فلسفية فإنه
يستطيع ..

فالنظرية التي تقرّر حيوانية الإنسان وماديته (بمعنى أن الظروف المادية
المحيطة به هي التي أثرت في « تطوره » وإعطائه صورته) والتي تنفى القصد
والغاية من خلقه ، وتنفى التكريم الرباني له بإفراده بين الكائنات الأخرى
بالعقل والقدرة على الاختيار والقدرة على التمييز فضلا عن المزايا الأخرى
« الإنسانية » ..

إن نظرية كهذه يمكن أن تعطى إحياءات خطيرة في كل اتجاه ..
فحين يكون الإنسان حيوانا أو امتدادا لسلسلة التطور الحيواني فأين مكان
العقيدة في تركيبه ، وأين مكان الأخلاق ، وأين مكان التقاليد الفكرية والروحية
والأخلاقية والاجتماعية .. الخ ؟!

وحين يكون حيوانا ، أو امتدادا لسلسلة التطور الحيواني ، فما مقياس
الخطأ والصواب في أعماله ؟ وكيف يقال عن عمل من أعماله إنه حسن أو قبيح ،
جائز أو غير جائز .. بعبارة أخرى كيف يمكن إعطاء قيمة أخلاقية لأعماله ؟
وحين يكون حيوانا أو امتدادا لسلسلة التطور الحيواني فما معنى
« الصواب » المفروضة على سلوكه « وما معنى وجود الصواب على
الإطلاق » ١ ؟

كل تلك إحياءات يمكن أن تستخرج من النظرية لمن أراد أن يصطاد في الماء
العكر ! ولكننا إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن أحدا لم يصنع ذلك سوى
اليهود !! هم الذين استخرجوا هذه الإحياءات كلها التي لم يقلها دارون ،
وربما لم يفكر فيها أبدا ، ولكنهم أسرعوا إلى اقتناصها ، وأنشأوا منها نظريات
« علمية » اقتصادية ونفسية واجتماعية .. الخ موجهة كلها لمحاربة الدين
والأخلاق والتقاليد ..

وكانت فكرة « التطور » ذاتها من أشد ما لعب به اليهود لزلزلة عقائد
« الأممين » وتقويضها .. فقد ضخموا تلك الفكرة أي تضخيم وصنعوا منها

١ « قالت الداروينية الحديثة - فيما بعد - إن الصواب موحدة في الكيان ، البيولوجي ، للإنسان ، في
تركيب محه وجهاهه العصبى ، وإبه معتد بهذا عن الحيوان ' ومع ذلك يرفضون الدين ' »

قذائف يطلقونها على كل معنى « ثابت » في حياة البشرية من دين أو قيم أو أخلاق .

والحق - مرة أخرى - أنهم لا ينشئون الأحداث ولكنهم يتحينون الفرص ويستغلون الأحداث .

لقد كان الخلل الفكري في حياة أوروبا في ظل سيطرة الكنيسة الفكرية هو الذى رشح للهزة التى أصابت هذا الفكر يوم أطلقت عليه فكرة التطور ، فقد كان كل شئ في حس أوروبا المسيحية الكنسية ثابتا منذ الأزل وسيظل ثابتا إلى الأبد .. ليست فكرة الألوهية فقط هى التى ينطبق عليها تصور الثبات ، ولا القيم الدينية والأخلاقية وحدها . ولكن الجبال والشجر والحيوان والطير . والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. وكل شئ في الحياة .

البابا هو البابا ذو القداسة ، يذهب واحد ويגיע الآخر ، ولكن البابوية ذاتها وقد استهنا أمر ثابت لا يتغير ..

الملوك والباطرة هم الملوك والباطرة .. يذهب منهم من يذهب ويגיע من يגיע .. ولكن الملكية ذاتها أمر ثابت لا يتغير ..

الإقطاع هو الإقطاع .. يذهب أمير ويגיע أمير .. بنفس الصورة ، بنفس المعاملة ، نفس السيادة من جهة والعبودية من الجهة الأخرى .. وكلها أمور ثابتة لا تتغير ..

من ثم غلب على الفكر الأوروبي المسيحى الكنسى تصور الثبات في كل شئ . فلما وقعت الثورة الفرنسية وأزالت الإقطاع والملكية وزلزلت نفوذ الكنيسة كان ذلك حدثا حادا في تاريخ أوروبا أثر تأثيرا عميقا في كل اتجاه ، ولكنه كان قميئا - بعد فترة من الزمن - أن يفقد حدته ، ويستقر على صورة فيها لون من « الثبات » .

ولكن دارون جاء فأطلق قذيفته على أمر لم تهزه حتى الثورة الفرنسية ذاتها ، التى زلزلت كثيرا من الأوضاع في أوروبا ، فقال إن الخلق ذاته غير ثابت ، وإن الانسان لم يكن إنسانا حين وجد أول مرة بل كان شبيها بالحيوان ! وبين الشد والجذب الذى تعرضت له النظرية أمسك اليهود بالخييط فجذبوه بعيدا بعيدا في كل اتجاه لكي لا يعود !

وبسرعة - شريرة - وجهوا القذيفة إلى فكرة « الثبات » ذاتها وقالوا - من طريق استخدام فكرة « التطور » - إنه لا شئ ثابت على الإطلاق . وإن طلب

الثبات فى أى شىء : الدين أو الأخلاق أو التقاليد .. الخ ، هو فى ذاته فكرة خاطئة ! فكرة غير علمية ! فكرة مخالفة لطبيعة الأشياء . ثم ظلوا يرددون هذه الأقاويل وينشرونها ويؤكدون عليها ، حتى صارت هى الصبغة المسيطرة على الفكر « الأممى » لا يقبلون فيها جدلا ولا مناقشة .. ومن ناقش فهو « الرجعى » « المتزمت » « الجامد » « المتأخر » الذى يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء .. وعقارب الساعة لا ترجع أبدا إلى الوراء !! وستسحقه عجلة « التطور » التى لاتبقى ولا تذر !!

من بين الأسماء « اللامعة ! » التى شكلت الفكر الأوروبى الحديث ثلاثة أسماء على الأقل من « كبار » اليهود : ماركس وفرويد ودركايم ، Marx , Freud , Durkheim كل منهم قام بدوره فى زلزلة الفكر الأممى وإعادة تشكيله على النحو المطلوب .. وكل منهم قام بدوره فى تحطيم الأعداء الألداء للمخطط اليهودى : الدين والأخلاق والتقاليد .. وكل منهم بنى أفكاره « العلمية ! » على أساس النظرية الداروينية من هنا أو من هناك ..

فأما ماركس فقد أنشأ نظرية اقتصادية أو قل فلسفة مادية كاملة ، بناها على فكرة التطور من جهة وفكرة حيوانية الإنسان وماديته من جهة أخرى . وأما فرويد فقد أنشأ نظرية نفسية لتفسير تركيب النفس الإنسانية ونشاطاتها ، بناها على فكرة حيوانية الإنسان . وأما دركايم فقد أنشأ نظرية اجتماعية لتفسير الظواهر الاجتماعية بناها على حيوانية الإنسان وغلبة نزعة القطيع الحيوانية عليه من جهة ، وعلى انعدام الثبات فى القيم الاجتماعية من جهة أخرى .

كلهم - كما ترى - « خدم » الفكر الداروينى وأوصله إلى أبعاد لم تخطر على بال دارون على الإطلاق .

ونعرض هنا عرضا سريعا لأفكار كل من ماركس وفرويد ودركايم دون مناقشة تذكر ، لنبين فقط طبيعة الذراع التى حملت اسم العلم والنظريات العلمية من تلك الكماشة الرهيبة التى أحاطت بالأمميين فى أوروبا - وبالعالم كله من بعد عن طريق السيطرة الأوروبية - فذللت الأمميين لركوب شعب الله المختار !

فأما ماركس فسنعود بإذن الله إلى مناقشة تفصيلية لأفكاره ونحن نتحدث عن الشيوعية والمادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ . وأما فرويد ودركايم

فيكفينا أن نعرض أفكارهما بغير تفصيل، بالقدر الذي يبين أثرها في تشكيل الفكر الأوروبي تجاه الدين والأخلاق والتقاليد . وقد ناقشت فرويد - من قبل - في أكثر من كتاب وبخاصة في كتاب « الإنسان بين المادية والاسلام » وناقشت دركايم في كتاب « التطور والثبات في حياة البشرية »

ماركس

ماركس أبو الشيوعية والمادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ وهو صاحب القول الشهيرة « الدين أفيون الشعوب » وهو يهودى المانى ولد عام ١٨١٢ ومات عام ١٨٨٣ .

أخذ ماركس جوهر النظرية الداروينية وأنشأ على أساسه نظرية اقتصادية وتفسيرا للحياة البشرية يحصر الإنسان في عالم المادة والتطور المادى ويجعل قوانين المادة منطبقة على عالم البشر !! كما يجعل أمور الحياة كلها ، من عقائد ومشاعر وأفكار وأنماط سلوكية ومنظمات ومؤسسات ... الخ .. تبعا للتطور الاقتصادى وللأوضاع المادية التى يعيش فيها الإنسان ومجرد انعكاس لها ، لا تسبقها ، ولا تخرج عنها ، ولا دور للإنسان فيها إلا أن يدور مع التطور الاقتصادى ومقتضياته .. لأنها « حتميات » .

وقسم الحياة البشرية بمقتضى هذا التصور إلى خمس مراحل حتمية : هى الشيوعية الأولى والرق والإقطاع والرأسمالية والشيوعية الثانية والأخيرة . وجعل الانتقال من كل طور من هذه الأطوار إلى الطور اللاحق له حتميا من جهة ، ومردودا إلى أسباب مادية واقتصادية من جهة أخرى .

فالشيوعية الأولى هى الأصل الذى عاشت عليه البشرية الأولى فى بداوتها ، وجوهرها المميز هو عدم وجود ملكية فردية لشيء على الإطلاق ، قال : ولا النساء أيضا ، فقد كان الجنس يمارس على المشاع ، كل النساء لكل الرجال على السواء ! والأرض ملك للقبيلة بأكملها ، والطعام يتناوله الجميع معا والسلاح مملوك للقبيلة سواء سلاح الصيد أو الحرب .. والحياة ملائكية شعارها التعاون والحب والتناسق والانسجام !

ثم اكتشف الإنسان الزراعة فأدى هذا الأمر المادى البحت إلى الانتقال إلى طور اقتصادى جديد تبدل فيه كل شيء تبدا كاملا فراحت القبائل القوية تقاتل

القبائل الضعيفة وتسترقها وتشغلها في فلاحه الأرض فنشأ الرق ونشأت الملكية الفردية وانتهت الفترة الملائكية التي عاشتها البشرية في فترتها الأولى .
ثم اخترع الإنسان المحراث. ومرة أخرى أدى هذا الأمر المادى البحث إلى الانتقال إلى طور اقتصادى جديد. فقد اكتشف الانسان أنه يستطيع أن يزرع - بهذه الآلة الجديدة - مساحة أوسع بكثير مما كان يمكن زرع بالآلات السابقة ، فنشأ الإقطاع .. ونشأت معه أفكار وعقائد ونظم ومؤسسات جديدة مختلفة تماما عن السابقة .

ثم اخترع الإنسان الآلة فنشأت الرأسمالية - بسبب مادى بحث - وانتقلت صورة الملكية الفردية من ملكية زراعية إقطاعية إلى ملكية صناعية رأسمالية ، ونشأت أوضاع فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة بالمرّة ، فتغيرت الطبقة ذات السيادة فلم تعد هى طبقة الأشراف (أمراء الإقطاع) إنما أصبحت طبقة الرأسماليين أصحاب المصانع وأصحاب رؤوس الأموال ، ولم يعد الشعب فى مجموعه فلاحين إنما صار عمالا صناعيين ، وتغيرت مفاهيم هؤلاء وهؤلاء، وتغيرت نظرتهم إلى كل القيم التى كانت سائدة من قبل فى المجتمع الزراعى .

ثم نشأ الصراع بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال فنشأت الشيوعية لا لأسباب مادية فى هذه المرة إنما لأسباب اقتصادية - وهى صنو الأسباب المادية فى نقل الناس من طور إلى طور - ولكن فى هذه المرة لا يحدث تطوّر ينقل الناس إلى طور جديد بعد الشيوعية ، إذ الشيوعية هى المستقر الأخير للبشرية كما كانت بدايتها هى الشيوعية . وتحدث فى داخل الشيوعية تغيرات ولكنها لا تغير المبدأ الرئيسى لها ، وهو إلغاء الملكية الفردية وإقامة الملكية الجماعية بدلا منها .. وفى النهاية - نهاية كل تطور وتغير - تلغى الدولة لانتفاء الحاجة إليها ، ويزيد الإنتاج بالدرجة التى تسمح بتطبيق مبدأ « من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته » ويزول الصراع نهائيا من حياة البشر ، ويعيشون فى حالة من الملائكية كالتى بدأوا بها حياتهم أول مرة .

ويركز ماركس فى كلامه عن مراحل التطور الحتمية وأسبابها المادية والاقتصادية على الانتقال من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية لأن هذا هو الطور الذى كان قائما فى وقته ، ولأنه هو الذى وقع فيه التغيير الضخم الذى أحدثه اليهود فى المجتمع الأوروبى ، فيقول إن من سمات المجتمع الإقطاعى

الزراعى : التدين ، وترابط الأسرة ، وسيطرة الرجل على الأسرة بكل أعضائها ، أى على الزوجة والأولاد ، ويرد هذا كله إلى أسباب مادية واقتصادية، فلا يقول إنه يرجع إلى قيم معنوية ، ولا يقول إن هذا - فى ذاته - أمر طيب وفاضل ومستحب أو واجب ، إنما هو انعكاس لأوضاع مادية واقتصادية . فالفلاح - وهو المنتج الرئيسى فى المجتمع الزراعى - يضع البذرة فى الأرض ، ثم لا يستطيع أن يسيطر عليها ولا أن يستعجلها عن موعتها ، ولا أن يقيها من الآفات والتأثيرات الجوية المختلفة ، ومن ثم « يفترض ! » وجود قوة غيبية ، يكل إليها هذا الأمر كله ، الذى يعجز عن التحكم فيه والسيطرة عليه ، ويرجو يترضى هذه القوة الغيبية بالعبادات ، والنسك والقرايين ، لكى ترضى عنه وتبارك زرعه ، ولكى يتقى غضبها عليه وانتقامها منه .. ومن ثم يكون التدين قويا، ويكون سمة بارزة للمجتمع الزراعى .

ثم إن الرجل فى المجتمع الزراعى هو المكتسب ، وهو الذى ينفق على الزوجة والأولاد ، ومن ثم يسيطر عليهم ويبسط سلطانه . ويكون سلطانه أشد ما يكون على الزوجة ، فيفرض عليها أن تكون له وحده ، ومن ثم تصبح قضية العفة والمحافظة على العرض ذات قيمة كبيرة فى المجتمع الزراعى ، ويفرض على المرأة أن تحافظ على عرضها (إرضاء لأنانية الرجل المكتسب المنفق) ويضفى على ذلك ثوب الدين والأخلاق ، فتصبح قضية العفة قضية دينية وأخلاقية فى حين أنها مجرد انعكاس لوضع اقتصادى معين يكون الرجل فيه هو المكتسب دون المرأة .

فإذا تحول الناس إلى المجتمع الصناعى المتطور تغير الأمر بالكلية . فالعامل هنا غير محتاج « لافتراض ! » القوة الغيبية التى كان يلجأ إليها العامل الزراعى ! لأنه يتولى عملية الإنتاج بنفسه . فهو الذى يعالج المادة الخامه ويشكلها كما يريد .. ومن ثم يقل التدين إلى أقصى حد فى المجتمع الصناعى . ومن جانب آخر فإن المرأة تستقل اقتصاديا لأنها تعمل وتكتسب ولا تعود عالة على الرجل كما كانت فى المجتمع الزراعى « المتأخر » . ومن ثم يفقد الرجل سيطرته عليها ولا يعود فى إمكانه أن يفرض عليها أن تكون له وحده ، كما كان يفرض عليها فى المجتمع الزراعى .. فتتحرر من القيود ، وتفقد قضية العفة أهميتها فى المجتمع الصناعى المتطور، لأنه أصبح من حق المرأة أن تهب نفسها لمن تشاء دون سيطرة للرجل عليها ..

وكما أن الوضع « المحافظ » و المجتمع الزراعى لم يكن فضيلة ولا شيئاً مرغوباً في ذاته ، إنما مجرد انعكاس للطور الاقتصادى، فكذلك لا يعد « الانحلال » في المجتمع الصناعى رذيلة ، إنما هذه وتلك هى السمات المصاحبة لهذا الطور وذلك ، لا توصف في أى الحالىين بأنها فضيلة أو رذيلة . إنما كل شىء في إبانها هو الصواب لأنه هو الانعكاس الطبيعى للطور الاقتصادى الذى يقرر - وحده - كل العقائد والقيم والمبادئ ، فإذا تغير الطور لم يعد صواباً ما كان صواباً من قبل ، إنما يكون استمراره ظاهرة مرضية ينبغى أن تقاوم وأن تزال .

فالتدين أمر طبيعى في المجتمع الزراعى ، لا يعيبه أحد ولا يستغربه أحد . ولكنه علامة مرضية في المجتمع الصناعى لا ينبغى أن توجد ، وإن وجدت فلا بد أن تحارب ، لأنها استبقاء لانعكاسات طور لم يعد قائماً ، ومن ثم فلا بد من إزالتها .

والحفاظ على العرض أمر طبيعى في المجتمع الزراعى كذلك تفرضه الطبيعة الاقتصادية للطور الزراعى ، ومن ثم لا يستغربه أحد ولا يعترض عليه أحد ، فإذا انتقلنا إلى المجتمع الصناعى فقدت القضية أهميتها نتيجة تحرر المرأة اقتصادياً وإنفاقها على نفسها . ومن ثم يصبح من يحافظ على أهمية العفة أو يطالب بالمحافظة عليها « رجعيًا » لأنه يريد أن « يرجع » إلى القيم التى كانت مصاحبة لطور اقتصادى سابق ، انتهى عهده ، وصرنا إلى ما هو « أرقى » منه حسب سنة التطور الدائم إلى أعلى ! وهذا سخف لا ينبغى أن يتصف به إنسان « متطور » ! فضلاً عن أنه مستحيل . لأن عقارب الساعة لا يمكن أن ترجع إلى الوراء ولأن عجلة التطور ستسحق كل من يقف أمامها وتخمد صوته إلى الأبد ! وكذلك الأمر بالنسبة لترابط الأسرة ..

فمن طبيعة المجتمع الزراعى أن تتكاثر الأسرة وهى في البيت الواحد أو في بيوت متلاصقة متقاربة ، لا لأن ذلك فضيلة في ذاته أو شىء مستحسن ، لكن لأن ذلك من طبيعة الطور الاقتصادى ومستلزماته ، لأن رجال الأسرة كلها يتعاونون في الزراعة ، وكلما كثر أفراد الأسرة زاد إنتاجها الزراعى ، فيحقق ذلك مصلحة اقتصادية للأسرة . أما في المجتمع الصناعى فكل عامل شخصيته مستقلة لا ارتباط بينه وبين غيره من الناحية الاقتصادية ، ومن ثم تستقل كل أسرة صغيرة - أى الأب والأم والأولاد - ببيت مستقل ، وكلما كبر أحد الأولاد وتزوج استقل بأسرته الصغيرة في بيت خاص . وتفقد الأسرة الكبيرة ترابطها

ولا يعد ذلك عيبا ولا رذيلة ، لأنه هو الانعكاس الطبيعى للطور الاقتصادى القائم . بل إن الأسرة الصغيرة ذاتها تتفكك روابطها بسبب العمل ، عمل الرجل والمرأة كليهما ، كل فى مكان ، وعدم ارتباط الزوجة بالبيت وتربية النشء ، ولا يعد ذلك عيبا كذلك ولا رذيلة ، لأنه لا توجد قيم ثابتة فى حياة البشرية . لا توجد فضيلة ثابتة ولا رذيلة ثابتة إنما الفضيلة ما يوافق الطور الاقتصادى القائم والرذيلة ما لا يوافق . فكما كانت العفة هى الفضيلة فى المجتمع الزراعى يصبح التحلل هو الفضيلة فى الطور الصناعى أو هو الأمر الطبيعى على أقل تقدير . وكما كانت سيطرة الأب هى الفضيلة فى المجتمع الزراعى يصبح فقدان سيطرة الأب هو فضيلة المجتمع الصناعى أو هو سمته الطبيعية . وكذلك كانت الأسرة المترابطة قيمة من القيم الاجتماعية المستحسنة فى المجتمع الزراعى ، وتصبح الأسرة المفككة - حتى على النطاق الصغير - هى القيمة الاجتماعية المستحسنة فى المجتمع الصناعى أو هى السمة الطبيعية على أقل تقدير !

فإذا جاءت الشيوعية - وهى المرحلة الحتمية الأخيرة فى حياة البشرية - فلسنا فى حاجة إلى تعديل جذرى فى القيم والعقائد والأفكار .. لأنه هكذا طيب !! تتغير فقط الصورة الاقتصادية فتلغى الملكية الفردية إلغاء كاملا وتصبح الدولة هى المالك الوحيد .. ولكن القيم المباركة التى أنشأها المجتمع الصناعى تظل قائمة ويزاد فيها فقط حتى تصل إلى نهايتها . فالدين يلغى إلغاء كاملا ، ويقضى على البقية الضعيفة الباقية منه فى المجتمع الرأسمالى ، لأن مهمته التى يقوم بها هناك - وهى تخدير الكادحين ليرضوا بالظلم الواقع عليهم - تنتهى فى المجتمع الشيوعى الملائكى الخالى من الظلم ، فلا يعود للدين حاجة البتة . وتفكك الأسرة تفكيكا كاملا ، لأنها بقية - سخيفة - من بقايا العهود الرجعية التى كانت تمارس فيها الملكية الفردية فتتربى الأثرة فى نفوس الأبوين رغبة فى توريث أبنائهم .. فالآن وقد ألغيت الملكية الفردية فالأسرة نشاز فى المجتمع الجديد « المتطور » والأولاد ملك الدولة ، هى التى تملكهم - ملكية جماعية ! - وهى التى تنشئهم التنشئة الصحيحة ، وليس لأبويهم إلا ولادتهم لحساب الدولة .. وأما العلاقات الجنسية فهى حرة حرية كاملة ، لأننا عدنا - عودا على بدء - إلى الشيوعية ، إلى تناول حاجات الحياة كلها على المشاع .. وهنا تصل البشرية إلى قمة التطور الذى ليس بعده شئ !

الهدف واضح ولا شك ..

فالنظرية « العلمية ! » تدور كلها حول هذه القيم : الدين والأخلاق والتقاليد .. لتسخيفها وتسخيف المتمسكين بها، ووسمهم بالرجعية والجمود والتأخر، والوقوف في وجه عجلة التطور التي ستسحقهم ..

إنها تركز كما قلنا على عملية الانتقال من المرحلة الاقطاعية إلى المرحلة الرأسمالية - التي صاغها اليهود ، كما سنرى ، حسب مخططاتهم الشريرة بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد مستمدة من القيم الدينية - فتقول أولاً إنه تطور « حتمى » ومادام حتمياً فمذا الذي يستطيع أن يقف في طريقه رضى أم أبى ؟ ! وتحسر على الأيام الخالية والقيم الدارسة أم تسخط عليها ؟ ! ثم تقول ثانياً إنه تقدم إلى الامام .. تقدم إلى أعلى .. حسب سنة التطور التي تدفع بالكائن الحي دائماً إلى الرقى ! فمن كانت في نفسه حسرة على ما فات ، أو ضيق « بالتطور » فليعدل من ذات نفسه وليتمش مع التطور ، ولينطلق مع التيار ، فذلك أروح للنفس والأعصاب !

إنها تتناول بالذات عمليات التحطيم التي قام بها اليهود في المجتمع الجديد الذى ولد بين أيديهم فشكوه على هواهم ، فتبارك هذه العمليات بالذات .. قام اليهود بتحطيم الدين ، فيجىء فيلسوفهم - ماركس - فيقول - بصورة « علمية » - إن الدين قد باد تلقائياً من جراء التطور الحتمى الناشئ من الانتقال من طور اقتصادى متأخر إلى طور متقدم ! وإن الدين خرافة لا تليق بالإنسان « الصناعى » المتطور ! وإنه قد أخلى مكانه لما هو خير منه وهو « العلم » ! وإن التمسك به - أو الرجوع إليه - أو الدعوة إليه - نشاز غير متجانس مع « طبيعة » المرحلة التطورية التي قطعها الإنسان إلى الامام .. وذلك فضلاً عن تشويه صورة الدين بأنه مخدر يستخدمه الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة عن المطالبة بحقوقها والقيام بالثورة المقدسة ، مستغلاً في ذلك واقع الدين الكنسى ومعمماً إياه على كل « الدين » . وقام اليهود بتحطيم الأخلاق - أخلاق الجنس بصفة خاصة - وأشاعوا الفوضى الجنسية والانحلال ، وحاربوا قيد « العفة » الذى يحول بينهم وبين تنفيذ مخططاتهم الواسعة لتحويل الأدميين إلى دواب تدور في طاحونتهم ، فيجىء فيلسوفهم فيقول إن قضية العفة إنما أخذت أهميتها من أنانية الرجل في المجتمع الزراعى « المتأخر » باعتباره هو المكتسب والمنفق ، ثم وضع عليها

وسم الدين والأخلاق ليعطيها أهمية زائدة ، خدمة لأنانيته ، وإنها فقدت أهميتها - الزائفة بالطبع ! - بصورة تلقائية نتيجة التطور الحتمي ، وحلت محلها « فضيلة » من نوع آخر في المجتمع المتطور ، هي فضيلة « تحرر » المرأة .

وقام اليهود بتحطيم الأسرة ، لأن الأسرة أحد القيود التي تمنع التحلل الخلقى أو تبطئ عجلته ، وتبطئ بالتالي عملية استحمار الأممين وتسخيرهم لشعب الله المختار ، فيجئ فيلسوفهم فيقول إن ترابط الأسرة كان مجرد انعكاس لوضع اقتصادي متأخر هو الوضع الزراعي الإقطاعي ، وإنها فقدت ترابطها - تلقائيا - من التطور الحتمي الدافع إلى الأمام ، ومن ثم لا تستحق البكاء عليها ولا التحسر ، إنما الأولى السير مع عجلة التطور والرضا بالتطور الموجود .

وهكذا تتلخص المهمة « العلمية » للفيلسوف الكبير في « تغطية » الدور الخطير الذي تقوم به العصابة المفسدة في الأرض ، في ثوب « علمي » تتلهى به عقول الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار !

فرويد

لايقل فرويد « عبقرية » عن ماركس ولا خطورة في أداء الدور المطلوب . ولئن كان دوره الآن قد انتهى « ١ » لأنه تم ! بينما لم ينته بعد دور ماركس لأنه لم يتم بعد ! فليس معنى ذلك أنه لم يعد له أثر في المجتمع المعاصر بل العكس هو الصحيح . فقد تم دوره لأنه أعطى تأثيره الكامل في المجتمع ، بحيث لم يعد ذلك المجتمع في حاجة إلى المزيد ! ولأن الجرعة التي تشربها ذلك المجتمع من « علمه ! » - أو من سمومه - تكفيه عدة قرون !!

هو يهودي نمساوي ، كان يعمل طبيباً ثم تخصص في معالجة الأمراض العصبية والنفسية ، وأنشأ عيادة خاصة للإشراف على علاج مرضاه ودراسة أحوالهم عن كثب ، ثم استنبط من دراساته تصورا خاصا للنفس البشرية

« ١ » انتهى في أوروبا وأمريكا ، ولكنه - عندما - لم ينته بعد ! فما تزال معاهد التربية عندنا تقدمه على أنه إمام من أئمة الباحثين في النفس الانسانية ! وعندما يسافر مبعوثونا إلى أوروبا وأمريكا يعودون حاملين أفكاره لينشروها هنا مع أن القوم قد تجاوزوها هناك .

وتركيبتها وتفسيراً لنشاطاتها المختلفة ، تفرد به بين كل « المفكرين » إلى ذلك الحين وربما إلى الوقت الحاضر بصرف النظر عن تلاميذه الناقلين عنه .
ولد عام ١٨٥٦ وعمر طويلاً حتى مات في عام ١٩٣٨ ، وألف نحو ثلاثين كتاباً في الدراسات النفسية من أشهرها : الذات والذات السفلى The Ego and The Id والطواطم والمحرمات Totem and Taboo وتفسير الأحلام -Interpretation of Dreams وثلاث مقالات في النظرية الجنسية -Three Contributions to the Sexual Theory والأمراض النفسية المنتشرة في الحياة اليومية Psycho pathology of Every Day Life وكلها تدور - من زوايا مختلفة - حول موضوع واحد مكرر فيها جميعاً هو التفسير الجنسي للسلوك البشري .

خلاصة هذا التفسير أن الطاقة الجنسية هي الطاقة العظمى في الكائن البشري ، وهي المسيطرة على طاقاته جميعاً ، والموجهة لها ، والمسخرة لها كلها لحسابها الخاص !

يولد الطفل بطاقة جنسية متسيطر عليها - منذ لحظة مولده - تلك الطاقة الجنسية التي ولد بها ، فيرضع ثدى أمه بلذة جنسية، ويتبول ويتبرز بلذة جنسية ، ويمص إبهامه بلذة جنسية ، ويحرك أعضائه بلذة جنسية ..
ثم ينمو الصبى فيحس تلقاء أمه بشهوة جنسية (كما تحس الصبية بالشهوة الجنسية تلقاء والدها) ولكنه يجد أباه حائلاً بينه وبين الاستيلاء على الأم التي يشعر نحوها بتلك الشهوة الجنسية ، فيكره أباه الذي يحبه في ذات الوقت، ويصطرع الحب والكراهة للذات يحس بهما في آن واحد تجاه الأب ، فيكبت الكراهة في اللاشعور ، الذي تدفن فيه - ظاهرياً - كل الرغبات المكبوتة والمخاوف المكبوتة ولكنها تبقى حية فاعلة مؤثرة موجهة لسلوك الإنسان دون وعى ، ويظهر الحب وحده على السطح لأن ذلك هو الذي يعجب المجتمع ! (أى نفاقاً !) ولكن القضية لا تنتهى عند هذا الحد ولا على هذه الصورة . فإن الصبى يأخذ في حس نفسه مكان والده ، تعويضاً عن عجزه عن الاستيلاء على الأم بسبب قيام والده حاجزاً بينه وبينها ، فيروح ينهى نفسه ويأمرها كما ينهاه أبوه ويأمره ، فينشأ الضمير ، وتنشأ - في نفس الطفل - القيم الأخلاقية التي يتعاطاها المجتمع ويرضى عنها ، كما ينشأ الدين من ذات العقدة التي سماها عقدة أوديب (ويقابلها عقدة إليكترا عند البنات) وهي العقدة الناشئة من الكبت الجنسي

لشهوة الصبى الجنسية نحو أمه (وشهوة البنت الجنسية نحو أبيها) .
وهكذا تنشأ القيم العليا كلها : الدين والأخلاق ، والتقاليد المستمدة من الدين ، من تلك العقدة الناشئة من الكبت الجنسي .
وتتركب النفس الإنسانية من طبقات ثلاث :

الطبقة الشهوانية - التى تسيطر عليها الشهوة الجنسية وتوجهها - وتسمى - عنده - الذات السفلى The Id وهى طبقة لاشعورية ، والذات The ego وهى الطبقة الوسطى التى يتمثل فيها الوعى وتصدر عنها كل التصرفات الواعية للإنسان ، والذات العليا Super Ego التى تتمثل فيها الضوابط « ١ »
الناشئة من الدين والأخلاق والتقاليد المتداولة فى المجتمع ، وهى لاشعورية أيضا ، وتنشأ من الكبت الواقع على الذات السفلى الشهوانية .

ومهمة الذات هى التحايل الدائم على الذات السفلى لإقناعها بأوامر الذات العليا ، وإن كانت هى شخصيا لاتؤمن بها ! يقول فرويد : « إن مهمة الذات بين الضغط الواقع عليها من الذات العليا والذات السفلى معا تصبح كمهمة السياسى الذى يعرف الحقائق ولكنه يداور ويحاول إرضاء للجماهير !! »

ويتحدث فرويد - كثيرا - عن القيم العليا .. عن الدين والأخلاق والتقاليد .
يقول فى كتاب « الطواطم والمحرمات Totem and Taboo » إنه حدثت فى البشرية الأولى حادثة هائلة ماتزال تؤثر فى حياة البشرية إلى هذه اللحظة .

ذلك أن « الأولاد » شعروا بالرغبة الجنسية تجاه أمهم ، فوجدوا أباهم حائلا بينهم وبين الاستيلاء على الأم فقتلوه ! وكانت تلك أول جريمة ترتكب فى البشرية الأولى (وليست هى قتل أحد الأخوين لأخيه كما جاء فى الرسالات السماوية) « ٢ » .

ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فقدموا ذكراهم ، فنشأت أول عبادة عرفتها البشرية وهى عبادة الأب (وليس عبادة الله كما جاء فى الرسالات السماوية) « ٣ »

« ١ » هذه تسميتنا نحن ، أما هو فيسميها الكوابيت !
« ٢ » « وأتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال : لأقتلك به [سورة المائدة : ٢٧]
« ٣ » ... وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » [سورة طه : ١٢٢] « قالوا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » [سورة الأعراف : ٢٣] « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم [سورة البقرة : ٢٧]

ثم وجدوا أنهم لو تقاتلوا بينهم للاستيلاء على الأم فسيقتل بعضهم بعضا فاتفقوا على الا يقربها أحد منهم فنشأ أول تحریم في العلاقات الجنسية وهو تحریم الأم (وليس لأن الله هو الذي حرّمها كما جاء في الرسالات السماوية)^١

يقول : وكل الديانات التالية والحضارات قد نشأت من ذلك الحدث الخطير الذي لم يدع للبشرية منذ وقوعه فرصة للراحة !!

فإذا سألته عن سنده في هذه القصة التي يبني عليها تفسيراً كاملاً للحياة البشرية بأديانها وحضاراتها من أول التاريخ إلى آخر التاريخ .. فإنه يجيب .. ولا تحسبه عاجزاً عن الإجابة !

يقول : إن دارون يقول : إنه في عالم البقر تتجه الثيران الشابة إلى الأم لمواقعها ، فقدور بينهم معركة رهيبة ، يفوز فيها أقوى الثيران وأصلبهم عوداً ، فيستولى وحده على الأم ويندحر الباقون !
وبتعديل بسيط - أو بتحريف بسيط ! - تنقل القصة من عالم البقر إلى عالم البشر ، ويقوم عليها تفسير شامل للحياة البشرية !

ويقول عن الأخلاق في كتاب « الذات والذات السفلى The Ego and the Id » إنها كوابت تكبت المنطق الطبيعي للطاقة الجنسية . ويقول إنها تنسم بطابع القسوة حتى في صورتها العادية !

ويقول عن التسامي Sublimation في كتاب « ثلاث مقالات في النظرية الجنسية Three Contributions to the Sexual Theory » إنه نوع من أنواع الشذوذ !

« فأما ثالث أنواع الشذوذ فإنه يحدث نتيجة عملية التسامي ، حيث تصرف الطاقة الشهوية الصادرة من منابع جنسية فردية في مجالات أخرى وينتفع بها في تلك المجالات ، وبذلك يكتسب الإنسان قوة نفسية كبيرة من استعداد نفسه هو في ذاته خطير ! »

ويقول عن العلاقات البشرية في كتاب الطواطم والمحرمات Totem and Taboo إن الأزواج العاطفي Ambivalence أى الشعور بالحب والكراهة في أن واحد تجاه الشخص الواحد .. وكبت الكراهة في اللاشعور وإظهار الحب على

١ . « حرمت عليكم أمهاتكم .. » [سورة النساء ٢٢] .

السطح لإرضاء المجتمع ، هو الطابع العام للعواطف البشرية ، فالولد يحب أباه ويكرهه ، ويحب أمه ويكرهها ، والأخ يحب أخاه ويكرهه ، والزوجة تحب زوجها وتكرهه .. والصياح الذى يصيحه الناس على ميتهم هو لإخفاء الفرحة الداخلية التى ملأت نفوسهم لموته !!

ويشرح هذه الظاهرة العجيبة Ambivalence فىقول إنها تتم بطريقة لاشعورية وإنه لا تدخل فيها الحالات التى يتوجه فيها الإنسان بالحب لشخص معين ثم يكرهه لأسباب واعية معلومة ! إنما هو كره لاشعورى تلقائى ، ينشأ فى ذات اللحظة التى ينشأ فيها الحب ، ثم يكبت فى اللاشعور ويظل يعمل من داخل اللاشعور !

ويقول فى كتاب الطواطم والمحرمات Totem & Taboo إن الكبت هو طابع الحياة البشرية بسبب وجود الدين والأخلاق والمجتمع وسلطة الأب .. وما إلى ذلك من القوى القاهرة .. وكلها تتجه إلى كبت الطاقة الجنسية فتنشأ العقد النفسية والاضطرابات العصبية التى لا تترك صاحبها فى راحة .. ويقول فى معظم كتبه : إن كل الأطفال « الذكور » يصابون بعقدة أوديب فى أول طفولتهم .

ويقول فى كتاب « ثلاث مقالات Three Contributions » : نحن جميعا مصابون بالهستيريا إلى حد ما :

تلك خلاصة آرائه وأفكاره عن النفس البشرية والعلاقات الانسانية .. ولن نتعرض لها هنا بالمناقشة .. « ١ »

إنما نحن هنا نستعرض مكانها من المخطط الشرير ، كما استعرضنا مكان ماركس من قبل .

يريد اليهود أن يشكلوا المجتمع الجديد الذى وقع فى قبضتهم من أول لحظة على أساس أن يكون مجتمعا بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد مستمدة من القيم الدينية .. فيجىء عالمهم النفسانى الكبير ليمسح الدين والأخلاق والتقاليد بطريقة « علمية » !

فالدين نابع من الجنس .. من عقدة أوديب .. من كبت الشهوة الجنسية التى يحسها الطفل الذكر نحو أمه !

١ « سبق لى مناقشتها فى كتاب « الانسان بين المادية والاسلام » فى فصل « فرويد » وه القيم العليا ، .

ويجب - لكى نفهم اللعبة كاملة - أن نتذكر كيف كان إحساس أوروبا بالجنس لنعلم رد الفعل الأوروبى حين يقول لهم فرويد إن الدين نابع من الجنس !

كان الجنس فى حس أوروبا أمرا مستقذرا إلى أقصى حد ، بسبب تزمّت الكنيسة فى تفسير تعاليم السيد المسيح ، وبسبب الدعوة إلى الرهبانية . وكانت أعلى درجات التقى والورع تتمثل - ابتداء - فى الابتعاد عن الجنس ، المباح منه وغير المباح ، وذلك أبرز ما فى الرهبانية . ويصل الأمر فى حسهم إلى اعتبار المرأة فى ذاتها دنسا لايجوز أن يمس ، إلى حد أن واحدا من كتابهم ينصح الناس فيقول : إذا لقيت امرأة فى الطريق فلا تسلم عليها ولو كانت أمك !

وفى هذا الجوىجىء « العالم النفسانى الكبير ! » فيقول إن الدين نابع من الجنس ! فأى هوة مستقذرة يهبط فيها الدين من عليائه ؟!

وهب أن الناس جميعا لم يصدقوا فرويد فى ادعاءاته « العلمية ! » (وإن كانت دعاية اليهود له وترويجهم المدبر لآرائه « ١ » قد جعل بعض الناس يصدقون ، بل يتحمسون فى التصديق !) فإن شيئا ما يحدث فى النفس من قراءة فرويد هو - على الأقل - إزالة القداسة عن الدين !

إنما تأتى قداسة الدين فى النفوس من أنه شىء منزل من عند الله ، وأنه هو الصلة بين القلب البشرى والإله المعبود ، تلك الصلة العلوية التى ترفع النفس إلى الافاق العليا ، وتطلق الأرواح ترفرف فى عالم النور .

فإذا جاء « عالم » يقول ، ويظل يلح فى القول ، وتظل الدعاية تلح على قوله : إن الدين أمر أرضى بحت ، ومصنوع فى داخل النفس لا علاقة له بالله ولا برفرة الأرواح فى الافاق العليا .. وأكثر من ذلك أنه « معجون » بماء الجنس المستقذر يومئذ فى حس الناس .. فهل تتوقع أن تبقى للدين قداسة فى النفوس ؟!

يقول « يونج Jung » أحد تلميذى فرويد المقربين (والآخر هو أدلر Adler) فى كتاب سماه « ذكرياتى عن فرويد Memorials of Frued » صدر فى الستينات : « لقد قال لى فرويد إننا ينبغى أن نحطم كل العقائد الدينية : We must abolish all dogmas » وقال لى : ينبغى أن نجعل من الجنس عقيدة « We must make sex a dogma »

« ١ » انظر البروتوكول الثانى من بروتوكولات حكماء صهيون .

ولا تحتاج هذه الشهادة إلى تعليق ! فالدين ذو القداسة يلقي به في دنس الجنس ، والجنس المستقذر يرفع إلى مقام الدين !!
ويريد اليهود أن يحطموا الأخلاق وينشئوا مجتمعا منحلا يسهل فيه تسخير « الحمير » لشعب الله المختار .

فأى معول أشد تحطيما للأخلاق من دعوة « العالم النفساني الكبير » للأولاد والبنات أن ينطلقوا لتلبية نداء الجنس أنى شاءوا بلا حواجز ولا قيود ؟
ومن إدعائه أن الدين الذي يأمرهم بوضع الضوابط لطاقة الجنس هو أمر سخيف لا يستحق الاحترام ؟ ! ومن وصفه للأخلاق بأنها تتسم بطابع القسوة حتى في صورتها العادية ؟ ! ومن دعواه بأن أى قيد على الإطلاق يوضع في طريق الطاقة الجنسية يورث الكبت ويكوّن العقد النفسية والاضطرابات العصبية ؟ !
وأن التسامى نوع من الشذوذ ؟ !

لقد آتت هذه الدعوة ثمارها بالفعل ، وكانت أكبر مشجع للأولاد والبنات أن ينطلقوا مع دافع الجنس بلا حواجز خوفا من الكبت والعقد النفسية ! وأن ينظروا إلى الدين - الذي يحجزهم - على أنه قيد مناف للعالم ، لا يستحق الإصغاء إليه ، كما قام علم التحليل النفسي الذي أنشأه فرويد لأهدافه الخاصة « ١ » بعملية التبرير الضخمة للفساد الخلقى الذي حدث بالفعل !
يقول الكاتب الانجليزي « ألدوس هكسلي Aldous Huxley » في كتابه « Texts and Pretexts » إن المحلل النفسي يقف - لامحالة - إلى جانب المجرم الأخلاقى :

The psycho-analyst is inevitably on the side of the immoralist
وليست هناك حتمية في الحقيقة ، ولكن هذا هو التحليل النفسي على طريقة العالم اليهودي الكبير !

ويريد اليهود أن ينشئوا مجتمعا متفككا لا روابط فيه ، ذلك أن الروابط - من أى نوع - تبطئ عملية التحلل ، وتبطئ تحويل الأممين إلى دواب الحمل التي يركبها بنو إسرائيل ويسخرونها لمصالحهم .. فيجىء العالم النفساني الكبير فيقول بطريقة « علمية » إنه لا توجد في حقيقة الأمر روابط بين البشر ! لا بين الولد وأمه ، ولا بين الولد وأبيه ، ولا بين الزوج وزوجته ، ولا بين الأخ وأخيه

« ١ » من عجيب « المصادفات » !! « إن معظم القائمين بالتحليل النفسي في « العيادات النفسية » هم من اليهود »

فضلا عن أن تكون هناك روابط بين الغرباء الذين لاتصل بينهم صلة القربى !
إنما كل إنسان في الأرض يكره الانسان الآخر في قرارة نفسه ويتمنى له الزوال !
باختصار لقد كانت مهمة « العالم النفساني » هي تغطية الفساد الضخم
الذي تدبره العصابة الشريرة في الأرض ، بإعطائه « التبرير العلمى » الذى
يجعله أمرا طبيعيا لا يستنكر ! ويصبح المنكر عليه هو الرجعى المتأخر الذى
يصدر عن الجهل بحقائق العلم ، والتمسك بالخرافات السخيفة ، أو المثاليات
التي لاتقل عنها سخفا ولا مكان لها في واقع الحياة !

دور كايم

إميل دور كايم « دورك هايم أو دورك حاييم ! » يهودى فرنسى ولد عام
١٨٥٨ ومات عام ١٩١٧ وتخصص في علم الاجتماع وله فيه كتب من أشهرها
« مقدمة في علم الاجتماع » .

وقد لاتكون له شهرة عند الجماهير كماركس وفرويد ، ولكن له شهرته
الواسعة بين « علماء الاجتماع » ويتلمذ عليه - أو على فكره - كل من يقوم
بتدريس علم الاجتماع في الجامعات والمدارس في عالم الأميين إلا من رحم
ربك ! وعلى أى حال فقد أدى « مهمته » في الميدان الذى تخصص فيه ، ووجه
حملته - مع زملائه الآخرين من كبار « المفكرين » اليهود - إلى تحطيم الدين
والأخلاق والتقاليد .

أخذ دور كايم عن دارون التفسير الحيوانى للإنسان ، ومدده ليغضى ميدان
العلاقات الاجتماعية . ولقد أسلفنا أن دارون نفسه لم يكن عالم اجتماع ولا
اقتصاد ولا علم نفس ، إنما كان متخصصا في علم الحياة ، أى في مظاهر الحياة
في « أجسام » الكائنات الحية . وحين وصل - في سلسلة التطور الحيوانى -
إلى الإنسان ، وألحقه بعالم الحيوان ، كان يدرس مظاهر الحياة في « جسم »
الإنسان ووظائف أعضائه ، دون أن يتعرض للجوانب الأخرى التى ليست من
اختصاصه .

ولكننا قلنا إن نظريته - بالصورة التى قدمها بها ، لا بماتحويه من معلومات
علمية بصرف النظر عن صحتها أو عدم صحتها من الوجهة العلمية - كانت
تحوى إichاءات معينة لمن أراد أن يستخلصها ويستخدمها ، مبنية كلها على

فكرة حيوانية الإنسان وماديته . وإن أحدا لم يستخلصها ويستخدمها في الحقيقة إلا اليهود .

ودور كايم واحد ممن فعلوا ذلك في ميدان تخصصه وهو علم الاجتماع .
وخلاصة آرائه أن الكائن البشرى محكوم « بنزعة القطيع » التى تحكم عالم الحيوان وتسييره دون وعى منه ولا إرادة .

ولئن كان فرويد قد قالها دون مداراة ، حين زعم أن البشرية الأولى قتلت أبائها لتستولى على الأم ، مستندا إلى أن دارون قد قال مثل ذلك عن عالم البقر ، فإن دوركايم لم يشأ أن يستخدم المصطلح الحيوانى مباشرة ، فلم يسمها - في عالم الانسان - « نزعة القطيع » وإنما سماها « العقل الجمعى » ، ونسب إليها في عالم الانسان كل ما ينسب في عالم الحيوان إلى نزعة القطيع .

وبعض كلامه عن العقل الجمعى معقول ، وتكلم عنه كثير غيره من العلماء والمفكرين وسموه « المشاركة الوجدانية » وهى حقيقة واقعة في عالم البشر . ولكنه لم يرد أن يستخدم هذا المصطلح لأنه لا يخدمه فيما كان يهدف إليه ، ذلك أن للمشاركة الوجدانية حدودا معروفة تقف عندها ، وصورة أو صورة معينة تمارس في نطاقها ، لاتلغى شخصية الفرد الإيجابية ولا إرادته ، لأنها تصدر عن « الذات » ولاتلغىها ، وقد تكون في كثير من الأحيان غير إرادية ولكنها لاتلغى الإرادة . إنما هى تأثر معين من شىء خارجى ، يستتبع مشاعر معينة أو أعمالا معينة يقوم بها الإنسان لمشاركة الآخرين فيما يراه من أحوالهم ، ولكنه يظل شاعرا أنه « هو » الذى يقوم بها ، وأنه يقوم بها لأنه يريد - ولو إرادة مؤقتة - أن يشارك الآخرين فيما هم فيه .

أما الصورة التى يريد دوركايم أن يرسمها للبشرية فهى صورة مختلفة ، يريد أن يلغى فيها شخصية الفرد إلغاء كاملا ويلغى إرادته ، ليجعلها يتقبل ما يلقيه إليه « العقل الجمعى » من أوامر وتوجيهات بلا وعى منه ولا إرادة !
يستمد دوركايم أمثلته وقواعده مما قام به « الغوغاء » في الثورة الفرنسية من قتل وتحطيم وتخريب وقع من أناس « عاديين » لم يحدث منهم القتل والتخريب من قبل ، ولو طلب منهم أفرادا لامتنعوا عنه ، ولكنهم قاموا به في سرور بالغ بل في نشوة وحشية وهم في وسط « المجموع »

وبصرف النظر عن يد اليهود الخفية في توجيه الثورة وجهات معينة ، فإن هذه - في ذاتها - حقيقة : أن « الغوغاء » تقوم بمثل هذه الأعمال حين توجه

إليها ، بينما معظم الأفراد من هذه الغوغاء لو طلب منهم أن يقوموا بها أفرادا لامتنعوا واستنكروا .

وكثير من المفكرين لفتتهم هذه الظاهرة ، وردوها إلى « المشاركة الوجدانية » أو إلى نزعة « مكبوتة » إلى التخريب والتعطيل ينفلت قيادها حين يوجه الغوغاء إلى ذلك، فينطلقون - وقد انحلت العقدة - يفعلون ما يخطر على بالهم من وحي اللحظة ، متشجعين على الشر بكونهم كثرة غالبية والواقف في طريقهم قلة مغلوبة .. بل ردها بعضهم إلى « نزعة القطيع » مباشرة ، على أساس أن هذا القطيع البشرى في حالته الجنونية التى يكون عليها ، بلا عقل ولا وعى ، هو أشبه بالحيوان، تحركه بالفعل نوازع الحيوان، ما دام قد غاب عنه العقل الذى « يعقل » تصرفاته (أى يقيدها) .

وأيا كان رأى فقد نظر المفكرون إلى هذه المظاهر على أنها حالة خاصة تصيب الجماهير حين تجتمع في حالة غضب أو استثارة . ولكن دوركايم جعلها قاعدة الحياة البشرية كلها ، والأساس الذى تنبنى عليه كل تصرفاتها ، مستندا إلى الحالتين اللتين يكون الوعى والإرادة فيهما مفقودين تماما أو شبه مفقودين ، وهما حالة الطفل وحالة الغوغاء . فأما الغوغاء فأمرها معروف ، وأما الطفل فإنه يولد ولا حول له ولا قوة ، فيتلقى الأوامر والتوجيهات من أبويه ومن المجتمع المحيط به ، فيتشكل منذ صغره بالطابع الذى عليه المجتمع ، فتصاغ له أفكاره ومعتقداته وأنماط سلوكه دون أن تكون له إرادة في ذلك ولا رغبة ذاتية ، ولا مشاركة إيجابية في صياغة تلك الأفكار والمعتقدات وأنماط السلوك .. وهكذا تخرج البشرية جيلا وراء جيل .

ولكنه يلحظ - بل يؤكد لغاية معينة في نفسه - أن الأفكار والمعتقدات وأنماط السلوك تتغير من جيل إلى جيل .. وهنا يقتنص الخيط الذى يريده فيقول إن هذا يحدث من تأثير العقل الجمعى ، الذى يتغير على الدوام ولا يثبت على حال ! ويعرّف العقل الجمعى بأنه شئ كائن خارج عقول الأفراد ليس هو مجموع عقولهم ، ولا يشترط أن يكون موافقا لعقل أحد منهم ولا لمزاجه الخاص (عقل من هو إذن ؟) وأنه يؤثر في عقول جميع الأفراد من خارج كيانهم ولا يملكون إلا أن يطيعوه ولو على غير إرادة منهم !

ثم يقول إنه دائم التغير .. يحل اليوم ما حرمة أمس .. ويحرم غدا ما أحله اليوم .. بلا ضابط ولا منطق معقول !

ويقول - وهو بيت القصيد - إنه لا يمكن من ثم تصور ثبات شيء من القيم على الإطلاق : لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد ! وإن النظر إلى هذه الأمور على أنها أمور قائمة بذاتها هو تفكير غير معقول !

يقول : كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة هي أشياء من الفطرة ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان !
أرأيت إلى العالم الكبير ! إنها ليست فطرية في الإنسان !
وبكلمات قليلة معدودة يلغى العالم الكبير كل مقدسات البشرية !

أما الفرد الممتاز ، نبيا كان أو مصلحا أو قائدا ، الذى يقف في وجه المجموع ويغير اتجاهه .. فهذا ملغى إلغاء كاملا من حساب دوركايم - مهما قالت وقائع التاريخ ! - لأنه لا يخدم أهدافه ! لأنه - من ناحية - يلغى أسطورة « العقل الجمعى » الذى يحكم الناس من خارج كيانه دون أن يملك أحد الوقوف في طريقه ، ولأنه - من ناحية أخرى - يشير إلى « قيم ثابتة » في حياة البشرية منها الدين والأخلاق والزواج والأسرة ، لأن كل الأنبياء والمصلحين دعوا إليها وكانوا دعائم في تثبيتها خلال القرون الطويلة التى عاشتها البشرية قبل أن يأتى القرن اليهودى الذى يعيث فيه اليهود مفسدين في الأرض، ويحطمون كل القيم الثابتة في حياة البشرية !

والإنسان كذلك في عرف دوركايم شيء لا كيان له ولا فطرة ولا سمات محددة !

لأن « الكيان » أو « الفطرة » يشيران إلى شيء « ثابت » لا يمكن تغييره أو « لا يجوز » تغييره .. وهذا أمر لا يخدم أهدافه ولا أهداف قومه الذين يريدون مسح الفطر البشرية لأمر في نفوسهم .

إنما الإنسان وعاء يتشكل بالشكل الذى يراد له ؛ والمريد ، الفعال لما يريد عند دوركايم ، هو العقل الجمعى الذى يتغير على الدوام ولا يثبت على صورة ولا يثبت على حال !

ولسنا هنا نناقش دوركايم فقد ناقشناه في غير هذا الكتاب ، إنما نحن هنا نفسره .

لقد أراد اليهود - ونفذوا بالفعل - إنشاء مجتمع تنعدم فيه « القيم الثابتة » . مجتمع بلا دين ولا أخلاق ولا زواج ولا أسرة ولا تقاليد .

وهنا يأتي « عالم الاجتماع الكبير » للتغطية الكاملة على دور اليهود في تحطيم هذه القيم .

فأولا : ليس الذي يقوم بتحطيم القيم وإفساد المجتمع فئة محددة من البشر يمكن الإشارة إليهم بأعيانهم، ويمكن محاسبتهم على ما اقترفت أيديهم ، إنما هو العقل الجمعي ! وأنى لك أن تمسك بالعقل الجمعي وتحاسبه ، وهو الذي لا يمكن الإمساك به لأنه ليس له مكان محدد ولا كيان محدد ، ثم إنه لايسأل عما يفعل لأنه هو القاهر فوق العباد !!

وثانيا : فإن الذي يقوم به العقل الجمعي (الذي صنعه اليهود بأنفسهم !) ليس « تحطيما » للقيم ، وإنما هو مجرد « تغيير » على سنة العقل الجمعي في التغير الدائم وعدم الثبوت على حال ! و « القيم الثابتة » إن هي إلا أسطورة توهمها الناس في جهالتهم قبل أن يجيء العالم الكبير لتتويرهم .. وقد قال لهم العالم الكبير إنها ليست فطرية في الإنسان !

وثالثا : إنه لا قبل للناس بوقف التغيير ! لأنه يحدث من خارج كيانهم ! (وقد كان من خارج كيانهم بالفعل ! ولكن لا لأنه « عقل جمعي » ولكن لأنهم تركوا الدين فركبهم الشيطان : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » ١) « وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله . وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولاضلنهم ، ولا منينهم ، ولا مرنهم » ٢) .. !

وهكذا قام العالم الكبير بالتغطية على دور اليهود في الإفساد في الأرض في صورة « علم » يدرس في كل جامعات الأرض ، ويتربى عليه « علماء » من الأميين يتعصبون له كأنما هم واضعوه ، أو كأنما هو الحق الذي لا يسأله الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

١ . سورة النحل [٩٩ - ١٠٠]
٢ . سورة النساء [١١٧ - ١١٩]

٢- واقع المجتمع الصناعي

لئن كان « علماء » اليهود قد أدوا دورهم « العلمى » فى توهين عرى الدين والأخلاق والتقاليد ، والقول بكل طريقة ومن كل زاوية بأنها سخف لاينبغى للإنسان المتحضر أن يتمسك به ، وأوهام لاينبغى الاحتفاظ بها فى عصر العلم ، وقيود تعوق الانطلاق ، وصناعة بشرية بحتة من حق البشرية أن تراجعها وتعديلها أو تلغيها أو تعمل بعكسها « ١ » ..

لئن كان « العلماء » قد قاموا بهذا الدور فقد كانت عصابات أخرى تقوم فى ذات الوقت بعملية لا تقل خطورة - بل قد تكون أشد خطورة - هى إقامة مجتمع فى عالم الواقع ، منسلخ من الدين والأخلاق والتقاليد ، قائم على غير أساس منها .. وهكذا تجتمع النظريات والواقع على هدف محدد ، يساند بعضها بعضا ويساعد بعضها بعضا ، فالنظريات تمهد للواقع وتسنده ، والواقع يشهد للنظريات ويؤكددها ! وبين ذراعى الكماشة الشريرة يقع « الأمميون » فى أوروبا أولا ، وفى الأرض كلها بعد ذلك ، تعصرهم عصرا وتمسخهم مسخا !

قلنا من قبل إن المجتمع الصناعى قد وقع فى قبضة اليهود منذ اللحظة الأولى بسبب قيام اليهود المرابين بتمويل الصناعة الناشئة عن طريق الإقراض بالربا ، فأصبح فى مكنتهم السيطرة على هذا المجتمع وتشكيله على الصورة التى يرغبونها لأن فى يدهم أداة السيطرة الكبرى على ذلك المجتمع وهى رأس المال . ونريد هنا أن نفصل هذا القول شيئا من التفصيل مستندين إلى وقائع التاريخ .

« ١ » من الأسماء الهامة فى هذا الشأن « فريزر Frazer » واضع البذرة الأولى لعلم مقارنة الأديان وصاحب الكتاب الشهير « الغصن الذهبى The Golden Bough » الذى قال فيه صراحة إن الدين بضاعة أرضية بحتة من صنع البشر ، وإن العقيدة قد تطورت على مر الأزمان ، ما بين عبادة الآب ، إلى عبادة الطوطم إلى عبادة قوى الطبيعة ، إلى عبادة الأفلak ، إلى عبادة الأصنام .. إلى عبادة التوحيد .. وأعطى الإحياء بأن عبادة التوحيد - بوصفها صناعة بشرية - هى مجرد مرحلة على الطريق . وإن العلم - فى العالم المتحضر - يحل فى النهاية محل الدين . وكانت أبحاثه منصبة على القبائل المنعزلة المتأخرة فى أفريقيا وآسيا وأستراليا ليستخدمها وسيلة للقول بأن الأديان « السماوية » المتأخرة إن هى إلا امتداد للديانات الوحشية التى عرفت القبائل الأولى فى بداونها وحاصمة فيما يتعلق بالمحرّمات و« بأسطورة » الطوفان ، التى قال إنها وجدت عند أكثر القبائل انعزالا واشدها بعدا عن الاتصال بالعالم « المتحضر » ! ومع ذلك قلب دلالته قلبا كاملا . فبدلا من أن يقول إن ذلك دليل أكيد على صدقها التاريخى ، قال إنها أسطورة أخذتها الأديان المتأخرة من الأديان السابقة " والغالب أنه - كدارون - لم يكن يهوديا ، ولكن اليهود استغلوا « علمه » استغلالا واسعا كما صنعوا مع دارون .. وسيتأتى الحديث عنه عند مناقشة التفسير المادى للتاريخ .

كانت الثورة الفرنسية - التي كسب فيها الأمميون شيئاً من الكسب مشوباً بكثير من الخسران ، وكسب فيها اليهود كسباً خالصاً لمخططهم الشرير - أول معول في تحطيم الإقطاع والتمهيد للثورة الصناعية .. ومن فرنسا انتشرت « مبادئ » الثورة الفرنسية وشعاراتها التي وضعها لها الماسونيون اليهود : « الحرية والإخاء والمساواة » فعمت أوروبا كلها وحطمت أسس الإقطاع فيها ، وحررت « العبيد » ليكونوا غداءاً للثورة الصناعية .. ووقوداً لها كذلك !
وفرح العبيد المحررون فرحة عظيمة ولا شك بتلك الحرية .. فالحرية دائماً محببة إلى النفوس ، والقيد بغیض ولو تبدلت النفوس عليه عدة قرون !
وانطلقوا إلى المدن في هيئة عمال في المصانع .. وكانت المدينة في ذاتها سحراً هائلاً في أنفسهم ، فهكذا ينظر أهل الريف دائماً إلى المدينة ولو كانوا فيها غرباء .. أما هؤلاء فقد كانت الغربة بالنسبة إليهم عارضاً زائلاً ، فسرعان ما أصبحوا سكاناً فيها أصلاً . ولقد كانت حرية التنقل في ذاتها كسباً ضخماً طربت له نفوس العمال بعد إذ كانوا مقيدین بالأرض مشدودين إليها لا يملكون مغادرتها ولو إلى الأرض الملاصقة لإقطاعيتهم .

ثم لقد أصبحوا أجراء « أحرارا » بعد أن كانوا من العبيد .. صاروا يعملون ويقبضون في نهاية الأسبوع أجراً نقدياً يمسون به في أيديهم وينفقونه كيف شاءوا ليس لأحد عليهم سلطان .

وكان لكل هذا نشوة تطرب لها النفوس ..

ولكن هذه النشوة لم تدم طويلاً على أى حال .. فقد انكشف الواقع الجديد عن صعوبات لم تكن مقدرة حق قدرها في بادئ الأمر .. فساعات العمل طويلة ومضنية والأجر مع ذلك قليل إذا قيس بمطالب المدينة وارتفاع أسعار الحاجيات فيها . ففي الريف لم يكن يدفع الناس أجراً للمسكن سواء كانوا أجراء أحرارا أو أقناناً يعملون في الأرض ، فمساكن القرية تورث جيلاً بعد جيل يتربى فيها كل جيل جديد لا يدفع فيها أجراً حتى ولو لم يشعر بملكية حقيقية لها لأنها ملك للسيد الذي يملك الأرض بما عليها ومن عليها ملكية حقيقية أو معنوية .. وفي الريف لا يتكلف الناس لطعامهم وشرابهم كثيراً من المال ، فمن منتجات الألبان ومنتجات الدواجن يأخذون اللبن والزبد والبيض واللحم (في المواسم على الأقل) ومما يزرعون يأخذون خبزهم ويقولهم وخضرهم فلا يكادون يحسون

أنهم دفعوا فيها شيئاً يذكر ، وإن كافوا في الحقيقة يدفعون جهدهم كله في عمل مضمن طوال العام ، ويدفعون من كرامتهم وإنسانيتهم .
والآن تغير الحال .. كثيرا ..

لم تعد وطأة « السيد » ذات وقع حسي مباشر كما كانت في ظل الاقطاع ، وإن كانت الوطأة المعنوية قائمة ولا شك .. قائمة في حاجة العمال إلى العمل من أجل الحياة ، وغلطسة صاحب المصنع وتكبره وتجبره وتقتيره في الأجور ..
ثم إن العمل ذاته له وطأة .. وهى وطأة حسية إلى جانب السطوة المعنوية لصاحب العمل . فهو عمل متواصل في إدارة الآلات - وكانت في مبدأ الأمر تحتاج إلى جهد بدني كبير في إدارتها - وليس من نوع العمل الريفى الذى كان مضنيا - نعم - ولكنه مرن في أدائه إلى حد ما . فأنت في الحقل حر - نسبيا - في أن تبدأ عملك بعد الفجر مباشرة أو بعد ذلك بساعة ! وحر - نسبيا - في أن تشغل المحراث ثلاث ساعات متوالية أو تشغله ساعة بعد ساعة بعد ساعة ! وحر - نسبيا - في أن تجمع المحصول اليوم أو تجمع غدا .. وحقيقة إن « السيد » دائما هناك .. ووكيله الذى يشرف على عمل الفلاحين قاعد بالمرصاد يؤزر الفلاحين للعمل أزا ولا يتركهم في راحة .. ولكنه لا يستطيع أن يقف طيلة النهار على رؤوسهم ! ومن ثم يتنفسون بين الحين والحين ، في حديث خاطف أو قصة مروية .

أما السيد الجديد فلا يتيح شيئاً من ذلك .
صحيح أنه ليس له سوط يمسك به هو أو عامله (وكيله Steward) ليهوى به على ظهور العمال إن توانوا عن العمل ، ولكن في يده سوطا معنويا لا يقل إيذاء وهو الخصم من الأجر أو الطرد من العمل !
ثم إن الأجر - حتى إن سلم من هاتين الأفتين جميعا - ضئيل بالنسبة لمطالب الحياة .

صحيح أنه - من حيث الكم - أضعاف ما كان يحصل عليه في الريف ، ولكنه إذا وزع على المسكن والملبس والمطعم والمشرب لم يكد يفى بكل ذلك ولو على مستوى الكفاف .

ثم إن هناك أمرا هاما جدا في هذه الحياة الجديدة كان له خطره البعيد في تشكيل صورة المجتمع الصناعى الناشئ وإعطائه الطابع الذى يوافق هوى الشياطين .. فإن الأجر الضئيل الذى يتناوله العامل ولا يكاد يفى بحاجته لم

يكن يسمح بحال بإششاء أسرة في المدينة ذات التكاليف . ومن ثم جاء العمال عزابا إلى المدينة - وهم في سن الشباب والفتوة - أو إن كانوا متزوجين تركوا أسرهم في الريف وعاشوا في المدينة كالعزاب .. وأضيفت إلى متاعب الحياة في المدينة جوعة الجنس ، وهى جوعة ليست باليسيرة بالنسبة للشباب في مثل هذه السن ، وما كان يفد للعمل إلى المدينة إلا الأقوياء ذوو الأجساد .

هل كان ذلك كله من تدبير اليهود أم هم استغلوه ؟!

يستويان ..

والأغلب أنه لم يكن من تخطيط اليهود ، إنما هو من جشع أصحاب الأموال وأصحاب الصناعات يهوداً وغير يهود .. ولكن المؤكد أن « الحل » الذى قدم لهذه الأزمة كان هو الحل اليهودى الخالص الذى يعمل فيه اليهود من قديم .. كان الحل هو البغاء !

لم يكن هو بغاء « السادة » الذى تعرفه « المدينة » من قديم .. فالمدينة الأوروبية كانت دائما تعرف ذلك اللون من البغاء الذى يتفق فيه السادة أموالهم الحرام - المغتصبة من دماء الفلاحين والعبيد - في طلب اللذة المحرمة ، وكان اليهود ذوى صلة تاريخية بذلك البغاء يوقعون في حباله السادة من « النبلاء » ! ويسلبون به ما يقدرون على سلبه من أموالهم ، حتى يلجئوهم إلى الاستدانة منهم بالربا ذى الأضعاف المضاعفة ، ويفلس منهم في النهاية من يفلس وتثول أمواله إليهم !

ولكن هذا البغاء الجديد كان بغاء « شعبيا » خالصا لقاء دراهم معدودات ! وفرك اليهود أيديهم سرورا فقد أمسكوا بأول الخيط ! الخيط الذى يجر « الأمميين » إلى حيث يريد لهم الشيطان .

وجاءت الخطوة التالية ..

فقد بدأ العمال يضربون عن العمل جماعات .. يطلبون تخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور ..

وفي دستور الرأسمالية - غير المكتوب - أنها ينبغى أن تحتفظ دائما بجيش من العاطلين تستخدمهم حين يضرب العمال العاملون حتى لا يتوقف العمل من جهة ، وحتى يضربوا حركات الإضراب من جهة أخرى، فيضطّر العمال إلى الرجوع إلى أعمالهم صاغرين !

ولأمر ما استخدمت الرأسمالية المرأة العاملة لتضرب بها حركات العاملين من الذكور .. وأعطتها نصف الأجر ، وهى تعمل ذات القدر من العمل وذات العدد من الساعات !!

هل كان هذا من تدبير اليهود أم هم استغلوه ؟! الأغلب أنه لم يكن من تدبيرهم ، وإن كان أشبه بتفكيرهم الشيطاني .. ولكن المؤكد أنهم استغلوه إلى أقصى طاقة الاستغلال، وجعلوه أداة لتنفيذ كل مخططهم الشرير ..

لم يقدم على العمل في بادئ الأمر إلا أفقر الفقيرات .. فقد كان عمل المرأة في المصنع عارا هائلا جدا في حس المجتمع الخارج لتوه من الإقطاع ، لم ينسلخ بعد انسلاخا كاملا من كل قيمه ومثله وأخلاقياته وتقاليده .

كانت المرأة في الريف تعمل - بالطبيعة - في بيتها ، فتربى الدواجن وتستخرج من اللبن منتجاته ، وتنسج على المنسج اليدوى .. وما إلى ذلك من الأعمال كما كانت تساعد زوجها في أعمال الحقل في حدود معينة .

وكان الريف متعارفا على هذا الأمر من قديم ، وكان يحوط عمل المرأة بسياج معين من الأخلاق ، والتقاليد المستمدة من الدين ، فلا يحدث الاختلاط بالغرباء في غير ضرورة ، ولا تحدث الفاحشة إلا شذوذا مستنكرا أشد الاستنكار في ذلك المجتمع المحافظ إلى درجة التزمّت . والزواج المبكر يغنى الشباب من الجنسين عن الصلات المحرمة ، ويقيم الأسرة على أساس من القيم المتوارثة النابعة كلها من الدين .

ولكن المرأة التى تركها عائلها وذهب « متحررا » إلى المدينة ، ولم يعد لها عائل غيره ، كانت مضطرة إلى العمل وإلا ماتت جوعا على الحقيقة لا على المجاز ! فما كانت الجاهلية الأوربية التى لاتطبق شريعة الله تعرف ماتصون به المرأة من الجوع والآثار المترتبة على الجوع !

إن شريعة الله قد صاغت المرأة في جميع أحوالها أما وبنتا وزوجة وأختا ، فرتبت لها عائلا يعولها في جميع حالاتها سواء كان ولدا أو والدا أو زوجا أو أخا أو قريبا من الأقرباء يكلف تكليفا بإعالتها وصيانتها ، ويكون مسئولا عن ذلك أمام الله وأمام شريعة الله ، بحيث يؤخذ من ماله قسرا إن كان ذا مال وحجبه عن الإنفاق ! فإن لم يكن لها أحد يعولها بالمرّة - وهو أمر نادر في مجريات الحياة العادية - فبيت المال في الإسلام يكفل من لا عائل له ، رجلا أو طفلا أو

أمرأة .. وهكذا لاتوجد امرأة في المجتمع الإسلامى الذى تحكمه شريعة الله تضطر إلى العمل لكى تعول نفسها ، فضلا عن أن تعول سواها كما حدث في المجتمع الصناعى « المتطور » !
أما في تلك الجاهلية فقد وجد في الريف نساء كثيرات بغير عائل، لأن عائلتهن تركهن وذهب إلى المدينة ثم عجز عن الإنفاق عليهن .. أو شغله البغاء عن بناء أسرة وتحمل تكاليفها ..

وشيئا فشيئا اضطر هؤلاء النساء إلى الهجرة إلى المدينة للعمل هناك ، حيث التقطن أصحاب المصانع يضربون بهن حركات العمال المطالبة بتخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور .. وعاملتهن الجاهلية بتلك الفظاظاة الفذة ، فأعطتهن نصف الأجر على نفس العمل ونفس الساعات !
ولكن الأمر لم يقف مع الجاهلية عند هذا الحد .. فالمرأة دائما « صيد » والمرأة المحتاجة صيد ميسر !
وساومها « الرجل » الذى تعمل عنده .. إما أن تفرط في عرضها وإما أن تعود إلى الجوع الذى فرت منه !

ولم تكن الجوعة في الحقيقة هي جوعة المعدة فحسب ، وإن كانت هذه كافية للسقوط ! إنما كان إلى جانبها الحاجة الفطرية الطبيعية إلى الجنس ، والحاجة إلى اللباس والزينة، وهى بالنسبة للمرأة ليست كلها كماليات ! وسقط من « الرعيل » الأول من العاملات من سقط .. وفتحن الطريق ! ووجد اليهود صيدا سهلا يشغلونه في صناعاتهم العتيقة « العريقة » ! صناعة البغاء .
وكتبت الصحافة الأوربية كثيرا وكثيرا جدا عن البغاء باعتباره « ضرورة اجتماعية » ! وأنه ينبغي أن يكون رسميا وأن يكون تحت إشراف الدولة !!

وإذا علمنا - كما سنذكر فيما بعد - أن الصحافة الأوربية كانت - وما تزال - تحت سيطرة اليهود ، علمنا لحساب من كانت تكتب هذه الصحافة عن البغاء و« تزكيه » !

ولو أن هؤلاء « الأمميين » في أوروبا كانت لديهم ذرة من تفكير لعجبوا على الأقل - ولانقول استنكروا ورفضوا - أن تكون « الدولة » هي حارسة البغاء وحاميته وراعية شئونه !
أى سخرية سخرها اليهود من الأمميين ، وهم يلعبون بهم على هذا النحو

المشائن؟! ويسقونهم السم فيشريرونه بلا روية.. سم يمسح الأرواح ويذهب بالعقول..

وأيا كانت التعلات التى قدمت لتبرير البغاء ، وتبرير إشراف الدولة عليه ورعايته ، فهى سخرية المساخر فى الجاهلية المعاصرة ، وقمة من قمم التمكن اليهودى من « الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار » !

ورويدا رويدا أصبح البغاء الرسمى وغير الرسمى حقيقة واقعة فى المجتمع له صفة « الشرعية » الكاملة ، وتتحدث عن « تنظيمه » القوانين .. وأصبح الذى يستنكر هذه الأوضاع رجعيا متزمتا ، أوجاهلا مخرفا ، أو منافقا تافها ، أو « مثاليا » يعيش فى الأوهام ! وأصبحت هذه هى « الواقعية » الجديدة التى يدافع عنها الكتاب والخطباء والصحفيون والقصاصيون والروائيون .. والمحللون النفسانيون!!

غير أن المسألة لم تقف عند هذا الحد ، وإنما « تطورت » كثيرا .. فقد كثر العاملات فى المصانع ، اللواتى يقمن بنفس العمل ويتناولن نصف الأجر ، بسبب استمرار هجرة العمال إلى المدينة وترك أسرهم بلا عائل .. فأصبحت لهن « قضية » ! قضية المساواة فى الأجر مع الرجل .. وهى قضية عادلة دون شك ، أيا كانت الظروف التى أدت إليها والملابسات التى أحاطت بها والنتائج التى ترتبت عليها .. فحين يعمل الرجل والمرأة نفس العمل ، ويقومان بنفس الجهد ، فأى مبرر فى الأرض يبرر أن يأخذ أحدهما نصف الآخر « ١ » !

ولكن الجاهلية الأوربية التى لم تحكم قط بما أنزل الله قد ارتضت هذا الأمر ، ورأت فيه شيئا طبيعيا لا يبعث على الاستنكار !

ولكن النساء اللواتى وقع عليهن الغبن رأين - أو روى لهن - أن يطالبن بحقوقهن المسلوبة .. نقول : روى لهن ، لأن التاريخ يشهد أنه كان هناك دائما محرك يحرك الأمور !

وسواء كان اليهود هم الذين حركوا « القضية » أم قوم طيبون أخذتهم الشفقة بالمظلومات فطالبوا لهن بحقوقهن ، فلا شك أن اليهود استغلوا الظروف لصالح مخططاتهم ، وشدوا الخيط إلى أقصى ما يمكن أن ينشد !

« ١ » ترت المرأة المسلمة نصف ميراث الرجل بمقتضى قوله تعالى « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » [سورة النساء ١١] ولكن هذا يجرى فى المال الموروث فقط وحكمته أن الرجل يكلف من ميراثه تكاليف لتكلفتها المرأة من ميراثها أما المال المكتسب فالأصل الطبيعى فيه هو المساواة ، وعلى ذلك تحرى أحكام الإسلام فى التجارة والزراعة والبيع والشراء والرهن والاحارة وسائر المعاملات المالية التى لا يختلف فيها مقدار الكسب باختلاف الجنس

وسارت القضية فى خطوات متتابعة ، كل خطوة تؤدى إلى تاليتها بصورة تبدو طبيعية ومنطقية وتلقائية . وما كانت فى الواقع تلقائية . إنما كان ينفع فيها الشياطين بصورة تظهرها فى هذا الوضع .

طالبت المرأة بالمساواة مع الرجل فى الأجر فرفضت الرأسمالية الناشئة وأصرت على الرفض ، كأنها تحافظ على وضع طبيعى لا يجوز تغييره ولا الخروج عليه ! ورفض « الرجل » كذلك ! كأن طلبها عدوان على حقوقه الشخصية أو عدوان على كيانه الذاتى !

ولم تعد القضية مجرد المطالبة بالمساواة مع الرجل فى الأجر ، بل أصبحت - فى ذات الوقت - قضية ضد « الرجل » الذى يرفض إعطاءها مالها من حقوق فى عنجهية وغطرسة . وظل هذا الأمر يتسع كلما سارت القضية فى مسارها خطوة ، حتى أصبح فى النهاية كأنه هو القضية ! وانقلب الأمر بين شقى النفس الواحدة اللذين خلقهما الله ليكونا سكنا ومودة : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ١ « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » ٢ « فأصبحت العلاقة هى العداة والصراع والمنافسة ..

وفرك الشياطين أيديهم سرورا بذلك « التطور » .. فأى شىء أفعل فى فك روابط الأسرة وتقطيع أوصالها من إثارة الصراع والشقاق بين ركنيها الأساسيين ؟!

وما نريد أن نتعجل الأحداث !

رفض أصحاب المصانع قضية المساواة فى الأجر ورفضها الرجل كذلك ، فطالبت المرأة - أو طوّل لها فى الحقيقة - بأن يكون لها حق الانتخاب حتى يكون لها - كما قيل - تأثير فى اختيار المرشحين للمجالس النيابية فيدافعوا عن حقوقها المسلوبة حين يصلون إلى البرلمان ، وكان الرجل قد نال هذا الحق (حق الانتخاب) قبل ذلك مع نمو الديمقراطية ونمو الحقوق السياسية للشعب ٣ « .

ورفض الرجل إعطاءها هذا الحق ، ولم يعترف أصلا بأن ذلك حق من حقوقها أو أمر جائز بالنسبة إليها .

١ « سورة النساء [١]

٢ « سورة الروم [٢١]

٣ « سنتكلم عن الديمقراطية فيما بعد .

وتكفل رجال بالدفاع عن « قضية المرأة » : محامون وكتاب وخطباء وصحفيون .. بينما ظل أغلبية الرجال يرفضون في إصرار . ولكن رويدا .. رويدا .. أخذت المعارضة تلين - أو في الحقيقة تُلَيَّن ! - بالسبق المستمر عليها بكل وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الحين ، وفي مقدمتها الصحافة ، ومن بينها الخطابة والمحاضرة والتأليف .

وظاهرة لين المعارضة بعد اشتدادها في أول الأمر تكررت في كل مرحلة من مراحل « القضية » بصورة واحدة تقريبا .. يبدأ « المدافعون » بإثارة القضية فتنهال المعارضة من كل جانب ، وتحث غضبات « الرجال » إلى حد يخيّل للرأي أن الأمر قد انتهى إلى الأبد ، وأن القضية فاشلة لامحالة ! ورويدا .. رويدا تأخذ الأصوات المعارضة تخفت ، والأصوات المدافعة تعنف وتشتد ، حتى يأتى يوم لايجرؤ فيه أحد على المعارضة لأنه يصبح ضد التيار ، ويصبح كلامه مستهجنًا ويقابل بالاستنكار ، لأنه رجعى متخلف ، يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء، ويريد أن يقف عجلة التطور الساحقة التى تسحق كل من يقف في سبيلها !

كيف يتم الأمر على هذه الصورة ؟!

هل هى صورة طبيعية وتلقائية ؟ أم تدخل فيها أصابع الشياطين ؟

أما أنها طبيعية - من جانب - فنعم ! فما كان المعارضون يعارضون عن إيمان حقيقى بقيم معينة ، إنما هى عنجهية الرجل من جهة ، وكون ذلك من « التقاليد » الموروثة من جهة أخرى .. والتقاليد إذا فقدت الروح وفقدت المبدأ وفقدت الايمان ، لم تعد قادرة على الصمود في المعركة ، خاصة إذا كانت معاول الهدم حادة ، وكان المهاجمون أذكىاء بل شريرين .

ولكنها من جانب آخر لم تكن طبيعية .

فلو تركت الأمور دون تدخل ودون توجيه ، فلربما كانت التقاليد الموروثة تتغلب ، أو ربما كانت عنجهية الرجل التقليدية تتغلب .. ولكن الذير بيدهم التوجيه الشيطانى كانوا - في كل مرة - يحولون دون أن تنتهى الأمور إلى هذه النتيجة التى لاتخدم أهدافهم ، وتعطل مجىء اليوم الذى يركب فيه شعب الله المختار على ظهور الأميين ويلهبها بالسياط^١

ولانتحدث هنا عن العدالة : في أى الجانبين كانت ، ففي الجاهلية لاتوجد

عدالة .. والمتصارعون كلهم كانوا يعيشون في جاهلية ترفض أن تحكم شريعة الله . وقد تكون بعض الأمور أو بعض الوجهات في هذه الجاهلية أعدل من بعضها الآخر ، ولكنها في النهاية تبتعد عن حقيقة العدل ، لأنها تصلح داء بداء آخر ، وتعالج مرضا فتحدث عدة أمراض ! فلئن كان المدافعون عن « حقوق المرأة » يبدون أكثر عدلا من الذين يحتقرونها ويهينونها ويستكثرون عليها أى حق من الحقوق ، فإن الصورة التى نالت بها حقوقها قد أحدثت من الفساد والظلم ما لم يكن يخطر على بال !

ومرة أخرى لانهب أن نتعجل الأحداث !

طالبت المرأة بحق الانتخاب الذى كان الرجل قد حصل عليه، ومن ثم أصبح للقضية بعد جديد - بعد سياسى - بعد أن كانت مجرد قضية مساواة فى الأجر . ورفض طلبها بشدة فى أول الأمر ، ثم عادت المعارضة فلانت ، وحصلت المرأة فى معظم دول أوربا على حق الانتخاب ..

ولكنها وجدت أن الأصوات الضئيلة التى تدلى بها فى الانتخابات ليس لها وزن حقيقى فى المعركة الانتخابية ، وحتى إن أثرت تأثيرا جزئيا طفيفا فى إنجاح مرشح معين ، ممن يتعهدون - أو يكونون معروفين - بالتحمس لقضية المرأة والدفاع عنها فى المجالس النيابية ، فسرعان ما ينسى المرشح وعوده حين يصل إلى البرلمان ، أو تضع صيحته فى زحمة الأعمال وزحمة الخطب والكلمات !

عندئذ رؤى لها أن تطالب بحق الترشيح ودخول البرلمان .. لكى تسمع صوتها بنفسها للذين يصنعون القوانين (كأنهم لم يكونوا سامعين من قبل) وتشارك بنفسها فى إعداد التشريع، فتضمنه ما يحفظ للمرأة حقوقها .

وقامت قيامة المعارضة كما يحدث فى كل مرة ، واشتدت حتى ليظن الرأى أن الأمر لن يتم أبدا .. ثم ظلت أصوات المعارضة تخفت تدريجيا وتلين .. حتى نالت المرأة حق الترشيح .. ودخلت البرلمان !

ويجدر بنا أن نلاحظ ظاهرة « فنية ! » فى إدارة المعركة .

لقد كانت الصحافة دائما من أوسع المجالات التى تدور فيها المعركة إن لم تكن أوسعها جميعا .. والصحافة فى أوربا كانت - وما تزال - فى أيدي اليهود ، الذين يوجهون المعركة كلها لحسابهم الخاص . ومع رغبتهم الشديدة فى أن تصل الأمور إلى إخفات صوت المعارضة نهائيا ، وعدم السماح لهما

بالظهور ، فقد كانوا - في كل مرة - يدعون الصحف تفسح صدرها للرأى
المعارض مهما كانت شدة لهجته وقساوة عباراته !
وهذا « فن » بارع ولا شك !

فمن ناحية لم تكن الصحافة هى المجال الوحيد لإبداء الرأى ، بل كان إلى
جانبه الخطابة والمحاضرة والتأليف . (ولم تكن وسائل الاعلام الأخرى قد
اخترعت بعد ، من إذاعة وسينما وتلفزيون ... الخ) فلو أن الصحافة أغلقت
أبوابها دون الرأى المعارض - وهو فى حدته - لانكشف للناس تحيزها ،
وانكشف اللاعبون من ورائها ، وفشلت اللعبة من أولها ! بل ينبغى أن تبقى
الصحافة « حرة ! » فى ظاهرها حتى يطمئن الناس إليها وتصبح أداة جبرة
لتشكيل « الرأى » العام على النحو المطلوب .

ومن ناحية أخرى فإن المعارضة والشد والجذب بين الرأى المعارض والرأى
المؤيد ، مطلوبان - لذاتهما - من أجل إنجاح المعركة والوصول بها - فى
النهاية - إلى الهدف المطلوب !

هب أن الرأى المطلوب إرساء قواعده - وهو إعطاء المرأة حق الانتخاب
مثلا - قد ألقى فى الصحف أو فى أى مجال من مجالات الإعلام فلم يأبه
بمعارضته أحد ولم يتقدم لمناقشته وتفنيده أحد .. أترأه ينجح أو يصل إلى
هدفه ؟ كلا ! إنما يموت لتوه ويغطيه النسيان ! ويكون فى حس الناس أن مجنوناً
أخرق تقدم برأى شاذ فلم يأبه به أحد !

أما حين تدور المعركة ، بالمعارضة ، وإن اشتدت فى بادئ الأمر ، فهذا هو
الضمان أن ينشغل الناس بالقضية ويولوها اهتمامهم ، وهذه هى الخطوة
الأولى فى طريق النجاح ! ويكفى - فى مبدئ الأمر - أن تدور المعركة حول
الرأى ! فمعنى ذلك أن الموضوع قابل للمناقشة وأن هناك وجهات نظر مختلفة
فيه - ولو كان بعضها ضعيفاً غاية الضعف - وأن الأوضاع القائمة (المراد
إنالتها) ليست حقيقة نهائية مقررة لاتقبل النقاش !

ومادام قد تقرر المبدأ ، وهو أن الأمر قابل للنقاش وليس حقيقة نهائية فمن
باب « الحرية ! » ينبغى أن يسمح لكل الناس بإبداء آرائهم سواء كانوا مؤيدين
أو معارضين ، لبتاح « للرأى العام » أن يحكم على الأمر !

عندئذ تأتى الخطوة « الفنية » التالية ، وهى الإلحاح المستمر على وجهة
النظر المطلوبة ، والتقليل التدريجى من الرأى المعارض ، مهما كان قويا فى

حقيقته في الواقع الخارجى (أى خارج دائرة الصحافة) ، حتى يخيل للقارئ أن رأى المعارض قد خفت بالفعل ، وأن رأى « المطلوب » أصبح هو رأى الغالب .. وعندئذ تخفت المعارضة بالفعل بتأثير هذا الإحياء، ويتغلب رأى المطلوب ، ويقال إن « رأى العام ! » قد اقتنع بالقضية وأصبح من المتحمسين لها ! وترفع المرأة الزائفة أمام الناس فيظن كل واحد أن الآخرين كلهم قد اقتنعوا ولم يبق مترددا أو معارضا إلا هو ! فيقتنع هو الآخر بالإحياء !

وتبقى - دائما بطبيعة الحال - قلة صلبة في معارضتها تأبى أن تذوب سواء كانت معارضتها ناشئة عن إيمان حقيقى بمبدأ معين أو حقيقة معينة ، أو لأى سبب آخر .. وهذه يجرى التخلص منها بصورة من الصور ، إما بمحاولة الشراء ، وإما بتشويه السمعة ، وإما بالتصفية البدنية إذا لم تفلح جميع الوسائل في ثنيها عن موقفها !

وهكذا ارتفعت صيحات المعارضة في كل مرة طولب للمرأة فيها بحقوق جديدة ، ثم لانت المعارضة أولينت ، وخفتت الأصوات بعد حين ، وبقي رأى « المطلوب » وحده مرتفع الراية في الأفاق ، وقيل إنه « التطور الحتمى » الذى لابد أن يأخذ مجراه ، وإن عجلة التطور ستسحق كل من يقف لها في الطريق ! دخلت المرأة البرلمان لعبة مسلية أكثر مماهى واقع جدى ! ولم يتغير كثيرا حال المرأة بهذه اللعبة من ناحية « الحقوق » المطلوبة ، ولكنها - من وجوه أخرى - تغيرت كثيرا ولاشك !

كانت « القضية » في أثناء ذلك قد سارت مسارات شتى ، وطرقت أبوابا جديدة ..

طالبت المرأة - أو طولب لها - بحق التعليم ..

وقد كان تعليم المرأة في المجتمع الجاهل الأوربى يتم في أضيق الحدود .. فأما أصحاب القصور فيعلمون بناتهم في داخل قصورهم فيأتى المربون والمربيات والمعلمون والمعلمات إلى داخل القصر فيعلمون البنات تعليما « أرستقراطيا » يصنع منهن « سيدات قصور » !

وأما « الشعب » فلا يكاد يعرف هذه القضية ، قضية تعليم البنات .. وإنما يتعلمن - داخل البيوت - إدارة البيوت وفنون الطهى وتربية النشء ، وتربية الدواجن والماشية والغزل والنسيج اليدوى وما إلى ذلك من فنون المعاش .

وقليلات من يتعلمن في المدارس . أكثرهن يتوقفن عند مرحلة ابتدائية وأقل القليل من يتعلمن فن التدريس أو فن التريض ..
أما التعليم بمعناه العام فلم يكن يخطر على بال أحد من الرجال - ولا النساء - يومئذ أنه في يوم من الأيام يكون !
وما حاجة المرأة إلى التعليم ؟ وما حاجتها إلى العلم ؟ إنما هي لتتزوج وتحمل وتلد وترضع ، وتكون ربة بيت « ١ » .

ولكن « القضية » المشتعلة مدت لسانا من اللهب نحو هذا الميدان فاشتعل بنيران المعركة ، واتسعت القضية - التي كانت في أساسها قضية المساواة مع الرجل في الأجر - فشملت في كل يوم أبعادا جديدة لم تكن لها من قبل ، وترتب على هذه التوسعة الجديدة آثار خطيرة لم تكن في بال أحد من قبل على الإطلاق . هل كان في بال المخططين أنفسهم كل هذه الأبعاد وما يترتب عليها من آثار ؟ ربما لم يكن ذلك كذلك !

ولكن كل خطوة كانت تقربهم إلى أفق جديد يكتشفون أنهم يستطيعون منه إحكام الرمي ، أما الهدف فواضح لهم من أول لحظة ، وهو تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد ، وأما الوسائل فهي كل الوسائل المتاحة في كل لحظة ، حتى تتاح وسائل جديدة فتستخدم على التو !

ولقد أتاح لهم استخدام قضية التعليم وسائل هائلة جدا لتحقيق الهدف المطلوب ، ربما لم تكن كلها في حسابهم يوم بدءوا « اللعبة » ، ولكن كل خطوة كانت تكشف لهم الإمكانيات المتاحة للخطوة التالية فيسارعون إلى التحضير لها حتى إذا جاءت كانوا هم حاضرين !

كانت قضية التعليم من أشد القضايا إثارة للمعارضة في المجتمع الأوربي الجاهلي .. وكانت عنجهية الرجل فيها على أشدها .. فقد كان التعليم خلال قرون طويلة حقا للرجل وحده ، لاتنازعه فيه المرأة ولا ينبغي لها أن تنازعه فيه . وصيغت خلال القرون « نظريات » حول عقل المرأة وقابليتها للتعليم ، خلاصتها أن المرأة لا يمكن أن تتعلم ! هكذا خلقها الله ! لا تصلح أساسا للتعليم ! لا تفهم ! إلا تلك الأشياء الصغيرة التافهة التي تناسب عقليتها

١ . يلاحظ ان المجتمع الاسلامي انحدر إلى هذه النظرة في القرون الأخيرة حين بعد عن حقيقة الاسلام ، فأوجد امام الشياطين ذات الثغرة التي نفذوا منها لإفساد المرأة في أوربا .

وطبيعتها من رعاية النشء (لأن عقلها صغير كعقل الأطفال فهي أقرب إلى مستواهم، ومن ثم فهي أصلح لتربيتهم في سنواتهم الأولى حتى « يعقلوا » فيتولاهم الرجال !) وإدارة شئون المنزل والغزل اليدوى والنسيج اليدوى وما أشبه ذلك من الفنون ..

أما العلم .. فلا ! تلك مزية الرجل التى حباه الله بها فاختص بها خلال القرون ..

أو تجيء المرأة اليوم فتنازعه هذا الاختصاص ؟! وأنى لها وهى لم تهيأ أصلا لتلقى التعليم ؟

وماذا تفعل بالتعليم بعد أن تتزوج وتصبح ربة بيت ؟ فعندئذ تستوى المتعلمة والجاهلة ، إذ أن هذا أمر تقوم به الجاهلة خير قيام ولا يلزمها من أجله العلم ، ولن تقوم به المتعلمة خيرا منها ، بل قد تتفوق الجاهلة عليها لأنها نالت من الدربة والخبرة فيه ما لا يتاح للمتعلمة التى تقضى شطر وقتها بعيدا عن البيت ، وهو الميدان الأصلى للتدريب .

ولقد كان فى هذا الكلام كثير من الأباطيل ولا شك ، وكان متأثرا تأثرا شديدا بالنظرة الكنسية المترتبة إلى الجنس، وإلى المرأة التى يتمثل فيها الجنس بالنسبة إلى الرجل ، تلك النظرة التى وصلت إلى حد أن « فلاسفة » فى القرن السابع عشر كانت « تتفلسف » فى هذا الشأن فتتساءل : هل للمرأة روح أم ليس لها روح ؟ وإذا كان لها روح فهل هى روح إنسانية أم روح حيوانية ؟ وإذا كانت روحا إنسانية فهل هى من جنس روح الرجل أم من درجة أدنى ؟!

ولكن وجهها واحدا للحق كان قائما فى هذا الكلام كله المحتوى على كل تلك الأباطيل ، هو أن التعليم - على النحو الذى كان يراد ويخطط له - كان يشغل المرأة عن وظيفتها الأساسية ويحولها إلى وجهات أخرى تتلقفها فيها الشياطين !

هل اليهود ينشئون الأحداث على هواهم بتدبيرهم الماكر كما يقول وليم كار ؟!

كلا ! إنما هم يستغلون الأحداث ، ويتربصون لينفذوا من أى ثغرة تعرض لهم فى حياة « الأمميين » ولكنهم لا ينشئون الأحداث من عند أنفسهم مهما خططوا ومهما دبروا مئات من السنين أو ألوفها من السنين !

فلولا أن الجاهلية الأوروبية شغلت المرأة بنصف أجر الرجل ، فمن أين كان

لليهود أن ينشئوا للمرأة قضية ؟ ولولا أن تلك الجاهلية حرمتها من التعليم تحقيرا وامتهانا لها فمن أين كان لليهود أن يوسعوا القضية حتى تشمل تعليم المرأة ، ثم يحدثوا عن طريق تعليمها كل ما أحدثوا من الفساد ؟!
كلا ! إن « الأمميين » هم الذين يتيحون الفرصة - بأعمالهم - ليستحمرهم شعب الله المختار ويركب ظهورهم ، ولولا أعمالهم الخاطئة تلك ما استطاع شعب الله المختار أن يركب ، مهما كان في قلبه من الغل ، ومهما كان في عقله من التدبير .

ونمضى مع قصة تعليم المرأة فنجد المعارضة الثائرة في أول الأمر ، ثم نجد هذه المعارضة تخفت رويدا رويدا ويمضى ما كان يبدو مستحيلا في مبدإ الطريق !

عند بدء المعركة طالب المطالبون بإنشاء تعليم لايبعد المرأة إبعادا كاملا عن وظيفتها ، وإن كان يبعدها - دون شك - إلى حد غير قليل ! فقد أنشئ لها تعليم « نسوى » يحوى العلوم التى تعطى للأولاد ، مضافا إليها دروس في تدبير المنزل ورعاية النشء وبعض الفنون النسوية كشغل الإبرة والتفصيل والخياطة .. الخ ، وكان هذا مجرد خطوة في الطريق ، حتى يحين الوقت الذى تلغى فيه المواد النسوية إلغاء كاملا ويتم « ترجيل » المرأة .

كذلك طالب المطالبون بتوفير الصيانة الخلقية التامة للفتاة التى تذهب إلى المدرسة ، فتذهب وتعود في سيارة مقفلة مغطاة بالستائر ، أو يذهب معها ذروها ويعودون بها بحيث لاتتعرض للفتنة في الطريق !
والحكمة في هذا وذاك واضحة !

فلو أن المخططين كشفوا عن وجوههم دفعة واحدة ، ودفعوا الفتاة الذاهبة إلى المدرسة للتبرج من أول لحظة ، أو دفعوها للانسلاخ الكامل من أنوثتها فأبى أب كان يبعث بابنته إلى المدرسة ، والتيار المعارض جارف والحملة ضد تعليم المرأة قائمة على قدم وساق ؟!

لابد من طمأنة أولياء الأمور طمأنة كاملة في مبدإ الطريق ، حتى يرسلوا بناتهم إلى المدرسة ، وعندئذ - بعد أن يذهبن بالفعل - يكون لنا معهن دور أى دور !

ورويدا رويدا .. على مدى طويل بطيء « ١ » ظلت المواد النسوية تتضاءل ، بحجة عدم الإقبال على الفتاة .. أو بآية حجة أخرى ! وتقترب المناهج بين البنات والبنين حتى صارت متطابقة تماما في آخر الأمر .. مناهج رجالية كاملة !!
ورويدا رويدا كذلك وبنفس البطء بدأت فتاة المدرسة تتحلل من القيود الصارمة التي فرضت عليها - بعناية - في مبدأ الأمر ! فلم تعد السيارة مغطاة بالستائر ، ولم يعد ذووها يوصلونها إلى المدرسة أو يعودون بها إلى البيت !

وجاء الوقت الذي تقدمت فيه الفتيات إلى الشهادة الثانوية على مناهج البنين كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، وحدثت « المعجزة » ! فنجحت الفتيات في الامتحان الموضوع أصلا للبنين ، بل تفوقن عليهم في غير قليل من الحالات !
وحدثت ضجة هائلة - في الصحافة بصفة خاصة - لم تهدأ من قريب !
ها هي ذى الفتاة التي قلت عنها إنها لاتفهم ولا تستطيع أن تتعلم .. هاهى ذى التي قلت عنها إنها أقل ذكاء من الفتى وأقل قدرة على الاستيعاب .. هاهى ذى التي قلت عنها إنها لاتصلح - إن صلحت على الإطلاق - إلا للمناهج النسوية ، بخالصة .. هاهى ذى تدخل ذات الامتحان مع الفتى فتجاريه بل تتفنى عليه !

أرأيتم أيها الرجعيون ؟ ! أرأيتم أيها الظالمون ؟ ! أرأيتم يا جنس الرجال ؟ !
أيها المغرورون ! أيها المتعصبون !!
ولئن كان نجاح الفتاة قد قوبل بالاستغراب الكامل في الغرب ، فما ينبغي أن يستغرب في الحقيقة ، فقدرة الفتاة على التحصيل العلمى لاتفترق عن قدرة الفتى حين تتخصص لها وتوليها جهدها .. أما تفوق الفتاة أحيانا فقد كان مرجعه إلى روح التحدى من جهة ، وانقطاع الفتاة للاستذكار في المنزل بينما الأولاد مشغولون - في الشارع - بألوان من النشاط لاتمارسها الفتيات في ذلك الحين !

وليست القضية - كما أثارتها الجاهلية من جانبيها ، جانب المعارضة وجانب التأييد - هى القدرة على التحصيل على ذات المستوى عند كل من الجنسين ، إنما القضية هى الإعداد المناسب لوظيفة كل من الجنسين

« ١ » ، هناك مثل انجليزى يقول . بطيء ولكنه اكيد المفعول Slow but sure ، وعلى ذات الحكمة يسير اليهود في تنفيذ مخططاتهم حتى لايتنبه الامميون من غفلتهم .

واستعداداته النفسى بصرف النظر عن قدرته العقلية .

يقول الدكتور الكسيس كاريل فى كتاب « الإنسان ذلك المجهول L'Homme cet unconnu (ص ١٠٨ - ١٠٩ من الطبعة الثالثة من الترجمة العربية لشفيق أسعد) .

« إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم . إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض .. ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية المدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ، وأن يمنحا قوى واحدة ومسئوليات متشابهة ..

والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل .. فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها .. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها .. وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبى . فليس فى الامكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كماهى . فعلى النساء أن ينمىن أهليتهن تبعا لطبيعتهن ولايحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة » .

ولكن الجاهلية - من جانبيها كما قلنا - ركزت على المقدرة العقلية أكثر من أى شيء آخر ، فخر المعارضون حين نجحت الفتاة بل تفوقت أحيانا على الولد ، وهلل المدافعون وأمعنوا فى إثارة الضجة حول قدرة الفتاة التى لاتقف عند حد ، ومساواتها التامة للرجل فى كل شيء !

حقيقة إن قضية الوظيفة والاستعداد النفسى قد أثيرت من جانب المعارضين ، ولكنها أثيرت بروح التحقير والامتهان ، لا على أساس توزيع الوظائف والتكاليف على شقى النفس الواحدة مع المساواة فى الانسانية كما قال رب العالمين ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم :

« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ١ «

« ١ » سورة النساء [١]

« فاستجاب لهم ربهم أنى لأضيق عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » ١ .
« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » ٢ .
« إنما النساء شقائق الرجال » ٣ .

لذلك كانت موضع الرفض الكامل من الفريق الذى تصدى للدفاع عن المرأة ، وكانت موضعا لتنديدهم بعنجهية الرجل المتفطرس على غير أساس !
وما نقول إن إثارتها على النحو الصحيح كما شرعها الله كانت ستجدى شيئا فى الدوامه التى أثرت حول « قضية المرأة » ووجهت توجيهها معنا منذ البدء يخدم أغراض الشياطين ، إنما نقول إنه لو كانت الحياة فى المجتمع الأوربى قد سارت منذ البدء على هدى المنهج الربانى لما وجد الشياطين قضية يثيرونها ويلعبون بها على النحو الخطير الذى فعلوه .
وحين نجحت الفتاة فى الدراسة وسأوت الولد أو تفوقت عليه أحيانا فهل كان هناك شك فى الخطوة التالية ؟!

طالبت - أو طولب لها - بدخول الجامعة !
ويبدو الأمر طبيعيا جدا ومنطقيا جدا .. بينما تبدو المعارضة قائمة على غير أساس !
وعلى أى حال فقد قامت المعركة المعتادة كما قامت من قبل مع كل خطوة سابقة وكما قامت من بعد فى كل خطوة لاحقة .
قال المعارضون : إن نجاحها فى المرحلة الثانوية لايعتبر دليلا على مقدرتها على الدراسة الجامعية ، فالجامعة شئ آخر غير الدراسة الثانوية !
وقالوا : إن التعليم الجامعى لايناسب طبيعتها (وهى هنا الطبيعة الرقيقة اللطيفة) فهو تعليم جاف لايناسب إلا الذكور !
وقالوا : إن مكان الفتاة الطبيعى هو البيت ، لتكون زوجة وأما وراعية أطفال ، وليس هو الجامعة البعيدة كل البعد عن طبيعتها والمعطلة لها عن وظيفتها طوال مدة الدراسة .
وقالوا : إنها ماذا تفعل بالدراسة الجامعية ؟ وما حاجتها إليها حين تصبح ربة بيت وزوجة وأم أطفال ؟!

١ . سورة ال عمران [١٩٥]

٢ . سورة النحل [٩٧]

٣ . رواه الترمذى

وقالوا : إنها تتزوج - عادة - في السادسة عشرة أو السابعة عشرة ..
فمتى تذهب إلى الجامعة ؟!

وقالوا : إن ذلك يخالف التقاليد ..

وصمد « المدافعون عن حقوق المرأة » .. لهذه الهجمات كلها ، وكأنهم -
الآن - قد أصبحوا يعرفون النتيجة ! إنها مسألة وقت فحسب !

أما المخططون فما كانوا ليكشفوا أوراقهم كاملة من أول لحظة فذلك ينافي
« فن » اللعب ، كما أنه قمين بإفساد اللعبة بكاملها !

أيقولون للناس الآن ماذا يريدون أن يفعلوا بقضية المرأة في المستقبل فيحجم
الآباء عن إرسال فتياتهم إلى الجامعة ، بل تحجم الفتيات أنفسهن بالبقية
الباقية فيهن من الدين والأخلاق والتقاليد .. والحياء ! الحياء الأنثوى الفطري
الذي خلقه الله ، والذي يخطط لإفساده شعب الله المختار !
كلا ! إنما يترك ذلك للتخطيط البطيء .. بطيء ولكنه أكيد المفعول !

قال المدافعون : إن الفتاة ستثبت جدارتها في التعليم الجامعي كما أثبتت
جدارتها من قبل في التعليم الثانوي . وكنتم أيها الرجعيون المتزمتون تشككون
في قدرتها على تلقي علوم الأولاد في المرحلة الثانوية ونجاحها فيها فهزكم الواقع
واسقط حجتكم وألجم أفواهكم ! وسيتبين لكم غدا أنكم كنتم واهمين بالنسبة
للتعليم الجامعي كما كنتم واهمين من قبل بالنسبة للتعليم الثانوي .. فقط
اتركوا لها الفرصة لتثبت مقدرتها ! كيف تحكمون على شيء لم تجربوه بعد ؟!

وقالوا : إن الرجل يخشى المنافسة ! يخشى على مكانته « التقليدية » أن
تنافسه فيها المرأة فيفقد هذه المكانة ! إنها عقدة النقص ! لو كان الرجل واثقا
من نفسه ماخشى المنافسة ! إنه يلجأ إلى « التقاليد » ليحمي امتيازاته ! تلك
التقاليد البالية المتعفنة التي ينبغي أن تزول ! التقاليد التي تحتقر المرأة
وتمتهنها وتجعلها مستعبدة للرجل ! لاعبودية بعد اليوم !

وقالوا : إن الدراسة الجامعية لاتمنع المرأة عن وظيفتها .. فما الذي يمنعها
أن تتزوج ؟ فقط تؤجل الزواج بضع سنوات ! ومن أرادت أن تتزوج وتترك
الدراسة الجامعية فمن يمنعها !

وقالوا : إن الدراسة الجامعية - على العكس - توسع مداركها وتوسع
أفاقها فتعينها على أداء وظيفتها ! أتريدون أن تكون أمهات أطفالكم جاهلات ؟

اوليس الخير لكم أن تكون الأم متعلمة فتحسن تربية أولادها ؟
وقالوا : إن الفتاة يمكن أن تختار من الدراسات الجامعية مايناسب طبيعتها
« الرقيقة اللطيفة » فتدرس الأدب في كلية الآداب .. ليست الفتاة رقيقة
المشاعر رقيقة المزاج ؟ أوليس الشعر والأدب يرقق المشاعر ويوسع الخيال ؟
فأى مانع لديكم ؟ وتدرس الطب لتطبيب النساء .. أى مانع لديكم ؟ وتخرج
مدرسة لتعليم البنات .. أى مانع لديكم ؟
ولكن بقيت - مع كل ذلك - عقبة غير ذلول ..

التعليم الجامعى معناه الاختلاط .. اختلاط الفتيات بالشبان في الجامعة ..
ودون ذلك يحول الدين والأخلاق والتقاليد .. (ولم يفكر أحد - من طرفى
الجاهلية : المؤيدين والمعارضين - في عمل جامعات نسوية خاصة بالفتيات !)
وكانت تلك العقبة هى البندقة الصعبة الكسر كما يقولون في أمثالهم .. فقد
تشبث المعارضون بالتعلق بالدين والأخلاق والتقاليد في وجه قضية الاختلاط ،
واحتمل المدافعون لتزيين الاختلاط في بادئ الأمر ، ثم لجأوا في النهاية إلى
الكشف عن وجوههم جهرة ، ومهاجمة الدين والأخلاق والتقاليد مهاجمة
صريحة حين أصبح ذلك - بالدق المستمر - أمرا في حيز الامكان .
قالوا : لاتخافوا ! لن يحدث شيء على الإطلاق !

إنها لاتختلط به في رقص ولا لهو ! إنها تختلط به اختلاطا « بريئا » في جو
علمى خالص ، تحت إشراف الأستاذ وسمعه وبصره .. الأستاذ هو الوالد
والمربي والموجه لكلا الشاب والفتاة في قاعة الدرس ، وتحت إشرافه التربوى
التوجيهى يجلس الفتى والفتاة ساعة من الوقت يتلقون العلم ويتناقشون في
قضايا علمية وإنسانية واجتماعية وفكرية .. فأى جو أظهر من هذا الجو وأقدر
على رفع المشاعر وتهذيب الأخلاق ؟ من ذا الذى يخطرله - في هذا الجو -
أن يسيء الأدب أو يسيء إلى الأخلاق أو يخطر في باله خاطرة من خواطر
الفساد ؟

بل إن الاختلاط ذاته أداة للتهذيب !
الأترون إلى الشبان في مجتمعاتهم كيف تجرى بينهم الألفاظ الخشنة
والألفاظ الخارجة .. أيجروا أحدهم - في حضرة الفتيات - أن يتلفظ بلفظ
خارج ؟

بل إن الاختلاط أداة لنفى خواطر الجنس !

الأترون أن صورة المرأة في حس الرجل - لأنها بعيدة عنه - هي صورة الجنس ؟ وأن صورة الرجل في حس المرأة - لأنها بعيدة عنه - هي صورة الجنس ؟ .. فإذا التقيا في هذا الجو الطاهر البريء .. جو العلم والقضايا الفكرية والإنسانية والاجتماعية ، كف الرجل عن النظر إلى المرأة على أنها « أنثى » وفكر فيها على أنها « امرأة » .. أنها إنسانة .. أنها شريكة في أمور الحياة .. وكفت المرأة كذلك عن التفكير في الرجل على أساس الجنس والعلاقات الجنسية ، ورأت فيه الزميل والشريك والإنسان ..

أى تهذيب للجنس أشد من ذلك التهذيب ؟!

وابتلع « الأُمَميون » الكأس المسمومة .. وشربوها حتى الثمالة ! ولاشك أن الأُمَميين ماكانوا ليدركوا أبعاد اللعبة بكاملها .. وإلا فإن البقية الباقية من الدين والأخلاق والتقاليد كانت قمينة أن تردهم عن الخوض في المستنقع الآسن لورأوه على حقيقته منذ أول خطوة ، مع كل المعركة القائمة ضد الكنيسة ، ومع كل الوهن الذى أصاب الدين في نفوسهم ، فإن الفطرة ذاتها لتنفّر من المستنقع الآسن حين تكون فيها بقية من بقايا السلامة أيا كان مقدارها .. ولكنها لاتعود تنفر منه ، بل تستعذب البقاء فيه إذا غرقت فيه بالفعل وفقدت كل سلامتها ولم يبق لها منها شيء ، وتصبح كدودة الأرض التى تعيش في الطين العفن ، إذا أمسكت بها لتخرجها أفلتت منك وزادت لصوقا بالطين ! وكذلك سار الشياطين بالأُمَميين ، يجرونهم خطوة خطوة حتى أغرقوهم في المستنقع الآسن وجعلوهم يستعذبون البقاء فيه !

احتدمت المعركة كثيرا بالنسبة لدخول الفتيات في الجامعة .. ولكن النهاية كانت كما كان متوقعا من سير الأحداث.

دخلت فتيات قليلات في مبدأ الأمر إلى الجامعات معظمهن في كليات الآداب .. وكن بلا شك هن أجراً الفتيات في ذلك الحين .

وسارت الأمور سيرا « طبيعيا » لفترة من الوقت ، فماكان من الممكن تحطيم التقاليد دفعة واحدة ، وماكان المخططون أنفسهم يرغبون في العجلة - مع لهفتهم الأكيدة في الوصول إلى النتيجة - فقد كانوا يعلمون أن العجلة تفسد اللعبة بأكملها ، وتثير التوجس ، وتصدق ظنون المتشككين ، وتؤيد دعاوى « المتزمتين » الذين قالوا من أول لحظة إن دخول الفتاة الجامعة نذير شر عظيم يحل بالمجتمع .

وكان للفتيات حجرة خاصة من أجل راحتهم وزينتهم وخلوتهم .. وكان يهرعن إليها فيما بين المحاضرات لكي لا ينفردون بالطلاب في غيبة الأستاذ ، الذي يتم في حضوره « الاختلاط البريء » !

ولكن الأمور لم تظل على هذه الصورة ، وليس من شأنها أن تظل .. وكان المخططون يعلمون أنها لن تظل !

رويدا رويدا بدأت « أجراء » الفتيات تتلصقاً فلا تذهب إلى حجرتها فيما بين المحاضرات .. وبدأ أجراء الفتيان يلقي إليها بتحية .. ثم حديث .. وجاءت ثانية وثالثة .. وصار من المعتاد أن يبقى الفتيان في الحجرة لا يغادرنها بين الدرس والدرس .. وصار من المعتاد أن تجرى التحية ويجرى الحديث ..

وكان حديثاً « بريئاً » دون شك ! فمندا الذي يملك أن يتحدث في ذلك الحين حديثاً غير بريء ؟ وأي فتاة مهما يكن من « جرائتها » تستطيع - في ذلك الوقت - أن تتلقى حديثاً غير بريء وتتقبله أمام الآخرين ؟ !

بقية من الحياء ، إن لم يكن هناك دين ولا أخلاق ولا تقاليد ! وهذه البقية من الحياء هي التي عمل الشياطين على قتلها والقضاء عليها ، فماتصلح الخطة كلها إن بقي عند الفتاة شيء من هذا الحياء الفطري الذي خلقه الله في الفطرة السليمة سياجا يحمي الفتاة من السقوط والتبذل ، ويميزه أنثى الإنسان عن إناث الحيوان « ١ » ، كما جعل للعفة علامة حسية في جسدها ميزها بها عن إناث الحيوان ، فجعل أخلاق الجنس جزءاً لامن التكوين النفسى وحده ، ولكن من التكوين البيولوجى والفسىولوجى كذلك لأنثى الإنسان .

ولكن الجاهلية المعاصرة التي يقودها اليهود ويقودون الناس إليها تأبى هذا التميز الفطري عن الحيوان ، سواء في قضية العفة أو في قضية الحياء .. لأن شعب الله المختار لا يريد أن يُبقي على شيء من آدمية الآدميين ، لأنهم حينئذ سيفرضون أن يركبهم الشعب المختار ويسخرهم لمصالحه .. سيفرضون أن يكونوا الحمير التي تركبها الشياطين .

لذلك جردوا حملاتهم على الفتاة لتتخلص مما بقي من حياتها ، وتصبح فليلة الحياء !

« ١ » أشرت في الجزء الثانى من منهج التربية الإسلامية إلى قصة كانت مشهورة في النصف الأول من هذا القرن ، حيث عثر على فتاة كانت تعيش منذ طفولتها حتى السابعة عشرة من عمرها مع الغزلان ، غارية تماماً بغير حياء ، فاستأنسها العلماء ، وظلوا يستردونها إلى الإنسانية خطرة خطوة ، فلما بلغت مدى معيناً من الحس البشرى أحست - تلقائياً - بحياء الأنثى الفطري ، وتغير سلوكها عما كانت عليه من قبل وهي تعيش في عالم الحيوان .

قالوا عن الفتاة التي ماتزال تحفظ في سلوكها إنها حبيسة التقاليد ! حبيسة القيود الطويلة التي غللتها خلال القرون ! إنها ماتزال غير واثقة في نفسها . من تأثير السلطان الطويل الذي مارسه الرجل عليها وأذل به كرامتها ! إنها خائفة .. لأنها متأثرة بتقاليد المجتمع الزراعي المتأخر ! إنها لاتريد أن تعيش عصرها . الذي حررها من القيود وجعلها مساوية للرجل .. إنها .. إنها .. إنها !

وفي الوقت ذاته جردوا حملات التشجيع لكل فتاة خلعت حياءها وأصبحت قليلة الحياء .. فالمجلات تنشر الصور ، وتشيد « بالتححرر » وتكتب التعليقات التي تجعل كل فتاة تتمنى أن لو استطاعت من لحظتها أن تتجرد من حياءها كله لتصبح شهيرة ومعروفة وموضع حديث بين الناس .. والشهرة شهوة لاينجو من جذبها أحد من البشر - رجالا أو نساء - إلا من رحم ربك . وبصفة خاصة شهوة نشر الصورة بوسيلة من وسائل الإعلام .. فكيف إذا كانت الفتاة جميلة ؟ والشياطين يبدأون دائما بالجماليات !

ومع كل ذلك فقد استغرق الشياطين قرابة نصف قرن حتى أذابوا أو أزالوا البقية الباقية من الحياء ، كما أزالوا البقية الباقية من الدين والأخلاق والتقاليد .

امتد الاختلاط البريء كما كان متوقعا من حجرة الدرس إلى فناء الجامعة .. على استحياء أول الأمر .. لاتنفرد فيه فتاة وحدها مع فتى بمفرده ، حتى لاتضيع سمعتها بين الفتيات أنفسهن قبل الشبان .. ثم تقدمت « أجرا » الفتيات ، أى أقلهن حياء فقبلت دعوة أجرا الشبان إلى الوقوف أو المسير معها لحظة منفردين في الفناء ولكن في غير عزلة عن الجموع ، وفي أدب ظاهر للجميع . وماهى إلا أن يتعود الطلاب المنظر - والنفوس تتبدل على المنظر المكرور حتى تفقد حساسيتها له، ما لم تكن تصدر عن عقيدة حية وإيمان حى بقيم ومثل مضادة - ماهى إلا أن يتعود الطلاب حتى يتكرر المنظر بين أزواج متعددين من أجرا الفتيات وأجرا الفتیان ، حتى يصبح الأمر عاديا وميسرا لا يحتاج إلى « جراءة » فيقتحمه كل فتى وتقتحمه كل فتاة !

وحين يصبح الجميع كذلك أو الاغلبية فلا بد - في طبائع الأشياء - أن يخطو الأمر خطوة جديدة إلى « الأمام » !

إنه - لهذا - جعل الله معيار الخير في أمة هو الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ، ومثار اللعنة على أية أمة ألا يتناهى فيها عن المنكر ولا يؤمر بالمعروف .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » « ١ » .

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » « ٢ » .

لأن المنكر إذا نهى عنه توقف فلا يمتد ولا يتوسع .. أما إذا سكنت عنه فإنه يزداد ، ويظل في ازدياد حتى يصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا ، وعندئذ تفسد الحياة ، وتحل اللعنة التي كتبها الله ..

ولقد أصبح من الأمور المعتادة أن ينتحى فتى وقتاة جانبا من الفناء ليتناجيا لا يتحدثا حديثا عاما بصوت مسموع ! وتبدأ - بطبيعة الحال - قلوب تكون أميل إلى قلوب .. ويكون حديث النجوى هو حديث هذه العواطف التي تتجاوب بها القلوب !

والعواطف - حتى الآن - « بريئة » !

لا لأنها في طبيعتها بريئة .. ولكن لأنها - حتى الآن - محصورة في داخل الجامعة لا تستطيع أن تخرج إلى الطريق .. لأن المجتمع لم يتعود بعد أن يرى الاختلاط في قارعة الطريق ..

لقد كانت هناك طبقة فاسدة - دائما - في المجتمع هي طبقة « الأرستقراطيين » أصحاب القصور ، وهذه يعرف عنها الاختلاط « غير البريء » وتنشر فضائحها على المجتمع وتتناقلها أفواه الناس .. ولاتبالى ! لأنها - دائما - بتأثير الترف الفاجر الذي تغرق فيه ضعيفة الإحساس بالقيم والمبادئ ، والقيم الخلقية بصفة خاصة .. وانظر إلى امرأة العزيز في مجتمع آخر وزمان آخر مختلف كل الاختلاف ولكنه يلتقى في هذه النقطة مع كل مجتمع مترف في التاريخ .. انظر إليها كيف تصارح نساء طبقتها بالفاحشة ولاتبالى أن يتحدث المجتمع عن « فضيحتها » .. إنما تغضب غضبا « طبقيا » فقط ، لأن السنة النسوة تستنكر منها أن تتجه بنزوتها إلى عبد مملوك لها ، وإن كنَّ

١ - سورة آل عمران [١١٠]

٢ - سورة المائدة [٧٨ - ٧٩]

لا يستكرن الغزوة في ذاتها ، ولا يعترض عليها لو كانت مع رجل أو شاب من « طبقتها » ١ !

« وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حبا . إنا لنراها في ضلال مبين ! فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا ، وأتت كل واحدة منهن سكيना وقالت أخرج عليهن ! فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم ! قالت : فذلكن الذي لمتنني فيه ! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ! ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » ٢ !

ولقد كانت هذه الطبقة في أوربا تحت تسلط اليهود من قديم كما مربنا من قبل ، يبسرون لها البغاء المترف في المدينة ، ويوقعونها في الدين والربا ذي الأضعاف المضاعفة ، ويسلبون ثرواتهم عن هذا الطريق .

ثم سنحت لهم الفرصة لإفساد طبقة أخرى من طبقات المجتمع حين تحرر عبيد الإقطاع وجاءوا إلى المدينة شبابا فارها بلا أسر ، فيسرت لهم البغاء الشعبي ووضعت « الدولة » حارسة أمينة عليه ! وزادت الفرصة سنوحا لإفساد هذه الطبقة - طبقة العمال - حين بدأت المرأة التي هجرها عائلها في الريف تفد للعمل في المصانع وتفترط في عرضها لقاء لقمة الخبز ، فصار الفساد في داخل الطبقة قريب المنال .

ولكن هذا وذاك لم يكن كافيا ، ولم يكن ليحقق مطامع اليهود في المجتمع الجديد « المجتمع الصناعي المتطور » .

إن « الأرستقراطية » - سواء الأرستقراطية الإقطاعية البائدة أو الأرستقراطية الرأسمالية الناشئة - لا تستطيع - بفسادها - أن تفسد المجتمع كله ، لأنها - دائما - معزولة في قصورها وحفلاتها المأجنة الخاصة ، تحتوى في داخل تلك القصور من العيون المتطلعة ، وتمنع عدواها في الوقت ذاته عن الناس ، لأن جرثومتها « طبقية » لا تعمل إلا داخل القصور ولا تعدى إلا أصحاب القصور !

أما إفساد طبقة العمال - وإن كانوا عددا غير قليل ويزيد على الدوام - فلم يكن يومئذ يفسد المجتمع الجديد ، لأنهم - بعد - طبقة محتقرة

١ . انظر تفسير الآيات في « ظلال القرآن »

٢ . سورة يوسف [٢٠ - ٢٢]

مزدرأة ، تنظر إليها كلتا الطبقتين العلويتين : الطبقة الوسطى والطبقة الأرستقراطية نظرة ازدراء وتعال فلا تنتقل منها العدوى إلى غيرها مهما بلغت هي في ذاتها من التبذل والفساد ..

ولقد كان المطلوب بالذات هو إفساد الطبقة الجديدة الناشئة في المجتمع الرأسمالي ، التي تسيّر الأمور - ظاهريا على الأقل - في ذلك المجتمع الجديد ، وهي الطبقة المتوسطة .

لقد كانت الديمقراطية الناشئة في المجتمع الرأسمالي الناشئ تنمو تدريجيا ، وكانت في أثناء نموها تبرز بصورة متزايدة هذه الطبقة الجديدة : الطبقة المتوسطة ، التي لم يكن لها وجود في المجتمع الإقطاعي ، أو كان وجودها ضعيفا لايؤبه به .

وفي ظل الديمقراطية كانت هذه الطبقة الجديدة تناضل لكي تصبح هي الطبقة الحاكمة ، وتنزع السلطان من الذين استقلوا به من قبل وطفوا به على « الشعب » وهم الأغنياء أصحاب الأموال « ١ » .

كانت المجالس النيابية تتجه رويدا رويدا أن تكون غالبيتها من هذه الطبقة ، وكان منها معظم موظفي الدولة في صورتها الجديدة ، من الموظف الناشئ إلى وكلاء الوزارات والوزراء ، وكان منها بصفة عامة الطبقة المثقفة التي توجه أفكار المجتمع وتحدد له اهتماماته واتجاهاته الفكرية والسياسية والخلقية والفنية .. الخ « ٢ » ، وكان منها بصفة خاصة مدرسو المدارس وأساتذة الجامعات ، أي جهاز التربية والتشكيل للمجتمع الجديد ..

باختصار كانت هي الأداة الجديدة للحكم في ظل الديمقراطية الرأسمالية ، أيا كان المستفيد الحقيقي من هذه الأداة .

لذلك كان لابد في تخطيط المخططين من إفساد هذه الطبقة بالذات ، فإن فساد الطبقة الأرستقراطية وطبقة العمال - مع فائدته التي لاشك فيها بالنسبة لليهود - لم يكن ليؤدي الدور المطلوب في إفساد المجتمع الجديد الذي

« ١ » سنرى من بحثنا للديمقراطية فيما بعد أن الطبقة المتوسطة نالت حقوقا كثيرة لم يكن لها وجود من قبل ، ولكن السلطان الحقيقي ظل في يد الرأسمالية الحاكمة من وراء الستار .

« ٢ » لاينى هذا سيطرة اليهود على تشكيل الأفكار في المجتمع من وراء الستار ، ذلك أن اليهود استخدموا هذه الطبقة المثقفة في توجيه الشعب إلى الوجهة التي يريدونها هم ، بعد أن سمعوا أفكارها على يد علمائهم الكبار في جميع الاتجاهات .

يراد إفساده بأكمله ، إلا أن تفسد الطبقة المتوسطة التى تقوم بالدور الأكبر والأخطر فى رسم الصورة الظاهرة لهذا المجتمع ، والتى فى يدها - فى ظاهر الأمر على الأقل - مقاليد السلطان .

والجامعة هى المكان الرئيسى لتخريج الكثير من أفراد هذه الطبقة ، أو البارزين منهم على أقل تقدير . لذلك كان التركيز على أن يبدأ الفساد من هناك .. ومن هناك ينتشر فى جميع الأرجاء .

* * *

كان الاختلاط « البريء » ما يزال يجرى داخل أسوار الجامعة ، ولكنه كان يحمل فى أطوائه الجرثومة التى تقضى فى النهاية على براءته ، فقد بدأت « العلاقات الخاصة » تنمو بين أزواج من الفتيان والفتيات كما لابد أن يكون .. وبدأت هذه العلاقات الخاصة تضيق بالانحصار داخل الأسوار ، التى تفرض البراءة المصطنعة على وضع هو بطبيعته غير برىء .

وكان لابد أن « يتفجر » الوضع ويخرج إلى الطريق ..

واخذ المجتمع يتعود أن يرى أزواجا من البنين والبنات يخرجون من بناء الجامعة مصطحبين ، فى أدب ظاهر أول الأمر ، ثم يخف الأدب ويقل الحياء بالتدريج .. وأيا كان رأى ذلك المجتمع فى هذه البدعة الجديدة فإنه سرعان ما تبدل حسه عليها فلم تعد تثير انتباهه ، إلا أن يرى حركة مستهجنة (أى كانت فى ذلك الوقت مستهجنة) كضحكة أو لفطة أو نظرة أو لمسة مما كان - يومئذ - أمرا غير لائق فى الطريق ! ولكنه عاد فتبدل حسه حتى على الحركات التى كان يستهجنها من قبل ، وعزاها - ببساطة - إلى أن هذا الجيل الجديد جيل فاسد لا يرجى منه خير ، وألقى القضية من حسه ، وتركها لتصبح أمرا واقعا فى المجتمع « الجديد » !

وملأت « الصداقات » المجتمع .. الصداقات بين الفتيان والفتيات صداقات بريئة - هل فى ذلك شك !^٩

زميل وزميلة .. أحس كل منهما بالميل إلى الآخر والراحة إليه .. ويلكم أيها المتزمتون ! اليس لكم هم إلا الاعتراض على الأمور التى لاتستوجب الاعتراض !^{١٥} ألا تريدون أن يبنى البيت السعيد على المودة والحب ؟ هذان فتى وفتاة سيجمع بينهما الزواج السعيد عما قريب ! اليس من الأفضل

أن يتعارفا لتدوم المودة ؟ أم تريدون أن يؤتى له بفتاة لم يرها قط إلا ليلة الزفاف ، رأتها أمه أو أخته ، فأعجبته ، أما هو فلا يعرف شيئا عن شكلها ولا طباعها ولا ثقافتها ولا نظرتها للأمور ؟!

وهي ؟ اليس من حقها أن تعرف شريك حياتها وتشارك في اختياره ؟ اليس من الظلم أن تباع بيعة إلى رجل لا تعرفه قبل اللحظة ، لأنه أعجب أباه أو أخاه ، أو كان صاحب مال وجاه ، وقد يكون فظاً قاسياً لا قلب له ؟ اليس من الأفضل أن تتعرف إليه عن طريق الصداقة .. الصداقة البريئة .. التي تكشف عن الطبائع وتؤلف الطباع ؟!

* * *

ثم بدأت « البراءة » تذهب رويدا رويدا عن الاختلاط . بدأت تقع حوادث مشينة .. أى كان ينظر إليها في ذلك الحين على أنها مشينة !

وانبرى المدافعون يدافعون عن الاختلاط . إنه ليس هو السبب فيما حدث ! إنما هي التجربة الجديدة لابد أن تكون لها ضحايا ! إنها تجربة « التحرر » .. تحرر الفتى والفتاة كليهما من القيود العتيقة والتقاليد البالية .. والفتاة بصفة خاص ، فقد كانت هي التي يقع عليها عبء هذه التقاليد البالية . فإذا وقعت هنا أو هناك حادثة مشينة فذلك رد الفعل للكبت الطويل الذي كان الشباب يعيش فيه ، وللقيد الظالم التي كانت تعيش فيها الفتاة بصفة خاصة ، فلاترفعوا عقيرتكم أيها المتزمتون تستغلون هذه الحوادث الفردية وتضخمونها فوق حقيقتها ! إنها نزوات طارئة ، وسرعان ما تهدأ الأمور وتستقيم حين يصبح الاختلاط شيئا عاديا في المجتمع ، وتزول آثار الكبت الماضية ، وأثار التقاليد البالية التي سجنّت الفتاة طويلا داخل الجدران . وجعلت التجربة الجديدة - تجربة التحرر - تبهرها فتزل من أجل ذلك بعض الأقدام ! لابد أن نرعى التجربة الجديدة ، ونوجهها بالحسن إلى الطريق القويم ، بدلا من هذا الصياح الفارغ الذي يتصايح به المترمتون !

ويمضى الزمن في طريقه فتتكاثر الحوادث المشينة ، ويخفت صوت المدافعين عن الاختلاط البريء ، فقد فقد براءته ولم يعد من المقبول ادعاؤها ولا من الممكن تصديقها !

ولكن .. فلتنذهب تلك البراءة إلى غير رجعة ! هل كنا نريدها حقيقة أو ندافع

عنها مخلصين ! إنما كانت هى الطعم المزيّف الذى وضعناه ليأتى الصيد .. وقد جاء .. فما حاجتنا بعد للتزييف « ١ » ؟

ولكن « تطورات » كثيرة كانت تحدث فى تلك الأثناء .. كانت السنة اللهب تمد مدا لتحرق أشياء جديدة فى مجالات جديدة ..

طالبت المرأة - أو طولب لها - بحق العمل بعد حق التعليم .

وهل كان فى ذلك شك لمن يرقب سير الأمور ؟

هذه هى الفتاة قد تعلمت على خط الرجل تماما من الألف إلى الياء .. من التعليم الابتدائى حتى الجامعة .. و« أثبتت جدارتها » فى كل مرحلة من هذه المراحل بل تفوقت على الرجل فى كثير من الأحيان .. فلماذا لاتعمل كما يعمل^{١٩} ما الذى يمنع^{٢٠}

الدين ؟ الأخلاق ؟ التقاليد ؟

لقد رفع « الرجل » هذه الشعارات كلها فى وجه المرأة ليصدّها عن السير فى هذا الطريق ..

وقال المدافعون كما قالوا كل مرة إن الرجل يخشى على مكانته التقليدية وتميزه التقليدى ، ويخشى منافسة المرأة له فى ميدانه الوحيد المتبقى له بعد أن تخلى عن تفردّه فى جميع الميادين بفعل الكفاح « المر » الذى خاضته المرأة لنيل حقوقها .. وسيتخلى عن هذا الميدان كذلك رضى أم أبى .. لأن خطى « التطور الحتمى » ستجبره فى النهاية على التسليم .

ولكن الرجل لم يتنازل عن تفردّه فى هذا المجال بسهولة ، وظل يرفع تلك الشعارات يحاول بها أن يصد المرأة عن اللحاق به فى هذا الميدان ..

هل كان يؤمن حقيقة بالدين والأخلاق والتقاليد ؟

كلا ! إنما هو مجرد سلاح يستخدمه فى المعركة حين يظن أنه سلاح مفيد^{٢١} ولكن الشياطين دخلوا مرة أخرى يستغلون الفرصة السانحة اقصى ما يستطيعون من استغلال .

دخلوا ليثيروا فى قلب المرأة حقدا جارفا على الدين والأخلاق والتقاليد . على أساس أن كل ما تطالب به المرأة هو حقوقها المشروعة ، وأن الذى يقف فى سبيل نيلها لهذه الحقوق هو هؤلاء الأعداء الثلاثة : الدين والأخلاق والتقاليد ..

« ١ » رغم أن اسطوانة « الاختلاط البرى » قد بليت تماما فى أوروبا والقيت حاسما ، فقد استخدمت هى فى الشرق الاسلامى فيما بعد

فلتذهب جميعها إذن إلى غير رجعة ، لتنال المرأة حقوقها وتستريح .

وكان هذا الأمر يراد ..

كان يراد إحراج صدرها ضد الدين والأخلاق والتقاليد لتتسلخ هي منها أولا ، ثم لا تربى أبناءها عليها فيما بعد ، لأن ذلك هو الضمان الوحيد لإفساد المجتمع فسادا لارجعة فيه !

لقد جرب المخططون من قبل محاولة إفساد المجتمع عن طريق إفساد الرجل وحده فلم تنجح التجربة بالصورة المطلوبة .. إن الشاب مهما فسد في فترة شبابه فإنه يعود إلى ما لقننه له أمه في طفولته من مبادئ الدين والأخلاق والتقاليد ، حتى إذا أخذ يؤسس أسرة أسسها على تلك القيم التي تلقاها من قبل ، ولم تغلح الفترة التي انفلت فيها في شبابه في تحويله إلى المسار الجديد .. وعندئذ أدركوا أنه لا بد من إفساد الأم ذاتها لكي لا تلقن أطفالها تلك « المبادئ » التي تعرقل خطوات الشياطين .. وساروا بها تلك المسيرة الطويلة في طريق الفساد ، ولكن الجواجز - أو بقايا الحواجز - مازالت تمنعها أو تبطئ خطواتها على الطريق .. فلنكن المعركة إذن حامية بين المرأة وبين الدين والأخلاق والتقاليد ، لكي تحطمها بنفسها ، ولكي تكون في مناعة كاملة منها حين تصبح أما ذات أطفال .. فلا تبذر في نفوسهم تلك البذور السامة التي يكرهها شعب الله المختار ، أشد ما يكره من شيء على الإطلاق !

لقد كانت مسألة إقحام المرأة في ميدان العمل جزءا رئيسيا من الخطة الشريرة .

فإخراجها من البيت لتتعلم ، وإشاعة الاختلاط والصدقات بين فتيان الجامعة وفتياتها ، وتعويد المجتمع على قدر من الفساد الخلقي ، وتحطيم التقاليد التي كانت تمنع ذلك كله .. كل ذلك مفيد ولاشك ، ولكنه ليس كفاية !

ما زالت المرأة - بقدر ما - خاضعة للرجل في الأسرة والمجتمع ، وما زال هذا القدر من الخضوع - على ضآلته بالنسبة لما كان من قبل - عائقا يعوق المرأة عن مزيد من الفساد ، لأن الرجل - بأنايته كما يقولون ، أو بشيء من التعقل والتفكير وعدم الاندفاع - يعارض في توسيع مجالات المرأة، ويريد أن يربطها بوظيفتها وببيتها وأولادها ، وذلك كله يعوق خطوات الشياطين .

لذلك كان لا بد من إخراج المرأة نهائيا من سيطرة الرجل ، ليتم للمخططين كل ما يريدون .

وهل من وسيلة لكسر هذه السيطرة أفعل من أن تعمل المرأة و« تستقل »
اقتصاديًا عن الرجل ؟

لقد عملت المرأة من قبل في المصانع ، ولكن الطبقة العاملة كما قلنا لم يكن لها وزن في توجيه المجتمع .. والفساد الخلقى في هذه الطبقة - رغم فائدته الجزئية للمخططين - لا يكفي وحده ولا يؤتي الثمرة المطلوبة ، إنما لابد كما أسلفنا من إفساد الطبقة الوسطى ، أداة التوجيه الجديدة في المجتمع الجديد . ولم يقل المخططون للأمميين بطبيعة الحال إنهم يريدون أن يثيروا الخبال في صفوفهم - بتشغيل المرأة المتعلمة وإبعادها عن بيتها وعن وظيفتها - وما كان من الممكن أن يكشفوا لهم عن لعبتهم ليوقظوهم من غفلتهم ، إنما قالوا لهم إنه « التطور » ' وإنه تطور « حتمى » وإنه لابد أن يأخذ سبيله رضيه الناس أم أبوه ! أما المرأة فقد قالوا لها إن هذا حقها « الطبيعى » وإنها ينبغي أن تتشبث به ولا تتنازل عنه ولا تتخاذل في الكفاح من أجله .

واغريت المرأة بكل وسائل الاغراء لكى تهجر بيتها وتخرج إلى « المجتمع » ! قيل لها إن حبسها على وظيفة الزوجية والأمومة ورعاية النشء هو امتهان لها وإهدار لكرامتها وتعطيل لطاقتها ، وهو في الوقت نفسه تعطيل للمجتمع عن التقدم ، فمايستطيع المجتمع أن يتقدم ونصفه حبيس وراء الجدران ! وقيل لها إن الرجل هو الذى حبسها على هذه الوظائف أنانية منه ، لتقوم على خدمته ، ولينفرد هو بأمور « المجتمع » ! وإنها منذ هذه اللحظة ينبغي أن تثور على هذا الوضع المهين ، وتقف الرجل عند حده ، وتفرض عليه احترامها ، وتفرض عليه المشاركة في أمور المجتمع .. وإن الوسيلة لهذا كله هو أن تعمل ، فإنها حين تعمل تصبح مثله تماما في كل شيء ، فيتنازل عن أنانيته وغطرسته ويحترمها !

ولما قيل إن الدين - لا الرجل - هو الذى خصص للمرأة هذه الوظائف ثارت ثائرتها على الدين ، وتمنت في قرارة نفسها أن يزول سلطانه على النفوس ، لتتحرر هى وتأخذ مكانتها التى تصبو إليها .. وبذلك جذدها الشياطين لمحاربة الدين ، تحاربه لحسابها الخاص ، منحاربه بحماسة ، وتحاربه بإخلاص ' فيتحقق للشياطين ما يريدون من إبعاد « الأم » عن الدين ، لضمان تنشئة الأجيال المقبلة بعيدا عن حماء ..

وفعلت اللعبة الخبيثة فعلها ، وسرت كالسم في دماء الأمميين .

استقلت المرأة اقتصاديا وتمردت على قوامة الرجل ، كما تمردت على الدين والأخلاق والتقاليد .. وانفلتت - كما أريد لها - بلا ضوابط ولا قيود . وسارع الشياطين إلى انتهاز الفرصة المتاحة من كل جوانبها . فالآن فلتنشط بيوت الأزياء وبيوت الزينة ، بعد أن انحلت العقدة الكبرى التي كانت تبطل خطى الفساد « ١ » .

ولقد كانت الملابس من قبل طويلة وساترة إلى حد ما - برغم مافيه من زينة - لاتبرز « مفاتن » المرأة بشكل مفضوح . فالآن وقد سنحت الفرصة فلتنشط بيوت الأزياء في إخراج « المودات » التي تكشف رويدا رويدا عن هذه « المفاتن » ولتنشط معها الصحافة لنشر الأمر على أوسع نطاق .

فلنكن هناك مجلات خاصة بالمرأة ، وركن خاص بالمرأة في الصحف والمجلات غير المتخصصة ، وليكن حديثها عن « المودة » مغريا إلى الحد الذي لاتفلح الضوابط في مقاومة إغرائه ، خاصة وقد انحلت عقدة الحياء .

ولاشك أن الأحاديث الأولى كانت مهذبة جدا ومتحفظة جدا حتى لاتثير نائرة المتزمتين من الرجال .. ماذا لو قلنا مثلا : كيف تحافظين على محبة زوجك ؟ كيف تبدين أنيقة في نظر زوجك ؟ وأدفعنا بالرسوم التي تبعث على الفتنة مجموعة من النصائح للمرأة المتزوجة لكي تحافظ على أناقتها ورشاققتها حتى تحتفظ بحب زوجها ولا تجعله يشرد عنها ؟ وهل يكره الرجل أن تتجمل زوجته من أجله ؟

ثم .. فلنحذف لفظ الزوج .. فهو لفظ ثقيل استخدمناه للتغطية فقط في مبدأ الأمر .. ومانريد أن يكون له نصيب أصلا في هذا المجال .. ثم إنه لم يعد اليوم هو المسيطر .. لقد استقلت المرأة اقتصاديا .. وتستطيع - من كسبها الخاص - أن تنفق ماتتفق على اللباس والزينة ، لا أحد يحرص عليها ، ولا أحد يتحكم - بماله - في تصرفاتها !

فلنقل فقط . كيف تحافظين على أناقتك .. كيف تبدين جميلة .. ولينظر إليها من ينظر ! زوجها أو غير زوجها ! إنها سائرة بأناقتها ورشاققتها في الطريق ، ومن شاء فليينظر ومن شاء فليعرض . إنما نحن فنلحظ على الأناقة والجمال !

ثم فلنكن أكثر صراحة ..

فلنقل كيف تجذبن نظر « الرجل » أي رجل ! نعم ! وماذا فيها ؟

١ . بيوت الأزياء الكبرى كلها يهودية وكذلك بيوت الرية . واليهود يكسبون منها كسبا مضاعفا يكسبون أرباحا خيالية لاتدرها الصناعات الأخرى ويكسبون سريانا الفساد كالسم في مجتمع الأممير

ينبغي أن تحل « الصداقة » محل الزواج ، وليتم فيها كل ما يتم في الزواج ولكن دون رباط مقدس ولا أسرة ولا أولاد !
تحتجون أيها المتزمتون ؟!

أما قرأتكم فرويد ؟ أما قرأتكم ما قاله عن الكبت ؟
أتريدون أن تتلفوا أعصاب الشباب وتصيبوه بالعقد النفسية والاضطرابات العصبية ؟

أو .. قولوا لنا ماذا يفعل الشباب بطاقته الجنسية الفوارة ؟
يتزوج ؟ قولوا لنا كيف يتزوج ؟ تعالوا معنا نناقش الواقع ! كم سنة يقضى الشاب في التعليم حتى يتخرج من الجامعة ؟ وحين يتخرج كم يكون راتبه ؟
أيكفى هذا الراتب الهزيل لتكوين أسرة والإنفاق عليها ؟ إن أمامه على الأقل عشر سنوات حتى يصبح راتبه كافيا - مع ارتفاع تكاليف المعيشة - للزواج وتكوين الأسرة .. فماذا يفعل في تلك الأثناء ؟ تريدون أن تحرقوا أعصابه أيها الرجعيون باسم الدين والأخلاق والتقاليد ؟!

* * *

يقول « ول ديورانت » الفيلسوف الأمريكى فى كتابه « مباهج الفلسفة »
« ص ١٢٦ - ١٢٧ من الترجمة العربية »

« فحياة المدينة تقضى إلى كل مثير عن الزواج ، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى . فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا وغير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ، ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم ، وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية ، ويختفى الحياء الذى كان يضافى على الجمال جمالا ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقوقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا ، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لبرقابة

البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعى ، ولم يعد العالم المدني يحكم به « ١ »

ولا يناقش « ول ديورانت » تلك الأسباب التى قال إنها تعطل الشباب عن الزواج الباكر ، إنما يأخذها أمرا واقعا وقضية مسلمة وينظر إلى آثارها كذلك على أنها امر واقع لا حيلة فيه أكثر من كلمة آسى عابرة يقولها ويدعها تضى تصيب من تصيب :

ولكن ! أهى حقا كذلك ؟ أهى أمر لا مفر منه ؟
من الذى وضع العوائق فى طريق الزواج ، ثم وضع الصداقة (أو البغاء !)
بديلا من الزواج ، ثم زعم أنه تطور حتمى جاء به الطور الاقتصادي الجديد ؟
إنهم - كلهم - يهود !

ثم سمموا افكار الامميين ، فأصبحوا يرددون وراءهم ما يقولون ' لو بقيت الأسرة الكبيرة على ترابطها وظل الأب ينفق على أولاده حتى يتكسبوا (وهم ينفقون عليه فى كبرته إذا احتاج) وظلت أسعار الحاجيات فى النطاق المعقول ، وجعلت رواتب الخريجين بحيث تكفى لتكوين أسرة أو أعطى الراغبون فى الزواج منحة تمكنهم من إنشاء الأسرة - فأى حتمية كانت تقف فى طريق ذلك كله وتمنع تنفيذه ؟

كلا ! إن القضية كلها أن الشياطين لا يريدون ! لا يريدون أن يظل للأمميين دين ولا أخلاق ولا أسرة ولا زواج ، لأن هذه كلها « عوائق » تمنع دوران العجلة الشريرة التى تنشر الفساد !

لذلك أنشأوا الواقع على هذه الصورة وزعموا أنه التطور الحتمى . وأن عجلته ستسحق كل من يقف فى الطريق !

ودارت العجلة دورتها فأحدثت كثيرا من الشر .
ولندع ول ديورانت نفسه يصف جانبا من هذا الشر ، كما وجده فى بلاده فى أوائل هذا القرن ، وكما تخيل نتائجه المقبلة . وإن كان الواقع الذى حدث بالفعل أفظع بكثير مما تخيله فى ذلك الحين :

١ - يلجأ - ول ديورانت - إلى التفسير المادى للتاريخ يفسر به اختفاء العفة من المجتمع الصناعى وانتشار العاشقة فيه حتى تصبح هى الأصل المعترف به وتصبح العفة ماثار السخرية . وليس هذا هو التفسير الحقيقى لذلك التحلل الحافى الذى حدث فى المجتمع الصناعى ، إنما هو راجع - كما رأينا فى هذا الفصل - إلى ذلك المخطط الشرير الذى يهدف إلى إفساد البشرية

« ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولاً عنه ولا في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملل الذي يحسونه في حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الاساس وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين - وهم في حتمى الفوضى الصناعية - من حمى الزواج ورعايته للصحة .

« ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكنن في ابتدال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ومنظماً بأسمى ضروب الإدارة العلمية .. ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقه يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها ... »

« وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة ، قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات - وقد اكسبهم المال جرأة - أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنباً ؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : اليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها ؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة . »

« وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في ظل الصناعة والتجارة ،

وعودت الجنود الوحشية والإباحية ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقي . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية ، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي . وأصبحت الحكومات في واد والشعب في واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها . واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة أو إلى طفيليات فاسدة . ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية في الماضي « ١ » وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة ..

« لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قل أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمنا مما كانت فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة مما يجعل الخطر جاثما كل لحظة . أما الشباب الذي أصبح أكثر إقداما وأشد غرورا من قبل فهو عاجز ماديا وجاهل اقتصاديا إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرو الشاب على الزواج وجيبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفا (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلئ الجيوب بما يكفي للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة فيحتفل الزواج بموت الحب ».

« حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية . فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها

(١) يشير إلى رسائل منع الحمل والوقاية من الأمراض السرية وهما الأمران اللذان وفرتهما الحصارا ! وإن كانت التقارير الأخيرة تشير إلى أن هذه الأمراض لم يمكن القضاء عليها رغم كل المحاولات المبذولة بل إنها أخذت في الانتشار السريع !

الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها ، وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب ، فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر مترددا ، إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإنفاق عليهما معا في مستواهما الحاضر من المعيشة ؟

« وأخيرا تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا في كنيسة ، لأنهما من أحرار الفكر الذين ألدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثما على إيمانهما المهجور أثر في قلوبهما ، إنهما يتزوجان في قبو المكتب البلدى (الذى يفوح منه عبير السياسة) ويستمتعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف ، بل بعقد من المصلحة ، لهما الحرية في أى وقت في التحلل منه . فلا مراسيم مهيبة ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة في الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكا ، ويتوجهان إلى البيت في صخب .

« إنه ليس بيتا ! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشء وسط الحشائش النضرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهما الزهور والخضروات التى يشعران بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلا كأنهما في زنانة سجن في حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلا ، ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئا روحيا كالبيت الذى كان يتخذ مظهرا ويكسب روحا قبل ذلك بعشرين عاما (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ما تجده في مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع ، ولا ينبت لهما الصيف الزرع النضر بل سيلا من المطر .. ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح في السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر بل المتاعب والذكريات الحزينة .

« وتصاب المرأة بخيبة أمل ، فهي لاتجد في هذا البيت شيئا يجعل جذرانه تحتل في الليل والنهار ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر .. ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول في أنحاء هذا البيت يعزى شعوره ببنائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق .. ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبيها عاديا تلك العلاقات

غير البريئة التى كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد فى هذا البيت ، وليس فيه ماينمو ، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع ولا يملأ مرح الاطفال النهار بهجة ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة فى المدينة ؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب .. فيعترضان منع النسل .. إلى أن يقع بينهما الطلاق !

« ولما كان زواجهما ليس زواجا بالمعنى الصحيح لأنه صلة جنسية لارباط أبوة فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر ، وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع ، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف ، فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته ...

« ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئا نرغب فيه أو نريده .. فنحن غارقون فى تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها . وأى شئ قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت فى مدنا الكبرى فى الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصودا ، وسيزداد الزواج الحر ، مباحا كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يفازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شئ على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة ، وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا فى كل طبقة يضحى الحمل أمرا عارضا فى حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الاطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شئ ! « ١ » .

١ . مقتطفات من كتاب «مباحج الفلسفة» من ص ١٢٦ - ٢٢٦ .

إن إخراج المرأة من البيت ودفعها إلى العمل في الخارج - أيا كانت الدوافع التي أدت إليه وأيا كانت النوايا الكامنة وراء ذلك - قد أحدث دمارا عنيفا في المجتمع ، لا يمكن الإحاطة بكل أبعاده، لأنه مازال يلد شرورا جديدة حتى هذه اللحظة .

إن تخصيص المرأة للبيت لوظيفة الأمومة ورعاية النشء لم يكن ظلما للمرأة ، ولا تحقيرا لها ، ولكن الجاهلية هي التي جعلته كذلك حين عيرت المرأة بأنها تحمل وتلد ولا تصنع غير ذلك !

والجاهلية - دائما - تظلم المرأة وتقسو عليها وتهينها وتعيدها ، ولا ينقذها من ذلك شيء إلا شرع الله ومنهجه المنزل لإصلاح البشرية وإقامة العدل في الأرض .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » ١٠ »

كل جاهلية من جاهليات التاريخ عيرت المرأة بوظيفتها، وجعلتها تشعر أنها دون الرجل من أجل هذه الوظيفة .. بينما يقول الوحي المنزل من عند الله :
« ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » ٢ »
فالوصية هي بالوالدين كليهما ، ولكن التكريم الأكبر هو للأم التي حملته وهنا على وهن .

ويسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أولى الناس بحسن صحابتي قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال أمك : قال ثم من ؟ قال : ثم أبوك ! « ٣ » والحديث واضح الدلالة على تكريم الأم ووظيفة الأمومة .

أما وهي زوجة فهذا هو المنهج الرباني :
« وعاشروهم بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ٤ »

١٠ - سورة الحديد [٢٥]

٢٠ - سورة لقمان [١٤]

٣٠ - متفق عليه

٤٠ - سورة النساء [١٩]

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» ١٠ .

فالمنهج الرباني الذي خصص المرأة لوظيفتها لم يعيرها بها ويجعلها مهينة من أجلها ، بل كرمها من أجل تلك الوظيفة وأكرمها وهي تقوم بها ، وقال لها إن قيامها بهذه الوظيفة هو سبيلها إلى رضوان الله والجنة ، كما أن القتال في سبيل الله هو طريق الرجل إلى رضوان الله والجنة، فجعل هذه مكافئة لتلك ، لأن الله يعلم سبحانه أن هذا هو الميزان الصحيح الذي يقيم الحياة البشرية بالقسط ، ويعلم خطورة الدور الذي تقوم به المرأة في رعاية البيت وتنشئة النشء ، ويعلم كذلك مدى الفساد الذي يمكن أن ينشأ حين تهجر المرأة وظيفتها من أجل أي شيء آخر في هذا الوجود ، فضلا عن أن يكون هذا الشيء هو مجرد اللهو والعبث والفساد الخلقى !

ولكن الجاهلية التي يسيطر عليها اليهود ويوجهونها قد ضربت بالمنهج الرباني عرض الحائط .. واتبعت وحى الشياطين. فأى شيء أصابها حين فعلت ذلك وأى خبال^{١١}

فأما الفساد الخلقى فحدث عنه ولا حرج !
لقد ظل الرجل « يكافح » ضد « حقوق المرأة » ردحا من الزمن غير قليل ويعارض - بالذات - مزاحمتها له في ميدان العمل . ولكنه أخيرا لان في معارضته ، بل كف عنها نهائيا وتحمس لمشاركة المرأة له في جميع الأعمال فهل تغير الرجل حقيقة في تلك الجاهلية فأصبح - فجأة - مُؤثرا عادلا بعد أن كان ظالما مستأثرا يستأثر لنفسه بالمكانة السامية والمنزلة الرفيعة ؟! أو أن المرأة أجبرته بالفعل على احترامها كما زعمت الجاهلية وهي تزين للمرأة أن تقحم نفسها في كل ميدان كان الرجل يستأثر به من قبل حتى ميدان الفساد الخلقى^{١٢} !

كلا ! إنما حسب الحسبة فوجدها رابحة^{١٣}
وأربح ما فيها سهولة الحصول. على المرأة في المكتب والمصنع والنادي والتسارع والمرقص والملعب .. في كل مكان !
لم يعد يتعب في الحصول على لذائذ الجنس^{١٤} فهي متاحة له أبدا في كل

١٠ . رواه الترمذی

لحظة ! بإشارة ومن غير إشارة ! فالمرأة العارية المتبرجة المبرزة « لفاتنها » أمامه حيث ذهب ، يلقاها حيث توجه .. لا واحدة ولا عشرة ولا مئات ! كلهن ! من فيهن بغير تبرج ولا زينة ولا تفتن في « جذب » الرجل إليها ؟ !
فإذا حركته الفتنة لطلب الجنس فما أيسر !

فإن كان دنىء الحس حيوانا فالبغاء الرسمي وغير الرسمي ميسر ، والمحترقات كثير ! وإن كان « مهذبا » « متحضرا » « مترفعا » فهناك « الصداقة » وهى متاحة أبدا بحكم الزمالة والاختلاط المستمر ، وفي الصداقة يقضى حاجة الجنس كلها ، ومعها « تقدير » المجتمع لتهذيبه وتحضره وترفعه ، وقضائه حاجة الجنس مع الهاويات لا مع المحترقات !
أما هى فقد رضيت بتلنى « عواطف » الرجل ومغازلاته وإطرائه « لجمالها » و « فتنها » و « رشاقتها » و « جاذبيتها » .. ورضيت كذلك بتلقى نزوات جسده لأنها هى أيضا تطلب الجنس !

أما قرأت فرويد ؟ !

الم يقل لك فرويد فى التفسير الجنسى للسلوك البشرى إن الانسان كله طاقة جنس متحركة تسعى لإثبات الذات عن طريق ممارسة الجنس ؟ وإن التحقيق الأكبر للذات هو الذى يتم عن طريق الجنس ؟ !
الم يقل إن أى حاجز يوضع أمام طاقة الجنس فمعناه الكبت والعقد النفسية والاضطرابات العصبية ؟

وهى أيضا لا تريد لنفسها الكبت ولا العقد ولا الاضطراب ! إنها تبحث عن « الصحة النفسية » وهذا حقها الطبيعى .. والصحة النفسية لا تتحقق - كما قال فرويد - إذا كان هناك حاجز يقف فى طريق الإشباع الجنسى !
فلما قيل لها كما قيل فى كل مرة ، الدين .. والأخلاق ... والتقاليد .. لعنت كل أولئك وطالبت « بحقها » ! حقها فى إبداء عواطفها ! حقها فى أن تهب نفسها لمن تشاء .. فهذا هو التحرر ! هذا هو التحرر !

الم يقل ماركس إن المرأة فى المجتمع الصناعى تتحرر لأنها تستقل اقتصاديا عن الرجل فتتحرر من سلطانه فتفقد قضية العفة أهميتها ؟ !
ما قيمة العفة ؟ من ذا الذى يحرص اليوم عليها ؟ !

إن الرجل ذاته قد تبدل حسه ، وفقد عرضه ، ولم يعد يهتم ! بل إنه فى سبيل لذاته الحيوانية الهابطة قد رحب كثيرا بهذا التطور الذى يسرله تحقيق رغباته

دون تحمل أى مسئولية على الإطلاق .. لا مسئولية مخالفة قواعد الأخلاق ومجافاة التقاليد .. فقد ذهبت الأخلاق والتقاليد ، ولا مسئولية تحمل أعباء أسرة فى مقابل الإشباع الجنى ، فالإشباع قد أصبح بهذا « التطور » متاحا بغير مقابل . ولا المسئولية « الجنائية » « فالصداقة » تمنع الجزاء !
وأما هى فما الذى يمنعها ؟ الحياء ؟! وماذا كان يفعل الشياطين طوال كل هذه السنوات إلا قتل هذا « العدو » الفطرى وإنشاء فتاة « جديدة » « متطورة » قليلة الحياء ؟!

من أجل ذلك « طفع » الجنس .. فى الشارع والغابة والنادى والملاعب والمرقص ، والقصة والمسرح (والسينما فيما بعد) وفى المجلة والصحيفة اليومية فضلا عن المجلة المخصصة للصور العارية والاثارة الجنسية ، ووصل إلى درجة التهتك والحيوانية التى يتعفف عنها بعض أنواع الحيوان !

وبمناسبة ذكر السينما فهى فى أصلها مؤسسة يهودية خالصة فكرة ومالا وتخطيطا وتوجيها .. هدفها العمل السريع على إفساد الأميين بما للصورة المتحركة من سحر وقدرة على التأثير . وإذا كان الأميون اليوم « يتنافسون » فى مجال السينما ، ويتسابقون فى تحويلها إلى ماخور كبير ، فعن رضا كامل من الشياطين وتشجيع ! فما أشد ابتهاجهم بهذا التناقض والتسابق ، وما أشد فرحتهم وهم يرون اللعبة المسمومة سارية المفعول ، لاينجومنها فتى ولا فتاة ولا شيخ ولا شبيخة ولا طفل ولا طفلة إلا من رحم ربك !

أما التلفزيون - آخر المستحدثات - فلا يحتاج الى حديث !
فالخلاصة أن وسائل الإعلام كلها قد استخدمت على نطاق واسع لاشاعة الفساد الخلقى والتفاهة والتميع والانحلال فى كل بلاد الأرض .. والشياطين يتفرجون !

وأما تفكك الأسرة فحدث عنه كذلك ولا حرج !
لقد كان البيت سكونية وسكنا بالزوجة التى تعمره والام التى ترعى أطفاله .
«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ١ .
وقد جعلها الله آية يتفكر فيها الناس ويتدبرون حكمتها ..

إنه هكذا في الفطرة التي فطرها الله يخرج الرجل ليكدح في خارج البيت ، ثم يعود فيجد السكن والسكينة والراحة الجسدية والعصبية والنفسية التي تمحو عنه آثار الكدح ، وتعدّه في الصباح لكدح جديد ..

ويجىء الأطفال فيجدون أما ترعاهم بحنانها الفطري وجهدها الدؤوب الذي يتسع لمطالبهم المتغيرة المتجددة التي لا تكف .. ويتعلمون في حضنها معنى الحب ، تتغذى به أرواحهم الغضة فيوازن في نفوسهم - فيما بعد - مشاعر الصراع التي يثيرها الكدح لإشباع النوازع والرغبات .. ويجدون أبا يحيط هذه الأسرة كلها برعايته وحبّه وتوجيهه وقيادته، فيتعلمون تحت قيادته الانضباط والاستقامة على النهج، كما يتعلمون من الأبوين معا معنى التعاون والتراحم والمودة، وكل المعاني « الإنسانية » التي تصنع ذلك « الإنسان » .
ولكن الفطرة - بصورتها تلك - هي العدو الأكبر للذين يسعون فسادا في الأرض :

« ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين » « ١ »
إنها هي التي تسد في وجوههم الثغرات بما تحكم من إقامة السدود والحواجز أمام الشيطان، بقدر ما تركز في نفوس الأطفال من الدين والأخلاق والتقاليد المستمدة من مبادئ الدين ..
أفلا يكون تحطيم الأسرة إذن فرحا عظيما للشياطين ؟
وكان إخراج المرأة للعمل هو المعول الأكبر لتحطيم الأسرة وإن لم يكن هو المعول الوحيد .

فبادئ ذي بدء فقد البيت سكنه وسكنته وأصبح كما قال « ول ديورانت » بحق أشبه بالفندق الذي يأوى إليه المكثرون ليقضوا فيه فترة الليل ثم ينطلقون منه في الصباح كل إلى طريق .

وفقد الأطفال الأم .. الأم المتخصصة لرعايتهم التي يجدون عندها الحنان الفطري والرعاية اللازمة ، فحين تعود الأم العاملة مكدودة كما يعود الرجل ، فإنها لا تجد في نفسها ولا أعصابها فضلا تمنحها للبيت ، لا للزوج ولا للأطفال .

وعبثا تحاول الجاهلية - أو يحاول الشياطين - أن يقولوا إن الأم الصناعية

في المحضن تغنى عن الأم الحقيقية في البيت ، فالواقع هو الذى يكذب الدعاوى الكاذبة كلها ويفندها « ١ »

ولم يكن غياب الأم عن البيت هو العامل الوحيد في تحطيم الأسرة وتشريد الأطفال .. فهناك عنصر آخر لا يقل خطورة هو غياب « سيطرة الأب »
إن وجود « القوامة » في البيت أمر قرره الله « الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » « ٢ » والذى أودع في الفطرة البشرية سماتها ونوازعها وهو العليم الخبير ، الذى يعلم ما يصلح لهذه الفطرة وما يصلحها ،
ومن توفيقاته - سبحانه - أن أوجد في نفس الرجل السوى القدرة على القوامة والرغبة إليها ، كما أوجد في نفس المرأة السوية الرغبة في قوامة الرجل والاطمئنان إليها :

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » « ٣ »

ولكن الشياطين أرادوا أن يلغوا هذا كله ، لأن وجوده على هذه الصورة « مفسد » لمخططاتهم، وعائق ضخم في سبيل الفساد الذى يسعون إليه . لذلك قال « علماؤهم » إنه ليست هناك فطرة ! وإن قوامة الرجل ليست أصلا من الأصول الثابتة في الحياة البشرية . إنما هي انعكاس لوضع اقتصادى معين ، يتغير ويتبدل حين يتغير الطور الاقتصادى ويدخل الناس في طور جديد . وجاءت بقية العصابة - بكل وسائل الإعلام التى تملكها - فنفخت في المرأة روح التمرد على القوامة ، بدعوى المساواة الكاملة في كل شيء .. فهى تقبل الرجل « زميلا » و « صديقا » تمنحه جسدها ويعطيها الإشباع الجنىسى . ولكنها لا تقبله قيما في البيت ولا في المجتمع ولا في شأن من شؤون الحياة !
ومن ثم لم يعد للرجل في الأسرة ذلك السلطان ، إنما أصبح السلطان إما للمرأة التى تريد أن تثبت شخصيتها ، وإما منازعة دائمة بين الرجل والمرأة في البيت ، كل يريد أن يثبت أنه هو صاحب السلطان ! وكلا الحالين مفسد لترايط الأسرة ومفسد للأطفال .

وأخيرا جدا اعترفت المؤتمرات التى تنعقد لدراسة مشكلة الأطفال الجانحين ويشترك فيها علماء من كل نوع ، في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم

١٠ . اقرا بشأن أطفال المحاصن كتاب « اما فرويد » « اطفال بلا أسر » .

« ٢ » سورة طه [٥٠]

« ٣ » سورة الملك [٣]

الجريمة والقانون .. الخ . اعترفوا بأن غياب سلطة الأب في البيت والمجتمع سبب من الأسباب الرئيسية في تشرد الأطفال من ناحية ، وزيادة نسبة الشذوذ الجنسي من ناحية أخرى !!

ومع ذلك فليس عمل المرأة ولا الشقاق الدائم في البيت ولا غياب سلطة الأب هي الأسباب الوحيدة لتحطيم الأسرة !

فهى - قبل ذلك - محاربة الميل الفطرى إلى تكوين الأسرة من منبعه !
الم يقل عالمهم دوركايم : كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة هي أشياء من الفطرة ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان ؟! ثم جاءت بقية العصابة فوضعت كما قال « ول ديورانت » كل المعوقات في طريق الزواج وكل المرغبات في الإباحية الجنسية .

ولقد كانت « الصداقة » بين الرجل والمرأة هي الأداة الكبرى في يد العصابة لتحويل الفطرة عن مسارها .. ففي تلك « الصداقة » يجد الرجل المنحرف الفطرة والمرأة المنحرفة كل مطالبا !

• يجد الرجل - المنحرف - متعة الجنس بلا تكاليف . لا التكاليف النفسية ولا العصبية ولا المادية .. فهو يقضى رغبته بلا معقبات .. لازوجة يتحمل تبعاتها ونفقاتها ، ولا بيت مؤثث بما يناسب الأسرة ولا أطفال يحتاجون إلى الرعاية وتتزايد مطالبهم على الدوام ، ولا التزام كذلك أن « يخلص » لرباط الزوجية لا يتعداه !

وتجد المرأة - المنحرفة - كذلك متعة الجنس بلا تكاليف ، لا حمل يرهقها ويفسد « رشاقتها » ولا رضاعة ولا رعاية أطفال ، ولا مسئولية إدارة بيت متعدد التبعات ، وتجد بالإضافة إلى ذلك « زميلا » لا يطالبها بشيء .. فلا هو يطلب القوامة عليها ، ولا هي مكلفة تجاهه بالخضوع لتلك القوامة التي أصبحت تبغضها نفسها ولا تحب أن تدخل فيها .. ولا هي كذلك مكلفة بأن تكون له وحده كما تقتضى شرعة الزواج ! « ١ » .

فإذا كانت الأمور كذلك فلماذا الأسرة « ووجع الدماغ » ؟!

فأما إن حدث الزواج بعد ذلك كله .. فهناك البيت المفكك وهناك نسبة الطلاق

« ١ » الواقع أن الاخلاص للزوجية لم يعد له وجود من الطرفين ! ولم يعد الزوج ولا الزوجة يجدان حرجا في « التغيير » بين الحين والحين ، ويتم ذلك بمقتضى « دستور » غير مكتوب عنوانه « متع نفسك » أو « متع نفسك Enjoy yourself » .

المتزايدة . ١ « وهناك تشرد الأطفال !

وأما عن القلق النفسى والعصبى فتلك تقاريرهم تغنى عن الحديث .. يصيب الجنون من أفراد الشعب الأمريكى أكثر من المصابين بأى مرض آخر من الأمراض الفتاكة .. والعيادات النفسية منتشرة فى غرب أوروبا وأمريكا بدرجة ملحوظة ، ومن « الروتين » المعتاد فى الحياة الغربية أن يذهب الانسان إلى العيادة النفسية مرة على الأقل كل شهر إن لم يكن مرة كل أسبوع لمعالجة القلق النفسى والاضطرابات العصبية ! « ٢ »
حوادث الانتحار كثيرة كثرة تلفت النظر .

والإدمان على الخمر والمخدرات فى زيادة مستمرة رغم كل المحاولات التى تبذل للحد من الإدمان . والدلالة واضحة ولاشك ، فلو أن الحياة سعيدة ومستقرة ما كان هناك دافع للهروب منها بالخمر والمخدر . إنما يلجأ إلى هذه « المغيبات » من يريد أن يفر من واقع مر لا يستطيع مواجهته ولا يستطيع تغييره ، فيهرب منه فى خيالات مفتعلة تنسيه مرارته لحظات .. ثم يعود أسوأ مما كان فيهرب من جديد !

والجريمة - بجميع أنواعها - فى تزايد مستمر . ووجود الجريمة ذاته له دلالة ، فإذا زادت حتى أصبحت أصلاً من أصول المجتمع بحيث لا يأمّن الناس على أنفسهم أن تقع عليهم فى أية لحظة جريمة خطف أو سرقة أو قتل أو اغتصاب ، ويحتاجون دائماً إلى إجراءات غير عادية لوقايتهم من الجريمة .. فإنها تعنى عندئذ أن الروابط « الانسانية » منحلّة فى هذا المجتمع ، وأنه مجتمع مفكك فى حقيقته ، مهما وضع من الروابط السطحية المصطنعة على وأجهته الخارجية !

وجرائم الأحداث أمر أسوأ دلالة وأشدّ خطورة .. وقد صارت مشكلة الأحداث الجانحين مشغلة دائمة للمجتمع الغربى . تجتمع لها المؤتمرات كل عام .. ثم تتزايد كل عام .

إنهم الأطفال المشردون الذين تركتهم أمهاتهم من أجل العمل فى المكاتب

« ١ » بلغت نسبة الطلاق فى بعض الولايات الأمريكية ٤٠ / من عدد المتزوجين وهذا غير حالات الهرب من بيت الزوجية وحالات الخيانة مع استمرار الزواج الصورى !
« ٢ » أشرنا من قبل إلى أن القائمين على العيادات النفسية معظمهم من اليهود ، وهم يعالجون الأمراض النفسية بمزيد من الخلل فى النفوس ومزيد من الإباحة الجنسية !

والمصانع والمتاجر ، واللهو والعبث في الليل ، والذين فقدوا توجيه الأب الحازم لأن الأب ذاته قد فقد كيانه في معركته مع « المرأة المتحررة » والذين علمتهم السينما والتلفزيون كيف يصبحون مجرمين ^١ وهذا كله غير ألوان الميوعة والتفاهة التي يعيشها الشباب ، الذي كل همه أن يكسب النقود في النهار لينفقها في اللهو والمجون في الليل ، وغير ألوان « الجنون » العامة التي استولت على حياة الأمميين : جنون السينما ، وجنون التلفزيون ، وجنون الكرة ، وجنون الجنس ، وجنون « المودة » وجنون العري ، وجنون السرعة ، وجنون التقاليع الخ .

كيف استطاع اليهود أن يحدثوا هذا الشر كله في الأرض ^٢ إنهم - في الواقع - لم يكتفوا بإفساد أوروبا وإنما هم فقط بدأوا جولتهم من هناك .. ولكن هدفهم لم يكن مقصورا على أوروبا ، ونشاطهم الشرير لم يقتصر على الغرب ، إنما هم نشروا الفساد في الأرض كلها عن طريق أوروبا - بعد إفسادها ^٣

ففي خلال القرون الثلاثة الأخيرة كانت القوة السياسية والعسكرية والعلمية والمادية لأوروبا في تزايد مستمر ، وكانت أوروبا تغلب بقوتها على العالم كله ، والعالم الإسلامي بصفة خاصة ، ومن خلال غلبة أوروبا على الأرض كلها ، وعلى العالم الإسلامي ، نشر اليهود سمومهم فشمطت « الأمميين » جميعا - إلا من رحم ربك - وأدخلتهم في المخطط الشرير الذي يحدد التلمود هدفه ووسائله :

« الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار »

فكيف استطاع اليهود أن يحدثوا هذا الشر كله في الأرض ^٤ ؟

هل هم أولئك « الجبابرة » الذين يصورهم وليم كار في كتاب « الأحجار » ^٥ ؟

هل هم أولئك العباقرة - كما يصورون أنفسهم - الذين لا يقف أمام

عبقريتهم شيء ولا يحول دونهم حاجز ^٦ ؟

هل هم أولئك المخططون العتاة الذين يخططون لألف عام ولمائة عام ولكل يوم

من الأيام ، كما يتصورهم المهزومون من الأمميين الذين يقرأون أمثال

« البروتوكولات » و« أحجار على رقعة الشطرنج » وغيرها من الكتب التي كان

يخفيها اليهود عن العيون فيما مضى - قبل أن تنضج اللعبة وتستوى - وصاروا

هم اليوم الذين ينشرونها على نطاق واسع ليرعبوا بها الأمميّين ويوهموهم أنهم يقولون للشئ كن فيكون .. يقرأونها وهم بغير رصيد من عقيدة تحميهم أو قوة تدفع عنهم ، فيقولون لأنفسهم : وماذا نصنع نحن أمام هذا المكر الماكر والتدبير الخبيث ؟!

كلا ! ليس اليهود شيئا من ذلك كله ! لاهم أولئك الجبابرة ، ولا هم أولئك العباقرة ، ولا هم أولئك المخططون العتاة ! ولقد خططوا ودبروا وحاولوا خلال ألفى عام أو أكثر فلم يصلوا إلى شئ مما يريدون .. إنما الذى جعلهم يقدرّون في القرون الثلاثة الأخيرة هو الأمميّون أنفسهم ، بما أتاحوا لهم من ثغرات ينقذون منها ، وما أتاحوا لهم من فرص للإفساد .

اليهود لا ينشئون الأحداث ولكنهم يجيدون استغلال الأحداث . واحوال الأمميّين في القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة هي التى مكنت لليهود كل هذا التمكن ..

يقول الله تعالى عن اليهود في كتابه الكريم :
« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » ١ «
فالقاعدة الدائمة بالنسبة لهم هي الذلة المضروبة عليهم
« وإن تآذن ربك لبيعنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » ٢ « .

والاستثناء هو التمكن . وهم اليوم في قمة الاستثناء .. بحبل من الله وحبل من الناس . فأما الحبل من الله فهو مشيئته سبحانه ، التى يجرى بمقتضاها كل ما يجرى من أمور هذا الكون .. فلو لم يشأ الله لليهود أن يتمكنوا اليوم من رقاب الأمميّين ما تمكنوا ، ولكنه شاء ذلك سبحانه لحكمة ربما استطعنا فهمها إذا تدبرنا كتابه المنزل ، الذى يحوى تفسير مجريات الأمور كلها في الحياة البشرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها . وأما الحبل من الناس فهذا الذى ينبغى أن نتدبره جيدا لنعرف الحجم الحقيقى للقوة الوهومة « لشعب الله المختار »

قلنا في التمهيد الأول إن الكنيسة الأوروبية أفسدت فحوى « الدين »

١ . سورة آل عمران [١١٢] ٢ . سورة الأعراف [١٦٧]

بالنسبة لأوروبا، فشوهت العقيدة أولا ، وفصلت العقيدة عن الشريعة ثانيا ، وقدمت الدين عقيدة خلوا من الشريعة إلا القليل ، فضلا عما اقترفت الكنيسة من الخطايا التي تنفر الناس من الدين .

وينبغي أن ندرك جيدا أن هذه هي نقطة البدء ، التي أتاحت لليهود أن يفعلوا كل ما فعلوه، وإن كان ذلك قد استغرق عدة قرون !

فيجب أن نلاحظ أولا أن اليهود لم يبدأوا بالعمل في العالم الإسلامي إنما في العالم المسيحي . وهذا الأمر له دلالة التي لايجوز إغفالها ، فقد حاربوا الإسلام حربا شعواء في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وحاولوا - بكل « عبقريتهم » الشريرة وبكل « جبروتهم » وبكل « تخطيطهم » وتدبيرهم وبكل مكرهم ودهائهم - أن يقضوا على هذه العقيدة وعلى الدولة التي انبثقت عنها فلم يستطيعوا ، ورد الله كيدهم في نحورهم ، وقال جل شأنه في هذا الصدد :

« وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل : موتوا بغيظكم ! إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعملون محيط » « ١ »

وقال في شأنهم وشأن غيرهم جميعا :

« اليوم يؤس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا » « ٢ »

وظل كيدهم ضد الإسلام خلال قرون طويلة محصورا في استحداث فرق باطنية تتظاهر بالإسلام وهي بعيدة كل البعد عنه ، ولكن هذه الفرق لم تخذع المسلمين ، ولم تستطع الحياة بينهم ، وظلت منبوذة مبعدة لا تؤثر في جسم الأمة المسلمة ولا في عقائدها ولا في خط سيرها ، وظلت الشريعة الإسلامية مطبقة في الأرض الإسلامية ما يزيد على اثني عشر قرنا من الزمان .

أما في أوروبا المسيحية فقد كان الوضع مغلخا مليئا بالثغرات التي يستطيع اليهود أن ينفذوا منها ويفسدوا من خلالها . والثغرة الكبرى كما أسلفنا كانت تحريف الدين وتشويهه على يد الكنيسة .

٢٠ - سورة المائدة [٢]

١٠ - سورة آل عمران [١١٩ - ١٢٠]

إنه حين يكون للأمة دين حقيقى ، معمول به فى واقع الأرض ، فإن اليهود - بكل قدرتهم على الشر - لا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً ضد هذه الأمة مهما حاولوا ، وإن قاموا بأنواع من « الأذى » بين الحين والحين :

« لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلكم يولوكم الأديبارثم لا يتصرون » « ١ »

أى لن يضروكم فى عقيدتكم ، ولن يؤثروا فى دينكم ، ولا فى قيام حياتكم على مقتضى هذا الدين . إنما يؤذونكم فقط بأى نوع من الإيذاء ، وفرق بين أن يؤذوا أشخاصكم وبين أن يضروا دينكم أى مقومات حياتكم . فإن القتال نوع من الإيذاء . والسباب نوع من الإيذاء . وتأليب الأعداء نوع من الإيذاء . والعدوان على بعض الأفراد نوع من الإيذاء . ولكن تبقى الأمة سليمة ما بقى لها دينها ، أى المنهج الذى تقوم حياتها عليه وتستقيم .

أما فى أوروبا حيث لم يكن هنالك دين حقيقى ، فقد استطاع اليهود أن يضروا - لا بالإيذاء فقط - ولكن بتغيير قواعد الحياة كلها ، بل بمسح الفطرة البشرية ذاتها ، وتحويل الناس إلى دواب يركبهم الشعب الشرير . ومع ذلك فإن اليهود لم يتقدموا للعمل الجاد فى إفساد أوروبا إلا حين بدأت أوروبا تتخلى عن كل القيم المستمدة من الدين .

لقد كان الدين مشوهاً نعم ، وليس هو الدين المنزل من عند الله . ولكنه كان يحمل شيئاً من آثار الدين السماوى .

« ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به » « ٢ »

نسوا حظاً ولكنهم لم ينسوه كله . وهذا الجزء الباقي الذى لم يكونوا قد نسوه هو الذى حال بين اليهود وبين أن يعيشوا فساداً فى أوروبا بضعة قرون . كانت هناك الأخلاق ، كانت هناك الأسرة المتينة الرباط ، كان هناك النفور من الفاحشة والحياء الأنثوى الفطرى اللائق بأنثى الانسان الذى يميزها عن إناث الحيوان . وكان هناك الحفاظ الشديد على العفة وصيانة العرض ، وكان هناك تحريم الربا فيما بين المسيحيين بعضهم وبعض ، إلا من وقع فى قبضة

« ١ » سورة آل عمران [١١١] « ٢ » سورة المائدة [١٤]

المرابين اليهود ، وكان هناك الزهد في متاع الحياة الدنيا والتطلع إلى الآخرة ..
وكان .. وكان ..

ذلك كله حظ من دين الله المنزل لم يكن قد نسى في « القرون الوسطى
المظلمة » في أوروبا . ورغم أنه لا ينفع عند الله ولا يشفع لهم يوم القيامة لأن الله
لا يرضى بتجزئة دينه أجزاء يؤمن الناس ببعضها ويكفرون ببعضها الآخر على
هواهم :

« افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض !؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم
إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » « ١ »
رغم ذلك فإنه - بالنسبة لليهود - كان حاجزا منعهم من القيام بنشاطهم
المفسد على نطاق واسع عدة قرون .

فلما أزعجت الكنيسة في الفساد والإفساد .. لما طغت كل طغيانها الذي
تحدثنا عنه ، وحاربت العلم ، وحاربت حركات الإصلاح ، ووقفت مع الطغاة
ضد المظلومين .. وحين فسدت أخلاق رجال الدين فصاروا - بوضعهم ذلك -
يصدون عن سبيل الله :

« إن كثيرا من الأقباط والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن
سبيل الله » « ٢ »

حين حدث ذلك كله أخذ الناس في أوروبا ينفرون من الدين وينسلخون منه ،
لا يفرقون بين ما قدمته لهم الكنيسة من الأباطيل وما أنزله الله من الحق ..
ولا يسعون في الوقت ذاته إلى اعتناق الدين الصحيح .. عندئذ وجدت الفرصة
التي يترقبها اليهود ليعيثوا فسادا في الأرض ، وبدأوا ينشطون نشاطهم
الشرير الذي ظل يتصاعد من القرن الثامن عشر - على الأقل - إلى القرن
العشرين .

مخطط اليهود - كما جاء في التلمود - أن يستحرموا الأمميين ليركبوهم
ويسخروهم لمصالحهم ، فهل استطاعوا - قط - أن يستحرموهم وهم أدميون،
أي لهم دين يلوذون به من كيد الشيطان أو حتى آثار من الدين ؟

كلا ! إنما الذي حدث بالضبط أن الأمميين في أوروبا - بابتعادهم عن الدين
وانسلاخهم منه - هم الذين استحرموا أنفسهم للشعب الشيطاني ودعوه أن

١٠ . سورة البقرة [٨٥]

٢٠ . سورة التوبة [٣٤]

يركب فوق ظهورهم ليوجههم كيف يشاء^١
ولنتتبع أحوال أوروبا خطوة خطوة لنرى من أين نفذ اليهود
لوبيت أوروبا على بقايا دينها ، ولا نقول اعتنقت الدين الصحيح الذى
حاربته تلك الحرب المتعصبة الحمقاء ، فمن أين كان ينفذ اليهود^٢
لوبيت الأسيرة مترابطة متماسكة تقوم على عفة المرأة وقوامه الرجل على
البيت فمن أين كان ينفذ اليهود^٣
لوبيت عامة الناس غير مفتونين بالحياة الدنيا ناظرين إلى الآخرة فمن أين
كان ينفذ اليهود^٤
لوقام العلم على غير عدااء وصراع مع الدين ، فمن أين كان ينفذ اليهود^٥
لوبيت الناس يحرمون التعامل بالربا ويرفضون أن تقوم حياتهم عليه ، فمن
أين كان ينفذ اليهود^٦
ثم .

حين قامت الصناعة بعد اختراع الآلة ..
لو كانت هناك دولة تحكم بما أنزل الله وتطبق منهجه فى الحياة ، وترفض أكل
مال الأجير وتحرص على توفيته حقه ، وحقه هو الذى يكفيه للحياة الكريمة هو
وأسرته .. فمن أين كان ينفذ اليهود بنشر البغاء « السعبي » والدفاع عنه،
وتولية الدولة حارسة عليه وراعية له^١ وقد فعلوا ذلك كله استغلالا لوجود
الشباب القاره من العمال بلا أسر فى المدينة^٢
لو كانت هناك دولة تحكم بما أنزل الله ، وتقيم لكل امرأة كفيلا يكفلها من
ذوى قرباها ، أو من بيت المال حين تفقد كل الكفلاء ، فمن أين كان ينفذ اليهود
الذين نفذوا من خلال اضطراب المرأة إلى الهجرة من الريف والعمل فى المدينة ،
واضطرابها إلى التخلي عن عرضها فى كثير من الأحيان^٣
وحتى حين اضطرت المرأة للعمل .

لو كانت هناك دولة تحكم بما أنزل الله ولم تبخ تلك التفرقة الظالمة فى الأجر
بين الرجل والمرأة التى تقوم بنفس العمل ، فمن أين كان ينفذ اليهود الذين
لعبوا لعبتهم الكبرى بقضية المرأة ودمروا بها المجتمع البشرى كله^٤
لو كانت المرأة غير مضطهدة ولا محتقرة ولا مهينة ولا منبوذة فمن أين كان
ينفذ اليهود الذين استغلوا هذا الواقع السيء لينفخوا فى قضية المرأة ويمدوها
إلى الأبعاد التى وصلت إليها فى كل اتجاه^٥ .

لو كانت المرأة تنال حقها من التعليم ، على الأصول الصحيحة التى لا تفسد
أنوثة المرأة ، ولا تبعدها عن وظيفتها ، ومع ذلك تعلمها وتثقفها وتجعل منها
إنسانة فاضلة متنورة ، فمن أين كان ينفذ اليهود الذين لعبوا بقضية تعليم
المرأة وأفسدوا بها المرأة والرجل كليهما إلى أبعد حدود الفساد من أول
الاختلاط إلى إباحية الجنس إلى تحطيم الأسرة وتشريد الأطفال ؟..
« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض
ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ١ »
« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات
النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من
فوقهم ومن تحت أرجلهم » « ٢ » .
نعم .. لو أنهم آمنوا واتقوا ما استطاع اليهود أن يلعبوا بهم ويستحمرهم
لخدمة مصالحهم ..

* * *

« الناس » هم الذين أمدوا اليهود بالحبل الذى مكن لهم فى الأرض فى الوقت
الحاضر ..

السينما مؤسسة يهودية أقامها اليهود للإفساد فى الأرض ، فكل فتى أو فتاة
أصابه جنون السينما فهو « حبل من الناس » يمد اليهود . يمدهم بالمال الذى
يربحونه من هذه التجارة النافقة ، ويمدهم بالفساد فى ذات نفسه فيحقق لهم
مخططهم الشرير .

بيوت الزينة والأزياء يهودية .. فكل فتاة أصابها جنون الزينة وجنون
« المودة » هى « حبل من الناس » تمد اليهود ، تمدهم بالمال من ناحية -
وصناعة أدوات الزينة من أرباح الصناعات على الإطلاق - وتمدهم بالفساد فى
ذات نفسها وفى الشاب الذى تتولى فتنته بتبرجها فيحققان لهم مخططهم
الشرير .

جنون الجنس جنون أطلقه اليهود على البشرية ، فكل فتى أو فتاة أصابه
جنون الجنس فهو « حبل من الناس » يمدهم باستعباد نفسه للشهوات التى
تهبط به عن آدميته فيصبح فى متناول مخططهم الشرير .
جنون الكرة من أنواع الجنون التى أطلقها اليهود على البشرية . فكل فتى

« أو فتاة ! » أصابه جنون الكرة فهو « حبل من الناس » يمد اليهود ، يمدهم بتفاهة اهتماماته وانصرافه عن معالى الأمور إلى سفسافها « ١ » وانصرافه عن الاهتمامات الجادة والنظر فيما يحيط به من أحوال ، فييسر لليهود أن يعبثوا عبثهم العالمى والأولاد (والبنات !) مشغولون بالفريق الذى أخفق والفريق الذى فاز !

الربا من أفتك أدوات اليهود وأفعلها فى التخريب . فكل صاحب مال أودعه عند اليهود فى مصارفهم ومؤسساتهم فهو « حبل من الناس » يمد اليهود ، يمدهم بأرباح طائلة يقوون بها أنفسهم ويتحكمون بها فى اقتصاد العالم كله ، وبالخبال الذى يصيب حياته من الربا :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » « ٢ »

وهذا كله بصرف النظر عن المدد الذى يأتيهم من دول كأمریکا أو روسيا ، فإن الآية لا تشير إلى دول بعينها ولا إلى « بعض » الناس إنما تشير إلى « الناس » والحاصل اليوم أن المدد يأتى من « جميع الناس » .. إلا من رحم ربك !

« الأمميون » هم الذين استحمروا أنفسهم « لشعب الله المختار » وذلك بتخليهم عن الوقاية الطبيعية التى تحميهم من كيد الشيطان .

« إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » « ٣ »

والكنيسة - بالنسبة لأوروبا - هى المجرم الأكبر الذى أتاح لليهود أن يتلفوا أوروبا ويشتيعوا فيها من ألوان الفساد : الفكرى والروحى والخلقى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى ما لم يجتمع بهذا الحجم وهذه الصورة فى التاريخ : مسخ كامل للفطرة البشرية، ونكسة لم تنتكسها البشرية فى تاريخها كله ، رغم كل الإمكانيات المادية والعلمية المتاحة للبشر ، والتى كانت حرية أن ترتفع « بالإنسان » إلى الأفاق العليا بعد أن يفرغ من قضاء ضروراته الجسدية، فإذا هى تغرقه فى عالم الضرورة وتحبس روحه بل تطمسها، وتهبط بالإنسان إلى درك من الحيوانية يتعفف عنه الحيوان ..

١ « قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها » رواه الطبرانى

« ٢ » سورة النقرة [٢٧٥] « ٣ » سورة النحل [٩٩ - ١٠٠]

ولكن هناك مسئولية أكبر في الحقيقة تقع على الأمة المسلمة .
هذه الأمة التي أخرجها الله ، للناس « لتكون خير أمة في التاريخ .
« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله » « ١ » .

وكلفها أن تكون شاهدة ورائدة لكل البشرية
« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول
عليكم شهيدا » « ٢ » .

هذه الأمة أين ذهبت وأين مضى بها التيار ؟
في غير هذا الكتاب « ٣ » نتحدث عن خط الانحراف الذي انحرف به هذه الأمة عن
خطها السوي وانساها رسالتها . ولكننا نقول هنا - بصدد تحديد مسئولية
« الأميين » عما أصابهم من الخبال على يد اليهود - إن الأمة الإسلامية لم
تكلف - كالأمم المؤمنة السابقة - أن تؤمن في حدود نفسها وتستقيم لذات
نفسها فحسب ، إنما كلفت - فوق ذلك - أن تهدى البشرية كلها إلى النور
الرباني ، وأن تسعى - بجهدا وجهادا - إلى إقامة دين الله في الأرض
كلها ، دون إكراه للناس على اعتناق عقيدة الإسلام ، إنما تحكم شريعة الله في
كل الأرض ، ويخضع الناس جميعا للعدل الرباني المتمثل في شريعته .
« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » « ٤ » .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » « ٥ » .
وقد ظلت هذه الأمة قائمة برسالتها لنفسها ولل البشرية عدة قرون ، كانت فيها
ممكنة في الأرض ، وكانت هي موئل الهداية والنور ، ولم يكن يبرم أمر في الأرض
إلا بإذنها أو برضاها .. وإلا فالحرب قائمة لتأديب المعتدين .. ويومئذ لم يكن
لل يهود في الأرض سلطان .

ولكن الأمة التي اختارها الله لتكون شاهدة ورائدة للبشرية ظلت تتراجع
حتى أهملت رسالتها العالمية ، بل شغلت عن رسالتها لذات نفسها ، وعندئذ
برزت أوربا إلى الوجود قوة ممكنة في الأرض ، فملأت الفراغ الذي خلفته الأمة
الإسلامية بتخليها عن رسالتها ، حسب السنن الربانية التي يدبر الله بها أمور
البشر في الأرض .

« ٤ » سورة البقرة [٢٥٦] .

« ٥ » سورة الأعراف [٣٩] .

« ١ » سورة آل عمران [١١٠]

« ٢ » سورة البقرة [١٤٣] .

« ٣ » انظر كتاب « واقعنا المعاصر » .

وحين برزت أوروبا فقد برزت بكل جاهليتها ، وبكل الفساد الذى كانت تحمله في اطوائها نتيجة إفساد الكنيسة لدين الله المنزل ، فأتاحت للشعب الشرير المتربص للإفساد أن يركب، وأن يلهب ظهورها بالسوط ليقودها في طريق الشيطان .

وزاد الأمر سوءا حين زاد تفريط هذه الأمة في دينها حتى لم تعد تؤدى شيئا يذكر من رسالتها لذات نفسها ، فضلا عن رسالتها العالمية بطبيعة الحال ، وحينئذ أتاحت الفرصة لأوروبا الصليبية أن تقهر العالم الإسلامى، وأن تدخل أرض الإسلام لتدك حصونه من الداخل ، وأتيح لليهود - من خلال الحملة الصليبية الغازية - أن ينشروا سمومهم في العالم الإسلامى ذاته ، بنفس الوسائل التى نشروا بها سمومهم في أوروبا ، سواء كان ذلك بأيديهم مباشرة أو بأيدي الصليبيين الذين يقومون بذات الدور ضد الإسلام لحسابهم الخاص ! ومن ثم دخل « الأمميون » المسلمون في ذات الدوامة ، وصاروا هم أنفسهم - إلا من رحم ربك - يمدون الحبل لليهود ، وتم لليهود ذلك السلطان الذى اشارت إليه الآية الكريمة على سبيل الاستثناء من الذلة الدائمة المفروضة عليهم : « إلا بحبل من الله وحبل من الناس » ١٠

الأمة المسلمة إذن هى المسئول الأكبر عما أصاب البشرية كلها من الخبال على يد اليهود . فقد أنزل الله إليها النور ، وأنزل إليها الرسالة الخاتمة وشرفها بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، لالتلهى بذلك كله ، وإنما لتكون - بكل ثقلها ، وبكل فاعليتها - جهدا دائما وحركة دائمة لنشر النور والهداية في الأرض

فإذا تخلت فمن يحمل الرسالة ١١

وإذا تخلت فمأى شيء في الأرض يحول دون الشعب الشرير المتربص

للإفساد ١٢

وإذا كان تخلى الأمة المسلمة عن رسالتها هو الذى أتاح الفرصة لليهود ليحدثوا في الأرض كل هذا الشر عن طريق الأمة الجاهلية التى تولت السلطان حين تحلى المسلمون .. فإن عودة المسلمين إلى الإسلام هى التى تنهى دور اليهود في الأرض وتعيدهم إلى حجمهم الطبيعي

١٠ . سورة آل عمران | ١١٢ |

« ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ١ . « وإذ تأذن ربك لبيعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » ٢ .

« وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا . وألقينا بينهم العدواة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين » ٣ .

ولقد نتساءل عن حكمة الله سبحانه وتعالى في تمكين اليهود من « الأمميين » في هذه الفترة الاستثنائية التي تعيشها البشرية اليوم . فنقول بادئ ذي بدء إن الله سبحانه وتعالى : « لا يسأل عما يفعل » ٤ .. « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » ٥ ، فلا نسأله تعالى لماذا لم يجعل الذلة على هذا الشعب دأمة لا استثناء فيها، وهم يستحقون - بصحيفتهم السوداء - أن تكتب عليهم الذلة إلى يوم القيامة .

ولكننا نلمح جانبا من حكمة الله في قوله تعالى مخاطبا الكفار :

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض » ٦ .

والبشرية اليوم قد كفرت كما لم تكفر في تاريخها كله ، فأنكرت وجود الله جهرة ، ومنعت منهجه أن يحكم حياة الناس في الأرض ، فاختر الله شر خلقه - اليهود - ليزيق البشرية كلها بأسهم جزاء وفاقا على هذا الكفر الذي ليس له مثيل في نوعه ولا حجمه في التاريخ ..

ولنذكر أن دارون ليس يهوديا .. وهو الذي قال : الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدزمتها على الخلق .. الطبيعة تخبط خبط عشواء . إن تفسير النشوء والارتقاء بأنه صادر عن الإرادة الإلهية يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت !! فوضع بذلك أسسا « علمية » للفساد الذي يملأ الأرض اليوم !

والله يقول :

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليزيقهم بعض الذي

١٠ . سورة البقرة [٦١]	١٠ . سورة الأنبياء [٢٣]
٢٠ . سورة الأعراف [١٦٧]	٥٠ . سورة البقرة [١١٧]
٣٠ . سورة المائدة [٦٤]	٦٠ . سورة الأنعام [٦٥]

عملوا ، لعلهم يرجعون « ١ » .

ومن هنا نرى أن تسليط اليهود على « الأميين » اليوم ليس خارجا عن سنن الله ووعده ووعيدته كما جاءت في كتابه الكريم . كما نستطيع أن نحكم - من كتاب الله - أنها فترة استثنائية يعودون بعدها فيدخلون في الأجحار .. حين يعود المسلمون إلى الإسلام .

ويسأل بعض الناس . أليس اليهود هم أنفسهم فاسدين ومنحلي الأخلاق ؟ وكل الشرور التي أذاعوها في البشرية ليحكموهم بها هي ذائعة فيهم !

نقول : بلى !! إنهم كذلك !

ولن يهربوا هم من سنة الله التي تكتب الدمار على الناس حين يلجئون في الغواية ويصرون على الفساد .

نعم ولكن لهم دورا - قدره الله - في إزاحة البشرية الخبال جزاء كفرها وتبجحها بالكفر ، دورا يؤديه قبل أن يصيبهم الدمار بحكم السنن الربانية ، وقبل أن يرجعوا إلى الذلة والمسكنة كما توعدهم الله إلى يوم القيامة .

إنهم فاسدون نعم ، ولكنهم - بحكم ظروفهم التاريخية - يخططون بوعي حين يجدون الفرصة السانحة للتخريب ، بينما الأمميون يفسدون فقط .. يفسدون بلا تخطيط !

الفتاة اليهودية لا عرض لها . ولكنها إذ تباع جسدها تمتص أموال الأميين وتسرق أسرارهم لتعطيا « لشعب الله المختار » ليستفيد بها في تخطيطه الخبيث . أما الأمية فحين تفسد لهدف معين .. تفسد من أجل الفساد فحسب .

وحين يوضع الأمر على هذه الصورة تكون الغلبة لاشك للفريق الأكثر وعيا ، والذي تربط بينه - رغم فساده - عوامل تاريخية تمنعه من الذوبان السريع .

أما النتيجة الأخيرة فقد بينها كتاب الله .

تنتهى الفترة الاستثنائية - لأنها استثنائية - ويعود القدر المضروب يحكم اليهود :

« وإذ تآذن ربك لبيعن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » « ١ » .

١٠ . سورة الاعراف [١٦٧]

١٠ . سورة الروم [٤١]

الديمقراطية

الديمقراطية Democracy كلمة مشتقة من لفظتين يونانيتين Demos (الشعب) و Kratos (سلطة) ومعناها الحكم الذى تكون فيه السلطة للشعب ، وتطلق على نظام الحكم الذى يكون الشعب فيه رقبيا على أعمال الحكومة بواسطة المجالس النيابية ، ويكون لنواب الأمة سلطة إصدار القوانين .

وأول من مارس الديمقراطية هم الإغريق فى مدينتى أثينا وإسبرطة ، حيث كانت تقوم فى كل من المدينتين حكومة (يطلق عليها اصطلاحا اسم « حكومة المدينة » أى الحكومة التى تقوم فى مدينة واحدة مفردة) وكان كل أفراد الشعب من الرجال فى كل من المدينتين يشاركون فى حكم المدينة ، فيجتمعون فى هيئة « جمعية عمومية » فيتشاورون فى كل أمور الحكم ، فينتخبون الحاكم ويصدرون القوانين ويشرفون على تنفيذها ويضعون العقوبات على المخالفين . فكان « حكم الشعب » مطبقا بصورة مباشرة فى كل من المدينتين ، وكانت التسمية منطبقة على الواقع انطباقا كاملا .

ولكن هذه الصورة من صور الديمقراطية انتهت بانتهاء « حكومة المدينة » فى كل من أثينا وإسبرطة ، وإن ظلت محفوظة فى ذاكرة أوربا ككثير من الأفكار والقيم والمبادئ الإغريقية التى بقيت كامنة فى الفترة التى غلبت المسيحية فيها على أوربا ، ثم عادت إلى الظهور بعد قيام « النهضة » على التراث الإغريقى الممتزج بالتراث الرومانى ، الذى يطلقون عليه فى اصطلاحاتهم Greco-Roman أى إغريقى رومانى .

ولقد ظل الاقطاع يحكم أوربا أكثر من ألف عام فى ظل الامبراطورية

الرومانية والقانون الروماني . ولم تغير المسيحية شيئاً من سماته في هذه الناحية ، لأن الكنيسة لم تحاول تطبيق شريعة الله ، وتركت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية تجرى على ما كانت عليه في ظل الإمبراطورية الرومانية دون تعديل يذكر ، وحين نازعت الملوك والأباطرة سلطانهم لم يكن ذلك - كما أسلفنا - من أجل إلزامهم بتحكيم شريعة الله ، كما فعل المسلمون في الأرض التي حرروها من قبضة الرومان في مصر والشام والشمال الإفريقي .. الخ . إنما كان من أجل إلزامهم بالخضوع لهاها هي وسلطانها الشخصي .

وفي ظل الإقطاع لم يكن « للشعب » وجود إلا بوصفه قطعاً آدمية لاصقة بالطين ، لا كرامة لها ولا حقوق ..

كان هناك ملوك مستبدون بالحكم يحكمون بمقتضى « الحق الإلهي المقدس » باعتبارهم « ظل الله في الأرض » فكلامهم أمر ، وأمرهم مقدس ، وما عنّ لهم من أهواء قهى أوامر واجبة التنفيذ .

ويعاونهم في تثبيت سلطانهم وتوكيده في الأرض أمراء الإقطاعيات الواقعة في ملكهم ، مقابل إطلاق يد هؤلاء الأمراء (الذين يسمون : النبلاء أو الأشراف) في إقطاعياتهم ، يتصرفون فيها كيف شاءوا دون مراجعة ولا رقابة تضبط تصرفاتهم ، لأن الذين يعيشون على أرض الإقطاعية هم إما عبيد وإما في حكم العبيد ، وسلطان « الشريف » عليهم سلطان مطلق بحكم « القانون » فهو بالنسبة لهم يمثل السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية جميعاً في آن واحد ، وليس للملك على الإقطاعي إلا مايفرضه عليه من الأموال (بمقدار مايشبع نهمه ومطالبه) وتلك يستخرجها أمير الإقطاع من فلاحيه بالقوة الجبرية ، وإلا « الأنفار » الذين يطلب الملك تجنيدهم في جيوشه ليموتوا من أجل تحقيق أهوائه ومطامعه .. أى أن سلطة الملك في النهاية واقعة على أولئك العبيد من خلال سلطة أمراء الإقطاع ، كما تقع عليهم السلطة المباشرة من أمراء الإقطاع لحسابهم الخاص .. وفي جميع الحالات يكون أولئك العبيد - وهم في النهاية طبقة « الشعب » - بغير سلطان وبغير حقوق ، واقعة عليهم كل الواجبات .

وإلى جانب الملوك والنبلاء كانت سلطة الكنيسة ورجال الدين ، وكانت منصبة في النهاية كذلك على الشعب . فإلى جانب الخضوع المذل لرجال الدين - وهو حق « مقدس » لهم - كانت هناك الإتساوت والعشور ، والسخرة المجانية في أرض الكنيسة ، والتجنيد في جيوش الكنيسة التي كانت توجهها لتأديب الخارجين على سلطانها من الأباطرة والملوك .

وهذه المظالم المتراكمة هي التي تفجرت في الثورة الفرنسية ، بعد أن هيا لها في نفوس الأوروبيين الاحتكاك بالمسلمين في الحروب الصليبية، وفي اللقاء السلمي بين المسلمين وبين المبتعثين من بلاد أوربا لتلقى العلم في بلاد الإسلام .

ولكن أوربا حين تفجرت ثورتها لم تكن في وضع يسمح لها أن تستبدل بالجاهلية التي ثارت عليها دين الله الحق ، وشريعته العادلة التي كانت تحكم الأرض من حولها من الشرق والغرب والجنوب ، لأن الحروب الصليبية وحملات التنفير الديني والثقافي التي قامت بها الكنيسة ضد الإسلام وقفت حاجزا بينها وبين اتخاذ الإسلام عقيدة وشريعة ، فارتدت إلى تراثها الإغريقي الروماني تبحث فيه عن حلول لمشكلاتها ، بدلا من أن تلجأ إلى الإسلام « ١ » .

ووقع اختيار أوربا على « الديمقراطية » بديلا من الإقطاع ، وكانت هناك عوامل كثيرة ترشح لهذا الاختيار .

طبقة « الشعب » هي الطبقة المكبوتة المسحوقة ، وهي الطبقة الثائرة التي تسعى إلى المشاركة في السلطان .. والطبقة الرأسمالية هي الطبقة الجديدة التي صار المال في يدها بدلا من طبقة الإقطاعيين بسبب انتقال الإنتاج - تدريجيا - من إنتاج زراعي إلى إنتاج صناعي بعلب اختراع الآلة .. وهذه الطبقة الجديدة تريد أن تنتزع السلطان انتزاعا من الطبقة المالكة السابقة التي كان في يدها السلطان . لذلك كانت الديمقراطية هي اللعبة المناسبة التي توفق

١ . الواقع أنها لم تستطع أن تتخلص من الصنط العلمي والثقافي الحضاري للإسلام وإن كانت ازورت عن العقيدة الإسلامية وحاربت الإسلام بلا هوادة ، فالقانون المدني الفرنسي الذي وضع بعد الثورة الفرنسية أخذ أشياء كثيرة من الفقه المالكي الذي كان سائدا في الشمال الإفريقي ، أقرب بلاد المسلمين إلى فرنسا ، والعلوم الإسلامية ظلت تدرس في الجامعات الأوروبية فترة طويلة بعد ترجمتها من العربية إلى لغات أوربا . كذلك أثيرت الحضارة الإسلامية كثيرا في الحياة الأوروبية (اقرأ إن شئت كتاب « شمس الله تسطع فوق الغرب » للمكاتبة الألمانية « زيجريد هوبكه » المترجم بعنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » ترجمة فاروق بيضون وزميليه ، بيروت ١٩٦٩ م)

بين رغبة الطبقتين الساعيتين إلى السلطة ، إحداهما وهى الطبقة الرأسمالية تستولى على السلطان الحقيقى ، والثانية وهى طبقة الشعب تشارك - بقدر - فى ذلك السلطان» ١ « وذلك فضلا عن عنصريين آخرين أحدهما إحياء الفكر الاغريقى القديم وتأثيره على المفكرين الغربيين منذ عصر النهضة ، وهو فكر يحمل صورة « تذكارية » للديمقراطية من أيام أثينا وإسبرطة ، والثانى هو الشعارات التى وضعتها الماسونية اليهودية للثورة الفرنسية وهى : الحرية والإخاء والمساواة ، والديمقراطية هى المنطلق الأنسب لهذه الشعارات ، ومن ورائها يحقق اليهود ما يحلو لهم من أهداف .

لذلك كله كانت الديمقراطية هى الإطار المناسب للعناصر المتفاعلة فى أوروبا فى ذلك الحين .. فى ظل الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية القائمة فى تلك الفترة من الزمان .

ولم يكن الأمر سهلا مع ذلك ولا ميسرا للراغبين .. فقد احتاج إلى صراع طويل مرير حتى استوى على صورته الحالية . وكانت « المكاسب الديمقراطية » تاتى متقطعة وجزئية ، ولا تاتى إلا بعد معارضة طويلة من الذين فى أيديهم السلطان ولا يرغبون فى التنازل عنه ، وبعد قيام « الشعب » بالإضراب والعصيان والتمرد ، وتعرض دعاة الحرية إلى السجن والاعتقال والتشريد ، بتهمة إثارة الشغب والتحريض على الإخلال بالنظام .

وبعد نضال وكفاح استمر قرابة قرن من الزمان استقرت الديمقراطية فى صورتها الحالية التى تراها فى دول غرب أوروبا وأمريكا ، على اختلاف بينها فى الجزئيات لايؤثر فى صورتها العامة ومبادئها الرئيسية .



كانت نقطة الانطلاق ، أو نقطتا الانطلاق فى الحقيقة هما : أولا : وجوب إشراف الشعب على أعمال الحكومة ، أى إلغاء «الحق الإلهى المقدس» وإخضاع الحكومة لرقابة الشعب على تصرفاتها ، وفصل السلطات ، وجعل الحكومة سلطة تنفيذية فحسب ، لا سلطة تشريعية .. وثانيا : إعطاء الشعب حقوقه «الإنسانية» التى حرم منها أكثر من ألف عام فى ظل نظام الإقطاع .

١ « للشبوعيين دعوى تقول إن طبقة الشعب ظلت مسحوقة ومستعبدة فى ظل النظام الرأسمالى - رغم الحرية الصورية - وإن الكاسب الحقيقى والأوحد فى ظل هذا النظام هو الرأسماليون . وما بعد هذا نتجёл الحديث ، فسيأتى مناقشة ذلك كله فيما بعد

وفي كلا الميدانين أحرزت الديمقراطية تقدما ضخما بالنسبة لما كان في عهد الإقطاع، وعهد الحكم بمقتضى الحق الإلهي المقدس .

فقد أصبحت رقابة المجالس النيابية كاملة على تصرفات الحكومة الرئيسية، وبصفة خاصة « الميزانية » التى تمثل موارد الدولة ومصارفها ، والتى كانت من أكبر أبواب المظالم الواقعة على « الشعب » حيث كان الحاكم يفرض من الضرائب ما يحلوه ، بمقدار ما يروى نهمه إلى المال الذى كان معظمه ينفق على بذخ الملوك والحكام، وأقله يصرف على الصالح العام .

لم يعد من حق الحكومة أن تفرض ضريبة - أى ضريبة - إلا بموافقة المجالس النيابية ، ولم يعد من حقها أن تصرف حصيلة مواردها إلا فى الأبواب التى توافق المجالس النيابية عليها ، ومن ثم أمسكت تلك المجالس بالزمام بعد أن كانت الحكومات مطلقة اليد فى التصرف .. وكثيرا ما كنت تسمع - وما تزال - كلمة « دافعى الضرائب » تتردد فى أروقة « البرلمانات » على ألسنة النواب ، يستصرخون الرحمة على الفقراء دافعى الضرائب ويطلبون التخفيف عنهم ، أو يطلبون أن تنفق الأموال لمصلحة دافعى الضرائب، لأنهم هم الذين ينبغى أن يستفيدوا قبل أى أحد آخر بحصيلة الضرائب التى يدفعونها .

ومن ثم ظلت الضرائب - خلال نمو الديمقراطية - تخفف تدريجيا عن الفقراء وتزداد على الأغنياء، بعد أن كان الحادث هو العكس تماما، حيث كان الأغنياء يستمتعون بالثروات الطائلة ولا يدفعون عنها ضرائب على الإطلاق، أو يدفعون ضرائب تافهة لا تكاد تذكر ، ولا تؤثر أى تأثير على ثرواتهم الضخمة ، بينما الفقراء هم الذين يتحملون عبء الضرائب الأكبر ! كما وجه الصرف من موارد الدولة - وأهمها الضرائب بطبيعة الحال - على المشروعات العامة التى تصل فائدتها لأكثر عدد من الناس الذين يوصفون بصفة خاصة بأنهم دافعوا الضرائب ، فزاد الإنفاق تدريجيا على التعليم ، وعلى الصحة العامة ، وعلى المرافق العامة من طرق وجسور وخدمات ، وقل الإنفاق فى ذات الوقت على مشروعات الترف التى لا تفيد إلا القلة المترفة من الشعب، بعد أن كانت مثل هذه المشروعات هى الشَّغل الأول للحكومات السالفة وتنفق فيها الأموال الطائلة .

ولم تمر قضية الضرائب سهلة حتى فيما يسمى « المجالس النيابية » فقد كانت تلك المجالس فى أول عهدها تمثل الأغنياء أكثر مما تمثل الفقراء، أو تمثلهم دون الفقراء فى كثير من الأحوال ، إذ كانت شروط الترشيح إلى المجالس النيابية

ذاتها موضوعة بحيث لا يمر منها إلا أصحاب الثروات ويعجز عنها الفقراء ،
لكي يمنعوا منعا من الدخول إلى البرلمان وإزعاج أصحاب الأموال بصيحاتهم
الكريهة إليهم ! ولم ينل الفقراء حق الترشيح إلا بعد جهاد طويل ومريع ،
فاستطاعوا - بعد دخولهم - أن يعدلوا نظم الضرائب في بلادهم ، ويحققوا
قسطا من العدالة في المغنم والمغارم سواء .

ولم تكن المجالس النيابية هي وحدها التي تدور فيها المعركة حول
الضرائب ، فقد كانت الصحافة والخطابة والكتب المؤلفة تشارك جميعا في
النقاش والحوار والهجوم والدفاع . وكان من أهم ما قيل في هذا الصدد إن
توحيد نسبة الضريبة على الشيء الواحد بين الفقراء والأغنياء هو ظلم يئس على
الفقراء ، لأنهم يدفعون الضريبة من قوتهم الضروري الذي لا تقوم حياتهم
بغيره ، بينما الأغنياء يدفعون من فائض أموالهم ، أو من فائض الفائض
المتراكم عاما بعد عام ! لذلك استحدث في الأخير نظام الضرائب التصاعدية
التي تزيد فيها نسبة الضريبة زيادة مطردة كلما زاد الدخل .. فالألف الأولى غير
الألف الثانية ، والثانية غير العاشرة .. فإذا كانت الأولى يخصم منها عشرة
ضرائب (على سبيل المثال) فالعاشرة قد يخصم نصفها أو ثلاثة أخماسها ..
وهكذا .

أما الضرائب غير المباشرة ، أي الضرائب المفروضة على الأشياء المشتراة
أو المستخدمة لا على الدخل ، فقد كانت وماتزال موضع النقاش في البلاد
الديمقراطية، لأنه لا يمكن التمييز فيها بين الأغنياء والفقراء ! لا يمكن مثلا أن
يقال : إذا اشترى الغني رغيف الخبز فعليه أن يدفع له ثمنا أكبر مما يدفع
الفقير فيه ! إنما يقال في الحوار إنه ينبغي إلغاء الضرائب أو تخفيفها عن
« الضروريات » ورفعها على « الكماليات » ثم يظل النزاع قائما في تعريف ماهو
ضروري وماهو كمالي من الأشياء . ولكن الاتجاه على كل حال يظل مائلا إلى
التخفيف عن الفقراء وزيادة على الأغنياء .

وبالنسبة للإنفاق كذلك لم تكن المعركة يسيرة حتى في المجالس النيابية
ذاتها .. فحين كانت تلك المجالس ممثلة للأغنياء دون الفقراء لم تكن قضايا مثل
التعليم الإلزامي ومجانبة التعليم تمر بسهولة ! بل كان « نواب الشعب »
(هكذا كان اسمهم على الدوام من البدء إلى الختام) كانوا يعارضون في نشر
التعليم حتى يشمل الفقراء من أبناء الشعب ! وكانت تدور مناقشات حادة في

البرلمانات ، يقال فيها إنه لايجوز تعليم كل الناس ، وإلا فمن أين نأتى بعمل
يعملون في المصانع !^٩ فإن ابن العامل إذا تعلم سيستكشف أن يعمل بيديه كما
كان يعمل أبوه ! وسيطالب بوظيفة، وأتّى لنا أن ندبر وظيفة لكل متعلم ' ثم من
أين نحصل على الخدم ! فسوف يستكبر المتعلمون وسيرفضون الخدمة في
البيوت، فتفسد حياتنا وتتعطل مصالحنا !

وكذلك قضايا الصحة والمرافق العامة ! كان « النواب » المحترمون
يعارضون في تعميمها حتى يستفيد منها الفقراء .. ويقولون إن هذه ليست
مسئولية الحكومة ! إنما كل واحد يدبر لنفسه ، وكل واحد حر فيما يصنع
لنفسه !

وهكذا .. وهكذا في كل القضايا « العامة » التي يعود النفع فيها على الشعب
« دافع الضرائب » !

وإنما تغير الحال بعدّ جهاد طويل ، حين ألغيت أو خففت القيود المفروضة
على دخول المجالس النيابية فصار هناك من يدافع عن مصالح الفقراء ويطالب
لهم بالتعليم الإلزامى المجانى، وبتوفير العلاج والرعاية الصحية ، وتيسير
الخدمات العامة ، وأصبحت هذه نقطة بارزة من نقاط الديمقراطية .

كذلك شملت الرقابة البرلمانية أعمال الحكومة الأخرى غير الميزانية بمواردها
ومصارفها - وإن ظلت هذه أهم نقاطها - فقد كفت المجالس النيابية يد الحكومة
تدريجياً عن « الأفراد » أفراد « الشعب » ، فزادت بذلك من « حرية » أولئك
الأفراد .

لقد كان الأغنياء - بحكم أموالهم ومكانتهم في الدولة - في حصانة من سلطان
القانون وإن كانت الدساتير لا تقول ذلك بصفة رسمية . وقد كان القانون
الرومانى - الشهير بعدالته ! - ينص صراحة على التفرقة القانونية بين السيد
والعبد ، فيحيط الأول بضمانات وحقوق كثيرة ، ويخفف عنه العقوبة إذا
أجرم ، بينما يحيط الأخير بكثير من القيود ، ويشدد عليه العقوبات على أقل
هفوة تصدر عنه .

وألغت الديمقراطية هذه التفرقة في نصوصها المكتوبة ، ولكنها ظلت قائمة
في عالم الواقع فترة غير قصيرة ، حتى تراجعت عنها الحكومات خطوة خطوة
بجهاد طويل وكفاح قامت به الشعوب ، فأخذت الضمانات والحقوق تتسع

لتشمل فئات جديدة من « الشعب » حتى صارت تشمله كله في نهاية المطاف .
ويمكن تلخيص هذه الحقوق والضمانات فيما يلي :

حق الانتقال :

لم يكن حق التنقل من مكان إلى مكان مكفولا في ظل الإقطاع ، فقد كان معظم الناس عبيدا أو في حكم العبيد ، وكان هذا من المظالم التي قامت الثورة الفرنسية لتحطيمها، وإن تكن الرأسمالية الناشئة كانت ذات مصلحة خاصة - في نفس الوقت - في تحطيم هذا القيد ، لتحصل على العمال اللازمين للصناعة ، والذين كانت قيود الإقطاع تحجزهم في الريف وتمنعهم من الوصول إلى المدينة . ولكن الأمر لم يتم في يوم وليلة ، فقد ظل « الفقراء » خاضعين لكثير من القيود في تنقلاتهم ، تطاردهم الشرطة وتتهمهم بالتشرد وتطالبهم بإثبات أنهم ليسوا مجرمين ! وبإيجاد مبرر مقبول لوجودهم حيث هم موجودون ! بينما الأغنياء يذهبون حيث يشاءون لمجرد أنهم أغنياء ، ومن ثم فهم غير مشبوهين ! ورويدا رويدا أخذت تلك القيود المفروضة على حرية التنقل تذوب ، وأصبح كل إنسان - مهما يكن عمله أو مكانه في المجتمع - حرا في أن يتنقل داخل الدولة الواحدة ما دام « مواطنا » في تلك الدولة . وكانت كلمة المواطن ذاتها من المعاني التي استحدثتها الديمقراطية، فأصبح المواطنون جميعا متساوين - نظريا - في جميع الحقوق والواجبات بحكم أنهم جميعا مواطنون في وطن واحد ، وأصبحوا بالفعل متساوين في كثير من الحقوق . أما المساواة التامة فلنا مراجعة بشأنها فيما بعد .

ونلاحظ من لفظة « المواطن » في اللغات الأوروبية « Citizen » أنها نبتت من المدينة « City » فمن هناك بدأت حركة المطالبة بالمساواة ، ومن هناك طالب المطالبون بأن يتساوى كل السكان - أي سكان المدينة - في الحقوق والواجبات ، وبعد أن نالت المدينة حقوقها عمم ذلك على جميع السكان في الوطن كله ، ولكن اللفظة الأوروبية لم تتغير ، وظل اشتقاقها من المدينة باقيا حتى بعد أن اتسع مدلولها فشملت كل السكان .. أما اللفظة العربية فقد ترجمت متأخرة ، حين بدأت الأفكار الديمقراطية تصبح موضع حديث في البلاد الإسلامية الناطقة بالعربية، فأخذت المدلول الأخير للكلمة ، المتصل « بالوطن » كله لا بالمدينة فحسب .

حق العمل :

فرق بين أن يعمل بعض الناس في الأعمال التي يستطيعون الحصول عليها وبين أن يكون حق العمل مقررا بمعنى أن كل طالب عمل ينبغي أن ييسر له الحصول على العمل الذى يصلح له .

ولم يكن هذا الحق مقررا من قبل ، واحتاج تقريره إلى جهاد طويل لكى يتقرر نظريا في مبدأ الأمر ثم عمليا بعد ذلك .. وإن كان من الوجهة العملية لم يتقرر كاملا إلى هذه اللحظة في الديمقراطيات الرأسمالية لأسباب سنشرحها بعد قليل .

في ظل الإقطاع الذى عاشت فيه أوروبا أكثر من ألف عام لم يكن « حق العمل » شيئا معروفا ولا كان هناك مجال للحديث فيه . فقد كانت الزراعة هى العمل الرئيسى للمجتمع الإقطاعى ، وسكان القرية أو الإقطاعية يعملون بحكم الأمر الواقع في أرض الإقطاعية التى يعيشون فيها ، قلا أو كثيرا ، وقلت الأرض أو كثرت ، فالأرض ومن عليها ملك للإقطاعى، يعملون في حقوله، ويوزع بعض الأرض عليهم مقابل جعل معين ليزرعوها لأنفسهم إن أمكنهم أن يوفوا بالجعل المتفق عليه ، والذى يحدده الإقطاعى حسب هواه دون ضابط معين . فكل من كبر من الأولاد الذكور من سكان القرية فهو يعمل تلقائيا في الأرض، يعاون أباه وأسرته ويسكن في بيت الأسرة ، ويأكل من طعامها قل أو أكثر ، ويلبس ما تتيح له الظروف أن يلبس من المنسوجات اليدوية التى تنتجها القرية ، والحياة قليلة التكاليف وإن كان الكل يعيشون عيشة الفقر المدقع ولا يجدون غير الكفاف .

أما في المدينة فقد كان يسكن فريق من موظفى الدولة وهم قليلون ، وفريق من أصحاب الصناعات اليدوية - وهى الصناعات الوحيدة يومئذ - وفريق من التجار ، وفريق من أصحاب الحوانيت التى تباع الحاجيات للناس ، وأصحاب المقاهى والنزول (الفنادق الصغيرة) وفريق من المراهبين اليهود ، وفريق من أصحاب الثروات من الإقطاعيين الذين يتنقلون دائما ما بين المدينة وبين بيوتهم - أو قلاعهم - في داخل إقطاعياتهم ، وفريق من البغايا اللواتى يعشن على بيع أجسادهن لمن أراد من كل هؤلاء، وبصفة خاصة أصحاب الثروات .

خلاصة القول أن كل واحد من سكان المدينة له عمله الذى يعيش منه ، أوله

ثروته التى تكفل له الحياة هناك بلا عمل .. ولا يتكلم أحد عن حق العمل فى الريف ولا فى المدينة ، لأن الحاجة إليه لم تكن قد برزت بعد فى ذلك المجتمع فى ذلك الحين .

ولكن الثورة الصناعية قلبت هذه الأوضاع كلها وغيرتها ، حين توافد إلى المدينة أعداد هائلة من العبيد المحررين من الإقطاع بعد تحطيمه يبحثون عن العمل فى المدينة ، ولم تكن الصناعات الناشئة تستوعب ذلك العدد كله وقتئذ ، ولا كانت هذه الصناعات مستقرة ومتمكنة ، فقد كان كثير منها يفلس لأسباب مختلفة وتقوم مقامها مشروعات جديدة وهكذا .

ومن طبيعة العامل الذى نزع من الريف إلى المدينة ألا يحب الرجوع إلى الريف ولو بقى عاطلاً فى المدينة ! فإنه بعد أن يعيش فى المدينة الفسيحة المتعددة جوانب النشاط ، ويتعود - فى حدوده الضيقة - على ألوان من المدنية ، لا وجود لها فى الريف ، ويحس « بالحرية » بحريته فى أن يتصرف فى أموره الشخصية كيف يشاء دون تدخل أو تحريج من مجتمع المدينة ، بينما مجتمع الريف محكوم أبداً بتقاليده، وبالتعارف الشخصى بين كل أفراد، مما يضيق مجال تلك الحرية .. بعد ذلك كله لا يحب أن يرجع إلى الريف الذى « تحرر » منه ، ويفضل أن يبقى متسكعاً فى المدينة ولو ضاقت به سبل العيش .

ولكن القضية لم تكن قضية هذا الفرد أو ذاك ، إنما صارت قضية ألوف من هؤلاء العمال وألوف تجتذبهم المدينة والبحث عن فرص العمل فيها ، ثم لا تتسع لهم ، وهى فى الوقت ذاته تكبل أقدامهم « بسحرها » الخاص فلا يفارقونها ! وأصبحت القضية فى حاجة إلى حل .. إلى تقرير « حق العمل » للآلوف العاطلين فى المدينة، وإيجاد أعمال تستوعبهم . ولم يكن ذلك يسيراً فى مبدأ الأمر .. ولا تزال كل الحلول التى تقدمها الرأسمالية غير حاسمة تماماً فى هذه النقطة ، وإن كان قد حدث تقدم ضخم فى هذا الاتجاه من خلال المعارك التى قامت من أجل الحل ، وتعرض فيها ألوف من العمال للسجن والتشريد والموت جوعاً على الأرصفة بلا مأوى ، والموت بالسل وغيره من أمراض سوء التغذية وسوء التهوية وسوء التدفئة فى صقيع أوروبا البارد فى الشتاء ..

لم يكن الحل سهلاً لأكثر من سبب فى آن واحد .

ففكرة المسؤولية غير قائمة أصلاً فى ذهن أحد من الناس ! فالدولة لم تمارس هذه المسؤولية من قبل أبداً ، ولا تحس أنها ملزمة بممارستها !

لقد كانت الدولة دائما هى دولة الأغنياء ! تحس بالمسئولية الكاملة عن راحة الأغنياء ورفاهيتهم وصياغة الأمور كلها بحيث تستجيب لمطالبهم وتحقق لهم رغائبهم . أما ذلك الهمل من القطع الأدمية الملقاة هنا وهناك فهؤلاء يتحملون مسئولية أنفسهم ! عليهم هم أن يبحثوا عن حكمة وجودهم وأن يدبروا أمورهم بأنفسهم ! فإن ماتوا جوعا فهذا قدرهم ! مع التظاهر بالعطف على هؤلاء « المساكين » الذين قدر الله لهم الفقر والجوع والمرض والهلاك ، أو مع الشماتة فيهم لأنهم لا يستحقون الوجود أصلا ويستحقون كل ما يحدث لهم !

وكانت المعركة مع « ضمير » دولة الأغنياء طويلة ومريرة حتى ترحزحت عن موقفها العنيد تدريجيا ، ورضيت بأن تتحمل المسئولية عن هؤلاء الفقراء ، وإن كانت المسئولية الكاملة لم تتخذ بعد فى أية دولة من الدول الديمقراطية الرأسمالية .

أما أصحاب المصانع فقد كانوا أبعد عن تحمل المسئولية وأقصى فى معاملة أولئك الفقراء .

إن فكرة المسئولية بعيدة عن ضمائرهم بعدا كاملا ، وقد قاموا منذ أول لحظة على غير أساس إنسانى .. إنما قاموا على أساس تحقيق أكبر قدر من الربح ، بأية وسيلة تحقق ذلك الربح ، وكانت الوسيلة القريبة إلى أيديهم هى تطويل ساعات العمل وخفض الأجور إلى أقصى حد مستطاع « ١ » .

ويصرف النظر عن تأثير الرأسمالية كلها بأخلاق اليهود الذين أشرفوا عليها من بدايتها - واليهود هم عبدة العجل الذهبى من قديم - فلإن الرأسمالية فى حد ذاتها نظام جاهلى .. ومن طبيعة الجاهلية أن تظلم المستضعفين . وأن يطغى فيها أصحاب السلطان على من لا سلطان لهم ، إلا أن يحجزهم عن الظلم حاجز قهرى لا يملكون قهره بجبروتهم .

ولقد استخدم العمال سلاح الإضراب ضد جشع الرأسماليين فكانوا

« ١ » تقول الشيوعية إن هنا من طبيعة الرأسمالية ذاتها ، ولا علاقة له بالأخلاق « لأن الرأسمالى بطبعه يحب للربح ، ساع إليه كما تسعى القطة إلى أكل الفأر ! ! ونقول نحن إنه ليس من طبيعة الرأسمالية فى ذاتها ، إنما هو من طبيعة « الإنسان » حين يطغى . أى حين لا يلتزم بشرع الله ومنهجه . وقد كان الإقطاع على نفس الوجهة من قبل مع اختلاف الصورة الظاهرية . فكان الإقطاعى يسعى إلى الربح على حساب إنسانية العبيد وكرامتهم وجهدهم وإن تظاهر بالعطف « الأبوى » على « عباياه » ! يقول رب العالمين : « كلا ! إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » [سورة العلق ٦ - ٧] ويقول : « إن الإنسان لره لكود ، وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لخب الخير لشديد » [سورة العاديات : ٦ - ٨] أما المؤمنون فلهم صفات أخرى سواء كانوا يعيشون فى مجتمع رعوى أو زراعى أو صناعى أو خلاف ذلك !

يضرّبون عن العمل ويطالبون بخفض ساعات العمل ورفع الأجور « ١ » وهنا تلجأ الرأسمالية إلى « جيش العاطلين » تشغلهم بدريهمات قليلة مستغلة جوعهم وحاجتهم القاسية إلى المال ، لتضغط بهم على العمال المضربين حتى يعودوا إلى أعمالهم صاغرين (ومن هنا كان تشغيل المرأة بنصف أجر ، الذي بدأت منه « قضية المرأة » بادئ ذي بدء ثم استفحلت فصارت قضية مساواة كاملة في كل شئ)

لذلك كان الجو من أول لحظة بين الرأسماليين والعمال هو جو العداء والصراع لاجو المودة والتراحم ، فلم يكن من المتصور أن يتحرك ضمير الرأسماليين بالشعور بالمسؤولية تجاه أولئك « الأعداء » الذين يريدون أن ينقصوا من أرباحهم بالمطالبة بخفض ساعات العمل ورفع الأجور تارة ، والإضراب عن العمل وتعطيله تارة أخرى !

ولم يشعروا بهذه المسؤولية عن طيب خاطر أبدا في يوم من الأيام ! إنما كانوا يتراجعون عن مواقعهم خطوة خطوة تحت تأثير التهديد المستمر .. وكل ما قامت به الرأسمالية من ضمانات للعاطلين إنما كان تحت تهديد عظيمين : تهديد الإضراب الذي يصيبهم بقدر من الخسائر أكبر مما يتنازلون عنه من فائض أرباحهم للعمال ، وتهديد الشيوعية !

وشيئا فشيئا أخذت هذه الجاهلية تعدل مواقفها من « حق العمل » سواء على مستوى الدولة أو مستوى الرأسمالية الحرة ، حتى قبلت أخيرا مبدأ المسؤولية وإن لم تقم به كاملا إلى هذه اللحظة .

وثمة صعوبة أخرى تقف أمام حق العمل الشامل في الرأسمالية ، هو أن الأعمال - بالطريقة التي تقوم بها الرأسمالية - لاقتسع لكل الأيدي الراغبة في العمل أو القدرة عليه ، خاصة وأن التقدم « التكنولوجي » يزيد باستمرار من قدرة الآلة على الإنتاج ويخفض من عدد الأيدي اللازمة لإدارتها ، فتحدث زيادة مستمرة في الأيدي العاملة الفائضة عن الحجم الذي يحتاج العمل إليه ، وتتعدد المشكلة باستمرار . « ٢ »

ومهما يكن من أمر فقد قامت الديمقراطية التي تمثل في الواقع محاولة

١ . مازالوا يطالبون إلى هذه اللحظة !

٢ . من الحلول التي قامت بها بعض الدول المتقدمة صناعا منح يومين عطلة بأجر بدلا من يوم واحد في الأسبوع مع التخفيض المتزايد في ساعات العمل .

التوفيق بين الطبقتين المتصارعتين في المجتمع الرأسمالي، وهما طبقة العمال (أى الشعب !) وطبقة الرأسماليين ، قامت بجهد متواصل حتى قررت حق العمل من حيث المبدأ وجعلت الدولة ترضى بتحمل مسئوليتها في هذا الشأن .

وحين نقول « الديمقراطية » فنحن نقصد في الواقع كفاح الطبقة المظلومة المضغوطة للحصول على حقوقها، ولا نقصد أن الديمقراطية من ذات نفسها تمنح الحقوق للراغبين ! وإلا فإن النظام البرلماني في ذاته - وهو أداة الحكم في الديمقراطيات - لم يتسع لحقوق الفقراء إلا تحت القهر والضغط .. فإذا كانت هذه الحقوق قد أصبحت اليوم سمة من سمات الديمقراطية فليس لأن الديمقراطية ولدت على هذه الصورة ، أو أنها يمكن أن توجد تلقائيا في أى بلد على هذه الصورة ! ولكن لأن صراعا حادا نشب ، هو الذى أعطى الأوضاع صورتها الراهنة ، ولولم يقم ذلك الصراع لبقيت الديمقراطية كما كانت حكما صرفا للأغنياء دون الفقراء !

حق التعليم :

لم يصبح التعليم حقا « للشعب » في أوروبا إلا بعد كفاح مرير .

ففى ظل الإقطاع لم يكن للتعليم كله شأن يذكر . ولكن السادة على أى حال كانوا يتعلمون في القصور ما يليق بهم من العلم في ذلك الحين . يتعلمون اللاتينية والإغريقية والشعر والأدب ونصوصا من الكتاب المقدس وشيئا من الحساب وماشابه ذلك . أما أبناء الشعب فإن تعلموا شيئا من الكتاب المقدس على يد راعى الأبرشية فذلك حسبهم وزيادة ! فما الذى يصنعون بالعلم وهم في داخل سياج القرية أو الإقطاعية قد لا يفارقها الواحد منهم طيلة حياته . إنما يتلقى الصبى منهم « ثقافته » من أحاديث الكبار التى يرددون فيها خبراتهم التافهة عن الأرض والمحاصيل والضرائب والواجبات المفروضة عليهم ، وزواج فلان من أهل القرية أو موت فلان .. وأقاصيص الثراء في قصر « النبيل » صاحب الإقطاعية وما يقيم في قصره من مآذب وولائم ، وما يقع منه ومن وكيله من مظالم على العباد !

لذلك كانت الأمية هى الغالبة على « الشعب » وكان المتعلمون قلة نادرة في كل أبواب التعليم ، معظمهم بطبيعة الحال من أهل المدن ، حيث توجد المدارس ، وحيث أهل المدينة يحتملون نفقات التعليم .

ثم جاءت الثورة الفرنسية ثم الثورة الصناعية فرجتا المجتمع رجاء وبدلتا

كثيرا من أوضاعه ، ومن بين ما تبدل من هذه الأوضاع تدفق النازحين إلى المدينة من الريف وإقامتهم الدائمة هناك .

وبدأ الطلب على التعليم يتزايد لأنه كان ظاهرا أن للتعليم مهمة يؤديها في المجتمع الجديد ، وأنه يؤدي إلى تحسين مستوى المعيشة بالنسبة للمتعلمين ، حيث يستطيعون أن يعملوا في غير الأعمال اليدوية التي تركت للجهلة من العمال الذين لا يحتاجون في عملهم إلى ثقافة ولا تعليم .

وبدأت صيحات المصلحين تطالب بتعميم التعليم وتوسيع دائرته حتى يشمل عددا أكبر من التلاميذ والطلاب ، وثارت ثائرة « المحافظين » في المجتمع وفي المجالس النيابية ذاتها ، لماذا نتوسع في التعليم حتى يشمل أبناء الشعب ؟ إن التعليم حق لعلية القوم لمكانتهم في المجتمع ، فهم الذين يقودون ويوجهون ويتحملون المسؤولية عن الشعب كله .. ثم إنهم هم القادرون على دفع نفقات التعليم ، فلا يكلفون الدولة في تعليمهم إلا القليل .

أما الفقراء فلماذا يتعلمون ؟ ما حاجتهم إلى العلم ؟ ومن أين لهم النفقات التي يتطلب التعليم ؟ وما نتيجة تعليمهم وما انعكاسها على المجتمع ؟ إنهم إن تعلموا فسيستكفون أو يعملوا بأيديهم والمجتمع في حاجة إلى من يعمل بيديه . فكيف بلى حاجات المجتمع إن علمنا أبناء الفقراء ؟!

ثم إن العلم يحتاج إلى أخلاق ! وأبناء الفقراء لا أخلاق لهم ! وسيهبط المستوى الخلقى في المدارس بسبب دخول أبناء الفقراء ، فلا يصبح لائقا بأبناء العلية الذين يتعلمون - وحدهم تقريبا في ذلك الحين - فكيف يتلقى أبناء العلية حظهم الضروري من العلم إذا فتحت المدارس « للغوغاء » ؟

وحتى المستوى العقلي لا يمكن أن يكون واحدا بين أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء ، وسيهبط المستوى التعليمي بسبب دخول أبناء الفقراء الذين يتسمون بالغباء والتخلف العقلي لأنهم من الطبقة الدنيا ! ولو كانوا أذكيا ما بقوا في تلك الطبقة . إنما هم بقوا هناك لعجزهم العقلي والنفسي الذي لا يمكن شفاؤه !

وشينا فشيئا تراجعت « الأرستقراطية » عن أفكارها ومواقفها ووافقت على توسيع دائرة التعليم حتى يتسع لعدد أكبر من أبناء الشعب ، وإن كانت عقبة التمويل ظلت توضع أمام كل مطالب بتوسيع التعليم ملكي يكف عن المطالبة التي تقلق بال الأرستقراطية وتهدها بأن تنزع منها تفردا وتميزها .

وجاء اليوم الذي طالب فيه المطالبون بجعل التعليم إجباريا على نفقة الدولة .

واحتدمت معركة حامية حول هذا الشأن لم تهدأ من قريب .
اعتترض بعضهم بأن الميزانية لا يمكن أن تكفى ولو حولت كلها للتعليم !
واعترض بعضهم بأنه لا توجد المباني الكافية ولا المدرسون اللازمون !
واعترض آخرون بأن مستوى التعليم سيهبط لامحالة لأن الفصول ستكتظ بالتلاميذ فلا يمكن توجيه العناية اللازمة إليهم .
واعترضت الأرستقراطية بأنها لن تجد الخدم بعد اليوم ولن تجد العمال الذين يعملون بأيديهم ، وسيعود هذا بالوبال على المجتمع كله !
ولكن دفعة الجماهير والمدافعين عن حقوقهم كانت من القوة بحيث تغلبت على جميع الاعتراضات، وتقرر حق التعليم بعد صراع مرير ، وبعد جهد جهيد بذل في التغلب على العقبات الحقيقية كقلة موارد الميزانية وقلة المباني وقلة المدرسين .

واختلفت البلاد في تحديد مرحلة الالتزام التي تتحمل الدولة كل نفقاتها ، هل تكون بسنوات محددة من العمر ، والتلميذ يحصل ما يحصل في تلك الفترة بحسب قدرته على التحصيل ؟ أم تكون بمستوى تعليمي معين أيا كانت السنوات التي يقضيها التلميذ فيها حتى يكملها ؟ وهل تكون هي المرحلة الابتدائية وحدها ؟ أم الاعدادية أم الثانوية ؟ (ولم تدخل المرحلة الجامعية في هذا النطاق) كما اختلفت فيما يفعل بالطالب الذي يتكرر رسوبه ، هل يفصل ؟ وإذا فصل أين يذهب ؟ أم يحول إلى تعليم آخر يتناسب مع قدرته العقلية ... الخ .. الخ . ولكن مبدأ التعليم العام الذي تنفق عليه الدولة تقرر على أى حال ..
وحين كانت هذه المعركة على أشدها كانت معركة المرأة تلاحقها !
فحين تقرر مبدأ التعليم العام كان الحديث فيه عن الأولاد فقط .. أما البنات فيتعلمن - نعم - إن شئنا لكن على نفقة آبائهن ، ولا تتحمل الدولة نفقات تعليمهن كلهن !

ولكن المطالبين بحقوق المرأة كانوا لا يتوانون عن الملاحقة ، وعن طلب المساواة مع الرجل في كل شئ !
ومن ثم فقد شمل التعليم العام البنات في آخر الأمر ، ووضع لهن ذات المناهج المعدة للبنين ، وكان بعد ذلك ما كان من دخول الجامعة والاختلاط والمطالبة بحق العمل كالرجال سواء !

وأيا يكن الأمر فقد اتسمت الديمقراطية بتلك السمة، وأصبح التعليم العام المجانى معلما من معالم الديمقراطية ، ولكن ينبغى أن نذكر فى كل مرة أن صراع الجماهير وضغطهم المستمر هو الذى وسم الديمقراطية بتلك السمة فى النهاية ، ولم تكن كذلك من مبدئها ، ولا كان فى نية القائمين عليها أن تصبح كذلك فى نهاية الطريق .

الحقوق السياسية :

حق الانتخاب - حق الترشيح - حرية الكلام - حرية الاجتماع - حق الاحتجاج .

مع نمو الديمقراطية نمت الحقوق السياسية للشعب . بل إن الحقوق السياسية هى فى الواقع أبرز سمات الديمقراطية فى صورتها النهائية التى استقرت عليها .

وخلاصة الحقوق السياسية أن يكون للشعب حق الاشراف على الحكومة وتوجيهها وحق نقدها والاعتراض على أعمالها .. ويتخذ ذلك صورتين متكاملتين إحداهما هى التمثيل النيابى ويحوى حق الانتخاب وحق الترشيح لدخول البرلمان ، والثانية حق الاجتماع وإبداء الرأى خارج البرلمان، ويشمل الصحافة والاجتماعات السياسية والمظاهرات السلمية التى تقام للمطالبة بأمر معين أو الاحتجاج على أمر معين .. وكل هذه الأمور لم يكن للشعب منها نصيب على الإطلاق قبل الديمقراطية ، وحتى حين بدأت الديمقراطية تتخذ شكل التمثيل النيابى فإن « الشعب » لم يكن ممثلا هناك، ولا كان مسموحا له أن يلج هذا الميدان رغم ما كان مكتوبا فى ديباجات الدساتير من عبارات « الحرية والاخاء والمساواة ! » إنما نال الشعب كل ذلك بالعرق والدماء والدموع ! بالسجن والتشريد والاضطهاد وجميع ألوان المحاربة والمعارضة .. فلما ثبت المطالبون وألحوا فى الطلب وصمدوا أمام الضغط أخذوا يحصلون رويدا رويدا على كل هذه الحقوق ، حتى أصبحت اليوم أمرا مقرورا فى الديمقراطية ، بل أصبحت هى السمة البارزة لهذا اللون من الحكم .

وفى ابتداء الديمقراطية كانت العملية كلها تكاد تكون وقفا على الأغنياء ، فقد كان ينص نصا صريحا على أن المرشح ينبغى أن يكون مالكا لنصاب مالى معين ، وأن يثبت ذلك بإثباتات رسمية حتى يباح له أن يدخل المعركة الانتخابية .

وفضلا عن ذلك فإن نفقات الدعاية الانتخابية كانت - وما زالت - في طوق الأغنياء وحدهم دون الفقراء . كما أن الناخبين أنفسهم كانوا خاضعين لقيود تجعل عددهم ضئيلا وفرصة التأثير عليهم بشتى الوسائل (حتى شراء الأصوات بالمال !) فرصة كبيرة . لذلك كان « نواب الأمة » أبعد ما يكونون عن تهليل الأمة في حقيقة الأمر ! « ١ »

ورويدا رويدا - تحت تأثير الاحتجاج المستمر من « الشعب » بكل وسائل الاحتجاج - خففت القيود على الناخبين والمرشحين كليهما ، فظل النصاب المالى يخفف عن المرشحين والغى إلغاء كاملا عن الناخبين مع تخفيض السن التى يجوز فيها الترشيح والتى يجوز فيها الانتخاب حتى صارت الآن إحدى وعشرين سنة لهذا وذاك في معظم بلاد الأرض .

وقد استغرق هذا زمنا طويلا حتى تقرر ، كما احتاج إلى نضال مستمر ، مع التعرض الدائم للمتاعب حتى أصبح اليوم من البديهيات المقررة التى لا تحتاج إلى ذكر . فأصبح من حق أى إنسان بلغ إحدى وعشرين سنة أن يكون له صوت انتخابى بشرطين اثنين ، الأول أن يكون مقيدا في الدائرة التى يريد أن يدل فيها بصوته والثانى ألا يكون قد صدر ضده حكم في قضية مخلة بالشرف (والشرف في عرفهم لا يتعارض مع الإباحية الجنسية بطبيعة الحال ولا مع العريضة والمجون ! إنما يتعارض فقط مع الاغتصاب ومع السكر الذى تصحبه جريمة ! كما تعتبر السرقة والغش والاحتيال .. الخ جرائم مخلة بالشرف) كما أصبح من حق أى إنسان بلغ هذه السن ويجيد القراءة والكتابة ولم يصدر ضده حكم في قضية مخلة بالشرف أن يرشح نفسه للبرلمان (ولا ننسى أن المرأة ظلت تلاحق الرجل في هذه الحقوق حتى نالتها في كثير من الديمقراطيات في الفترة الأخيرة)

وفي داخل البرلمان توضع كل الضمانات التى تتيح للعضو أن يعبر عن رأيه ، وأن ينتقد الحكومة سواء أعضاؤها أو رئيسها بما شاء من وسائل النقد وعباراته إلا أن يكون سبا شخصا صريحا .. ويحاط العضو « بالحصانة البرلمانية » التى تكفل عدم محاسبته على أى عبارة يتفوه بها داخل البرلمان (ما لم تكن سبا شخصا كما قلنا) . وإن كان يحق للحكومة أن تطلب من البرلمان

« ١ - ستناقش مدى التمثيل الحقيقي للأمة فيما يلي من هذا الفصل »

رفع الحصانة البرلمانية عن أحد الأعضاء إذا رأت أنه تجاوز الحرية المباحة له ،
وعندئذ يقدم للمحاكمة إذا وافق البرلمان على رفع الحصانة عنه (وقد يكتفى
بتأديبه بمنعه من حضور عدد من الجلسات أو يطرد نهائيا من البرلمان وتخلو
دائرته للانتخاب فيها من جديد)

وبهذه الضمانات يملك العضو - نظريا على الأقل - حرية واسعة وإمكانية
ضخمة لتوجيه الحكومة إلى الطريق الذي يرى أنه هو الصواب ، ويملك البرلمان
في مجموعه - نظريا كذلك على الأقل - سلطة توجيه الحكومة وتقييد تصرفاتها
وجعل الشعب حارسا على هذه التصرفات .

أما في خارج البرلمان فالحقوق السياسية تتضمن حرية التعبير عن الرأي -
بكل وسائل التعبير - وحرية النقد وحرية الاحتجاج .

فأما التعبير عن الرأي سواء بالتأييد أو المعارضة فيأخذ صورة الانتماء
الحزبي، أى حرية أى انسان في الانتماء إلى أى حزب من الأحزاب القائمة -
مادامت ليست محظورة بأمر القانون - والكتابة في الصحف (ووسائل الإعلام
الأخرى في البلاد التي تكون الإذاعة والتلفزيون فيها مملوكين لشركات وهيئات
وليست مملوكين للحكومة، كإنجلترا وفرنسا وأمريكا) والخطابة في المنتديات
العامة والخاصة ، والاشتراك في مظاهرة سلمية بعد الحصول على إذن من
السلطات بقيام المظاهرة (وكثيرا ما تقوم المظاهرات بغير إذن ! وعندئذ
تتصرف السلطة بما تراه مناسبا : إما أن تعترف بالأمر الواقع إذا رأت أنه لا
ضرر من المظاهرة وإما أن تصطدم بها وتفرقها وتقبض على بعض زعمائها
وتقدمهم للمحاكمة !)

وأما الاحتجاج فيأخذ صورة الإضراب عن العمل وتشكيل المظاهرات، وهو
نوع من التعبير عن الرأي على أى حال وإن كان أكثر خشونة من سابقه ، لأنه
يتجاوز النقد إلى الاحتجاج .

ويشمل هذا وذاك حرية الاجتماع ، أى حق الناس في أن يجتمعوا في أى
مكان ليتدارسوا أمرا معينا أو ليبدا رأيهم في موضوع معين أو لينتقدوا تصرفا
معينا من تصرفات الحكومة أو ليحتجوا على شيء من ذلك كله .

وتكون الاجتماعات عادة في مقار الأحزاب ، وهذه لا تحتاج عادة إلى طلب
تصريح من السلطة مادام الحزب مصرحا به أصلا ، إلا أن يكون دعوة عامة إلى
مؤتمر أو اجتماعا مكثفا في مكان غير مقر الحزب ، أو أوسع من المقر بحيث

يشمله ويشمل امتدادا له في الطريق العام .
او تكون في الجامعات أو في قاعات المحاضرات العامة ، أو في الطريق العام ،
وهذه تحتاج إلى تصريح مسبق من السلطات .
وكل هذه الحريات ، التي أصبحت اليوم من البديهيات المقررة في
الديمقراطية لم تكن كذلك يوم بدأت الديمقراطية في الظهور ، بل كانت القيود
شديدة جدا والحريات ضئيلة . فلا الصحافة كانت تملك الحرية الواسعة في
النقد ، ولا حرية الاجتماع كانت قائمة ، ولا حرية الاحتجاج ، إنما فرض
« الشعب » كل ذلك فرضا على الحكومات بالضغط المستمر والإلحاح الدائب ،
والتعرض للسجن والاعتقال والتشريد . ويحفل التاريخ « الديمقراطي » !
بالوان من الاضطهاد ذاقها المدافعون عن هذه الحقوق حتى أصبحت أمرا
مقررا و « تقاليد » مرعية في الديمقراطيات . وإلا فقد كان كل نقد حاد في
الصحف يعتبر خروجاً على القانون تصادر الصحيفة من أجله ويمنع صدورها
ويحبس محرر المقال والمسئولون عن الصحيفة بسببه ، وكان كل اجتماع يعتبر
شغباً ويفرق بالقوة ، وكانت المظاهرات تعتبر عملاً غير مشروع يعاقب عليه
بالسجن أو الاعتقال أى مدة من الزمن دون محاكمة !
واحتاج الأمر إلى ضغط البرلمانات وضغط الخطباء والكتاب لتعديل القوانين
التي تبيح ذلك كله ، وتقييد يد الحكومة في التنكيل بأعدائها السياسيين أو
بالشعب عامة ، حتى « تعودت » الحكومات أن تستمع للنقد وهى ساكنة ، وأن
تترك للمحتجين على تصرفاتها حرية الاحتجاج دون أن تتحرك لمطاردتهم أو
كفهم عن الاحتجاج والاعتراض .
وإذا قلنا إن مائة سنة على الأقل من النضال المستمر قد استغرقت حتى
وصلت بالامر إلى صورته الحالية لانكون مبالغين في ذلك ، فإننا ما نزال نرى
ذيولاً للمعركة حتى وقتنا الحاضر رغم كل ما قررت الديمقراطية من الحريات ،
كان آخرها مظاهرات العنف في فرنسا منذ سنوات ، وما تقوم به الأحزاب
الشيوعية من المعارضة العنيفة في كل بلد ديمقراطى سمح للأحزاب الشيوعية
فيه بالنشاط !
وبصرف النظر عن اتجاه الحرية في البلاد الديمقراطية « ١ » فلا شك أن

« ١ » سنتكلم عن « اتجاه الحرية » حين نناقش الوجه الآخر للديمقراطية فيما يلي من هذا الفصل .

الحرية السياسية من أبرز ما تشتمل عليه الديمقراطية ومن أهم ما تشتمل عليه .

أما الضمانات التي كسبها الشعب في ظل الديمقراطية فهي ضمانات الاتهام ، وضمانات التحقيق ، وضمانات الحكم ، وضمانات التنفيذ . ولنقل كلمة سريعة عن كل منها لنصف بعد ذلك موقف الديمقراطية منها .

أما ضمانات الاتهام فمقتضاها ألا يؤخذ الناس بالظنة وأنهم لا يحبسون ولا يعتقلون إلا بمقتضى تهمة حقيقية تستوجب ذلك . وليس معناها بطبيعة الحال أن كل من اعتقل أو حبس لابد أن يكون مجرماً بالفعل، فقد يظهر التحقيق براءته فيفرج عنه . إنما معناها فقط أنه لابد أن تكون هناك قرينة أو شبهة حقيقية على الأقل في أنه ارتكب محرماً بنص القانون ، وليس لمجرد أنه « ضايق » الحكومة بعمل من الأعمال فتنتقم منه بالحبس أو الاعتقال !

وأما ضمانات التحقيق فمقتضاها ألا تستخدم مع المتهم أية وسيلة من وسائل الضغط لحمله على الاعتراف بما لا يريد أن يعترف به سواء كان الضغط بالتهديد أو بالاغراء (كأن يقال له : إذا اعترفت فسنخفف عنك العقوبة أو سنطلق سراحك ، ويكون هذا للإيقاع به، أو لاستخلاص معلومات معينة منه) وأما ضمانات الحكم فهي أن يحكم على المتهم بالعقوبة التي يقررها القانون بلا زيادة ، ويكون للمحكوم عليه حق استئناف الحكم ونقضه إذا رأى أنه مجحف به .

وأما ضمانات التنفيذ فهي أن تنفذ العقوبة التي قررتها المحكمة بلا زيادة ، ويكون للمحكوم عليه حق الاحتجاج على أى زيادة يرى أنها وقعت عليه بغيره حق .

وككل شيء في الديمقراطية لم يحصل الشعب على هذه الضمانات في يسر، ولا كانت من مقررات الديمقراطية حين قامت في البدء .

فقد كانت الديمقراطية قائمة - في أول عهدها - والشعب مطارده مضطهد بلا ضمانات تحميه !

كان من حق الشرطة أن تقبض على أى إنسان وتودعه السجن ، وكان ذلك في الغالب لإحدى « جريمتين » : الفقر أو معارضة الحكومة ! فأما الفقر فقد كان يبيح للشرطة القبض على أى إنسان بتهمة « التشرد ! » وعليه هو أن يثبت ما

يخالف ذلك ' وليس على الشرطة أن تثبت « الجريمة » ' فالشبهة كافية والقانون - الذى وضعه الأغنياء - يوافق على ذلك ! ويجعل الناس متهمين حتى تثبت براءتهم ، وذلك حتى يكون « الفقراء » تحت تهديد دائم يمنعهم من الخروج على الأدب اللائق فى حق الأغنياء !

وأما معارضة الحكومة فيالها من جريمة تبيح السجن والاعتقال والتشريد ! وما أسير التهمة ! التحريض على قلب نظام الحكم ، أو التحريض على كراهية النظام ، أو العيب فى أى ذات من الذوات « المقدسة » التى لايجوز العيب فيها !

وجاهد الشعب ، وجاهد أحرار الفكر جهادا طويلا مضنيا من أجل تغيير هذه الأوضاع كلها ، حتى تقرر فى الدساتير أولا ثم فى الواقع العمل بعد ذلك أن « المتهم برئ » حتى تثبت إدانته ، وليس لدينا حتى تثبت براءته كما كان الحال من قبل .. وسعى المجاهدون إلى إبطال حق الحكومة فى القبض والاعتقال دون سبب ظاهر ، وأصبح من المقرر الآن أنه فى خلال مدة محددة من الاعتقال تتراوح بين يوم واحد وأربعة أيام فى بعض البلاد لابد أن يقدم المتهم للتحقيق بتهمة واضحة محددة . وحينئذ تحوطه ضمانات التحقيق وهى تشتمل على حقه فى أن يطلب حضور محام عنه أثناء التحقيق لضمان عدم الضغط عليه بالتهديد أو الاغراء . وحقه فى ألا يرد على سؤال المحقق دون أن يتعرض من أجل ذلك للتعذيب ، وحق المحامى فى أن ينبه المتهم فى أثناء استجوابه إلى عدم الرد على سؤال معين باعتبار أن المحامى أدرى منه بالمزالق القانونية التى يمكن أن يستدرجه المحقق إليها دون أن يلتفت إلى خطورتها عليه .. وباختصار أن تكون الأدلة المادية أو القرائن هى عماد التحقيق ، وليس سحب الاعترافات من المتهم عن أى طريق !

وتعتبر هذه الضمانات اليوم من مقاييس الحضرة الإنسانية ، وهى جديدة بأن تكون كذلك ، فإن معاملة المتهم تكشف عن مدى احترام إنسانية الإنسان ، وليس مقياس الإنسانية هو معاملة السيد للسيد أو الند للند فهنا تتحكم عوامل أخرى غير احترام الإنسانية فى ذاتها . إنما معاملة « الضعيف » أيا كان سبب ضعفه ، وسواء كان ضعفه عارضا - كالمتهم - أو دائما كالفقير والمسكين واليتيم .. الخ ، هى التى تكشف ، لأن القوة هنا تغرى بالاستبداد بالضعف .. فإذا امتنع القوى - أيا كان سبب قوته ، وسواء كانت قوته عارضة - من

جاه المنصب - أو دائمة - بسبب آخر - إذا امتنع عن إيذاء الضعيف واضطهاده وإذلاله ، فلن يمنعه إلا الشعور « الإنسانى » وإلا احترام إنسانية الإنسان .. فإذا كان الذى يمنعه فقط هو القانون ، فالقانون إذن يحمل في طياته احترام إنسانية الإنسان ، حتى لو كان الذين ينفذونه يفتقرون إلى الشعور بالإنسانية .. ومعاملة المتهم بالذات قد تكون أكثر دلالة من غيرها ، لأن الضعيف البريء الذى لا ذنب له قد يجد من براءته سنداً للعطف عليه عند ذوى القلوب الرحيمة ، أما المتهم فشبهة الإدانة تحوطه ، وشبهة استحقاقه للعقوبة قائمة ، فإذا وجدت النفس الشريرة ، المتجبرة بالقوة وبالسلطان ، وإذا وجد الحقد الشخصى بالإضافة إلى ذلك ، كان الانزلاق إلى الإيذاء والتعذيب هو الأكثر توقعا . وكذلك كان الحال فى التاريخ كله فى عهود الاستبداد ! المتهم يؤخذ بالشبهة ثم ينكل به تنكيلا دون مبرر حقيقى إلا شهرة الاستبداد ! والشبهة هى مجرد خوف « السادة » على سيادتهم ، ورغبتهم فى إحاطة أنفسهم بسياج يحفظ لهم هذه السيادة ! يستوى فى ذلك أن يكونوا حكاما (فتكون القضية سياسية) أو أغنياء فقط (فتكون القضية جنائية عادية) .

فوضع القيد الذى يقيد السادة فيمتنعون أو يُمنعون عن تعذيب المتهم والتنكيل به ، هو تقرير لجانب من جوانب إنسانية الإنسان ، يحسب لاشك فى الميزان ، لكن الذى ينبغى أن ندركه هو أن السادة لم يضعوا هذا القيد من تلقاء أنفسهم ، إنما أكرهوا على قبوله إكراها بالضغط المستمر عليهم ، والإلحاح فى المطالبة ، والإلحاح فى كشف خبيثة نفوسهم الخبيثة ، بصورة تهدد سلطانهم على الناس ! فإن السلطان - حتى سلطان الجبابة - يقوم دائما على قدر من الاحترام ، فإذا ذهب الاحترام من النفوس صعب أو استحال استمرار السادة فى سيادتهم وطفغانهم مهما كان لهم من جبروت .

والذى فجرته الثورة - التى انطلق فيها رد الفعل عن المظالم التى استمرت أكثر من ألف عام - كان هو إزالة القداسة عن ذوى القداسة ، سواء من رجال الإقطاع أو من رجال الدين . فلما جاءت الطبقة « المقدسة » الجديدة وهى الطبقة الرأسمالية لم تجد الطريق ممهدا على نفس الصورة التى كان عليها الإقطاع من قبل ، بل وجدت الثوار - سواء بأفكارهم أو بأعمالهم - يقفون لها بالمرصاد ، ويثيرون السخرية من أعمالها فى النفوس ، فتنازلت شيئا فشيئا

عن كثير من مظاهر قداستها (وإن كانت ماتزال بعد تملك الكثير ^١) « ١ » .

أما ضمانات المحاكمة - بعد ضمانات الاتهام والتحقيق - فهي حق المتهم في إقامة محام يقوم بالدفاع عنه أمام المحكمة ، يختاره بنفسه إذا كان يملك دفع « أتعابه » (أى الأجر الذى يتقاضاه مقابل الدفاع عن المتهم) أو تنتدبه له المحكمة مجانا إذا كان فقيرا لا يملك دفع الأتعاب . وحقه في الامتناع عن الرد على أى سؤال توجهه المحكمة إليه ، وحق المحامى في منعه من الاجابة على أى سؤال يرى من معرفته بالقانون أن الاجابة عليه تضر بالمتهم ، وحقه في استدعاء الشهود الذين يرى أن شهادتهم تنفعه في قضيته ، وحق المحامى في طلب التأجيل للاستعداد أو لمزيد من الدراسة أو لتقديم أدلة جديدة . ثم حق المتهم في استئناف الحكم إذا رأى أنه جار عليه أو أوقع عليه جزاء لا يستحقه (ويقابله حق النيابة في استئناف الحكم إذا رأت أنه أقل مما يستحقه المتهم)

وأما ضمانات التنفيذ فهي أولا تنفيذ العقوبة التى قررتها المحكمة دون زيادة عليها ، وثانيا حسن معاملة المجرم داخل السجن في فترة العقوبة ، فلا توقع عليه عقوبة بدنية ولا إهانة إلا نتيجة إخلاله بنظام السجن ، الذى تتضمنه لائحة معينة تحدد علاقة السجين بسجانيه ، وتوفر له الرعاية الطبية إذا مرض ، ويكون من حقه الشكوى من إدارة السجن إلى النيابة العامة ، ومقابلة محاميه في السجن إذا عن له ما يستدعى ذلك ، وزيارة أهله له زيارة دورية .. وتطور الأمر الآن في بعض السجون إلى السماح للسجين بزيارة أهله في منزله في فترات محددة ، حيث يقضى ساعات بين زوجته وأطفاله - تحت الحراسة - ثم يعود إلى السجن !

تلك خلاصة الحقوق والضمانات التى منحتها الديمقراطية للشعب ، أو بالأحرى استخلصها الشعب لنفسه في ظل الديمقراطية ، والتى أصبحت اليوم هي مضمون الديمقراطية في نظر الغرب ^٢ .

وإذا نظرنا إلى حال « الشعب » في ظل الإقطاع فلا شك أن الديمقراطية - بالصورة التى صارت إليها - كانت نقلة كبيرة رفعت الشعب من حضيض « اللاشيئية » و« اللإنسانية » إلى أن يصبح له اعتبار ، ويعامل - في جانب من جوانب الحياة - معاملة الإنسان .

^١ « سنتكلم عن ذلك في مناقشة الديمقراطية

^٢ « سنتكلم عن مضمون الديمقراطية في نظر الشيوعيين حين نستعرض الشيوعية

وأى مقارنة بين الحاليين ستثبت على الفور هذه النقطة ، وستثبت أن الإنسان الأوربي ، الخارج من ظلمات الإقطاع ، قد استمتع في ظل الديمقراطية بجوانب مضيئة ماكانت لتخطر على باله من قبل ، وماكان يتصور وجودها إلا في أحلام الفلاسفة الحاليين^١

ولكن هذه الصفحة المضيئة ليست هي الصفحة الوحيدة للديمقراطية « الليبرالية » كما تسمى الديمقراطية الغرب . أى التى تقوم على حرية الفرد فى أن يعمل مايشاء ، تحقيقا للشعار الشهير الذى أطلقته الرأسمالية فى نشأتها « دعه يعمل مايشاء Laissez Faire ، دعه يمر من حيث يشاء Laissez Passer » والتى صورتها العامة هى الحرية السياسية وتعدد الأحزاب «^٢» إنما لها صفحة أخرى قائمة شديدة القنم . بمقدار ما تتلأأ هذه الصفحة بالنور . والتطبيق الواقعى للديمقراطية الليبرالية هو الذى يكشف سواتها ويحدد وزنها الحقيقى فى ميزان الحق .

حين نزلت الآية الكريمة . « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء » قال صلى الله عليه وسلم ماصدقنا إلا فى هذه ! أى صدقت كل واحدة فيما تقول عن الأخرى ، وإن كذبت فيما تدعيه لنفسها من فضائل وحسنات .

ويصدق هذا الأمر فيما بين الديمقراطية والشيوعية ، فإن كلا منهما تصدق فيما تقوله عن الأخرى وإن كذبت فيما تدعيه لنفسها من حسنات .

والشيوعية تقول فى هذا الصدد إن « الذى يملك هو الذى يحكم » وإن « الطبقة » التى تملك وتحكم تضع التشريعات لحسابها الخاص على حساب الطبقات الأخرى . وإنه فى الديمقراطية الليبرالية يكون المال فى يد الطبقة الرأسمالية فهى التى تملك ، ومن تم فهى التى تحكم ، وهى التى تضع التشريعات التى تحمى مصالحها ضد مصالح الطبقة الكادحة وهذه القولة صادقة إلى حد كبير .. وتوذك أن تكون صادقة كل الصدق لولا

« ١ » حين يطلق الشيوعيين على الديمقراطية الغربية وصف الليبرالية . فهم يفصدون به الدم لا المدح ويعنون به الديمقراطية التى يتمتع فيها الرأسماليون بصرية استغلال الطبقة الكادحة . وسندقق هذه النقطة بعد قليل

إن الطبقة الكادحة لم تستسلم تماما كما كانت قبل ثورتها على الإقطاع ، بل قاومت وقاومت وقاومت .. وحصيلة مقاومتها هي التي أحدثت الفرق بين وضعها في ظل الإقطاع ووصفها في ظل الرأسمالية .

ولكن تعال ننظر - رغم ذلك - إلى حقيقة الواقع ، ونسأل - بموضوعية كاملة - لصالح من تجرى الحياة في ظل الديمقراطية الليبرالية ، ومن هو المستفيد الأكبر ، ولا نقول كما تقول الشيوعية إنه المستفيد الوحيد .

لاشك أن الأمور تجرى - في عمومها - لمصلحة الرأسماليين ! ورغم كل التنازلات التي أكرهت الرأسمالية على تقديمها للشعب فما زال الغنم الأكبر في أيديهم ، والفتات في يد الجماهير .

لأنقول - كما تقول الشيوعية - إن المنتج الحقيقي هو العامل وإنه هو الذي يستحق وحده حصيلة الإنتاج ، فذلك مغالطة سنناقشها حين نناقش الشيوعية في الفصل القادم . ولأنقول كذلك - كما تقول الشيوعية - إن أصحاب رؤوس الأموال هم قوم لا عمل لهم إلا التطفل على دماء الكادحين ، بينما هم لا يستحقون منها شيئا على الإطلاق لأنهم لا يعملون بأيديهم ..

لأنقول هذا ولا ذاك .. ومع ذلك فلننظر إلى الفارق الضخم الذي يفرق بين دخول الرأسماليين ودخول العمال .. هل هو فارق طبيعي ؟ هل هو فارق عادل ؟ هل هو فارق لا يؤثر في القيم والمبادئ المتعلقة بإنسانية الإنسان ؟ كيف جاء هذا الفارق بادئ ذي بدء ؟ هل هو حقيقة نتيجة العبقورية الفظة التي خص الله بها الرأسماليين وحرم منها بقية عباد الله ؟ أم هي مغتصبة اغتصبا بوسائل غير مشروعة ؟

هل كانت الرأسمالية عادلة منذ البدء في تحديد أجور العمال ؟ أم كان تحديدها قائما على أسوأ نوع من أنواع الاستغلال ؟ وحتى حين خفضت ساعات العمل ورفعت الأجور بعد الصراع المرير الذي قام به العمال ، فهل حدثت العدالة الإنسانية الواجبة ؟

إن تضخم رؤوس الأموال ينشأ ابتداء من امتصاص دماء العمال وعدم توفيتهم أجورهم .. وقد يكون تحديد الأجر مسألة اجتهدية تختلف من وقت إلى وقت ومن حال إلى حال . ولكن له حدودا عامة لا ينبغي أن يخرج عنها ، وهي توفير « الحياة الكريمة » للإنسان الذي يبذل جهده ليعيش .

ويجىء تضخم رؤوس الأموال كذلك من إقامة الحياة كلها على الأساس الربوى الذى يمقته الله .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يحق لله الربا ويربى الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » ١ .

والذى قال عنه الدكتور « شاخت » الألمانى فى تقرير أعده فى الأربعينيات من هذا القرن إن نتيجته الحتمية هى تزايد رؤوس الأموال فى يد فئة يتناقص عددها على الدوام وزيادة الفقر فى عدد متزايد من الناس !

ويجىء تضخم رؤوس الأموال أيضا من إنشاء صناعات تافهة لايحتاج إليها الانسان الجاد الذى يعيش لأهداف جادة ، بل هى تفسد الأخلاق وتميع الطباع وتشغل الناس بالتفاهات بدلا من شغلهم بأفاق الحياة العليا .. وكل ذلك لأنها أكثر ربحا .. ولأن دورة المال فيها أسرع بكثير من دورته فى الصناعات الحقيقية التى تؤدى هدفا جادا فى حياة الإنسان .. كصناعة السينما وصناعة أدوات الزينة والتفنى فى « المودات » سواء مودات الملابس أو مودات الأثاث فى البيوت أو مودات السيارات فى الطريق .

تلك أدوات التضخم الرأسمالى أو هذه أبرزها .. فأياها أدوات طبيعية ؟ وأيها أدوات عادلة ؟ وأيها أدوات لا تؤثر فى إنسانية الإنسان ؟ ولايقول أحد : هذه هى الرأسمالية ، ولكننا نتكلم عن الديمقراطية ! فالواقع أنه لايمكن فصل هذه عن تلك !

إن هذه الديمقراطية - بمجالسها النيابية ، بممثلي الشعب فيها - هى التى تصدر القوانين التى تبيع للرأسمالية أن تتصرف على هذا النحو دون أن تتدخل فيها ، بل - فى الحقيقة - دون أن تجرؤ على التدخل فيها ! ومن ناحية أخرى فإن الرأسمالية هى الوجه الاقتصادى للديمقراطية الليبرالية، كما أن الديمقراطية الليبرالية هى الوجه السياسى للرأسمالية ! ولسنا نقول - كما تقول الشيوعية - إن الوضع الاقتصادى هو الذى

١ . « سورة البقرة [٢٧٥ - ٢٧٦]

يشكل الأفكار والعقائد والنظم والمؤسسات التي تتمشى معه وتخدم أهدافه . وإنما نقول - ونراه أدنى إلى الصواب - إن الوضع الاقتصادي والوضع السياسي (والوضع الاجتماعي كذلك كما سيجيء) كلها أوجه متناسقة مع النظام أو الفكرة التي تقوم عليها ، وكلها منبثقة من أصل واحد مشترك هو « الإنسان » مستقيماً أو منحرفاً ، وعلى أى نحو هو منحرف . فإما إن كان مستقيماً (أى على النهج الربانى) فهو يصوغ حياته : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والروحية . الخ على مقتضى المنهج الربانى ، وهو منهج متناسق فى جميع وجوهه ومتكامل بعضه مع بعض . وأما إن كان منحرفاً فبحسب نوع انحرافه تكون أوضاعه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والروحية .. الخ ، وتكون متناسقة مع لون الانحراف الذى يقع فيه ذلك « الإنسان » . فليس الاقتصاد هو الذى يصوغ السياسة ولا السياسة هى التى تصوغ الاقتصاد ، إنما هما معا - ومعهما بقية وجوه الحياة - يصوغها الإنسان متأثراً بنوع انحرافه .

والانحراف الذى يتخذ الرأسمالية وجهه الاقتصادى ، والديمقراطية الليبرالية وجهه السياسى ، والتفكك الاجتماعى (كماركسي) وجهه الاجتماعى ، هو أولا انحراف عن شريعة الله ومنهجه المنزل لإصلاح الحياة وإقامتها بالقسط ، وهو من جهة أخرى انحراف الفردية الجامحة التى تريد أن تفعل ماتشاء: Laissez Faire, Laissez Passer (دعه يفعل مايشاء، دعه يمر من حيث يشاء!) هذه الفردية الجامحة تأخذ فى الاقتصاد صورة الرأسمالية ، وتأخذ فى الاجتماع صورة المجتمع المفكك الروابط المنحل الأخلاق . وهى انحرافات متناسقة بعضها مع بعض ، متكاملة بعضها مع بعض ، ولا يمكن فصل بعضها عن بعض !

فالذين يقولون نأخذ الديمقراطية صورة سياسية وليس من الضروري أن نأخذ معها الرأسمالية الجامحة هم واهمون فى محاولة فصل وجه من هذا النظام عن وجه آخر .. أو هم يتحدثون عن شيء آخر غير الديمقراطية الليبرالية لانعلم صورته على وجه التحديد !

ومهما يكن من أمر فإن الديمقراطية الليبرالية - الموجودة بالفعل ، لا المتخيلة فى الأذهان - هى هذه التى تحتفى بها الرأسمالية وتلعب لعبتها من خلالها . وسنتكلم فى الصفحات القادمة عن أبعاد اللعبة كلها التى تتم من وراء

الصورة السياسية المتمثلة في الديمقراطية الليبرالية ، ولكننا نقرر هنا حقيقتين تبدوان متناقضتين في الظاهر ولكنهما في الحقيقة غير متناقضتين إذا أنعمنا النظر فيهما :

الأولى . أنه من خلال النظام الديمقراطي نال « الشعب » ما ناله من حقوق و ضمانات :

والثانية : أن الرأسمالية هي صاحبة الهيمنة وصاحبة التشريع من وراء اللعبة الديمقراطية بأكملها .

ولإزالة التناقض الظاهري بين الحقيقتين نقول أولا : إن الشعب نال ما ناله من الحقوق من خلال صراعه وكفاحه ودأبه في إخراج الرأسمالية واقتناص الحقوق وال ضمانات منها ، فهو ينتزعها منها انتزاعا وهي تتنازل عنها كارهة ومكرهة . وإن يقظة الشعب بدأت منذ ثار على الإقطاع . وليس منذ اتخذ الديمقراطية ! بل الديمقراطية هي ثمرة ثورته فهي نتيجة لاسبب .

ونقول ثانيا : إنه على الرغم من ذلك فقد تركت الرأسمالية الثوب - ثوب الديمقراطية - يلبسه الشعب ، ونفذت هي إلى مصالحها من خلاله ، فنالت كل ماتريد من تشريعات تحمي مصالحها وتتيح لها أن تقوم بكل مظالمها ! فإذا كانت قد اضطرت للتنازل عن بعض المصالح تحت ضغط الشعب ، فهي من جهة قد تنازلت عن فتات لا يؤثر تأثيرا حقيقيا في مصالحها ، فماتنازلت عنه هوقطرات من فائض أرباحها ، وماتزال أرباحها تتزايد بصورة جنونية ! وهي من جهة أخرى قد تنازلت عن هذا الفتات لأنها لم تأمن على نفسها إذا ظلت في موقف التصلب أن تفقد ثروتها كلها وكيانها كله ! ففى نظرها هي أنها الفت للكلاب الجائعة بلقيمت تلهيها بها خوفا من أن تأكلها الكلاب ! فخوفا من الشيوعية تنازلت الرأسمالية الغربية عما تنازلت عنه ، وخوفا من أن تدمر الإضرابات كل الأرباح !

فلا تناقض إذن بين الحقيقتين ، والرأسمالية هي صاحبة النظام كله وهي المستفيد الأول منه ، ولا عليها أن يتزيسا الشعب بزى الحرية .. أو الحرية والإخاء والمساواة « ٨ » !

١٦ « يقول البروتوكول الأول إن هتافنا بكلمات - الحرية والمساواة والإخاء - مع جهود دعائنا المسخرين احتدب في كل أنحاء العالم جيوشا حارقة من البتر حملت أعلاما بكل محر وحماسة في حين أن هذه الكلمات الساحرة كانت سوسا ينخر في كيان سعادة الأميين ، ومعول هدم للأمن والسلام والوحدة لديهم - (تعريب أحمد عبدالغفور عطارد)

ويتنظر في هذه الحرية على حقيقتها ..

لاشك أن الفرد في الديمقراطية الليبرالية حر حرية كاملة كما يبدو (في الظاهر) في أن يتخذ قراره دون ضغط من أحد ، وأن يعبر عن رأيه بحرية ، وأن يدعو لرأيه بكل وسائل الدعاية ، وأن يختار المرشح الذي يمثله في البرلمان والذي يشرف على أعمال الحكومة ويهيمن على تصرفاتها ..

ولكن دعنا نتأمل الحقيقة الكامنة وراء هذا الظاهر فمن الذي يصوغ لهذا الفرد أفكاره ، أو - من زاوية أخرى - من الذي يشكل « الرأي العام » الذي يوجه هذا الفرد لاتخاذ قراره !

إنها وسائل الإعلام ! الصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون والخطبة والمحاضرة والكتاب .

ودعك - مؤقتا - من أن وسائل الإعلام تشرف عليها اليهودية العالمية وتوجهها الوجهة التي تخدم مصالحها ، فلنا عود إلى هذه النقطة في مكان آخر من هذا الفصل .

إنما نقول - مؤقتا - إن الذي يملك وسائل الإعلام هو الرأسمالية (بصرف النظر عن ملتها !)

إن الصحافة - وقد كانت وما تزال من أشد وسائل التأثير - لاتستطيع أن تعيش بلا معونة خارجية . فهي تتكلف بالفعل أضعاف الثمن الذي تباع به للجمهور . والثمن الذي تباع به للجمهور لا يصل كله إلى أصحاب الصحيفة فهناك في الوسط وسيطان اثنان على أقل تقدير هما الموزع العام الذي يتكفل بأخذ مجموع النسخ المطبوعة وبيعه للبائع الصغير (أى الذى يبيع مجموعة صغيرة من النسخ) ، ثم هذا الموزع الصغير الذى يبيع للجمهور .. فإذا تصورنا جدلا أن ثمن النسخة للجمهور هو مائة وحدة فإن خمسين وحدة على الأقل إن لم يكن أكثر يتقاسمها هذان الوسيطان ، والباقي هو الذى يرد إلى الصحيفة مع « المرجوع » أى النسخ التى لم يتم توزيعها ولاعائد لها على الإطلاق .. فكيف تغطى الصحافة تكاليفها ثم تربح فوق ذلك أرباحا طائلة ؟

إنها تعتمد - أساسا - على الإعلانات ثم على الإعانات من أى طريق تجيء ..

والإعلانات - بطبيعة الحال - في يد الشركات والمؤسسات الصناعية أى في يد الرأسمالية . ومن ثم فإنه يكفى لقتل أى صحيفة « حرة » أى طويلة اللسان تتجرا على المصالح الحقيقية للرأسمالية ، أن تمنع عنها الإعلانات فتسقط في

هاوية الاغلاس ! ولا ضير في الوقت ذاته على الرأسمالية من مناقشات سطحية في الصحف تنتقد كما تشاء دون أن تصيب الجذور ! بل هو أمر في صالح اللعبة في نهاية المطاف !

فإذا كانت الصحافة - التي تؤثر التأثير الأكبر على « الرأي العام » - واقعة في قبضة الرأسمالية إلى هذا الحد ، فلنا أن نتوقع أن تكون الأفكار التي تصوغها ونشرها هي ماتريده الرأسمالية ، أو في القليل هي ما لا يتعارض مع المصالح الحقيقية للرأسمالية . ومثل الصحافة بقية وسائل الإعلام فهي واقعة بصورة أو بأخرى في ذات القبضة الشريرة التي توجه الأفكار وتشكل المواقف للناس !

ولنأخذ ثلاثة نماذج مختلفة من طريقة تشكيل « الرأي العام » في مسألة سياسية ، ومسألة اجتماعية ، ومسألة اقتصادية تخدم كلها مصالح الرأسمالية ويبدو فيها « الرأي العام » كأنما تشكل من تلقاء نفسه واتجه إلى الوجهة التي اتجه إليها !

لنفرض أن المطلوب هو إشعال حرب في مكان ما على سطح الأرض . وهو أمر يهم الرأسمالية من جميع الوجوه المتخيلة ! وأولها بيع السلاح الذي يدر على صانعيه أرباحا خيالية (ونصرف النظر - مؤقتا - عن أن تجار السلاح في العالم من قديم الزمان هم اليهود) « ١ » ! فكيف يهيأ « الرأي العام » لتقبل الحرب أولا ، ثم التحمس لها ثانيا ، ثم المطالبة بها أخيرا !

تبدأ الصحف - وكذلك وسائل الإعلام - في نشر أخبار قصيرة مثيرة تثير عند الغافلين - والرأي العام دائما غافل - نوعا من التطلع والانتباه . ثم يزداد في طول الخبر ويؤتى بمزيد من التفاصيل .. ثم يصبح الموضوع هو الحديث اليومي في الصحافة والإذاعة والتلفزيون .. ثم يزداد في نفمة الإثارة حتى تشحن النفوس بالوقود .. ثم تأخذ الصحافة في استطلاع « الرأي العام » (كأنما لم تكن هي التي وجهته) فإذا الرأي العام متحمس ! إذن لابد من مطالبة الحكومة بالتحرك ! وإذن تبدأ الحكومة في الإعداد .. ثم تنطلق شرارة الحرب ، ويباع السلاح ، وتتحقق الأهداف المطلوبة من وراء « المشروع » !

١ . من أجل ذلك هم دعاة الحروب دائما .. يقول سبحانه وتعالى « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » [سورة المائدة : ٦٤]

ففى الحرب العالمية الثانية التى امتدت فشملت معظم أرجاء الأرض ، وقتل فيها أربعون مليوناً من الشباب فى ميادين القتال غير الذين قتلوا من الرجال والنساء والأطفال بعيداً عن ميادين الحرب بالقنابل المدمرة ، وغير الذين قتلوا بتأثير القنابلتين الذريتين اللتين ألقيتا فى نجازاكى وهيروشيما .. بدأت صحافة الحلفاء (أى الديمقراطيات فى غرب أوروبا وفى أمريكا) تتكلم عن هتلر واستعداداته الحربية والأزمات التى يثيرها (وخاصة أزمة ممر دانزج التى اعتبرت الشرارة الأولى للحرب) . وبدأت تكتب عن النازية وعن النظم الدكتاتورية وعداوتها للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان .. وأن على الديمقراطيات التى تشكل « العالم الحر » أن تؤدب هذا الطاغية الذى يندربشر مستطير لجميع البشرية !

ومانريد أن نتحدث هنا عن « الحق » فى أى جانب كان .. فقد كان كل ماتقوله صحافة « العالم الحر » عن هتلر والنازية والدكتاتورية حقاً ، وكان هتلر بالفعل طاغية جباراً يريد إذلال العالم وإخضاعه لسلطانه ، ويصدر عن جنون عنصري مرتكز على أفضلية الجنس الآرى وجدارته بأن يحكم العالم كله ! ولكن مافضل « الحلفاء » عليه ؟ أليسوا هم مثله طواغيت - كانوا - يحكمون العالم كله يومئذ ويدلون به باسم حضارة « الرجل الأبيض » وجدارته أن يحكم كل شعوب الأرض ؟ وماذا يملك الرجل الأبيض من المقومات الحقيقية التى تؤهله لذلك السلطان وتجعله وقفاً عليه وحده لا يشاركه أحد فيه ؟

فقد كان إذن ماتقوله صحافة الحلفاء (وإذاعتهم) حقاً بالنسبة للنازية وهتلر ، أما ماكانوا يدعونه لأنفسهم من أنهم هم حماة الحرية وحماة حقوق الإنسان ، فقد تبين كذبه كله عقب الحرب مباشرة حين خرج الحلفاء منتصرين من الحرب فضربوا بكل وعودهم للشعوب عرض الحائط ، بل قالوا لهم فى تبجح : لقد حميناكم من النازية فادفعوا ثمن الحماية .. وثمنها أن يكونوا خاضعين لهم يدورون فى غلكهم ويخدمون مصالحهم .

على أى حال فنحن ننتبع معالجة الصحافة والإذاعة للأمر .. لقد كان المطلوب تهيئة « الرأى العام » للحرب ، ولأمر آخر لا يقل خطراً .. هو إنشاء دولة إسرائيل ..

فلتكتب الصحافة إذن - وجميع وسائل الاعلام المتاحة - عن «لغيان هتلر ، وعن وحشيته فى إبادة اليهود وتعذيبهم .. حتى يشحن « الرأى العام »

ويصبح مستعداً للحرب بعد إذ كان نافراً منها أشد النفور .. وحتى يعطف على قضية اليهود بعد إذ كان كارها لهم أشد الكره !
وشيناً فشيناً يصبح حديث الحرب أمراً عادياً ، بل يتحمس الناس للحرب ويضغطون على حكوماتهم أن تدخل الحرب تأديباً للطاغية الذي يستحق التأديب ، والذي إذا ترك وشأنه خرب الأرض ودمر مقومات الحضارة !
وشيناً فشيناً يتعاطف الناس مع اليهود الذين يعذبهم النازي ويحرقهم أحياء في الأفران « ١ » ويصبح « الرأي العام العالمي » مهياً للدعوة التي تجيء بعد ذلك بضرورة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين « ٢ » !
ثم يشتد الحماس حتى تدخل كل دول الغرب في الحرب ، ويشتد التعاطف مع اليهود حتى يصبح العرب في نظر العالم مجرمين إذا أبوا أن يتنازلوا عن أرضهم وديارهم لشعب الله المختار !

ولنفرض أن المطلوب هو تفكيك روابط الأسرة ونشر الفساد الخلقي وتحريض المرأة ضد قوامة الرجل عليها .

تبدأ الصحافة بمهاجمة الزواج المبكر وذكر مضاره !
إن كلا من الزوجين يكون قليل الخبرة بالجنس الآخر نتيجة عدم الاختلاط ، ثم قليل الخبرة بالحياة لصغر السن وقلة التجربة ، ثم قليل الخبرة بتربية الأولاد .. الذين يجيئون في أول عهد الزواج فتسوء تربيتهم ! لذلك يلزم تأخير سن الزواج مع إباحة الاختلاط حتى يتحقق التعارف بين الجنسين واكتساب الخبرة اللازمة للزواج ، ويتأخر مجيء الأولاد حتى تزداد الخبرة فتحسن تربيتهم !

ثم يظل الحديث عن ضرورة الاختلاط يلح على الناس حتى يتكون « رأى عام » موافق على الاختلاط بعد إذ كان معارضا له ، ثم يظل الحديث يلح على الناس حتى يتحمسوا له ، ثم يظل الحديث يلح على الناس حتى يبلغ الحماس للاختلاط أن يتهموا كل معارض له بالرجعية والتخلف والجمود والتأخر

١ . اتضح فيما بعد أن حوادث التعديب كانت قليلة جدا . وإن الصحافة العربية هولت فيها تهويلا صحما مقصودا لخدمة أهداف معينة بل تقول كاتبة ألمانية من أصل يهودي إن اليهود هم الذين دفعوا متلر دفعا إلى إيقاع هذا التعديب عليهم ليستغلوه في الدعاية لقضيتهم وهي الاستيلاء على فلسطين بحجة أنهم شعب مشرد مصطهد ولاند له من وطن

٢ . يقول وليم كار في كتاب الأحجار إن اليهود أحجوا الحرب كلها من أجل إنشاء وطن لهم وكلامه في هذه النقطة فيه حق كثير

ويهددوه بأن عجلة التطور ستسحقه وتقضى عليه !

ثم يقال للمرأة إن الزواج الباكر والانجاب الكثير يفسد رشاققتها ! ويقتل حيويتها ! ويمنعها من مشاركة الرجل في إدارة شئون المجتمع ! وتظل الصحافة (ووسائل الإعلام الأخرى) تلح على هذا الأمر حتى تخرج المرأة من فطرتها وتنظر إلى الزواج على أنه قيد يعوقها ! وإلى الإنجاب على أنه عدو يفسد جمالها ورشاققتها ، وإلى البيت والانشغال به على أنه إهدار لطاقتها بل إهدار لكرامتها ! وبعد أن كانت - كما هو مركز في فطرتها - تفرح بصيحة الطفل لأنها تحقيق لرسالتها وإثبات لانوثتها المتمثلة في الاستعداد للحمل والإنجاب ، صارت تمقت صيحة الطفل ، وتكره البيت ، وحتى إن تزوجت تستخدم موانع الحمل لتحافظ على رشاققتها .

ثم يظل تأثير الصحافة ووسائل الإعلام عليها حتى ترى أن من حقها أن « تستمتع » بالحياة استمتاعاً حراً دون أن يفرض على استمتاعها قيد خلقى أو اجتماعى أو من أى نوع . فمن حقها أن تمارس الجنس في حدود الصداقة مع الرجل دون أن ينشأ عن ذلك بالضرورة زواج أو أسرة .. ومن حقها أن تؤخر الزواج حتى تشبع من الاستمتاع الحر .. ومن حقها أن تؤخر الانجاب حتى تشبع من العمل خارج البيت، ومن الرشاقة في الحفلات وحلقات الرقص .

ويصبح ذلك كله من مقررات « الرأى العام » النسائى على الأقل ، بل النسائى والرجالى كذلك .. (أى من مقررات العقل الجمعى) ! ويصبح المعارض لذلك هو المجنون الأبله ، وهو المتحجر على أوضاع عفى الزمن عليها ولا يمكن أن تعود !

ولنفرض أن المطلوب هو ترويج عملية ربوية كعملية التأمين على الحياة . تظل الصحافة - ووسائل الإعلام الأخرى - تقص القصص عن أحوال الأسر التى تصيبها كوارث ، حتى توقظ مشاعر الناس لهذه الحالة المنتشرة في المجتمع (ولا يذكر بطبيعة الحال أن تفكيك الأسرة وتفكيك روابط المجتمع في المجتمع الصناعى الرأسمالى كانت هى السبب في وجود هذه الحالة وانتشارها ، لكى لا يتنبه الناس إلى المكر الماكر المحيط بهذا الشأن من أوله إلى آخره . ولكى لا يتنبهوا أن الحل الحقيقى هو إيجاد التكافل الاجتماعى سواء داخل الأسرة أو

داخل المجتمع أو بتكليف الدولة أن تقوم بكفالة من لا كافل له) « ١ » ثم تروج الصحافة من جانب آخر لشركات التأمين و « الخدمات الجليلة » التي تقوم بها ، وعن حالة الأسر التي أخذ عائلها بنظام التأمين ، فصارت مستقرة لاتتهزها الأعاصير !

ويظل إلحاح الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى حتى يصبح الأمر حقيقة منتهية لاجدال فيها ، أن التأمين لدى شركات التأمين واجب على كل إنسان بعيد النظر ، وأنه ضرورة لا غنى عنها في العالم الحديث ! ولا يتحدث أحد عن الأرباح الخيالية التي تربحها شركات التأمين الربوية من الناس ! ولا يتحدثون عن الأقساط الربوية التي يدفعها المؤمنون .. ويصبح ذلك كله أمرا واقعا في المجتمع ، بل يصبح أمرا « روتينيا » يأتيه كل إنسان دون أن يفكر على الإطلاق أنه كان يمكن أن يكون هناك بديل ، أو أنه يجب أن يكون هناك بديل .. ويكون هذا هو « الرأي العام » في هذه القضية أو هو العقل الجمعي الذي يضع للناس مقررات الحياة « ٢ » !

إذا كانت هذه هي طريقة تشكيل « الرأي العام » الذي تعتمد عليه الديمقراطية - في ظاهرها على الأقل - فكيف تكون الديمقراطية هي حكم الشعب على الحقيقة ؟!

إن الرجل العادي - الذي يسمونه « رجل الشارع » كأنه لا بيت له ولا انتماء له ١ - مشغول بأحواله المعيشية الخاصة عن النظر الحقيقي في الأمور العامة وتكوين رأى مستقل فيها . وذلك لسببين ، أحدهما عام لا يختص ببيئة معينة ولا زمن معين ، هو أن الأغلبية الكبرى من الناس لاتحب أن تشغل نفسها بالأمور العامة ولاتصبر على التعمق فيها، وليس عندها الأدوات المعينة على ذلك من تفقه وتدبر وبعد نظر وإحاطة بالأسباب والنتائج ، فتحب أن تترك هذه الأمور لفئة معينة من الناس ، تثق فيها وتكل إليها هذه المهمة الخطيرة . والسبب الثاني خاص بهذه الديمقراطية الليبرالية بالذات ، أو هو في الحقيقة خاص بالجاهليات جميعا ولكنه في هذه الجاهلية التي يشرف اليهود على

١ . هذا هو النظام الرباني الكفيل بالمحافظة على ترابط الأسرة وترابط المجتمع ، والذي يقيم « بيت مال » للمسلمين يكفل من كان منهم في حاجة إلى كفيل

٢ . إلى حد أنه في العالم الاسلامي ذاته يحارب من يقول إن التأمين - بمصورته الربوية الحالية - حرام ودين الله ' ويتهم بالجهل أو الحمور ' !

توجيهها اشد ، وهو التلهية الدائمة لرجل الشارع هذا عن أن يلتفت إلى الأمور العامة بنظر مستقل وفكر متفحص ، عن طريق شغله بأمور معاشه من جهة وأمور لهُوهِ و« استمتاعه » من جهة أخرى . نقول إن هذا موجود في الجاهليّات جميعا ، حتى يتفرغ أصحاب السلطان لسلطانهم دون تدخل من يقظة الجماهير ، التي قد تتيقظ فتطالب بحقوقها المسلوبة ، التي يعيش - من سلبها - أصحاب السلطان ، ولكنه في هذه الجاهلية أشد ، لأن اليهودية - أو إن شئت قل الرأسمالية - تشغل الناس شغلا دائما بأمور المعاش لكي تربح هي ربحتها الفاحش ، فالיום التلاجة وغدا السيارة وبعد غد تغيير السيارة لأن الجديدة أكثر أناقة أو فيها زر إضافي ليس في السابقة ! كما تشغلهم باللهو الدائم فالיום السينما وغدا المسرح وبعد غد حلبة الرقص وبعده النزهة الخلوية .. والليلة موعد مع الصديقة وبعدها صديقة أخرى أو حفل جنسى صاخب .. وهكذا ، لتربح الرأسمالية - أو قل اليهودية - أرباحا مركبة : ربح المال ، وربح إفساد الأميين ، وربح تلهيتهم عما يدور حولهم من أمور ، ليخطط المخططون وهم في مأمن كامل من يقظة الجماهير !

إذا كان الحال كذلك على الحقيقة فأين هو « الراى العام » الحقيقى الذى يوجه السياسة فى الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ؟ ! إنه فى الحقيقة أصحاب رؤوس الأموال .. هم الذين يرسمون السياسة ، وهم الذين يشكلون « الراى العام » عن طريق الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى ، فيصوغونه على النحو الذى يريدون .. النحو الذى يحقق مصالحهم فى النهاية ، ولا بأس أن يترك شيئا من الفتات « للشعب » حتى لا يتحول إلى كلاب جائعة تهدد المكتنزين ! حقيقة إن هناك نوابا وتمثيلا نيابيا وهناك برلمان يقول فيه من أراد كل ما يريد أن يقول .

ولكن من هم النواب فى حقيقة الواقع ؟

هل يتاح لأى إنسان أن يصل إلى البرلمان ويوجه الأمور من هناك ، كما هى الصورة النظرية للديمقراطية ؟

إن المعركة الانتخابية فى حاجة إلى تكاليف لا يقدر عليها إلا الأغنياء من الناس ، ومتى كان هو من طبقة الأغنياء فما الذى يجعله يفكر فى « طبقة » المساكين ؟ إنهم ليسوا فى نظره مساكين ، إنهم من جهة أولئك « الأعداء » الصاسدون لما فى يده من النعمة ، الطامعون ، الذين يريدون أن ينهبوه

وينتقصوا أرباحه ! وهم من جهة أخرى أولئك « الطفيليون » الذين لا يحسنون شيئاً ويطمعون في كل شيء ، « الأغبياء » الذين وقف بهم غباؤهم عن أن يصعدوا إلى القمم التي وصلوا هم إليها ..

وحقيقة إن هناك من الفقراء ومتوسطى الحال من يرشحون أنفسهم وينجحون في الانتخابات .. ولكن كيف يصلون إلى هناك ؟ إنه لابد من أحزاب تحملهم وتحمل عنهم عبء المعركة الانتخابية وهو عبء باهظ .

فإذا دخل الإنسان الحزب فقد تغيرت أحواله كلها وأصبح إنساناً آخر .. أصبح « محترفاً » في عالم السياسة ، وهو وحزبه في أحد حالين لا ثالث لهما ، وفي أحد موقفين : إما أن يكون حزبه في الحكم فهو ملتزم بتأييد الحكومة في كل ما تصنع ، سواء كان في دخيلة نفسه مقتنعاً بما تفعل أو غير مقتنع . وإما أن يكون حزبه في المعارضة – أى خارج الحكم – فهو ملتزم بمعارضة الحكومة القائمة في كل ما تصنع (إلا أن تكون « مصلحة عامة » أى يستفيد منها الراسماليون جميعاً !) سواء كان في دخيلة نفسه مقتنعاً بالمعارضة أو غير مقتنع !

وهكذا تسمع صيحات العدل . والقيم . والمبادئ . والإنسانية .. الخ . من الحزب المعارض طالما هو في المعارضة ، فإذا وصل إلى الحكم سلك ذات السلوك الذى كان ينتقده ويندد به من قبل ! وصار الدور على الحزب المعارض – الذى كان في الحكم من قبل – لينتقد من الحكومة القائمة ذات الأعمال التى كان يسوغها لنفسه وهو في الحكم، ويتصايح بدعوى الإنسانية والعدالة والقيم والمبادئ !

ومن الأمثلة الواقعية – المضحكة – أن حزب العمال في بريطانيا ظل وهو في المعارضة ينادى بضرورة زيادة أجور العمال ، فلما وصل إلى الحكم رفض أن ينفذ ما كان يدعو إليه وهو في المعارضة – أو عجز عن تنفيذه ! – وسلك ذات السلوك الذى كان يعيبه من قبل على حزب المحافظين، وهو تجميد الأجور خوفاً من التضخم !

وصحيح أن هناك « أحرارا » يصلون إلى البرلمان ، ويقولون قولة الحق ، وينتقدون بجرأة ، ويطالبون بحقوق أصحاب الحقوق ، ولكن كم عدد هؤلاء ؟ وما وزنهم في المجالس النيابية ؟

إن القرارات تؤخذ بالأصوات . ولا ضير في المبدأ في ذاته فهو مبدأ عادل .

ولكنه صالح حين يكون أصحاب الأصوات من العدول لا حين يكونون من أصحاب الأهواء ، فأما حين يكونون من أصحاب الأهواء ، الملتزمين بالمعارضة أو الملتزمين بالتأييد بحكم موقف الحزب الذى يتبعونه ، فعندئذ تضيق أصوات القلة من الأحرار فى وسط أصوات الكثرة من المزيفين ! وتنفذ مصالح الرأسمالية كلها من خلال اللعبة الهائلة ، لعبة الحرية والديمقراطية والتمثيل النيابى والبرلمان ! إلا الفتات الذى يتساقط فى الطريق ، أو يسقط عمداً للتلهية ، أو يسقط تحت الضغط الشديد !

أما « الحرية » الحقيقية التى تتيحها الديمقراطية وكأنا أنشئت من أجلها ، فهى « الحرية الشخصية » : حرية الإلحاد وحرية الفساد الخلقى ! هنا يلتقى الجميع : المعارضون والمؤيدون والشعب والرأسماليون ، والحكام والمحكومون !

إن الديمقراطية الليبرالية تقيد الحرية حيث ينبغى أن توسع ، وتوسعها حيث ينبغى أن تضيق !

فحين تمس مصالح الرأسمالية فلا حرية على الإطلاق ! ويذكر الناس جميعاً قصة مقتل كنيدي رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، حين قتل فى عام ١٩٦٣م لأنه وقف فى طريق مصلحة من مصالح الرأسمالية ، ثم لعبَ بقضيته لعباً بحيث لا تنكشف الحقيقة ولا يوقع على المجرمين الجزاء !

فقد كانت سياسة الرأسمالية يومئذ - أو قل سياسة اليهود المشرفين على توجيه الجاهلية المعاصرة - هى وضع العالم على « حافة الحرب » من أجل تنشيط صناعة السلاح وبيعه ، وهى - كما قلنا - من أرباح الصناعات بالنسبة إليهم . ولكن كنيدي كانت له نظرة أخرى مختلفة ، ينطلق فيها من مصلحة الولايات المتحدة التى هو رئيسها المنتخب لتحقيق مصالحها .. فقد كان رأى كنيدي أن المصلحة القومية للولايات المتحدة تقتضى تهدئة الأحوال العالمية ، لئلا يوجه الإنفاق إلى رفاهية الشعب الأمريكى بدلاً من توجيهه إلى صناعة الحرب التى لا عائد منها على الشعب .. لذلك سعى إلى مصالح الاتحاد السوفيتى والاتفاق معه على تهدئة الأحوال العالمية ، وخطا بالفعل خطوة نحو إشاعة السلام ، فمد يده إلى خروشوف الزعيم الروسى القائم بالحكم يومئذ لفتح باب المحادثات التى تؤدى إلى توطيد السلام ، وخطا خروشوف من جانبه خطوة فقبل أن يدخل فى محادثات السلام .

ورغم أن هذا كان تصرفا حكيما من وجهة النظر الأمريكية البحتة ، فضلا عما فيه من إراحة أعصاب العالم من الخوف الدائم من نشوب الحرب ، فإن الرأسمالية الأمريكية ذاتها (أو قل اليهودية) لم توافق عليه لأنه ضد مصالحها الذاتية . لذلك أنشأت إضرابا طويلا في مصانع الصلب على سبيل الإنذار (مع أن هذا الإضراب يضر المصالح المؤقتة للرأسمالية ولكنه يؤدي إلى كسب أكبر بالضغط على كنيدي ليرك سياسة التهدئة التي كان يقوم بها بالاتفاق مع خروشوف) فلما لم يأبه كنيدي بالإنذار، ومضى في سياسته، هددوه مرة ثانية بإضراب آخر في مصانع الصلب استمر مدة أطول من الأولى ! ولما لم يرضخ بعد هذا الإنذار الشديد، وأصر على السياسة التي رآها أكثر تحقيقا لمصالح الشعب الأمريكي - فضلا عن إراحة العالم من الخوف - قرروا أنه لا بد من التخلص منه بإجراء أشد ، فقتلوه ! قتلوه وهو ليس فردا عاديا من أفراد الشعب ، بل هو رئيس الجمهورية المنتخب برضا الشعب ، والمسئول عن مصالح الشعب الأمريكي كله ! قتلوه ثم لعبوا بالتحقيق ، فلم يجد رئيس الجمهورية المقتول ضمانات التحقيق التي تحفظ حقه - وإن كان قتيلا - في أن يؤخذ له القصاص من قاتله ! ولم تُجد الديمقراطية كلها نفعا في إقامة العدل في قضية من القضايا الخطيرة في التاريخ الحديث .. ومضت القصة كلها كأنها حادث عادي لا يثير الانتباه ولا يستحق الاهتمام ' وطوى التحقيق .. ولما تصل العدالة إلى غايتها حتى اليوم وقد مضى أكثر من عشرين عاما على الحادث العجيب !

وتلك هي الديمقراطية حين تُمس المصالح المباشرة للرأسمالية . وما كانت مصالح مشروعة حتى نقول إن الذي وقف في سبيلها كان يستحق الانتقام منه بأية صورة من الصور ، إنما كانت مصالح جشعة مجرمة ، تريد أن تضع العالم كله على حافة الحرب لكي تربح هي من وراء ذلك الربح الحرام .. وفي سبيل ذلك تلغى كل ضمانات الديمقراطية وكل « الحرية » الزائفة التي يتغنى بها الديمقراطيون !

أما حين يكون الأمر مختصا بالفساد فهنا الحرية بلا ضابط ولا حساب ! حرية الإنسان في أن يلحد حرية مكفولة بالقانون !

فرغم أن الدولار الأمريكي مكتوب عليه « نثقنا في الله In God We Trust » إلا أن القانون ينص على حرية العقيدة . والحرية معناها أن من شاء أن يلحد

ويعلن إلحاده على الناس ويدعو إلى الإلحاد ويسخر من القيم الدينية كلها ومن عقيدة الألوهية ذاتها فمن حقه أن يفعل .. الإتحريج عليه ولا تريب ! !
وحرية الانسان في أن يفسد حرية مكفولة بالقانون !

فالسلوك الجنسي مسألة خاصة إلى أبعد حدود الخصوصية لا يتدخل القانون بشأنها أى تدخل إلا في حالة واحدة هي جريمة الاغتصاب لأنها تقع بالإكراه لا بالاتفاق . أما أى علاقة - على الإطلاق - تقع بالاتفاق فلا دخل للقانون بها ولا دخل للمجتمع ولا دخل لأحد من الناس .. فسواء كانت هذه العلاقة سوية أو شاذة ، وسواء كانت مع فتاة لم تتزوج أو مع امرأة متزوجة ، فهذا شأن الأطراف أصحاب العلاقة وليس شأن أحد آخر ..
والغابات والحدائق العامة مسرح لكل ألوان السلوك الجنسي فضلا عن النوادي والبيوت .. كلها ماخور كبير يعج بالفساد الذى يحميه القانون .. قانون الديمقراطية !

ومن سنوات عقد في الكنيسة الهولندية عقد « شرعى ! » بين فتى وفتى على يد القسيس ' ومن سنوات اجتمع البرلمان الانجليزى « الموقر ! » لينظر في أمر العلاقات الجنسية الشاذة ، ثم قرر أنها علاقات حرة لا ينبغي التدخل في شأنها ، كما أعلن أسقف كانتربرى وهو رئيس الاساقفة في بريطانيا أنها علاقات مشروعة !!

ومن سنوات كذلك عرض على المسرح الأمريكى - وفي التلفزيون - مسرحية تشكل العملية الجنسية بكاملها جزءا منها ، ورأى المشاهدون - أو هم ذهبوا ليروا - رجلا وامرأة يقومان بالعملية الجنسية أمام أعينهم ، ونقلت الصورة - حية - على شاشة التلفزيون .

ومن سنوات كذلك قام في التلفزيون البريطانى حوار جنسى اشترك فيه عشرات من الفتيات الصغار ، وكان موضوع الحوار هو سؤالهن عن الوضع الذى يفضلنه في العملية الجنسية ، وأجابت الفتيات بصراحة وقحة يقشعر منها أبدان الذين في نفوسهم أى قدر من الحياء الفطرى .. أما « المرأة » فهى تتحدث دون حياء !

ولا يقولن أحد إن هذه هي المخططات اليهودية ونحن إنما نتحدث عن الديمقراطية !

إنه لا انفصال بين هذه وتلك !

الديمقراطية بتمثيلها البرلمانى، بوسائل إعلامها، بقواعد « الحرية » التى تقوم عليها ، هى التى تبيح ذلك كله ، وتجعله ضمن دائرة الحرية الشخصية ، وتحميه بكل وسائل الحماية ، وتعطيه الشرعية الكاملة .

فمن أراد نظاما ليس فيه هذا كله فهو على وجه اليقين يريد شيئا غير الديمقراطية الليبرالية كما هى مطبقة فى عالم الواقع ، يريد شيئا لا واقع له بعد ، ولا نعلم على وجه اليقين كيف يكون !

إن الحرية التى تمنحها الديمقراطية الليبرالية هى حرية الحيوان لا حرية الإنسان « ١ » .

ولقد أراد « الثوار » الذين ثاروا فى وجه الطغيان الإقطاعى أن يحرروا « الإنسان » من العبودية التى كانت تستذله وتهبط به عن الوضع الذى يليق بالإنسان .

ولكن اليهودية العالمية التى سيطرت على المجتمع الصناعى منذ مولده أرادت شيئا غير ذلك . « فالإنسان » بالذات هو عدوها الذى ترهبه ، وعدوه الذى تريد أن تقضى عليه . وسنحت لها الفرصة فحققت حلمها القديم فى استعمار الأمميين وتسخيرهم لشعب الله المختار .. فمسخت أدمية أولئك الأدميين وحولتهم إلى أولئك الحمير ..

فما الإنسان بغير عقيدة ؟

وما الإنسان بغير أخلاق ؟

فأما بغير عقيدة فقد قال عنهم الخالق تبارك اسمه : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » « ٢ »

وأما بغير أخلاق ولا قيم خلقية ، فالحيوان وحده هو الذى يعيش بغير قيم خلقية لأنه ليس له إلا طريق واحد لا اختيار له فيه ، فلا يوصف عمله بأنه أخلاقى أو غير أخلاقى ، إنما يوصف بأنه عمل غريزى ، فإذا أكلت القطة الفأر أو أتى الكلب أنثاه فى الطريق فلا أحد يقول إن هذه أعمال غير أخلاقية ! أما

١ - سنتكلم فى الفصل التالى عن الشيوعية وسنرى أنها منحت الناس هذه الحرية بالذات فى حين حرمت كل الحريات .

٢ - سورة الاعراف [١٧٩]

الإنسان الذى كرمه ربه بالإنسانية، وجعل له طريقين اثنين لا طريقا واحدا ، وأعطاه القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار واحد منهما : « ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ١ « فإنه حين يرفض القيم الخلقية ، ويقول عن إقامة الرأسمالية على أساس الربح بصرف النظر عن كون هذا الربح حلالا أو حراما ، جائزا أو غير جائز ، يقول إن هذه مسألة اقتصادية لا علاقة لها بالأخلاق ! ويقول عن تحويل المجتمع كله إلى ماخور كبير إن الجنس مسألة « بيولوجية » لا علاقة لها بالأخلاق ! حين يفعل ذلك فإنه يفقد آدميته فى الحقيقة ويصبح من الدواب .. بالضبط كما يريد له شعب الله المختار !

ولقد كانت الديمقراطية وشعارات الحرية هى اللعبة الكبرى التى نفذت اليهودية العالمية عن طريقها مخططها كله « ٢ » واستحمرت بها الأمميين فى الغرب لحساب الشعب الشيطان .

ولا ينفى ذلك كله ما كسبته الشعوب فى ظل الديمقراطية من حقوق وضمانات تحدثنا عنها من قبل، وقلنا إنها - فى هذا الجانب - تكريم للإنسان وتحقيق لصفة الإنسانية فيه .

فقد قلنا إن الشعوب قد نالت ذلك بنضالها لا بالديمقراطية فى ذاتها ، بل كانت الديمقراطية ذاتها فى جانبها السياسى ثمرة ذلك النضال ، لكن الذى نقوله هنا إن الشياطين - مع سماحهم راضين أو مكرهين بهذه الحقوق وتلك الضمانات - قد أفسدوا إنسانية الإنسان من جانب آخر أو من جوانب أخرى بحيث أصبحت الخسارة فى النهاية أفضع بكثير من كل كسب كسبته الشعوب . ولسنا نقول إن الإنسان كان أحسن حالا فى ظل الإقطاع قبل أن يحصل على هذه الحقوق والضمانات فى ظل الديمقراطية .. فالجاهلية كلها انحراف وكلها خيال سواء فى ذلك الطور أو ذاك .. ولكننا نقول إن الخير الجزئى الذى أتت به الجاهلية الجديدة قد أفسدت مقابله كثيرا من الخير الكامن فى الإنسان ، بحيث يضيع ذلك الخير الجزئى فى محيط الفساد الواسع الذى ليس له قرار ! ولسنا نقول كذلك إن هذه الحقوق والضمانات ينبغى أو يجوز أن تلغى فى مقابل استرداد الإنسان ما فقد من إنسانيته بفساد العقيدة وفساد الأخلاق !

١٠ . سورة الشمس [٧ - ١٠]
٢٠ . لا يمنع هذا - كما سنرى فى الفصل القادم - أن اليهود استخدموا الشيوعية كذلك فيما بعد .

كلا ! فإنه إن فقد هذه الحقوق وهذه الضمانات فما يمكن أن يحافظ على إنسانيته ولو كان على شيء من عقيدة ولو كان على شيء من أخلاق !
كلا ! إن إنسانية الإنسان مفقودة في الحالين ، وما يكون الإنسان في الجاهلية إنسانا بحال من الأحوال !
ولكننا هنا على أى حال نقوم الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية كما هي مطبقة في عالم الواقع ، فنقول ما لها وما عليها .. فنقول إنها ليست صفحة بيضاء خالصة كما يظن الذين ينظرون من بعيد ولا ينعمون النظر ولا يرون ما وراء الأستار .

ثم نقول إن الصفحة السوداء فيها قاتمة السواد أكثر بكثير مما يظن الذين يأخذون الأمور من سطوحها، فيحسبون الفساد جزئيا قابلا للإصلاح، وقابلا للتعديل بوضع بعض الضوابط هنا وبعض القيم هناك .
إنها من جهة مسرحية ضخمة تمثلها الرأسمالية وتضع لها أدوارها وتوهم المشاهدين أن الممثلين يتحركون على المسرح من ذوات أنفسهم وبمقتضى إرادة ذاتية لهم ، بينما هم - كأي ممثلين في مسرحية - يتحركون بمقتضى الدور المعطى لهم وفي حدوده المرسومة ، لا يملكون أن يتجاوزوا المسرح أو يتجاوزوا دورهم في المسرحية المعروضة عليه .. وإلا طردوا بتهمة الإفساد ! أو عوقبوا عقابا صارما ليكونوا عبرة للآخرين . كما يُطارَد دعاة الحرية الحقيقيون بتهمة الشغب والخروج على القانون وتعريض الأمن القومي للخطر ! وكما قتل كنيدي حين تجرأ جراءة لا تليق « بموظف » مسئول في حضان الرأسمالية !
وهي من جهة أخرى أداة ضخمة لإتلاف إنسانية الإنسان بإعطاء الفساد الدينى والفساد الخلقى شرعية كاملة ، وجعل ذلك جزءا أصيلا من مفهوم الديمقراطية ومفهوم الحرية .

فتحت هذا الشعار - شعار الحرية - ظل « الإنسان » الأوروبي يجد التشجيع المستمر على التحلل من دينه وعقيدته بوصف أن هذه أمور خاصة يتصرف فيها الإنسان على مزاجه الخاص ، فمن شاء أن يبقى على عقيدة ودين فليبق ، على مسؤوليته الخاصة ، وليتلق السخرية الدائمة من المجتمع ومن الكتاب والمفكرين وأهل « الفن » من قصاصين ومسرحيين وإذاعيين وتلفزيونيين ورسامي « الكاريكاتير »، فضلا عن المخذلات الدائمة من حوله ، التي تتفنن في صرفه عن الدين والعقيدة . ومن شاء أن يلحد فليلحد .. ولن يقف في سبيله أحد

ولن يجرّج عليه أحد، فتلك حريته الشخصية . ولن يجد السخرية حتى من رجال الدين ! إنما يجد منهم محاولة « لطيفة » للتفاهم معه ومحاولة « فاترة » لردّه إلى الإيمان « ١ » بينما يجد التشجيع من جهات كثيرة في الأرض !

وتحت هذا الشعار كذلك ظل يجد التشجيع المستمر على التحلل من أخلاقه وتقاليده ، بوصفها كذلك أمورا شخصية .. فمن شاء أن تكون له أخلاق - في مسائل الجنس بصفة خاصة - فهو حر - على مسؤوليته الخاصة - ولتلق النقد اللاذع من المجتمع كله ، الذي يعتبره حالة شاذة تحتاج إلى علاج « ٢ » !

ومن شاء أن يتحلل فنعم الرأي له ونعم المسلك ! وسيجد التشجيع الحافل من المجتمع والكتاب والمفكرين وأهل الفن وأصحاب السينما وأصحاب المسرح وأصحاب الاذاعة وأصحاب التلفزيون وأصحاب النوادي وأصحاب المواخير .. هذا بينما توضع الضوابط - الصارمة أحيانا - على سلوك الإنسان في كل اتجاه إلا هذين الاتجاهين بالذات !

ومن جهة ثالثة فهي لعبة اليهودية الكبرى لتنفيذ مخططاتها كلها مع إيهام الناس أنهم يتصرفون من تلقاء أنفسهم وحسب رغباتهم الخاصة !

فأما المصالح الرأسمالية اليهودية فتسخر لها الأحزاب السياسية والبرلمانات و « نواب الأمة » ووسائل الإعلام التي تشكل الرأي العام، وتقوم بعملية التزييف الكبرى لأفكار الناس واهتماماتهم بما يحقق تلك المصالح في نهاية المطاف ، ويحقق انسياب الذهب - معبود اليهود القديم - إلى جيوبهم وقلوبهم، ويتفتنون به في زيادة سيطرتهم على الأممين .

وأما « المصالح » اليهودية الأخرى المتمثلة في إفساد عقائد الناس وأخلاقهم ليسهل استحمارهم وتسخيرهم لمصالح الشعب الشرير فهي تتم كاملة من وراء شعار « الحرية » الذي تحدثنا عنه، ومن خلال شعور الناس أن « هذه » هي الديمقراطية !

وهكذا يضيع الخير الضئيل الذي كسبته « الشعوب » بالحقوق والضمانات

١ ، لسنا هنا نعييب على « رجال الدين » بقدر ما نعييب على النظام الذي وضعهم في موضع الضعف والاستجداء ، والذي شجع الإلحاد وأعطاه من الشرعية ما يجعل المطالبين بالدين يشعرون أن دعوتهم هي التي ليس لها صفة الشرعية، فيتحدثون إلى الناس على استحياء ١ . ولسنا نرى مع ذلك أن الحل هو أن يعود « لرجال الدين » سلطانهم الكنسي المقيت . لكن الحل أن يؤمن الناس بدين الله ويحكم الحكام بشرعية الله فيكون كل شيء في وضعه الصحيح ٢

٢ ، الفتاة التي تلغ الرابعة عشرة في أمريكا وليس لها صديق تعتبر حالة مرضية يجتمع مجلس العائلة للنظر فيها ويستدعى لها الطبيب النفسي للعلاج !!

في وسط هذا الشر الهائل الذي يحققه الأشرار من وراء هذا النظام المخلخل
الملئ بالعيوب ، والملئ بالثقوب !

فإذا عرضنا الأمر على الإسلام فهناك قضيتان رئيسيتان من وجهة النظر
الإسلامية هما محور الارتكاز في الموضوع كله، وهما أداة التقويم بالنسبة
لديمقراطية أو أي مذهب آخر من المذاهب التي نناقشها في هذا الكتاب . هاتان
القضيتان هما :

أولا : من المعبود ؟

ثانيا :

وقد وُثِّنت الجاهلية المعاصرة التي يوجهها اليهود كلتا القضيتين - والأولى
بصفة خاصة - لغاية في نفوسهم ، وزعمت - بالنسبة للقضية الأولى بصفة
خاصة - أنها ليست محور الحياة الإنسانية ولا مقياسها ، بل العكس - في
زعمها - هو الصحيح ! فالإنسان أرقى كلما بعد عن الدين ، وأكثر تأخرا
ورجعية كلما اقترب منه ، على أساس أن حياة الناس قد مرت ثلاث مراحل هي
السحر والتدين والعلم ، وأن الدين - الذي يمثل المرحلة الوسيطة من حياة
البشرية - قد أخل - أو ينبغي أن يخل - مكانه للعلم من أجل تقدم الإنسان
ورقيه وتحضره !

وأما القضية الثانية فقد زعمت الجاهلية المعاصرة أنه ليس لها مقياس
ثابت ! وأن الإنسان ليس له كيان ثابت أو صورة مثلى يقوم بمقتضاها ، إنما كل
عصر له مقياسه ، ومقياسه هو الأمر الواقع في ذلك العصر ! والإنسان دائم
التشكل على الصورة التي يقتضيها - أو يرتضيها - العصر بلا زيادة ! ومن ثم
فإنسانية الإنسان أمر لا يمكن أن يوضع له ميزان ثابت !
ولكن الإسلام يقوم الأمور بميزان الله سبحانه وتعالى ، الذي أنزله ليقوم
الناس بالقسط .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس
بالقسط » « ١ »

وميزان الله - وهو الحق - يقول إن قضية « من المعبود » ؟ هي أهم قضية
بالنسبة للحياة الدشرية كلها في تاريخها كله ، وإن كل شيء في الحياة الدنيا

- فضلا عن الآخرة - يتوقف على جواب هذه القضية: وهى كون المعبود هو الله أم شيئا آخر مع الله أو من دون الله ..

والجاهلية المعاصرة تغفل الحياة الأخرى عن عمد، وتبرز الحياة الدنيا وحدها وتجعلها مجال الاهتمام وموضع التقويم « ١ » ، لأنها لو وضعت اليوم الآخر فى الميزان فقد حُسِمَت القضية وانتهت من أول لحظة .. فلن يقول أحد إن الدار الآخرة ستكون للملحدين الذين ينكرون وجود الله ، أو ينكرون شريعته ، أو يكرهون هذه الشريعة ويرفضون تحكيمها فى أمور حياتهم !

لذلك فإن الجاهلية المعاصرة لا تتكلم أبدا عن اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحشر وحساب وثواب وعقاب ! وإن تحدثت عنه فعلى أنه وهم لا حقيقة له ، أو قضية « غيبية » لا ينبغى أن يشغل بها نفسه الإنسان المتحضر، أو الإنسان الواقعى ، أو الإنسان الذى يحترم عقله ، أو الإنسان الذى يحترم العلم ويعيش بروح علمية !!

فإذا أصبحت الحياة الدنيا هى مبلغ الناس من العلم، وهى التى يتجه إليها الاهتمام كله، ضمن المخططون الشريريون أن تسير الأمور كما يشتهون، وأن تسير السائمة من الأمميين فى الطريق الذى رسمه شعب الشيطان المختار .

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . والله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » « ٢ »

« ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لايهدى القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » « ٣ »

« لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم أذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » « ٤ »

١ . بعض الكتاب يستعمل كلمة « التقويم » بدلا من التقويم ليميز بين التقويم بمعنى تقدير القيمة والتقويم بمعنى إصلاح المعوج والصواب أن الفعل واوى ن كلا المعنيين .

٢ . سورة النجم [٢٩ - ٢١]

٣ . سورة النحل [١٠٦ - ١٠٨]

٤ . سورة الأعراف [١٧٩]

وإن كان الهدف الأخير للشعب التبرير هو استحمار الأمميين وتسخيرهم لصالحهم وللعبودية لهم ، فقد وجب أن يبعدوهم بعدا كاملا عن ذكر الآخرة ليكونوا كالأنعام ، ويجعلوا الدنيا هي مبلغ علمهم وغاية همهم « ١ » ليسهل تسخيرهم من جانب العبودية للشهوات ، وهي مصير كل إنسان يعيش بعيدا عن الآخرة وقيمها المؤدية إليها

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بحير من ذلكم » للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله . والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين ، والصادقين ، والقانتين ، والمنفقين ، والمستغفرين بالأسحار »^٢ وإذا كانت الجاهلية المعاصرة قد أغفلت ذكر اليوم الآخر لغاية في نفسها وأبرزت الحياة الدنيا وحدها، وجعلتها غاية كل شيء ومقياس كل شيء ، فنحن لا نجارى تلك الجاهلية فيما اتجهت إليه ، ولا نقرها على تعبيد الناس للحياة الدنيا ، ولكننا نقول إن قضية « من المعبود » ليست متعلقة بالآخرة وحدها . وإنما هي من صميم قضايا الحياة الدنيا ، وإن الجواب على هذه القضية لا يتوقف عليه مصير الإنسان في الآخرة وحدها ، بل يتوقف عليه أمر وجوده هنا في الحياة الدنيا ، وبدرجة أكبر بكثير وأخطر بكثير مما يظن المستعبدون للمخطط الشرير من الأمميين المسخرين كالحمير !

إنه بصرف النظر - مؤقتا - عن القيم المتعلقة بالدين ، المستمدة من كون المعبود الواجب العبادة هو الله سبحانه وتعالى وحده بلا شريك (ولنا عود إليها بعد قليل) فإن الجواب على هذا السؤال الخطير : « من المعبود ؟ » يترتب عليه في الوقت ذاته إجابة على سؤال مهم في حياة البشر على الأرض وهو . « من المشرع ؟ »

يقول التفسير المادى للتاريخ ، وهو هنا على حق فيما يقول : إن الذى يملك هو الذى يحكم ، وإن الطبقة التى تحكم تضع التشريعات التى تحفظ مصالحها ، ويكون ذلك على حساب الطبقات الأخرى

« ١ » من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم .. اللهم لا تجعل الدنيا مبلغ علمنا ولا غاية همنا . رواه الترمذى
« ٢ » سورة آل عمران [١٤ - ١٧]

لذلك فإن قضية « من المشرع ؟ » قضية مهمة بالنسبة للناس على الأرض ،
وليست قضية جانبية أو ثانوية يمكن التغاضي عنها لقاء بعض المتاع الأرضي
الزائد عن الحد ، كمتاع الجنس المجنون ، أو « متاع » التبذل في الأرض بلا
أخلاق ، الذي قال الله عنه :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى
لهم » « ١ »

فهو متاع الحيوان لا متاع الإنسان ..

وقضية « من المشرع ؟ » هي التي قامت من أجلها الثورات التاريخية كلها
حتى هذه اللحظة بسبب المظالم التي تقع من المشرعين الذين يشرعون
لصالحهم وصالح الطبقة التي ينتمون إليها ، فيثور المظلومون ليرفعوا هذا
الظلم أوليحاوولوا رفعه على أقل تقدير .

فإذا كانت القضية على هذا القدر من الأهمية ، وكان لها كل هذا الأثر في
حياة الناس على الأرض - بصرف النظر عن مصيرهم بعد ذلك - فلننظر من
المشرع الحقيقي في الديمقراطية الليبرالية أو في الحقيقة في أي جاهلية لا تحكم
بما أنزل الله .

إنهم بادئ ذي بدء بشر ، ثم هم بعد ذلك طبقة معينة لها مصالح معينة لا
تتحقق بصورتها التي يريدونها إلا على حساب الآخرين .

كان الحاكم في الإقطاع هو أمير الإقطاعية الذي يملك ويحكم ، ولا معقب من
البشر لحكمه ، لأنه هو السلطة الوحيدة ولا أحد غيره يملك شيئا من السلطان .

والحاكم في الديمقراطية الليبرالية هو الرأسمالية التي تملك وتحكم ولا معقب
من البشر لحكمها ، وإن كان التشريع - نظريا - من حق الشعب ، والتعقيب
نظريا في يد الشعب !

الرأسمالية - يهودية أو غير يهودية - هي التي تدير المسرحية كلها ، وهي
التي تضع التشريعات للمحافظة على مصالحها ، على حساب مصالح
« الشعب » الذي يقع عليه الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في كل
جاهلية من جاهليات التاريخ .

ولا ينبغي أن نخدعنا الصيحات والشعارات عن حقيقة الواقع ، ولا ينبغي

كذلك أن يخدعنا وجود بعض الأصوات « الحرة » في المجالس النيابية أو في الصحافة ووسائل الاعلام، فهذا ذاته جزء من « فن » المسرحية كما أشرنا من قبل ، لأن الرأسمالية التي بيدها السلطان - يهودية أو غير يهودية - تعلم أن هذه الأصوات المتناثرة لن تغير شيئا من الواقع، ولن تحدث تعديلا حقيقيا في أدوار المسرحية المرسومة ، وهي في الوقت ذاته دعاية ضخمة للديمقراطية التي من خلالها تتحقق كل مصالح الرأسمالية ، فكلما ارتفعت هذه الأصوات « الحرة » اطمأنت الجماهير إلى اللعبة الدائرة واستنامت لها ، وتركت أصحاب السلطان ينفذون من خلال اللعبة إلى كل ما يريدون !

أما الحقوق والضمانات التي نالها الشعب فقد كانت - كما قلنا أكثر من مرة - ثمرة نضال الجماهير ولم تكن ثمرة الديمقراطية ! وإذا كانت الرأسمالية قد تنازلت - مكرهة - عن بعض الفتات خوفا من ضياع الأصل كله ، فلم يكن ذلك بفضل النظام البرلماني ذاته، بقدر ما كان ذلك راجعا إلى نظام الرأسمالية « الحرة »، واعتمادها على العامل الذي يتمتع بقسط محدود من الحرية، لكي تتمكن من تحقيق الأرباح الفاحشة التي تحققها .. ولا تستطيع الرأسمالية الحرة أن تزيد سلطانها أكثر مما هو واقع في أيديها .. وإلا لفعلت ! لأن الدكتاتورية التي تلزم العمال بالعمل تحت ضغط الحديد والشار لا يمكن أن تتم بصورة جماعية (أى باجتماع الرأسماليين كلهم بعضهم مع بعض) لأنها تحتاج بطبيعتها إلى تركيز السلطة في يد فئة محدودة جدا من الناس ، وعندئذ لا يستطيع الرأسماليون ذاتهم أن يوجّدوا ولا أن يكون لهم سلطان ، لأن السلطة التي تستطيع أن تسخر العمال للعمل تحت القهر ، ستنتهم الرأسماليين أنفسهم كما حدث في الدولة الشيوعية .. ومن هنا تجد الرأسمالية نفسها مكرهة - للمحافظة على وجودها ذاته - أن تسمح بهذا الفتات المتناثر للشعب . ويتم ذلك عن طريق هذا اللعبة الطريفة . لعبة الديمقراطية ، تحقق بها الرأسمالية أكبر قدر متاح من الربح . وترك للشعب كثيرا من المظالم وشيئا من الفتات !

الظلم هو طابع الجاهلية التي يشرع فيها البشر للبشر بدلا من أن يتحاكم البشر كلهم إلى شريعة الله !

إن المجتمع الجاهل لا بد أن ينقسم بطبيعته إلى فئتين اثنتين : سادة وعبيد سادة في يدهم السلطان وفي يدهم التشريع وعبيد يقع عليهم السلطان ويقع عليهم التشريع .

وأيا تكن طرافة اللعبة الديمقراطية فهي لا تستطيع أن تخفى هذه الحقيقة .

وهي أن الرأسماليين هم السادة . هم المشرعون . وأن الشعب هو العبيد الذين يقع عليهم عبء التشريع .

حقيقة إن « العبيد » في ظل الديمقراطية الليبرالية هم في أفضل وضع وجد به العبيد في أية جاهلية من جاهليات التاريخ (بسبب طبيعة الرأسمالية الحرة - كما أسلفنا - وعجزها عن تحقيق الربح إلا عن طريق العامل الذي يتمتع بقسط محدود من الحرية) إلا أن هذا لا يغير حقيقة وضعهم . وهو أنهم عبيد .. عبيد مهما امتلكوا - في المسرحية الطريفة - من « مظاهر » الحرية !

إن الحرية الحقيقية لا يمكن أن تتحقق في أية جاهلية نخكم بغير ما أنزل الله « ١ » لأن الحكم بغير ما أنزل الله هو الذي يقسم الناس إلى « أرباب » و « عبيد » ! أرباب يشرعون وعبيد ينفذون . ولا يملك العبيد حرية حقيقية إزاء الأرباب !

إن رد « الحاكمية » لله . أي التحاكم إلى شريعة الله وعدم التحاكم إلى أى شريعة أخرى غير شريعة الله . فضلا عن كونه من حق الله على عباده لأنه من الخصائص الخالصة للألوهية : « ألا له الخلق والأمر » « ٢ » فإنه في الوقت نفسه هو الضمان الحقيقي لحرية البشر في الأرض . وعدم تحويل بعضهم إلى أرباب وأكثريتهم إلى عبيد لأولئك الأرباب .

إن إخلاص العبودية لله وحده - سواء في إفراده بشعائر التعبد أو إفراده الحاكمية - هو الذي يلغى وجود الأرباب . ويحرر الناس في الأرض من عبوديتهم .

ما دام الله وحده هو المعبود - سواء بتقديم الشعائر له وحده أو بتنفيذ شريعته دون كل الشرائع - فمن أين يوجد الأرباب الذين يتعبدون العبيد ؟ !

لا يحرر الناس الحرية الحقيقية في الأرض إلا حين يكون الله وحده هو الرب والاس كلهم - حكاما ومحكومين - عبيدا لله وحده دون شريك .

عندئذ فقط يولد الناس أحرارا ويظلون أحرارا إلى أن تنتهى أجاهلهم .
وعندئذ فقط يشعر الناس بالاستعلاء - استعلاء الإيمان - على كل قوة

(١) الجاهلية - كمن جاء استعمال اللفظ في القرآن الكريم - تنشأ أصلا من عبادة غير الله ومن الحكم بغير ما أنزل وبغير حكم الجاهلية مقابل الحكم الله في مثل قوله تعالى « أمحكم الجاهلية يعبدون » ومن أحسن من الله حكما فقوم يوقون ؟ ! | المائدة : ٥٠ | .

(٢) سورة الأعراف [٥٤] .

فى الأرض بشرية كانت هذه القوة أو مادية أو اقتصادية ، لأنهم يستمدون وجودهم وقوتهم من الله ، والله أكبر .. أكبر من كل قوة فى الوجود .
عندئذ يحدث ما حدث فى صدر الإسلام، والعبودية خالصة لله وحده فى كل مجال من مجالات الوجود .

يقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فىقول : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ، فيقف له سلمان الفارسى يقول : لاسمع لك علينا اليوم ولا طاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى انتزرت به !

ويتحاكم على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى القاضى شريح مع اليهودى الذى سرق درعه فيسأله القاضى : يا أمير المؤمنين ! هل من بينة ؟! فيقول على كرم الله وجهه : صدق شريح ! مالى بينة ! فيحكم القاضى بالدرع لليهودى تنفيذاً لشريعة الله !

ويستمتع بهذا العدل - الذى يولد الشعور بالحرية - حتى الذين لم يؤمنوا بهذا الدين ولكنهم استظلوا بظله واستظلوا بعداته ، فيرحل القبطى من مصر إلى المدينة ليشكو إلى عمر رضى الله عنه ضربة عصا لحقت بظهر ولده من ابن عمرو بن العاص حين غلبه الشاب القبطى فى السباق .. وهو الذى كان إلى عهد جد قريب تلهب ظهره سياط الرومان فلا يحس بأدميته المسلوية ولا يتحرك للشكوى .. ولمن يشكو حتى إذا أراد ؟! ولكن العدل الربانى المتمثل فى شريعة الله هو الذى جعل ضربة العصا توجع الكرامة، وتحرك الرجل ألوف الأميال طلباً للنصفة ورفعاً للظلم .. ويجاب الرجل إلى حقه تحقيقاً لشريعة الله .

كلا ! لا تتحقق الحرية الحقيقية ولا المساواة الحقيقية ولا الإخاء الحقيقى إلا حين يكون الله وحده هو المشرع ، ولا يكون للبشر حق التشريع من عند أنفسهم « ١ » . وكل ما ترفعه الديمقراطية من شعارات « الحرية والإخاء والمساواة » إن هو إلا شعارات ! شعارات غير قابلة للتحقيق فى عالم الواقع ما دام بعض البشر يشرعون وبعضهم الآخر - وهم أكثرية الناس - يخضعون للتشريع ، ومادامت الأقلية التى تشرع إنما تشرع لمصالحها الخاصة على حساب الآخرين .

١ . اشرنا من قبل إلى أن اجتهاد المجتهدين فى استنباط الأحكام فيما لا نص فيه يتم باذن من الله، وهذا هو الذى يعطيه شرعيته، فلا يعتبر تشريعاً بشرعاً الناس من عند أنفسهم كما تفعل الجاهليات ، فضلاً عن كونه محكوماً بالاصول العامة للشريعة لا يخرج عن إطارها فلا يحل حراماً حرمه الله ولا يحرم حلالاً أحله الله .

وهب كل الناس شرعوا كما تزعم الديمقراطية في أقوالها النظرية . وهب كل الناس استطاعوا أن يوقفوا - في التشريعات التي يضعونها بأنفسهم - بين مصالح الحاكمين والمحكومين فزال الظلم ، وزالت عبودية بعض البشر لبعض ، وهو فرض جدلى لا يمكن أن يتحقق ، ولم يتحقق في أى جاهلية من جاهليات التاريخ التي تحكم بغير ما أنزل الله ، فهل تستقيم الحياة في الأرض على صورة صحيحة حين يكون البشر هم المشرعين ؟!

أليس البشر - كلهم في هذه المرة - هم الذين شرعوا فوضى الجنس ؟! ودعك الآن من أن اليهودية الشريرة هي التي أوجت لأولئك البشر فشرعوا : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » « ١ »

دعك من هذه القضية لأن خضوع الديمقراطية لليهودية الشريرة ليس عذرا لها فيما تفعل بل هو عيب رئيسى من عيوبها ، ولكن خذ الصورة الظاهرة وهي أن هذه الفوضى تمر بالموافقة الإجماعية من الناس ، سواء في المجالس النيابية أو في وسائل الإعلام أو في واقع الحياة .. فهل تستقيم الحياة بتلك الفوضى الجنسية التي شرعها البشر ؟!

أليس البشر - كلهم في الديمقراطية - هم الذين شرعوا الربا ؟! ودعك مرة أخرى من أن اليهودية الشريرة هي التي دفعت الناس دفعا إلى تشريع الربا .. فخضوع الناس في هذا الأمر لليهودية العالمية ليس عذرا لهم بل هو وزر يحملونه أمام الله يوم القيامة ، وهو - أو مثله - الذى قال الله فيه عنهم : « اتخذوا أربابهم ورهبانهم أربابا من دون الله » « ٢ » أى أطاعوهم في التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله كما قال العلماء والمفسرون في تفسير هذه الآية « ٣ » .

دعك من هذا وخذ واقع الحياة في الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ، تجد أن الربا يمر بموافقة إجماعية بغير اعتراض .. فهل استقامت الحياة بالربا الذى أحله البشر ؟!

أليس البشر - كلهم في الديمقراطية - هم الذين وافقوا على « تحرير » المرأة بالصورة التي تم بها ذلك « التحرير » ؟!

١ . سورة الأنعام [١١٢] ٢٠ . سورة التوبة [٣١]
٢ . انظر ابن كثير والطبري والقرطبي وابن تيمية وغيرهم

ودعك مرة ثالثة من أن اليهودية الشريرة هى التى وسعت تلك القضية ولعبت بها لإفساد المجتمع البشرى كله ، فإن اليهودية الشريرة ما استطاعت أن تفعل ذلك إلا فى مجتمع متفسخ أدار ظهره للهدى الربانى فركبته الشياطين .. وخذ الصورة الظاهرة، وهى أن « المرأة المتحررة » .. المتحررة من الدين والأخلاق والتقاليد، بل من الحياء الفطرى ذاته ، تمر بموافقة البشر كلهم ورضاهم وطلبهم للمزيد من « التحرر » ! .. فهل استقامت الحياة حين تحررت المرأة على هذه الصورة التى شرعها البشر ؟!

وخذ مئات من التشريعات التى شرعها البشر - كلهم فى الجاهلية المعاصرة -- وانظر آثارها فى حياتهم . الجنون والقلق والأمراض النفسية والعصبية والانتحار وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة وتشرد الأطفال وجنوحهم .. إلى جانب الفردية الجامحة وتفكك الأسرة وتفكك المجتمع وقتل المشاعر الإنسانية وتحويل الإنسان إلى حيوان إلى ، تدير الآلة نصف حياته وتدير بقيتها الشهوات !

ذلك كله حين يشرع البشر لأنفسهم ، ولو شرعوا كلهم مجتمعين متناسقين بلا تظالم ولا صراع ! ذلك أن البشر - بطبيعتهم - يتصفون بالقصور واحهل . والعجز عن الإحاطة، والعجز عن رؤية النتائج الكاملة المترتبة فى المستقبل على أعمالهم الحاضرة .. فحين يتجاوزون الاجتهاد فيما أذن الله بالاجتهاد فيه « ١ » ، ويحلون ويحرمون بغير ما أنزل الله ، تقع تلك الفوضى الضاربة أطنابها ، ويقع ذلك الشقاء المرير الذى يملأ وجه الأرض ..

وهكذا يتبين لنا أن قضية « من المعبود ؟ » ليست قضية غيبية خاصة بالآخرة كما يصورها الجاهليون المحدثون ، ولكنها - بالإضافة إلى كونها متعلقة بالآخرة - قضية من صميم هذه الحياة الدنيا ، لأنه يترتب عليها تقرير « من المشرع » ؟ أى من واضع منهج الحياة للناس .. وأنه حين لا يكون الله هو المعبود وحده بلا شريك، تختل الحياة الدنيا بجملتها ويقع الناس فى الخبال .

فإذا قومنا الديمقراطية بهذا الميزان فكيف تكون النتيجة ؟!

الله هو المعبود فى الديمقراطية الليبرالية وحده دون شريك ؟! أم هناك

١ . إذن الله بالاجتهاد للمؤمنين فقط لأنهم أهل لذلك بإيمانهم وتوفيقهم لله وتحكيمهم لشريعته . أما غير المؤمنين فلا إذن لهم لأنهم لا يعترفون أصلاً بشريعة الله

عشرات من الآلهة الزائفة تعبد مع الله أو من دون الله ؟ وكلاهما سواء . فإن عبدت مع الله فهو الشرك ، وإن عبدت من دون الله فهو الكفر .. والشرك والكفر كلاهما كفر !

حقا إن هناك ألوفاً من الكنائس تفتح أبوابها يوم الأحد لتستقبل المصلين ودع الآن جانباً ما في العقيدة الكنسية من التحريف ، ودع جانباً كذلك مئات الملايين الذين لا يذهبون إلى الصلاة أصلاً ولا يعترفون بوجوبها عليهم . وانظر إلى هذا المصلى الذى جاء يحضر الصلاة بدافع من « التدين » ما رأيته في الربا ؟! ماذا لو قام أحد يخبره أن الربا حرام ، ويدعوه إلى استنقاذ أمواله من الربا وعدم التعامل به في الأخذ والعطاء ؟! كم تكون سخريته ؟ وكيف يكون جوابه ؟ إن الجواب الوحيد الذى يرد به الغربى على هذه الدعوى هو أن الربا مسألة اقتصادية بحتة والدين لا علاقة له بالاقتصاد !

وما رأيته في علاقات الجنس ؟ ماذا لو قال له أحد الناس إن هذه العلاقات كلها حرام إلا الزواج الشرعى ، ودعاه ليعدل سلوكه ويعدل عن « الصداقات » التى يمارسها .. فماذا يكون جوابه .. أو جوابها لو كانت فتاة ؟! إن الفتاة الأمريكية تقول بملء فيها إن الجنس مسألة « بيولوجية » لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق !

آله هو المعبود في الديمقراطية الليبرالية ؟ أم عشرات من الآلهة المزيفة تحكم حياة الناس وتتحكم فيها ؟

الدولار إله « ١ » والإنتاج إله . والصالح القومى إله . والمجتمع إله . و« الرأى العام » إله . والعقل إله . والعلم إله . والانسان إله . والآلة إله . و« المودة » إله . والشهوات إله .. والهوى إله « ٢ » .

كلها تعبد مع الله أو من دون الله . وكلها تعطى إجابة حاسمة بالنسبة للقضية الكبرى في حياة الانسان ، قضية المعبود : هل هو الله أم شيء آخر غير الله ..

كلها تقول إن المعبود في الديمقراطية الليبرالية ليس هو الله .

أما القضية الثانية فهي قضية إنسانية الانسان ..

١ . يقول صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار » والناس اليوم في كثير من أقطار الأرض عبيد للدولار .

٢ . يقول تعالى « أفرايت من اتخذ إلهه هواه » [سورة الجاثية : ٢٣]

وكما ألغت الجاهلية المعاصرة اليوم الآخر من حس الناس لكيلا تفقد شرعية وجودها من أول لحظة ، وألغت الإيمان بالله لكي لا يعوق « مصالحها » ومخططاتها .. فكذا ألغت كل معيار حقيقى لإنسانية الإنسان، لذات الدوافع وذات الأسباب !

لو أقرت الجاهلية المعاصرة أن الإنسان يختلف عن الحيوان منذ البدء في أن له عقيدة واعية في الله ، وقدرة على الإيمان بما لاتدركه الحواس (أى الإيمان بالغيب) وأن أعماله - كلها - تحمل قيمة خلقية ناشئة من أن له طريقين لاطريقا واحدا كالحيوان ، وقدرة على التمييز بين الطريقين وقدرة على الاختيار ، ومن ثم يوصف عمله بأنه خير أو شرير ، بينما لا يوصف بذلك عمل الحيوان .. لو أقرت بذلك فكيف تبرر كل ممارساتها التى تقيمها على أساس حيوانية الإنسان ؟

ولو أقرت بذلك فكيف تفعل بمخططاتها ومصلحتها ؟!

كيف يتحقق للرأسمالية ربحها الحرام ، القائم أساسا على الفصل الكامل بين العمليات الاقتصادية وبين الدين والأخلاق ؟ وكيف يتحقق لليهودية مخططها في استحمار الأمميين وتسخيرهم لشعب الله المختار ؟ كيف يتحقق للرأسمالية ربحها من الربا ، ومن الصناعات التافهة التى تبيع الطباع وتفسد الأخلاق ، ومن الحروب التى تثيرها من أجل إيجاد أسواق لتصريف فائض الإنتاج .

وكيف يتحقق لليهودية مخططها في إفساد الرجل والمرأة وشغلها بمقاذر الجنس عن تنشئة أطفال صالحين يقومون في شبابهم بإرساء قواعد الحق والعدل وإرساء قواعد الأخلاق ؟ وكيف تقوم بتفكيك روابط الأسرة والمجتمع ، وشغل البشرية كلها بجنون الجنس وجنون السينما وجنون التلفزيون وجنون الكرة وجنون « المودة » وجنون « التقاليع » .. ؟

كلا ! إنها لا يمكن أن تقر بذلك ، لا لأنه ليس حقيقة في ذاته ، ولكن لأن الإقرار به يفقدها شرعية وجودها على التو، ويضر أيضا إضرار بمخططاتها ومصلحتها .

وإذن فلتقل أى شيء تبيع به القضية وتبعد حقيقتها عن الأذهان .

فلتقل إن الحضارة المادية هى مقياس إنسانية الإنسان !

فلتقل إن مقدار استهلاك الإنسان للكهرباء هو مقياس إنسانية الإنسان « ١ » !

فلتقل إن « حرية » الإنسان في أن يفعل كل ما بدا له هو مقياس إنسانية الإنسان !

أو فلتقل إنه لا يوجد مقياس ثابت لقياس إنسانية الإنسان !

أو فلتقل صراحة إن الإنسان ليس بإنسان^١

المهم أن تكتم الحقيقة عن الناس حتى لا يستيقظوا لحقيقتهم : أنهم فقدوا نسانيتهم بالفعل ، وأصبحوا أولئك الحمير الذين يريدونهم - ليركبهم - شعب الله المختار !

ولكن الإسلام - دين الله الحق - يقرر الحقيقة ويبرزها ويؤكد عليها : أن الانسان خلق إنسانا من أول لحظة ، وكلف تكاليف الإنسان ، فحمل الأمانة « التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال ، وأنه يحافظ على إنسانيته طالما ظل حاملا للأمانة ، ويفقدها حين يتخلى عن حملها .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » « ٢ » .

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » « ٣ » .

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » « ٤ » .

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها شفقن منها ، وحملها الإنسان » « ٥ » .

« وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » « ٦ » .

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم

ألمست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا » « ٧ » !

« قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف

« في كتاب » في النفس والمجتمع « فصل بعنوان « حضارة الكيلوواط » .

« سورة البقرة [٣٠]

« سورة ص [٧١ - ٧٢]

« سورة هود [٦١]

سورة الأحزاب [٧٢]

سورة الذاريات [٥٦]

سورة الاعراف [١٧٢]

عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون « ١ » .

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ٢ .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذئ القريبى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » ٣ .

« الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » ٤ .

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ٥ .

« والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » ٦ .

« الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » ٧ .

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » ٨ .

هذا هو الإنسان . وهذا مقياس إنسانيته .
إنه ليس حيواناً . إنما هو إنسان من أول لحظة . ومهمته محددة من أول

-
- ١ . سورة البقرة [٣٨ - ٣٩]
 - ٢ . سورة الشمس [٧ - ١٠]
 - ٣ . سورة النساء [٣٦]
 - ٤ . سورة آل عمران [١٧]
 - ٥ . سورة المؤمنون [١ - ١١]
 - ٦ . سورة الشورى [٢٧ - ٢٩]
 - ٧ . سورة الرعد [٢٠ - ٢١]
 - ٨ . سورة الانعام [١٦٢ - ١٦٣]

لحظة . إنه الخليفة في الأرض ، المسيطر فيها ، المهيم عليها ، القائم بعمارها ، ولكن بمقتضى المنهج الرباني المستمد من الهدى الذى يتنزل من عند الله لتنظيم حياة البشر على الأرض، وضبطها بالضوابط الصحيحة لتستقيم . وتلك هى « الأمانة » التى حملها الإنسان وأشفقت من حملها بقية الخلائق التى تخضع لأمر الله بالقهر ولا تقوم بعمل إرادى . أما الإنسان الذى وهب الإرادة والادراك والقدرة على العمل والإنشاء والتعمير ، والقدرة على الاختيار ، فمهمته – أو الأمانة الملقاة على عاتقه – هى عبادة الله طوعا ، وتعمير الأرض بمقتضى منهج الله . وهو « إنسان » طالما هو قائم بهذه الأمانة ، أى عابد لله وحده بلا شريك ، ومعمّر للأرض بمقتضى المنهج الرباني المتمثل فى الحكم بما أنزل الله ، والالتزام بما جاء من عند الله . ومواصفاته – أو ضوابط إنسانيته ومعاييرها – هى هذه الصفات الواردة فى الآيات من خشوع فى الصلاة وإعراض عن اللغو ، وإداء للزكاة ، وضبط لشهوة الجنس ، ورعاية للأمانة والعهد ، وصبر وصدق وقنوت وإنفاق واستغفار ، ومغفرة عند الغضب ، وقتال ضد البغى .. الخ .. الخ

هذا مقياس ثابت لإنسانية الإنسان لا يطرأ عليه التغيير . وحقيقة إن هناك متغيرات كثيرة فى حياة البشرية تنشأ من التفاعل الدائم بين العقل البشرى والكون المادى ، واستخلاص طاقات الكون وتسخيرها لمصلحة الإنسان . ولكن هذه المتغيرات كلها لا تغير القيم الثابتة التى تحكم حياة الإنسان ، بل ينبغى أن يحكم الثابت المتغير لئلا تستقيم الحياة على الأرض ولا تنفلت الأمور من عقالها فيصيب البشرية الخبل والاضطراب .

فهذه الطاقات أولا مسخرة من عند الله للإنسان .
« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه » « ١ »
والجهد الذى يقوم به الإنسان لتحقيق هذا التسخير والأدوات التى يستخدمها ، هى من عند الله كذلك :
« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » « ٢ » .

١ . سورة الجاثية [١٢]

٢ . سورة النحل [٧٨]

والشكر يقتضى استخدام هذه الطاقات كلها بمقتضى أوامر المنعم الوهاب .
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن استخدام هذه الطاقات يغير
« الصورة » التى يحيا بها الإنسان على الأرض ولكنه لا يغير « الجوهر »
الإنسانى من حيث تكوينه الاصيل ولا من حيث مهمته فى الأرض . ومن ثم
لا تتحكم الصورة المتغيرة فى الجوهر الثابت ، إنما يتحكم الجوهر الثابت فى
الصورة المتغيرة على الدوام « ١ » .

يقول « رينيه دوبو » فى كتاب « إنسانية الانسان » .
« عاش رجل » كروماجنون Cro-Magnon « فى أكثر أنحاء أوربا قبل
حوالى ثلاثين ألف سنة ، قبل قيام الزراعة وحياة القرية بفترة طويلة ، ومع انه
كان صيادا بصورة رئيسية ، فقد كان - على ما يظهر - مشابها لنا جسما
وعقلا . فادواته وأسلحته تناسب حجم أيدينا الآن . وفنه فى كهوفه يثير
مشاعرنا ، والعناية التى كان يوليها لدفن موتاه تكشف أنه شاركنا بشكل ما فى
الاهتمام بنهاية الإنسان وأخرته . وكل أثر مدون من آثار إنسان ما قبل التاريخ
يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة إن الخواص الأساسية للجنس البشرى لم
تتغير منذ العصر الحجري « ٢ » .

وهكذا لا يتغير جوهر الانسان بتغير الصورة التى تكون عليها حياته . ومن ثم
لا تتغير كذلك ضوابطه ومعايير .

وحقيقة إن التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى هو ذاته معيار من معايير
« الإنسان » .. فقد أنشأ الله الإنسان ليعمر الأرض، وسخر له ما فى السموات
وما فى الأرض ليقوم بعملية التعمير ، فإن توانى فى ذلك أو تقاعس فهو مقصر فى
جانب من جوانب إنسانيته . ولكن هذا المعيار ليس هو المعيار الأوحد ، ولا هو
المعيار الأول . إنما يأتى فى مكانه الطبيعى بعد تقرير المبادئ والقيم التى
تتوقف عليها إنسانية الإنسان . والفارق بينه وبين المعايير الأخرى - معايير
القيم والمبادئ - أن القيم والمبادئ يمكن أن تشكل إنسانا ولو كان ناقصا فى
جانب التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى ، فهو « إنسان » ولكن ينقصه جانب

١ ، انظر - ان شئت - تفصيلا لهذه القصة فى كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية »
« ٢ » ص ٧١ من الترجمة العربية ، تعريب الدكتور نبيل صبحى الطويل ، الطبعة الأولى عام ١٣٩٩ هـ ،
مؤسسة الرسالة ، بيروت . وه رينيه دوبو ، أستاذ بجامعة روكفلر بنيويورك متخصص فى علم الحياة ، حصل
على جائزة نوبل فى العلوم عام ١٩٧٦ ، والذي يعطى شهادته قيمتها أنه يدلى بها من زاوية علمية بحتة ، لافلسفية
ولا ادبية ولا دينية .

من الجوانب ينبغي عليه استكماله ليستكمل إنسانيته ، أما التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى - بغير قيم مبادئ - فلا يشكل إنسانا على الإطلاق ' ومصدق ذلك هو « إنسان » القرن العشرين ' الذى هو أقرب شئ إلى « إنسان الغاب » ١ !
إنه فى قمة التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى .. ولكنه بمقياس الإنسانية هابط إلى الحضيض '

إذا قومنا الديمقراطية الليبرالية بالمعيارين اللذين يقوم بهما الإسلام حياة البشر على الأرض ، وهما قضية العبادة وقضية إنسانية الإنسان ، فماذا تكون ياترى حصيلتها فى الميزان ؟
فأما العبادة فقد تبين لنا أنه ليس الله هو المعبود فى تلك الديمقراطية إنما هو الشيطان . وحيثما لا يكون الله هو المعبود فالمعبود هو الشيطان وإن تعددت السبل وتعددت المسميات .
« ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » ٢
« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ٣
« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » ٤
الطاغوت هو كل شئ أو شخص أو نظام يعبد الناس لغير الله ، أو يتعبد به الناس من دون الله ، وعبادته فرع عن عبادة الشيطان .
وأما إنسانية الإنسان فأين هى على وجه التحديد فى الدوامة الوحشية التى يعيش فيها الإنسان الجاهل المعاصر ؟
أهى فى مباءة الجنس المتدنية إلى أدنى من بعض أنواع الحيوان ؟ ٥

١ « إنسان الغاب اسم اصطلاحى لموع من القرود يعرف علميا باسم « الأوراج أوتار » . وسمى إنسان الغاب لأنه يستطيع أن يقف مددا طويلة منتصب القامة كالإنسان ولكنه قرود وليس بإنسان .

٢ « سورة يس [٦٠ - ٦١]

٣ « سورة الأنعام [١٥٣]

٤ « سورة البقرة [٢٥٧]

٥ بعض أنواع الحيوان - كالحمال - تأنى ممارسة الجنس فى مكان مكتنف . بينما يقع دال من الإنسان « فى الحالة المعاصرة »

أهى في إدمان الخمر والمخدرات ؟
أهى في الجريمة التى تتزايد نسبتها على الدوام ؟
أهى في تفاهة الاهتمامات والبحث الدائم عن المتاع الحسى الغليظ ؟
أهى فى العبودية للآلة التى أصبحت هى التى تتحكم فى حياة الإنسان ؟
أهى فى شريعة الغاب : القوة هى الحق ، والقوى يأكل الضعيف ؟
أهى فى المواثيق التى تبرم لتنقض والعهود القائمة على الخداع ؟
أهى فى هذا المسخ المشوه الذى فقد إشراقة الروح وعاطفة الإنسان ؟ !
حقا .. هناك الضمانات والحقوق التى ترتبط اليوم بالديمقراطية وتشكل جانباً بارزاً من جوانبها .. ولاشك - كما قلنا - أنها تمثل نقلة كبيرة انتقلها « الإنسان » فى مسيرته التاريخية على الأرض . ولكن الشر الذى يحيط بهذا الخير الجزئى ، هو فى الديمقراطية الليبرالية من الضخامة بحيث يذهب فى النهاية بكثير من نفع هذا الخير ، لأنه يدمر « الإنسان » كله فى نهاية المطاف ، فلا يجدى - حين يسقط الإنسان كله إلى الحضيض - أننا كنا قد رفعنا جانباً من حياته إلى المستوى اللائق بالإنسان !
وليس معنى ذلك أننا ننقص من قيمة تلك الضمانات والحقوق بحال من الأحوال . إنما الذى نغنيه أنها تكون فى وضعها الطبيعى ، وتتحول إلى خير شامل ، حين يكون الإنسان بكامله على مستوى الإنسان .. وهو ما عجزت تلك الديمقراطية عجزاً فاضحاً عن تحقيقه ، أو قل إن شئت إنه لم يُرَد لها أن تحققه منذ البدء ، لأن تحقيقه لا يُمْكِنُ الجاهلية الرأسمالية من الوجود، فضلاً عن التضخم ، ولا يُمْكِنُ شعبُ الله المختار من ركوب الأميين كما يشتهون !
هناك وضع واحد تتحقق فيه كل الضمانات والحقوق التى جاءت بها الديمقراطية على المستوى الأرفع ، مع المحافظة الكاملة على إنسانية الإنسان .. ذلك حين يكون الإنسان عابداً لله ، مطبقاً لشريعة الله ، أى حين يحقق الإنسان الإسلام ! عندئذ تتحقق الكرامة الحقيقية للإنسان ، وتتحقق له كل الحقوق والضمانات التى وهبها الله للإنسان لتتحقق له كرامته فى واقع الأرض .
يقول الله سبحانه وتعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » ١

« ١ » سورة الإسراء [٧٠]

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام .. » ١ »

فيقرر الله أصل الكرامة لبنى آدم ، ويقرر الرسول صلى الله عليه وسلم حرمة الدماء والأموال والأعراض تحقيقا لتلك الكرامة في عالم الواقع ، في التعامل الذي يجرى بين الناس . ثم تتوالى التوجيهات الربانية وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم لتحديد مجالات تلك الكرامة على أوسع نطاق عرفته البشرية في تاريخها .

يأمر الله ألا تنتهك حرية المسكن :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » ٢ »

والتجسس كذلك حرام . . .

يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ... » ٣ » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة » ٤ »

وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول إن ناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء ، الله يحاسبه في سريرته . ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه ولم نصدق وإن قال إن سريرته حسنة ، ٥ »

ولا يجوز استراق السمع على الشخص أو مسكنه أو أحاديثه أو كشف سر من أسرارهم أو الاطلاع على رسائلهم بغير إذنه .

يقول صلى الله عليه وسلم : « لو أن رجلا أطلع عليك بغير إذن فحذفته

١ . رواه الشيخان

٢ . سورة النور [٢٧ - ٢٨]

٣ . سورة الحجرات [١٢]

٤ . رواه البخاري وغيره

٥ . رواه البخاري

بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح « ١ »

ويقول صلى الله عليه وسلم : « يامعشر من أسلم بلسانه ولم يقض الايمان إلى قلبه : لاتؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته فيفضحه ولو في داخل بيته « ٢ »

ولذلك ذكر بعض الفقهاء ، أنه لايجوز التجسس على إنسان ولامتابعته للكشف عن أسرارهِ ولادخول مسكنه لتفتيشه إلا بتوفر شرطين :

الأول : ظهور أدلة وعلامات وقرائن على وجود جريمة معينة .

الثاني : أن يكون في ترك البحث والكشف ودخول المنزل انتهاك حرمة يفوت استدراكها ، كأن يأتي الخبر بأن رجلاً خلا برجل ليقتله ، أو بأمرأة ليرتكب فاحشة . فإذا لم يكن الأمر بحيث يفوت استدراكه فلا يجوز البحث والكشف ودخول المنزل .

وفضلاً عن ذلك فإن الناس لا يؤخذون بالظنة ، دون وجود تهمة جادة من مصدر موثوق به ، لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين « ٣ » كما لا يؤخذ إنسان بجريمة غيره لقوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى « ٤ »

وتقييد حرية الإنسان غير جائز إلا بحكم شرعى يصدره القاضي .

فالأصل في الإنسان ضمان حريته في السكن والحركة والتنقل لقوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور « ٥ »

وتقييد الحرية بغير حكم شرعى - أى بما يسمى الاعتقال أو الحبس الاحتياطى - غير جائز فى الاسلام على خلاف بين الفقهاء بالنسبة لبعض أنواع المتهمين .

فالمتهمون فى عرف الفقهاء ثلاثة أنواع :

النوع الأول : متهم معروف بالتقوى والبريعة أن يكون من أهل تلك التهمة . فلا يجوز حبسه من أجل التهمة . بل ذهب كثير من العلماء إلى أن المدعى عليه

١ . رواه النسائى
 ٢ . رواه الترمذى وابن حبان وصححه
 ٣ . سورة الحجرات [٦]
 ٤ . سورة فاطر [١٨]
 ٥ . سورة الملك [١٥]

إن ظهر كذب دعواه يعاقب سواء قصد أذاه أو لم يقصد ، وذلك منعاً لتسلط أهل الشر والعدوان والسفهاء على أعراض أهل البر والصلاح .

النوع الثاني : المتهم المجهول الحال الذي لا يعرف ببر ولا فجور ، وهذا يختلف العلماء في سجنه احتياطياً عند وجود تهمة موجهة له ، فرأى الجمهور جواز حبسه حتى ينكشف أمره ، ورأى البعض عدم جواز حبسه . فأما الذين يرون جواز حبسه فقد قيدوا ذلك بالضرورة ، وبوجود أسباب قوية تدعو إلى ذلك ، ثم اختلفوا في مدة الحبس فحددها بعضهم بيوم وبعضهم بيومين وبعضهم بثلاثة أيام .. وأوصلها بعضهم إلى شهر كحد أعلى مع التقييد بالضرورة .

النوع الثالث : المتهم المعروف بالفجور والفساد والسيرة الإجرامية ، وهذا يرى جمهور الفقهاء أن يحبس حبساً احتياطياً حتى تثبت براءته إن كان بريئاً . وإن كان بعض الفقهاء كابن حزم لا يرى جواز حبس أى إنسان على الإطلاق بناء على مجرد الاتهام لأن الأصل في الإنسان براءة الذمة .

ولأن الأصل براءة الذمة لا يحلف المتهم في القضايا الجنائية المتعلقة بحق الله تعالى ، بل يذهب بعض العلماء إلى عدم تحليف المتهم في القضايا الجنائية المتعلقة بحق العبد (انظر مثلاً الطرق الحكيمة لابن القيم ، ط . دار الكتب العلمية ببيروت ، ص ١٠٠ - ١٠٤)

أما الإكراه على الاعتراف فغير جائز بحال . ولا خلاف بين الفقهاء في أن الضرب والتعذيب والحبس والقيود داخلية كلها في الإكراه ، وإن اختلفوا في التهديد والوعيد فرأى الجمهور أنه داخل في الإكراه ، ورأى البعض أنه لا يكون إكراهاً إلا إذا صدر من قادر على تنفيذه ، وغلب على ظن المتهم وقوع ما يهدد به إذا لم يقر ، وكان المهدد به ضاراً بحيث يعدم الرضا أو يفسده ، وكون المتهم عاجزاً عن مقاومته .

ولا يعتبر إقرار المكره صحيحاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولقول عمر رضي الله عنه : « ليس الرجل بأمين على نفسه إذا جوعته أو ضربته أو وثقته » (انظر المغنى والشرح الكبير ج ٨/ص ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ج ١٠ ص ١٧٢ طباعة دار الكتاب العربي ببيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) .

تلك ضمانات الاتهام وضمانات التحقيق في الإسلام» ١ .
 أما ضمانات المحاكمة فقد قررها الإسلام قبل أربعة عشر قرناً .
 الضمانة الأولى والكبرى هي الحكم بشريعة الله التي يتمثل فيها العدل
 الرباني الشامل « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ٢ .
 ولا يقضى القاضي بالحد إلا إذا استوثق تماماً أن المتهم غير معذور في الجرم
 الذي ارتكبه ، وإلا فالحكم هو درء الحد بالشبهة لقوله صلى الله عليه وسلم :
 « ادروا الحدود بالشبهات » ٣ .

« سرق غلمان لابن حاطب ابن أبي بلتعة ناقة لرجل مزني فأتى بهم عمر
 فأقروا فأمر كثير ابن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولي رده ، وقال لابن حاطب :
 والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم
 الله عليه ، لحل له ، لقطعت أيديهم . فإذا لم أفعل فلا غرمك غرامة توجعك .. ثم
 التفت إلى المزني فقال : يامزني ! بكم أريدت منك ناقةك ؟ قال بأربعمائة . قال
 عمر لابن حاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة ! » ٤ .
 فحكم عمر رضي الله عنه أولاً بدرء الحد لقيام شبهة الجوع دافعا للسرقة .
 وحكم ثانياً بعقاب « الفاعل الأصلي » وهو صاحب الغلمان الذي استخدمهم ولم
 يشبعهم فدفعهم الجوع إلى السرقة ، فغرمه ضعف ثمن الناقة .
 كما أوقف عمر حد السرقة عام الجوع تطبيقاً للمبدأ ذاته : ادروا الحدود
 بالشبهات .

ومن الضمانات أن القاضي لا يقضى بعلمه وإنما بالقرائن والأدلة وشهادة
 الشهود العدول . ولا يقضى القاضي وهو غضبان ، ولا يقضى وهو معرض لأي
 عارض يؤثر في قدرته على الحكم الصحيح .
 وكذلك ضمانات التنفيذ قررها الإسلام ، وزاد فيها ضمانات لم يتضمنها أي
 قانون أرضى حتى هذه اللحظة، وهي رد الاعتبار الكامل للمجرم بعد تطبيق الحد
 عليه .

فأما في التنفيذ فلا يجوز تعدى العقوبات المقررة شرعاً . قال صلى الله عليه

١ « رجعت في الكلام عن ضمانات الاتهام وضمانات التحقيق إلى بحث لم يبشر للدكتور محمد سعد الرشيد
 الأستاذ بقسم القضاء بجامعة أم القرى بعنوان « حقوق الإنسان في الإسلام »

٢ « سورة المائدة [٤٤]

٣ « رواه عبد الله بن عباس ورد في كتاب الكامل لاس عدي ورواه مسند الإمام أبي حنيفة للحارثي

٤ « رواه الطبراني

وسلم : « من جلد حدا في غير حد فهو من المعتدين » ١ «
وأما فيما بعد التنفيذ فيكفي هذان المثالان لتقرير تكريم الاسلام للانسان
وإن هبط في لحظة عابرة مادام قد كفر عنها بالعقوبة التي وقعت عليه وبالتوبة
إلى الله .

« حدثنا قتيبة بن سعيد .. عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أتى برجل قد شرب فقال اضربوه . قال أبو هريرة فمنا الضارب بيده والضارب
بمنعله والضارب بثوبه . فلما انصرف قال بعض القوم : أخذك الله ! فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتقولوا هكذا . لا تعينوا عليه
الشيطان » ٢ «

وجاء في قصة ماعز بن مالك : « فأمر به فرجم ، فسمع النبي صلى الله عليه
وسلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه : انظر إلى هذا الذي ستر الله
عليه فلم تدعه نفسه الخبيثة حتى رجم رجم الكلب .. فسكت عنهما ، ثم سار
ساعة حتى مربيغة حمار شائل برجليه ، فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالا : نحن
ذان يارسول الله . قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ! فقالا : يانبي الله من
يأكل من هذا ؟! قال : فما نلتما من أخيكما أنفا أشد من أكل منه » .

تلك ضمانات الإسلام التي سبق بها الديمقراطية بأكثر من ألف عام .
وأما الحقوق فقد قررها الإسلام كذلك في وقت مبكر كانت أوروبا والعالم كله
يعيش في الظلمات .

فأما الحقوق السياسية التي تفاخر بها الديمقراطية فقد كان الإسلام أول
من أزال « القداسة » عن الحاكم بإفراد الله بالالوهية والربوبية ، فلا يعبد إلا
الله ولا تطبق شريعة إلا شريعة الله .

جاء الإسلام والحكام ذوو قداسة حقيقية لا مجازية . بعضهم توجه إليه
شعائر التعبد كقيصر وكسزي ، وكلهم يشرعون فتسرى شريعتهم في الرعية
أمرا غير مردود .

وجاء الإسلام ليقول : لا إله إلا الله . ولا معبود إلا الله . ولا حاكم له حق
التشريع إلا الله .

وعندئذ تقررت الحرية السياسية الحقيقية للناس .

١ . رواه الطبراني

٢ . رواه الطبراني

ليست الحرية كامنة في مجلس نيابي أو عملية تصويت شعبية ، إذا كان نتيجة ذلك كله أن تتحكم فئة معينة من الناس في رقاب بقية الناس . إنما الحرية الحقيقية مرتبطة بتحديد من له حق التشريع .. فإذا كان البشر هم الذين يشرعون فلا حرية في الحقيقة، إنما عبودية مقنعة من جانب وربوية زائفة من جانب .. وإذا كانت الحاكمية لله فهنا يتجرد الحكام من الربوبية ويصبحون عبيدا لله كبقية العباد .

إن الذي جاء به الإسلام أعظم بكثير في تقرير حرية الإنسان من كل ما أتت به الديمقراطية بعد الصراع الممتد الذي قامت به الشعوب لاستخلاص حقوقها من الطغاة . فما زال الحكام في الديمقراطية - من وراء ستار - يشرعون ، فيشرعون لمصالحهم على حساب الآخرين . من خلال المسرحية الطريفة المتمثلة في حق الانتخاب وحق الترشيح ووجود نواب وبرلمانات .

إن الذي صنعه الإسلام هو سلب الحكام أصلا حق التشريع . وبذلك وحده تكف أيديهم عن إيقاع الظلم بالمحكومين ، وبذلك وحده يتحرر الناس فيشبعون بالعزة الحقيقية إزاء الحكام .

لقد قال الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » ١ »

فقال أبو بكر الخليفة الأول رضي الله عنه : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » وقال مثل ذلك عمر رضي الله عنه .

ووقف عمر رضي الله عنه يخطب الناس فقال : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا . فقال له سلمان الفارسي : لاسمع لك اليوم علينا ولا طاعة ! فلم يغضب عمر العربي القرشي أمير المؤمنين لهذه المقالة من سلمان الفارسي . ولم يأمر بالقبض عليه واعتقاله ، إنما قال له : وله ؟ قال سلمان : حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي انتزرت به وأنت رجل طوال لا يكفيك البرد الذي نالك كبقية المسلمين ! فلا يغضب عمر العربي القرشي أمير المؤمنين مرة أخرى من هذه المقالة من سلمان ، إنما ينادي ابنه عبدالله فيقول له . نشدتك الله هذا البرد الذي انتزرت به أهو بردك ؟ فيقول : نعم ! ثم يقول موجه خطابه للناس : إن

١ . سورة النساء [٥٩]

أبى رجل طوال لا يكفيه البرد الذى ناله كبقية المسلمين ، فأعطيته بردى ليأترز به ' عندئذ يقول سلمان الآن مر ' نسمع ونطع ' ولم يكن سلمان متمردا على السمع والطاعة الواجبة للحاكم المسلم ، إنما كان يريد فقط أن يستوتق - لله - من كون عمر رضى الله عنه قائما بتنفيذ شريعة الله على الوجه الأكمل ، وكان عمر يعلم دافع سلمان إلى مساءلته فيرضى - لله - بهذه المسألة التى لم يقبلها على نفسه حاكم فى الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ولا فى غيرها من نظم الحكم على الإطلاق ' .

ويقول عمر : إذا أحسنت فأعينونى ، وإذا أسأت فقومونى ! فيقول له سلمان : والله لو وجدنا فىك اعوجاجا لقومناه بحد السيف ، فيقول عمر - راضيا لله - الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقومه بحد سيفه " تلك هى الحرية السياسية فى الإسلام ' منشؤها عبادة الله وحده دون شريك ، التى يترتب عليها نزع القداسة عن الحكام فى الأرض ، كما يترتب عليها نزع حق التشريع من الحكام بسترار أو بغير سترار .. فيحس المؤمن الذى يعبد الله حق عبادته بعزة الاستعلاء التى تسنده أمام الحكام .

خطب عمر الناس فقال : لا تغالوا فى المهور . فقامت له امرأة من عامة المسلمين فقالت يوسع الله وتحرج أنت ؟! إن الله يقول « وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » قال عمر أخطأ عمر وأصاب امرأة !

وصحيح أن الله قد ترك أمورا للاجتهاد البشرى ، يضع البشر فيها تشريعات تلائم ما يجد من الأحوال ، ولكن هذه أولا محكومة بالأصول العامة للشريعة وليست متروكة للهوى البشرى كما يحدث فى الديمقراطيات .. وهى ثانيا اجتهادات يقوم بها أولو العلم من فقهاء الأمة الذين يقر الناس لهم بالقدرة على الاجتهاد ، وليست لأى إنسان يفتى فيها بعلم أو بغير علم كما يحدث فى البرلمانات عند التصويت على أى قرار ، إذ تؤخذ القرارات بأغلبية الأصوات ، وتتكافأ أصوات الذين يعلمون والذين لا يعلمون ' .

وتبقى الأمور الجارية التى تدخل فى باب « السياسة » وهذه يلزم الحاكم أن يستشير فيها ثم يتحمل مسئوليته بعد الاستشارة ؛ بشرط ألا يخالف نصا من الكتاب والسنة أو ما اجمع عليه العلماء ، ولا يصادم أصلا من أصول الشريعة العامة .

أما حق التعليم فقد نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نصا ، بل جعله فريضة : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ١ (وعلى كل مسلمة لأنها داخلية في النص) ودون الدخول في تفصيل ما يكون من العلم فرض عين وما يكون غرض كفاية ، فإن التعليم لم تكن له مشكلة في العالم الإسلامي ، إلا في العصور المتأخرة حين بعد الناس عن حقيقة الإسلام . أما في عصور الازدهار فقد كان الإقبال شديدا على التعليم ، وكانت الدولة والمجتمع والأفراد يتعاونون في توفير العلم لكل راغب مجانا ، بلا تكاليف ، بل كانت الدولة تجرى المعاشات للطلاب لتعينهم على طلب العلم دون مشغلة بأمر القوت ، وكانت أوقاف المسلمين الذين يقفون أموالهم على التعليم تكفل المأوى والملبس والمطعم للطلاب فضلا عن التعليم » ٢

أما حق العمل أو الإعاشة الذي أكرهته الدول الديمقراطية عليه إكراها بسبب المطالبة المستمرة من العمال ، وبسبب الخوف من الشيوعية ، فقد قرره الاسلام ابتداء دون مطالبة من أحد ، ودون صراعات في المجتمع . وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قواعد مسئولية الدولة عن جميع رعاياها إما بإعطائهم فرصة كريمة للعمل ، وإما بإعالتهم من بيت المال . جاءه رجل يسأله فأعطاه دراهم وقال له اذهب فاشتر حبلأ وفأسا واحتطب وبع ما تحتطب للناس . ثم أمره أن يعود إليه ليخبره بما كان من أمره . وكان يوزع أموال الزكاة والغنائم والفيء على المحتاجين بمقتضى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » ٣

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ٤
« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ٥

١ . رواه ابن ماجه
٢ . ظل الأزهر يفتح أبوابه لطلاب العلم الف سنة كاملة معتمد على أوقاف المسلمين ومثل الأزهر كثير من الجامعات الاسلاميه القديمة في العالم الإسلامي كله .
٣ . سورة التوبة : ٦٠ [٦٠]
٤ . سورة الانفال [٤١] « ٥ . سورة الحشر [٧]

ورغم قلة الموارد في أول أيام الدولة الإسلامية فإن المبدأ قد تقرر واضحا محددا وهو أن الدولة مسئولة عن جميع رعاياها بقدر ما تسمح مواردها . وعلى الرغم من أن التكافل في الإسلام ليس مهمة الدولة وحدها ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى بالتكافل في داخل الأسرة وحدد لذلك نظاما دقيقا توزع التراكات بمقتضاه ، كما وزع التكاليف داخل الأسرة بحيث تشمل مجموع أفرادها ، كما أمر بالتكافل في داخل المجتمع ، وحض القادرين على كفالة غير القادرين ... على الرغم من ذلك فإن مسؤولية الدولة ظلت قائمة ، لا يسقطها عنها وجود التكافل في داخل الأسرة وفي داخل المجتمع . بل تصل الحساسية في قلب عمر رضى الله عنه أن يقرر مسؤولية الدولة لا عن الأدميين الذين يستظلون بظلها فحسب ، بل عن كل كائن حي ، فيقول قولته الشهيرة : لو عثرت بغله بالعراق (أوقال بصنعاء) لكنت مسؤولا عنها لم لم أسولها الطريق ! ثم يصل الأمر في أيام عمر بن عبدالعزيز أن يقول يحيى بن سعيد : بعثنى عمر على صدقات افريقية فاجتبيتها فبحثت عن فقراء أعطيها لهم فلم أجد فقد أغنى عمر بن عبدالعزيز الناس ! فاشتريت بها عبدا فأعتقتهم !

وجاء في كتاب « الأموال » للإمام الحافظ أبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤هـ : (ص ٣٥٧ - ٣٥٨) وحدثنى سعيد بن أبى مريم عن عبدالله بن عمر العمرى عن سهيل بن أبى صالح عن رجل من الأنصار قال : كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن - وهو بالعراق - « أن أخرج للناس أعطياتهم » فكتب إليه عبدالحميد : « إنى قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقى في بيت مال المسلمين مال » فكتب إليه : « أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه » فكتب إليه : « إنى قد زوجت كل من وجدت وقد بقى في بيت مال المسلمين مال » . فكتب إليه بعد مخرج هذا : « أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على أرضه . فإننا لا نريد لهم لعام ولا لعامين . »

وجاء فيه [ص ٧٣٨]

« قال : حدثنى يحيى بن بكير قال : سمعت الليث بن سعد يقول : كتب عمر ابن عبدالعزيز : « أن اقضوا عن الغارمين » . فكتب إليه : « إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث » فكتب عمر : « إنه لابد للمرء المسلم من مسكن يسكنه وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، ومن أن يكون له

الأثاث في بيته . نعم ! فاقضوا عنه فإنه غارم ! » .
إلى هذه الدرجة العجيبة يصل الاسلام في تقرير مبدأ مسئولية الدولة عن
جميع أفرادها ، ويصل التنفيذ العملي في صدر الاسلام لهذا المبدأ قبل أن يثور
الثأرون ويطالبوا بهذه الحقوق بأكثر من ألف عام . وما تزال الديمقراطيات -
رغم كل خوفها من الشيوعية ، وكل خوفها من تمرد العمال - لا تصل إلى تقرير
هذا الحق كاملاً كما قرره الإسلام .

وأما حق التعبير عن الرأي فإن الإسلام لم يكفله حقاً للناس على حكامهم بل
جعله واجباً على الناس لله ! يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين
النصيحة » قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ورسوله وخاصة المسلمين
وعامتهم » « ١ » فجعل إبداء النصيحة واجباً . وإبداء النصيحة هو التوجيه
إلى الصواب والنهي عن الخطأ أيما كان الذي وقع الخطأ منه حاكماً أو
محكوماً .. وهذا - في صورته الدينية - هو هو التعبير عن الرأي الذي سعت
الشعوب لانتزاعه انتزاعاً من قبضة الحكام الكارمين ، مع فارق رئيسي ، أنه هنا
إبداء الرأي مخلصاً لله ، لتقويم ما اعوج من أحوال المجتمع ، لا احترافاً للتأييد
أو احترافاً للمعارضة بحسب موقع الحزب الذي ينتمي الإنسان إليه من
الحكم ! ولا لهوى شخصي أو بغض شخصي .

ويطلب الإسلام من كل مسلم أن يكون له موقف ويكون له رأي ، ليتمكن
مجموع الأمة من القيام بأخطر مهمة تقوم عليها خيرية الأمة واستحقاقها
للوجود وللصلاح ، بينما تقع اللعنة على الأمة إن أهملتها ، ألا وهي الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » « ٢ »

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون » « ٣ »
وفي الجانب الآخر :

١ . رواه مسلم .

٢ . سورة آل عمران [١١٠]

٣ . سورة آل عمران [١٠٤]

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » « ١ »

ولذلك يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلم ألا يكون إمعة ، لا رأى له ولا موقف سوى مجازاة « الرأى العام » . « ! يقول عليه الصلاة والسلام : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إذا أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أو أساءوا ألا تظلموا » . « ٢ »

وهذا كله بطبيعة الحال ضد مصلحة « الحكام » ما لم يستقيموا على النهج ! فليس من مصلحة الحكام أن تكون شعوبهم متيقظة لأعمالهم ، مبادرة بنقد الخاطئ منها عن طريق « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ولكن الإسلام لا يعمل لمصلحة الحكام كما تعمل الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية لصالح الرأسمالية رغم كل المسرحية الطريفة - مسرحية الحرية ! - إنما يعمل الإسلام لمصلحة كل الناس ، لأنه نزل لهداية كل الناس ، وليقوم الناس كلهم بالقسط : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » « ٣ »

بل يشدد رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن توجيه النصيح للحكام - لا مجرد إبداء الرأى من أجل إبداء الرأى فحسب كما تصنع الديمقراطية في أكثر أحوالها - فيقول صلى الله عليه وسلم . « لا والذي نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » « ٤ »

ويقول صلى الله عليه وسلم : « سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » « ٥ »

وهكذا يتبين أن ما جعلته الديمقراطية حقاً مكتسباً وناضت الشعوب من أجله ، جعله الإسلام واجباً ، وقرره قبل الديمقراطية بأكثر من ألف عام ، وقرره على طريقة أفضل وأصدق وأعمق .. ككل شئ قرره الإسلام .

« ١ » سورة المائدة [٧٨ - ٧٩]

« ٢ » رواه الترمذى

« ٣ » سورة الحديد [٢٥]

« ٤ » رواه ابو داود والترمذى

« ٥ » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد

ولكن الاسلام أعطى هذه الضمانات والحقوق كلها مع المحافظة التامة على إنسانية الإنسان ، وهنا مفرق الطريق بين الإسلام والجاهليات جميعا ، ومن بينها هذه الديمقراطيات :

لقد كرم الله الإنسان ابتداء كما أسلفنا :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » « ١ »

وكل ما فرضه الإسلام من الفرائض والتكاليف ، وكل ما قرره من الحقوق والواجبات منظور فيه إلى « تزكية » الإنسان ، وهى جزء من التكريم المراد للإنسان ، بل هى قمة ذلك التكريم .

فعبادة الله وحده دون شريك - فضلا عن كونها حقا لله على عباده - هى فى الوقت ذاته تزكية للإنسان وتكريم . فالإنسان كما قلنا أنفا عابد بطبعه لا بد أن يعبد ، ولا يوجد إنسان لا يعبد . إنما الفارق بين إنسان وإنسان يأتى من توجيه العبادة إلى الله الحق ، أو توجيهها إلى إله زائف لا يستحق أن توجه العبادة إليه .

والإنسان فى أعلى حالاته وأكرم حالاته حين يكون عابدا لله الحق ، وهو أسفل سافلين حين ينتكس من عبادة الله إلى عبادة غير الله من الآلهة المدعاة ، التى تهبط بالإنسان من إنسانيته المكرمة ، فيصبح كالدابة التى لا تعى ، بل يصبح أسوأ وأضل :

« لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم أذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعم ، بل هم أضل » « ٢ »

فعبادة الله الواحد ، وإفراده بالالوهية والربوبية التى يفرضها الإسلام حقا خالصا لله تعالى ، هى فى الوقت ذاته رفعة للإنسان وتكريم ، وفلاح فى الدنيا والآخرة سواء ، وتزكية ترفع الإنسان إلى عليين :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » « ٣ »
« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى

١ . سورة الإسراء [٧٠]

٢ . سورة الأعراف [١٧٩]

٣ . سورة البقرة [٢٥٧]

الظلمات ليس بخارج منها ؟ « ١ »
« والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » « ٢ »
« إن الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ،
إلا المصلين .. » « ٣ »

فمن باب رفع الانسان إلى مقام الإنسانية الكريمة يربط الإسلام قلوب
المؤمنين بالله ، ويجعل صيانة العقيدة والمحافظة عليها أول واجبات الإمام
المسلم والدولة المسلمة .

ومن باب رفع الإنسان إلى مقام الإنسانية الكريمة كذلك يربى الإسلام
المسلمين على الأخلاق الفاضلة التي تنظف المشاعر وتنظف السلوك ، وتنقى عن
النفس خبثها ، وتصونها عن التردى إلى مستوى الحيوان ، فيفرض النظافة في
الأعمال كلها : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا
القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح
ذبيحته » « ٤ »

فإذا كان الأمر أمر عبادة موجهة إلى الله فالإسلام يطهرها من الرياء
والنفاق . وإن كان أمر معاملات تجرى بين الناس بعضهم وبعض فقد فرض
الإسلام فيها النظافة الكاملة في كل شيء :

في التعامل المالى حرم الربا والاحتكار والسرقه والغصب والتهب والسلب
والغش والخديعة وأكل مال الأجير ، كما لعن السرف والترف وكنز المال . « ٥ »
في التعامل السياسى حرم الظلم الناشئ أصلا من قيام البشر بالتشريع
لأنفسهم ، كما حرم كل تعامل لا يقوم على العدل .

في التعامل الاجتماعى حرم الغيبة والنميمة والغمز واللمز والتجسس ، كما
بغض في الفرقة والتباغض والتحاسد ، واهتمام كل إنسان بنفسه وعدم المبالاة
بالآخرين « ٦ » .

١ . سورة الانعام [١٢٢]

٢ . سورة العصر

٣ . سورة المعارج (١٩ - ٢٢)

٤ . انظر فصلا بعنوان « ويرح ذبيحته » في كتاب « قياسات من الرسول »

٥ . هذه كلها هي أدوات الرأسمالية في التضخم .

٦ . هذه الأخيرة هي سمة الحياة الغربية .

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ١ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ٢ . « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر » ٣ .

في التعامل الجنسي حرم الفاحشة بجميع أنواعها وحرم ما يؤدي إلى الفاحشة من خلوة أو تبرج أو تكسر أو خلاعة أو اختلاط بغير موجب .

في كل شيء ، هناك أخلاق .. وهذا هو اللائق بالإنسان ..

وحين يكرم الإسلام الإنسان على هذا النحو ، وينظف مشاعره وسلوكه على هذه الصورة ، فإنه يعطيه ما أعطاه من حقوق و ضمانات ، فتكون في مكانها الطبيعي ، تكملة للتكريم ، وتوكيدا للتكريم ، لا كالذي تصنعه الديمقراطية الليبرالية ، التي تعطى بالفعل الضمانات والحقوق ولكنها تدمر الإنسان كله في نهاية المطاف !

هذا هو الاسلام ، وهذه هي الديمقراطية في نظر الإسلام ..

ومن ثم فلا سبيل إلى مزج الإسلام بالديمقراطية ! ولا سبيل إلى القول بأن الإسلام نظام ديمقراطي ! أو أنه يتقبل النظام الديمقراطي أو يسايره ، لمجرد وجود شبه عارض في بعض النقاط !

إن هذا الالتقاء العارض بين الديمقراطية والإسلام في الحقوق والضمانات وفي مبدأ الشورى لا يجوز أن ينسبنا حقيقتين مهمتين :

الحقيقة الأولى : أنه لا ينبغي لنا - من الوجهة العقيدية - أن نقرن النظام الرباني إلى نظام جاهلي ، فضلا عن أن نحاول سند النظام الرباني بنسبته إلى النظام الجاهلي ، أو أن نتصور أننا نمتدح النظام الرباني بأن نقول إنه يحمل نقط التقاء مع النظام الجاهلي !

إنها الهزيمة الداخلية تندس إلى أفهامنا دون أن نحس ، وتجعلنا نعتقد أن النظام الرباني في حاجة إلى دفاعنا نحن عنه وتبريره ! كما تجعلنا نعتقد أننا نمتدح النظام الرباني بأن نقول للناس إنه يحتوى على الفضائل التي تحتوى عليها النظم السائدة اليوم !

١ . رواه الحاكم والطبراني

٢ . رواه الشيخان .

٣ . متفق عليه .

إنها الهزيمة التي أصابت المسلمين في مواجهة الغرب الظافر المتغلب ، الذي غلب على بلاد الإسلام . وما كانت لتوجد في نفوسنا لو أننا واثقون في أنفسنا مستعلون بالإيمان كما وجهنا الله :

« ولاتهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلمون إن كنتم مؤمنين » ١ .

الهزيمة التي نشأت في الحقيقة من الخواء الذي أصاب المسلمين في القرون الأخيرة .. الخواء من حقيقة الإسلام .. فلما جاءت الهزيمة العسكرية أمام الغرب كانت كالضربة القاضية التي بهرت المهزومين وهزتهم من الأعماق . وماكانوا لينبهروا - رغم الهزيمة العسكرية - لولا ذلك الخواء الداخلي من حقيقة الاسلام « ٢ »

إنه لا ينبغي لنا من الوجهة العقيدية ان نقرن الإسلام إلى الجاهلية في أى صورة من صورها ، إلا إذا قلنا كما قال الله في كتابه المنزل :

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » « ٣ »

والحقيقة الثانية : أن هذا الشبه العارض في بعض النقاط لايجوز أن ينسبنا الفارق الضخم في القاعدة . إن القاعدة التي يقوم عليها الإسلام تختلف اختلافا جذريا عن القاعدة التي تقوم عليها الديمقراطية .

في الإسلام يعبد الله وحده دون شريك ، وتحكم شريعة الله عنوانا على التوحيد ، وتحقيقا له في عالم الواقع . وفي الديمقراطية يعبد غير الله ، وتحكم شرائع البشر عنوانا على عبادة غير الله وتوكيدا لها في عالم الواقع . وفي الإسلام يزكى الإنسان ليحتفظ بإنسانيته في أحسن تقويم، وفي الديمقراطية ينكس الإنسان فيهبط أسفل سافلين .

تلك فروق جوهرية في القاعدة ، فما قيمة اللقاء العارض في بعض النقاط أيا كانت القيمة الذاتية لتلك النقاط ؟!

على أننا - من الوجهة التاريخية البحتة - لايجوز أن نقرن الإسلام إلى الديمقراطية وهو سابق على تلك الديمقراطية بأكثر من ألف عام ! إنما ينبغي

« ١ » سورة آل عمران [١٣٩] .

« ٢ » تحدثنا عن أساس هذا الانبهار في كتاب « واقعنا المعاصر » كما تحدثنا عن أسباب انتشار المذاهب الهدامة في العالم الإسلامي .

« ٣ » سورة المائدة [٥٠] .

- إن أردنا ! - أن نقول: إن الديمقراطية هي التي تحمل بعض المشابه من الإسلام في بعض النقاط ، لا أن الإسلام هو الذي يحمل مشابه من الديمقراطية .. فاللاحق هو الذي يلحق بالسابق في عرف التاريخ !

وفي العالم الاسلامي كتاب ومفكرون ودعاة مخلصون مخدوعون في الديمقراطية . يقولون نأخذ ما فيها من خير ونترك ما فيها من شرور . يقولون نقيدها بما أنزل الله . ولا نبيح الإلحاد ولا نبيح التحلل الخلقى والفوضى الجنسية !

إنها إذن لن تكون الديمقراطية .. إنما ستكون الإسلام !!
إن الديمقراطية هي حكم الشعب بواسطة الشعب . إنها تولى الشعب سلطة التشريع . فإذا ألغى هذا الأمر أو قيد بأى قيد فلن تكون هي الديمقراطية التي تقوم اليوم بهذا الاسم .

واسألوا الديمقراطيين ! قولوا لهم : نريد أن نحكم بما أنزل الله ، ولا يكون للشعب ولا ممثليه حق وضع القوانين إلا فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة ولا إجماع من علماء المسلمين !

قولوا لهم : نريد أن ننفذ حكم الله في المرتد عن دينه ، وحكم الله في الزانى والسارق وشارب الخمر ..

قولوا لهم : نريد أن نلزم المرأة بالحجاب ، ونمنع التبرج، ونمنع العري على الشواطىء والطرق . ونريد في الوقت ذاته أن نكون ديمقراطيين !

اسألوهم وانظروا ماذا يقولون !

سيقولون على الفور : إن هذه ليست الديمقراطية التي نعرفها .. ففى الديمقراطية يشرع الناس في جميع الأمور لايلتزمون في شىء منها بغير ما يريده الشعب (نظريا على الأقل ! وإن كانت الحقيقة كما أسلفنا أن الرأسماليين هم الذين يشرعون من وراء الستار !)

سيقولون إن الديمقراطية لا تتدخل في « الحرية الشخصية » للأفراد ! فمن شاء أن يرتد عن دينه فهو حر ! ومن شاء أن يتخذ صديقة أو خلية فهو حر . ومن شاءت أن تكشف عن صدرها أو ظهرها أو ساقها فهي حرة ! ومن شاءت أن تخون زوجها فهي حرة ما لم يشتك الزوج !

سيقولون : ابحثوا عن اسم آخر لما تريدون .. اسم غير الديمقراطية !

فإذا كان كذلك فلماذا نصر نحن على تسمية نظامنا الذى نريده باسم الديمقراطية؟! لماذا لا نسميه الإسلام؟!

ويقول بعض الناس مخلصين : إنما نريد أن يلتزم الحاكم - المسلم - برأى الشعب فيما ليس فيه نص .. وهذا هو لب الديمقراطية الذى نريد أن نطعم به الحكم الإسلامى ، لنمنع طغيان الحكام !
وما نريد هنا أن ندخل فى الخلاف الفقهى القائم حول الشورى فى الإسلام وهل هى ملزمة لولى الأمر أم غير ملزمة .. فهذا يخرج بنا عن موضوع الكتاب .. إنما نقول فقط إن هذا أمر اجتهادى ليس فيه نص .. فالنص يلزم بالشورى ذاتها . ولكن لا يوجد نص يقول إن الشورى ملزمة أو غير ملزمة . ولذلك اختلف الفقهاء ..

ومادام الأمر اجتهاديا فمن حق أى جيل من أجيال المسلمين أن ينظر فيه ، وينظر فى وجه المصلحة فيه .. فيوم نكون جادين فى تطبيق الإسلام ، فعندئذ يجتمع علماء الأمة وينظرون فى الأمر ، ويقررون على ضوء الظروف القائمة وقتها إن كانت المصلحة تقتضى جعل الشورى ملزمة أو غير ملزمة .. وتلتزم الأمة وحكامها بما يراه علماءها المجتهدون ، فإذا رأى علماء الأمة أن المصلحة تتحقق بالتزام الحاكم بنتيجة الشورى كان هذا الاجتهاد ملزما لأولياء الأمور . أما أن نستعير « ترسا » من آلة أجنبية عن الإسلام لنركبه فى النظام الإسلامى لمجرد ظننا أنه صالح ومفيد ، فليس هذا هو التفكير السديد . إن الإسلام نظام متكامل . وحاجات المسلمين ومصالحهم تتحقق من داخل النظام لا من خارجه . فلنعزم أولا أن نكون مسلمين حقا ، ملتزمين بما أنزل الله ، ثم لننظر بعد ذلك ما يفتح الله به علينا من الحلول :

« والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » « ١ » .

وينظر أناس إلى البغى والطغيان القائم فى بلاد الإسلام فيقولون : ليست الديمقراطية خيرا من هذا البغى ؟ على الأقل نستطيع أن نتنفس ونحن أمنون ! لايجىء حاكم فيعتقل من يعتقل ، ويعذب من يعذب ، ويقتل من يقتل دون أن

« ١ » سورة العنكبوت [٦٩]

يجرؤ أحد على معارضته بسبب عدم وجود نظام ديمقراطي ، فلو أننا اتخذنا الديمقراطية - مع تحكيم شريعة الله - أمنا من طغيان الحكام .
ويبدو هذا القول وجيها لأول وهلة .. ففي النظم الديمقراطية القائمة في الغرب لا يطغى الحكام بهذه الصورة ، ولا يعتقلون الناس بعشرات الألوف ، ولا يعذبونهم في السجون ، ولا يقتلون أحدا بالتعذيب داخل الأسوار ، مما تعرض له الدعاة المسلمون في أكثر من مكان في العالم الإسلامي ..
ولكن القضية إذا أنعمنا النظر فيها لا تبدو بهذه الوجهة التي تبدو عليها للوهلة الأولى .

فلا يوجد نظام في الأرض - حتى النظام الرباني - يعمل من تلقاء نفسه دون قيام البشر على حراسته ، أو يعطي الضمانات للناس دون أن يحرص الناس على التمسك بهذه الضمانات .
والديمقراطية ليست نظاما آليا يحمل ضماناته في طياته ويطبقها من ذات نفسه ! إنما هي - ككل نظام - تعتمد على البشر الذين يقومون بالتطبيق .
وانظر إلى تاريخ الديمقراطية في بلادها التي تطبقها وتتمتع بضماناتها . إنه تاريخ نضال مستمر وثورات ودماء ! والذي أعطى الضمانات - كما أشرنا أكثر من مرة في هذا الفصل - لم يكن هو الديمقراطية في ذاتها ، إنما كان نضال الشعب وثورته على الظلم ، وتحمله التضحيات والضحايا في سبيل الحصول على حقوقه . وبهذا النضال نال الشعب مانال من حقوق وضمانات .
ولكن تعال الآن فحاول تطبيق الديمقراطية في بلاد لم تناضل ولم تتجه للنضال من أجل الحريات والضمانات والحقوق . فماذا تفعل الديمقراطية للناس ؟! هل تصون لهم حقوقهم وتعطيهم ضماناتهم ؟

إن الديمقراطية ليست ثوبا يشتري جاهزا ويلبس ، إنما ينبغي أن يفصل تفصيلا على قدر لابس ! لا بد من « المعاناة » التي تعطي ثمرة التجربة !
حين ثار المصريون ثورتهم « الوطنية » « ١ » عام ١٩١٩ ، كان تشرشل وزيرا في وزارة المحافظين القائمة يومئذ في بريطانيا ، فجاءت أخبار الثورة في الصحف فسأل تشرشل : ماذا يريدون ؟ (يعنى المصريين) قالوا له : يريدون دستورا وبرلمانا ! فقال تشرشل : أعطوهم لعبة يتلهون بها Give them a toy

١ كانت ثورة إسلامية في منشأها ولكن سعد زغلول حولها إلى ثورة وطنية (انظر فصل « القومية والوطنية » في من الكتاب وانظر فصل « آثار الانحراف » في كتاب « واقع المعاصر ») .

to play with وكانت كلمة صادقة من ذلك الداهية الساخر المتغطرس الخبيث .

ولست أقول إن النظم الطغيانية التي حلت محل تلك الديمقراطيات المزيفة هي خير منها ' كلا ' ألف مرة كلا ! فالطغيان الذي يعتقل عشرات الألوف ويعذبهم أبشع تعذيب عرفته البشرية ، ويقتل منهم من يقتل في محاكمات صورية أو داخل الأسوار بالتعذيب ، هو شر خالص لاخير فيه .

ولكني أقول فقط إن البديل ليس هو الديمقراطية .. إنما هو الإسلام !

فإذا كانت العودة إلى الإسلام اليوم تحتاج إلى جهاد طويل وتضحيات ، وإلى تربية جادة على حقائق الإسلام ، فإن الديمقراطية كذلك ! إنها لن تعطى ثمارها - في الجانب الخير منها - إلا بجهاد وتضحيات ، وتربية جادة تربي جيلا من الناس يحرص على حريات الديمقراطية وضمائنها ، ويأبى أن تزيف إرادته التزييف الغليظ الذي كان يحدث باسم الديمقراطية في بلادنا . وإلا فستظل لعبة يتلهى بها الناس كما قال ذلك الخبيث .

فإذا كان لابد من التربية في الحالتين ولابد من الجهاد والتضحيات في الحالتين ، أفليس الأولى أن يكون الجهد في سبيل الخير الحقيقي ، الخير الذي لايعود على المسلمين وحدهم إنما يعود على البشرية جمعاء ، وهو خير الدنيا والآخرة في ذات الوقت ؟!

ولقائل أن يقول ، إن التاريخ السياسي الإسلامي مليء بالمظالم ، وهو يحمل اسم الاسلام .

ونقول نعم ! إن هذا صحيح !

ولكن ماسببه على وجه التحديد ؟!

ظلم من الحكام .. نعم .. ولكن أين كانت الأمة الإسلامية ؟ ولماذا سكنت على الظلم ، ولم تأطر حكامها على الحق أطرا كما أمرها زعيمها وقائدها صلى الله عليه وسلم ؟

إنها استنامت للظلم تفريطا في حقوقها وواجباتها التي قررها الإسلام .. أفلو كانت الديمقراطية هي الحاكمة بدلا من الإسلام كان المفرطون لايفرطون ؟!

وهل الأمة التي ضيعت الإسلام كانت ستحافظ على الديمقراطية ؟!

إن القضية أن هذه الأمة تحتاج أن تربي من جديد على حقيقة الإسلام ..
وبغير ذلك لا ينصلح حالها ولا يستقيم .
ومن كان يرى أن مشوار الإسلام مشوار طويل ، وأن مشوار الديمقراطية
أقصر منه وأيسر ، فنحن نقول له إن الديمقراطية ذاتها في سبيلها إلى
الانهيار ، بما تحمل في طياتها من عوج وانحراف قائم في أصل النظام .
وسيبقى الإسلام ..
سيبقى لأنه دين الحق ..
ولأن الله تكفل بحفظه ..
ولأنه هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ البشرية كلها من ضلالها البعيد
الذي لجت فيه ..
ولأن هناك مؤمنين بهذا الدين يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا ، والله هو
الذي وعدهم بالتمكين :
« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما
استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من
بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا » ١ «

الشيوعية

أولاً : المادية الجدلية

ثانياً : المادية التاريخية

ثالثاً : المذهب الاقتصادي بين النظرية والتطبيق

تمهيد

ليست الشيوعية مذهباً اقتصادياً بحتاً كما يتبادر إلى ذهن كثير من الناس حين يسمعون لفظة الشيوعية ، وإن كان لها ولا شك مذهب اقتصادى محدد متميز ، إنما هى تصور شامل للكون والحياة والانسان ولقضية الألوهية كذلك ، وعن هذا التصور الشامل ينبثق المذهب الاقتصادى . ثم إنها من جهة أخرى مذهب اقتصادى واجتماعى وسياسى وفكرى مترابط متشابك لا يمكن فصل بعضه عن بعض .

ومن ثم فلا يمكن عزل المذهب الاقتصادى وحده بعيداً عن التصور الشامل الذى ينبثق عنه ، أو بعيداً عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية المصاحبة له .

وسواء كان الوضع الاقتصادى وحده هو الأصل الأصيل والأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية المصاحبة له مجرد انعكاس له كما تقول النظرية الشيوعية ، أم كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية أصيلة فى صدورهما عن التصور الشامل كأصالة الوضع الاقتصادى كما نزعتم نحن ..

ففى جميع الحالات لا يمكن فصل المذهب الاقتصادى وحده ، وعزله عن التصور الشامل الذى انبثق عنه ، ولا عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية المصاحبة له ، كما أنه لا يمكن تركيبه على تصور آخر ، ولا على أوضاع سياسية واجتماعية وفكرية مغايرة . وليس هذا خاصاً بالشيوعية إنما هو من طبيعة كل تصور ، وكل أوضاع ناشئة عن ذلك التصور .

وليس معنى هذا أن التصور الواحد لا يمكن أن ينبثق عنه إلا صورة اقتصادية وسياسية واجتماعية وفكرية واحدة محددة السمات والتفصيلات ، فسوف نرى في أثناء العرض والمناقشة أن ذلك غير صحيح . ولكن الذى نعنيه أن هناك اتجاهات عامة تربط بين المذهب الاقتصادى السياسى الاجتماعى الفكرى وبين التصور الذى ينبثق عنه ذلك المذهب . وأن هذه الاتجاهات العامة لا بد أن توجد فى كل صورة من الصور الاجتماعية السياسية الاقتصادية الفكرية التى يمكن أن تنبثق عن ذلك التصور ، وإن اختلفت فيما بينها فى الدرجة أو فى التفصيلات والسمات الخاصة .

وبديهي أن التصور الشيوعى للألوهية والكون والحياة والانسان هو تصور مادى بحت .. فهم يسمون نظريتهم العامة « المادية الجدلية » ويسمون تفسيرهم للتاريخ « التفسير المادى للتاريخ » ومن أقوالهم :

لا إله . والكون مادة .

وحدة العالم تنحصر فى ماديته .

المادة سابقة فى الوجود على الفكر .

لم يكن هناك وقت لم تكن المادة موجودة فيه ، وليس هناك وقت لا تكون المادة موجودة فيه ..

الإنسان نتاج المادة .

الفكر نتاج الدماغ والدماغ مادة .. الخ

وحين نتكلم عن الشيوعية فلا بد أن نتكلم عن أمور ثلاثة رئيسية هى المادية الجدلية، والمادية التاريخية، والمذهب الاقتصادى الشيوعى مع الأوضاع السياسية والاجتماعية المصاحبة له .

ولكننا نحب أن نشير فى هذا التمهيد إلى أن ماركس - أو الشيوعيين بصفة عامة - ليسوا هم الذين ابتدعوا الاتجاه المادى . وإنما الحق أنهم قمته ومنتهاه .

وليسوا هم الذين ابتدعوا « الجدلية » تفسيراً للحياة البشرية أو الوجود عامة بما فيه الكون المادى والحياة البشرية ، إنما « الجدلية المادية » أو « المادية الجدلية » هى التى يمكن أن تعتبر ابتداعهم الخاص .

الاتجاه المادى قديم فى الحياة الأوروبية قدم النهضة الأوروبية إن لم نقل

إن له جذورا أعمق من ذلك في بعض اتجاهات الفلسفة الإغريقية القديمة واتجاهات الحياة الرومانية قبل المسيحية .. وقد قامت النهضة الأوروبية كما سبق أن بينا على أساس معاد للدين .. كما أنها رجعت إلى الأصول الإغريقية الرومانية تستمد منها ، بدلا من الأصول الدينية المسيحية التي كانت منسلخة منها منقلبة عليها .

وحين قامت النهضة انقلب اتجاه التفكير في أوروبا من ناحيتين اثنتين على الأقل ، كلتاهما تعضد الأخرى . فقد كان الفكر الأوروبي في فترة المسيحية الكنسية قائما على أصول دينية - بصرف النظر عما وقع فيها من تحريف عن الأصل الصحيح - أي أن مصدرها - في حسهم - هو الله والوحى الربانى ؛ ثم إن هذا الفكر كان متجها إلى الآخرة على أساس أن الخلاص الحقيقي هناك ، وأنه لا خلاص في الحياة الدنيا .. أما فكر النهضة فقد كان « إنسانيا » من جهة ، وموجها إلى الحياة الدنيا من جهة أخرى . إنسانى لابعنى أنه مشغول بالقيم العليا الإنسانية، أو « بالإنسان » كما ينبغي أن يكون في صورته الكريمة اللائقة بإنسانيته ، ولكن بمعنى أن الإنسان - وليس الله - هو الذى ينبغي أن يكون مصدر المعرفة ، وأن الفكر الإنسانى - لا الوحي الربانى - هو المرجع الذى يرجع إليه الإنسان في النظر إلى أمور حياته ومتطلباتها . وفي الوقت ذاته كان هذا الفكر موجها إلى النظر في الحياة الدنيا ومقتضياتها لا إلى الآخرة ومقتضياتها .

يقول رايوبرث عن عصر النهضة :

« وامتاز ذلك العصر بشعور الإنسان فيه بشخصيته المطلقة وبمعارضته للسلطة وذويها ، وذهابه شوطا بعيدا في اعتبار العالم كله وطن له .. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية مخالفة في ذلك طريقة التفكير في القرون الوسطى .. ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء « الإنسانيين » ... وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون « نمو الفردية » أعنى الرأى القائل بأن الإنسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه . وهو رأى كان قد أهمل في عصر عبودية العقل » ١ «

« ١ » كتاب مبادئ الفلسفة ، ترجمة محمد أمين - دار الكتاب العربى بيروت ص ١١٩ - ١٢٠

ويقول جرين برينتون عن الحركة الانسانية وفنونها :
« إنه طالما كانت العصور الوسطى في الواقع عصورا دينية ، وطالما أن عصر النهضة يعنى على الأقل محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية إن لم نقل الزندقة ، فإن فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة ، أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية .. » « ١ »

هذا الاتجاه المنسلخ من الدين ، المتجه إلى المادية ، لم يقفز دفعة واحدة من الروحانية الدينية إلى المادية اللادينية ، ولا استقام نحو هدفه في طريق واحد خال من الذبذبات . ولكنه كان في كل قفزة يتجه إلى المادية أكثر ، ويبعد عن الله أكثر ، وإن عاد فهي عوّة مؤقتة سرعان ما يتخلص منها ويمضى مبعدا في الطريق المنسلخ عن الدين . فقد انفصلت الفلسفة عن الدين بادئ ذي بدء ، نبذت البحث فيما « وراء الطبيعة » كما كانوا يطلقون على أمور الغيب المتعلقة بالله سبحانه وتعالى وخلقه لهذا الكون ، والغاية من هذا الخلق ، والوحى الربانى المتضمن للقيم الدينية التى ينبغى أن يتبعها الإنسان من أجل الخلاص فى الآخرة . واتجهت الفلسفة إلى دراسة « الطبيعة » والكون المادى ، والإنسان باعتباره كائنا موجودا فى الطبيعة ، لا بوصفه كائنا قد خلقه الله لغاية معينة وهدف يؤديه . وكان التقدم العلمى الذى حدث منذ بدء النهضة أحد العوامل الهامة التى ساعدت على اتجاه الفكر الأوروبى ذلك الاتجاه من خلال المذهب العقلى والتجريبى .

يقول برينتون عن المذهب العقلى :
« فالمذهب العقلى يتجه إلى إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون، ومن الوجهة التاريخية فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلى نحو الكون .. » « ٢ »
ويقول الدكتور محمد البهى عن المذهب التجريبى :

« إن تحصيل الانسان للحقائق الكونية ومعرفة بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها ، ومعنى ذلك أن الحس المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية . ففى العالم الحسى تكمن حقائق الأشياء . أما انتزاع المعرفة

١ . كتاب مشأ الفكر الحديث - ترجمة عبد الرحمن مراد ص ٢٧

٢ . المصدر السابق

مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية ، والبحث عن العلة في هذا المجال ، فأمر
يجب أن يرفض . ولهذا تكون كل نظرية أو كل فكرة عن وجود له طابع الحقيقة
فيما وراء الحس نظرية أو فكرة مستحيلة « ١ »

وهكذا يتفق المذهب العقلي مع المذهب التجريبي في البعد عن الله وتجنب
البحث عن الغاية من الخلق ، والنظر في « الطبيعة » بدلا من النظر فيما وراء
الطبيعة أى في عالم الحس بدلا من عالم الغيب .

ثم كان نيوتن ونظرياته خطوة دافعة على الطريق !

فقد اكتشف نيوتن بعض ما سمي عندهم « قوانين الطبيعة » التي يجرى
الكون المادى بمقتضاها . وكشف عما يسمى عندهم « قانون السببية » أى
القانون الذى يفسر ظواهر الطبيعة بردها إلى أسبابها الظاهرة . وقد كان هذا في
أوروبا ذريعة لنفى الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة ، أى نفى الأسباب
الغيبية « ٢ »

يقول برينتون :

« إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة في
هذا العالم . ويمضى فيقول : « الإله في عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة .
ولكن صانع هذه الساعة الكونية - ونعنى بها الكون - لم يلبث أن شد على
رباطها إلى الأبد ، فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد . أما الرجال على هذه
الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء من آله الضخمة هذه ليجروا عليها . وإنه
ليبدو أن ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الكونية
الضخمة ، الذى لا يستطيع إذا ما أراد التدخل في شؤون عمله » « ٣ » !!

ويقول :

« ولكن ثمة أناس ذهبوا إلى أبعد من ذلك واعتبروا فكرة الإله فكرة شريرة ،
وخاصة إذا ما كان إله الكنيسة الكاثوليكية . وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر
اسم الملحدون . وهم يعتقدون أن ليس ثمة وجود لمسيح أو لإله المسيحية ،
ويقولون إن الكون ليس إلا مجموعة متحركة ذات نظام معين يمكن فهمه باللجوء
إلى السببية المعتمدة على أسس العلوم الطبيعية » « ٤ »

١ . الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٩٧

٢ . انظر حديثا عن السببية ودورها في الفكر الأوروبى في فصل « العقلانية » من هذا الكتاب .

٣ . منشأ الفكر الحديث ص ١٥١

٤ . المصدر السابق ١٥٢

ويقول راندال :

« إنه لأقرب إلى الطبيعي والمعقول أن نشق من صور المادة كل شيء موجود لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها ، ونختبر كل لحظة نتائجها بأنفسنا ، ونراها فاعلة متحركة ، تنقل الحركة وتولد القوة دون انقطاع ، من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة ولكائن روى لا يستطيع أن يخرج من طبيعته ما ليس هو بذاته ، كائن بعجز بحكم الجوهر المنسوب إليه أن يفعل أى شيء أو أن يحرك أى شيء » ١ !!

هكذا سار الاتجاه المادى الملحد بخطوات حثيثة حتى جاء القرن التاسع عشر ، فظهرت الفلسفة الوضعية التى تقول بسيادة الطبيعة على الدين والعقل ، واعتبارها هى الأصل الذى ينبثق عنه كل شيء .. والذى يبعث الأفكار فى العقل البشرى ، وكان من أهم فلاسفتها « أوجست كومت » و « فرباخ »

ويذكر الدكتور محمد البهى فى تلخيصه الجيد للفكر الغربى فى تلك الفترة فى كتابه « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » أن هذه الفلسفة التى تدعو إلى سيادة الطبيعة ، إن لم نقل عبادتها ، قد قامت فى جو معين حيث تولدت الرغبة فى نفوس كثير من العلماء والفلاسفة لمعارضة الكنيسة التى كانت تملك نوعا خاصا من المعرفة تستغله فى معارضة خصومها وهى المعرفة الدينية ، فقام هذا الفريق من العلماء والفلاسفة بالهجوم الشديد عليها باسم العلم ، وقامت هذه الفلسفة الوضعية على أساس تقدير الطبيعة وحدها مصدرا للمعرفة اليقينية .. ثم يقول : « ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة فى نظرها هى التى تنقش الحقيقة فى ذهن الإنسان ، وهى التى توحى بها وترسم معالمها .. هى التى تكون عقل الإنسان . والإنسان - لهذا - لا يملئ عليه من خارج الطبيعة ، أى لا يملئ عليه مما وراءها ، كما لا يملئ عليه من ذاته الخاصة .. إذ ما يأتى من (ما وراء الطبيعة) خداع للحقيقة وليس حقيقة !! وكذا ما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضا !!

« وبناء على ذلك يكون « الدين » وهو روى (أى ما بعد الطبيعة) خداعا ! هو روى ذلك الموجود الذى لا يحدده ولا يمثله كائن من كائنات الطبيعة . « هو روى الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية . وكذلك « المثالية العقلية » وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى . إذ هى تصورات الإنسان من نفسه من

١ . « تكوين العقل الحديث ج ١ ، ص ٤٣٩ »

غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة التي يعيش فيها وتدور حوله « ١ »
« إن عقل الانسان في منطق هذه الفلسفة - أى ما فيه من معرفة - وليد الطبيعة التي تتمثل في الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية .. إنه مخلوق ، ولكن خالقه هو الوجود الحسى . إنه يفكر ، ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به . إنه مقيد مجبر ، وصانع القيد والجبر هو حياته المادية . ليس هناك عقل سابق على الوجود المادى ، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان عن طريق الوعى .. عقل الانسان ومعرفته يوجدان تبعاً لوجود الإنسان المادى . هما انطباع لحياته الحسية المادية التي يتنفسها » « ٢ »

أما الجدلية فقد سبق إليها « فيشته » و « هيجل »
وقد كان الأصل في التفكير الجدلى « الديالكتيكى » هو البحث عن تصور فلسفى يسمح بوجود المتناقضات في الكون والحياة ويفسرها . ذلك أن المنطق اليونانى القديم (الذى يسمى المنطق الصورى Formal logic) ينفى وجود التناقض في الكون والحياة ، ويقيم تفكيره على أساس أن الشئ ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا . فوجود أى شئ هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه .

ولكن الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة - وإن كان قد رجع إلى الفكر الإغريقى يستمد منه - كانت له التفتات مختلفة عنه في مجالات متعددة . حتى إذا كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى - عصر سيادة العقل في الفكر الأوروبى المسمى عندهم « بعصر التنوير » - قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض في الكون والحياة ويحاولون تفسيره ، من أبرزهم « فيشته » و « هيجل » . فأما فيشته « ١٧٦٢ - ١٨١٤ م » - كما يقول الدكتور محمد البهى في كتابه السابق الذكر - فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة « ٣ » .. وأما « هيجل » « ١٧٧٠ - ١٨٣١ » فيستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة ، ثم

١ . « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى الطبعة الثامنة . ص ٢٩٨ - ٢٩٩

٢ . المصدر السابق ص ٢٩٩

٣ . « كان هذا قبل ظهور الفلسفة الوضعية المادية التي قالت بسيادة الطبيعة مقابل العقل والدين . والواقع أن الفلسفة الوضعية قامت رداً على الفلسفة العقلية التي سادت في عصر التنوير

لدعم فكرة الألوهية من جديد ، وتأكيد الوحي كمصدر أخير للمعرفة ، لأنه يعتبر الله سبحانه عقلا . « ١ »

واستخدم هيجل مصطلحات خاصة به ، هي الدعوى ومقابل الدعوى وجامع الدعوى ومقابلها ، وتصور أن هناك فكرة مطلقة أطلق عليها اسم العقل المطلق - وهو الله عنده - انبثقت عنه الطبيعة وهي تغايره تماما ، لأنها مقيدة ومتفرقة وهي عنده العقل المقيد . ثم انتقلت الفكرة من الطبيعة أو العقل المقيد إلى جامع يلتقى فيه الشيء ونقيضه وهو العقل المجرد الذى هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها ، وهو جامع الدعوى ومقابلها .

وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق ، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة . إذن فالعقل المجرد الذى يتحقق فى أى وحدة من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمتقابلين : جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله ، ولل فكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة .. ذلك أنه ليس له إطلاق العقل المطلق ولا تحديد عقل الطبيعة ، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى « ٢ »

وأما المنبع الثالث لفكر ماركس بعد الجدلية التى أخذها من هيجل ، والمادية التى أخذها من كومت فهو دارون ونظرية التطور . جاء دارون يؤله الطبيعة ويقول عنها إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق . ويؤكد أن الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانية . وأن التطور ذاته - الذى أنشأ الحياة فى المادة الميتة أول مرة ، ثم تدرج بها من الكائن الوحيد الخلوية إلى الإنسان - هو نتيجة أسباب مادية بحتة ، وأنه يتم مستقلا عن إرادة الكائن الحى ، وبصورة حتمية لا يملك الكائن الحى الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها .

ماذا بقى من فكر ماركس لم يسبق إليه ؟
« ٣ »
ومع ذلك فلم يكن عمل ماركس هو مجرد التجميع للأفكار السابقة والمعاصرة
فلقد أنشأ فلسفة مترابطة متكاملة - أيا كانت مصادرها الأولية - تشمل كل

١ . عن الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٨٩ بتصرف

٢ . عن المصدر السابق ص ٢٩٠ - ٢٩١ بتصرف

٣ . هيجل وكومت سابقان عليه ودارون معاصر له .

القضايا المحيطة بالإنسان ، وتشملها جملة وتفصيلا على نحو غير مسبوق في الفكر الغربي .
وليس هنا مجال تقويم هذه الفلسفة في جملتها وتفصيلاتها « ١ » ولا مجال السؤال عن كونها -
في صورتها التي قدمها بها ماركس - كانت قينة أن يلتفت إليها ويحتفي بها ، أم تترك « لتمر » كما
مرت فلسفات كثيرة من قبل ، لتصبح فيما بعد « كلاما » يدرسه طلاب الفلسفة في
الجامعات . أم تهاجم الهجوم الذي يقضي عليها ويحجبها من منبئها .. لولا ذلك السند الضخم
الذي لقيته من العناصر التي سعت لإقامة الشيوعية في الأرض والدعاية لها في الآفاق « ٢ » .

إنما نحن هنا في مجال تقديم الشيوعية كما قدمها أصحابها ، من خلال
الموضوعات الثلاثة الرئيسية : المادية الجدلية والمادية التاريخية والمذهب
الاقتصادي بين النظرية والتطبيق .

١ - سيأتي تقويم النظرية تاليا في هذا الفصل ، بعد عرض خطوطها العريضة كما يقدمها أصحابها
٢ - سيأتي الرد على هذا السؤال ضمننا في أثناء مناقشة النظرية .

أولاً : المادية الجدلية

المادية الجدلية تصور خاص لقضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان يقوم على أساس مادي بحت ، على أساس أن المادة هي الشيء الوحيد الأصيل في هذا الكون ، وأن كل ما في الكون ومن فيه منبثق من المادة ومحكوم بقوانين المادة ، ولا وجود له خارج نطاق المادة . كما يقوم هذا التصور من جهة أخرى على أساس وجود التناقض في طبيعة المادة ، ومن ثم في كل ما ينبثق عنها من مخلوقات ومن كيانات بما في ذلك الكيان الإنسانى ، فهو كيان مادي من جهة ، ومحكوم بصراع المتناقضات من جهة أخرى ، وتلك هي حقيقة كل أفكاره ومشاعره ، وكل نظمه ومؤسساته ، وكل قيمه ومبادئه ، وكل حركته خلال التاريخ .

وقد قلنا في التمهيد السابق إن ماركس لم يكن هو مبتدع الجدلية أو التفكير الجدلى على العموم ، فقد أخذ هذا التفكير عن هيجل ، ولكنه خالفه فيه مخالفة أساسية ، إذ قال هيجل إن الفكرة هي الأصل وهي سابقة في وجودها على المادة ومسيطرة عليها ، وقال ماركس إن المادة هي الأصل وهي سابقة على الفكرة ومسيطرة عليها .

يقول ماركس : « لا يختلف منهجى الجدلى في الأساس عن منهج هيجل فقط ، بل هو نقيضه تماما ، إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة ، هي مبدعة الواقع الذى ليس سوى الصورة الظاهرية للفكرة ، أما أنا فأعتقد على العكس ، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان » « ١ »

ومن ثم سميت جدلية هيجل الجدلية المثالية وجدلية ماركس الجدلية المادية أو المادية الجدلية .

أما أصل التسمية - في لغتها الأصلية - فهي مأخوذة عن الإغريقية ، ومستمدة من الحوار الفلسفى الإغريقى Dialogos الذى كان يمثل وجهتى نظر مختلفتين تتجادلان حتى تتبين الحقيقة من خلال الجدل . وغالبا ما تكون الحقيقة مزيجا من وجهتى النظر المختلفتين ، ولكن يظهر جليا في أثناء الحوار

« ١ » أصول الفلسفة الماركسية تأليف جورج بوليتزر وآخرين تعريب شعبان بركات ، ج ١ ص ٣٦ نقلا عن راس المال لماركس .

(أو الجدل) أن إحدى وجهتي النظر تأخذ في التراجع المؤدى إلى التسليم ، بينما تأخذ وجهة النظر الأخرى في التفوق حتى تتغلب في نهاية الأمر ، وإن كانت في غلبتها لا تلغى الأخرى تماما بل تبقى منها بقايا تظهر في الحقيقة النهائية . والمادية الجدلية - كما سنبين فيما بعد - تتصور الأحداث - سواء كانت طبيعية (مادية) أو بشرية - على هذا النحو ذاته ، حيث تكون هناك قوة في اتجاه معين وقوة أخرى مناقضة لها في الاتجاه المضاد ، ثم يحدث الصراع الذي ينتهى بانتهزام القوة الأولى - وإن كانت لاتزول تماما - وتغلب القوة الثانية وإن كانت غلبتها ليست تامة . ومن ثم فإن استعارة « الجدل » من ذلك الحوار الفلسفى مناسبة لذلك التصور ومعبرة عنه .

يقول ستالين في تعريف الجدلية « الديالكتيك » :

« أخذت كلمة «ديالكتيك» من الكلمة اليونانية «دياليجو» ومعناها المحادثة والمجادلة . وكان الديالكتيك يعنى في عهد الأولين : فن الوصول إلى الحقيقة باكتشاف المتناقضات التى يتضمنها استدلال الخصم ، وبالتغلب عليها . وكان بعض الفلاسفة الأولين يعتبرون أن اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بين الآراء هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة. فهذا الأسلوب الديالكتيكى في التفكير ، الذى طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة ، أصبح هو الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة .

، إن حوادث الطبيعة بموجب هذه النظرية هى متحركة متغيرة دائما وأبدا ، وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة نتيجة القوى المتضادة في الطبيعة » ١ «

ويقول كاريومنت : « الجدلية إذن هى فكرة ونقيضها ، ثم تألف النقيضين ، فالفكرة تؤيد القضية ، والنقيض ينكرها ، أو بتعبير هيجل ينفيها . أما تألف النقيضين فيحتضن ما هو حقيقى . الفكرة ونقيضها ، وبهذا يقربنا خطوة نحو الحقيقة . ولكن حالما يتعرض تألف النقيضين إلى فحص أدق ، نجدها هى أيضا ناقصة . وهكذا تعود العملية فتبدأ من جديد بفكرة أخرى بنفيها ونقيضها ، ثم يجرى التوفيق بينها بتألف جديد للنقيضين . وبهذه الطريقة المثلثة يمشى الفكر حتى يصل في النهاية إلى المطلق .

١ . المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لستالين ص ١٤ - ١٥ من الترجمة العربية

وعندئذ يمكننا أن نواصل التفكير إلى ما لانهاية دون أن نشهد أى تناقض . وعلى هذا يطلق اصطلاح الجدلية على عملية التنازع والتوفيق التى تجرى ضمن الواقع ذاته داخل الفكر البشرى بشأن الواقع « ١ » .
وسنعرض هنا الخطوط العريضة للمادية الجدلية كما قدمها أصحابها من خلال النقطتين التاليتين :

أولا : المادة : أزليتها وأبديتها وأسبقيتها فى الوجود على الفكر .
ثانيا : قوانين المادة التى تحكم « الطبيعة » وتحكم الحياة البشرية كذلك .

أولا : المادة : أزليتها وأبديتها ، وأسبقيتها فى الوجود على الفكر .

جاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لسبركين وياخوت » (ترجمة محمد الجندى ص ٢٩ من الترجمة العربية)

« .. فليس للكون نهاية ولا حدود . العالم أبدى وليس له أى بداية ولن يكون له أى نهاية » ٢ « ومن هنا فأى عالم « غيبى » غير مادى غير موجود ولا يمكن أن يوجد . وفى واقع الأمر إنه إذا لم يوجد شئ غير المادة فلا يوجد غير عالم مادى واحد . وهذا يعنى أنه عند الأشياء والظواهر المختلفة فى العالم المحيط بنا ، هناك خاصية واحدة توحيدها هى ماديتها »

ويقول ستالين فى كتابه « المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ٢٩ من الترجمة العربية) :

« وتقوم المادية الفلسفية على مبدأ آخر ، وهو أن المادة والطبيعة والكائن ، هى حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك أو الشعور وبصورة مستقلة عنه . وأن المادة هى عنصر أول ، لأنها منبع الإحساسات والتصور والإدراك ، بينما الإدراك هو عنصر ثان مشتق ، لأنه انعكاس المادة : انعكاس الكائن . وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت فى تطورها درجة عالية من الكمال . أو بتعبير أدق : إن الفكر هو نتاج الدماغ ، والدماغ هو عضو التفكير . فلا يمكن بالتالى فصل الفكر عن المادة دون الوقوع فى خطأ كبير »

١ . الشيوعية بطريا وعمليا لكاربو هنت ص ٢٨ من الترجمة العربية
٢ . يقصد أنه أرل أبدى وليس أديا فقط كما جاء فى التعبير

وجاء كذلك في كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادة التاريخية » (ص ٤٣ من الترجمة العربية) :

« وجدت الطبيعة ليس فقط قبل الناس وإنما عموماً قبل الكائنات الحية ، وبالتالي مستقلة عن الإدراك . وهى الأولية . أما الإدراك فلم يستطع التواجد قبل الطبيعة فهو ثانوى »

وجاء فيه كذلك (ص ٣٠ - ٣١ من الترجمة العربية) :

« يقول لوموسوف : إنه فى الطبيعة لا ينشأ شئ من لا شئ . ولا يختفى أبداً بلا أثر . ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن المادة (الطبيعة) قد وجدت دائماً ، لأننا إذا سلمنا بأنه فى وقت من الأوقات لم يكن هناك شئ فى العالم ، أى لم تكن توجد مادة فمن أين لها أن تنشأ ؟ ولكن ما إن توجد المادة فهذا يعنى أنها لم تنشأ فى أى وقت من الأوقات ، بل وجدت دائماً وستوجد دائماً ، فهى أبدية وخالدة . ولهذا لم يمكن أن تخلق فلا يمكن أن يخلق ما لا يمكن إفناؤه ، وبذلك فالمادة لم تنشأ أبداً بل وجدت دائماً وستوجد دائماً فهى أبدية » « ١ »

وجاء فى كتاب « المادية التاريخية » تأليف ف . كيل م . كوفالزون ، « ترجمة أحمد داود ومراجعة الدكتور بدر الدين السباعى (طبع دار الجماهير بدمشق ١٩٧٠م ، ص ٥٠٠ من الترجمة العربية) :

« ثم إن العلم إذ يكشف عن الصلات الطبيعية بين ظواهر الطبيعة ، يطرد فى تطوره الإله من الطبيعة ويدحض خطأ المثالية ، ويؤيد صحة النظرة المادية إلى العالم . والعلم يتفق مع المادية فى بحثه عن الحقيقة فى الحياة ذاتها وفى الطبيعة ، ويفسر ظواهر الطبيعة والمجتمع معتمداً على القوانين الموضوعية ، وهذا مايدل على أن العلم الحقيقى ذو طابع مادى . إن العلم مادى بطبيعته وبجوهره ، والمثالية غريبة عنه وعدوة له » .

وجاء فى كتاب « أصول الفلسفة الماركسية » (تأليف جورج بولتيرز وآخرين ، تعريب شعبان بركات ، إصدار المكتبة العصرية ببيروت ، ج ١ ص ٢٠٦ من الترجمة العربية) :

« ولقد أثارت النزعة المادية الجدلية هذه الصعوبات ، وفقدت فكرة « الله » كل محتواها ، ولم يعد النقاش حول وجود الله أو عدم وجوده - ذلك النقاش

١ . يقصد أنها أزلية أبدية .

الذى أثار النزعة الالحادية الساذجة غير الماركسية - يثار كما أثير سابقا ، لقد أصبح الله كما قال لابلاس : فرضية لا نفع فيها .. « ولا شك في أن فكرة الله والعواطف الدينية موجودة ، وهي تتطلب تفسيراً ، وبدلاً من القول بأن الإنسان كائن « إلهي » يجمع في ذاته العنصر الطبيعي « ١ » والعنصر الإلهي ، كما يجمع عنصر الموت والخلود في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى ، يجب القول بأن « الله » و« الديانة » هما ظاهرتان إنسانيتان ، لأن العنصر الإلهي هو من إبداع الإنسان وليس الإنسان هو من إبداع الله .

ويقول ماركس في كتاب « بؤس الفلسفة » (ترجمة اندريه يازجى ، طبع دار البيقطة العربية بسوريا ومكتبة الحياة بلبنان ص ١٢٣ - ١٢٤ من الترجمة العربية) :

« إن العزة الإلهية والهدف الإلهي هي الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ . والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئاً ، ويقول إنجلز في كتابه « لود فيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية » (إصدار دار التقدم بموسكو ص ١٦ من الترجمة العربية) :

« فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة ، فهي الأساس الذى نمونا عليه . نحن الناس نتاجها أيضاً . وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شيء . أما الكائنات العلوية التى ولدت في مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاس خيالى لوجودنا نحن » .

تكفي هذه النصوص « ٢ » لبيان الفكرة . فواضح منها أنهم يعتبرون المادة هي الأصل الذى انبثقت منه كل الكائنات ، الحية منها وغير الحية ، بما في ذلك الإنسان . وأنها جميعاً قد انبثقت عنها بطريق الخلق .

أى أن المادة هي الخالق الذى أنشأ الحياة وأنشأ الإنسان . وأنشأ كل ما يحتوى عليه عالم الإنسان من أفكار ومشاعر . أما المادة ذاتها فلم تخلق ، إنما كانت دائماً موجودة وستظل دائماً موجودة ،

١ . يقصدون المادى .

٢ . قام بجهد تجميع هذه النصوص وغيرها مما جاء في هذا الفصل « أحمد العواشة » في رسالته لـ « ماجستير بعنوان موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ » بإشراف وإشراف الأستاذ عبد الرحمن حبيكة الميداني

أى أنها أزلية أبدية ، موجودة بذاتها ومنشئة لغيرها .
وأما الله - الأزل الأبدي الخالق البارئ المصور المريد الفعال لما يريد - فهو
عندهم خرافة ابتدعها خيال الإنسان . والحقيقة الوحيدة هي المادة ، والوحدة
التي تجمع الكون هي ماديته .

* * *

ثانيا :قوانين المادة التي تحكم الطبيعة وتحكم الحياة البشرية كذلك .

للمادة عند الماديين قوانين ثابتة تحكمها هي : الترابط والحركة والتطور
والتناقض .

١ - الترابط في الطبيعة :

يقول ستالين في كتاب « المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ١٥ -
١٦ من الترجمة العربية) :

« إن الديالكتيك - خلافا للميتافيزيقية - لايعتبر الطبيعة تراكما فرضيا
للأشياء ، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض ، أو أحدها مستقل عن الآخر ،
بل يعتبر الطبيعة كلا واحدا ، ومتماسكا ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها
ارتباطا عضويا ، ويتعلق أحدها بالآخر ويكون بعضها شرطا لبعض بصورة
متقابلة .

« لذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن أى حادث من حوادث الطبيعة لايمكن
فهمه إذا نظر إليه منفردا بمعزل عن الحوادث المحيطة به . إذ أن أى حادث في
أى ميدان من ميادين الطبيعة ، يمكن أن ينقلب إلى عبث فارغ لا معنى له إذا
نظر إليه بمعزل عن الشروط التي تكتنفه . وعلى العكس ، يمكن فيهم أى حادث
من الحوادث وتبريره إذا نظر إليه من حيث ارتباطه ارتباطا لا ينفصم بالحوادث
المحيطة به ، أى إذا نظر إليه كما تحدده وتكيفه الحوادث التي تحيط به »

(ويلاحظ من كلام ستالين في تعرضه للميتافيزيقيا أن الميتافيزيقا التي كانت
عندهم - والتي كانوا يواجهونها بالمادية الجدلية - كانت تفترض أن كل شئ من
الأشياء قائم بذاته ولا صلة له بغيره من الأشياء ، وأنه لا ترابط في النظام
الكوني بين أجزائه المختلفة) .

٢ - الحركة في الطبيعة :

جاء في كتاب « أصول الفلسفة الماركسية » (ج ١ ص ٤٩ من الترجمة العربية) :

« وفي الطبيعة لا يلعب الكون الدور الحاسم رغم أنه موجود وإنما تلعب هذا الدور الحركة والتطور والتغير . هذه الحركة ملازمة داخليا للمادة كخاصة جذرية لا تنفصل عنها ، ولا داعى لوضع السؤال التالى : من أين حصلت المادة على هذه الحركة ؟ لأنها موجودة منذ الأزل ، ولهذا لا داعى للسؤال الذى يقول : من الذى أكسب المادة الحركة ، ما دامت لا تنفصل عنها ، وتعتبر شكلا من أشكال وجودها »

وجاء في كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ٣٤ من الترجمة العربية) :

« ما قيل يعنى أنه لا يوجد فى العالم ظاهرة واحدة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها ، فهى تشمل كل شىء ، وفى كل مكان يمتد فعلها ، ولا يوجد شىء غير المادة المتحركة المتطورة ، وما يتولد عنها ، ولا يمكن أن يوجد . وهذا يعنى أنه لا يوجد غير عالم مادى واحد . ولهذا بالتحديد يشير إنجلز إلى أن وحدة العالم تنحصر فى ماديته . وبعبارة أخرى أن العالم واحد لأنه مادى »
ويقول ستالين فى كتاب « المادية الديالكتيكية » (ص ١٦ من الترجمة العربية) :

« إن الديالكتيك - خلافا للميتافيزيقيا - لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود . حالة ركود واستقرار . بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين . حالة تجدد وتطور لا ينقطعان . ففيها دائما شىء يولد ويتطور وشىء ينحل ويضمحل »
ويستشهد ستالين (ص ١٧ من الترجمة العربية من الكتاب السابق) بإنجلز حيث يقول الأخير : « إن الطبيعة من أضال الأجزاء إلى أكبر الأجسام : من حبة الرمل إلى الشمس ، من البروتوزوا (الخلية الحية الابتدائية) إلى الإنسان ، هى فى حركة دائمة من النشوء والاضمحلال ، هى فى مد لا ينقطع . فى حركة وتغير مستمرين وأبديين » .

٣ - التطور في الطبيعة :

يقول ستالين (ص ١٨ من الترجمة العربية لكتاب المادية الديالكتيكية) :

« إن الديالكتيك - خلافا للميتافيزيقية - لا يعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة ، لا تؤدي التغيرات الكمية فيها إلى تغيرات كيفية ، بل يعتبرها تطورا ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية إلى تغيرات ظاهرة وأساسية أى إلى تغيرات كيفية . وهذه التغيرات الكيفية ليست تدريجية بل هى سريعة فجائية ، وتحدث بقفزات من حالة إلى أخرى ، وليست هذه التغيرات جائزة الوقوع ، بل هى ضرورية ، هى نتيجة تراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدرجية ، ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن من الواجب فهم حركة التطور ، لا من حيث هى حركة دائرية ، أو تكرار بسيط للطريق نفسه ، بل من حيث هى حركة تقدمية صاعدة وانتقال من الحالة الكيفية القديمة إلى حالة كيفية جديدة ، وتطور ينتقل من البسيط الى المركب . من الأدنى إلى الأعلى » .. ويستشهد ستالين (ص ٢٠ - ٢١ من الترجمة العربية من الكتاب السالف الذكر) بقول إنجلز :

« يمكن القول إن الكيمياء هى علم التغيرات الكيفية الناشئة فى الاجسام عن تغيرات كمية . وكان هيجل نفسه يعرف ذلك فى عهده . لناخذ الأوكسجين فإذا جمعنا فى جزيئه ثلاث ذرات عوضا عن اثنتين كالعادة حصلنا على جسم جديد هو « الأوزن » الذى يختلف اختلافا بينا برائحته وبتأثيراته عن الأوكسجين العادى . وماذا نقول عن مختلف تراكيب الأوكسجين مع الأزوت أو مع الكبريت ؟ إن كل تركيب منها يعطى جسما مختلفا من حيث الكيفية عن جميع الأجسام التى تعطىها التراكيب الأخرى » .

٤ - التناقض فى الطبيعة :

يقول ستالين (ص ٢٢ من الترجمة العربية من الكتاب السابق ذكره) . « إن نقطة الابتداء فى الديالكتيك - خلافا للميتافيزيا - هى وجهة النظر القائمة على أن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوى تناقضات داخلية ، لأن لها جميعها جانبا سلبيا وإيجابيا ، ماضيا وحاضرا ، وفيها جميعا عناصر تضمحل أو تتطور . فنضال هذه المتضادات ، أى النضال بين القديم والجديد ، بين مايموت ومايولد ، بين ما يفنى ومايتطور ، هو المحتوى لداخلى لحركة التطور . هو المحتوى الداخلى لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية . ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن حركة التطور من الأدنى إلى الأعلى لا تجرى بتطور

الحوادث تطورا تدريجيا متناسقا ، بل بظهور التناقضات الملازمة للأشياء والحوادث ، بنضال الاتجاهات المضادة التى تعمل على أساس هذه التناقضات .

وجاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » لسيركين وياخوت (ص ٧٢ من الترجمة العربية) :

« فينحصر جوهر قانون وحدة صراع الأضداد فى أن جميع الأشياء والعمليات تلازمها جوانب داخلية متناقضة ، موجودة فى وحدة لا غصم ، وفى صراع مستمر فى نفس الوقت ، وصراع الأضداد هو بالتحديد المصدر الداخلى والقوة المحركة للتطور »

وجاء فى ص ٧١ من الترجمة العربية :

« نأخذ مجال الطبيعة الحية . هنا نرى بوضوح دور التناقض الجدلى كمصدر للتطور . من لايعرف أن الأطفال يشبهون الآباء ولكنهم ليسوا نسخة منهم تماما . فالتمطية والجمود مع ذلك لاوجود لهما . يرجع هذا أولا وقبل كل شئ إلى أن قانون الوراثة يعمل إلى جانب نقيضه - قانون التغير - وهو يضمن « عدم تشابه » و « عدم تكرار » وتغير كل الأجسام وتطورها . والوراثة بدورها تثبت هذه الخواص فى السلالة ، بخلاف ذلك يمكن أن تختفى التغيرات . وهكذا يسوق 'الصراع الأبدى بين القوتين المتضادتين : القابلية للتغير والوراثة ، عملية تطور الطبيعة الحية . ويحدث اختيار طبيعى نتيجة للصراع بين هذين الضدين . تولد القابلية للتغير قسما جديدة مفيدة . أما الوراثة فتجمعها فى السلالة . ونتيجة لذلك تتولد أنواع جديدة من الكائنات الحية . وليست القوة الخارجية ولا الرب ، إنما التناقضات الداخلية الطبيعية هى المصدر والمحرك الداخلى لعملية تطور الطبيعة الحية »

تلك هى قوانين المادة ..

وليس بنا - سواء هنا فى مجال العرض أو فى مجال المناقشة التى تتلوه - أن نتعرض لهذه القوانين ومدى صحتها من الوجهة العلمية . إنما الجانب الذى يهمنى أكثر من أى شئ آخر فى مجال بحثنا هو قولهم إن قوانين المادة بحذاقها تحكم الحياة البشرية فى جميع أشكالها وشتى ألوان النشاط فيها .

فأما عن الترابط فقد قالوا إن هناك ارتباطا لاينفصم بين الأفكار والمشاعر وبين الأوضاع والتغيرات المادية .

يقول ستالين (ص ٢٣ وما بعدها من الترجمة العربية لكتاب المادية
الديالكتيكية) :

« فإذا صح أن ليس في العالم حوادث منعزلة ، إذا صح أن كل الحوادث
متراصة فيما بينها وكيف بعضها البعض الآخر بصورة متبادلة ، فمن الواضح
أن كل نظام اجتماعي وكل حركة اجتماعية في التاريخ لا ينبغي الحكم عليها من
ناحية « العدالة الأبدية » أو من ناحية أية فكرة أخرى مقررة سلفا ، كما يفعل
المؤرخون على الغالب ، بل ينبغي لنا أن نبني حكما على أساس الظروف التي
ولدت هذا النظام وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطتين بها . إن نظام الرق يكون
في الظروف الحاضرة خرقا وبدعة مضادة للطبيعة ، ولكن نظام الرق في ظروف
المشاعية البدائية الآخذة بالانحلال ، هو حادث مفهوم ومنطقي ، لأنه يعنى
خطوة إلى الامام بالنسبة لنظام المشاعية البدائية .

« إن المطالبة بإقامة الديمقراطية البرجوازية في ظروف القيصرية والمجتمع
البرجوازي مثلا في روسيا سنة ١٩٠٥ كانت شيئا مفهوما وصحيحا وثوريا
تماما لأن الجمهورية البرجوازية كانت تعنى إذ ذاك خطوة إلى الامام .. ولكن
المطالبة بإقامة الجمهورية الديمقراطية البرجوازية في ظروف الاتحاد
السوفييتي الحاضر ، تكون خرقا ، وشيئا رجعيا ومضادا للثورة ، لأن
الجمهورية البرجوازية هي خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى الجمهورية
السوفييتية . كل شيء يتعلق بالظروف ، بالمكان والزمان .

« ومن الواضح أن وجود علم تاريخي وتطور هذا العلم شيئان مستحيلان
بدون هذا الفهم التاريخي للحوادث الاجتماعية ، فمثل هذا الفهم يمنع علم
التاريخ من أن يصبح فوضى احتمالات وكوم أخطاء سخيفة » .

ويقول ماركس (ج ١ ص ٣٠ من الترجمة العربية لكتابه الأيدولوجية
الألمانية) :

« إن نتاج الأفكار والتصورات والوعي مختلط بادئ الأمر - بصورة
مباشرة وثيقة - بالنشاط المادي والتعامل المادي بين البشر ، فهولغة الحياة
الواقعية . إن التصورات والفكر والتعامل الذهني بين البشر تبدو هنا على
اعتبارها إصرارا مباشرا لسلوكهم المادي ، ينطبق الأمر نفسه على الانتاج
الفكري كما يمثل في لغة السياسة ولغة القوانين والأخلاق والدين والميتافيزيا ..
إلخ عند شعب بكامله ، فالبشر هم منتجو تصوراتهم وأفكارهم .. حتى الأشباح

في العقل البشرى هي تصعيدات ناتجة بالضرورة عن تطور حياتهم المادية ،
التي يمكن التحقق منها تجريبيا والتي تعتمد على قواعد مادية ، ومن جراء ذلك
فإن الأخلاق والميتافيزياء وكل البقية الباقية من الأيدلوجية ، وكذلك أشكال
الوعى التي تقابلها ، تفقد في الحال كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتى فهي
لا تملك تاريخها ، وليس لها أى تطور ، إن الأمر على النقيض من ذلك ، فالبشر
إذ يطورون إنتاجهم المادى وعلاقاتهم المادية ، هم الذين يحولون فكرهم
ومنتجات فكرهم على السواء مع اواقع الذى هو خاصتهم . فليس الوعى هو
الذى يعين الحياة ، بل الحياة هي التى تعين الوعى .

ويقول إنجلز (ص ٢٢١ من الترجمة العربية لكتابه : أنتى دوهرنج) :
« فإنه ينبغى البحث عن الأسباب الأخيرة لساثر التبدلات الاجتماعية
والثورات السياسية ليس في أدمغة البشر . ليس في فهمهم النامى للحقيقة
والعدالة الأبديتين ، بل في التبدلات الطارئة على أساليب الانتاج والمبادلة .
وأما عن الحركة فقد قالوا إن الحياة البشرية تتحرك لأنها من أشكال المادة :
يقول مؤلفا كتاب « المادة التاريخية » (ص ١١ من الترجمة العربية) :
« والمادية التاريخية - خلافا للعلوم الأخرى - لا تدرس فقط هذه القوانين
الخاصة أو تلك من قوانين تطور أشكال معينة لحركة المادة ، وإنما هي تدرس
القوانين العامة الشاملة للحركة المادية ، والمجتمع هو أيضا شكل لحركة
المادة » .

أما التطور الذى قالوا إنه يحدث في المادة فقد بنوا عليه تطورا حتميا في
المجتمع البشرى ، ومن ثم نفوا النبات في أى وضع من الأوضاع ولا قيمة من
القيم :

يقول ستالين في كتابه : « المادية الديالكتيكية » (ص ٢٥ من الترجمة
العربية) :

« وبعد - إذا صح أن العالم يتحرك ويتطور دائما وأبدا . إذا صح أن اختفاء
القديم ونشوء الجديد هما قانون للتطور ، أصبح من الواضح أن ليست هناك
أنظمة اجتماعية ثابتة « غير قابلة للتغير » ولا مبادئ أبدية للملكية الخاصة
والاستثمار ! وليست هناك « أفكار أبدية » عن خضوع الفلاحين لكبار ملاكى
الأرض ، والعمال للرأسماليين »

ويقول (ص ٢٦ - ٢٧ من الترجمة العربية لكتابه المادية الديالكتيكية) :

« وبعد . إذا صح أن الانتقال من التغيرات الكمية البطيئة إلى تغيرات كيفية وفجائية وسريعة هو قانون للتطور فمن الواضح أن الثورات التي تقوم بها الطبقات المضطهدة هي حادث طبيعي تماما ولا مناص عنه .

« وبالتالي فالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتحرر الطبقة العاملة من النير الرأسمالي يمكن تحقيقها لا بتغيرات بسيطة بطيئة ، ولا بإصلاحات ، بل فقط بتغير كفي للنظام الرأسمالي ؛ أي بالثورة » .

ويقول موريس كورنفورث في كتاب « مدخل إلى المادية الجدلية » (ص ١٠٧ من الترجمة العربية لمحمد مستجير مصطفى) :

ونجد هذا القانون عن تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية في المجتمع كذلك . فقبل أن يوجد نظام الرأسمالية الصناعية حدثت عملية من تراكم الثروة في شكل نقود في أيدي قلة (عن طريق نهب المستعمرات أساسا) ومن تكون بروليتاريا لاتملك شيئا عن طريق تسييج الأرض وطرد الفلاحين . وعند نقطة معينة من هذه العملية ، حين تراكمت النقود الكافية لتزويد المنشآت الصناعية برأس المال ، وحين تحول عدد كاف من الناس إلى بروليتاريا لتقديم العمل اللازم ، نضجت الظروف لتطور الرأسمالية الصناعية ، عند هذه النقطة ولد التراكم في التغيرات الكمية مرحلة كيفية جديدة في تطور المجتمع .

« وتحدث التغيرات الكيفية عموما بفجائية نسبية - بوثة . إن شيئا جديدا يولد فجأة ، رغم أن إمكانياته كانت تحويها عملية التحول التدريجي للتغيرات الكمية المستمرة التي حدثت من قبل » .

أما التناقض فقد أثبتوه من قبل للمادة ، وحيث إن حركة المجتمع البشرى جزء من حركة المادة فقد احتوت على التناقض بداهة من منشئها المادي التاريخي ، وجرى التناقض في كل حركة من حركات البشر على الأرض في صورة صراع طبقي :

يقول ستالين (ص ٢٧ من الترجمة العربية لكتاب المادية الديالكتيكية) :
« إذا صح أن التطور يجرى بانبثاق التناقضات الداخلية وبالنزاع بين القوى المتضادة على أساس هذه التناقضات ، وأن غاية هذا النزاع هي قهر هذه التناقضات ، والتغلب عليها ، فمن الواضح أن اتصال البروليتاريا الطبقي هو حادث طبيعي تماما ولا مناص منه .

« وبالتالي لا ينبغي إخفاء تناقضات النظام الرأسمالي بل ينبغي إبرازها

وعرضها ، ولا ينبغي خنق النضال الطبقي بل ينبغي القيام به إلى النهاية .
« وإذن لأجل اجتناب الخطأ في السياسة ينبغي اتباع سياسة بروليتارية
طبقية حازمة ، لا سياسة إصلاحية تقول بالتناقص بين مصالح البروليتاريا
ومصالح البرجوازية ، ولا سياسة تفاهمية تقول بإدماج « الرأسمالية في
الاشتراكية » وهذا ما تقول به الطريقة الديالكتيكية الماركسية لدى تطبيقها على
الحياة الاجتماعية . على تاريخ المجتمع » .

إلى هنا كنا نتناول المادية الجدلية ، وقد أوردنا من كلامهم ما يبين وجهة
نظرهم بالقدر الذي يكفي لتتبع المناقشة التي ستأتى فيما بعد .
والآن ننتقل إلى الكلام عن المادية التاريخية . والحقيقة أن هناك ارتباطا
وثيقا بين المادية الجدلية والمادية التاريخية بحيث يصعب الفصل بينهما . وهم
أنفسهم يقولون ذلك .

جاء في كتاب « المادية التاريخية » (ص ١٢ من الترجمة العربية) :
« إن المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تظهران كعلم واحد ، كفلسفة
متكاملة ، فلا المادية التاريخية معقولة بدون المادية الديالكتيكية ، ولا المادية
الديالكتيكية ممكنة بدون المادية التاريخية ، فبماذا نفسر ذلك ؟
« أولا : بأنه لا يمكن وضع نظرة مادية ديالكتيكية عن العالم ككل . إذا لم
يتوفر التفسير المادي للحياة الاجتماعية . إذا لم يكن قد اكتشف أن المجتمع هو
أيضا شكل لحركة المادة وخاضع في تطوره لقوانين موضوعية كقوانين الطبيعة
المادية والديالكتيكية غير ممكنة بدون المادية التاريخية .

« ثانيا : لأن الإجابة الصحيحة عن المسألة الأساسية في الفلسفة حول
أولوية المادة وثانوية الوعي غير ممكنة بدورها بدون توضيح سبب وكيفية ظهور
الوعي الانساني والدور الذي لعبه في ذلك التطبيق العملي الاجتماعى التاريخى
للناس ، إذ أن الإجابة عن هذا السؤال تقدمها المادية التاريخية »
وجاء في نفس الكتاب (ص ١٣ - ١٤ من الترجمة العربية) :

« إن تحريف المادية الديالكتيكية يؤدي حتما إلى تشويه المادية التاريخية . إن
المادية التاريخية لا تتوافق مع أية فلسفة أخرى غير المادية الديالكتيكية . إن
الاعتراف بالمادية التاريخية مع نكران المادية الديالكتيكية ليس إلا زيفا خالصا
وسفسطة مقززة » ١

١ . في الترجمة كلمة « مقززة » بدلا من « مقززة » وقد رأينا هذه انساب

ثانيًا : المادية التاريخية

المادية التاريخية كما هو واضح من التسمية ، محاولة لتفسير التاريخ البشرى على الأسس المادية التى أوردناها فى شرح المادية الجدلية ، أى على أساس أن المادة أزلية أبدية، وأنها هى الخالقة لكل ما فى الكون من مخلوقات ؛ وأن الإنسان نتاج المادة ، والفكر نتاج المادة ؛ وأن قوانين المادة هى بذاتها التى تحكم حياة البشر الاجتماعية ، وأن الوضع المادى والاقتصادى هو الذى يكيف شكل الحياة البشرية فى أى وقت من أوقاتها وفى أى طور من أطوارها ؛ وأنه هو الأصل الذى تنبثق منه الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التى ينشئها البشر فى حياتهم ، وأنه يأتى دائما سابقا لها ولا تجيء هى سابقة له بحال من الأحوال ، لأن المادة تسبق الوعى ولا يمكن للوعى أن يسبق المادة ؛ وأن الوضع المادى والاقتصادى فى تطور دائم ، ومن ثم فإن الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التى تنبثق عنه دائمة التطور كذلك ، بحكم ارتباطها بالوضع المادى والاقتصادى وانبثاقها عنه .

وربما يحق لنا أن نبدأ الحديث عن المادية التاريخية من نقطة صلتها بالداروينية ونظرية التطور ، لأن ذلك قد يلقى الضوء على بعض مفاهيمها . قدم دارون تفسيراً معيناً لتطور « الحياة » من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان ، قرر فيه جملة « مبادئ » تأثرت بها المادية الجدلية والمادية التاريخية ، كان من جملةتها :

أن « الطبيعة » تخلق كل شئ ولاحد لقدرتها على الخلق .
وأن الطبيعة تخطط خبط عشواء ، أى أنه ليس لها مقصد معين من الخلق ولا غاية .

وأن الظروف المادية المحيطة بالكائن الحى هى التى تحكم حياته كما تحكم تطوره .

وأن الكائن الحى ليس حراً فى اختيار طريقة حياته ولا طريقة تطوره وإنما ذلك مفروض عليه من خارج كيانه من الظروف المادية المحيطة به .
وأن الإنسان ليس خلقاً قائماً بذاته إنما هو نهاية سلسلة التطور الحيوانى السابق لوجوده .

وأنه فى « تطوره » الأول الذى أوصله إلى حالته الراهنة كان محكوماً بذات

الظروف المادية التى حكمت خط التطور السابق له .
وأنة لاوجود لشيء « ثابت » فى عالم الأحياء ، لأن قانون « التطور » هو الذى
يحكم الحياة والأحياء . يحكمها من خارج كيانها ودون خضوع لاراداتها ،
وبصورة حتمية .

ولعله قد اتضح الآن كم أخذت المادية الجدلية والمادية التاريخية من
الداروينية ونظرية التطور. ولكن فلننظر فى أقوالهم هم لئرى ماذا يقولون فى هذا
الشأن .

يقول كورنفورث (ص ٢١ من الترجمة العربية لكتاب « مدخل إلى المادية
التاريخية ») :

« وتقدم المادية التاريخية أساسا للعلم الاجتماعى بنفس الطريقة التى تقدم
بها نظرية التطور عن طريق الانتقاء الطبيعى أساسا للعلم البيولوجى ، فأيا كان
النوع الذى يدرس فإنه قد تطور عن طريق الانتقاء الطبيعى وهذا يحدد كل
طبيعته . وبالمثل ، أيا كان المجتمع الذى يدرس فإنه أصبح ما هو عليه بتكيف
علاقات الإنتاج مع الإنتاج ، والأفكار والمؤسسات مع علاقات الإنتاج » .

وجاء فى كتاب أصول الفلسفة الماركسية (ج ١ ص ٢٧ من الترجمة
العربية) :

« وكان للاكتشافات الثلاثة التالية اثر كبير فى ذلك :

- ١ - اكتشاف الخلية الحية التى تتطور عنها الأجسام المعقدة .
- ٢ - اكتشاف تحول الطاقة من حرارة وكهرباء ومغناطيس وطاقة كيميائية ،
فهى صور مختلفة نوعيا لحقيقة مادية واحدة .
- ٣ - نظرية التحول عند دارون فلقد أظهرت هذه النظرية اعتمادا على
الحفريات ، وعلم تربية الحيوان ، أن جميع الكائنات الحية (ومنها الإنسان)
هى ثمرات التطور الطبيعى »

وجاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ١٦ من
الترجمة العربية) :

« وبذلك أعد تطور العلم - وخصوصا الاكتشافات الثلاثة فى العلم
الطبيعى : قانون حفظ الطاقة ، ونظرية التكوين الخلوى للكائنات الحية ونظرية
التطور لداروين - المقدمات العلمية لانتصار النظرية المادية الجدلية عن العالم ،
التي وضعها كارل ماركس وفردريك إنجلز »

وسيتناول حديثنا عن المادية التاريخية أمرين : التفسير المادى للتاريخ ،
والتفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة .

أولا : التفسير المادى للتاريخ :

من الطبيعى أن تكون الفلسفة التى يقوم عليها التفسير المادى للتاريخ
فلسفة مادية بحتة ، سواء فى نظرتها إلى « الإنسان » الذى تؤرخ له، أو حركة
هذا الإنسان على الأرض خلال التاريخ ، والعوامل التى تؤثر فى هذه الحركة .
والحق أن التفسير المادى للتاريخ لا ينكر وجود « القيم » فى الحياة البشرية،
ولا يفسر الحياة طعاما وشرابا وملبسا ومسكنا وجنسا فقط .. لكن الحق إلى
جانب ذلك أنه ينفى نفيا قاطعا - كما ورد من كلامهم فيما سبق - أن تكون هذه
القيم ثابتة ، أو أن تكون قائمة بذاتها ، أو أن تكون سابقة فى وجودها على
الأوضاع المادية والاقتصادية ، أو أن تكون فى أى وقت من الأوقات منشئة
لأوضاع مادية واقتصادية لم تكن قائمة من قبل ..
تبدأ النظرية من أن الانتاج المادى هو أساس الحياة البشرية كلها وأساس
التاريخ البشرى :

يقول ماركس (ص ٢٧ من الترجمة العربية لكتابه « الايدولوجية
الألمانية ») :

« وليس لنا بد مع الألمان المجردين عن أية مقدمات من أن نبدأ بتقرير المقدمة
الأولى للوجود البشرى بكامله وبالتالي للتاريخ بأسره ، الا وهى المقدمة التى
تنص على أنه لا بد للبشر من أن يكونوا فى مركز يمكنهم من العيش ، كما يكون فى
مقدورهم أن يصنعوا التاريخ . بيد أن الحياة تشتمل قبل كل شئ على المأكل
والمشرب والمسكن والملبس وأشياء عديدة أخرى . وهكذا فإن العمل التاريخى
هو إنتاج الوسائط القمينة بسد هذه الحاجات . إنتاج الحياة المادية بالذات ..
وبالفعل فإن هذا العمل عمل تاريخى . شرط أساسى للتاريخ بكامله . لا بد فى
اليوم الحاضر مثلما كانت الحال قبل آلاف السنين من تحقيقه يوما فيوما ،
وساعة فساعة لمجرد الإبقاء على الحياة الإنسانية »

وقوى الإنتاج المادى من ثم هى أهم عنصر فى الحياة .. وهى المقياس الذى
يقاس به كل شئ :

جاء فى كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ١٥١ من
الترجمة العربية) :

« وهكذا فإن القوى المنتجة تعبر عن علاقات مادية بين المجتمع والطبيعة ، ومستوى تطور هذه القوى دليل على درجة سيطرة البشرية على قوى الطبيعة ، وبدوره يتحدد المستوى نفسه قبل كل شيء بأدوات العمل وتزويد الإنتاج بالطاقة وتنظيم التكنولوجيا العملية الإنتاجية وتطور العلم ، وكذلك بمستوى استخدام المنتجين المباشرين للقيم المادية للمنجزات العلمية » .

والعمل - العمل الذى يؤدي إلى الإنتاج المادى - هو محور الحياة ..
يقول إنجلز « يقول الاقتصاديون إن العمل هو مصدر كل ثروة . وإنه لذلك فعلا . مع الطبيعة التى تقدم له المادة التى يحولها إلى ثروة ، ولكنه أكثر من ذلك أيضا إلى ما لا نهاية . إنه الشرط الأساسى الأول لكل حياة بشرية . وإنه لذلك إلى درجة ينبغى علينا معها - بمعنى ما - أن نقول « إن العمل قد خلق الإنسان ذاته » (عن كتاب : نصوص مختارة ، فردريك إنجلز ص ١٢٢ من الترجمة العربية) .

وعلاقات الإنتاج هى التى تصور شكل الحياة البشرية فى أى طور من أطوارها .

جاء فى كتاب « المادية التاريخية » (ص ٦٠ من الترجمة العربية) :
« وبما أن أسلوب الإنتاج هو الذى يحدد نمط حياة الناس فى هذا المجتمع أو ذاك فإن جميع ظواهر الحياة الأخرى تتعلق بأسلوب الإنتاج وتكون نابعة منه ومشروطة به » .

ويقول ماركس فى كتاب « بؤس الفلسفة » (ص ١١٢ - ١١٣ من الترجمة العربية) :

« ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الإنتاجية . ولدى تحقيقنا لقوى إنتاجية جديدة يغير الناس نوع الإنتاج ، وعند تغييرهم لنوع إنتاجهم ، وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم ، فإنهم يغيرون كل العلاقات الاجتماعية . إن الطاحونة التى تدار باليد تمثل لك مجتمعا يتحكم فيه السيد الإقطاعى ، وتمثل الطاحونة البخارية مجتمعا تتحكم فيه الصناعة الرأسمالية .

« إن نفس الناس الذين يؤسسون علاقاتهم الاجتماعية لتطابق إنتاجهم المادى ، تراهم ينتجون أيضا المبادئ والأفكار واللوائح لكى تطابق علاقاتهم الاجتماعية ، وهكذا فإن هذه الأفكار وهذه اللوائح ليست أبدية كالعلاقات التى تعبر عنها . إنها إنتاج تاريخى وفترة انتقال » .

ويقول ستالين في كتاب « المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ٤٩ - ٥٠ من الترجمة العربية) :

« الخاصية الأولى للإنتاج أنه لا يقف أبدا مدة معينة فهو دائما في حالة تغير ونمو ، وعلاوة على ذلك فإن أسلوب الإنتاج يؤدي بصورة حتمية إلى تغير النظام الاجتماعي بأسره وتغير الأفكار الاجتماعية والآراء والمؤسسات السياسية .
« إن المجتمع ذاته وأفكاره ونظرياته ، وآراءه ومؤسساته السياسية تتعلق من حيث الأساس بأسلوب الإنتاج في المجتمع، أو - بعبارة أبسط - كل نمط من المعيشة يطابقه نمط من التفكير .

« ومعنى هذا أن تاريخ تطور المجتمع هو قبل كل شيء تاريخ تطور الانتاج وتاريخ أساليب الإنتاج التي تتعاقب خلال العصور . تاريخ تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج بين الناس »

ويقول ماركس في كتابه « الأيديولوجية الألمانية » (ج ١ ص ٢٩ من الترجمة العربية) :

« وهكذا فإنه من الجلي تماما منذ البداية ان ثمة رابطة مادية تجمع البشر بعضهم بعضا ، تتحدد بحاجتهم ونمط إنتاجهم ، وهي قديمة قدم البشر أنفسهم ، وإن هذه الرابطة لتتخذ على الدوام أشكالا جديدة ، وبذلك تمثل « تاريخا » حتى دون أن يوجد بعد أى هراء سياسى أو دينى يحقق - علاوة على ذلك - التماسك بين البشر » .

ينقسم التاريخ البشرى - بناء على القواعد السالفة الذكر - إلى خمسة أطوار رئيسية :

المشاعية الابتدائية ، والرق ، والإقطاع ، والرأسمالية ، ثم الاشتراكية الممهدة للشيوعية .

فبالنسبة للمشاعية الابتدائية :

جاء في كتاب المادية التاريخية (ص ٣٣٥ من الترجمة العربية) :
« وهكذا فقد كان القطيع البدائي أول شكل انتقال للمجتمع الذى حدث فيه تكوين الانسان . ولقد ظهر هذا القطيع عندما انفصل الإنسان عن عالم الحيوان وبدأ بإنتاج أدوات العمل ، وما زال باقيا (يقصد وظل باقيا) إلى أن تكونت ملامح الإنسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجي البطيء » .

ويقول سيجال في كتاب « لحظة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ » (ص ٨ - ٩ من الترجمة العربية) :

« لقد كان هذا النظام المشاعى البدائى ضروريا للمجتمع الإنسانى فى تلك المرحلة من التطور . فلقد كان من المستحيل على المجتمع لو عاش أفرادہ حياة منعزلة مبعثرة أن يخترع الأسلحة والأدوات البدائية وأن يحسنها فيما بعد . ولم يستطع الناس أن يحرزوا انتصاراتهم الأولى فى ميدان الكفاح ضد الطبيعة إلا بفضل حياتهم التعاونية . لقد كان اتحادهم فى بطن مشاعى هو قوتهم الرئيسية » .

ويقول (ص ١٥ من الترجمة العربية) :

« ولا تزال بقايا المشاعية البدائية موجودة حتى أيامنا هذه لدى عدد من الشعوب فى شكل مشاعية بدائية تملك الجماعات الزراعية فيها الأرض ملكا مشتركا ، وتوزع حصصا منها على أعضائها للتصرف فيها بصورة مؤقتة . وليس يمكن بعد هذا أن يوضع موضع الشك وجود المشاعية البدائية كنقطة بدء فى تطور الشعوب كلها .

ويقول (ص ٩ من الترجمة العربية) :

« لقد كان تطور مستوى قوى المجتمع المنتجة هو الذى يحدد ظروف النظام المشاعى البدائى . ومن الخطأ التصور أن الناس البدائيين هم الذين أوجدوا هذا النظام عن وعى منهم ، فلقد تشكل وتطور بصورة طبيعية ودون علاقة بإرادة الناس ووعيم »

ثم انحل هذا الطور وانتهى بصورة حتمية .

جاء فى كتاب « المادية التاريخية » (ص ١٦١ من الترجمة العربية) :

« ومع ظهور الإنتاج الفردى ظهر التناقض بين الملكية الاجتماعية والطابع الفردى لعملية الإنتاج ، هذا التناقض الذى يحل عن طريق القضاء على الملكية الاجتماعية وظهور الملكية الخاصة لوسائل ومواد الإنتاج ، وهذه هى الأسباب الرئيسية التى أدت إلى القضاء على النظام البدائى كحتمية طبيعية »

وحين انحلت المشاعية البدائية بظهور الزراعة وجدت الطبقات ، ووجد صراع الطبقات ، الذى هو صراع على المصالح المادية :

يقول كورنفورث فى كتاب « مدخل إلى المادية التاريخية » (ص ٣٠ - ٣١ من الترجمة العربية) :

« إنما صار تاريخ الانسان فقط هو تاريخ الصراع الطبقي لتغير ظروف الإنتاج مع نشوء الزراعة ، ثم التغير الهائل في المجتمعات الرأسمالية » وجاء في كتاب « أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » (ص ١٦٢ من الترجمة العربية) :

« والمصالح الأساسية للفئات الاجتماعية والطبقات البشرية هي أولا وقبل كل شيء مصالح مادية اقتصادية تحدد في نهاية الأمر المصالح السياسية والقانونية والأخلاقية والدينية والجمالية والعلمية والفلسفية وغيرها » ويقول ماركس في كتاب « الأيديولوجية الألمانية » (ص ٥٦ من الترجمة العربية) :

« إن أفكار الطبقة السائدة هي في كل عصر الأفكار السائدة أيضا . يعنى أن الطبقة التى هي القوة المادية السائدة في المجتمع هي في الوقت ذاته القوة الفكرية السائدة . إن الطبقة التى تتصرف بوسائل الإنتاج المادى تملك في الوقت ذاته الإشراف على وسائل الإنتاج الفكرى، بحيث إن أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائل الإنتاج الذهنى تخضع من جراء ذلك لهذه الطبقة السائدة »

من المشاعية البدائية انتقل الناس إلى الرق : يقول إنجلز في كتاب أنتى دوهرنج (ص ٢١٧ من الترجمة العربية) : « وإن تطبيق العبودية في الظروف التى كانت سائدة في ذلك الحين قد كان خطوة كبرى إلى الامام ! » « ١ »

ذلك أنه من الحقائق الواقعة أن الإنسان قد انبثق من الحيوان ، وبالتالي فلم يكن له بد من استخدام وسائل بربرية تكاد أن تكون وحشية من أجل تخليص نفسه من البربرية « ! » « ٢ »

ونشأ الرق من منبعين أساسيين : الحرب والدَّين ذلك أن المدين الذى يعجز عن السداد كان يتحول إلى رقيق .

يقول ماركس : « كان الصراع الطبقي في المجتمع القديم - وبالدرجة الأولى - صراعا بين الدائنين والمدينين ، وقد انتهى في روما إلى زوال المدين من طبقة العامة وتحوله إلى عبد (نقلا من كتاب لحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ ص ١٧ من الترجمة العربية) .

١ ، ٢ ، التعجب من عندنا .

وفي مجتمع الرق ظهرت الدولة ونمت الثقافة وظهرت الفلسفة وتقدمت البشرية تقدما كبيرا يعزوه الماديون إلى الصراع الطبقي !
جاء في كتاب المادية التاريخية (ص ١٦٣ من الترجمة العربية) :
« إن تطور الصراع الطبقي والمعارف النظرية أدى إلى ظهور الفلسفة ،
وحدثت اختلافات مهمة على صعيد الدين ، الذي تحول تدريجيا إلى أداة روحية
لاستعباد الجماهير ، وبهذا فإن انقسام المجتمع إلى طبقات يحدث انقلابا جذريا
في البنيان الفوقي وفي حياة المجتمع الروحية كلها ، وفي المجتمع العبودي بالذات
ظهرت لأول مرة كل الأشكال الراهنة للوضع الاجتماعي » .
وكانت معاملة الرقيق في أوروبا بالبشاعة التي يعرفها التاريخ . ولم تفلح
ثورات العبيد في تحسين أحوالهم ولا رفع الرق عنهم . ولكن لأسباب مادية
واقتصادية بحتة بدأ عهد الرق ينهار .
يقول إنجلز في كتاب « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » (ص ٢٣٦ -
٢٣٧ من الترجمة العربية) :

« لكن هذه العبودية المشرفة على الموت كانت لا تزال من القوة بحيث تجعل
كل عمل من أعمال الإنتاج يبدو وكأنه عمل عبودي وضيع لا يليق بمقام الرومان
الأحرار ...
« إن المسيحية ليست مسؤولة قط عن هذا الزوال التدريجي للعبودية
القديمة ، إذ هي قد جنت من ثمار العبودية في الإمبراطورية الرومانية خلال
قرون من الزمن ، ولم تفعل فيما بعد شيئا لا لمنع المسيحيين من المتاجرة
بالرقيق - سواء الألمان في الشمال أو تجار البندقية على البحر الأبيض
المتوسط - ولا لحظر التجارة بالرقيق الزنوج في السنين الأخيرة . وإنما زالت
العبودية لأنها لم تعد تدرربحا قط . لكنها بزوالها خلفت وراءها لسعتها السامة
وذلك بوسئها عمل الأحرار في الإنتاج بميسم الضعة ، فكان ذلك بمثابة الزقاق
المسدود الذي وجد العالم الروماني نفسه فيه ، كانت العبودية مستحيلة من
الناحية الاقتصادية وكان عمل الأحرار مستهجنا من الناحية الأخلاقية . لم يعد
في وسع الأول أن يظل أساس الإنتاج الاجتماعي وكان الأخير لا يزال غير قادر
على أن يكون أساسا لهذا الإنتاج ، لم يكن ينفع في هذا الحال سوى ثورة
كاملة » « ١ »

١٠ . لم يقل لنا كيف كانت هذه الثورة .

هذا من جهة .. ومن جهة أخرى كان اختراع المحراث الحديدي أهم تحول أدى إلى ظهور الإقطاع .

يقول سيجال في كتابه « لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ٢١ من الترجمة العربية) :

« كان نظام الرق شكلا اجتماعيا ضروريا من أشكال تطور القوى المنتجة في مرحلة من مراحل التاريخ ولكن هذا التطور كان بدوره سببا لانحطاط هذا النظام »

جاء الإقطاع بصورته الأوروبية المعروفة .. وكانت الطبقتان المسيطرتان فيه هما طبقة كبار الملاك وطبقة رجال الدين ، وبقيّة الشعب مُسخّر لصالح كلتا الطبقتين .. وأخذ الإقطاع جولته التاريخية « الحتمية » حتى تطورت أدوات الإنتاج باختراع الآلة وتعمّدت علاقات الإنتاج القائمة وصارت غير مناسبة للمرحلة الاقتصادية الجديدة .

جاء الإقطاع نتيجة ظروف مادية واقتصادية . فمن الناحية المادية كان اختراع المحراث الحديدي وتطور زراعة الأرض نتيجة إدخال أدوات جديدة أكثر صلاحية من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الإقطاع ، ومن الناحية الاقتصادية كان لابد من تغيير علاقات الإنتاج بعد أن أصبح الرقيق - بحالته التي كان عليها - عاجزا عن الإنتاج، أو بعبارة أخرى عاجزا عن تلبية مصالح السيد الاقتصادية ، لكثرة تمرده وهربه نتيجة المعاملة البشعة التي كان يتلقاها من السيد أو وكيله .

وفي النظام الإقطاعي يملك السيد الأرض ولكن الفلاح الذي يعمل لحساب السيد يمكن أن يمتلك قطعة صغيرة من الأرض - بالقدر الذي يسمح به الإقطاعي - وله نصيب من الإنتاج - يحدده الإقطاعي كذلك - يعيش منه هو وأسرته .

ولكن نصيب الفلاح - في مجموعه - كان أضال من أن يوفر له الحياة الكريمة أو الحياة الصحية ، وكان هو وأسرته يعيشون في حالة من الضنك الشديد ، وكثيرا ما كان الفلاحون يموتون بالمئات والالوف نتيجة الجوع أو الإصابة بالسل أو نتيجة الأوبئة الفتاكة .

وبدا نضال الفلاحين ضد الإقطاعيين لرفع الظلم الفاحش الواقع عليهم ،

ولكنهم كانوا أضعف من أن ينالوا شيئاً من الاقطاعيين المحصنين بقلاعهم المزودين بجيوش تحميهم ، كما أنه لم يكن للفلاحين تجمع ذو هدف محدد يخوض معركة منظمة ضد الاقطاعيين ، لذلك باءت ثوراتهم بالاختفاق . ولكن من خلال التطور المادى والاقتصادى أخذ الإقطاع ينهار لتحل محله الرأسمالية .

نشأت الرأسمالية (التى يسميها الشيوعيون البرجوازية لنشأتها فى المدينة Bourjois) نتيجة عدة عوامل أهمها اختراع الآلة التى أخذت تحل بالتدريج محل الإنتاج اليدوى ، كما اتسعت الكشوف الجغرافية وزاد حجم التجارة الأوربية « ١ » ، كما أن ظاهرة العمل المأجور - أى تأجير العامل جهد يده من أجل الحصول على مطالب الحياة - كانت قد بدأت توجد فى المدن وإن كان حجمها فى بادئ الأمر لم يكن كافياً لتشغيل الحركة الصناعية الناشئة فقامت الثورة التى أدت إلى تحطيم الاقطاع .

يقول سيجال فى كتاب « لحظة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ » (ص ٢٢ من الترجمة العربية) :

« وهكذا نرى أن الاقطاعية التى كانت متوافقة عند نشأتها مع مستوى القوى المنتجة فى المجتمع صارت متناقضة مع القوى المنتجة المتنامية ، وصار إلغائها ضرورة تاريخية » .

وفى ظل الرأسمالية حدث تقدم عظيم فى مجالات كثيرة منها المجال العلمى والمجال التكنولوجى لأن الرأسمالية تسعى دائماً لزيادة الإنتاج من أجل الربح . كما نشأ تنظيم جديد للعمل يتعاون فيه مجموعة كبيرة من الناس فى العمل الواحد بدلاً من العمل الفردى . ونشأ تحسين للطرق والمواصلات من أجل تصريف الانتاج الصناعى فى داخل البلاد وخارجها . كما كان الاستعمار وسيلة للحصول على موارد رخيصة ومجالاً لتصريف فائض الإنتاج . ونشأت

« ١ . نحن هنا - كما سبقت الإشارة - معرض الأفكار ولا نناقشها ، ولكن لابد لنا هنا من تعليق بمناسبة الكشوف الجغرافية وزيادة حجم التجارة الأوربية يفضله المؤرخون الأوربيون عامدين ، ويستغل إغفالهم ذلك كل الذين يجنون طمس العنصر الدينى وأثاره فى التاريخ البشرى . فإن الحقيقة أن الحروب الصليبية الحديثة التى بدأت بعد طرد المسيحيين للمسلمين من الأندلس ، وملاحقتهم لمحاولة القضاء عليهم فيما وراء الأندلس ، كانت هى السبب الحقيقى للكشوف الجغرافية . وأشهر مثال على ذلك أن فاسكوداجاما - الذى كُتِفَ لأوربا طريق رأس الرجاء الصالح - قال عند وصوله إلى جزر الهند الشرقية « الآن طوقنا رقبة الاسلام ولم يبق إلا جذب الحبل ليختنق ميموت » وقد كان الاستعمار الصليبي لبلاد الاسلام أهم العوامل فى تنشيط التجارة الأوربية وإتاحة الفرصة للرأسمالية النامية لتستكمل نموها الطامع الجبار .

الأمم » في أوروبا وحل الحكم الدستوري محل الحكم الملكي المطلق . ولكن هذا كله كان على حساب طبقة العمال المضطهدة ، التي تبذل الجهد الحقيقي في عملية الإنتاج ولا تنال إلا أقل القليل .

يقول إنجلز في كتاب « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » (ص ٢٧٩ من الترجمة العربية) :

« ولما كان استغلال طبقة من قبل طبقة أخرى هو أساس الحضارة ، فإن نموها كله يسير في تناقض مستمر . كل خطوة إلى الأمام في الإنتاج هي في الوقت ذاته خطوة إلى الوراء في أحوال الطبقة المضطهدة أي الأكثرية العظمى . كل ما هو خير للبعض لا بد أن يكون شرا للآخرين . كل تحرر جديد لأحدى الطبقات يعني داسما اضطهادا جديدا لطبقة أخرى . وأعظم دليل على هذا نجده في إدخال الآلة (يقصد الرأسمالية) التي يعرف العالم بأسره آثارها الآن »

ويقول كورنفورث في كتاب « مدخل إلى المادية التاريخية » (ج ١ - ص ٧٢ من الترجمة العربية) :

« والسمة الأساسية لزيادة قوى الإنتاج التي نشأت في إطار الرأسمالية هي تشريك العمل (يقصد جعله مشتركا بدلا من أن يكون فرديا) فلقد حلت محل الإنتاج الفردي الصغير قوة العمل الاجتماعي الذي يتعاون الناس فيه معا في منشآت إنتاجية كبيرة تستخدم آلات تعمل بالطاقة . لكن هذه السمة تعوقها علاقات الإنتاج الرأسمالية التي تجعل التنازح ملكا للرأسماليين ، وتجبر الإنتاج الاجتماعي على أن يخدم الربح الخاص »

وجاء في كتاب « المادية التاريخية » (ص ١٧٤ من الترجمة العربية)
« إن تغيير علاقات الإنتاج الإقطاعية إلى علاقات رأسمالية يؤدي إلى إعادة تركيب البناء الفوقي الذي يؤدي بدوره مع ملاءمته للقاعدة الجديدة إلى تغيير وجه المجتمع كله » .

وجاء فيه أيضا (ص ٣٤١ - ٣٤٢ من الترجمة العربية) :
« إن عصر الرأسمالية الصناعية هو عصر نشوء الأمم . والماركسيون يذهبون إلى أن الأمة لم توجد قبل الرأسمالية لأن الشروط الاقتصادية اللازمة

لنشأتها كانت لاتزال معدومة» ١ « إن تكوّن الشعب من اختلاط مجموعات جغرافية مختلفة اتحدت في الأرض واللغة والثقافة كان المنطلق لتكوين الأمة ، مع أنه ليس ضروريا أن تتألف الأمة من شعب واحد ، فكل الأمم الحديثة نشأت وتنشأ نتيجة لاتحاد الشعوب المختلفة . وهكذا فإن الأمة كشكل لتجمع الناس نشأت من متطلبات الإنتاج الرأسمالي وتنشأ على أساسه ، وهي تنشأ لأنها ضرورية من أجل تطور الإنتاج الرأسمالي الضخم » ٢ « وتأخذ الرأسمالية دورها ثم يجيء التطور الحتمي ..

يقول سيجال في كتابه « لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ » (ص ٢٦ - ٢٧ من الترجمة العربية) :

« غير أن الرأسمالية - عندما تتطور قوى المجتمع المنتجة - تبدو يوما فيوما أقل قدرة على السيطرة عليها . وأجدى برهان على ذلك هو تلك الأزمات التي تأتي على نحو دوري فتزعزع النظام الرأسمالي وتدمر جزءا من القوى المنتجة . وهكذا تصبح الرأسمالية أكثر فأكثر عائقا في طريق تطور هذه القوى التي ولدتها هي ذاتها ، ومن هنا يتبين أن إلغاء الرأسمالية بالطرق الثورية واستبدالها بالشيوعية (يقصد استبدال الشيوعية بها لأن الباء تدخل على المتروك) أى بمجتمع دون طبقات تكون وسائل الإنتاج فيه ملكا مشتركا يصبح ضرورة تاريخية » .

والسبب الرئيسى في ذلك هو التناقض المتزايد بين مصالح الرأسمالية ومصالح العمال (طبقة البروليتاريا) الذى يؤدى في النهاية إلى ثورة طبقة البروليتاريا على طبقة الرأسماليين لنزع السلطة منها وإنشاء مجتمع بلا طبقات ، وتوزيع الإنتاج على الجميع دون استغلال طبقة لطبقة .

ولا يتم ذلك دفعة واحدة . فهناك مرحلة انتقالية ينتقل فيها الناس من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، ثم إن المرحلة الاشتراكية تمهد للمرحلة الأخيرة وهي الشيوعية حيث يتحقق مبدأ « من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته » .

تنقضى المرحلة الأولى في الكفاح لإزالة الطبقة المستغلة والقضاء عليها . حتى

« ١ ، ٢ » نقول دون مناقشة للفكرة - ولكن للتذكير فقط - إن هذا قد يكون صادقا على نشأة الأمم في أوروبا مع الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر الميلادى . ولكن قبل ذلك بأحد عشر قرنا برزت إلى الوجود أمة قال عنها خالفها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وانتظر المناقشة في « سأنها فيما بعد » .

يمكن تأصيل المبادئ الجديدة المبنية على إزالة الطبقات وتحويل الملكية من ملكية فردية إلى ملكية جماعية ، والعمل على زيادة الإنتاج لكي تتحقق المرحلة الأخيرة التي لا يمكن الوصول إليها إلا بزيادة هائلة في الإنتاج تمكن كل إنسان أن يأخذ بحسب حاجته في الوقت الذي يعمل حسب طاقته .

ثانيا : التفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة :

يقصد بالتفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة أمران في أن واحد . الأول : أنها ليست « قيما » قائمة بذاتها ، ولا يمكن النظر إليها على هذا النحو ، ومن ثم فليس لها ثبات ولا قدسية . والثاني : أنها في ذات الوقت انعكاس للأحوال المادية والاقتصادية القائمة في أى وقت من الأوقات . وكل وضع مادى أو اقتصادى قائم هو الذى ينشئ « الأفكار » المتعلقة بالدين والأخلاق والأسرة ، وتتغير هذه الأفكار تغيرا حتميا كلما تغير الوضع المادى أو الاقتصادى . وإليك أقوالهم في كل أمر من هذه الأمور الثلاثة :

١ - الدين :

يقول إنجلز (ص ٢٨١ من الترجمة العربية لكتاب أنتى دوهرنج) :
« ومهما يكن من شيء فليس الدين إلا الانعكاس الوهمى في أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية ، وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعية » (يقصد قوى خارقة) .

ويقول كذلك (ص ٢٨٢ من نفس الكتاب) :

« من الأزمنة الموهلة في القدم - إذ وصل الفكر بالناس وهم بعد في جهل تام ببنياتهم الجسدية الخاصة ، وتحت تأثير أحلامهم ، إلى القول بأن أفكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسادهم ذاتها ، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة الموت - منذ ذلك الحين اضطروا لأن يصطنعوا لأنفسهم أفكارا عن علاقات هذه الروح مع العالم الخارجى .

« وعلى هذا النحو تماما - عن طريق تشخيص القوى الطبيعية - ولدت الآلهة الأولى التى اتخذت خلال التطور اللاحق شكلا غير أراضى أكثر فأكثر ، إلى أن حدث أخيرا عملية تجريد .. فنشأ على نحو طبيعى خلال التطور العقلى أن تولدت في عقل الناس من الآلهة المتعددين ذوى السلطة الضعيفة والمقيدة بعضهم حيال بعض ، فكرة الاله الواحد المنفرد في الديانات التوحيدية »

ويستشهد مؤلفو كتاب « أصول الفلسفة الماركسية (ج ١ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ من الترجمة العربية) بهذه القولة لإنجلز

« إن الدين يولد من نظريات الإنسان المحدودة ، وهذه النظريات محدودة بعجز الناس البدائيين المطلق تقريبا أمام الطبيعة المعادية ، التي كانوا لا يفهمونها ، وهى محدودة من ناحية ثانية بتعلقهم الأعمى بالمجتمع الذى لا يفهمونه ، والذى كان يبدو لهم أنه تعبير عن إرادة سامية . وهكذا كانت الآلهة - وهى الكائنات المهمة الجبارة المسيطرة على الطبيعة والمجتمع - انعكاسا ذاتيا لعجز الناس الموضوعى أمام الطبيعة والمجتمع ، وكان على تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية أن يظهر طابع المعتقدات الوهمى : الاعتقاد بوجود آلهة متعددة ، ثم الاعتقاد بوجود إله واحد » .

وجاء فى كتاب « نصوص مختارة ، فردريك إنجلز » (جمع جان كانابا ، ترجمة وصفى البنى ، ص ١٧٧ - ١٧٨ من الترجمة العربية) .

« أما المجالات الأيدلوجية التى تحوم أعلى فى الفضاء كالدين والفلسفة .. الخ ، فإنها مؤلفة من بقية - تعود إلى ما قبل التاريخ وقد وجدها العهد التاريخى أمامه فالتقطها - لما نسميه اليوم غباء . إن هذه التصورات المختلفة الخاطئة عن الطبيعة ، وعن تكوين الإنسان ذاته ، وعن الأرواح ، وعن القوى السحرية ، ليس لها فى الغالب إلا أساس اقتصادى سلبى ، فالتطور الاقتصادى الضعيف لعهد ما قبل التاريخ تكون فيه كتكملة - ولكن كذلك على نحو جزئى كشرط أو حتى كسبب - تصورات خاطئة عن الطبيعة » .

هذا عن نشأة الدين (أى فى فترة الشيوعية البدائية) أما عن تطوره نتيجة تغير الأوضاع المادية والاقتصادية فإنه فى عهد الرق والإقطاع استغل لتخدير الكادحين حتى لا يشعروا بالظلم الواقع عليهم ، ولتمنييتهم بنعيم الجنة تعويضاً عن عذاب الدنيا .

جاء فى كتاب أصول الفلسفة الماركسية (ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ من الترجمة العربية) :

« لم تحرم الكنيسة الكاثوليكية الرق ، ولذلك وجد رقيق فى أوروبا فى العصر الوسيط .. ولقد علمت الكنيسة الأرقاء أن يطيعوا سيدهم . واضطرت الأسىاد المحاربين حقا إلى احترام « هدنة الله » وهددتهم بالنار الأبدية ، ولكنها بهذا الإجراء قد أنقذت قبل كل شىء المزروعات الضرورية لحياة المجتمع ، كما

حفظت الإنتاج وأمنت تفشى المجاعة واندلاع نار الثورة . وهكذا تحمى في النهاية الإقطاعية ضد تصرفات الإقطاعيين المغالية» ١ .
ويقول موريس كورنفورث (ص ١١٧ - ١١٨ من الترجمة العربية لكتابه :
« مدخل إلى المادية التاريخية ») :

« وفي أوج الإقطاع في أوروبا الغربية كانت للكنيسة الكاثوليكية مكانة هائلة ، وسادت العقيدة الكاثوليكية الفلسفة والأدب والفنون ، ولقيت هذه العقيدة مساندة السلطة الزمنية - مساندة الحكام الإقطاعيين ودولهم والقوانين - ولا يمكن تفسير الحماس القاسى الذى كانت الكنيسة تلاحق به الهرطقة وتلقى فيه مساندة الحكام بمجرد الهوس الدينى فلماذا وجد هذا الهوس ؟ لقد استقرت العقيدة الكاثوليكية كجزء أساسى فى النظام الاجتماعى وأحست الكنيسة عن حق - كمالك كبير للأرض إلى جانب كبار ملاك الأرض الآخرين - بخطر التمزق الاجتماعى الكامن خلف كل هرطقة »

ويقول إنجلز عن الحروب الدينية التى سادت فى العصور الوسطى (ص ١٦٩ - ١٧٠ من الترجمة العربية لكتاب المادية التاريخية) :

« إن ما يسمى بالحروب الدينية .. كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية ، فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما .. ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلقة بشعارات دينية ، ورغم أن مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مخفية خلف شعار دينى ، فلم يبدل هذا شيئا من الأمر ، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام » .

أما فى عصر الرأسمالية فقد ضعف الدين فى أوروبا ، وهذا تفسيرهم لهذه الظاهرة :

يقول جورج سول فى كتاب « المذاهب الاقتصادية الكبرى » (ترجمة الدكتور راشد البراوى ، ص ٤٩ - ٥١ من الترجمة العربية) :

« فإذا كانت المصادر القديمة قد أخطأت فى نظراتها إلى العالم الطبيعى أما كانت كذلك مخطئة فى نظراتها إلى السلوك البشرى ؟ أصبح كل شئ موضع التساؤل والشك ، وعلى ذلك سمي العلم فلسفة ، ولم يعد هناك تمييز بين

١ . يفهم من هذا النص أن الكنيسة قامت بدور مزدوج إخضاع الرقيق للسادة من جهة ، ومنع السادة من إساءة معاملة الرقيق من جهة أخرى . لكن الغالب فى كلام الشيوعيين أن يؤكدوا الدور الأول ولا يشيروا إلى الدور الآخر . وعلى أى حال فقد ربط النص عملية تعميق الدين فى النفوس بأسباب وغايات اقتصادية .

المبادئ التي عنى كل منهما بفحصها ، وأخذ الكتاب والمتفلسفون يعيدون البحث في النظم البشرية تماما كما كانوا يفعلون بالنسبة إلى الأشياء غير البشرية - وهم في تصرفهم هذا كانوا يسلمون بأن الإنسان جزء من الطبيعة وليس كائنًا منفصلاً عن بقية المخلوقات أوجدته العناية الإلهية وتولت رعايته . « وأصبح البحث ينصب على تفسير النتائج والأسباب بالنسبة إلى السلوك البشرى - سواء أكان مرغوباً فيها أم غير مرغوب - عن طريق قوانين الطبيعة ، بدلاً من البحث عنها في إرادة الله كما قالت الكتب المقدسة أو المذاهب الكنسية . ومعنى هذا - بتعبير آخر - أن علينا أن نسترشد في أعمالنا وتصرفاتنا بالعقل دون سلطة القدامى .

« وصار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك وجوده في الطبيعة . أما الذين ظلوا على استمسакهم بالدين ولو باللسان - وإن لم يكن في الواقع كما هو أغلبهم - فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها ، وليس بوسيلة مباشرة ! وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شيء له وجود فحسب ، وإنما هو شيء ينبغي أن يطاع ، وصارت مخالفتها دليلاً على نقص التقوى والأخلاق » .

ويقول كورنفورث (ج ٢ ، ص ١٠٧ من الترجمة العربية لكتاب أصول الفلسفة الماركسية) :

« ومع ظهور البرجوازية برزت أفكار دينية وفلسفية جديدة . ففي مجال الدين بدأ التأكيد على ضمير الفرد وعلاقة الفرد المباشرة بالله ، ودعا الفلاسفة إلى سيادة العلم والعقل ، ومن هذه الزاوية أخضعوا الأفكار الإقطاعية للنقد المدمر ، ودرسوا من جديد أسس المعرفة ، وحاولوا أن يبينوا كيف يمكن توسيع المعرفة ووضع الإنسانية في طريق التقدم ، وكانوا في ذلك يخدمون البرجوازية الجديدة في التخلص من الإقطاع ودعم الرأسمالية » .

ولكن البرجوازية أحسبت بأن نبذها للدين خطر عليها فعادت إلى احتضان الدين وتسخيرها لمصالحها .

يقول كورنفورث (ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ من الترجمة العربية) :
« ولهذا رأينا البرجوازية حينما شعرت بالتهديد ، أعادت الدين عن قصد وتبنته - بعد أن سخرته لخدمة حاجاتها - فقوته ودعمته وجعلته جزءاً

لا يتجزأ من البناء الفوقى الرأسمالى ، ثم أعلنت أن التعليم الدينى والتعليم العلمانى يتم كل منهما الآخر « ١ »
أما الشيوعية فموقفها من الدين واضح .
جاء فى كتاب « المادية التاريخية » (ص ٨٠ من الترجمة العربية) :

« إن الدين لا يتولد من القاعدة فى الظروف الاشتراكية ، وإنما يوجد كجزء من مخلفات القديم ، كبقية من البنيان الفوقى للتشكيلات السابقة ، سوف يتم القضاء عليها فى عملية بناء الشيوعية ، ويتضمن البرنامج الجديد للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى تأكيداً على ضرورة استخدام مختلف وسائل التأثير الفكرى للقضاء على الخرافات الدينية ، ومن أجل نشر تربية علمية .
وجاء فى كتاب « أصول الفلسفة الماركسية » (ج ١ ص ٢٩٧ من الترجمة العربية) :

« ولهذا كان الفلاح فى روسيا القديمة - وقد أزهقه الفقر وفقد كل أمل فى المستقبل - يستسلم للإرادة الإلهية . ولقد جاءت الثورة الاشتراكية فوضعت فى يد المجتمع السيطرة على قوى الإنتاج ، ومكنته فى نفس الوقت من إدارة المجتمع بصورة علمية ، كما زادت سيطرته على الطبيعة ، فوجدت عندئذ الظروف الموضوعية لتنمحي من وعى الناس الأفكار الدينية التى ولدتها ظروف موضوعية أخرى »
« وأخيراً يقول ماركس قولته الشهيرة : « الدين أفيون الشعوب » .

٢ - الأخلاق :

يقول إنجلز (ص ١١٤ - ١١٥ من الترجمة العربية لكتابه أنتى دوهرنج) :

« وهكذا فإننا نرفض كل محاولة للإلزامنا بأية عقيدة أخلاقية مهما كانت على اعتبارها شريعة أخلاقية أبدية ، نهائية ، وثابته أبداً ، بحجة أن للعالم الأخلاقى أيضاً مبادئه الدائمة التى تنهض فوق التاريخ وفوق الفوارق بين الأمم .. إننا ننادى على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقية قد كانت

١ - قد يكون هذا حقاً بالنسبة « للتخطيط » الرأسمالى ، ولكننا لانرى له أثراً واقعياً فى المجتمع العربى المتحلل .

حتى هذا التاريخ ، في آخر تحليل ، نتاجا لأوضاع المجتمع الاقتصادية السائدة في زمنها .

ويقول (ص ١١٥) :

« ومادام المجتمع قد تطور حتى الوقت الحاضر ضمن التضادات الطبقية ، فإن الأخلاق كانت على الدوام أخلاقا طبقية ، فهي إما أن تبرر سلطة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، وإما أن تمثل - حالما تحوز الطبقة المضطهدة ما يكفي من القوة - التمرد على تلك العقيدة ، ومصالح المضطهدين المقبلة في الوقت نفسه »

وفي مجال التطور الأخلاقي المرتبط بتطور الأوضاع الاقتصادية تجيء مثل هذه الأقوال :

جاء في كتاب « النظرية الماركسية اللينينية : في المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية » تأليف إيرزرين ورفيقيه (ترجمة خيرى الضامن ، ص ٤٢٩ من الترجمة العربية) :

« لقد ولدت علاقات الإنتاج الجماعية في النظام المشاعى البدائى عادات وتقاليد جماعية وأخلاقا جماعية عند الناس البدائين ، وعندما واجه الناس في مجرى تطور القوى المنتجة علاقات أصبح فيها التمتع الشخصى ببعض الأشياء أكثر سهولة لعملية الإنتاج ، تغيرت آراء الناس أيضا ، وأصبحت الملكية الشخصية لبعض الأشياء .. وهى الملكية التى كانت تعتبر في المراحل السابقة لا أخلاقية ، أو غير طبيعية وغير معتادة على أقل تقدير ، أمرا لا ضير فيه ، ولايتعارض مع المصلحة العامة »

وجاء في كتاب المادية التاريخية (ص ٤٥٧ من الترجمة العربية) :

« إن أخلاق مجتمع عهد الرق هى أول شكل للأخلاق الطبقية ، فقد كانت أخلاق مالكي الأرقاء هى السائدة في ذلك المجتمع ، وهى إذ نشأت على أساس العلاقات الاقتصادية للنظام الرقى ، كانت تعكس العلاقات القائمة بين الأرقاء ومالكهم بالدرجة الأولى . إن الخاصية المميزة لهذه الأخلاق هى أنها كانت لاتعترف بالعلاقات الإنسانية إلا بين الأحرار من الناس . لقد كان الرقيق خارج الأخلاق ، وهو سلعة وشئ ، وأداة ناطقة .. ولهذا فقد كانت الأخلاق تسمح بظلمه وجلده وقتله ، ولم تكن تلك المعاملة الوحشية للرقيق لتوقظ أى « تأنيب ضمير » لدى مالكة . وكانت الأخلاق تبررها ، لكن هذا التبرير لم يكن إلا

ضرورة اقتصادية املتتها العلاقات الرقبة لذلك العصر» ١ «

وجاء فى نفس الكتاب (ص ٥٤٧ - ٤٥٨ من الترجمة العربية) :

« ومع الانتقال إلى الإقطاعية صارت الأخلاق الإقطاعية هى السائدة ، فهى لا تنظر إلى الفن كشئ ، وإنما كإنسان من الدرك الأسفل (العظم الأسود) بينما كانت تنظر إلى ممثلى الطبقة السائدة كبشر من الصنف الممتاز (العظم الأبيض) وإلى جانب هذا فقد كانت الأخلاق الإقطاعية تخفى ظلم الإقطاعيين الوحش للفلاحين وتقنّع الشكل الإقطاعى للاستغلال . ولقد كانت تصور بنفاق كبير علاقة السيد بفلاحيه كعلاقة الأب بينيه ، يوجههم ويرعاهم ويتحمل المسئولية عنهم .

« إن دين المجتمع الإقطاعى قام بتفسير الأخلاق السائدة وبوضع الأسس لها ، إذ صور مطالبها وحدودها التى تعبر فى الواقع عن مصالح المستغلين كأوامر إلهية . والأخلاق الإقطاعية التى ارتكزت على الدين ساعدت على كبح جماح جماهير الفلاحين المسحوقة السوداء » ٢ «

أما فى ظل الرأسمالية فقد حدث تقدم ظاهرى يخفى المضمون الحقيقى للأخلاق الطبقيّة الاستغلالية .

جاء فى نفس الكتاب (ص ٤٥٨ - ٤٥٩ من الترجمة العربية) :

« ومع هذا فقد أحرز التقدم الاجتماعى خطوة إلى الأمام على صعيد الأخلاق ، فالأيدولوجيون البرجوازيون إذ يناضلون ضد الأيديولوجية والأخلاق الإقطاعيتين ، ناضلوا فى سبيل حرية الفكر ، وحرية النشاط من أجل تحرير الفرد من كل القيود الإقطاعية الممكنة . ولكنه مع انتصار الرأسمالية يتكشف المضمون الحقيقى لأفكار الحرية والمساواة والإنسانية البرجوازية . فالمساواة البرجوازية شكلية ، وهى تخفى تبعية العامل للرأسمالى ، والاستغلال الشديد الوطاة للمنتج المباشر ، المقيد اقتصاديا من قبل الرأسماليين بقيود أقوى من أية قيود حديدية أخرى . إن الحرية البرجوازية هى تمتع الرأسماليين

« ١ » هذا الكلام صادق ولاشك . ومع أننا هنا فى مجال العرض لافى مجال المناقشة فاننا نشير فقط مجرد إشاره - ضرورة فى هذا الموضع - إلى أن الأخلاق التى يتحدث عنها الماديون هنا الحديث هى الأخلاق الجاهلية أى غير المستمدة من المصدر الربانى ، وهذه يصدق عليها مايقال عنها فى الغالب ، ولكنهم فى كلامهم لايفرقون بين الأخلاق الجاهلية والأخلاق الربانية .

« ٢ » هذا أيضا صحيح . ولكننا نشير فقط إلى أن « الدين » الذى ارتكزت عليه الأخلاق الإقطاعية لم يكن هو الدين المتزل من عند الله . كما سبق بيان ذلك فى التمهيد الأول من هذا الكتاب . إنما كان دينا جاهليا من صنع الكنيسة .

بحرية نشاط المؤسسة ، وفي الاستيلاء على عمل الآخرين . وهى بالنسبة للبروليتارى بيع قوة عمله أو الموت جوعا . والإنسانية البرجوازية أيضا هى إنسانية مجردة . فالرأسمالية فى الواقع لاتخلق الشروط الواقعية لتطور وازدهار الشخصية . وأكثر من ذلك فهى تحول كرامة الإنسان إلى قيمة تجارية ، والعلاقات بين الناس إلى علاقات نقدية ، قاضية على أى نوع من الصلات بين الناس إلا صلة المصلحة المكشوفة ، صلة الدفع الخالى من العلاقات الإنسانية .

« إن مبدأ الفردية هو السائد فى سلوك البرجوازى إلا أنه ليس من مصلحة البرجوازية أن تعلن عن مصالحها الجشعة بصورة سافرة ومكشوفة . إن البرجوازى يسعى لتبرير أنانيته وفرديته فى الوعى الأخلاقى ، إذ يصور السعى لبلوغ أهدافه الجشعة كاهتمام بالمصلحة العامة . وهنا تتجلى الفردية الحيوانية « كحرية الفرد » ويتجلى استعمار العمال « كإنقاذ للمحرومين من الجوع » و« كتقديم الخبز للجائعين » ويتجلى إنتاج السلع من أجل الحصول على الأرباح « كتأمين المواد الضرورية للمجتمع » ، ويتبدى استعباد الشعوب الأخرى كعملية « تمدين » لها .

« ولهذا فإن مايمز الأخلاق البرجوازية هو طابعها المنافق عندما تتقنع بشريعة الغاب فى عالم الملكية الخاصة بستر من تعاليم الأيدولوجيين البرجوازيين » ١ «

وأما أخلاق الشيوعية فلندعهم هم يصفونها بأقلامهم .

جاء فى نفس الكتاب (ص ٤٧١ - ٤٧٢ من الترجمة العربية) :

« إن الماركسية تنتقد دونما تحفظ محاولات علماء الاجتماع البرجوازيين ، والبرجوازيين الصغار ، لجعل الاشتراكية قائمة على « أساس أخلاقى » أى بناء نظرية الاشتراكية على أساس المبادئ الخلقية المجردة كالعادلة الخالدة والحق المطلق وغيرهما ، دون أن ينطلقوا من القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى . وبهذا المعنى فى الواقع ليس فى الماركسية مثقال ذرة من الأخلاق كما يقول لينين .

« إن الظلم وغيره من وجهة النظر الماركسية ليس أساسيا وإنما هو نتيجة

١ . هذا أيضا صحيح وواضح - كما أشرنا فى فصل « الديمقراطية » - أن الرأسمالية نظام جاهل

للرأسمالية . والاشتراكية لاحتجاج إلى أساس أخلاقي . وإنما إلى أساس علمي » ..

وجاء فيه أيضا (ص ٤٦٥ - ٤٧٦) :

«إن أهم مبادئ الأخلاق الشيوعية هي العلاقة الشيوعية نحو العمل ، والاهتمام برعاية وزيادة الأموال الاجتماعية . وفي العلاقة نحو العمل بالذات وقبل كل شيء ، يتجلى الإطار الروحي الجديد للناس الذين تربوا في المجتمع الاشتراكي . وتتلاءم مع الأخلاق الشيوعية تلك العلاقة الشريفة الطيبة نحو العمل . العلاقة نحو العمل كإبداع وكأسمى واجب للفرد تجاه المجتمع .

« إن الأخلاق الشيوعية تدين المهملين والمتقاعسين والطفيليين . إن إرادة العيش على حساب الآخرين تتناقض مع أساس المجتمع الاشتراكي ، ومع أخلاقه » .

ومن ناحية أخرى يقول إنجلز :

« إن الأخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي إلى انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافيا للأخلاق المعمول بها » « ١ »

ويقول لينين :

« يجب على المناضل الشيوعي الحق أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل . فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية » « ٢ »

ويقول أيضا :

« إذا لم يكن المناضل الشيوعي قادرا على أن يغير أخلاقه وسلوكه وفقا للظروف مهما تطلب ذلك من كذب وتضليل وخداع فإنه لن يكون مناضلا ثوريا حقيقيا » « ٣ »

٣ - الأسرة .

لا يختلف تفسيرهم للأسرة عن تفسيرهم للدين والأخلاق من حيث إنها انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية ، ومن حيث إنها متطورة على الدوام ، وليست « قيمة » ثابتة ولا قائمة بذاتها .

١ . ٢ . عن كتاب « اشتراكيتهم وإسلامنا » تأليف بشير العوف ص ٣٦ - ٣٧ .
٢ . المصدر السابق (ص ٢٧)

يقول جان فريفييل في كتاب « المرأة والاشتراكية » ترجمة جورج طرابيشي (ص ١٧ من الترجمة العربية) :

« لاتشكل الأسرة كيانا اجتماعيا خالدا ، ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون ، وهذا التطور يتحدد في التحليل الأخير بالعامل الاقتصادي »
ثم يرسمون خطا تطوريا للأسرة يعتمد في مراحلها الأولى على ما اكتشف من أحوال القبائل المتأخرة في مختلف قارات الأرض ، أو ما يتصورونه من أحوالها في بعض الأحيان (كحديثهم عن أسرة الجيل) .
ويقسمون أطوار الأسرة إلى : أسرة الجيل ، وأسرة الشركاء ، والأسرة الزوجية والأسرة الوحدانية .

فأما أسرة الجيل (التي يتصورونها تصورا) فقد كانت العلاقات الجنسية مباحة فيها بين جميع أبناء الجيل الواحد أي بين الأخوة والأخوات ، ومحرمة في مادون ذلك أي بين جيل الآباء وجيل الأبناء .

يقول إنجلز في كتاب « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » (ترجمة أديب يوسف ص ٥٦ - ٥٧ من الترجمة العربية) :

« في هذه المرحلة (أسرة الجيل) تصنف المجموعات الزوجية تبعا للأجيال ، جميع الأجداد والجندات ضمن حدود الأسرة هم أزواج وزوجات بالتبادل ، وكذلك الأمر في أولادهم : الآباء والأمهات ، كما أن أولاد هؤلاء يؤلفون هم أيضا حلقة ثالثة من الأزواج والزوجات المشتركين . ويؤلف أولاد هؤلاء أعنى أولاد الأحفاد للأجداد والجندات حلقة رابعة ، وهكذا : في هذا الشكل من الأسرة يحرم السلف والخلف فقط - الآباء والأولاد - من حقوق وواجبات زواج أحدهم بالآخر .

« إن أسرة الجيل قد انقرضت وحتى أخشن الشعوب التي يتحدث عنها التاريخ لاتمدنا بأمثلة على هذا الشكل يمكن التثبت عنها » « ١ »

ويقول (ص ٥٢ - ٥٤ من الترجمة العربية) :

« ولئن كان ثمة أمر أكيد فهو أن الغيرة عاطفة نشأت في عهد متأخر نسبيا ، وهذا يصدق على مفهوم « المحرم » لأن الأخ والأخت لم يكونا وحدهما يعيشان في الأصل كما يعيش الزوج والزوجة ، بل إن العلاقات الجنسية بين الآباء

والأولاد مسموح بها أيضا لدى شعوب عديدة حتى اليوم « ١ » وقبل اختراع المحارم (لأن المحارم اختراع حقا ، بل اختراع ثمين جدا) لم يكن الوصال الجنسي بين الآباء والأبناء ليثير من الاشمئزاز أكثر مما يثيره الوصال بين اشخاص من أجيال مختلفة - كذلك الذى يحدث فعلا اليوم حتى في أكثر البلاد تظاهرا بالتزمت - من دون أن يثير النفرة الشديدة «

ثم يقول (ص ٥٨ وما بعدها) :

« إذا كان التقدم الأول يتألف من حرمان الآباء والأولاد من العلاقات الجنسية المتبادلة ، فإن التقدم الثانى يتألف من حرمان الاخوة والأخوات منها .. وقد حدثت هذه الخطوة بالتدريج ، مبتدئة في أقرب الاحتمالات « ٢ » بحرمان الاخوة والأخوات الطبيعيين (أى من جهة الأم) من العلاقات الجنسية ، وذلك في حالات متفردة في أول الأمر ، ثم أصبح حرمانهم بالتدريج هو القاعدة ، وتنتهى هذه الخطوة بتحريم الزواج حتى بين الاخوة والأخوات الأبعد «

« في جميع أشكال الأسرة الجماعية لا يعرف من هو والد الولد معرفة أكيدة ، أما والدته فتعرف معرفة أكيدة .

« وفي أغلبية الحالات يبدو « ٣ » أن مؤسسة العشيرة قد انبثقت مباشرة من أسرة الشركاء «

ويقول عن المرحلة التالية ، مرحلة الأسرة الزوجية (ص ٧٢ - ٧٣ من الترجمة العربية) :

« في هذه المرحلة يعيش الرجل الواحد مع امرأة واحدة ، لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية يظلان من امتيازات الرجال ، وإن لم يكن تعدد الزوجات يمارس إلا نادرا لأسباب اقتصادية فقط ، وفي الوقت ذاته يطلب من المرأة الإخلاص التام طوال فترة العيشة المشتركة ، فإذا زنت عوقبت بقسوة .. غير أن رباط الزيجة يمكن حله من قبل أى الطرفين ، فيرجع الأولاد إلى أمهم كما كان الأمر في السابق « .

ثم يقول عن المرحلة الأخيرة - وهى الأسرة الوحدانية - (مقتطفات من ص ٩٥ - ١٠٢ من الترجمة العربية) :

« ١ » لا نعرف مدى صحة هذا الكلام من الناحية العلمية

« ٢ » يبدو - يعنى أنه ليس مؤكداً -

« ٣ » الأمر إذن أمر احتمالات .

« إن الأسرة الوحدانية مبنية على سيطرة الرجل ، وهدفها الصريح إنتاج أولاد لايشك في صحة أبوتهم ، هذه الأبوة التى لابد منها لى يرث الأولاد في يوم ما ثروة أبيهم ، بوصفهم ورثته الطبيعيين » ١ « وتختلف الأسرة الوحدانية عن الأسرة الزوجية في أن رباط الزواج أمتن جدا منها ، ولا يعود حله الآن رهنا برضى أى من الطرفين بل يصبح الرجل - كقاعدة عامة - هو وحده الذى يستطيع الآن حل هذا الرباط وتسريح زوجته .

« كانت الزيجة الوحدانية تقدما تاريخيا عظيما ، لكنها في الوقت ذاته دشنت هي والرق والثروة الخاصة (يقصد الملكية الفردية) ذلك العهد القائم إلى اليوم ، الذى يكون فيه كل تقدم تقهقرا نسبيا أيضا . العهد الذى يدرك فيه بعض الناس مصلحتهم وتطورهم بشقاء الناس الآخرين واضطهادهم .

« كانت الزيجة الوحدانية أول شكل للأسرة مبنى لا على أحوال طبيعية (يقصد كتلك التى كانت أيام الشيوعية الجنسية) بل على أحوال اقتصادية ، أى على انتصار الملكية الخاصة على الملكية العامة البدائية ، الطبيعية النشأة » .

اما الأسرة في ظل الشيوعية ، فهي كالدين والأخلاق ..

جاء في كتاب « المرأة والاشتراكية » (ص ٥١ من الترجمة العربية) :
« يقول إنجلز . إن العلاقات بين الجنسين ستصبح مسألة خاصة لاتعنى إلا الأشخاص المعنيين والمجتمع لن يتدخل فيها . وهذا سيكون ممكنا بفضل إلغاء الملكية الخاصة ، وبفضل تربية الأولاد على نفقة المجتمع ، وبنتيجة ذلك يكون أساسا الزواج الراهنان قد ألغيا . فالمرأة لن تعود تابعة لزوجها ولا الأولاد لأهلهم ، هذه التبعية التى ماتزال موجودة بفضل الملكية الخاصة »

ويقول إنجلز في كتابه « أصل الأسرة » (ص ١١٨ من الترجمة العربية) :
« فبانقلاب وسائل الإنتاج إلى ملكية عامة لاتبقى الأسرة الفردية هي الوحدة الاقتصادية للمجتمع ، وينقلب الاقتصاد البيتي الخاص إلى صناعة اجتماعية ،

١ « يقول الماديون إن الوراثة والنسب قبل ذلك كانت عن طريق الأم . وإن الرجل - حين رادت ثروته وزاد نفوذه - قام بانقلاب تاريخي ، فحول الوراثة والنسب إلى طريق الأب ، ليورث ثروته لأبنائه ، فلهذا ان يتأكد من بنوة أبنائه له »

وتصبح العناية بالأطفال وتربيتهم من الشئون العامة . فيعنى المجتمع عناية متساوية بجميع الأطفال سواء كانوا شرعيين أم طبيعيين . وبذلك يختفى القلق الذى يستحوذ على قلب الفتاة من جراء « العواقب » التى هى فى زماننا أهم حافز اجتماعى - اقتصادى وخلقى - يعوقها عن تقديم نفسها بلا حرج لمن تحب . أفلم يكن هذا سببا كافيا لازدياد حرية الوصال الجنى شيئا فشيئا ، ومن ثم لنشوء رأى عام أكثر تساهلا فيما يتعلق بشرف العذارى وعار النساء ؟ »

كلام صريح لا يحتاج إلى تعليق !

تقديم النظرية المادية

المادية الجدلية والمادية التاريخية كما تبين من العرض السابق شيئان مترابطان فى الفكر الشيوعى لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، ولا يفهم أحدهما فهما صحيحا بمعزل عن الآخر .. والحقيقة أن المادية الجدلية هى القاعدة التى تقوم عليها المادية التاريخية ، والمادية التاريخية هى التطبيق التفصيل للمادية الجدلية ، أو أن العلاقة بينهما تشبه العلاقة بين العظام والأنسجة الحية فى الكائن الحي .. لذلك يجدر بنا أن نناقشهما معا مجتمعين ، بدلا من أن نناقش كلا على حدة ، فنضطر إلى التكرار فى أكثر من موضع من مواضع الحديث . وإذا أخذنا نناقش المادية الجدلية والمادية التاريخية فيجدربنا أن نركز الحديث على قضايا أساسية معينة ، تندرج تحتها القضايا الأخرى كلها . وهذه القضايا الرئيسية هى : التفسير المادى للخالق ، والتفسير المادى للإنسان ، والتفسير المادى للقيم المحيطة بحياة الإنسان فى الأرض . فإذا اتضح لنا وجه الحق فى هذه القضايا الرئيسية فلن القضايا الفرعية المترتبة عليها تكون أسرفهما وأقل حاجة إلى النقاش .

أولا : التفسير المادى للخالق :

المادة أزلية أبدية : « لم يكن هناك وقت لم تكن المادة فيه موجودة . ولا يجيء وقت لا تكون فيه موجودة » .
والمادة هى الخالق . هى التى خلقت الحياة والإنسان : « الإنسان نتاج المادة »

أى شىء من صفات الله لم يلحق بالمادة ؟ إلا القصد والتدبير والحكمة .
واللهم الذى يدعونه لا حكمة له ولا قصد ولا تدبير !

لا شك أن ماركس وإنجلز وأضرابهما لم يكونوا أول الملحدين في أوروبا .
فقد كانت موجة الإلحاد قد تفشت من قبل بين العلماء والمفكرين من جراء
مفاسد الكنيسة وعبثها بدين الله .

ومن قبل قال دارون : إن الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق .
وقال : إن الطبيعة تخبط خبط عشواء !

ومذهب عبادة الطبيعة - لايزيد كما أشرنا من قبل - على أن يكون مهريا
وجدانيا من إله الكنيسة الذى تستعبد الناس باسمه وتستذلهم وتبتز أموالهم
وتحجر على عقولهم وأفكارهم ، إلى إله آخر له معظم خصائص الإله الأول ،
ولكن ليست له كنيسة ولا التزامات ، وعباده أحرار فيما يصنعون بأنفسهم لا
سلطان لأحد عليهم .. إلا الهوى والشهوات !

ولكن « الطبيعة » على أى حال كانت تمثل في وجدان عبادها شيئا حيا ،
مبهما غير محدد السمات ، يرون « مظاهره » في الجبال والأنهار والأشجار
والأزهار والمطر والرياح والبرق والرعد والإنسان والحيوان .. أما القدرة على
الخلق وإعطاء كل شىء صورته التى هو عليها ، وتنسيق وظائف كل كائن بما
يلئم ظروفه .. إلى آخر تلك الصفات التى هى في حقيقتها صفات الخالق « الذى
أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » « ١ » .. فقد كانت تضى على الطبيعة بصورة
أقرب إلى خيال الفن منها إلى واقعية الفكر فضلا عن واقعية العلم .. صورة
سحرية مبهمة غامضة لا تستطيع أن تمسك بها أو تحددها ، وكلما حاولت
تحديدها أفلتت منك ، لأنها بطبيعة الحال وهم لاحقيقة له ، وعبادها أنفسهم لم
يخرجوها من دائرة الوهم إلى نور الفكر المحدد للسمات والصفات .

ورغم أن الكلمة جرت على السنة العلماء كأنها حقيقة فلا شك أنها كانت
عندهم - كما كانت عند غيرهم - مهريا وجدانيا أكثر مما هى عقيدة حقيقية .

كانت وثنا يلجأون إليه ؛ يلقون إليه بحيرتهم ودهشتهم كلما فاجأهم سر من
أسرار الكون العجيبة التى تشهد أن لا إله إلا الله .. فيهربون عنده من الإقرار

بما يجول في صدورهم ولا يريدون الإقرار به حتى في سرهم وخلوتهم مخافة أن تلحق بهم الكنيسة فتوقعهم في قبضتها ! ويحسبون أن الاحتماء بهذا الوثن سيخلصهم من حيرتهم وينقذهم منها وهيئات !

« ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » « ١ »

ولو أنهم كاشفوا أنفسهم بدلا من مغالطة أنفسهم بالوهم ، لسألوا أنفسهم هذا السؤال البدهى القريب : ما الطبيعة على وجه التحديد ؟ واين تكمن قدرتها على الخلق ؟ في أى مكان منها ؟ أم ليس لهذه القدرة مكان ولا حيز ؟

فإذا لم تكن محسوسة ولم يكن يحدها المكان ولا الحيز ، وكانت « غيبا » لا تدركه الأبصار ، إنما تدرك آثاره فقط ومظاهره ، فما الذى يبرر في منطق العقل أن نعدل عن الاسم الحقيقى ، اسم الله ، ونلجأ إلى مسميات ما أنزل الله بها من سلطان ؟ أو - إن كان الله في منطق الإلحاد لا حقيقة له - فما الذى يبرر - في منطق العقل أو في منطق العلم - أن يقول قائل إنه ليس حقيقة حين يكون اسمه الله جل جلاله ، ثم يكون هو ذاته حقيقة حين يكون اسمه « الطبيعة » ؟ !

أهو الخوف من الكنيسة وطغيانها ؟

أو هو البغض لها والحقد عليها ؟

فليكن !

فلنهرج الكنيسة ونفر منها إلى الله الحق ، وهو إله لا كنيسة له في الحقيقة ولا رجال دين !

ولكن أوروبا الجاهلية لم ترد أن تدخل في الإسلام .. ففرت من جاهلية الكنيسة إلى جاهلية لا تقل سوءا ولا انحرافا .. إن لم تكن أشد !

هذه هى الطبيعة التى « تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق » والتى « تخبط خبط عشواء » ! لم تكن قط في يوم من الأيام « حقيقة علمية » إنما كانت مهربا من أزمة فكرية روحية في ذات الوقت ، واجهت أوروبا وحدها - لظروف محلية عندها - ولم تواجه الفكر البشرى في مجموعه ولا الضمير البشرى !

أما المادة الأزلية الأبدية الخالقة فما قصتها ؟

وكيف نناقشها مناقشة « علمية » ؟ !

دع جانبا ما صار يعلمه صغار الطلاب في المدارس من أن القول بأن « المادة

لا تفنى ولا تستحدث « لم يعد صحيحا من الوجهة العلمية ، وهو القول الذى تصيدوه تصيدا فى نهاية القرن الماضى ليبنوا عليه تفسيرا « علميا ! » للكون والحياة والإنسان ، ولقضية الألوهية كذلك !

ودع جانبنا ما صار يعلمه طلاب الجامعات من البحوث الجيولوجية والفيزيائية من أن الكون المادى « حدث » ذات يوم ولم يكن موجودا من قبل ، وأن عمر هذا الكون المادى فى سبيله أن يحدد تحديدا علميا دقيقا على ضوء المعلومات التى ترسلها الأقمار الصناعية التى تدور حول الشمس وغيرها من الأفلاك .

دع ذلك جانبنا ، فلم يكن ماركس وإنجلز ولينين مطالبين بثقافة علمية أكبر من ثقافة عصرهم الذى وجدوا فيه « ١ » . ولكنهم مسئولون ولا شك مسئولية كاملة عن تلك الفرية التى لا يقوم عليها أى دليل علمى ، وهى أن المادة هى التى تخلق ، وأن من بين خلقها الإنسان !
ما الدليل العلمى على هذه الفرية ؟

متى شوهدت المادة وهى تخلق ؟ وكيف تخلق ؟!

يقول جورج إيرل دافز عالم الطبيعة : « فالمنطق الذى نستطيع أن نأخذ به ، والذى لا يمكن أن يتطرق إليه الشك هو أنه ليس هناك شئ مادى يستطيع أن يخلق نفسه » « ٢ »

إن المؤمنين بالله ورسله يقولون إن الله ينشئ الخلق من العدم ، وإنه يقول للشيء كن فيكون . وهم لا يزعمون أنهم يدركون الكيفية التى يخلق الله بها الخلق . ولكنهم لا يقولون إن الله مادة ، وإن المادة تخلق المادة ، لأن هذا خبل لا يقوله عاقل .

إن المؤمنين بالله ورسله لم يروا الله جهرة ، لأنه سبحانه وتعالى : « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » « ٣ » ولكنهم رأوا من آثار قدرته ما يدل عليه :

« إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر

« ١ » العجيب هو إصرار أتباعهم على الأقوال المزيفة بعد أن أثبت العلم بطلانها !

« ٢ » من كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » ص ٤١

« ٣ » سورة الأنعام [١٠٣]

حسبنا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى انشاكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنت من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون « ١ »

« أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين « ٢ »
ورأوا من آثار هذه القدرة ما يدلهم على أنه إله مقتدر ، حكيم مدبر ، لا يخلق شيئا عبثا ، ولا يخلق شيئا بالباطل ...

« الذى خلق سبع سماوات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ « ٣ »
« وكل شيء عنده بمقدار » « ٤ »
« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا « ٥ »
« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون « ٦ »
والشيوعيون لا يؤمنون بذلك كله . فلا نحاسبهم بمنطق الإيمان. لكننا نحاسبهم بمنطق « العلم » الذى يزعمون أنهم يقيمون عليه نظرياتهم وتطبيقاتهم كلها جميعا !!
أى منطق وأى علم يقول إن المادة يمكن أن تخلق المادة ؟

١ . سورة الأنعام [٩٥ - ٩٩]
٢ . سورة النمل [٦٠ - ٦٤]
٣ . سورة الزمر [١١٥]
٤ . سورة الرعد [٨]
٥ . سورة هود [٢٤]
٦ . سورة المؤمنون [١١٥]

بل اى منطق وأى علم يقول إن الخالق - أيا كان هو - يمكن أن يخلق ما هو أرقى منه ؟ وكيف يسيطر المخلوق على الخالق ؟
يقولون إن الإنسان نتاج المادة ! فكيف نتج عن المادة ؟ من الذى أنتجه ؟ وكيف استطاع - « غوناتج عن المادة - أن يسيطر عليها ويتحكم فيها ؟
وإذا قلنا إن المادة « تطورت » فأصبحت مادة حية ، ثم تطورت فصارت إنسانا ، فهل هذا يحل الإشكال عن الوجهة العلمية ؟

كيف تطورت ؟ ما الذى جد على طبيعتها - فجأة - فتطورت إلى مادة حية بينما هى كانت - فى زعمهم - موجودة على صورتها منذ الأزل ؟ وحين تطورت فلماذا لم تتطور كلها إلى مادة حية ! لماذا بقيت كميات هائلة من المادة لم تتطور من قبل ولا من بعد ؟ ولماذا حدث التطور فى اتجاه الحياة بالذات ؟ ولماذا حدث مرة واحدة ثم توقف ، فلم تعد ذرة واحدة من المادة الجامدة تتحول إلى خلية حية مهما بذل معها من التجارب ومهما تغيرت من حولها الظروف ؟

وحين تطورت المادة الحية - تلقائيا ! - فأصبحت - فى أعلى حالات تطورها - إنسانا ، فلماذا توقفت فى التطور عند الانسان ولم تتطور إلى ما هو أعلى منه ، مع أن التطور - فى زعمهم - قانون من قوانين المادة ، والقوانين لا تتوقف عن العمل ، وإلا فهى ليست قوانين !

ومن ناحية أخرى كيف تسنى للمادة المتطورة - التى هى الإنسان - أن تسيطر وتتحكم فى المادة التى نتجت عنها مع أن هذا ليس من قوانين المادة ! فالقانون - المزعوم - هو تطور المادة، وليس سيطرة المتطور من المادة على غير المتطور منها !

وهكذا نصل - علميا - إلى ذات الطريق المسدود، سواء سرنا مع المادة الأزلية الأبدية عن طريق الخلق أو طريق التطور الذاتى ، ولا نجد هذا « العلم » يفسر لنا شيئا على الإطلاق !

إننا لن نستطيع - مهما حاولنا - أن نمسك بهذا الهراء لنضعه على مائدة البحث العلمى ، لأنه لا يتماسك حتى يوضع على مائدة البحث ! وإنما نستطيع أن نفهمه فى حالة واحدة - إذا أخرجناه تماما من دائرة العلم ، ونظرنا إليه من زاوية الهدف المقصود منه - وسنجد أن هذه هى الوسيلة الصحيحة والميسرة

لفهم كل « معطيات » المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ . إنها - فى الغالبية العظمى منها - ليست منطقية فى ذاتها ولكنها منطقية مع الهدف المقصود منها . أى ان النتيجة المطلوبة توضع أولا ، ثم تساق الأدلة إليها سوفا وتحشر إلى جانب بعضها البعض حشرا ، سواء كانت متناسقة أو متنافرة ، وسواء كانت مؤدية بالفعل إلى النتائج المطلوبة أم غير مؤدية ! إنما تلوى رقاب الأدلة ليا لتؤدى - بالقوة - إلى الهدف المطلوب ، ثم يقال للناس إنها نظرية « علمية » وتفسير « علمى » !

المطلوب أولا هو نشر الإلحاد الكامل الذى لا رجعة منه ، وإزالة أى أثر من آثار الدين يمكن أن يكون مندسا هنا أو هناك ، وإزالة أى أثر لتوقير « الخالق » من النفوس .

فحتى تسمية الخالق بالطبيعة - وهو المهرب الذى هربت به أوروبا من إله الكنيسة كما أشرنا من قبل - لم يبد كافيا فى نظر المخططين لاستحمار الأممين ، وكان فى حاجة إلى خطوة « تقدمية » أخرى تتقدم به نحو الهدف المطلوب .

فمع الإلحاد المتمثل فى نفى الخلق عن الله ونسبته إلى الطبيعة كانت ما تزال هناك « وجدانات » تنبض تجاه ذلك الخالق تخرج أحيانا فى صورة فن ، وأحيانا فى صورة توقير لقوة أعلى من الإنسان . ويخشى إذا بقيت الأمور عند هذا الحد أن تتعقل البشرية ذات يوم وتكف عن مغالطة نفسها ، وتعود إلى الله ! « ١ »

ولكن يراد إزالة هذه البقية الباقية تماما .. فيتحول الخالق إلى مادة .. ويقال للناس : لا إله ! والكون مادة !

فإذا انتفى وجود الله تماما - بزعمهم - ولم يعد هناك إلا المادة ، فالمادة لا تثير الوجدان ولا تستحق التوقير ، ومن ثم يتخلصون من ذلك العدو المرهوب ، الذى لا يخافون من شيء على الإطلاق خيفتهم منه .. ألا وهو الدين !

والمطلوب ثانيا - كما سنرى فى الحديث عن القضية الثانية - هو تحقير الإنسان وإزالة الكرامة عنه . فإنه إذا أحس بكرامته فسيصعب ركوبه كما تركب الحمير ، لأنه سيكون معترزا بإنسانيته غير قابل للانسحاق كالدواب .

ووسائل التحقير كثيرة كما سنراها فى القضية الخاصة بالتفسير المادى

١ - عاد بعض علماء الجاهلية المعاصرة بالفعل كما سيجىء ، بعد قليل

للإنسان .. ولكن في مقدمتها جميعا نفى الخلق عن الله سبحانه وتعالى - ونفى وجود الله في الحقيقة - وجعل « الخالق » أو « المنتج » للإنسان هو المادة ! إن الإنسان يستمد وجوده من إلهه وخالقه ، ويستمد قَدْرَهُ من قدر ذلك الإله .

فحين يكون الخالق المعبود هو الله الحكيم المقتدر يكون الإنسان رقيق القدر بتكريم الخالق له - سبحانه - ومستعليا بالإيمان بخالقه العلي العظيم . أما حين يتدنّى الخالق حتى يصبح هو المادة ، فإن الإنسان يتدنّى معه حتى يصل أسفل سافلين !

وقد هبطت البشرية هبوطا مستمرا منذ تفلتت من عبادة إلهها وخالقها ، وكانت - حين نفت الخلق عن الله ونسبته إلى الطبيعة - قد بلغت مستوى كبيرا من الهبوط . ولكنه لم يكن كافيا في نظر المخططين بكل ما فيه من حيوانية وتبذل خلقى ؛ فأرادوا له مزيدا من الهبوط ، فهبطوا بالاله الخالق دركات حتى جعلوه هو المادة ، وجعلوا الإنسان نتاج تلك المادة ، فأى كرامة تبقى لهذا المخلوق - حتى في حس نفسه - حين يعرف أنه من نتاج المادة أو أنه نتاج تطور المادة ؟ لا كرامة ولا آدمية .. وهذا هو المطلوب !

* * *

ولسنا نحن بحمد الله في حاجة إلى أقوال البشر نستدل بها على وجود الله وعلى وحدانيته ، فعندنا كتابنا الذي نؤمن به ، هو حسبنا في كل قضية من قضايا الحياة ، وقد بسط القرآن قضية الألوهية بسطا لا يحتاج إلا إلى تدبره بعقل مفتوح وقلب مفتوح .

ولكننا مع ذلك نأخذ شهادة على البشرية الضالة من علمائها في هذا القرن الذي نعيش فيه .

يقول « رسل تشارلز إرنست » أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا :

« لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس أو تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة ، وقد يخيّل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدّت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات .. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول

على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات من طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأن وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا أو صعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء ودبرها .

« إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها ، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإننى أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً » ١

ويقول « إيرفينج وليام » (دكتوراه من جامعة أيووا وإخصائى وراثة النباتات ، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) .

« إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها ، والتي لا يحصى عددها ، وهى التى تتكون منها جميع المواد . كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا - بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها - كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لى تكوّن الحياة .. » ٢

ويقول « ألبرت ماكومب ونشستر » المتخصص فى علم الأحياء :
« ولقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء . وهو من الميادين العلمية الفسيحة التى تهتم بدراسة الحياة . وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التى تسكن هذا الكون .

« انظر إلى نبات برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق . فهل نستطيع أن نجد له نظيراً فى روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة ؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار ، بألاف من التفاعلات الكيميائية والطبيعية ، ويتم ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم - وهو المادة التى تدخل فى تركيب جميع الكائنات الحية .

١ . من مقال ، الخلايا الحية تؤدى رسالتها ، من كتاب « الله يتحلّى فى عصر العلم » ص ٧٧
٢ . ص ٥٢ من كتاب « الله يتحلّى فى عصر العلم »

فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها . ولكنه خلق الحياة ، وجعلها قادرة على صيانة نفسها ، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل ، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر .. إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهارا لقدرة الله « ١ »

ثانيا : التفسير المادى للإنسان :

بعد أن فرغنا من قضية مادية الخالق نتحدث عن قضية مادية الإنسان ، وذلك لازم لنا قبل أن نناقش التفسير المادى لمختلف نواحي النشاط الإنسانى ومجالات حياته ، كالدين ، والأسرة ، والقيم المعنوية ، والمبادئ الفكرية ، والنظم والمؤسسات .

ولا شك أن الماديين قد تأثروا بالداروينية في تصويرها المادى الحيوانى للإنسان ، أوهم في الحقيقة قد استغلوا النظرية - إذ وجدوها صالحة للاستغلال - في تشويه صورة الإنسان الكريمة العالية الوضعية المشرقة ، وتصويره في صورة هابطة تخدم أغراض المخطط الشرير ، إذ تحجب عن الإنسان مجالات رفعة وإشراقه ، وتوحى إليه بالهبوط فيهبط ، وتنطمس بصيرته فيصبح كما يريدون .

ولكن الحقيقة أن دارون نفسه - رغم نفيه الخلق المباشر للإنسان على صورته الإنسانية ، وإلحاقه إياه بسلسلة التطور الحيوانى - لم يهبط به إلى المستوى الذى وضعته فيه المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ . وأن هذا التفسير المادى إنما هو خطوة « تقدمية » في المخطط الهادف إلى استحجار البشرية كلها للشعب المختار !

كان الإنسان عند دارون كائناتنا حيا تطور عن القردة العليا مع فاصل تطورى تصوره ولم يعثر عليه فسماء الحلقة المفقودة ، وهى الحلقة الوسيطة بين القرد والإنسان . كما كان الإنسان عنده متأثرا بالبيئة المادية في تطوره من الحالة القرديّة إلى الحالة الإنسانية، لأن ظروف البيئة المادية هى التى أحدثت سلسلة التطور من أول الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان .

١ . ص ١٠٥ - ١٠٦ من المصدر السابق

لكنه لم يكن قط في التصور الدارويني مادة ، ولا كانت قوانين المادة منطبقة عليه ، فمئذ تحولت المادة الميتة إلى مادة حية - بصورة لم يشأ دارون أن يتعرض لها ، بل تهرب منها لكيلا تلجئه إلى الاعتراف بإرادة الإلهية في إخراج الحي من الميت - منذ ذلك الحين صارت لها قوانين خاصة تحكمها غير قوانين المادة الميتة ، هي قوانين الحياة .

وكانت تلك بديهية عند دارون وعند الناس جميعا ، لا يخالجهم فيها شك لأنها أوضح من أن يثور فيها الشك . ولئن كان دارون قد رد الإنسان إلى المرتبة الحيوانية (على أساس جسده) مغفلا تفرد الإنسان « ١ » ، فإنه على أى حال قد ارتفع بالكائنات الحية جميعا بما فيها الإنسان - بل هو في قمتها - عن مجال المادة ، وجعل مجال الحديث عنها هو علم « الحياة » الذي يختلف اختلافا بينا عن علم « المادة » .

أما التفسير المادى للتاريخ فلم يشأ أن يقف بالإنسان - في الهبوط - عند مرحلة الحيوانية التي أوقفه فيها دارون ، إنما دفعه دفعات أخرى إلى أسفل ، ليتردى في مهاوى المادية الحالكة حيث يعود إلى التراب ، صرفا بغير روح ، ويصبح قانونه هو قانون التراب !

وحدة العالم تنحصر في ماديته . والإنسان نتاج المادة . فإذا قيل وما الفكر؟ فالفكر نتاج الدماغ ، والدماغ مادة !!

منطق « علمى » عجيب ، غاية في العجب في الحقيقة !
فلتكن وحدة العالم منحصرة في ماديته كما كان العلم النافص يقول على أيام ماركس وإنجلز ولنين قبل تفجير الذرة واستخلاص « الطاقة » من داخلها .. فما صلة ذلك بالإنسان ؟

الكون المادى مادة . والحياة حياة ، والإنسان إنسان !

وليكن الدماغ مادة .. فهل كل مادة تنتج الفكر ؟

وإذا كان الأصل في الفكر هو مادة الدماغ ، فهل يختلف مخ الطفل الوليد عن مخ الإنسان الناضج ، من حيث تركيبه « المادى » ؟! فلماذا لا يفكر الطفل بينما يفكر الإنسان الناضج؟ ولماذا يفكر الطفل - حين يبدأ يفكر - على نحو مختلف عن تفكير الإنسان الناضج من جميع الوجوه ؟ هل هناك عناصر « مادية » تضاف

١ . أثبتت الداروينية الحديثة ، Neo-Darwinism ، كما سيجى ، في أثناء المناقشة تفرد الإنسان حتى من الناحية البيولوجية البحتة التي خدعت دارون فجعلته يلحق الإنسان بعالم الحيوان .

إلى مخ الطفل فيصبح مخ إنسان ناضج ؟ وما تلك العناصر على وجه التحديد ؟
وأما مخ الناس جميعهم - من حيث التركيب المادي - متشابهة إن لم تكن
متماثلة .. فلماذا يختلف تفكير شخص عن شخص آخر اختلافا تاما مع عدم
وجود اختلاف في « المادة » التي يصدر عنها هذا الفكر وذاك ؟

وحين يكون الإنسان متدينا ثم يصبح شيوعيا - مثلا - فهل تتغير « مادة »
مخه ، بحيث لو كشفنا على مخه لأبصرنا تغيرا معيناً ملموساً طرأ عليه ، فاسود
- مثلا - بعد ابيضاض ، أو زادت فيه كمية النحاس ونقصت كمية الفوسفور ؟

أى سخف في هذا « العلم » يبعث الغثيان ! .

والشيوعية تقول إن الانسان سيد هذا الكون « ١ » ، فكيف يخلق الكون
سيده كما تساءلنا من قبل ؟ ثم كيف يكون السيد من نفس مادة المسود بلا
زيادة ؟ ما الذى يجعله سيدا إذن إذا كان من نفس التركيب ؟

إن المؤمنين بالله ورسله يؤمنون بأن الإنسان من مادة هذا الكون :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » « ٢ »

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين » « ٣ »

ولكنهم يؤمنون بأن هناك شيئا آخر غير الطين هو الذى جعل الإنسان إنسانا
وميزه على بقية الخلق . ذلك هو النفخة العلوية فيه :

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعوا له ساجدين » « ٤ »

فإذا جرده الشيوعيون من نفخة الروح وجعلوه طينا فحسب ، فكيف
يفسرون سيادة الطين على الطين ، أو سيادة جزء من المادة على بقية المادة
المماثلة لها تماما في التركيب ؟

وكيف يكون هذا منطقا « علميا » تبني عليه نظرية علمية وتفسير علمي
للحياة البشرية ؟

١ . يقول الشيوعيون ذلك لا إيماننا حقيقيا بتلك الحقيقة ، ولكن لينقوا فقط الرومية الله لهذا الكون وكل ما فيه
بما في ذلك الإنسان . فإذا أخرجوا الإنسان - بزعمهم - من مجال العبودية لله بقولهم إن الإنسان سيد هذا
الكون ، عادوا فردوه أسفل سافلين . تحكمه « الحتميات » وتمرغه المادة في الوحل ' ولكننا نأخذهم بكلامهم
على أى حال ' .

٢ . سورة الحجر [٢٦]

٣ . سورة ص [٧١]

٤ . سورة ص [٧١ - ٧٢]

وهل حدث خلال ألوف الملايين من السنين أن خرجت قطعة من المادة فسودت نفسها أو زعمت لنفسها سيادة على بقية المادة المتفككة معها في جواهرها وأعراضها ؟

أم لابد بداهة أن تكون قطعة المادة التي سودت نفسها أو منحت السيادة على بقية المادة ، متميزة في تركيبها عن بقية المادة، وزائدة عنها بنوع من الزيادة أيا كان ؟

فإذا كان ذلك كذلك فكيف تكون قوانين المادة العادية منطبقة بحذافيرها على قطعة المادة التي تميزت عنها في تركيبها وزادت عليها زيادات ؟
اليسست الزيادة التي اقتضت التميز والسيادة - أيا كان نوعها - تقتضي أن يكون لها معاييرها الخاصة وقوانينها الخاصة ؟

وهل يكفي أن يقول الإنسان بلسانه - كما يقول التفسير المادى للتاريخ - إن الإنسان هو أعلى « تطور » حدث في عالم المادة ، إذا كان سيعود فيلغى هذا « التطور » ويعامل الإنسان بقانون المادة البحت بلا تغيير ؟

ماقيمة التطور إذن - إذا سلمنا جدلا بأن الإنسان مادة متطورة - بل ماقيمة « أعلى درجات التطور » إذا كنا سنعود فنعامل المادة المتطورة بقوانين المادة غير المتطورة ؟

وما هذه الحيرة والبليّة : مرة نعامل الإنسان على أنه أعلى درجات التطور في عالم المادة ، ومرة نعامله بقوانين الطين مجردة عن كل زيادة . أم هذا هو « الإنسان الطينى » الذى يصفه ويتكلم عنه التفسير المادى للتاريخ !

* * *

انطباق قوانين المادة الجامدة على الإنسان أسطورة « علمية » غير مسبوقة في تاريخ الفكر البشرى ، تسجل « براءة » اختراعها والحق يقال للماديين الشيوعيين ، وإن كانت لاتحمل « براءة » على الإطلاق !

إنها مجرد هراء يتلبس بزى علمى مزيف ، لايمكن تفسيره إلا إذا أخرجناه تماما من دائرة العلم ، ونظرنا إليه من زاوية الهدف المقصود منه، كما أسلفنا من قبل ونحن نتحدث عن التفسير المادى للخالق .

والمقصود - من ناحية - هو مسخ الإنسان وتشويهه والهبوط به إلى الدرك الأسفل - أسفل درك يمكن أن يصل إليه - ليتحقق المخطط الكبير ، مخطط استحمار الأمميين لحساب الشعب المختار .

والقصود - من ناحية أخرى - هو القول بأن هناك متناقضات متصارعة في حبة البشر على الأرض ، وأن صراع المتناقضات سيؤدي في النهاية - عن طريق التطور الحتمي - إلى الشيوعية (وهي آخر مخترعات المخطط اليهودي بعد الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية لاستحمار الأممين ووضعهم بصورة نهائية في قبضة الشعب المختار) .

فإذا كان هذا هو المقصود ، فلنقل إذن إن الإنسان مادة ، وإن التناقض وتطور من قوانين المادة ، وإن قوانين المادة تنطبق على الإنسان ، وإن التناقض وصراع المتناقضات حادث في عالم الإنسان ، ومؤد في النهاية - عن طريق التطور الحتمي - إلى الشيوعية !

وهي كما ترى لفة طويلة ما كان الشيوعيون أنفسهم في حاجة إليها - حتى وهم يريدون أن يسوقوا الناس سوقا إلى الشيوعية - فقد كان يكفيهم لهدفهم الأخير أن يقولوا إن الحياة البشرية مليئة بالمتناقضات التي يصارع بعضها بعضا ، وإن هذا الصراع لا بد أن يؤدي في نهاية المطاف إلى غلبة الشيوعية وتحول البشرية كلها إليها .

كان هذا يكفي .. لولا أن الهدف الأول - كما قلنا - هو مسح الإنسان والهبوط به إلى الدرك الأسفل ، فلزم أن يلحق الإنسان بالمادة ويرتبط بقوانين المادة، خشية أن ينفلت ذات يوم من القبضة الشريرة إذا بقيت له صفة آدمية ، ومن صفات آدمية حرية الاختيار! وحتى لا يرتفع رأس واحد من بين الأممين يقول « أنا إنسان » !

وهذا هو المنطق الحقيقي الذي يفسر التفسير المادي للتاريخ ، حيث يعجز أي تفسير علمي عن تفسير هذا التفسير !!

إذا فهمنا ذلك « السر » لم يعد يكرثنا كثيرا أن نناقش قضية التفسير المادي « للإنسان » مناقشة موضوعية مطولة . لكننا نقول فقط إن « إنسانية » الإنسان .. لا إباديته ولا حيوانيته ، أظهر من أن يجادل فيها المجادلون .. ولكنه الهوى الذي يتخذ الزى العلمي المزيف : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » ١ .

ولقد كان دارون هو الذي وجه اللطمة الكبرى لإنسانية الإنسان حين زعم

١ . سورة المؤمن [٧١]

انه حيوان ، وأنه نهاية سلسلة التطور الحيوانى بلا زيادة . فاليوم ينقض العلم الداروينى ذاته مقالة دارون ، ويؤكد على إنسانية الإنسان .

يقول « جوليان هكسلى » وهو عالم داروينى ملحد متبجح بالكفر ، فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World » .

« وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا ، ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفى حالات كثيرة لامثيل له . ولايزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام .

« وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا ، قدرته على التفكير التصويرى ، وإذا كنت تفضل استخدام عبارات موضوعية ، فقل : استخدامه الكلام الواضح ..

« ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة .

« ومن أهم نتائج تزايد التقاليد - أو إذا شئت - من أهم مظاهره الحقيقيه مايقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وألات ..

« وإن التقاليد والعدد لهما الخواص التى هيات للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية .. وهذه السيادة البيولوجية فى الوقت الحاضر خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة .. ولم يتكاثر الإنسان فحسب ، بل تطور ، ومد نفوذه ، وزاد من تنوع سبله فى الحياة .

« وهكذا يضع علم الحياة الإنسان فى مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الأديان . ومع ذلك هناك فروق ، وفروق هامة بعض الشيء ، بالنسبة لنظريتنا العامة . فمن وجهة النظر البيولوجية لم تخلق الحيوانات الأخرى لخدمة الإنسان ، ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة ، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس . ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوجية فى معظم أجزاء الباس من الكرة الأرضية . ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة فى تفاصيلها أو فى كثير مما تضمنته ولكن كان لها أساس جيولوجى متين » ١ .

١ - جوليان هكسلى عالم ملحد ، لايقرب وجود الله ، وهو يرى الحق أمامه ويكاد يسلم به ، ولكن تأخذه الغيرة بالاثم فيحاول النكوص عما يقرصه الحق الواضح المبين . ولكن يكفى على أى حال أن يقرب بأن وجهة النظر الدينية لها أساس جيولوجى متين . فما ينتظر من رجل ملحد أن يذهب إلى أبعد من هذا المدى ل الاعتراف بحقائق الدين .

« ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى ،
التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى .. ومعظمها واضح معروف . ولذلك أرى
عدم التعرض لها حتى أنتهى من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيرا ، لأن
الجنس البشرى - كنوع - فريد في صفاته البيولوجية الخالصة . ولم تلق
تلك الصفات من العناية ماتستحق ، سواء من وجهة نظر علم الحيوان ، أو من
وجهة نظر علم الاجتماع .

« ... وأخيرا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .
« ... وإن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حى مسيطر لهى التفكير
المعنوى ..

« يجب ألا يعزب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل
أعظم بكثير مما يظن عادة .

« ... ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى - سيكلوجية - يتناساها رجال
الفلسفة العقلية ... والإنسان فريد أيضا في بعضها . وقد أدت هذه المرونة مثلا
إلى حقيقة أن الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى لا بد أن يتعرض للصراع
النفسى .

« ... وفي الحقيقة إن منع النزاع بين طرق العمل المتعارضة لظاهرة عامة
جدا ، وذات منفعة بيولوجية ، وهى ليست إلا خاصية العقل البشرى الذى مكن
الإنسان من التخلص من هذا النزاع .

« ... وعندما نصل إلى المستوى الإنسانى نجد تعقيدات جديدة ، لأن من
خصائص الإنسان كما رأينا التغلب على شدة الغريزة ..

« ... وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان - والتى يمكن تسميتها
نفسية أكثر منها بيولوجية - تنشأ من خاصة أو أكثر من الخواص الثلاث
الآتية :

« الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية : التوحيد النسبى لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك
عند الحيوان .

« الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة
(الجماعة الدينية) وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« ... ولكن لا يكفى هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط .. ففى الحقيقة إن

معظم اوجه نشاط الإنسان وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية . ولذلك فهي مثلها فذة من الناحية البيولوجية .

« ثم إن التخاطب والألعاب المنتظمة والتعليم والعمل بأجر وفلاحة البساتين والمسرح والضمير والواجب والخطيئة والذلة والرذيلة والندم ، كلها نتائج ثانوية (لخصائصه الأصلية) والصعوبة في الواقع هي إيجاد نشاط للإنسان لا يكون فريدا بل إن الصفات الأساسية البيولوجية مثل الأكل والنوم والاختلاط الجنسي زينها الإنسان بكل المحسنات الفريدة .

« وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد .. وبذلك قد يكون الإنسان فريدا في أحواله أكثر مما نظن الآن » ١ .

ويقول رينيه دوبو في كتابه « إنسانية الإنسان » (ترجمة نبيل صبحي الطويل ص ١٢٨ - ١٢٩ من الترجمة العربية) :

« وأكثر السلوك في الحيوانات بما فيها العليا غريزي لاصلة له بالعقل والحجى . ومن النادر - إن لم يكن من المستحيل - أن تجد هذا السلوك متوجها نحو المستقبل البعيد الذى يحاول الحيوان التكهّن به والسعى لإيجاده . وبالمقابل فإن ردود فعل الإنسان لأكثر الإشارات المحيطية تتأثر بعمق بتكهّناته عن المستقبل ، سواء كانت هذه التكهّنات مبنية على الخوف أو الحقائق المعلومة أو الرغبة في الإنجاز ، أو فقط على الآمال الحالية . والحقيقة أن ميل الإنسان لتخيل الأشياء التى لم توجد بعد ، أو التى لن تقع بدون إرادة وعمل حريقوم به ، هي الناحية البارزة التى تميزه بوضوح تام عن الحيوان ، وهي التى تسهم كثيرا في تعقيد بنيته النفسية التى أعيت الأطباء .

« ومن أبرز النواحي المميزة للإنسان ميله للسمو على الدوافع البيولوجية البسيطة ، فعنده الاستعداد لتحويل العمليات العادية في وجوده إلى أعمال وأعراض ومطامح ليس لها ضرورات بيولوجية ، وربما تكون متعارضة مع استمرار حياته . أكثر من ذلك أن الإنسان يميل ليرمز لكل شيء يحدث له ثم يتفاعل مع هذه الرموز كما لو أنها إثارات محيطية حقيقية ، فرد فعل شخص معين على عامل محيطى ، مشروط فيزيولوجيا ونفسيا بتجاربه الذاتية الماضية » .

١ . ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتمر - مقتطفات متفرقة من ص ١ - ص ٢٦

ويقول (ص ١٤ من الترجمة العربية) .
« ويتمتع الإنسان بقدر كبير من الحرية في الاختيار والتقرير .. فهو المتميز في
كونه قادرا على الاختيار والتمحيص والتنظيم .. ومن هذه يأتي الإبداع »
ويقول (ص ١٦٤ من الترجمة العربية) :

« ومن المعروف أن كل مظاهر الحياة منسوبة بالوراثة وتجارب الماضي
وعوامل البيئة ، إلا أنه من المعروف أيضا أن الإرادة الحرة تمكن البشر من
السمو على ضوابطه « التحديدية البيولوجية » . فالقدرة على الاختيار بين
الأفكار وأساليب الأفعال المختلفة يمكن أن تكون أهم صفات الإنسان . لقد
كانت في الغالب - ولا تزال - محددا هاما في تطور الإنسان . وأكثر ما يستنكر
في علوم الحياة كما تدرس الآن هو أنها تجاهلت متعمدة أهم ظاهرة في حياة
الإنسان . ألا وهى الحرية . »

ويقول (ص ١٦٩ من الترجمة العربية) .
« حرية الإنسان تعنى - من ضمن ماتعنيه - قدرته على التعبير عن
إمكانياته الكامنة وقدرته على الاختيار واستعداده لقبول المسؤوليات . كل هذه
وأمثالها من النشاطات التى تضم الاختيار والتقرير لتسمو على التحديدية
الجبرية التى تسم عمليات الآلة »

« ويقول (ص ٢٦٢ من الترجمة العربية) .
« ويدرك البشر العالم بحواسهم . ومن التناقض أن كثيرا مما يقدرونه في
العالم من حولهم لا يعتمد على هذا الإدراك الحسى . والواقع أن كثيرا من بنى
الانسان ضحوا بوجودهم المادى على مذبح قيم غير مادية تدركها الروح
ولا يحسها جسم اللحم والدم »
« هذا ما يقوله « العلم » ... »

فأى هاوية سحيفة تلك التى يهوى بالإنسان إليها ذلك التفسير المادى
للإنسان ، حين ينزع عنه مقومات إنسانيته الأصلية ، ويرده إلى المادة ، ويجعل
قوانينها هى قوانينه ؟!

أى إلغاء لحرية الإنسان وكرامته .. وأى تحقيره أشد من هذا التحقير ؟!
ماذا علمنا أن هذا هو المطلوب ..

إلغاء الحرية لكى لا يختار الأمميون لأنفسهم طريقا غير الذى يرسمه لهم
شعب الله المختار . وإلغاء الكرامة لكى لا يستنكفوا من العبودية التى يريد أن

يفرضها عليهم ذلك الشعب . والتحقير لكى لا يرفعوا رؤوسهم بالتمرد على
التسخير الذى يسخرهم إياه .

إذا علمنا أن هذا هو المطلوب ، أدركنا الهدف « الضخم » الذى يحققه
التفسير المادى للإنسان !

ثالثاً . التفسير المادى للقيم الإنسانية :

منذ جعل الإنسان مادة فقد الغيت فى الحقيقة كل القيم على الفور ، ولم يعد
لها مكان فى حياة الإنسان . فأنى للمادة - مهما تطورت - أن يكون لها قيم ،
روحية أو نفسية أو خلقية ؟! ولكن الشيوعية ما كانت تملك أن تتجاهل وجود
القيم فى التاريخ البشرى ، فكان لابد من أن تعطى تفسيراً ما .. يفسدها
ويشوهها ليقضى عليها فى النهاية . والتفسير المادى للقيم هو الأداة التى
اختارتها الشيوعية لأداء جريمتها الكبرى ، فهى تتظاهر بإعطاء تفسير لتلك
القيم ، بينما ذلك التفسير فى الحقيقة يلغى القيم إلغاءً باتاً ويقضى عليها من
منبتها !

ومع ذلك فسنستجامل هذه الحقيقة ، ونأخذ الأمر كأمره جاد ، ونستعرض
التفسير المادى للقيم الإنسانية ونناقشه مناقشة موضوعية !

يتمثل التفسير المادى للقيم الإنسانية فى مجموعة من الخطوات أو مجموعة
من النقاط نجملها فيما يلى :

١ (تضخيم العامل المادى والاقتصادى وجعله أساس كل شئ فى حياة
الإنسان .

٢ (اعتبار القيم المعنوية كلها مجرد انعكاس للوضع المادى والاقتصادى .

٣ (نفى وجود قيم ثابتة بحكم التطور الذى يغير القيم كلها كلما تغير الوضع
المادى والاقتصادى .

٤ (السخرية بالدين وتسخيفه وتهوين شأنه ورده إلى أسباب مادية
واقتصادية .

٥ (السخرية بالحق والعدل الأزليين ، والقول بخضوع الناس للحتميات المادية
والاقتصادية والتاريخية :

ولنأخذ فى شئ من التفصيل لكل نقطة من هذه النقاط .

١- تضخيم العامل المادى والاقتصادى

يتبين لنا من العرض الذى عرضناه من أقوال المفكرين الشيوعيين

والمؤسسين للفكر المادى إلى أى مدى يعتبر أولئك المفكرون العامل المادى والاقتصادى أساسا لكل شىء فى حياة الإنسان . ويكفي أن نعود إلى قولتى ماركس وإنجلز فى هذا الشأن :

« فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لاغنى لهم عنها ، وهى مستقلة عن إرادتهم .. فأسلوب الانتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة .. ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » (كارل ماركس) .

« تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الإنتاج ومايصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لايجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزلين ، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الانتاج والتبادل » (فردريك إنجلز) . وهما قولتان واضحتا الدلالة فى أن الأصل فى اعتبارهم ليس هو « إنسانية » الانسان ، ولا القيم المعنوية التى ينبغى أن تقوم عليها حياته ، إنما هو الوضع المادى والاقتصادى الذى يكون الناس عليه ، لأن هذا الوضع هو الذى يحدد مشاعر الناس وأفكارهم وعقائدهم ، كما يحدد نوع المؤسسات التى تقوم فى حياتهم ووظيفة كل واحدة من هذه المؤسسات . ومن خلال تفسيرهم للتاريخ البشرى يتبدى مدى تعمق هذه الفكرة فى تصورهم .

فالشيوعية الأولى - كما يصفونها « ١ » - حالة من الهدوء والاستقرار والسعادة والتعاون الأخوى ، وهى كلها قيم معنوية سببها الوحيد هو عدم وجود ملكية فردية ، وقيام الحياة على الملكية الجماعية أو المشاعية . وهو سبب اقتصادى بحت .

وتحول نظام الأسرة من التبعية للأُم إلى التبعية للأب ، ومن ثم سيطرة الأب على الأسرة بجميع أفرادها من زوجة وأطفال ، يرجع إلى سبب اقتصادى مادى بحت هو ظهور الملكية الفردية مع اكتشاف الزراعة واكتشاف الرجل أنه يمكن أن يورث أبناءه مما يملكه !

« ١ » - سنتحدث عن الشيوعية الأولى فيما بعد .

وتحول البشرية من حالة الشيوعية الأولى إلى الرق يرجع إلى ذات السبب الاقتصادي المادى وهو اكتشاف الزراعة ونشأة الملكية الفردية ، فعندئذ استقرت القبائل القوية القبائل الضعيفة وأجبرتها على العمل فى الأرض لحسابها .

وتحول الناس من الرق إلى الإقطاع سببه هو اكتشاف المحراث - وهو سبب مادى ترتبت عليه نتائج اقتصادية - إذ اكتشف الإنسان أنه يستطيع باستخدام المحراث أن يزرع مساحة أكبر بكثير مما كان يزرعه بالأدوات البدائية السابقة ، فنشأت المزارع الكبيرة التى يستخدم فيها رجل واحد مجموعة كبيرة من البشر عبيدا للأرض أو أجراء يعملون لحسابه ويكونون تحت سيطرته .

وتحول الناس من الإقطاع للرأسمالية سببه هو اختراع الآلة - وهو كذلك سبب مادى ترتبت عليه نتائج اقتصادية - فقد تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية رأسمالية ، وصار صاحب رأس المال يستخدم مجموعة كبيرة من البشر أجراء - بأجر ضئيل - يعملون لحسابه ، وينتجون إنتاجا يستولى عليه هو ويربح من بيعه أرباحا طائلة يزيد بها رأس ماله وقدرته على استخدام الأجراء لحسابه .

وتحول الناس أخيرا إلى الشيوعية سببه الصراع بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال على ملكية الإنتاج - وهو سبب اقتصادى بحت - وينتهى ذلك الصراع بالقضاء على طبقة الرأسماليين وحلول العمال محلهم فى الملكية والسيطرة جميعا .

وبالإضافة إلى هذه الخطوط العريضة فى حياة البشرية ، التى ترجع كلها - فى اعتبارهم - إلى أسباب مادية واقتصادية بحتة ، فإن الخطوط الأكثر دقة ترجع كلها كذلك إلى أسباب مادية واقتصادية .

فوجود الدين فى المرحلة الإقطاعية وضعفه وتقلصه فى المرحلة الرأسمالية والشيوعية سببه أن طبيعة الإنتاج فى العهد الإقطاعى - أى الإنتاج الزراعى - تجعل الإنسان متدينا ، لأن الإنسان لا يملك - فى العملية الزراعية - إلا وضع البذور فى الأرض وتغذيتها بالماء والأسمدة ، ولكنه لا يملك إنبات البذرة ولا أستعجال نموها ولأحماية المحاصيل من عوارض الجو والأفات ، فيتوهم - أو

يفترض - وجود قوة خفية (غيبية) ينسب إليها القدرة على كل العمليات التي لا يقدر هو عليها من إنبات وإنماء وحماية ، ويروح يتعبدها ويتقرب إليها بالقرابين لكي ترضى عنه وتحفظ له محصوله الذي يعيش عليه . بينما لا تحتاج طبيعة الإنتاج في المرحلة الرأسمالية والشيوعية إلى افتراض تلك القوة الخفية الغيبية ، لأنه إنتاج صناعي ، يسيطر العامل فيه على عملية الإنتاج من أولها إلى آخرها ، وليس فيها جانب خفي كعملية الإنبات والإنماء ، ولا جانب خارج عن قدرة العامل كالعوارض الجوية والآفات ، ومن ثم لا يحتاج الإنسان إلى عبادة شيء خارج عن نطاق الإنسان ، فيتضاءل وجود الدين حتى ينتهي تماما في النهاية .

وجود أخلاقيات الجنس في العهد الزراعي ، والحفاظ الشديد على العرض ، وإعطاء العفة الجنسية أهمية بالغة ، ووجود الغيرة في نفس الرجل على زوجته ، كل ذلك راجع إلى سبب اقتصادي بحت ، هو أن الرجل في المجتمع الزراعي هو المنتج الأصلي وهو المكتسب وحده وهو الذي ينفق على زوجته وأسرته ، ومن ثم تدعوه سيطرته - الاقتصادية الأصل والمظهر - إلى التحكم في المرأة وفرض أخلاقيات الجنس عليها ، فيفرض عليها العفة قبل الزواج وبعده ، ويفرض عليها أن تكون له وحده حين يتزوج ، ومن ثم تصبح العفة فضيلة خلقية واجتماعية يحرص المجتمع عليها ويشدد في شأنها ويعطيها تلك الأهمية البالغة . بينما تفقد العفة وأخلاقيات الجنس قيمتها - ووجودها - في المجتمع الصناعي لسبب اقتصادي كذلك ، وهو تحرر المرأة اقتصاديا ومشاركتها للرجل في العمل وتكسبها بنفسها ، وذلك يحررها من كونها عالة على الرجل .. فيفقد الرجل سيطرته عليها ، ولا يعود يحق له أن يطالبها بالعفة قبل الزواج ولا بعده ، ولا أن يطالبها بأن تكون له وحده بعد زواجها - تلك المطالبة التي كانت قائمة على أسباب اقتصادية بحتة - ومن ثم لا تعود العفة تعتبر فضيلة في المجتمع الصناعي ، ولا يهتم الناس بوجودها ، وتصبح حرية المرأة في أن تتصرف في نفسها هي الأمر الشائع في المجتمع .

كذلك الأمر مع الأسرة .. فوجود الأسرة الكبيرة المترابطة في المجتمع الزراعي هو ظاهرة اقتصادية بحتة ، سببها حاجة العمل الزراعي إلى تكاتف الأيدي العاملة وتعاونها ، وترتب زيادة الربح على زيادة الأيدي العاملة التي تعمل في وحدة متجانسة . بينما يرجع تفكك الأسرة في المجتمع الصناعي إلى

فردية الإنتاج وفردية الإنفاق . فأسلوب العمل ذاته يجعل كل فرد يعمل مستقلاً عن الآخرين ، ثم إن كل عامل يعمل يتناول أجره بمفرده مستقلاً عن الآخرين .. ومن ثم لا تؤدي الأسرة الكبيرة مهمة اقتصادية في حياة المجتمع الصناعي ، فتفتت وتحل محلها الأسرة الصغيرة المكونة من الأب والأم ، والأطفال .. ثم تتفتت هذه بدورها لأسباب اقتصادية كذلك ، وهي عمل المرأة في المصانع والوظائف وغير ذلك ، فيصبح رباط الزواج ذاته واهياً يمكن أن ينحل في أية لحظة ، بل يمكن أن يلغى إلغاء كاملاً في أى وقت ، وتحل محله العلاقات الجنسية الحرة ، وتصبح هي الأساس في المجتمع الجديد .

٢- اعتبار القيم المعنوية كلها مجرد انعكاس للوضع المادى والاقتصادى :

هذه النقطة في الحقيقة تحصيل حاصل بالنسبة للنقطة السابقة ، فحين نقول إنهم يضخمون العامل المادى والاقتصادى ويجعلونه أساس كل شيء ، فمعنى ذلك من جهة أنهم يصغرون من القيم الأخرى - غير المادية - ولا يعطونها المكانة اللائقة ، ومن جهة أخرى أنهم يعتبرونها نابعة من القيم المادية ومرتبطة عليها .

ولكننا نريد أن نلفت النظر في هذه النقطة إلى مزيد من تحقير القيم المعنوية ينشأ من القول بأنها مجرد انعكاس للوضع المادى والاقتصادى . فمعلوم أن البشرية قد تعلقّت - منذ مولدها - بالقيم العليا من صدق وعدل وخير وفضيلة وأمانة ونظافة سلوك .. الخ .. وسواء مارس الناس هذه القيم والفضائل بالفعل أم بعدوا عنها في سلوكهم العمل كل البعد أو ناقضوها مناقضة صريحة ، فإنهم يتغنون بها في فنونهم وأدبهم ، ويعجبون بها إذا رأوها ممثلة في سلوك واقعى ، مالم يكونوا مرضى القلوب بصورة غير معتادة ، ينفرون من الخير ويهشون للرذيلة والانتكاس لأن رؤية الخير تذكرهم بانتكاسهم فيكرهونه ، ورؤية الرذيلة تغطى مواقفهم فيهشون لها ، كالذين قال الله فيهم :

« ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء ! » ١ .

وتعلق البشرية بالقيم العليا - ولولم تمارسها بالفعل في سلوكها الشخصى

- يعتبر في ذاته عقبة في سبيل استحمار الأممين وتسخيرهم لما يراد تسخيرهم له . ولم يكتف المخططون بإبعاد البشرية عن هذه القيم في عالم الواقع ، ولهم الحق الا يكتفوا ! فمادام هذا التعلق باقيا في النفوس فهي عرضة أن تعتلد من انتكاستها في أية لحظة وتحول هذا التعلق النظري - أو المتمنى - إلى تعلق واقعي يتخذ صورة سلوكية مطبقة في عالم الواقع ، وعندئذ يفسد المخطط كله ، ويضيع التعب الذي بذل فيه !

لذلك ينبغي أن يزال تعلق البشرية بتلك القيم بكل وسيلة ممكنة . ومن بين الوسائل المؤدية إلى ذلك أن يقال إنها ليست قيما قائمة بذاتها ، إنما هي مجرد انعكاس لقيم أخرى أو أوضاع أخرى هي وحدها صاحبة الأصالة وهي وحدها الجديرة بالاهتمام .

هنا يذكرنا ماركس بفرويد !

فرويد - في اختصاصه - يهدف إلى ذات الهدف الذي يسعى إليه ماركس ! ويريد - مثله - أن يصرف الناس عن التمسك بالقيم العليا لأنها عدو مشترك لكل من يسعى لإفساد البشرية واستعبادها للشعب الله المختار .. ومن ثم ينفي أنها قيم قائمة بذاتها ويقول إنها انعكاس لشيء آخر ! فالدين ناشئ عن عقدة جنسية هي عقدة أوديب ، والتسامي ناشئ من الكبت ، كما أنه لون من ألوان الشذوذ !

وإذا كان فرويد قد رد القيم كلها إلى الجنس ليحقرها ويذهب عنها مالها في نفوس الناس من توقير وإعجاب وتطلع ، فإن ماركس وأصحابه قد ردوها إلى القيم المادية والأوضاع الاقتصادية لذات الغاية .. فمعلوم أن الناس تحتقر القيم المادية ولو شغلت بها في حياتها الواقعية مشغلة كاملة ! فيجئ ماركس فيرد إليها القيم العليا كلها فيذهب التوقير عنها في التو ويذهب الإعجاب والتطلع ، وتفرغ من مضمونها الحقيقي وتصبح صورة شاحبة لا يتعلق بها قلب ولا ترتبط بها مشاعر ! ويصبح التوقير والتعلق كله موجها إلى القيم المادية والأوضاع المادية ، وما أضيق النفس حين تنحصر في هذا المحيط الضيق ، وما أخسرها حين تغلق كل منافذ النور ، وتفتح ذلك المنفذ الواحد الذي يتعامل مع الإنسان الطيني وحده ، ولا يتعامل مع الإنسان المتكامل الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه لتسجد له الملائكة لأطهار !

٣- نفى وجود قيم ثابتة بحكم التطور الذى يغير القيم كلها كلما تغير الوضع المادى والاقتصادى

لم يكتف الماديون فى تحقير القيم الإنسانية بقولتهم السابقة ، التى تنفى الأصالة عنها وتجعلها مجرد انعكاس لقيم أخرى - مادية - بل مضوا شوطا آخر فى تحقيرها فقالوا إنها ليست ثابتة ، إنما هى دائمة التغير كلما تغير الوضع المادى والاقتصادى !

بمعنى آخر : يا أيها المثاليون المغفلون « ١ » ! إنكم تبحثون عن سراب لا وجود له فى الحقيقة ، حين تتكلمون عن الحق ، والعدل ، والخير ، والفضيلة ، والجمال ، والصدق ، والأمانة .. الخ .. إنها كلمات جوفاء يملؤها كل جيل بما يحلوه ، ولكنها هى فى ذاتها ليست شيئا ثابتا محددا يمكن التعرف عليه !

هنا يذكرنا ماركس بدور كايم !

العقل الجمعى هو الذى يضع القيم والنظم والتقاليد والأخلاق .. وهو لا يثبت على حال ، يحل اليوم ما حرمه بالأمس ، ويحرم غدا ما يحله اليوم ! نفس الهدف ونفس الوسيلة .. كل فى اختصاص من اختصاصات « العلم » !

فالعلم الماركسى يقول إنه كلما تغير الوضع المادى أو الاقتصادى تغيرت معه جميع القيم وجميع المعايير .

تغيرت صورة الملكية من ملكية جماعية فى الشيوعية الأولى الى ملكية فردية ، فنشأ الرق ثم الإقطاع ثم الرأسمالية ، وكان كل منها - فى حينه - صوابا ! لأنه هو الاستجابة الطبيعية للوضع المادى والاقتصادى .. الاستجابة التى لا يمكن أن يوجد غيرها ، لأنها انعكاس « حتمى » للأوضاع ، ومن ثم فلا ينبغى أن توصف بالخير أو الشر ، ولا ينبغى أن ينظر إليها أصلا من زاوية خلقية ولا بمعيار خلقى ثابت ! إنما مقياس كل شئ هو ذاته .. ووجود الشئ بالفعل هو مبرر وجوده ! ثم يتغير كل شئ حين يتغير الوضع المادى والاقتصادى فيصبح الوضع السابق خطأ بعد أن كان صوابا ! وتصبح محاربته واجبة بعد أن كانت قبل ذلك غير ذات موضوع !

١ « يستخدم الماديون كلمة المثالية فى الدم لا فى المديح » ويقصدون بها الأشياء التى لا يمكن تحقيقها فى الواقع ومن ثم فهم سخف لا ينبغى أن يؤبه له !

وأخلاقيات الإقطاع - مثلا - من التدين وسيطرة الأب على الأسرة ، والمحافظة على العفة والغيرة على العرض ، وترايح الأسرة ، والتعاون الجماعى .. كلها أخلاقيات نابعة من الوضع المادى والاقتصادى ومتناسبة معه ، ولكنها ليست قيما قائمة بذاتها توصف بأنها خير ويوصف عكسها بأنه شر .. إنما هى فقط صواب فى وقتها لأنها هى الاستجابة الطبيعية للوضع المادى والاقتصادى .. ثم إنها تصبح بعد ذلك خطأ ، أو تصبح غير ذات موضوع حين تجيء الرأسمالية ويتكون المجتمع الصناعى « المتطور » ! بل تصبح رجعية وجمودا وتأخرا تنبغى محاربته والتحرر منه ، لأنها لم تعد تستجيب للأوضاع الاقتصادية الجديدة ، التى هى المعيار الوحيد الذى تقاس إليه الأمور .

ومحاولة القول بأن الدين قيمة ذاتية فينبغى أن يوجد على الدوام ، أو أن العفة قيمة ذاتية ينبغى أن تظل قائمة فى كل مجتمع هى سذاجة وغفلة ومثالية من جهة ، ومن جهة أخرى هى مخالفة لما هو كائن ولما ينبغى أن يكون ، لأنه لا وجود لمثل هذه القيم « فى ذاتها » إنما تستمد وجودها من الباعث الذى ينشئها وهو الوجود المادى والاقتصادى .. وهذا الباعث دائم التغير لم يثبت - ولا يمكن أن يثبت - على حال ، فكيف يثبت ما ينشأ عنه من قيم وأخلاقيات ومعايير ؟!

٤ - السخرية بالدين :

من بين كل القيم يحظى الدين بالقسط الأكبر من سخرية الماديين الشيوعيين ، ويبدو حنقهم منه واضحا وثورتهم عليه عظيمة ، ورغبتهم فى تحطيمه والقضاء عليه شديدة إلى أقصى حد .

فأما أسبابه وبواعثه فهى مادية واقتصادية بحتة : الجهل بطبيعة الكون المادى ، والعجز عن السيطرة على البيئة . لذلك كان موجودا طوال فترة الشيوعية الأولى والرق والإقطاع ، ثم خفت حدته فى المجتمع الصناعى الرأسمالى لولا أن الرأسماليين - بعد الإقطاعيين - يستخدمونه مخدرا للجماهير الكادحة لكيلا تنقيق إلى حقيقة الظلم والهوان الذى تعانيه فتتورد عليه وتثور من أجل حقوقها المسلوبة .

ولقد كان « واجب الزوال » منذ بداية العهد الصناعى لزوال بواعثه المادية والاقتصادية . فمن جهة كان العلم قد بدأ يتقدم ويكشف كثيرا من مجاهيل

الكون المادى التى كانت تلجىء الناس من قبل إلى افتراض وجود إله ! فأما بعد اكتشاف « قوانين الطبيعة » فلم يعد هناك مبرر للدين ، فقد حل محله العلم . ومن جهة أخرى فإن الوضع الاقتصادى الذى كان ينبعث منه سيطرة الأب فى الأسرة وسيطرة السيد فى المجتمع كان يتناسب كذلك مع سيطرة الرب الإله فى الكون والحياة . فإذا زال هذا الوضع فينبغى أن تزول كل آثاره ومن بينها الدين .. وعلى أى حال فإذا كانت حاجة الرأسماليين إلى تخدير الجماهير الكادحة قد عوقت زوال الدين فترة من الوقت ، فقد جاءت الشيوعية فألغت الرأسمالية وألغت المهمة الأخيرة التى كانت باقية للدين - وهى مهمة التخدير - فأصبح - من جميع الوجوه - غير ذى موضوع . تقدم العلم ، وزادت السيطرة على البيئة ، ولم يعد الناس فى حاجة الى مخدر .. فلماذا يبقى الدين ؟! يذكرنا هذا بقوله مماثلة « لجوليان هكسلى » فى كتاب « الانسان فى العالم الحديث » .

كان الجهل والعجز هما السبب فى وجود الدين . وقد تعلم الانسان اليوم وسيطر على البيئة ، فإن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل - فى عصر الجهل والعجز - على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله ! والحق أن الدين عدو لدود للمخططين ، كما أنه عدو لدود للماديين الشيوعيين .

فأما عداوة المخططين له فأمرها ظاهر . فالعقبة الكبرى فى سبيل استحمار الأمميين هى أن يكونوا ذوى عقيدة وأخلاق مستمدة من الدين . ولقد عرف اليهود ذلك خلال القرون الطويلة من حربهم الدائمة للبشرية وتربصهم بها ، وعرفوا - بالتجربة - أنه طالما كان للأمميين عقيدة وأخلاق فلا نتيجة لكل ما يبذلونه من جهد وكل ما يضعونه من تخطيط ، وعرفوا أن نجاح مخططاتهم كلها مرهون بمدى نجاحهم فى القضاء على هذا العدو المرهوب .

وأما عداوة الماديين الشيوعيين (وهم جزء من المخطط الكبير) فقد نشأت - إلى جانب اشتراكهم فى السبب السابق باعتبارهم جزءا من المخطط الكبير - من تجربتهم الخاصة ، أن الدين - مع أنه فى أوروبا بقايا دين محرف من كل زواياه - يعوق تكوين « الحقد الطبقي » الذى هو عمادهم الأول فى تحويل الناس إلى الشيوعية ! فقد عانوا فى زحفهم على أوروبا من أن الفلاحين بصفة خاصة لا يستجيبون لهم بالسرعة الكافية حين يحاولون تحريك « الحقد

الطبقى « في نفوسهم ، وذلك من آثار بقايا الدين في نفوسهم ، وأن الكنيسة - ممثلة الدين - وقفت في صف الإقطاعيين والرأسماليين ضد الدعوة الشيوعية ، مستعينة بالدين في « تخدير » الجماهير عن الثورة ، وإزالة الحقد الطبقي أو تأخير تجمعه في النفوس ليكون وقودا للثورة .
من أجل ذلك « يتفنون » في محاربة الدين بكل وسائل الحرب ، ومن بين وسائل الحرب التسخيف والتهوين والتحقير .

هـ- السخرية بالحق والعدل الأذليين ، والقول بخضوع الناس للحتميات المادية والاقتصادية والتاريخية :

كما يسخر الماديون بالدين ويسعون إلى تحقيره بكل الوسائل ، يسخرون كذلك « بالحق والعدل الأذليين » كما يسميهما فردريك إنجلز ، ويقولون إنهما من المثاليات التي لا وجود لها ولا تأثير لها في عالم الواقع . وإن البشرية لم تقم قط عليهما ولا يمكن أن تقوم عليهما في يوم من الأيام !
إنما الذى يسير حياة البشرية من مبدئها إلى منتهاها هو « الحتميات » المادية والاقتصادية والتاريخية ، التي لا توصف بأنها حق ولا عدل - ولا خلاف ذلك - إنما توصف - كما أسلفنا - بأنها صواب مدامت في موضعها التاريخى الصحيح .

ويكره الشيوعيون كراهية شديدة أن تنتقد مراحل الرق والإقطاع والرأسمالية من جهة أنها « ظلم » مخالف للحق والعدل ، أى أن تنتقد من منطلق أخلاقى أو أى منطلق قائم على القيم المعنوية .. ويصررون على أن ينتقد الإقطاع والرأسمالية من الزاوية الاقتصادية ومن زاوية الحتمية التاريخية .
ويعجب الانسان أشد العجب من هذا الموقف الغريب . فهم يشنون هجوما حادا على الإقطاع والرأسمالية بصفة خاصة ، فإذا أنت شاركتهم في شن الحملة عليهما من زاويتك الخاصة (الدينية والأخلاقية) رفضوا رفضا باتا وجاهروك بالانكار !

ولكن العجب يزول إذا علمنا السر في رفضهم وإبائهم . فهم بادئ ذي بدء يريدون القضاء على القيم المعنوية من منبتها ، وبخاصة القيم الدينية ، فكيف يقبلون منك موقفا - ولو كان في صفهم - يركز على تلك القيم ويحييها في النفوس !! إن مجرد قبوله معناه أن لهذا المنطلق شرعية الوجود ، ومعناه الاعتراف بأنه منطلق صحيح لأنه يهاجم الظلم ويقف منه موقف المعادة .. وأى

شئ يمكن أن يقبله المخططون إلا هذا ! لأن معناه أن يوافقوا على إحياء ذات الشئ الذى يسعون إلى قتله جاھدين !

ثم إن هناك أمرا آخر لا يقل أهمية ..

إذا أنت جعلت المحك الذى تقيس إليه الإقطاع والراسمالية هو الحق والعدل ، فماذا يكون موقفك من الشيوعية ؟ ألست قمينا أن تضعها على ذات المحك فترى أنها تخالف الحق والعدل كذلك ؟ فتروح تبحث عن حل آخر يقوم على الحق والعدل ؟!

الأولى إذن أن يقفلوا عليك الطريق من أوله ، ويسخفوا لك الحق والعدل « الأزلين » ، ويقولوا لك إنه لا وجود لهما ولا أثر لهما على الإطلاق في حياة البشرية .. إنما الذى يسير حياة البشرية هو « الحتميات » وهذه تؤدى إلى الشيوعية المطلوبة في نهاية المطاف !

ليس الأمر إذن أمر حقائق علمية أو تاريخية تقول إن الحق والعدل لا وجود لهما في حياة البشرية ، وإنه ينبغي أن يسخفا ويسخر منهما ! بدليل أنهم حين يتحدثون عن الشيوعية يقولون إنها هي الحق وهي العدل ! وهي التى ينبغي أن تسود البشرية ! فهم إذن يثبتونهما ولكن بشرط أن يكونا خاليين من الدين والأخلاق .. أى في الحقيقة خاليين من الحق والعدل !

أما « الحتميات » فهي جوهر المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ . فالمرحلة الخمسة التى تمر بها البشرية وهي الشيوعية الأولى ، ثم الرق ، ثم الإقطاع ، ثم الراسمالية ، ثم الشيوعية الثانية والأخيرة .. هذه المراحل حتمية !

والانتقال من مرحلة إلى تاليتها هو انتقال حتمى كذلك ، وعلى ذات الترتيب الذى رسمه التفسير المادى للتاريخ ، لاتسبق أمة مرحلتها ولاتتأخر عنها ، لأنها قدر حتمى !

وتغير القيم والمعايير والعقائد والأفكار والمشاعر مع تغير الطور الاقتصادى هو تغير حتمى ، لا يمكن الوقوف في طريقه ولا تغيير مساره ولا تعديله ، بحكم أن القيم والمعايير والعقائد والأفكار والمشاعر هي مجرد انعكاس للوضع المادى والاقتصادى وليست شيئا قائما بذاته ، والانعكاس لابد أن يتغير حتما إذا تغير المعكوس !

ومن بين الحتميات كذلك قيام الصراع الطبقي مادامت هناك ملكية فردية .

فحين كانت الشيوعية الأولى قائمة لم يكن هناك صراع بين البشر . ومنذ وجدت الملكية الفردية نشب الصراع ، وظل قائما في مرحلة الرق والإقطاع والرأسمالية ، حتى إذا جاءت الشيوعية الثانية والأخيرة وألغيت الملكية الفردية زال الصراع إلى الأبد وحل محله الحب والوفاق والوثام وعاد البشر إلى الحالة الملائكية التي كانوا عليها أول مرة .

تلك خلاصة دعاوهم في التفسير المادى للقيم الانسانية . فإذا وضعنا هذه الدعاوى على مائدة البحث وجدنا فيها قليلا من الحق وكثيرا من المغالطات .

فأما أهمية العامل الاقتصادى في حياة الناس فأمرا لا ينبغي لعاقل أن ينكره . أما إفراده بالأهمية ، وجعله أساس كل شئ ، وجعل كل شئ مجرد انعكاس له ، والقول بأنه هو المحرك الوحيد - أو حتى المحرك الأساسى - لحياة البشر ، فأمرا مبالغ فيه إلى حد الاعتساف الذى يجعل جانب الحق الضئيل يضيع في وسط الأضاليل .

يقول الله سبحانه وتعالى

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » ١ .

أى تقوم حياتكم عليها .

والتشريعات التى تنظم تداول المال في القرآن والأحاديث النبوية كثيرة بصورة ملحوظة ، توحى بأهمية الحياة الاقتصادية وأهمية تنظيم العلاقات المتعلقة بالمال .

وحيث دخل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة أمر ببناء المسجد ثم أمر ببناء السوق . وفي ذلك دلالة واضحة كذلك على أهمية الحياة الاقتصادية في حياة الأمة ، وأنها أمر من أمور العبادة كبناء المسجد سواء .

ولكن المبالغة في تقدير أهميتها أمر لا يستند أولا إلى حقيقة علمية ، ثم هو مفسد للتصور والسلوك على السواء .

فقد احتاج الماديون - من أجل إعطاء الجانب المادى والاقتصادى أهمية مبالغ فيها - إلى مجموعة من المغالطات والافتراءات لاتقوم على أى دليل علمى ، أولها مادية الخالق وثانيها مادية الإنسان .

١ . سورة النساء [٥]

فإذا ثبت علميا - كما ثبت اليوم - أن المادة حدثت ولم تكن موجودة من قبل ، وأنها ليست أزلية أبدية كما زعم التفسير المادى للتاريخ ، فقد انهار الأساس الأول الذى افترى افتراء من أجل إقامة التفسير المادى للقيم الإنسانية .

وإذا ثبت علميا - كما هو ثابت منذ قيام شيء اسمه العلم في حياة الإنسان - أن الكائن الحى - كل كائن حى بله الإنسان - يسير على نمط مخالف للمادة غير الحية ، وإذا ثبت علميا كذلك - كما هو ثابت من أبحاث الداروينية الحديثة ذاتها - أن الإنسان متفرد عن الحيوان حتى في كيانه الحيوى (البيولوجى) البحث ، فضلا عن كيانه العقلى وكيانه النفسى وكيانه الروحى وكل شيء فيه ، فقد انهار الأساس الآخر الذى افترى افتراء من أجل الهدف ذاته .

وإذا علمنا أن قصة « تطور » المادة إن هى إلا مهرب - غير علمى - يهرب به الماديون من مواجهة قضية خلق الحياة من الموات ، فضلا عما أثبتته العلم من أن الموات ذاته مخلوق ، وأن الكون المادى قد انشئ من غير وجود سابق ، أى أنشئ من العدم .

إذا علمنا ذلك فقد انهارت كل « مقومات » التفسير المادى للقيم الإنسانية القائمة على أساس أن المادة أزلية أبدية خالقة (أو متطورة ينتج من تطورها النبات والحيوان والإنسان) وأن الإنسان هو نتاج المادة فحسب . والتفسير الأصوب فيما يتعلق بالقيم الإنسانية والحياة الإنسانية بأسرها هو أن نرجع فيها إلى « الإنسان » . إلى النفس الإنسانية التى هى محور النشاط كله الذى يقوم به الإنسان .

فإذا رجعنا إلى الإنسان كما نراه في عالم الواقع لا في صورته المفتراة بغير دليل علمى ، فسنجد للجانب الاقتصادى مكانا واسعا في حياته ، ولكننا سنجد في ساحة نفسه مساحات أخرى واسعة لا يشغلها الاقتصاد ، وإنما تشغلها قيم أخرى أصيلة أصالة المادة وأصالة الاقتصاد ، وسنجد كذلك ظاهرة أخرى لا تقل عن ذلك أهمية ، هى أن الإنسان وحدة متكاملة ، تتفاعل فيها كل العناصر والمكونات لتعطى في النهاية تعبيرا شاملا هو محصلة العناصر جميعا والمكونات جميعا . وإن أى محاولة لتفسير الإنسان بعنصر واحد من عناصره ، أو على ضوء عنصر واحد من عناصره ، هى محاولة ساذجة جدا لا تليق بأى « نظرية »

تتعرض لتفسير السلوك البشرى ، وأن « العلماء » الذين يستحقون هذا الوصف ينبغي أن يكونوا أثقل وزنا وأكثر أمانة من أن يعطوا هذه التفسيرات الساذجة ، مهما تكن الأغراض الخفية الكامنة وراء هذه التفسيرات .

وسواء كان العنصر الواحد هو الاقتصاد كما قال ماركس ، أو هو الجنس كما قال فرويد ، أو العقل الجمعى المسيطر على الافراد من خارج كيانهم كما قال دوركايم ، فكلها أضال وأكذب من أن تفسر الحياة الإنسانية الواسعة الجوانب المتعددة ألوان النشاط . ويكفى أن نجمع هذه التفسيرات الثلاثة بعضها إلى جانب بعض ليتضح لنا أن دعوى كل واحد منهم أن تفسيره هو التفسير « العلمى » الصحيح هى دعوى كاذبة وإن اشتملت على شئ من الحق ، فالاقتصاد جانب مهم ، والجنس جانب مهم ، وخضوع الفرد للتيارات الجماعية جانب مهم ، ولكن أيا منها لا يستقل وحده بتوجيه « الإنسان » ووضع معايير وقيمه كلها جميعا . وأن التفسير الحق للإنسان ونشاطه وقيمه يشمل هذه الأمور الثلاثة كلها ، ويشمل غيرها مما أغفله - عمدا - كل واحد من « المفسرين » الثلاثة العظام ! واننا - لكى ننشئ تفسيراً حقيقياً للحياة الإنسانية - لا ينبغي أن نغفل شيئاً من مكونات الإنسان على الإطلاق ، أو أن نفسر شيئاً أصيلاً فى حياة الإنسان من خلال شئ آخر .

ماذا لو فسرنا الجنس - مثلاً - من خلال الاقتصاد ، فعزونا المشاعر الجنسية إلى عوامل اقتصادية ؟! أى تفسير مضحك يكون هذا التفسير ؟! كذلك لو فسرنا الاقتصاد من خلال الجنس ، فقلنا إن الدافع الجنسى هو السبب فى جميع العمليات الاقتصادية التى يقوم بها الإنسان ؟!

أى تفسير مضحك يكون هذا التفسير ؟!

والسبب فى كونه مضحكا وساذجا ومرفوضا بادئ ذى بدء هو أن كلا من الاقتصاد والجنس عنصر أصيل فى كيان الإنسان على ذات الدرجة من الأصالة . فنفى أصالة أيهما وتفسيره من خلال الآخر هو الذى ينشئ تلك الساذجة المضحكة ، مع أن هناك ترابطا وتشابكا لاشك فيه بين الاقتصاد والجنس فى حياة الإنسان ، ذلك أنهما - مع أصالة كل منهما - يصبان فى المجرى الكبير الذى يشكل فى النهاية حياة الإنسان . ولكن ترابطهما وتشابكهما فى المجرى الكبير لاينفى أن كلا منهما رافد مستقل ذو سمات قائمة بذاتها وذو دفعات قائمة بذاتها .

كذلك - على نفس المستوى - تكون محاولتنا تفسير الدين والقيم العليا كلها على أسس مادية اقتصادية كما يقول ماركس ، أو أسس جنسية كما يقول فرويد ، أو أسس من العقل الجمعى المستقل عن كيان الأفراد والمغاير لكيان الأفراد كما يقول دوركايم .

هى محاولة ساذجة مضحكة ولو ألف فيها ألف كتاب ، ولو قامت الأبواق اليهودية تروج لها من خلال ألوف الأفواه !

« النفس الإنسانية » هى الأصل الذى نرجع إليه لتفسير أحوال الإنسان فى الأرض ، وتفسير ألوان نشاطه المختلفة .

وكون هذه « النفس » قابلة للتشكل فى أشكال شتى لايعنى أنه ليس لها كيان محدد ، ولا حدود تقف عندها فى تشكيلها . إنما هذه المرونة فى قابليتها للتشكل هى ذاتها جزء من مقومات الخلافة التى خلق الله الإنسان ليقوم بها فى الأرض .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

فقد علم الخالق اللطيف الخبير الحكيم المدبر - لا ذلك الخالق الأصم الذى يدعيه الماديون ، ولا ذلك الذى يخطط خطب عشواء الذى يدعيه دارون - أن تفاعل هذه النفس البشرية مع الكون المادى سينشئ أشكالاً مختلفة من الحياة فى الأرض ، بحسب درجة علم الإنسان بهذا الكون المادى، ودرجة سيطرته عليه . وقدرته على استخراج طاقاته واستخدامها فى عمارة الأرض ، لذلك جعل - بحكمته - هذه النفس قابلة للتشكل لتوائم تلك الأشكال المتغيرة ، ببيما الحيوان والنبات أقل قدرة بكثير على التشكل لأنه لا يحمل أمانة ولايقوم بخلافة ولا عمارة .

أفينقلب هذا التكريم الربانى والتفضيل إلى نقيصة يوصم بها الانسان فى التفسير المادى للتاريخ، فيقال، إنه لا « كيان » لهذه النفس البشرية ولا سمات محددة ، وإنما تأخذ سماتها وسماتها من الوضع المادى الذى تكون فيه ؟

إن الحمار لايمكن إلا أن يكون حماراً مهما أوقعت عليه من الضغوط لتغيير طبيعته ! أن يكون الإنسان أقل أصالة من الحمار فى عرق التفسير المادى للتاريخ ، فى الوقت الذى يزعمون فيه أنه « أعلى تطور فى عالم المادة » ؟!

إن قضية أصالة « الإنسان » ، ووجود سمات أصيلة فيه تحدد طبيعته « الإنسانية » هى قضية فوق الشك ، أيا كان المدخل الذى ندخل إليها منه .

ولكننا نختار ثلاثة مداخل رئيسية مما يناسب هذا البحث :

أولا : هل التغير الذى يحدث فى حياة الإنسان حين تتغير أوضاعه المادية والاقتصادية هو تغير فى « القشرة » السياسية والاقتصادية والاجتماعية أم تغير فى « جُوهَر » الإنسان ؟ .

ثانيا : لماذا يثور الإنسان بين الحين والحين ؟ وعلى أى شىء يثور ؟ وإلى أى شىء يهدف من ثورته ؟

ثالثا : لماذا تظهر عليه أعراض المرض النفسى حين يتناول غذاء « حضاريا » لا يناسب طبيعته ؟

فبالنسبة للقضية الأولى نجد بادئ ذي بدء أن دواعى التغير المادى ذاتها نابعة من « نفس » الإنسان وليست نابعة من المادة المحيطة بالإنسان ، فهذه المادة - بمعنى الكون المادى على اتساعه وبمعنى البيئة القريبة المحيطة - موجودة بالنسبة للحيوان كوجودها بالنسبة للإنسان على السواء . فلماذا لا تثير بالنسبة للحيوان الرغبة فى التعرف على خواص المادة والرغبة فى استخدام حصيلة المعرفة فى تغيير البيئة المحيطة ، بينما تثير هاتين الرغبةين بالنسبة للإنسان ؟!

هل الفرق كائن فى المادة أم إنه كائن فى الإنسان ؟! وإذا كان كائنا فى الانسان كما هو بدهى ، أفليس هذا خطأ ثابتا من خطوط النفس البشرية يحدد سمة من سماتها الأصلية التى لا تتغير بتغير « القشرة » الخارجية ولا بتغير الظروف المادية والاقتصادية ؟

صحيح أن حصيلة التفاعل المستمر بين الإنسان والمادة المحيطة به تحدث تغييرا فى البيئة وتغييرا فى صورة الإنتاج فيصبح رعويا أو زراعيا أو صناعيا أو .. ؟ ولكن كم يغير هذا التغيير من طبيعة الإنسان الأصلية ؟

نترك مؤقتا قضية الملكية الفردية لأننا سنفردها بحديث خاص ، نشبت فيه من واقع التطبيق الشيوعى ذاته أن نزعة الملكية الفردية لم تمت فى نفوس الناس ولا أمكن إحلال الملكية الجماعية محلها .. ونشير إلى بقية الدوافع :

هل تغيرت دوافع الإنسان الأصلية ؟ حبه للحياة .. رغبته فى المتاع .. رغبته فى الجنس .. رغبته فى البروز وإثبات الذات .. رغبته فى المعرفة .. رغبته فى إطالة عمره على الأرض .. رغبته فى السيطرة على البيئة .. رغبته فى الاجتماع بالآخرين .. رغبته فى الانتماء .. رغبته فى التحسين المستمر لأحواله .. رغبته فى

الامن .. رغبته في الاستقرار .. رغبته في الذرية ..
نعم ، تغيرت الصورة التى يحقق بها هذه الدوافع ، ولكن هل تغيرت طبيعة
الدافع ؟
إنه من السذاجة غير « العلمية » أن ينظر الإنسان إلى تغير الصورة فينسى
ثبات الجوهر « ١ » .

ونعود إلى النص الذى نقلناه عن رينيه دوبو في كتاب « إنسانية الإنسان »
ص ٧١ من الترجمة العربية :

عاش رجل « كروماغنون Cro-Magnon » في أكثر انحاء أوروبا قبل حوالى
ثلاثين ألف سنة . قبل قيام الزراعة وحياة القرية بفترة طويلة ، ومع انه كان
صيادا بصورة رئيسية كان - على ما يظهر - مشابها لنا جسما وعقلا ، فادواته
واسلحته تناسب حجم أيدينا الآن ، وفنه في كهوفه يثير مشاعرنا ، والعناية التى
كان يوليها لدفن موتاه تكشف أنه شاركنا بشكل ما بالاهتمام بنهاية الإنسان
وأخرفته ، وكل أثر مدون من آثار إنسان ما قبل التاريخ يوفر شواهد أخرى
للفكرة القائلة أن الخواص الأساسية للجنس البشرى لم تتغير منذ العصر
الحجرى « ٢ » .

فتغير « القشرة » السياسية والاقتصادية والاجتماعية للإنسان - حتى إن
سلمنا جدلا أنه ينبع من التغير المادى وحده ، ونحن لا نسلم بذلك - لايعنى
أنه أصبح إنسانا آخر . ولا يعنى أن الإنسان الرعوى غير الإنسان الزراعى غير
الإنسان الصناعى من حيث الجوهر .

وليس معنى ذلك - من جهة أخرى - أن أى نظام مثل أى نظام آخر ، وأنه لا
يختلف حال الإنسان أى اختلاف بتغير النظم عليه . تالا ! ما نقصد ذلك . ولكننا
نريد أن نؤكد أنه ليس الوضع المادى هو الذى يحدث التغير الجوهرى في حياة
الإنسان ، أو هو المعيار الذى تقوّم به حياته .

إنما يحدث تغير جوهرى في حياة الإنسان بحسب معيار آخر مختلف تماما .
هو نوع العبادة التى يعبدها ، ونوع التشريع الذى ينظم حياته ، هل يعبد الله
الحق أم يعبد آلهة زائفة ، وهل يتحاكم إلى شريعة الله أم إلى شرائع جاهلية من
صنّع البشر .

١ - انظر - إن شئت - حديثا مفصلا في هذا الموضوع في كتاب : التطور والنشأ في حياة البشرية .
٢ - ترجمة الدكتور نبيل صبحي الطويل طبع مؤسسه الرسالة بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩

ذلك هو الذى يحدث التغيير الجوهرى فى حياته ، سواء كان فى الحالة الرعوية أو الحالة الزراعية أو الحالة الصناعية أو الحالة الذرية (إن كانت هذه تعتبر تحولا فى طريقة الإنتاج على المدى البعيد ^١) أو فى أى حالة من الحالات المادية على الإطلاق . والسبب فى ذلك أن الإنسان - بخلقته - ذو طريقين مختلفين كل الاختلاف من حيث الأسباب والنتائج والوسائل والأهداف .

« ونفس وما سواها ، فآلهما فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » « ١ »

« وهديناه النجدين » « ٢ »

« إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » « ٣ »

وهو فى الوضع السوى حين يعبد الله وحده ويحكم شريعته ، وفى الوضع المقلوب حين يعبد غير الله ويحكم شريعة غير شريعة الله . ولا يستوى الوضع السوى بطبيعة الحال مع الوضع المقلوب ، والفارق بينهما فارق جذرى وجوهى . أما التغيرات المادية والاقتصادية فهى تغير الصورة نعم ، ولكنها لا تغير الجوهر .

ومن هنا يكون للبشرية - فى كل أوضاعها المادية والاقتصادية - حالتان اثنتان فحسب ، إما سوية معتدلة وإما مقلوبة ، بصرف النظر عن الوضع المادى والاقتصادى ذاته . أى أنه يكون رعويا فى حالة اعتدال أو رعويا على الوضع المقلوب ، ويكون زراعيا فى حالة اعتدال أو زراعيا على الوضع المقلوب ، ويكون صناعيا فى حالة اعتدال أو صناعيا على الوضع المقلوب . ويكون ما شاء الله له أن يكون من الأوضاع المادية والاقتصادية على حالتين اثنتين : مهتديا فتستقيم حياته . أو ضالا فتضطرب حياته وتختل .

والذى درسته المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ هو خط الضلال البشرى من الشيوعية الأولى إلى الرق إلى الاقطاع إلى الرأسمالية إلى الشيوعية الثانية - كما سنشير فيما بعد - ولم يدرسا قط خط الإيمان التاريخى سواء عن عمد أو غير عمد « ٤ » لذلك التفت التفسير المادى للتاريخ إلى التغيرات الجزئية التى حدثت فى الانتقال من كل طور اقتصادى إلى الطور الذى تلاه ،

١ . سورة الشمس [٧ - ١٠]

٢ . سورة البلد [١٠]

٣ . سورة الانسان [٢]

٤ . نقول نعم إنه عن عمد . ولكن يسرى فى النتائج ان يكون عن جهل أو عن عمد .

وركز عليها ، وضخمها ، حتى بدت اختلافات جوهرية في حياة الانسان ، والسبب في ذلك انه لم يقارن أبدا بين الصورتين المتغايرتين تغايرا جوهريا صورة الإيمان وصورة الضلال على جميع الأطوار المادية والاقتصادية ، إذن لتبين له أن الفوارق الحقيقية ليست قائمة بين الاقتصاد الرعوى والاقتصاد الزراعى والاقتصاد الصناعى ، إنما هى بين الاقتصاد الرعوى - والحياة الرعوية بجملتها - على خط الإيمان وعلى خط الضلال ، والاقتصاد الزراعى - والحياة الزراعية بجملتها - على خط الإيمان وعلى خط الضلال ، والاقتصاد الصناعى - والحياة الصناعية بجملتها - على خط الإيمان وعلى خط الضلال ، ولتبين له كذلك أن الحياة بجملتها على خط الإيمان - فى الحالة الرعوية والحالة الزراعية والحالة الصناعية - ذات سمات أساسية مشتركة، هى قيامها على الحق والعدل والترابط الإنسانى والأخوة وغلبة المحبة على الصراع (مهما يكن فى داخلها من هزات واضطرابات ناشئة من إخفاق الناس فى تطبيق المنهج الربانى بالصورة الواجبة) وأن الحياة بجملتها على خط الضلال - فى الحالة الرعوية والحالة الزراعية والحالة الصناعية - ذات سمات أساسية مشتركة. هى قيامها على الظلم والظلميان والصراع على متاع الأرض القريب .

القضية الثانية ، أو المدخل الثانى لقضية أصالة الانسان ووجود سمات جوهرية أصيلة فيه لا تتغير بتغير الوضع المادى والاقتصادى هو ظاهرة الثورات فى التاريخ البشرى .

لماذا يثور الإنسان إذا لم يكن له كيان أصيل ينبغى أن يكون عليه ؟
بعبارة أخرى : إذا كان الانسان قابلا للتشكل الدائم بحسب الوضع المادى والاقتصادى دون أن يكون له شكل ثابت أو حدود ثابتة يرجع إليها، فلماذا يتور على أى وضع من الأوضاع يكون قد تشكل به فى أثناء رحلته التاريخية على الأرض ؟

يقول التفسير المادى للتاريخ - ويحسب أنه قد حل القضية بذلك - إن الحتمية المادية والحتمية الاقتصادية والحتمية التاريخية هى الجواب ! هى التى تفسر سبب الثورات . فإنه إذا انتهى الدور التاريخى لأى طور من الأطوار الاقتصادية ووصل الصراع الطبقي إلى درجة « النضوج » حسب الحتمية التاريخية والحتمية المادية والاقتصادية ، أى بمقتضى الحركة التاريخية للمادية الجدلية .. إذا حدث ذلك كله حدثت الثورة التى تهدم النظام المنهزم - ماديا

واقتصاديا وتاريخيا - وتشيد النظام المنتصر - ماديا واقتصاديا وتاريخيا -
وتمكن له في الأرض .

وببساطة نقول : إن هذا لا يفسر كل الثورات التي حدثت في التاريخ . ودع
جانبا الآن ظهور الإسلام وتمكنه في رقعة فسيحة من الأرض ورقعة فسيحة من
التاريخ ، فسنفرد له حديثا خاصا في الرد على التفسير المادي للتاريخ بجملته ،
ولكننا نستشهد عليهم من نظريتهم !

فهم يقولون إن الثورات الناجحة هي التي توافق سير الحتمية التاريخية
فتأتي في إبانها الصحيح ، وتكون متوافقة مع الظروف - أو الحتميات - المادية
والاقتصادية ويكون الصراع الطبقي فيها قد نضج إلى الحد الذي ينجح
الثورة . أما الثورات التي لا توافق خط سير هذه الحتميات ، ولا يكون الصراع
الطبقي فيها قد نضج إلى الحد المعقول ، فإنها تفشل مهما بذل فيها من
الضحايا !

يا سبحان الله ! إذن فليس السبب في قيام الثورات هو هذه الحتميات ! إنما
التوافق مع هذه الحتميات - كما يقولون - هو الذي يؤدي إلى نجاح الثورة . أما
قياسها فلا بد أن يكون له سبب آخر أغفله - عامدا - التفسير المادي للتاريخ !
لأنه أن يكون السبب كامنا في « الإنسان » في كيانه الأصلي . في كراهيته
للظلم ، وتطلعه إلى الحق والعدل الأزليين ، سواء تحقق العدل في عالم الواقع أم
لم يتحقق لسبب من الأسباب ! * * *

القضية الثالثة أو المدخل الثالث هو ظهور الأعراض المرضية في حياة
الإنسان حين تكون « الحضارة » التي يعيش فيها غير مناسبة لكيانه السوي .
والساهد الحي على ذلك هو المجتمع الأوروبي في الجاهلية المعاصرة .
لقد زعم التفسير المادي للتاريخ أن أخلاقيات المجتمع الزراعي من شدة
« التدين » إلى سيطرة الأب في الأسرة والحفاظ على العرض والاهتمام بالعفة
الجسدية والترايط التعاوني . إلخ كانت مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي في
الطور الزراعي ، وليست قيما أصيلة قائمة بذاتها ، وأنه حين تغير الطور
الاقتصادي ودخل الناس في العصر الصناعي فإن من طبيعة الطور الاقتصادي
الجديد أن يضعف التدين ، وتزول سيطرة الرجل بسبب تحرر المرأة
اقتصاديًا ، وتزول عبرته على عرضه . وتفقد قضية العفة أهميتها . وتتفكك
الأسرة . إلخ ، ويكون هذا كله هو الانعكاس الطبيعي للوضع الاقتصادي

الجديد .. ومن ثم تكون « الأخلاقيات » الجديدة المضادة تماما للأخلاقيات الزراعية هي المناسبة للوضع الجديد ، وينشئ الطور الجديد عقائده وأفكاره وأخلاقياته فتستجيب لها النفوس وتتكيف معها بصورة طبيعية !

ولكن هذا الذى يقوله التفسير المادى للتاريخ يكذبه الواقع اشد التكذيب . فأما ضعف المشاعر الدينية ، وزوال سيطرة الأب ، وفقدان قضية العفة أهميتها ، وتفكك الأسرة ، وممارسة الحرية الكاملة فى علاقات الجنس فقد حدثت حقا ، سواء كان سبب ذلك هو « التطور الحتمى » المصاحب لتغير الطور الاقتصادى كما يقول التفسير المادى للتاريخ ، أم كان سببه التخطيط الشرير الهادف إلى إفساد البشرية لاستحمارها واستعبادها كما نزع نحن ..

أما الاستجابة « الطبيعية » فلم تحدث على الإطلاق !

إن رد الفعل الذى حدث من ذلك كله هو انتشار القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والاضطرابات العصبية وإدمان الخمر والمخدرات واتساع نطاق الجريمة وجنوح الأحداث والشذوذ الجنسى .

ومؤتمراتهم وإحصائياتهم هى الشاهد على ذلك ..

ودلالة ذلك واضحة ..

فلو أن النفس البشرية ليس لها كيان محدد ولا صورة ينبغى لها أن تكون عليها ، ما حدث رد الفعل المرضى الذى حدث بالفعل فى حياة الناس، ولا استجابات استجابة « طبيعية » للشكل الذى شكلت به ، سواء كان الذى حدد الشكل هو التطور الحتمى أو التخطيط الشرير ..

إنما هذه الاستجابة المرضية معناها أن الحضارة التى قدمت للناس - تحت أى ظل وأى عنوان - هى حضارة لا تناسب الكيان البشرى السوى ، لا تناسب مقومات النفس البشرية الأصيلة . لا تناسب الوضع السليم الذى ينبغى أن يكون عليه الإنسان ، لفارققتها للقيم الإنسانية الصحيحة . وإذن فهناك قيم معينة ، أصيلة وثابتة ، ينبغى أن تكون قائمة فى حياة الناس أيا كان الطور الاقتصادى الذى يعيشون فيه . وحين تخالف هذه القيم فإن الحياة تضطرب وتختل ولا يعود لها ميزان .

ويكفي هذا لإثبات أن القيم العليا هى أشياء قائمة بذاتها ، ومطلوب وجودها فى الحياة البشرية لأن هذه الحياة لا تستقيم بدونها . كما يكفينا هذا لنفى تلك الأسطورة القائلة بأن الوضع الاقتصادى هو الأصل الوحيد الذى

تنسأ منه كل القيم وكل الأخلاق ! وإن كنا نقرر من باب إحقاق الحق أن الوضع الاقتصادي يتخذ أهمية بالغة في كل جاهليات التاريخ ، بحيث يبدو أنه هو المسيطر ، وأنه هو الأساس ، إذ تتوارى القيم الأخرى كلها وتحتجب ، فتبرز القيم المادية وتصبح هي الأساس ' ولو أن التفسير المادي للتاريخ اكتفى بأن يقول إنه يفسر الجاهليات البشرية لكان أقرب إلى الصواب ، أما أن يزعم أنه يفسر « التاريخ » .. كل التاريخ .. فزعم واسع يكذبه التاريخ ! ومع ذلك فالجاهليات ذاتها - كما سنبين - لا يستوعبها استيعابا كاملا ذلك التفسير الجاهلي للتاريخ !

إذا اكتفينا بهذا القدر في مناقشة القضايا الرئيسية في التفسير المادي للتاريخ ، وهي قضية مادية الخالق وقضية مادية الإنسان وقضية مادية القيم الانسانية ، فلا بأس أن نستعرض بعض القضايا المترتبة عليها ، ونختار من بينها قضية « الدين » وقضية « الأسرة » وقضية « الشيوعية الأولى » وقضية « الملكية الفردية » وقضية « التطور » وقضية « الحتميات » وكلها من القضايا ذات الأهمية الخاصة في التفسير المادي للتاريخ .

* * *

١ - التفسير المادي للدين :

يقول التفسير المادي للتاريخ إن الانسان الأول تدين لأنه كان جاهلا بقوانين الطبيعة من حوله ، فصنع من قوى الطبيعة آلهة ، فالبرق إله والرعد إله والريح إله والمطر إله .. الخ . ولأنه كان جاهلا بالبيئة وغير قادر على السيطرة عليها ، فجعل من أشجارها وحيوانها آلهة معبودة يستمطر رضاها ويتوقى غضبها ، ويقدم لها الصلوات والقرابين .. ومصدرهم في كثير من هذه الأمور هو « فريزر » في كتاب « الغصن الذهبي » الذي استغلوه استغلالا كاملا كما استغلوا دارون من قبل ، وإن كانوا هم يشيرون إلى أبحاث « مورجان »^١ « ولا يشيرون إلى فريزر »

أما في العهد الإقطاعي - أو الزراعي - فالناس متدينون لأن عملية الإنتاج تشتمل على جانب لا يملك الإنسان السيطرة عليه ، وهو جانب الإنبات والإنماء

١ - مورجان باحث أمريكي تخصص في دراسة أحوال القبائل الأمريكية البدائية وهو متأخر عن ماركس ولذلك يشيرون إليه على أسرار أن أبحاثه أدت أقوال ماركس التي قالها غير متأثر بأحد^١

والآفات والعوارض الجوية، فيتخيل قوى غيبية يسند إليها إخراج الزرع من الأرض وإنضاجه وحمايته ، فيتعبد لها ويسترضيها لتحفظ له المحصول الذي تقوم حياته عليه .

ثم يزول الجهل والعجز بالتقدم العلمى والتكنولوجيا فيتعرف الإنسان رويدا رويدا على قوانين الطبيعة ، ويسيطر تدريجيا على البيئة ، فتقل حاجته إلى « افتراض » القوى الغيبية ، وحين تصبح عملية الإنتاج مادية بحتة في العصر الصناعى ويسيطر العامل على كل خطواتها من أول استخراج المادة الخام إلى تشكيلها في صورتها النهائية .. فعندئذ تزول الحاجة إلى التدين بهانیا وينتهى دور الدين في حياة البشرية .

ومن جانب آخر فإن الطبقة الحاكمة سواء في الإقطاع أو في الرأسمالية تستخدم الدين - الذى هو أسطورة لا حقيقة لها - في تخدير الجماهير الكادحة لترضى بالظلم في الأرض طمعا في الجنة في الآخرة .

ونقول بادئ ذي بدء إنه من التعسف تفسير ظاهرة وجدت في جميع العصور وجميع الأجيال بتفسير خاص في كل جيل من الأجيال ! إنما ينبغى - من الوجهة العلمية البحتة - أن نبحث عن أسبابها في الأصول الثابتة لا في المتغيرات !

إن دلالة خمسين قرنا - على الأقل - من تاريخ البشرية المكتوب ، فضلا عن قرون أخرى غير مكتوبة لا يعلم عددها إلا الله ، لا يمكن أن تلغى بجرة قلم مهما يكن جيروت هذا القلم وطلغيانه ' ولا يمكن أن تلغى لأن جيلا واحدا أو جيلين قد تنكرا للدين لأسباب معروفة ومرئية وغير خافية على الذين يبحثون عن الحق ويحبون أن يهتدوا إليه !

في كل تلك القرون التى لا يعلم عددها إلا الله كانت ظاهرة التدين قائمة ، فلماذا نقول إن سببها في الجيل الفلانى كان كذا وفي الجيل الفلانى كان كذا وفي الجيل الآخر كان أمرا آخر ؟!

أهذه هي طريقة « البحث العلمى الموضوعى » وتلك هي مناهجه ؟! هل يمكن مثلا أن نرد الدافع الجنسى إلى أسباب مادية، أو إلى أسباب تختلف في جيل عنها في جيل آخر ؟ أليس وجود هذا الدافع على مدى التاريخ البشرى يجعلنا نقول إنه في أصل الفطرة، لا هو مكتسب ولا هو راجع إلى أسباب خارجية في البيئة المحيطة بالإنسان ؟!

فلماذا نقول عن التدين - الذى وجد على مدى التاريخ البشرى - إنه راجع إلى البيئة وإلى أسباب متغيرة ، وليس أصلا من أصول الفطرة ؟
أمن أجل أن جيلا من البشر أو جيلين قد تغشى فيهما الإلحاد ؟
لقد تغشت الرهبانية في المجتمع المسيحى عدة قرون ، وكان ينظر إلى التخلص من الدافع الجنى أو كبته أو قهره على أنه قمة الارتفاع النفسى والروحى ، فهل يلغى هذا العارض الذى تغشى في مجتمع معين لفترة معينة كل دلالة التاريخ ، ويجعلنا نقول إن أسبابا معينة في البيئة هى التى توجد دافع الجنس، وأنه يمكن أن يزول من الوجود في يوم من الأيام ؟
لماذا إذن نفرق بين ظاهرتين متشابهتين بل متماثلتين فنعطى إحداهما تفسيراً ونأبى على الأخرى ذلك التفسير ؟

كلا ! إن الهدف واضح ، وهو أن الشيوعية - اليهودية المنشأ - تريد أن تقيم مجتمعا بشريا على الإلحاد الكامل والبعد الكامل عن الدين ، فتزعم أن الدين ليس من الفطرة ، وأن أسبابا معينة في البيئة أو في موقف الإنسان من البيئة هى التى أنشأت ظاهرة التدين فيما مضى من التاريخ ، وأن هذه الأسباب الآن قد زالت فينبغى للدين أن يزول !

إن وجود عوامل خارجية في الكون المادى وفي البيئة المحيطة بالإنسان تبعث مشاعر التدين في الإنسان أمر نعلمه ونقره ..
إنها ذلك الكون ذاته بضخامته المعجزة ودقته المعجزة .
إنها ظاهرة الحياة والموت التى تبهر حس الإنسان وتثير عجبه وتطلعه .
إنها ظاهرة حدوث الأحداث وجريانها من ليل ونهار ونور وظلمة وولادة وموت وصحة ومرض وغنى وفقير واجتماع وافتراق .. الخ .

إنها ظاهرة عجز الإنسان عن السيطرة الكاملة على الكون مهما بلغ من سيطرته ، وعن الإحاطة الكاملة بأسرارها مهما بلغ من علمه ، وعجزه الكامل عن الخلق والإنشاء من العدم « ١ »

إنها هى التى نبه إليها رب العالمين في كتابه الكريم ليوقظ وجدان البشر إلى تفرد الله بالالوهية والربوبية ووجوب إفراده بالعبادة والنسك وتحكيم شريعته في الأرض :

« ١ » سنعاود الحديث عن هذا الموضوع بتفصيل أكثر عند الحديث عن الإلحاد .

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » « ١ »

« هو الذي يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » « ٢ »
« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وترزق من تشاء بغير حساب » « ٣ »

« هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه . إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أقم يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ ! وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم » « ٤ »

« أفرايتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟ أفرايتم ما تحرثون ؟ أنتم تزرعون أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلمت تفكهن : إنا لمغرمون ! بل نحن محرومون ! أفرايتم الماء الذي تشربون ؟ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ؟ أفرايتم النار التي توروون ؟

١ . سورة البقرة [١٦٢ - ١٦٤]

٢ . سورة عاfer [٦٨]

٣ . سورة ال عمران [٢٦ - ٢٧]

٤ . سورة النحل [١٠ - ١٨]

الانتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم » « ١ »

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون ! أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ؟! » « ٢ »

نعم .. هناك عوامل خارجية في الكون المادى وفي البيئة المحيطة بالإنسان تبعث مشاعر التدين وتوقظها ، ولكنها لا تنشئها من العدم . إنما هى موجودة هناك فى أعماق الفطرة ، وهذه العوامل توقظها فقط . لأن الله جعل الفطرة هكذا بحيث تستيقظ حين تتلقى إيقاعات الكون المادى وإيقاعات الأحداث الجارية فى محيط الإنسان ، فتمضى تبحث عن الخالق سواء اهدت فى بحثها أم ضلت عن السبيل .

ودلينا على ذلك هو التاريخ البشرى كله ، لا ينقص من دلالة وجود جيل أو جيلين نافرين جاحدين شذا عن الطريق .

ودلينا من العالم الشيعوى ذاته هو جاجارين رائد الفضاء الأول ، الذى ولد فى الشيوعية وتربى فيها على الإلحاد الكامل وإنكار وجود الله ، فلما صعد إلى الفضاء هزته روعة الكون ، فكان تصريحه الأول للصحفيين عند هبوطه إلى الأرض : « عندما صعدت إلى الفضاء أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله » « ٢ » !

ودلينا عليه من الجاهلية المعاصرة كذلك أولئك العلماء الذين تعمقوا فى دراسة أسرار الكون فهداهم علمهم إلى أنه لا يمكن تفسير عجائب الكون إلا بالتسليم بوجود الله ، مما نقلنا فقرات منه فى هذا الفصل من قبل ونحن نتحدث عن التفسير المادى للخالق .

الدين إذن مركز فى الفطرة :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا » « ٤ »

« ١ » سورة الواقعة [٥٨ - ٧٤]

« ٢ » سورة الطور [٣٥ - ٣٧]

« ٣ » زيفت الدولة بصريحه فيما بعد ولكن العبارة بتصريحه الأول

« ٤ » سورة الأعراف [١٧٢] .

والعوامل التى توقظ الفطرة فتبعثها تبحث عن الله باقية ما بقى الانسان فى الأرض ، لا تتغير مهما بلغ من علم الانسان أو سيطرته على البيئة .
ومن أجل ذلك بقيت ظاهرة التدجين قائمة خلال التاريخ البشرى كله ، بصرف النظر عن هذا الجيل المسوخ الذى دفعته عوامل معينة - معروفة - إلى مغالبة الفطرة والتبجح بإنكار وجود الله .

والذى الغاه تعلم الإنسان وسيطرته على البيئة لم يكن هو الدين الصحيح ، إنما كان بعض انحرافات الجاهلية وتصوراتها الساذجة . فحين توهّم البشر - فى بعض جاهليتهم - أن المطر إله والرياح إله والرعد إله والبرق إله ، وأن وجه الأرض مملوء بالأرواح الشريرة التى يؤثر فيها السحر ، أو حين توهّموا - فى طور آخر - أن بعض الحيوانات آلهة تعبد - كبقرة الهند والعجل أبيس فى مصر الفرعونية وغيرها - أو حين توهّموا فى طور ثالث أن بعض الأجرام السماوية آلهة كالشمس والقمر والنجوم .. كانت هذه كلها أوهاما ساذجة يمكن أن يمحوها العلم، أو يمحوها زيادة سيطرة الإنسان على البيئة .

أما الدين الصحيح - وهو عبادة الله الخالق وحده بلا شريك - فقد وجد منذ بدء البشرية وظل قائماً إلى هذه الساعة، لم يؤثر فيه العلم ولا سيطرة الإنسان على البيئة، لأنه لم ينشأ من الجهل العارض أو العجز العارض كما يزعم التفسير المادى للتاريخ ومن لف لفه من الملحدّين ، إنما نشأ من حقيقة أزلية هى وجود الله الخالق البارئ المصور ، وكون الانسان مخلوقاً خلقه الله ، وأودع فى فطرته أن يتوجه لعبادة الله ، وإن كان قد أودع فى فطرته فى الوقت ذاته قدرة على الاختيار بين طريق الهدى وطريق الضلال .

وفى عهود البشرية السحيقة حين كانت أقوام تعبد الأب ، أو تعبد الطوطم ، أو تعبد قوى الطبيعة ، أو تعبد الأفلاك ، أو تعبد الأصنام كان هناك مؤمنون يعبدون الله وحده بلا شريك ، فيتقدمون إليه وحده بالعبادة والنسك ، ويطبقون شريعته فى واقع حياتهم .

فلذا كان نمو العلم ونمو سيطرة الإنسان على البيئة قميناً بأن يلغى أساطير الجاهليات المختلفة فى أمر الدين ، فليس من شأنه أن يلغى الدين ذاته ، المركز فى الفطرة ، الذى ينبثق حتى فى الجاهلية المعاصرة الموحدة الكافرة ، فيعلن صوت الفطرة رغم كل الحواجز التى تريد أن تخنق ذلك الصوت .
وأما كون الإقطاع والرأسمالية يستخدمان الدين مخدراً للجماهير لترضى

بذل العبودية في الأرض طمعا في جنة الله في الآخرة ، فذلك كانت حقيقة واقعة في الجاهلية الأوروبية الحديثة ، وقامت الكنيسة ذاتها بجزء من المؤامرة التي تهدف إلى تخدير الجماهير لكيلا يثوروا على الظالمين ...

ولكن ما علاقة ذلك بحقيقة الدين ؟

إن الدين - ككل شيء آخر في عالم البشر - يمكن أن تشوه صورته وأن يساء استغلاله . فهل نلغى الدين الصحيح من أجل الصورة الزائفة ، أو من أجل سوء الاستغلال ؟ أم نحاول تصحيح الصورة ومنع الاستغلال ؟

ثم ما الحيلة إذا كان الإنسان عابدا بطبعه ، فإن لم يعبد الله عبد من هو دونه ، وهبط نتيجة لذلك أسفل سافلين ؟

كلا ! ليس التفسير المادي للدين حقيقة « علمية » ولا يمت بأية صلة للعلم أو النظر العلمي . إنما هو « شهوة » قائمة على غير دليل . شهوة بعض الناس في نشر الإلحاد في الأرض لغاية في نفوس الشياطين ! « ١ »

٢ - قضية الأسرة :

كل الذين يتكلمون ضد الدين والأخلاق يتكلمون ضد الأسرة كذلك . والعلاقة واضحة . فالدين والأخلاق والأسرة كلها من « الضوابط » التي تقف في سبيل المخططات الرامية إلى إفساد البشرية واستحمارها :

« والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » « ٢ »

إن الأسرة هي الضابط الطبيعي ضد فوضى الجنس ، والذين يريدون إفساد البشرية لا يريدون أن يكون هناك ضابط للفوضى الجنسية، سواء كان هذا الضابط هو الدين والأخلاق ، أو كان هو التنظيم الطبيعي الذي تنشئه الأسرة بنوع علاقاتها ونوع مسئولياتها .

والشيوعيون - بصفة خاصة - لهم حقد خاص على الأسرة لأكثر من سبب في وقت واحد .

فالأسرة - كما يقولون - تثير مشاعر الأثرة في الوالدين ، وتقوى نزعة الملكية الفردية من أجل توريث الأولاد ما يملكه الوالدان . وهم يريدون القضاء على

١ . سنحدث عن هذه الغاية مرة أخرى في فصل « الإلحاد » .

٢ . سورة النساء [٢٧]

الملكية الفردية ، فيكرهون - بالتالى - كل نظام أو فكرة يقف فى طريق القضاء عليها .

ثم إن النظام الشيوعى - كما سنرى ونحن نناقش المذهب الاقتصادى فى صورته التطبيقية - يريد أن يجعل الولاء للدولة وحدها دون أحد آخر ، ويريد من الأفراد أن يذوبوا ذوبانا كاملا فى « النظام » و « الدولة » و « الحزب » و « الزعيم » فلا يكون لهم ارتباط بشئ آخر خلاف هذه الولاءات الضرورية للنظام . ومن ثم فإنهم يكرهون الأسرة لأنها - بداهة - ارتباط قائم بذاته مستقل عن الدولة ، ولو كان مواليا لها فى ظاهر الأمر أو واقعا تحت الضغط البوليسى للدولة . فإذا كان النظام الشيوعى - بالإضافة إلى ذلك - يصل إلى حد تجنيد الشعب كله فى التجسس بعضه على بعض ليأمن قيام أى تجمع مضاد ، أدركنا أن حنقه على الأسرة لابد أن يكون أشد ، لأن الولاء الفطرى داخل الأسرة هو نوع من التجمع ، مهما يكن صغيرا فإنه يمكن أن يكون نواة لتجمع أكبر ، وهو فى جميع الأحوال حائل دون الحاسوسية الدقيقة على كل فرد من أفراد الشعب .

وبالإضافة إلى ذلك كله فإن من الضمانات التى يعتمد عليها النظام الشيوعى تربية الأولاد منذ نعومة أظفارهم على الولاء الكامل للنظام والدولة والحزب والزعيم .. وهذا يقتضى الإشراف الكامل عليهم منذ ولادتهم، حتى لا توجد « جرثومة » واحدة مفردة يمكن أن تنتشر العدوى فى نطاق أوسع . والأسرة - أو مشاعر الارتباط الأبوى - عائق من عوائق هذا الإشراف الدقيق الذى يعتمد عليه النظام ، لأنها تجعل ولاء الأطفال - أو جزءا منه على الأقل - مرتبطا بأعضاء الأسرة من الآباء والأخوة .

لذلك كله تكره الشيوعية الأسرة كراهية خاصة مركزة بوسط الكراهية العامة التى يتوجه بها إلى الأسرة ذلك المخطط الشرير الذى يهدف إلى إفساد البشرية واستحمارها .

ولكن أصحاب المخطط يحبون - دائما - أن يغلفوا مخططهم بالعلم والنظريات العلمية، ليكون ذلك أدعى إلى تقبل الناس له وعدم اعتراضهم عليه . و « العلم » فى الجاهلية المعاصرة يقوم مقام « السحر » فى الجاهليات البدائية التى كانت تؤمن به وتتعامل معه ، ويدخل النفوس بسهولة ويتمكن منها فى لحظات .. ولو كان قائما على غير أساس ! إذ يكفى أن تقول عن أى شئ إنه نتيجة « أبحاث علمية » حتى ينصاع الناس صاغرين ، دون أن يتوقفوا حتى ليتساءلوا : أحق هو؟ أم دعوى بلا دليل !

و« العلم » الذى يحارب الماديون به الأسيرة يأخذ البشرية بطولها من أولها إلى آخرها !

ففى البدء كانت الشيوعية الجنسية فلم تكن هناك « أسيرة » بالمعنى المتعارف عليه .

وفى بقية التاريخ كانت الأسيرة قائمة لأسباب اقتصادية ومتوافقة مع تلك الأسباب الاقتصادية .

وفى نهاية التاريخ - التى يريدونها أو يتخيلونها أو يخيّلونها للناس - تنتهى مهمة الأسيرة وتزول من الوجود .. على أسس « علمية » !

فأما الشيوعية الجنسية فسنحدث عنها فى الفقرة القادمة ، ولكننا نقول هنا إن كل ما قالوه فى وصفها لا يستند إلى دليل علمى حقيقى إنما هو استنباطات مغرضة من أحوال القبائل المتأخرة التى عثر عليها فى آسيا وأفريقيا وأستراليا فى القرنين السابقين .

وأما قيامها لأسباب اقتصادية فيكفي أن نشير فيه إلى ما شرحناه من قبل فى مناقشة التفسير المادى للقيم الإنسانية من أن الاقتصاد والأوضاع الاقتصادية جانب مهم فى حياة الإنسان ، ومؤثر من المؤثرات القوية فيها ، ولكن هذه الحياة أوسع وأشمل من أن تفسر بجانب واحد أو عامل واحد مهما يكن من سعته وقوة تأثيره . إنما المؤثرات كلها - على اختلاف كل منها عن الآخر وأصالتها الذاتية - روافد تصب فى المجرى الكبير الذى يشكل حياة البشرية . والاقتصاد واحد من هذه المؤثرات ورافد من الروافد ، ولكنه ليس وحده الذى يتحكم فى حياة الناس ، وليس هو الذى يفسرها ، إنما التفسير الأشمل والأصح أن النفس البشرية بكاملها هى التفسير الصحيح للحياة البشرية بكاملها . والنفس تحوى - ولا شك - عناصر كثيرة غير العناصر المادية حتى فى ضلالها وجاهليتها !

يقول خالق هذه النفس سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » « ١ »

هذا السكن وهذه السكنية عنصر هام فى نشأة الأسيرة واستمرارها مدى التاريخ البشرى كله ، وهو سبب نابع من « الفطرة » التى تحب هذا السكن

١ - سورة الروم [٢١]

وهذه السكينة بصرف النظر عن الدافع الجنسي الذى يمكن أن يتحقق بأية وسيلة .

ولا يتناقض هذا مع كون الأسرة تكوّن ترابطا اقتصاديا من نوع ما . فليس هناك فى النفس البشرية تناقض ولا تنافر بين عناصرها المختلفة ، ولا يلزم من وجود أحدها نفي الآخر ولا نبذه كما تقول التفسيرات الضيقة المعتسفة ، ولا يلزم من قوة أحدها أن يكون سائرهما تابعا له أو نابعا منه كما تقول تلك التفسيرات ، إنما توجد كلها - مع قوتها وأصالتها - جنبا إلى جنب ، متفاعلا بعضها مع بعض فى الكيان البشرى الكبير ، الذى كرمه الله بعوامل شتى ، وهذا التعدد وهذه السعة هى ذاتها من عوامل التكريم ، لأننا لانجدها - بهذه الصورة - فى الكائنات الأدنى من الإنسان .

والأسرة - كما ثبت من التجارب غير المتحيزة - ضرورة لتنشئة الأطفال الأصحاء من الوجهة النفسية . ومهما حاولت المحاضن أن تدعى أنها تقوم مقام الأسرة الطبيعية فى هذا الشأن فهى واهمة فى ذلك أو مغالطة ، فإن فى مقدور المحاضن أن تعطى رعاية صحية كاملة « للجسد » وتوجيها عقليا مبنيا على قواعد العلم (أيا كان مبلغ هذا العلم من الصحة) ولكنها لا تستطيع قط أن تعطى الرعاية النفسية المطلوبة لتنشئة الصحيحة للأطفال ، بسبب غياب الأم المتخصصة التى يشعر الطفل بملكيتها - وحده - ملكية كاملة « ١ »

ولسنا نقول مع ذلك إن الإنسان لجأ إلى تكوين الأسرة لأنه وجد فيها نوعا من التنظيم الاقتصادى أو وجد أنها الطريقة المثلى لتنشئة الأطفال .

إنما نقول إن الله العليم الخبير الذى يعلم أن الأسرة هى التى تحقق التنشئة السليمة للأطفال حين تتخصص الأم فيها لهذه المهمة الخطيرة ، قد جعل الحنين إلى تكوين الأسرة جزءا من الفطرة ، تشعر فيها بالسكن والسكينة ، وتشعر فى خارجها بالقلق وفقدان السكينة ولو حققت كل مطالب الجنس وكل الاكتفاء الاقتصادى : ثم نظم سبحانه وتعالى العلاقات الاقتصادية داخل الأسرة بحيث تكون المرأة مكفولة كفالة كاملة دون أن تحتاج إلى العمل خارج البيت، لكى تستطيع التفرغ لمهمتها الأصلية ، فكلف الرجل بإعالتها - لا تفضلا ولكن تكليفا - وكلفها هى رعاية شؤون البيت والأطفال ، ثم جعل فى فطرة كل

١ . انظر كتاب « اطعلا بلا اسر » لانا فرويد ، وانظر نتائج المؤتمرات التى تعقد فى امريكا وغرب أوروبا لدراسة ظاهرة جنوح الأحداث

منهما وتركيبه العصبى والنفسى ميلا لهذا التكليف وقدرة عليه ، وشعورا بتحقيق الذات عن طريقه .

ذلك هو الوضع السليم للأسرة كما أنشأها الله .

فاما الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق فيكروهون أن يستمعوا لهذا القول ويشتمزون منه بدعوى أنه كلام غير علمى !

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . وإذا ذكر

الذين من دونه إذا هم يستبشرون » « ١ »

فيقول دوركايم : « ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان ، وبأن هذا الأخير مزود بمجد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف ، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو . ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان » « ٢ » .

متى أوقفنا التاريخ على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان . وكيف أوقفنا على ذلك ؟! أم لهم تاريخ سرى غير التاريخ العلنى الذى يعرفه جميع الناس . ويعرفون فيه أن هذه الأشياء كلها مركوزة فى الفطرة ؟!

ويقول التفسير المادى للتاريخ إن الأسرة بحجمها وتبعاتها ووظائفها وعلاقاتها هى مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى ، ومن ثم فهى « تتطور » تطورا حتميا يمكن أن يقضى بها إلى الزوال !

والتجربة الواقعية تعيننا عن الخوض فى النظريات . فالنظريات تظل نظريات حتى يصدقها الواقع أو يكذبها . وما يقوله دوركايم أو التفسير المادى للتاريخ أقل فى الحقيقة من أن يسمى نظرية ، لأنه فرض معتسف لا دليل عليه من الواقع . ولكن حتى لو كان يرتقى إلى حد أن يكون نظرية فهذا هو واقع الجاهلية المعاصرة يكتبه .

فالرجل والمرأة كلاهما فى الجاهلية المعاصرة يحققان كل ما يخطر على بالهما من متاع الجنس بلا قيود . لا قيود خلقية ولا قيود اجتماعية ولا قيود قانونية ولا قيود فكرية . ثم إنهما يحققان وجودهما الاقتصادى كل على حدته ، فالرجل

« ١ » سورة الزمر [٤٥]

« ٢ » كتاب « قواعد المبعج فى علم الاجتماع » ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى الطبعة الثانية ص ١٧٣ .

يتكسب والمرأة تتكسب ، ويتولى كل منهما الانفاق على نفسه وعلى بهيمية الجنس التى يمارسها من كسبه الخاص دون حاجة إلى المعونة الاقتصادية من الآخر ، ومن ثم يتأخران كثيرا جدا فى الزواج وتكوين الأسرة ، أو يلغيان ذلك من حسابهما إلغاء كاملا ، ويعيشان فى حالة « صداقة » مستمرة، أى فى حالة مخادنة غير مقيدة بالرباط المقدس ، أو فى حالة فوضى جنسية لا ترتبط حتى برباط المخادنة غير المقدس .

فلماذا لا يستريح الرجل ولا المرأة إلى هذه الأوضاع التى تحقق كل مطالب الجنس وكل مطالب الاقتصاد ؟! بل لماذا يشقى الرجل والمرأة كلاهما ويبدو الشقاء فى صورة الاضطرابات العصبية والنفسية والقلق والجنون والانتحار وإدمان الخمر وإدمان المخدرات ؟

الجواب عندنا هو أن الرجل والمرأة كليهما قد فقدوا السكن والسكينة اللذين جعلهما الله فى الأسرة ولم يجعلهما فى أية علاقة خارج الأسرة، ولو حققت كل مطالب الجنس وكل مطالب الاقتصاد .

فمن لم يعجبه هذا الجواب واشمأزت نفسه منه لأنه يذكر الله وحده وفطرة الله وحدها ومنهج الله وحده ، فليأت من عنده بالجواب الذى يريد ، ولكن عليه بالبرهان ، لا أن يطلق الدعوى بلا دليل على طريقة دور كايم أو على طريقة التفسير المادى للتاريخ !

« قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » « ١ »

« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » « ٢ »

فهذا - وحده - هو المنهج العلمى الصحيح .

٣ - الشيوعية الأولى :

يزعم التفسير المادى للتاريخ أن الشيوعية كانت هى الطور الأول للبشرية ، وأنها كانت شيوعية شاملة ، تتمثل كل نواحي الحياة البشرية بما فى ذلك الجنس ، فكانت القبائل البشرية الأولى تعيش فى حالة من المشاعية الجنسية الكاملة ، مع مشاعية الأرض ومشاعية الطعام .. الخ .
ودليلهم على وجود الشيوعية الأولى - بهذه الصورة - هو ما اكتشف فى

١ سورة الأنعام [١٤٨]

٢ سورة النقره [١١١]

القرنين الماضيين من أحوال القبائل البدائية التي كانت تعيش في أفريقيا وآسيا وأستراليا منعزلة تماما عن تيار المدينة لا يعرفون شيئا عن العالم من حولهم ، ولا يعرف العالم شيئا عنهم . فقد وجدوا تلك القبائل تعيش عيشة جماعية .. أرض القبيلة ملك مشترك لها جميعا لا ينفرد فيها أحد بملكية خاصة ، والطعام مشترك بينهم سواء كان صيدا برياً أو بحرياً أو غير ذلك ، يطهى للقبيلة كلها وتآكل منه القبيلة كلها دفعة واحدة . وأسلحة الصيد والحرب ملك للقبيلة كلها كذلك . وقال فريزر - وهو مرجعهم الأكبر فيما زعموا من أحوال البشرية الأولى - إنه اكتشفت بعض القبائل تمارس ألوانا من الشيوعية الجنسية ، إما كل النساء لكل الرجال على المشاع ، وإما مجموعة معينة من النساء لمجموعة معينة من الرجال داخل القبيلة الواحدة .

ونستطيع أن نتصور بالفعل - على ضوء أحوال هذه القبائل التي اكتشفت في القرنين الأخيرين - أن حياة القبائل الأولى كان فيها قدر كبير من المشاركة الجماعية في المسكن والمطعم وأدوات الصيد وأدوات الحرب . ففي النظام القبلي تكون القبيلة هي « الوحدة » التي يعيش الأفراد في داخلها ، ويمارسون الحياة من خلالها . وفي وقت متأخر جدا من بداوة البشرية - وقت كانت قد قامت فيه « حضارات » كثيرة في بقاع مختلفة من الأرض - كان الشاعر العربي يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت

غويت ، وإن ترشد غزية أرشد !

فيعبر بذلك عن انسياحه الكامل في القبيلة وعدم استقلاله بذاتيته حتى مع علمه أن قبيلته تكون أحيانا على الرشد وأحيانا على الغي ، وليست راشدة في جميع أحوالها .

فإذا كان هذا في حياة العرب قبيل الإسلام ، فلنا أن نتصور أن القبائل التي وجدت في تاريخ سابق على ذلك كثيرا كانت على ذات الصورة من التمرکز في القبيلة ، وانسياح كيان الأفراد في كيان القبيلة الكلي في السلم والحرب والرشد والغي على السواء !

فإذا أضفنا إلى ذلك أنه في بداوة البشرية الأولى لم يكن هناك شيء يمتلك - إلا القليل النادر - أمكننا أن نتصور كذلك أن الملكية الفردية لم تكن قائمة في ذلك

العهد السحيق على صورتها التى قامت فيما بعد .

فالخيام - إن كانوا من ساكنى الخيام - يسكنها مجموع افراد القبيلة ويتعارفون فيما بينهم على أن فلانا يسكن فى هذه الخيمة وفلانا الآخر يسكن فى تلك . ولكن شعور كل فرد من أفراد القبيلة لا يتجه إلى ملكيته الخاصة للخيمة ، إنما يتجه إلى اعتبار مجموع الخيام كلها ملكا للقبيلة بأجمعها ، فيقول فى نفسه : هذه خيام قبيلتى ! لأن الوحدة يومئذ ليست هى الفرد إنما هى القبيلة ، والفرد لا يمارس حياته فردا إنما يمارسها من خلال القبيلة . فيتحدث - حين يتحدث - بضمير الجمع ، فيقول : ذهبنا وجئنا وصنعنا كذا وكذا .. لأن هذه الاعمال كلها تتم بالفعل بصورة جماعية .

كذلك الطعام لا تتصور فيه الملكية الفردية فى ذلك العهد السحيق .

فالطعام فى غالبية صيد ، سواء كان صيد بر أو بحر ، والصيد يحتاج إلى مجموعة من الأفراد تقوم به - من الشباب بصفة خاصة - ولا يقدر عليه فرد واحد . فإذا جاء الصيد وتم طهيه على يد المختصين - أو المختصات - فى القبيلة ، فعندئذ تتجمع الوحدة التى يمارس الأفراد من خلالها وجودهم فتتناول وجبة الطعام الجماعية ، ثم يلقى الباقي - إن بقى منه شيء - لأنه إن بقى ينتن ولا يصلح للطعام ، فلم تكن وسائل الحفظ قد اكتشفت فى ذلك العهد السحيق من بدادة البشرية .

ومن أجل كون الوحدة هى القبيلة وليست الفرد - وهو اصل نفسى واجتماعى وليس اقتصاديا بحتا - فإن القبيلة كلها تدخل فى السلم أو تدخل فى الحرب ، فلا يتصور كذلك أن تكون هناك ملكية خاصة للسلاح داخل القبيلة ، لأنه لا يستخدم إلا بصورة جماعية من خلال تلك الوحدة التى يمارس الأفراد من خلالها نشاطهم كله . فإذا تصورنا أن السلاح كله - رماحا أو سهاماً أو عصيا أو ما أشبه - يوضع فى مخزن واحد مشترك ، وأنه حين ينادى على الحرب وتندق طبولها يهرع المقاتلون من أفراد القبيلة إلى ذلك المخزن المشترك فيتناول كل منهم نصيبه من السلاح ، حتى إذا عادوا أعادوا السلاح إلى موضعه المشترك .. إذا تصورنا ذلك فلا نكون بعيدى عن الصواب . وحتى لو تصورنا أن شخصية الفرد قد نمت فى داخل القبيلة شيئاً من النمو فى عهد متأخر فصار له سلاحه المستقل ، فإنه لن يستخدمه إلا باذن من القبيلة ، وفى المواضع التى توجهه إليها القبيلة فحسب .

اما الشيوعية الجنسية والمساواة الكاملة والحالة الملائكية المزعومة التي توصف بها الشيوعية الأولى فمسألة لايقوم عليها الدليل !

كل دليلهم بالنسبة للشيوعية الجنسية هو ما رواه الرحالة المكتشفون من وجود أنواع منها في تلك القبائل التي اكتشفت في افريقيا وآسيا وأستراليا على حالة بدائية بعيدة عن كل صور المدنية .

ولنسلم جدلاً بصحة كل ما رواه أولئك الرحالة ، وأنهم وصفوا الحقيقة كاملة بغير تهويل ولا تزيف .. فما دلالة روايتهم ؟

بعض القبائل لاكلها ، وجدت فيها أنواع مختلفة من الشيوعية الجنسية لا نوع واحد محدد . فهل يصلح هذا دليلاً على أن كل القبائل التي عاشت في بدو البشريّة مارست الشيوعية الجنسية الكاملة ؟!

إننا نؤمن بادئ ذي بدء بأن الله أرسل هداة من البشر ينظمون لأقوامهم طرائق معيشتهم بمقتضى الوحي الرباني الذي أخبر عنه آدم وحواء يوم سكنا هذه الأرض ، وأن بعض الناس آمنوا واهتدوا وبعضهم تنكب الطريق :

« قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ١ .

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » ٢ .

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » ٣ .

فليس البشر كلهم أمة واحدة على الهدى ولا على الضلال .

ولكن الشيوعيين لا يؤمنون بالله ولا برسله ولا بوحيه .. فلننظر في أدلتهم العلمية الموضوعية !

لو وجدنا كل القبائل المتأخرة المنعزلة عن العمران تمارس لونا واحداً من المشاعية الجنسية لقلنا إنه ربما كان هذا هو الحال الذي كانت عليه البشرية في أول عهدها ، ولم نقطع مع ذلك بأن هذا أمر يقيني . لأن الشذوذ والانحراف يطرأ دائماً على الناس في أثناء مسيرتهم التاريخية ، ولا يدل وجوده في أي جيل على أنه كان موجوداً في أجيال سابقة .

١ . سورة البقرة [٢٨ - ٢٩]

٢ . سورة فاطر [٢٤]

٣ . سورة النحل [٣٦]

الم تقع الفاحشة الشاذة من قوم لوط غير مسبوقه ؟ فهل نقول إن وجودها وتفشيها في قوم لوط دليل على أنها وجدت منذ أول البشرية ووجدت على سبيل الشمول !^٩

وهب أن إنسانا بعد مائة عام أو ألف عام قلب في صحف القرن العشرين فوجد صور النساء العاريات في الشواطئ وفي الشوارع وفي البيوت ، وقرأ عن التمثيليات التي تمارس فيها العملية الجنسية كاملة على المسرح وتنقلها شاشة التلفزيون ، فحكم بناء على ذلك بأن العرى أصل من أصول البشرية ، وأن الممارسة العلنية للجنس هي الأصل الذي مارسه البشرية في تاريخها كله ..
أيكون هذا استدلالا « علميا » موضوعيا تبني عليه نظريات علمية لتفسير السلوك البشرى !^٩

كذلك قصة القبائل المتأخرة التي عثر عليها في مختلف بقاع الأرض ، لا تدل ممارستها للشيوعية الجنسية على أن هذا هو الأصل الذي كانت عليه البشرية في بداوتها ، ولو كانت كلها تمارس تلك الشيوعية ، فما بال إذا كان الواقع أن بعضها فقط هو الذي يمارس الشيوعية وبعضها لا يمارسها ؟ وما بال إذا كانت القبائل التي تمارسها لا تمارسها على صورة واحدة ؟!

إنما لجأ الشيوعيون إلى اعتساف الدليل ، والزعم بأن الشيوعية الجنسية كانت قائمة في البشرية الأولى ، لأنهم كانوا في مبدأ أمرهم يروجون لهذه الشيوعية في نظرياتهم وتطبيقاتهم ، ويريدون أن يجعلوها قاعدة الحياة عندهم ، ترغيبا « للزبائن » من الشباب الذي يعاني الحرمان الجنسي لأي سبب من الأسباب ! فلما رأوا فيما بعد أن هذا الأمر يستغل في الدعاية ضدهم والتنفير منهم عادوا فعدلوا النظرية وإن كانوا لم يعدلوا تعديلا جوهريا في التطبيق ، واحتجوا - كأنما ذلك يعطيهم الحجة - بأن الشيوعية الجنسية قائمة على نطاق واسع في المجتمع الرأسمالي ! يقول البيان الشيوعي الذي أصدره ماركس وإنجلز :

« ليست بالشيوعيين حاجة إلى إدخال إشاعة النساء فهي تقريبا كانت دائما موجودة . ولا يكتفي البرجوازيين بأن تكون تحت تصرفهم نساء البرولتاريين وبناتهم - هذا عدا البغاء الرسمي - بل يجدون لذة خاصة في إغواء بعضهم لنساء بعض .

« ليس الزواج البرجوازي في الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات »

وهو حق يراد به باطل ! فوجود الشيوعية الجنسية في المجتمع الرأسمالي الذي اشرف اليهود على توجيهه حقيقة واقعة . ولكن وجودها ليس حجة لمن يريد لها أن تستمر ، وخاصة إذا كان من « الثائرين » على النظام الرأسمالي ، الذين يريدون - بالثورة الدموية - أن يعدلوا ما ينطوى عليه من الفساد ! إلا أن يكون هذا اللون من الفساد مطلوباً بالذات . يراد الإبقاء عليه وترويجه - وتلك هي الحقيقة - فعندئذ تعتسف له الأدلة وتقام له الأسانيد ! ولكنها أسانيد باطلة لا تثبت للتمحيص العلمي .

وأما المساواة الكاملة والحياة الملائكية التي يصفون بها الشيوعية الأولى فأمر كذلك يعوزه الدليل .

فالمعروف أن شيخ القبيلة - على الأقل - شخص متميز في كل أموره وأوضاعه ، بما في ذلك ملبسه الذي يميزه عن أفراد قبيلته للوهلة الأولى إذ لا بد أن يتميز ولو بريشة زائدة يضعها على رأسه، يعرف منها القريب والبعيد أنه هو الرئيس الذي تقدم له فروض التوقير والاحترام . والريشة مجرد رمز ، ولكنها ترمز إلى تمييز حقيقي واسع المدى بين شيخ القبيلة وبقية أفرادها . وسواء كان التمييز قائماً على القوة الجسدية أو الخبرة والحكمة وبعد النظر ، أو السن ، أو الشجاعة وحسن البلاء في الحرب ، فإن شيخ القبيلة يتمتع دائماً بمكانة متفردة ، وغالباً ما يتمتع كذلك بعدد أكبر من النساء !

ثم إن الشبان الأقوياء من القبيلة ، أو الماهرين في الصيد أو الشجعان في الحرب لا بد أن يتميزوا بحكم الأمر الواقع ، أي بحكم مواهبهم ، وتكون لهم عند شيخ القبيلة منزلة خاصة ، ومن حقه أن يمنحهم من الامتيازات ما يشاء ، فإرادته أمر ، وأمره مطاع !

والزعم بأنه لا توجد امتيازات ولا فوارق في تلك الحياة البدائية لمجرد عدم وجود ملكية فردية زعم يكذبه الواقع المشهود من أحوال القبائل ذاتها التي يستمدون منها أدلتهم ! فلماذا يأخذون الدليل التعسفي حين يريدون ، ويتركون الدليل الواضح حين يكون مخالفاً لأهوائهم ومزاعمهم ؟ إننا نستدل من أحوال هذه القبائل - إذا أردنا استمداد الأدلة منها - على أن المساواة ليست أصلاً من أصول الحياة البشرية، وأن الأصل هو التمايز بين الناس

باختلاف مواهبهم ، سواء كان تمايزا عادلا - أى قائما على مسببات صحيحة - كما يحدث في المجتمعات المستقيمة - أى المهتدية بالهدى الربانى - أو كان تمايزا ظالما كما يحدث في المجتمعات الجاهلية كلها بلا استثناء .

إنما يتعسفون في إنكار الدليل الواضح في هذه القضية لأنهم يريدون تحقيق هدفين على الأقل بإعلان مبدأ المساواة ، الأول هو ترغيب « الزبائن » من المقهورين المغلوبين على أمرهم في مجتمعاتهم - وهم الكثرة الكاثرة من أفراد الشعب - ليقبلوا على الشيوعية ويعتقوها ، فزعموا لهم أنهم سيطبقون المساواة الكاملة في مجتمعهم الشيوعى : وسندوا هذا الزعم بأن المساواة هى الشأن الطبيعى في الشيوعية ، سواء الشيوعية الأولى أو الآخرة !

والهدف الثانى أنهم - لأمر في مخططهم - كانوا يسعون إلى نزع الملكية الفردية جميعا فزعموا للناس أن الأصل في البشرية هو المساواة المطلقة في كل شيء، وأن الذى أفسد المساواة هو الملكية الفردية . وأنهم سيلغون الملكية الفردية لتحقيق المساواة في مجتمعهم الملائكى الجديد . « ١ »

وإيا كانت أهدافهم الظاهرة أو الخفية فليس هناك سند علمى لوجود المساواة المطلقة في الشيوعية الأولى ، على فرض وجود تلك الشيوعية بالصورة التى يصفونها !

وأما الصورة الملائكية في تلك الشيوعية الأولى فلم يأتوا لها بسند على الإطلاق .

وما بنا من حاجة إلى مناقشة دعوى لا يقوم عليها دليل !
إنما عليهم أن يثبتوا - إن استطاعوا - أنه لم تقع منافسات بين شباب القبيلة الواحدة على الحظوة بالمنزلة الخاصة عند شيخ القبيلة وما يترتب على ذلك من امتيازات . وأنه لم تقع منافسات ومشاجرات تؤدى إلى القتال أحيانا بين شباب القبيلة على « امتلاك » امرأة معينة لأنها في نظر المتقاتلين عليها أجمل من غيرها من النساء .

ثم عليهم أن يثبتوا أخيرا أن الحروب لم تكن تقع بين بعض القبائل وبعض ، وأنها كانت تعيش في حالة من الإخاء والسلام والمحبة كما يعيش الملائكة الأظهار !

١ . سبرى عند مناقشة التطبيق الواقعى للشيوعية أنهم عجزوا عن تحقيق المساواة الكاملة متراجعوا عنها . وعللوا تراجعهم بأنهم ما زالوا في مرحلة الاشتراكية ولم يصلوا إلى التطبيق الشيوعى بعد .

فإن لم يثبتوا ذلك - ولن يثبتوه - فنحن نقول إن أحوال القبائل كما رواها التاريخ ، وكما ظهرت في القبائل المكتشفة في القرنين الماضيين هي حياة التنافس الدائم والتنازع الدائم والصراع .. فلماذا نترك دلالة الواقع ونرسم صورة من الخيال ؟!

إنما أرادوا - كما أسلفنا - أن ينزعوا الملكية الفردية جميعا ويركزوا الملكية في يد الدولة التي يسيطرون هم عليها في واقع الأمر ، فزعموا للناس أن المصائب كلها نشأت من الملكية الفردية بعد زوال الشيوعية الأولى ذات الطابع الملائكي ، وأنهم عائدون بالبشرية إلى ملائكتيتها المفقودة بنزع الملكية الفردية جميعا في الشيوعية الثانية ! وذلك ترغيبا « للزبائن » المحرومين من الملك ، الحاقدين على الملك - وهم أكثرية الناس في المجتمعات الإقطاعية والرأسمالية - حتى يعتنقوا الشيوعية ويؤازروها ، ويكونوا مددا لها وسندا في كل مكان في الأرض !

٤ - الملكية الفردية .

أشرنا فيما سلف أكثر من إشارة إلى قضية الملكية الفردية ووضعها في التفسير المادى للتاريخ . ومع ذلك أفردنا لها حديثا خاصا لشدة أهميتها سواء في التصور المادى أو في التطبيق الشيوعى .

يرى أصحاب التفسير المادى للتاريخ أن الملكية الفردية هي سبب كل الشرور التي حلت بالبشرية منذ خروجها من مرحلة الشيوعية الأولى إلى أن تعود الشيوعية الثانية فتلغيها وتلغى معها الشرور الناشئة عنها . وينشأ الشر من أن الذى يملك هو الذى يحكم ، وحين يحكم فإنه يضع التشريعات التي تخدم مصالحه ومصالح طبقته على حساب بقية الطبقات .

ويرى الماديون كذلك أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية بدليل فترة الشيوعية الأولى التي لم تكن فيها ملكية فردية . إنما هي أمر مكتسب ، اكتسبته البشرية بعد أن اكتشفت (أو تعلمت) الزراعة ، حيث أدى ذلك إلى انتهاء فترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتى الرق والاقطاع . ثم لما تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية صناعية رأسمالية دخلت البشرية مرحلة الرأسمالية .

ويرون أن الصراع الطبقي الذى يدور عليه تاريخ البشرية كله فيما بين الشيوعية الأولى والشيوعية الأخيرة قائم كله على الملكية الفردية ومتعلق بها ،

وأن هذا الصراع لا يزول من الأرض إلا بإزالة السبب المتعلق به أى إزالة الملكية الفردية فى جميع صورها .

بعض هذا الذى يراه أصحاب التفسير المادى للتاريخ صحيح ولا شك ، ولكن صحته قائمة فى نطاق محدد لا تتعداه إلى التعميم المطلق ، وفضلا عن ذلك فإن المغالطات والأوهام حول الملكية الفردية أكثر بكثير من الحقائق الواردة حولها مع كون هذه الأخيرة محددة فى نطاق معين وليست مطلقة الصحة فى جميع الحالات .

فكون الذى يملك هو الذى يحكم ، وكونه حين يحكم يشرع لصالحه وصالح طبقته على حساب بقية الطبقات .. هذا صحيح صحة كاملة ، ولكن فى نطاق الجاهليات وحدها التى تحكم بشرائع البشر ولا تحكم بشريعة الله .

وحقيقة أن الجاهليات تحتل القسم الأكبر من التاريخ البشرى^١ ولكن وجود نظام إيمانى تحكم فيه شريعة الله بدلا من شرائع البشر حقيقة مرضوعية . والأمانة العلمية تقتضى استثناءه من القاعدة العامة التى يضعها التفسير المادى للتاريخ . ولو أن التفسير المادى للتاريخ وضع هذا الاستثناء وأشار إليه ما كان لنا عليه اعتراض فى هذه النقطة بالذات (وإن كانت لنا عليه اعتراضات فى مواضع أخرى أشرنا إلى بعضها فى حينها ونشير إلى بعضها الآخر فيما بعد) فتاريخ الجاهليات بالفعل تاريخ ظالم شديد الظلم، يتقسم فيه الناس دائما إلى سادة وعبيد ، سادة يملكون ويحكمون ويشرعون ، وعبيد لا يملكون شيئا ولا يحكمون ولا يشرعون ، إنما تقع على عاتقهم الأعباء التى يلقيها عليهم الحاكمون .

وانقسام المجتمع إلى سادة وعبيد (أو إلى الذين استكبروا والذين استضعفوا كما جاء فى القرآن الكريم) يتصل بالفعل بقضية الملكية الفردية ، ولكن حصره فى هذه القضية ، أو فى النطاق المادى والاقتصادى بصفة عامة هو حجب للحقيقة الأصلية التى تنشأ عنها تلك الحقيقة الفرعية التى يركز عليها التفسير المادى للتاريخ .

الحقيقة الأصلية التى لا يحب الماديون ذكرها على الإطلاق، ولا يؤمنون بها كذلك ، هى قضية الألوهية وقضية العبودية قضية الإله وما ينبغى له على عباده ، والعباد وما ينبغى عليهم تجاه إلههم وحالقهم ، تم ما يترتب على مخالفة

فإن لم يثبتوا ذلك - ولن يثبتوه - فنحن نقول إن أحوال القبائل كما رواها التاريخ ، وكما ظهرت في القبائل المكتشفة في القرنين الماضيين هي حياة التنافس الدائم والتنازع الدائم والصراع .. فلماذا نترك دلالة الواقع ونرسم صورة من الخيال ؟!

إنما أرادوا - كما أسلفنا - أن ينزعوا الملكية الفردية جميعا ويركزوا الملكية في يد الدولة التي يسيطرون هم عليها في واقع الأمر ، فزعموا للناس أن المصائب كلها نشأت من الملكية الفردية بعد زوال الشيوعية الأولى ذات الطابع الملائكي ، وأنهم عائدون بالبشرية إلى ملائكتها المفقودة بنزع الملكية الفردية جميعا في الشيوعية الثانية ؛ وذلك ترغيبا « للزبائن » المحرومين من الملك ، الحاقدين على الملوك - وهم أكثرية الناس في المجتمعات الإقطاعية والرأسمالية - حتى يعتنقوا الشيوعية ويؤازروها ، ويكونوا مددا لها وسندا في كل مكان في الأرض !

٤ - الملكية الفردية :

أشرنا فيما سلف أكثر من إشارة إلى قضية الملكية الفردية ووضعها في التفسير المادى للتاريخ . ومع ذلك أفردنا لها حديثا خاصا لشدة أهميتها سواء في التصور المادى أو في التطبيق الشيوعى .

يرى أصحاب التفسير المادى للتاريخ أن الملكية الفردية هي سبب كل الشرور التي حلت بالبشرية منذ خروجها من مرحلة الشيوعية الأولى إلى أن تعود الشيوعية الثانية فتلغيها وتلغى معها الشرور الناشئة عنها . وينشأ الشر من أن الذى يملك هو الذى يحكم ، وحين يحكم فإنه يضع التشريعات التي تخدم مصالحه ومصالح طبقته على حساب بقية الطبقات .

ويرى الماديون كذلك أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية بدليل فترة الشيوعية الأولى التي لم تكن فيها ملكية فردية . إنما هي أمر مكتسب ، اكتسبته البشرية بعد أن اكتشفت (أو تعلمت) الزراعة ، حيث أدى ذلك إلى انتهاء فترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتى الرق والاقطاع . ثم لما تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية صناعية رأسمالية دخلت البشرية مرحلة الرأسمالية .

ويرون أن الصراع الطبقي الذى يدور عليه تاريخ البشرية كله فيما بين الشيوعية الأولى والشيوعية الأخيرة قائم كله على الملكية الفردية ومتعلق بها ،

ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » « ١ » فاحتج عدى بن حاتم على الشق الخاص بعبادة الأحرار والرهبان فقال : يا رسول الله ما عبدوهم ' قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم يحلوا لهم الحرام فأحلوه ، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه " قال بلى ' قال . فتلك عبادتهم إياهم '

وحين يخرج الناس على عبادة الله فإنهم يخرجون على مقتضى عبوديتهم ، فيصيبهم جزاء ذلك الخروج خبالاً في الدنيا وجحيماً في الآخرة .

وخبال الدنيا هو انقسام المجتمع إلى فريقى السادة والعبيد . السادة يملكون ويحكمون ويشرعون من عند أنفسهم، فتكون تشريعاتهم لصالح أنفسهم على حساب العبيد . والعبيد - الذين رضوا بالعبودية لغير الله فأصبحوا عبيداً للبشر مثله - تقع عليهم التكاليف ويقع عليهم الظلم ويقع عليهم الحرمان . ومن ثم تكون الملكية الفردية وبالا في الجاهلية . لا لأنها بطبيعتها كذلك .. ولكنها لأنها تصبح عندئذ أداة الظلم التى تمكن للسادة في جعل أنفسهم أرباباً للعبيد .

والسادة والعبيد كلاهما في الجاهلية قد رفضوا العبودية لله فتلقفتهم الشياطين : وجزأؤهم في الآخرة جهنم وبئس القرار . أما في الدنيا فيستمتع السادة متاع الحيوان :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » « ٢ »

أما العبيد - أى الذين لا يملكون - فلهم ذات الجزاء في الآخرة لأنهم نكلوا عن عبادة الله ورضوا بعبادة العبيد ، وفي الوقت ذاته لهم في الدنيا البؤس والشقاء والظلم يتجرعون جزاء رضاهم باستعباد أنفسهم لأولئك الأرباب من دون الله .

أما حين يستقيم الناس على أمر الله ، فيعبدونه وحده بلا شريك ، ويرفضون العبودية لأحد مع الله أو من دون الله ، أى يرفضون التوجه بشعائر التعبد لغير الله ، ويرفضون أن يتلقوا التشريع من عند أحد غير الله ، فعندئذ يكونون قائمين

١ . سورة التوبة [٢١]

٢ . سورة محمد [١٢]

بمقتضى عبوديتهم لله الحق ، فيصيبهم جزاء ذلك بركة في حياتهم في الدنيا ورضوانا من الله في الآخرة .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ١ «

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل عليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » ٢ « .

ومن البركات التى تصيبهم في الدنيا نجاتهم من أن يكونوا عبيدا للأرباب الزائفة في الأرض ، وشعورهم بالعزة الحقيقية التى يستمدونها من الاستعلاء بالإيمان ، فلا تذلل نفوسهم لطغاة الأرض، ولا يسمحون لأحد أن يجعل من نفسه ربا يشرع بغير ما أنزل الله ، لأنهم يستمدون العزة والقوة ممن هو أكبر منهم وأعلى ... الله أكبر .

ومن البركات كذلك الرخاء الذى يسبغه الله على الأرض المؤمنة من خيرات السماء التى يفيضها عليهم ، ومن تكافل الأمة المؤمنة فيما بينها ، فلا يستمتع فريق بالخيرات وحده ويظل فريق في الحرمان .

وعندئذ توجد الملكية الفردية ولا يوجد معها الظلم والشر الذى يصاحبها في الجاهلية . لأن الذى يملك هنا لا يحكم ، أى لا يضع تشريعات من عنده يصوغها لمصلحته على حساب الآخرين .. إنما تكون الحاكمية لله ، هو الذى يحل ، حر ، وهو الذى يضع التشريعات التى يخضع لها الحاكم والمحكوم سواء ، والتى يتوفر فيها العدل الحقيقى لأنها منزلة من عند رب الجميع الذى لا يحابى أحدا من البشر على حساب أحد .

وقد تقع المظالم في ظل المنهج الربانى من سوء التطبيق لما أنزل الله ، ومن جور الحكام الذى يحدث من عصيانهم لله ، وحكمهم في بعض القضايا بغير ما أنزل الله ، وإن كانوا لا يضعون تشريعات من عند أنفسهم تخالف ما أنزل الله ، ولا يجعلون مخالفاتهم تشريعا يلزمون به الناس، وإلا لكفروا بذلك كفرا صريحا وخربجوا من ملة الاسلام . وعندئذ نلاحظ أمرين هامين : الأول : أن حجم الظلم

١٠ . سورة الاعراف [٩٦]
٢٠ . سورة المائدة [٦٥ - ٦٦]

الذى يقع على مجموع الأمة أقل بكثير من الظلم الذى يقع فى الجاهليات التى لا تحكم بما أنزل الله ، والثانى . ان الأمة مطالبة بكف هذا الظلم ومنعه من الاستمرار، وإلا فهم أثمون فى حق الله ، كما أنهم أثمون فى حق أنفسهم « ما من نبي بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف من بعد ذلك خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدكم ببيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » « ١ »

وهكذا يتبدى لنا أن الشر لا ينجم من الملكية الفردية فى ذاتها ، فىكون العلاج هو بترها من منبعها ، إنما ينجم من طبيعة الجاهلية التى لا تحكم بما أنزل الله ، فىكون العلاج هو القضاء على الجاهلية وتحكيم شريعة الله ، وعندئذ تبقى الملكية الفردية التى شرعها الله لتستجيب للفطرة التى خلفها الله . تبقى على النحو الذى شرعه الله ، وبالحدود والضوابط التى أنزلها الله .. ولا ينشأ الظلم الذى حرّمه الله !

* * *

وقد أقفل الماديون كل باب للإصلاح ، وقالوا لا إصلاح على الإطلاق إلا بإلغاء الملكية الفردية إلغاءً باتاً لا هوادة فيه ، فلما قيل لهم إن ذلك مضاد للفطرة ردوا - « علمياً » كعهدهم فى كل شئ - فقالوا أولاً إن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية ، وإنما هى مكتسبة ، وقالوا ثانياً : إنه لا توجد « فطرة » إنما تنشأ المشاعر والأفكار والمواقف انعكاساً من الوضع المادى وتبعاً له ، ولا شئ منها ثابت على الإطلاق !

وبصرف النظر عن التناقض الضمنى بين القول الأول والثانى ، لأن الأول يتضمن الاعتراف بوجود نزعات فطرية فى النفس البشرية وإن نفى الملكية الفردية من بينها ، والثانى ينفى وجود نزعات فطرية على الإطلاق .. بصرف النظر عن هذا التناقض نقول إن ادعاءهم بأن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية هو مجرد ادعاء ليس عليه دليل علمى واحد .. إلا ذلك الدليل « غير العلمى » وهو وجود الشيوعية الأولى . التى افترضوها كأنها حقيقة مؤكدة ثم راحوا يستنبطون منها كل ما يراود مزاجهم من التصورات والتطبيقات، سواء فى نزع

الملكية الفردية أو في إباحة الفوضى الجنسية وتفتيت الأسرة أو في غير ذلك من المجالات .

ولقد ناقشنا تلك الشيوعية من قبل : ورأينا أولا أنه لا يوجد دليل يقيني عليها ، ورأينا ثانيا أن أوصافها المزعومة ليست كلها منطبقة على المصدر الذي استمدوا منه كل افتراضاتهم، وهو القبائل المنعزلة التي عثر عليها في العهود الأخيرة ، ولا على ما هو معلوم عن أحوال القبائل القديمة من سجلات التاريخ . ولكننا نفترض أن ما يقولونه صحيح كل الصحة فيما يتعلق بعدم وجود ملكية فردية في الماكل والمسكن لدى القبائل الأولى التي كانت في بداوة البشرية ، فما الدلالة « اليقينية » التي يمكن استنباطها من هذا الوضع ؟

إننا لا نستطيع أن نستنبط من ذلك يقينا أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية ، وذلك من أقوالهم ذاتها ! فهم أنفسهم يقولون إنه بمجرد اكتشاف الزراعة ظهرت الملكية الفردية ! فكيف ظهرت ؟!

إن القول بأن الزراعة هي التي أنشأت الملكية الفردية بذاتها - من عند نفسها لا بدافع من النفس البشرية - هو قول ساذج غبي لا يثبت للبحث العلمي ولوردوده في كل كتبهم بلا استثناء .

إنما الذي يناسب البحث العلمي أن نقول إن الأرض كانت موجودة من قبل ولكنها لم تستثر حاسة الملك عند الناس لأنه لم تكن هناك فائدة تتحقق من امتلاكها ، وبمجرد ظهور الفائدة تحركت الحاسة التي كانت مرجودة من قبل في حالة كمون ، فنشطت وتحركت للعمل .

وقد تكرر هذا في التاريخ أكثر من مرة .

فالحيوانات قبل استئناسها كانت موجودة ، ولكنها لم تستثر حاسة الملك لأنه لا فائدة تتحقق من امتلاكها وهي على تلك الصورة . ولكن بمجرد أن أمكن استئناسها ، وظهرت الفائدة منها ، سعى الناس إلى امتلاكها ملكية قبلية أولا ثم ملكية فردية بعد ذلك حين نمت شخصية الفرد واستقل بوجوده الذاتي عن القبيلة . ولم يكن للزراعة دخل في هذا الأمر على الإطلاق ! إنما يرجع الأمر إلى أصليين كبيرين الأصل الأول : هو وجود الفائدة من التملك أو عدم وجودها ، والأصل الثاني هو درجة النمو الاجتماعي الذي يكون عليه الفرد ، وهل هو فرد في قبيلة أم فرد في تجمع أكبر من القبيلة . فحين يكون فردا في قبيلة تكون القبيلة هي « الوحدة » النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يمارس

الفرد من خلالها وجوده، فلا تكون الملكية للفرد ولكن تكون للقبيلة في مجموعها ، ثم تتناحر القبائل فيما بينها على الملكية إذا كانت الجاهلية هي التي تحكمها . وحين يكون فردا في تجمع أكبر من القبيلة يكون وجوده الفردي أكثر بروزا، إلى أن يصبح فردا في أمة فتكون ذاتيته الفردية في أبرز أوضاعها ، ثم يتناحر الأفراد - من خلال وجودهم الفردي أو وجودهم الطبقي - إذا كانت الجاهلية هي التي تحكمهم .

وعلى ذلك نقول إن الشيعوية الأولى - على فرض وجودها - ليست دليلا يقينيا على عدم وجود نزعة فطرية للتملك ، إنما هي دليل فقط على عدم وجود نشاط ظاهر لهذه النزعة في تلك الفترة ، لأنها نشطت بالفعل بمجرد وجود حوافز تستثيرها .

ونقول ثانيا إن هذه النزعة يمكن أن تذهب إلى درجة عالية جدا تو شك أن تحولها إلى نزعة جماعية كما صنع التهذيب الإسلامي بالأنصار حتى جعلهم يؤثر المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويقتسمون معهم كل ما يملكون من متاع الحياة الدنيا ، حتى قال الله فيهم .

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ١ .

ولكن هذا التهذيب لا يلغى النزعة الفطرية من أساسها، إنما يرفعها إلى أنبل صورها مع الإبقاء على أصلها . ولو كان الله منزل هذا الدين ... الذي هذب النفوس إلى هذا الحد الرفيع، يعلم - سبحانه وتعالى - أن إلغاءها بدلا من إبقائها وتهذيبها أنفع للإنسان، أو أنسب لطبيعته، لشرع سبحانه إلغائها . ولكننا نجد التشريعات كلها والنصوص كلها تؤكد وجودها في فطرة الإنسان ، ولكنها فقط تعمل على تهذيبها إلى أقصى ما يملك البشر من آفاق التهذيب ، وهذا نموذج من النصوص التي تحوى الإثبات والدعوة في ذات الوقت إلى التسامى .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا . والله عنده حسن المآب . قل أوتيتكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري

من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فساغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » ١ « .

فإذا كان الماديون لا يؤمنون بهذا الحديث كله ويشتمنون من ذكره ، فإننا نقول لهم أخيرا إن نزعة الملكية الفردية يمكن أن تقهر قهرا كاملا كما حدث في ظل الشيوعية . ولكن هذا أيضا لا يزيلها من منبتها ! والدليل على ذلك شيئان حدثا في التطبيق الشيوعي ذاته يهدمان النظرية من أساسها ، ويؤكدان أن الملكية الفردية نزعة فطرية أصيلة في النفس البشرية .

الشيء الأول هو تراجع الشيوعيين - في التطبيق - عن مبدأ الإلغاء الصارم للبات لكل نوع من أنواع الملكية الفردية ، الذي بدأوا به حياتهم التطبيقية ، ولجوءهم إلى تملك الأشياء الشخصية، وسماعهم بالعمل الإضافي - بعد أداء وحدة العمل الإجبارية - لمن أراد أن يعمل ، في مقابل أجر إضافي يمكن أن تشتري به أشياء شخصية يمتلكونها مدى حياتهم .

ولولا أن الشيوعيين وجدوا نزعة الملكية الفردية ذات وجود قاهر - رغم كل القهر البوليسي الذي تمارسه الدولة - ما تراجعوا هذا التراجع تحت أى ضغط من الضغوط ، لأنه تراجع عن أصل جذري من أصول النظرية ، يمكن أن يؤثر في النظرية ذاتها على المدى الطويل !

والشيء الثاني هو تناقص الإنتاج الزراعي المتواصل في ظل الملكية الجماعية نتيجة لضعف الحافز إلى العمل !

وقد يسأل سائل : ولماذا حدث ذلك في الإنتاج الزراعي وحده ولم يحدث في الانتاج الصناعي الذي تقدم تقدما كبيرا في ظل « النظام » ؟ ونجيب السائل بأن الإنتاج الصناعي - وخاصة في ظل التكنولوجيا الحديثة - يمكن أن يخضع للرقابة الصارمة ، ويمكن أن يحدد فيه العامل المهمل بدقة متناهية ، لأن عملية الإنتاج ذاتها توزع العمل توزيعا دقيقا على مجموعة العمال الذين يقومون به ، بحيث يقوم كل منهم بعملية واحدة محدودة تتكرر بذاتها مع كل قطعة من قطع الإنتاج .. فيمكن - بسهولة - عند مراجعة الإنتاج أن يعرف العامل المقصر حين يقع تقصير . وعندئذ يقدم لمحاكمة عاجلة ، بتهمة التخريب والخيانة ... الخ ،

وقد يحكم عليه بالإعدام ، وينفذ فيه الحكم فوراً على رؤوس الأشهاد ، نكالا لما بين يديها وما خلفها ، وإرهابا لمن تحدثه نفسه بالتقاعس والإهمال . أما الإنتاج الزراعى فلا يمكن مراقبته وضبطه بهذه الصورة مهما كانت شدة الرقابة وصرامتها .. ولذلك تناقصت الغلة عاما بعد عام ، حتى صارت روسيا - التى كانت من قبل من الدول المصدرة للقمح ، والتى أضيف إليها أوكرانيا ، حقل القمح الخصب فى أوروبا - صارت روسيا هذه تستورد القمح من أمريكا بكميات متزايدة !

ولقد زعموا أن هذا ناشئ من الآفات الزراعية !! ولكن العلاج الذى وضعه خروشوف يكشف عن أن الآفات الزراعية لا علاقة لها بالموضوع ! فإن خروشوف لم يأمر بزيادة الأبحاث الخاصة بوقاية الزروع من الآفات ، ولكنه أمر بإتاحة الملكية الفردية لقسم من المحصول ، وللدار التى يقيم فيها الفلاح ! فظهر جليا أن نقص المحاصيل كان راجعا إلى ضعف الحافز على الإنتاج نتيجة مقاومة الحافز الفردى وقهره ، وأن العلاج هو الاعتراف - ولو جزئيا - لهذا الدافع بحق الوجود !

ويغنيننا هذا عن مزيد من الجدل النظرى الذى لا يصل - مع الماديين - إلى نتيجة !

« وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » « ١ »

* * *

يقيم الماديون تفسيرهم للحياة البشرية على أساس أن الصراع الطبقي هو قوام هذه الحياة منذ خرج الناس من الشيوعية الأولى حتى يعودوا إلى الشيوعية الثانية ، وأن هذا الصراع الطبقي متعلق بالملكية الفردية فلا يزول من الأرض حتى تزال الملكية الفردية .. وبمجرد أن تزول الملكية الفردية يرجع الناس إلى الحياة الملائكية التى كانوا عليها أيام الشيوعية الأولى وتستريح البشرية من الصراع ..

وكما قلنا مع الملكية الفردية نقول مع الصراع الطبقي ..

صحيح ما يقولون .. ولكنها صحة محددة بنطاق معين ، وليست صحة مطلقة ..

صحيح بالنسبة للجاهليات .. ففي الجاهليات يصدق القول بأن الذى يملك هو الذى يحكم ، وحين يحكم يشرع لصالح نفسه وصالح طبقته على حساب بقية الطبقات .. ومن ثم ينشأ صراع بين الطبقات ، ويدور الصراع حول متاع الأرض ، لأن الجاهلية مفتونة أبدا بمتاع الأرض ، ولأنه فى غياب القيم العليا لا يبقى للناس إلا متاع الأرض يتصارعون حوله ويتقاتلون عليه .

أما فى النظام الرأبى فليست هناك - بادئ ذى بدء - طبقات ! ومن ثم فلا يوجد صراع طبقى !

ومن كان فى شك من هذه الحقيقة فليرجع الى تعريف « الطبقة » وتعريف « الصراع الطبقى » عند الماديين أو عند غيرهم سواء .

الطبقة مجموعة من الناس يجمع بينهم وضع اقتصادى معين ومن ثم تجمع بينهم مصالح اقتصادية معينة ، ويشملهم وضع تشريعى معين ، فهم إما الطبقة التى تملك ، ومن ثم فهى التى تحكم . وإما الطبقة التى لا تملك ومن ثم فهى لا تحكم ، وإنما يقع الحكم عليها .

وبيان ذلك من عهد الرق والإقطاع والرأسمالية كالاتى :

فى عهد الرق كان الناس طبقتين رئيسيتين : طبقة السادة وطبقة العبيد . السادة يملكون كل شئ ، ويملكون جميع الامتيازات، والعبيد من بين « الأشياء » التى يملكها السادة ، لآقوق لهم ، والسيد يتصرف فيهم كما يشاء .

وفى عهد الإقطاع فى أوروبا كان الناس ثلاث طبقات رئيسية : طبقة الأشراف (أمراء الإقطاع) وطبقة رجال الدين وطبقة الشعب . وكان الأشراف ورجال الدين متحالفين كأنهما طبقة واحدة ، وكانا يملكان ويحكمان كل فى دائرته واختصاصه ، والشعب لا يملك ولا يحكم، وإنما يقع عليه عبء الطبقتين السالفتين جميعا .

وفى عهد الرأسمالية انقسم الناس إلى طبقتين رئيسيتين : طبقة أصحاب رؤوس الأموال وطبقة العمال . وفى ظاهر الأمر - من خلال مسرحية الديمقراطية والتمثيل النيابى - يبدو أن الشعب - الذى لا يملك - صاحب سلطان ولكن الحقيقة المستترة وراء المسرحية أن الحاكم الحقيقى هو المالك

الحقيقى ، أى أن الطبقة الرأسمالية هى التى تحكم وطبقة العمال هى التى يقع عليها الحكم .

وفى كل مرة من المرات الثلاث كان يثور صراع طبقى بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة ؛ يؤدى إلى تغير مستمر فى الأوضاع . فالصراع الأول حرر عبيد السيد وحولهم إلى عبيد للأرض أو أقنان . والصراع الثانى حرر عبيد الأرض وحولهم إلى عمال صناعيين . وأما الصراع الثالث فقد أدى إلى الشيوعية . وفى الشيوعية تقول النظرية إن طبقة « البروليتاريا » أى الطبقة الكادحة هى التى تملك وتحكم ، وتبديد الطبقات الأخرى جميعا فينتهى الصراع الطبقي بإبادة الأطراف التى يمكن أن تصارع البروليتاريا فى أى وقت من الأوقات .

فى النظام الرأبائى لا يوجد شىء من هذا كله ! حقيقة إنه توجد ملكية فردية ويوجد فى المجتمع أغنياء وفقراء .. ولكن لا الأغنياء طبقة ولا الفقراء طبقة ، ولا هؤلاء ولا هؤلاء يحكمون ! فالثروة فى المجتمع الإسلامى دائمة التنقل من جيل إلى جيل بحيث لا تكون « طبقة » دائمة من أفراد معينين أو أسر معينة تتوارث وضعها اجتماعيا معينا . فأى فقير يمكن أن يتحول إلى غنى ، وأى غنى يمكن أن يتحول إلى فقير ، فلا يحجزه شىء عن أن يكون هذا أو ذاك ، بحسب تصرفه الشخصى من ناحية ، وبسبب حركة الموارد الدائمة التى تفتت الثروة من مكان وتجمعها فى مكان آخر .

ثم إن أى إنسان قد يتسلم السلطة ، ولكنه حين يتسلمها لا يحكم بهواه ، إنما يحكم بشريعة الله ، وهذه تقوم على أن إنسانية الإنسان مستمدة من كونه إنسانا ، لا من كونه غنيا أو فقيرا أو مالكا أو غير مالك ، ثم إنها تطبق على الجميع بصورة واحدة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم محذرا الأمة الإسلامية « إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ١ . وقد يقع الظلم كما قلنا من قبل من سوء التطبيق لشريعة الله . ومن جور

١ « رواه البخارى » .

الحكام الذين يحكمون في بعض الأمور بغير ما أنزل الله ، ولكن يظل الظلم الواقع على مجموع الأمة أقل بكثير مما يقع على الأمم التي لا تحكم بما أنزل الله ، ثم يظل من واجب الأمة المسلمة أن تقاوم الظلم وترد الظالم إلى الصواب ، وإلا فهي آثمة في حق الله كما أنها آثمة في حق نفسها .

وحين يشتد الظلم فيثور المسلمون - وقد حدث هذا أكثر من مرة في التاريخ الإسلامي - فهوليس صراعا « طبقيا » بالمعنى الذي يشير إليه التفسير المادى للتاريخ ، لأنه لا يوجد طبقة تريد الإطاحة بطبقة أخرى لتأخذ مكانها في السلطة والتشريع . إنما يطالب الثائرون بالعدل ، أى بتطبيق شريعة الله في المواضع التي خولفت فيها شريعة الله . وما أبعد هذا عن الصراع الطبقي كما يفهمه التفسير المادى للتاريخ !

إنما يوجد الصراع في النظام الرأباني على أسس مختلفة تماما عن الصراع الطبقي الذي هو محور الحياة في الجاهلية (إن صدقنا التفسير المادى للتاريخ في إرجاعه كل الصراعات في الأرض إلى الصراع الطبقي ، وسنرى الآن أن هذا غير صحيح) .

الصراع الذي أمر الله المؤمنين بخوضه هو هذا الصراع :
« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » « ١ »

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » « ٢ »

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » « ٣ »
صراع لا علاقة له على الإطلاق « بالطبقات » ولا بالملكية الفردية ! إنه صراع الحق والباطل ، الذي يقول الله فيه :
« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت »

١ . سورة البقرة [٢٥١]

٢ . سورة الحج [٤٠ - ٤١]

٣ . سورة الأنفال [٣٩]

فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا « ١ »

وهو صراع لا يتوقف أبدا ما دام هناك حق وباطل .

ونعود إلى التفسير المادى للتاريخ فنجدده يحصر الصراع كله في الصراع الطبقي ، ويحصر أسباب الصراع في الملكية الفردية ، ثم يزعم أن الصراع سيتوقف حين تزول الملكية الفردية ..

وبصرف النظر عن أن دلالة التاريخ تقول إنه قامت في الأرض - سواء في الجاهليات أو في الاسلام - صراعات كثيرة غير قائمة على الصراع الطبقي وغير منبعثة من الملكية الفردية ، فإنه يهملنا في ختام هذه الفقرة أن نكشف عن زيف الدعوى القائلة بأن إلغاء الملكية الفردية سيقضى على الصراع ... فالشيوعية قد ألغت الملكية الفردية ..

فيم إذن قام الصراع بين لنين وتروتسكى ، وبين ستالين وبيريا ، وفيم المؤامرات الدائمة التى يعلن عن تصفيتها والتغلب عليها ، أو تكون نتيجتها الإتيان بزعيم مقدس جديد بدلا من الزعيم المقدس الهالك أو المدحور ؟!

وفيم الصراع بين شقى المعسكر الشيوعى : روسيا والصين ؟!

أولم تلغ الملكية الفردية ؟! فلماذا إذن بقى الصراع ؟!

أولا يدلنا ذلك - على أقل تقدير - على أن إلصاق الشرور كلها بالملكية الفردية تعسف غير « علمى » أقرب إلى الدعاية الفوغائية منه إلى حقائق الواقع وحقائق العلم ؟!

٥ - التطور :

يزعم التفسير المادى للتاريخ أن الحياة الإنسانية في تطور مستمر إلى الأمام ، وأن كل مرحلة من مراحل التاريخ الخمس كانت أرقى من سابقتها ، أى أنها تعتبر مرحلة « تقدمية » بالنسبة لما سبقها ، فمرحلة الرق أرقى من مرحلة الشيوعية الأولى ، ومرحلة الإقطاع أرقى من مرحلة الرق ، والراسمالية أرقى من الإقطاع .. والشيوعية أرقى من الراسمالية ..

وهذه القضية حين تطلق على هذا النحو تكون محل مأخذ كثيرة .

فلو أن التفسير المادى للتاريخ حدد التقدم بميدان العلم والتكنولوجيا لكان هذا معقولا وصحيحا بصفة عامة .. وإن كان اعتبارنا لصحته قائما على أساس

آخر غير الذى يقيم عليه التفسير المادى تصوراتة .
فالتفسير المادى كما شاهدناه يجعل المادة هى الأساس .. ونحن نقول إن
النفس البشرية هى الأساس فى كل ما يتعلق بالإنسان ، وإن تعامل الإنسان مع
المادة ، وكل ما ينشأ عنه من نتائج هو جانب - واحد - من جوانب النفس
الإنسانية والحياة الإنسانية .

والتقدم العلمى والتكنولوجى المستمر فى حياة الإنسان ليس قائما على
المادة ، إنما هو قائم على تفاعل الإنسان مع الكون المادى من حوله . فلولا أن فى
الإنسان نزعة فطرية إلى المعرفة ، ونزعة فطرية إلى استخدام ثمار المعرفة فى
تحسين أحواله المعيشية ، ما حدث التقدم العلمى ولا التكنولوجيا رغم وجود
المادة الدائم من حول الإنسان !

وإذا كانت المادة موجودة حول كل الكائنات الحية ومع ذلك لا تثير فيها
الرغبة فى المعرفة العلمية المنظمة ولا الرغبة فى استخدام ثمار المعرفة فى تحسين
أحوالها المعيشية .. إلا الإنسان .. فهل يكمن الفرق فى المادة أم فى الإنسان ؟!
تلك بديهية يعنى عنها التفسير المادى للتاريخ ، لا لأنه عمى عنها فى
الحقيقة ! لكن لأنها تفتح الباب الذى لا يحبون له أن يفتح أبداً ، وهو
« إنسانية » الإنسان . لأن هذا الباب يمكن أن يؤدى إلى تثبيت « القيم » التى
يريدون تحطيمها : الدين والأخلاق، والتقاليد المستمدة من الدين، بوصفها
صادرة عن الفطرة الإنسانية أو متمشية معها !

سَدًا لهذا الباب يقولون إن المادة هى الأصل - لا الإنسان - لأنك
لاستطيع أن تحاسب المادة على شيء من القيم أو تطالبها بشيء منها ! وهو قول
- كما أسلفنا - لا يمكن فهمه على أساس « العلم » إنما يفهم فقط حين
تخرجه من الدائرة العلمية وتنظر إليه من زاوية الهدف المطلوب تحقيقه !

فحين نسلم بالتقدم المستمر فى ميدان العلم النظرى والتطبيقات (مع
التفاضى عن وجود ديبذبات فى خط التقدم) فإننا نسلم به على أساس أنه نابع من
عوامل موجودة فى فطرة الإنسان وتكوينه ، أودعها فيه الخالق ليعينه فى مهمة
الخلافة فى الأرض .

« هو أنشأكم من الأرض واستعبركم فيها » ١ »

« علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » ١ .
« وعلم آدم الأسماء كلها » ٢ .
« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع
والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ٣ .
« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه » ٤ .
« وأتاكم من كل ما سألتموه » ٥ .
اما افتراض التقدم فى كل جوانب الحياة فقول ينقضه الواقع .
والقضية كلها راجعة إلى أصل المقياس . فإذا أخذنا الحياة المادية - أو
بالأحرى التفسير المادى للإنسان - جاز أن نقول ذلك ، فالسيارة لاشك أسرع
وارقى من ركوب الجمل والحمار ، وناطحة السحاب أرقى من الخيمة والكوخ ،
و« الفستان » الأنيق المطرز أرقى من قطعة الجلد التى كانت تلبسها امرأة
الغابة ، والمكتب الفاخر أرقى من جلسة الكاتب القديم الذى كان يجلس
القرفصاء ويسند الورق إلى ركبتيه !

اما إذا جعلنا مقياسنا « إنسانية » الإنسان ، أى القيم والاعتبارات التى
ميزت بين الإنسان والمادة وبين الإنسان والحيوان ، فالأمر يختلف اختلافا
بيننا ، والصورة لن تكون تقدما مستمرا ، ولكن تذبذبا مستمرا بين الصعود
والهبوط ، وأسوأ تذبذباتها الهابطة هو الجاهلية المعاصرة فى كل أرجاء الأرض .
إن فكرة التطور المستمر إلى أعلى هى فكرة داروينية ولاشك . وقد تأثر
الماديون تأثرا بالغا بالداروينية فى أكثر من موضع من تصوراتهم ونظرياتهم .
ولكن دارون كان يتحدث عن أجسام الكائنات الحية ووظائفها الحيوية ، ولم
يتحدث عن شيء غير ذلك . أما الماديون فقد أمسكوا بخيط من الداروينية
فمدوها مدا واسعا لتخدم أغراضهم الخاصة ، وزعموا أنها صحيحة لمجرد
كون الأساس الذى بنوا عليه - وهو التطور - صحيح !
وبصرف النظر عن صحة الداروينية أو عدم صحتها ، فالإنسان - منذ

١ : سورة العلق [٤ - ٥]

٢ : سورة البقرة [٣١]

٣ : سورة النحل [٧٨]

٤ : سورة الجاثية [١٢]

٥ : سورة إبراهيم [٣٤]

نشأته - له مقاييسه الخاصة التي يختلف فيها عن كل الكائنات من حوله .
ولقد مرت بنا شهادة الداروينية الحديثة بشأن تفرد الإنسان في كل جوانب
تكوينه وجوانب حياته . ومن بين جوانب تفرده أنه متفرد كذلك في معاييرهِ، فلا
تنطبق عليه معايير المادة الجامدة ولا معايير النبات ولا معايير الحيوان .

ومعيار الإنسان - الذي تفرد به بين المخلوقات - أن له طريقين : طريق
الهدى وطريق الضلال ، وأنه صاعد إذا سار في طريق الهدى وهابط إذا سار في
طريق الضلال ، لأن طريق الهدى هو الذي يؤكد على « القيم الإنسانية » التي
جعلت الإنسان إنساناً من مبدأ حياته ، وطريق الضلال هو الذي يجانب تلك
القيم ويضيعها .

وخط التاريخ البشرى - كما هو معلوم من التاريخ - خط متذبذب على
الدوام بين طريق الهدى وطريق الضلال ، ولذلك فهو متذبذب على الدوام بين
الصعود والهبوط ، بين الرفعة والانتكاس ، وليس خطأ صاعداً على الدوام،
متقدماً على الدوام كخط التقدم العلمى والتكنولوجى . وليست المسألة أن هذه
وجهة نظر وتلك وجهة نظر أخرى على مستوى واحد من احتمال الصحة
والخطأ ! فإن مادية الإنسان لا يوجد عليها دليل علمى واحد ، بينما توجد
عشرات الأدلة ومئاتها على إنسانية الإنسان . ومن ثم يتضح طريق الخطأ
وطريق الصواب !

إنما أراد الماديون أن يثبتوا التطور المستمر « التقدمى » في حياة الإنسان
لسببين رئيسيين :

الأول : أن يقولوا إن الفساد الخلقى والتحلل الدينى الذى وجد في المجتمع
الصناعى كان خطوة « تقدمية » .

والثانى : أن يقولوا إن الشيوعية خطوة تقدمية .

فمن أراد أن يكون « تقدماً » فلينبذ بادئ ذى بدء دينه وأخلاقه، ثم ليكن
شيوعياً في نهاية المطاف !

ولا هذا ولا ذاك حقيقة علمية ، إنما هى الأهواء والشهوات .

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » « ١ » .

« ١ » سورة المؤمنون [٧١]

٦) الحتميات :

يقوم التفسير المادى على الحتميات : المادية أى المستمدة من قوانين المادة الحتمية ، والاقتصادية المستمدة من الوضع الاقتصادى ، والتاريخية المستمدة من المرحلة التاريخية التى يوجد فيها الإنسان من المراحل الخمس الكبرى : الشيوعية الأولى أو الرق أو الإقطاع أو الرأسمالية أو الشيوعية الثانية .

والحتميات الثلاث على أى حال مؤد بعضها إلى بعض بحيث نستطيع أن نتعامل معها كأنها حتمية واحدة : مادية اقتصادية تاريخية ، فإنها كلها أوجه لشيء واحد ، وكل حدث من أحداث التاريخ واقع - لامحالة - تحت ظل الحتميات الثلاث .

ولسنا هنا بصدد مناقشة علمية لهذه الحتميات ، فسنرى فيما يلى من الحديث أنها ليست حتميات بحال من الأحوال ! وما يكذبه الواقع لايحتاج أن ندخل معه فى نقاش ، لأن صوت الواقع أصدق من النظريات والفروض . ولكننا نلفت النظر إلى قضية معينة فيما يتعلق بالحتميات ، هى قضية « الإنسان » .. أين مكانه فى هذه الحتميات ؟ موجود هو أم غير موجود ؟ وإذا كان موجودا فما دوره إذا كان كل شيء يتم بمقتضى الحتميات المادية والاقتصادية والتاريخية ؟

يقول ماركس : « فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لاغنى لهم عنها ، وهى مستقلة عن إرادتهم » فإذا كانت مستقلة عن إرادة جميع الناس فمن إذن واضعها ؟ وأى مقياس تقاس به لنقول إنها خطأ أو صواب ؟ وما مسئولية الإنسان الأخلاقية فيها لنقول إن هذا الإنسان خيرٌ وذاك شرير ؟ أم لا خيرٌ ولا شرير وكلهم سواء ؟!

إن قضية الحتميات خطيرة فى الواقع أخطر مما تبدو للوهلة الأولى ، لأنها تعنى الإلغاء الكامل لكيان الإنسان الإيجابى ذى الإرادة وذى الفاعلية ، وإلغاء القيم الأخلاقية كلها ، وإلغاء المسئولية أو « الأمانة » التى يحملها الإنسان . مادام كل شيء مرصودا مكانه على خط سير التاريخ البشرى فما قيمة العمل الإنسانى ؟ ما الفرق بين أن يعمل أو لايعمل ؟ وما الفرق بين عمل وعمل ؟ وما قيمة الوجود الإنسانى فى التاريخ البشرى إذا كان الإنسان بهذه السلبية ، يصنع الأشياء بينما هى مستقلة عن إرادته ، كلعبة « خيال الظل » التى تتحرك

ففيها الدمى أمام عين الناظر بينما هى فى الحقيقة غير متحركة بذاتها ، إنما تحركها اليد التى تختفى وراء الستار !

وليس بنا أن نلغى أثر الضغوط التى تقع على الإنسان من خارج كيانه وتؤثر فى حركته ، سواء كانت ضغوط المادة بمعنى الكون المادى على اتساعه وبمعنى البيئة المحيطة بالإنسان ، أو ضغوط الأوضاع الاقتصادية ، أو ضغوط المجتمع .. أو أى نوع من الضغوط يقع خارج كيان الإنسان الفرد، ويؤثر فيه على غير رغبته ..

ليس بنا أن ننكر شيئاً من ذلك كله .. ولكن هذا ليس مايقوله التفسير المادى للتاريخ فى قضية الحتميات .. إنما يقول ذلك التفسير إن كل حياة الانسان مرسومة له من خارج كيانه ، ومستقلة عن إرادته ، لا يملك أن يقف فيها موقفاً يخالف ماتفرضه الحتميات . حتى مشاعره لا يملكها ! إنما يكونها له الوضع الاقتصادى على غير إرادة منه : « ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ولكن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » (ماركس) « إن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لايجوز البحث عنها فى عقول الناس أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزلين ، إنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » (إنجلز) .

وحتى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل لاتنسب إلى « الإنسان » ! كأنما تحدث تلقائياً بغير فاعل !! وكأنما عقل الإنسان ومشاعره ليست - على الأقل - جزءاً من عوامل التغيير !
ما الإنسان إذن ؟

إنه مجرد « أداة » فى يد جبارة ماردة هى الحتميات !
ليس الانسان هو الذى يصنع التاريخ ، ولكن التاريخ « بحتمياته » هو الذى يصنع الإنسان !

الاما أبأس الإنسان فى ظل التفسير المادى للتاريخ ! وما أهون شأنه ! وما أهون دوره كذلك ! دور الاستسلام الكامل للحتميات التى تصنع له حياته وتصنع له تاريخه « مستقلة عن إرادته » !

وماذا يساوى - مع الجبروت القاهر لهذه الحتميات التى لاتستجيب لشفاغة ولا تحفل بضراعة - أن يكتب فى سطر من سطور هذا التفسير أن الإنسان هو سيد هذا الكون ، إذا كان كل سطر من سطور هذا التفسير يجعله

عبدا ذليلا خاضعا لذلك الجبار الذى لا يلتفت مرة واحدة لهذا الانسان ،
ولا يعيره اهتمامه، ولا يرحم ضعفه، ولا يقيله من عثرته ؟!

ثم .. « من » الذى يصنع التغيير فى حياة الإنسان ؟! و « ما » الذى
يصنعه ؟! وكيف صار للإنسان تاريخ ؟!
يقولون : هى المادة وقوانين المادة ..

وما بنا من حاجة أن نعود إلى السؤال الذى سألناه من قبل : ما بال المادة
وقوانينها لاتصنع هذا التغيير فى حياة الحيوان ! إنما نقول إن خصائص
« الانسان » التى تفرد بها هى التى تصنع تاريخه ، وتصنع التغيرات فى هذا
التاريخ . فلولا رغبة الإنسان فى المعرفة – تلك الرغبة المركوزة فى أعماق كيانه
– ولولا رغبته فى استخدام ثمار المعرفة فى تحسين أحواله المعيشية فى شتى
جوانبها ، المادى منها وغير المادى ، ولولا قدرته على تخيل صورة معينة لأشياء
لم توجد بعد فى عالم الواقع ، وبذل الجهد فى محاولة إيجادها فى الواقع ..
لولا هذه « الخصائص » التى تفرد بها الإنسان ، هل كان يمكن أن يكون
للإنسان تاريخ ؟!

إن الحيوان ليس له تاريخ .. ولن يكون له ..

فالحمار الذى عاش قبل عشرة آلاف سنة هو الحمار الذى يعيش اليوم .. لم
يغير شيئا فى واقع حياته ، ولا يملك أن يغير .. ليس له ماض يرجع إلى تجاربه ،
ولامستقبل يسعى إلى تحقيقه . ليس له « ذكريات » ولا « آمال » ولا
« تطلعات » تتجاوز شخصه إلى أشخاص غيره من الحمير ، أو تتجاوز لحظته
الحاضرة إلى الغد القريب أو البعيد .

ولكن الإنسان – بخصائصه المتقدمة – لم يكن كذلك منذ مولده ، إنما
كانت له دائما « تجربة » واعية يختزنها فى كيانه فردا وجماعة ويجعلها نقطة
ارتكاز ينطلق منها إلى التجربة التالية .. وكانت له دائما ذكريات فردية
 واجتماعية ، وآمال وتطلعات ، فردية واجتماعية كذلك ، ترسم له – إلى جانب
الشهوات والضرورات المركوزة فى كيانه – خط رحلته فى هذه الأرض .
ومجمل تاريخه هو مجمل ذلك كله .

وحين يخترع آلة جديدة فهذا الاختراع نابع من صميم نفسه .. من تجاربه
الواعية ، ومن ذكرياته وآماله وتطلعاته .. إنه لا ينشئها عبثا ، ولا تنشأ هى فى

حياته بطريقة ذاتية ، إنما يخترعها لتلبى رغبة من رغباته الكامنة ، لأداء ضرورة من ضرورات حياته ، أولتحسين وضع من أوضاعه ، أولتحقيق أمر من « الكماليات » بالنسبة له في تلك اللحظة ، يتحول إلى ضرورة بعد فترة من الوقت ، فيسعى من جديد إلى تحسينه أو البحث عن كماليات جديدة .. وصحيح أن الآلة الجديدة تحدث تغيرا في حياته ، قد لا يكون منظورا كله وقت التفكير في اختراعها ، أو لا يكون شيء منه منظورا على الإطلاق .. ولكن هنا ينبغي أن نتذكر أمرين مهمين :

الأول : أن الآلة قد اخترعت في الأصل تلبية لحاجة في نفس الإنسان يسعى إلى تحقيقها ، ولم تظهر إلى الوجود من تلقاء نفسها ، ولا اخترعها الإنسان عبثا بغير غاية ، ولا فرضت عليه فرضا من خارج كيانه .

الثاني : أن التغير الذي تحدثه الآلة لايجرى على مزاج الآلة ذاتها ، فهي في ذاتها لا إرادة لها ولا وعى ولا توجيه ، لأنها « مادة » والمادة هكذا .. لا إرادة لها ولا وعى ولا توجيه ! إنما يجرى التغير - جزئيا على الأقل - على مزاج « الإنسان » ، وحسب الوضع الذي يعيش فيه . ولا نقصد الوضع الاقتصادي وحده - كما يقول التفسير المادى للتاريخ - إنما الوضع كله : الروحى والفكرى والمادى على السواء . فاختراع المحراث الحديدى أدى إلى الإقطاع في أوربا ، لا لأن المحراث الحديدى يؤدى - بطبيعته - إلى الإقطاع ، ولكن لأن ظهوره في الجاهلية القائمة يومئذ يمكن أن يؤدى إلى ذلك ، بمعنى أن أطماع ذوى السلطان من الجاهليين يومئذ تجد في المحراث أداة تمكنها من السيطرة بالصورة التى وقعت في الإقطاع الأوربى . ولم يكن ذلك ليحدث - بهذه الآلة ذاتها - لو أن القوم هناك كانوا يحتكمون إلى شريعة الله ، إنما كان الوضع الفكرى والروحى الناشئ من اعتناق العقيدة الصحيحة والتحاكم إلى الشريعة الصحيحة يحدث - بهذه الآلة ذاتها - وضعا ماديا واقتصاديا مختلفا عما وقع في جاهلية القرون الوسطى المظلمة في أوربا . والآلة التى تدار بالطاقة أدت إلى ظهور الرأسمالية في أوربا، لا لأن تلك الآلة - بطبيعتها - تؤدى إلى الرأسمالية ! فهي في روسيا لم تؤد إلى الرأسمالية ! ومعلوم أن التصنيع الحقيقى لم يتم في روسيا إلا بعد دخولها في الشيوعية ! ولكن لأن ظهورها في ذلك الوقت - في الجاهلية القائمة وقتئذ - يمكن أن يؤدى إلى ذلك ، بمعنى أن ذوى السلطان في تلك الجاهلية يمكن أن يجدوا فيها أداة إلى

السيطرة على النحو الذى تم فى الرأسمالية الغربية اليهودية .. ولم يكن ذلك ليحدث - بهذه الآلة ذاتها - لو أن شريعة الله كانت هى الحاكمة فى حياة الناس . إنما كان الوضع الفكرى والروحى الناشئ من اعتناق الناس للعقيدة الصحيحة وتحاكمهم الى الشريعة الصحيحة يحدث - بتلك الآلة ذاتها - وضعاً مادياً واقتصادياً مختلفاً عن الوضع الرأسمالى ، على الأقل بالقدر الذى استطاعت به العقيدة الشيوعية والفكر الشيوعى أن يحدث - بالآلة نفسها - وضعاً مادياً واقتصادياً مغايراً للوضع الرأسمالى !! ولا عبرة بالقول إن الشيوعية لم تنشأ إلا من تناقضات الرأسمالية ، فإن الذى حدث بالفعل هو أن تطبيق الشيوعية فى روسيا لم ينشأ من تناقضات الرأسمالية هناك ، إنما نشأ - بصرف النظر عن التخطيط اليهودى - من « اعتناق » الناس للعقيدة الشيوعية ، ذلك أن روسيا قد قفزت رأساً من الاقطاع إلى الشيوعية .

كلا ' ليست هى الحتمية المادية وإنما هو « الإنسان » ' الإنسان بكامله .. وصحيح كما أسلفنا أن الإنسان يواجه دائماً ضغوطاً من الكون المادى ومن الأوضاع المحيطة به ، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية .. الخ ولكنه فى النهاية هو الذى يقرر .. يقرر أن يخضع للضغوط ويستسلم لها أو يتعمر عليها ويسعى إلى تغييرها . وهو يقرر ذلك دائماً على هدى « العقيدة » التى يعتقد بها ، سواء كانت عقيدة صحيحة أو فاسدة .

وقد لا يستطيع فى كل حالة أن يغير كل الأوضاع بالعقيدة التى يعتقد بها . ولكن ذلك لا يرجع إلى كون العقيدة لا وزن لها ولا اعتبار ، ولا إلى كونها هى نابعة من الوضع المادى والاقتصادى القائم ، متأثرة به غير مؤثرة فيه ، لاحقة له غير سابقة عليه كما يزعم التفسير المادى للتاريخ ، إنما الأسباب ترجع فى مجموعها إلى « الإنسان » ذاته . هل هو صادق فى اعتناق هذه العقيدة ؟ وإلى أى مدى من الصدق ؟ وهل عنده العزيمة اللازمة لتحقيق متطلبات تلك العقيدة ، أم إن شهوات الأرض وثقله الأرض أثقل فى حسه من متطلبات العقيدة ؟ .. وسن الشهوات شهوة الحرص على الحياة وعدم تعريض النفس للأخطار ، وشهوة حب السلامة والأمن والاستقرار ، وهى الشهوات الغالبة على أكثر الناس فى الأرض ، وهى التى تؤدى بهم إلى الوقوع فى الجاهلية ، والخضوع - من ثم - لطغيان الطواغيت

فخضوع الاكثرية الساحقة من الناس لطغيان الطواغيت خلال التاريخ
البشرى ليس حتمية مادية ولا اقتصادية ولا تاريخية خارجة عن إرادة الناس ..
إنما هو من عند أنفسهم . إنه واقع عاشته البشرية بالفعل في جاهليتها كلها ،
لابسبب حتمى ، ولكن نتيجة لعدم استقامتها على الطريق .
« ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ،
ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ١ »
على أن الحتميات المزعومة - بصورتها الديالكتيكية - ليست حقيقة حتى
بالنسبة للجاهلية !

فقد تنبأ ماركس بحسب حتمياته أن بريطانيا ستكون أول دولة تقع في
الشيوعية لأنها - على عهده - كانت أكثر الدول الرأسمالية تقدما ، فتنبأ بأن
الصراع الطبقي « سينضج » فيها قبل غيرها فيحولها إلى الشيوعية .
ويعلم الناس في كل الأرض أن بريطانيا مازالت حتى هذه اللحظة « ٢ » دولة رأسمالية .
كما أن وريثتها التي ورثتها في التقدم الصناعى الرأسمالى - وهى أمريكا - دولة رأسمالية كذلك .
وقال ماركس وحواريوه إن المراحل التاريخية حتمية ، وترتيبها كذلك حتمى .
وإنه لا يمكن لأى مجموعة من البشر أن تسبق طورها التاريخى ، لأن كل طور له
أداة مادية أو اقتصادية يتم التحول عن طريقها ، فلا يمكن التحول دون وجود
هذه الأداة ، فلا بد أن يمر البشر بالمراحل التاريخية الخمس بصورة حتمية :
من الشيوعية الأولى إلى الرق إلى الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الشيوعية الثانية .

ويعلم الناس في كل الأرض أن أكبر دولتين شيوعيتين وهما روسيا والصين قد
قفزتا مباشرة من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الشيوعية دون وجود أداة التحول
التاريخية وهى الصراع الطبقي بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، وأن كلتا
الدولتين لم تدخل المرحلة الصناعية إلا بعد دخولها في الشيوعية !

أين الحتميات إذن ؟!

إنما هى من أولها لآخرها قصة مدعاة ، للإيحاء للناس بأن الشيوعية هى
النهاية الحتمية لكل البشرية ، فخير لهم أن يدخلوها طائعين بدلا من أن
يدخلوها كارهين !

« ١ » سورة الأعراف [٩٧] . « ٢ » صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٨٣ .

ومن أجل هذا الهدف الدعائى البحث تخلق التفسيرات « العلمية » وتلفق النظريات !

التفسير الجاهلى للتاريخ

كنا إلى هذه اللحظة نناقش التفسير المادى للتاريخ ، فنجد فى كل مرة ثغرة تؤدي إلى ضلالة من ضلالات هذا التفسير . وقد آن لنا أن ندعوه باسمه اللائق به ، فنسميه « التفسير الجاهلى للتاريخ » ! والسبب فى هذه التسمية أولا : أنه لا يتعامل إلا مع جاهليات التاريخ . مسقطا إسقاطا تاما فترات الهدى فى التاريخ البشرى ، وأهمها بطبيعة الحال فترة الإسلام .

وثانيا : أنه يفسر التاريخ من زاوية جاهلية بحتة . أى على أساس القيم الجاهلية وهى القيم المادية الخالصة . فهذا شأن معظم الجاهليات التاريخية ، أنها تبرز القيم المادية والاقتصادية وتهمل ماعداها من القيم الإنسانية العليا . لا لأنها غير موجودة فى الحقيقة ولكن لأنها هى تفتقدها بسبب كونها جاهلية .

ولأن هذه القيم المادية الجاهلية ليست هى كل مافى الحياة البشرية ، فإن التفسير الجاهلى للتاريخ يعجز عجزا تاما عن تفسير أى فترة من حياة البشرية تقوم على قيم أخرى غير القيم الجاهلية .

وأشد ما يعجز التفسير الجاهلى عن تفسيره هو الإسلام ! ولقد شغل الإسلام رقعة فسيحة من الأرض ، ورقعة فسيحة من التاريخ . وأى تفسير يتجاهله فهو تفسير غير علمى ، وأى تفسير يعجز عن تفسيره فهو غير صالح لتفسير التاريخ البشرى .

ونحن نتحدى التفسير الجاهلى للتاريخ أن يفسر لنا هذه الظاهرة التى شغلت هذه الرقعة الفسيحة من الأرض ، وهذه الرقعة الفسيحة من التاريخ ، وكانت واقعا مشهودا استمر وجوده عاملا فى الأرض أكثر من عشرة قرون ، ومازال قائما حتى اليوم ، ومازال قادرا على أن ينبعث من جديد بعد أن اعترضته فترة من الخمود .

لماذا ظهر الإسلام فى تلك الفترة من التاريخ البشرى ، وكيف ظهر على هذه

الصورة المخالفة للبيئة في أكثر سماتها ، والمخالفة لكل حتميات التاريخ
المزعومة ؟!

أما نحن فنؤمن أنه من عند الله وأنه نزل بقدر من الله ، في الوقت الذي
اختاره الله ..

وأما هم فإنهم لا يؤمنون بالله .. فليفسروا لنا إذن هذه الظاهرة العجيبة في
التاريخ !

فليفسروا لنا كيف ظهر رجل في تلك الصحراء في تلك الحقبة السحيقة من
الزمن قبل أربعة عشر قرنا يدعو إلى عبادة الله الواحد بلا شريك ، ونبذ الأرباب
الزائفة كلها ، سواء كانت أصناما محسوسة ، أو بشرا تضفى عليهم القداسة
الزائفة فتسجد لهم الناس كالملوك والأباطرة ، أو بشرا يشرعون للناس من عند
أنفسهم بغير سلطان منزل من عند الله ، أو عرفا جاهليا ، أو وهما تبتدعه
رؤوس الناس وتتعبده بالوهم ، ويحرر البشرية بذلك - في نصاعة وحسم -
من حكم الطواغيت ، ومن كل عبودية مذلة لكرامة الإنسان ، برد العبودية إلى
المعبود الحق الذي يكرم البشر بعبادته ، وتحرر عقولهم ووجدانهم ومشاعرهم
كما يتحرر كيانهم كله ، فينطلقون أحرارا في الأرض ينشرون الحق والعدل ،
ويحطمون الطواغيت المستبدة بالبشر في صورة نظم ودول وجيوش ، ويطعمون
مجتمعا إنسانيا يتمتع المؤمنون فيه بالأخوة الإنسانية على قدم المساواة ،
ويتمتع غير المؤمنين بهذا الدين بالعدل الرباني دون إكراه على اعتناق العقيدة .

وفي الوقت الذي كانت الديانات كلها - سواء كانت سماوية محرفة أو
وثنيات من صنع البشر - تقيم بين البشر وربهم وسطاء من الكهنة ورجال
الدين « أو من الأصنام والأوثان ، أو من الأرواح الخيرة أو الشريرة .. يجيء
هذا الداعية فيلغى كل وساطة بين العبد والرب ، ويربط القلب البشري بالله
مباشرة بلا وسيط :

« وقال ربكم ادعوني استجب لكم » « ١ » .

« وإدا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » « ٢ » .

وفي الوقت الذي يتجبر فيه الأغنياء على الفقراء في كل الأرض يجيء هذا

١ - سورة غافر [٦٠]
٢ - سورة البقرة [١٨٦]

الداعية فيلغى سلطان الأغنياء المتجبرين ، لا على أساس الحقد الطبقي ، ولكن على أساس الحق والعدل الأزليين ، فلا يزيل « طبقة » ويحل محلها « طبقة » ، ولا يعطى السلطان للفقراء بوصفهم فقراء ، بل ينزع السلطان من البشر جميعا ، أغنيائهم وفقرائهم على السواء ويرده إلى الله ، ويقدم شريعة يخضع لها الناس جميعا حكاما ومحكومين ، ليست من صوغ هؤلاء ولا هؤلاء ، شريعة تتعامل مع « الإنسان » من حيث هو إنسان ، فتلبى جميع احتياجاته الروحية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية ، وترسم له المنهج المتكامل الذى تستقيم به الحياة وتتوازن وتترابط ، على نحو غير مسبوق من قبل ولا ملحوق من بعد فى كل ما كان من دساتير البشرية إلى اليوم .

وفى الوقت الذى كان « الدين » فى كثير من بقاع الأرض أو فى كل بقاع الأرض يرتبط فى نفوس الناس بالخضوع والاستكانة - لاله وحده المعبود الحق - بل لأوضاع ظالمة فى المجتمع ما أنزل الله بها من سلطان ، ويرعى الكهنة ورجال الدين هذا الذل وينمونه فى نفوس الناس باسم الدين فيخضعونهم للمتجبرين من ذوى السلطان ، يجيء هذا الداعية فيقول للناس إن من رضى بالظلم فى الدنيا وهو قادر على إزالته أو الخروج من سلطانه فلا مكان له عند الله فى الآخرة وله عذاب عظيم ، ويصبح اسمهم « ظالمى أنفسهم » : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » ١

وفى الوقت الذى تهان فيه المرأة وتحتقر ، يدعو إلى تكريمها ورعايتها ويبرز إنسانيتها .

وفى الوقت الذى يسام فيه الرقيق أقصى أنواع المهانة والخسف يدعو لتحرير الرقيق وإحسان معاملته على أساس إنسانى .

وفى الوقت .. وفى الوقت .. وفى الوقت ..

ثم ليفسروا لنا كيف استطاع هذا الرجل أن يربى على هذه المبادئ أمة ..

١ « سورة النساء [٩٧ - ٩٩]

أمة كانت مجموعة من القبائل المتناثرة المتناحرة تأبى أن تتحد وتتألف مع وجود كل العناصر التي تدعو إلى التآلف .. وحدة الأرض ، ووحدة اللغة ، ووحدة العقائد ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة الجنس .. ومع ذلك تحول بين توحدهم ثارات الجاهلية ونزاعاتها التافهة التي لاتساوى لحظة واحدة من الصراع ! ومن هذا الشتيت المتناثر لايبني هذا الرجل أمة - أى أمة - وإنما أمة فريدة في التاريخ ، أمة عقيدة .. أمة لاتقوم على رابطة الأرض ، ولا رابطة الدم ، ولا رابطة اللغة ولا رابطة المصالح القريبة ، إنما تقوم على رابطة العقيدة ، فيجتمع فيها العربى القرشى ، والحبشى والرومى والفارسى ، على قاعدة واحدة من المساواة فى الانسانية والمساواة فى العقيدة ، ويكون التمايز بينهم على قاعدة جديدة كل الجدة على تلك البيئة بل على البشرية كلها يومئذ « إن إكرمكم عند الله أتقاكم » ١ «

أمة تقوم على الأخوة فى الله : « إنما المؤمنون إخوة » ٢ «

أمة تقوم على التكافل : « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ٣ « .

أمة تقوم على العدل الربانى « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ٤ «

باختصار .. أمة فريدة فى التاريخ ..

وليفسروا لنا كذلك كيف انساحت هذه الأمة فى أرجاء الأرض بهذه السرعة المذهلة ، لا غازية للأرض ، ولا مستعبدة للناس ، ولكن ناشرة لتلك العقيدة التي تزيل القداسة عن البشر وتوجه العبادة لله وحده ، وتدعو إلى الأخوة والتكافل ، وتدعو إلى تحرير المرأة وتحرير الرقيق .. فتنتشر هذه المبادئ كلها بالسرعة المذهلة التي تفتح بها الأرض !

فليفسروا لنا هذا كله بمقتضى تفسيرهم الجاهلي للتاريخ !

أى تغير مادى حدث فى الجزيرة العربية - بل فى العالم أجمع - أدى إلى ظهور هذا الرجل صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوة ونشرها هو وأتباعه من بعده فى أرجاء الأرض !؟

١ . سورة الحجرات [١٣] ٣ . سورة الحشر [٩]
٢ . سورة الحجرات [١٠] ٤ . سورة النساء [٥٨]

أى تغير اقتصادى حدث فى الجزيرة العربية - بل فى العالم أجمع - أدى إلى ظهوره ؟

أى حتمية تاريخية يمكن أن ينشأ عنها هذا الحدث الضخم ، الذى ماتزال ضخامته قائمة حتى اللحظة ؟!

البيئة هى البيئة .. ماتغيرت قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولابعد بعثته لعدة قرون ..

الوضع الاقتصادى هو الوضع الاقتصادى : البيئة الرعوية فى الجزيرة العربية برمتها ، والبيئة التجارية فى مكة والمدينة ..
أما التاريخ .. فلننظر حتميات التاريخ ..

بعد سبعة قرون من مولد هذه الدعوة قامت فى أوروبا حركة تحرير العبيد ..
وحين قامت فإنها لم تحرر العبيد تماما وإنما حررتهم من قبضة السيد ليكونوا عبيدا للأرض .. وبعد عشرة قرون كاملة بل أكثر حررتهم الثورة الفرنسية من جحيم الإقطاع ! والاسلام حررهم قبل ذلك بعشرة قرون !

بعد اثنى عشر قرنا من مولد هذه الدعوة أو أكثر قامت فى أوروبا حركة تحرير المرأة ، التى أعطت المرأة بعض الحقوق التى كفلها لها الإسلام ، ومازالت بعض الحقوق لم تحصل عليها إلى هذه اللحظة .

بعد اثنى عشر قرنا من مولد هذه الدعوة بدأت الدعوة إلى « الديمقراطية » القائمة على الشورى ونزع السلطة الطاغية من الحكام ، وهى الدعوة التى أعطت الناس حقوقا وضمانات لم تكن لهم فى عهود الإقطاع ، وإن كانت « الطبقة » المالكة ماتزال هى الحاكمة من وراء الستار .. بينما أعطي الإسلام كل الضمانات وكل الحقوق قبل ذلك باثنى عشر قرنا مع رد السلطة إلى الله لا إلى المالكين من عباد الله !

بعد أربعة عشر قرنا من مولد هذه الدعوة ماتزال العنصرية البغيضة قائمة فى الأرض ، تقوم على أساسها دول وتقوم من أجلها حروب ، ويعامل « الملونون » فيها على أيدى البيض تلك المعاملة الزرية التى يعرفها الناس فى أمريكا وجنوب إفريقيا وفى كل مكان : بينما الإسلام - قبل أربعة عشر قرنا - قد صهر الأجناس والألوان واللغات والشعوب فى أمة واحدة على قدم المساواة حين ربطهم بالعقيدة الواحدة فى الله .

بعد أربعة عشر قرناً من مولد هذه الدعوة ما يزال مبدأ كفالة الدولة لجميع أفراد شعبها غير تام التطبيق في الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ، والدولة الشيوعية التى تطبقه تطبقه على حساب كرامة الإنسان ، وتستذل الناس بلقمة العيش لكى يخضعوا للسلطان ، بينما قرر الإسلام هذا المبدأ منذ أربعة عشر قرناً مع المحافظة التامة على إنسانية الإنسان وكرامته .

ويطول بنا المقام إذا مضينا نعدد المواضع التى سبق بها الإسلام كل حتميات التاريخ المزعومة ، أو التى تفرد بها فى التاريخ ! فكيف يفسر لنا التفسير الجاهل للتاريخ ظهور الإسلام وانتشار الإسلام والمبادئ والقيم التى أقرها الإسلام ؟!

هل الوضع المادى والاقتصادى هو الذى غير الناس فى الجزيرة العربية والأرض التى فتحها الإسلام ، أم إنها العقيدة، وإيمان الناس بالله ، وبالحق والعدل الأزليين ؟! وهى أشياء ليست فى المادى ، ولا هى من صنع المادى ، إنما هى فى عقول الناس وقلوبهم ومشاعرهم !

وكيف تغير « أسلوب التبادل » فلم يعد رقا ولم يعد إقطاعاً إنما صار تكافلاً وأخوة فى المجتمع ؟ الأسباب مادية أم لعقيدة ملأت النفوس فبعثت الناس يغيرون أسلوب التبادل ليخضعوه لشريعة الله التى تمنع الظلم وتحكم بالعدل ؟!

هل كان وجود الناس هو الذى حدد شعورهم أم إن شعورهم هو الذى حدد أسلوب وجودهم ؟!

ماذا يدعاة التفسير الجاهل للتاريخ ؟! لقد كان الإسلام وسيظل أمراً ربانياً لا ينطبق عليه أى تفسير يفسر التاريخ البشرى بالقيم الجاهلية الأرضية ، مادية كانت أو اقتصادية . ولكننا نأخذ من الإسلام عبراً لدعاة التفسير المادى ودعاة كل تفسير غير التفسير « الإنسانى » للإنسان .

الإسلام أمر ربانى .. نعم ..

ولكن الذين قاموا بالإسلام بشر ..

ولقد زعم التفسير الجاهل للتاريخ أن البشر لا يتحركون ولا يتغيرون ولا يغيرون إلا بسبب تغيرات مادية أو اقتصادية .. وأنهم لا يمكن أن يتحركوا بشيء معنوى : فكرة أو عقيدة أو قيم أو مبادئ ، لأن هذه كلها تأتى لاحقة

للتغير المادى والاقتصادى ومنبثقة عنه .. فوجود الإسلام فى الأرض بالصورة التى تم بها يعلمنا غير ذلك تماما ..

يعلمنا أن العقيدة : إيمان الناس بالله ، وإيمانهم بالحق والعدل الأزليين ، يمكن أن يحدث تغييرا فى الأرض أضخم بكثير من أى تغيير حدث نتيجة التغير المادى أو الاقتصادى ..

ويعلمنا أكثر من ذلك أن نوع التغير الذى تحدثه العقيدة يختلف اختلافا جذريا عن التغير الذى يحدث - لأسباب مادية واقتصادية - بلا عقيدة .. الإسلام نشأة جديدة للإنسان ، على أسس من القيم العليا والمبادئ الرفيعة ، بينما التغيرات الأخرى مجرد تغير جزئى من حالة إلى حالة ، لا يغير شيئا جذريا فى الإنسان ، وقد يؤدى به إلى الانتكاس والدمار ..

ويعلمنا قبل ذلك وبعد ذلك أن الإنسان ليس مادة .. ولكنه « إنسان » ! وأن النظام الذى يتعامل معه على أنه إنسان أفضل بكثير وأعلى بكثير ، وأكثر فاعلية بكثير من النظام الذى يتعامل معه على أنه مادة ، أو على أنه حيوان !

التفسير الإسلامى للتاريخ

ليس هنا فى الحقيقة مجال الحديث المفصل عن التفسير الإسلامى للتاريخ فذلك موضوع يحتاج إلى بحث مستقل تبسط فيه الفكرة ، وتأخذ لها النماذج من التاريخ البشرى فى شتى عهوده وشتى أحوال البشر فيه .

ولكنه يحسن بنا ونحن بصدد الحديث عن التفسير الجاهل للتاريخ عرضا ومناقشة أن نلم على الأقل بالخطوط العريضة للتفسير الإسلامى ، لأنه يكاد يكون الوجه المقابل لذلك التفسير فى كثير من الأسس التى يقوم عليها . وأحسب أننا ألمحنا إلى بعض هذه الخطوط فى أثناء مناقشة التفسير المادى ، فالآن نحاول تجميع هذه الخطوط فى عرض سريع ، وحسبنا فى هذا المقام أن نشير إلى الأسس العامة دون تفصيل .

من البديهيات أن التفسير الإسلامى للتاريخ يتعامل مع الإنسان ابتداء على أنه إنسان ، لا مادة ولا حيوان . وأن التاريخ هو تاريخ الإنسان . أى أن العنصر الفعال فيه هو الإنسان .. الإنسان بمجموعه لا جانب واحد منه . فقد كتب الإنسان هذا التاريخ بكل جوانبه مجتمعة - سواء فى حالات الهدى وأحوال الضلال . كتبه بروحه وجسمه وعقله . كتبه باقتصادياته واجتماعياته

وسياسياته . كتبه بالتعامل مع الكون المادى ، ومع الأفكار والقيم ، ومع الأحلام والرؤى ، ومع الواقع والخيال . كتبه بدوافعه الداخلية وتطلعاته وطموحاته كما كتبه بالضغوط الواقعة عليه من خارج كيانه ! ضغوط الكون المادى والضغوط الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية .. كتبه بكل ذرة من كيانه . وكل سطر من سطور هذا التاريخ أو إنجاز من إنجازاته فهو صادر من كيان الإنسان كله ، وهو أصيل في صدوره عن مجموع هذا الكيان لا عن جانب واحد من هذا الكيان .

يتعامل التفسير الإسلامى مع الإنسان على أنه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، مترابطين متماسكين متفاعلين ، يتكون منهما معا كيان موحد . « إن قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » « ١ »

هذا هو تكوين الإنسان : قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، امتزجتا امتزاجا كاملا وترابطتا وتفاعلا كل منهما مع الآخر فأصبح من حصيلتهما ذلك الإنسان الذى نعرفه ونتعامل معه في واقع الحياة .

إنه ليس قبضة طين خالصة كما كان قبل النفخة العلوية فيه ، وليس روحا خالصة طليقة من قبضة الطين ، إنما هو الأمران معا في وحدة مترابطة تختلف في خصائصها اختلافا جذريا عن قبضة الطين الخالصة ونفخة الروح الخالصة ، وإن كانت تحمل بين الخين والحين بعض المشابه من هذه وتلك ، حين تجنح جنوحا شديدا نحو عالم الجسد أو عالم الروح ، ولكنها حتى في تلك الحالات لا تكون مماثلة أبدا لأى من العنصرين منفصلين .

في لحظة الشهوة الجامحة غير المنضبطة يكون أقرب إلى قبضة الطين ، لأنه يتعامل بجسده أكثر من أى جانب آخر من جوانبه ، ومع ذلك لا يكون أبدا جسدا خالصا كالحيوان ، لأن فيه - على الأقل - قدرا من الوعي والإرادة والاختيار حتى في هذا العمل اللاصق بالطين ، بينما الحيوان لا يعمل بوعي ولا بإرادة حرة ولا اختيار .

وفي لحظة الرفرقة الشفيفة المشرقة المهومة يكون أقرب إلى نفخة الروح ، لأنه ينطلق بروحه من إطار الحس المحدود . ومع ذلك لا يكون أبدا روحا خالصة

« ١ » سورة ص [٧١ - ٧٢] .

كالملائكة لأن له جسدا لا يستطيع أن يتخلص من وجوده ، وعقلا لا يكف تماما عن التفكير . انظر إلى أعلى لحظة وجود عرفها بشر في تاريخ الأرض ، لحظة الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل كان صلى الله عليه وسلم روحا خالصة وهو يصافح جبريل عليه السلام ويتلقى منه . استمع إلى قوله تعالى :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » ٦ »

فقد تحرك العقل وتحرك اللسان ، خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفوته حفظ شيء من التنزيل الرباني ، فطمأنه الله أنه لن يضيع منه شيء لأنه سبحانه وتعالى هو المتكفل بحفظه وجمعه وقرآنه (أى قراءته) وبيانه .

هذا هو الإنسان بعنصره المكونين له : قبضة الطين ونفخة الروح . وكل محاولة لتفسيره بواحد من عنصريه دون الآخر هي محاولة مضللة لا تؤدي إلى حقيقة . سواء فسر من جانب قبضة الطين أو من جانب نفخة الروح . والجاهليات في التاريخ كله تجنح دائما إلى تفسير الإنسان - سواء نظريا أو عمليا أو هما معا - بجانب واحد من جوانبه ، أو بجانب غالب بحيث يسحق الجانب الآخر ويقهره ويكاد يلغيه .

الجاهليات المادية تبرز جانب الجسد ، وجانب الحس ، وجانب المادة ، فإذا أخذت شيئا من النفخة العلوية أخذت جانب العقل وأبت جانب الروح ، وسخرت العقل - من ثم - في شهوات الجسد ومطالب الحس وعالم المادة ففقد علويته ورفعته ، وأسفّت مع قبضة الطين ، وأنشأ عمارة مادية للأرض خالية من إشراقة الروح .

والجاهليات الروحية تبرز جانب الروح ، وتهمل الجسد وتكبته وتقهره وتحقره وتقوم بتعذيبه من أجل رفعة الروح ، كما تفعل الهندوكية والرهبانية ، كما أنها تهمل عالم الحس وعالم المادة ، فلا يقوم الإنسان بعمارة الأرض ، ولا يقاتل الشر والطغيان ، ولا يجاهد لإقامة الحق والعدل ، اكتفاء بلذة « الفناء » في عالم الروح ، التي يتم من خلالها « الوجود » ! والجاهلية المعاصرة - كما هو واضح - جاهلية مادية مغرقة في المادية ،

١٠ . سورة القيامة [١٦ - ١٩] .

سواء في المعسكر الشيوعي أو المعسكر الرأسمالي . قاعدة الحياة مادية بحتة ،
 وقيم الحياة مادية بحتة ، وعمارة الأرض على أساس مادي بحت . والتفسير
 المادي للتاريخ هو واقع الحياة هنا وهناك . وإن كانت النظرية - في الحقيقة -
 ملكا للشيوعيين . والنظرية أسوأ بكثير حتى من التطبيق ! ففى التطبيق يتعامل
 كلا المعسكرين مع الإنسان على أساس أنه حيوان ، أو على أساس أنه آلة في
 بعض الأحيان وحيوان في سائر الأحيان .. أما في النظرية فينفرد المعسكر
 الشيوعي بالتعامل مع الإنسان على أنه مادة تنطبق عليه قوانين المادة ، لأن
 الشيوعية خطوة « تقدمية » في المخطط الكبير الهادف إلى تسخير الأمميين
 لشعب الله المختار .

من قبضة الطين ونفخة الروح أنشأ الله الإنسان وقال للملائكة إنه سيجعله
 خليفة في الأرض :

« وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » « ١ »

والخلافة تتضمن الهيمنة والسيطرة والقدرة على الإنشاء والتعمير والقدرة
 على التمييز والاختيار .. فأمدّه الله بالأدوات الصالحة للخلافة :

« وعلم آدم الأسماء كلها ... » « ٢ »

« اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » « ٣ » .
 « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع
 والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون » « ٤ »

« ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشففتين ؟ وهديناه النجدين ؟ » « ٥ »
 « ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد
 خاب من دساها » « ٦ »

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » « ٧ »

١ . سورة الحاقة [٣٠]

٢ . سورة البقرة [٣١]

٣ . سورة العلق [٣ - ٥]

٤ . سورة النحل [٧٨] .

٥ . سورة البلد [٨ - ١٠]

٦ . سورة الشمس [٧ - ١٠]

٧ . سورة هود [٦١]

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه » « ١ »
« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » « ٢ »
وجعل الله للإنسان هدفاً شاملاً يشمل هذا كله هو عبادة الله ، على المعنى الشامل للعبادة .

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » « ٣ »
« قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » « ٤ »

العبادة هى حق الله على جميع مخلوقاته ، حق الخالق على المخلوق .. ولكن الله فرض على كل نوع من مخلوقاته عبادة تناسب تكوينه . « فالمادة » لها عبادة ، والملائكة لها عبادة ، والإنسان له عبادة .. تشترك جميعاً فى أنها عبادة وأنها « سجود » وأنها « تسبيح » ولكن تختلف فى الطريقة .
« ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس .. » « ٥ »
« تسبح لله السماوات السبع والأرض ومن فىهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » « ٦ » .

واختص الإنسان بلون من العبادة يناسب اختصاصه بالخلافة ، ويناسب تكوينه من جسد وعقل وروح .

فهو يعبد الله بالسجود والتسبيح على نحو معين علمه الله إياه على يد رسله وخاتمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعبده بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى المنزل من عند الله لتنظيم حياة الناس فى الأرض وإقامتها بالقسط .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » « ٧ »

ففى صلاته وتسبيحه ونسكه هو عابد لله ، وفى مشيه فى مناكب الأرض وأكله

-
- ١ . سورة الحاتية [١٢]
 - ٢ . سورة الملك [١٥]
 - ٣ . سورة الداريات [٥٦]
 - ٤ . سورة الأنعام [١٦٢ - ١٦٣]
 - ٥ . سورة الحج [١٨]
 - ٦ . سورة الاسراء [٤٤]
 - ٧ . سورة الحديد [٢٥]

من رزق الله بالضوابط التى أقامها الله من حلال وحرام هو عابد لله . وفى زواجه وإقامة أسرته ورعايتها فى حدود الضوابط والتوجيهات الربانية هو عابد لله . وفى طلبه العلم سواء للتعرف على أوامر ربه ونواهيه ، أو للقيام بعمارة الأرض على المنهج الربانى هو عابد لله . وفى إقامة شريعة الله فى الأرض هو عابد لله . وفى قتاله لتكون كلمة الله هى العليا هو عابد لله .. وذلك معنى قوله تعالى : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » « ١ »

* * *

فإذا تبين ذلك تبينت مهمة الإنسان فى الأرض وطبيعة عمله فيها . ليست مهمة الإنسان أن يأكل ويشرب ويمارس الجنس على طريقة الحيوان وإن كان هذا جزءا من نشاطه وعمله فى الأرض ، ولكن على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان ، أى ملتزما بما أنزل الله من توجيهات وضوابط ومتقيدا بالحلال والحرام . وليست مهمته هى الإنتاج المادى وحده ، وإن كان هذا جزءا من نشاطه وعمله فى الأرض، لكن على طريقة الإنسان لا على طريقة الآلة ، أى واعيا مدركا لأهدافه العليا ، ملتزما فى الإنتاج بالضوابط الربانية التى تحدد الحلال والحرام والحسن والقبيح والمباح والمكروه والمندوب . مهمته هى « العبادة » بمعناها الشامل الذى يشمل العقيدة الصحيحة ، وشعائر التعبد ، والنشاط الحيوى فى شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية .. الخ ملتزما فى ذلك كله بمنهج الله وفى جميع الأحوال فعمله ذو طبيعة أخلاقية لاصقة به لا يمكن فصلها عنه فهو إما خيرٌ وإما شرير . ولا يوجد عمل واحد من أعماله خارج عن نطاق الأخلاق ، سواء كان سياسة أو اقتصادا أو اجتماعا أو فكرا أو فنا ، إلا أن يكون عملا من أعمال الطبيعة غير الإرادية لا يحاسب عليه الإنسان . وتنشأ القيمة الأخلاقية من كون الإنسان ثنائى الوجهة لا مفرد الاتجاه ، ومن كونه قادرا على التمييز بين الوجهتين واختيار إحداهما . « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » « ٢ »

١ . سورة الانعام [١٦٢ - ١٦٣]

٢ . سورة الشمس [١٠ - ١١]

والأخلاق ، سواء في الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس ، أو في السياسة ، أو في الاقتصاد ، أو في الفكر ، أو في الفن .. الخ ، هي « القيم العليا » التي يتقيد بها « الإنسان » في تصرفاته ، والتي يسعى لإقامة الحياة البشرية على أساسها ، والتي يكون إنسانا بقدر ما يحرص على أدائها وإقامتها ، ويفقد من إنسانيته بقدر ما ينفلت منها ويتهاون فيها .

وعلى هذا النحو تكون « إنسانية » الإنسان، وتكون كذلك « كرامته »، فالتكريم الرباني للإنسان لم يكن عبثا .

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » « ٢ »

إنما يشمل التكريم والتفضيل - فيما يشمل - هذا العنصر الأخلاقي الذي تقوم عليه حياة الإنسان ، وتقوم به أعماله كذلك ، لتفترق عن حياة الحيوان ، وتفترق من باب أولى عن تصرفات المادة التي لا وعى لها ولا إرادة ولا إدراك ، إنما تتصرف بالقهر الكامل المفروض عليها من إرادة الخالق ، الذي أنشأها وأجرى أمورها على النحو الذي تجرى عليه ، لا تملك فكاكاً منه ولا تعديلا عليه . وشتان بين ذلك وبين الوضع الكريم الذي وضع الخالق فيه الإنسان ، إذ أعطاه القدرة على التمييز والاختيار ، وجعله مقابل ذلك مسئولا عن تصرفاته بمقتضى تلك « الأمانة » التي حملها ، بينما أشفقت « المادة » من حملها :

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان .. » « ٣ »

وتختلف أحوال البشر اختلافا جذريا بحسب الطريق الذي يختارونه لأنفسهم . ولا يقتصر الاختلاف على مصير الإنسان يوم القيامة إما إلى الجنة وإما إلى النار ، بل يختلف الأمر في الحياة الدنيا كذلك .

أول اختلاف أنهم إذا اختاروا طريق الله ، طريق الخير ، فعبدوا الله وحده بلا شريك ، وساروا في حياتهم بمقتضى المنهج الرباني، فقد نجوا بادئ ذي بدء من عبودية بعضهم لبعض ، وتحققت لهم العزة والكرامة والمساواة التي لا تتحقق أبدا إلا حين ينزع من البشر حق التشريع، ويصبحون كلهم عبيدا لله على

٢ « سورة الاسراء » [٧٠]
٣ « سورة الاحزاب » [٧٢]

قدم المساواة ، خاضعين كلهم لشريعة الله .. ونجوا من الظلم الذى يسم
الجاهليات جميعا حين يحكم البشر بشرائع من صنع أنفسهم ، فإنه يحدث
دائما فى تلك الجاهليات أن طبقة معينة هى التى تحكم ، وحين تحكم فإنها تدير
الأمر بالطريقة التى تحقق مصالحها على حساب مصالح الآخرين .

* * *

ثم إن حياتهم تتسم بالنظافة والاستقرار والطمأنينة والبركة .
النظافة المستمدة من أخلاقيات لا إله إلا الله . من الالتزام بالحلال
والحرام . من ضبط الدوافع لترتفع عن حيوانية الجسد إلى إنسانية الإنسان ،
الذى يمارس الحياة بجسمه وروحه فى آن .
والاستقرار المستمد من تطبيق الشريعة الربانية الحكيمة المحكمة التى لا
تخبط فيها ولا انحراف . وليس معنى الاستقرار الجمود عن الحركة ، ولا معناه
كذلك الخلو الكامل من المشكلات . إنما معناه استقرار الأسس التى تقوم عليها
الحياة . أما الحياة ذاتها فلا تكف عن الحركة الفاعلة ، ولا تخلو من أمور تجد
فى حياة الناس تحتاج إلى جهد يبذل لحل مشكلاتها وتقويمها بمقتضى منهج الله .
أما الكدح ذاته فهى من سمات الحياة الدنيا :

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » « ١ »

« لقد خلقنا الإنسان فى كبد » « ٢ »

ولكن هناك كدحا يتم فى إطار أسس مستقرة وراشدة ، فيكون كدحا مثمرا
متمشيا مع الغاية التى خلق من أجلها الإنسان وهى « العبادة » بمعناها
الشامل الواسع ، التى تتضمن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى .
وهناك كدح يتم فى غير هذا الإطار الراشد المستقر ، فيكون كدحا مؤديا إلى
البوار وإن حقق منافع على المدى القصير .

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا
يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل
ما كانوا يعملون » « ٣ »

أما الطمأنينة فمصدرها ذكر الله :

١ - سورة الانشقاق [٦]

٢ - سورة البلد [٤]

٣ - سورة هود [١٥ - ١٦]

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » « ١ »

والاطمئنان إلى قدر الله :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » « ٢ »

« ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم » « ٣ »

وإحساس الإنسان أنه يصارع ما يصارع من القوى في الأرض وهو مستند إلى الله الذي هو أكبر من القوى جميعا وأعلى :

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » « ٤ » .

وحتى حين يمسهم سوء بقدر من الله فهم مستعلون بالإيمان :

« قال أمنتكم له قبل أن أذن لكم ! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ! فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض ! إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ! إنا آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر . والله خير وأبقى ! » « ٥ »

وأما البركة فمصدرها رعاية الله وإغداقه على المتبعين لمنهجه بعد أن تنتهي فترة الابتلاء والتمحيص .

« فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » « ٦ »

ومصدرها ارتفاع مشاعر الناس عن التكالب على متاع الأرض ، الذي يحدث الجوعة الدائمة التي لا تشبع ، واللهفة الدائمة التي لا تستقر ، وحين ترتفع

« ١ » سورة الرعد [٢٨]

« ٢ » سورة الطلاق [٣]

« ٣ » سورة التغابن [١١]

« ٤ » سورة آل عمران [١٧٢ - ١٧٤]

« ٥ » سورة طه [٧١ - ٧٢]

« ٦ » سورة نوح [١٠ - ١٢]

المشاعر - بغير رهبانية ولا حرمان - يحدث الرضا النفسى الذى هو عنصر البركة الاصيل .

ومصدرها كذلك الأخوة والتكافل فى المجتمع المسلم الذى يجعل الناس شركاء فى الخير لا يختص به فريق دون فريق ..

أما إذا اختار الناس طريق الشر ، فأشركوا بالله فى العبادة أو كفروا به جبهة ونبذوا عبادته وأعرضوا عن شريعته ، فأول ما يقعون فيه هو عبودية بعضهم لبعض ، وانقسام المجتمع إلى سادة وعبيد . سادة يملكون ويحكمون ويشرعون ، وعبيد ينفذون وهم أذلاء مهينون .

ثم إن حياتهم تنقسم بالاضطراب والقلق ، وفقدان النظافة ، والعبودية للشهوات .

الاضطراب ينشأ من الرؤية البشرية القاصرة ، العاجزة عن الاحاطة ، المحجوبة عن الغيب ، التى تتصرف فى كل لحظة بمقتضى تلك اللحظة ، دون أن تدرك الآثار الكاملة التى تنشأ عن تصرفها حتى تقع تلك الآثار بالفعل فى نفس الجيل أو فى جيل لاحق ، فيكتشف الناس الخلل الذى أصابهم ، فيروحون يعالجونه بعلاج جديد يثير مشاكل جديدة !

والقلق ينشأ من الدخول فى حومة الكدح - حومة الصراع - دون سند من قوة أعلى يطمئن الإنسان إلى نصرتها أو تعويضها له عما يفقده فى أثناء الصراع ..

وفقدان النظافة ينشأ من عدم الالتزام بمنهج الله .. عدم الالتزام بالحلال والحرام . الذى ينتج عنه اندفاع الناس مع شهواتهم وعدم الارتفاع بها ، فتتهبط هى بهم إلى المستنقع المنتن الذى تعيش فيه كل الجاهليات .. وتلك هى العبودية للشهوات ، التى لم تنج منها جاهلية من جاهليات التاريخ ، حتى التى جنحت إلى الروحانية والرهبانية .. ففى الجاهلية الهندية الجانحة نحو الروحانية كانت ظاهرة « بغايا المعبد ! » ظاهرة معروفة ، وفى الرهبانية حدث ما أسلفنا ذكره من الموبقات !

أما التقدم المادى والعلمى فخط قائم بذاته خلال التاريخ البشرى غير متعلق بالهدى ولا بالضلال :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا » ١٠

١٠ « سورة الاسراء [٢٠]

منشؤه تلك الرغبة الفطرية التي أودعها الله قلب الإنسان ، التي تدفعه إلى التعرف على خواص المادة وخواص الكائنات الحية من حوله ، ومحاولة استخدام هذه المعرفة في التحسين المستمر لأحواله المعيشية . وهي رغبة كما قلنا لا تتعلق بالهدى ولا بالضلال .. ومن ثم فجعلها هي المقياس لتقدم الإنسان يؤدى إلى نتائج باطلة .

فقد يحدث - كما حدث في وقت نشأة الأمة الإسلامية - أن يكون حاملون الهدى الربانى ، المتبعون لمنهج الله ، متأخرين في مبدأ أمرهم من الناحية العلمية والتكنولوجية ، قليلي الحظ من العمارة المادية للأرض ، ويكونون مع ذلك في أعلى درجات الرفعة الإنسانية ، كما كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم ، الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير أمتى القرن الذى بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم .. » « ٢ » فلا يمنعهم هذا التأخر المؤقت في ميدان العلم النظرى والتطبيقى أن يكونوا أروع نماذج للبشرية في أوج ارتفاعها . ولكنهم - بحكم الانطلاقة الهائلة التى تحدثها النشأة الجديدة في كيانهم - لابد أن يتجهوا بعد فترة من الزمن إلى العمارة المادية وتظهر إنجازاتهم فيها كما حدث للمسلمين في العهد الأموى والعباسى .

بينما يحدث كثيرا أن يكون قوم في قمة العمارة المادية للأرض ولكنهم فارغون من القيم العليا ، فتزداد حياتهم خللا وانحدارا كلما أوغلوا في العمارة المادية ، كما هو حادث في الجاهلية المعاصرة .

ومن ثم لا يصلح التقدم المادى - وحده - معيارا من معايير التاريخ . حقيقة إنه جزء من مهمة « الخلافة » التى خلق الله الإنسان ليقوم بها في الأرض ، بحيث يكون الإنسان المتقاسم في هذا الجانب - مع القدرة عليه - مقصرا في أداء جزء من مهمته . ولكن العبرة ليست في مجرد أداء هذه المهمة ، إنما في الطريقة التى تؤدى بها : هل هى متفقة مع المنهج الربانى ، أى متقيدة بالحلال والحرام ، ونظافة المشاعر ونظافة السلوك ، والأمانة والعدل ، وسائر القيم العليا التى تكون الجوهر الحقيقى لإنسانية الإنسان ، أم غير متفقة مع ذلك المنهج ، أى غير متقيدة بالحلال والحرام والنظافة الحسية والمعنوية والأمانة والعدل .. أى غير محققة لإنسانية الإنسان .

٢١ رواه مسلم .

فالتقدم العلمى والتكنولوجى ضرورى لعمارة الأرض ، ومن ثم فهو واجب على أى مجموعة من البشر يضمها تجمع معين . ولكن لابد له من شروط يقوم عليها، وإلا فقد كثيرا من اعتباره، وتحول إلى أداة سلبية تدفع الإنسان إلى الدمار !

« أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم » ١ « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ٢ « وليس من الضرورى أن يتم التدمير بمجرد ظهور الفساد واستشرائه .. فإن من سنن الله أن يمد للقوم الظالمين - مع ظلمهم - ويمكن لهم ، ويفتح عليهم أبواب القوة فى كل اتجاه .. ليزدادوا فسادا وانحرافا ، ويزدادوا استحقاقا للتدمير ..

« قلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » ٣ «

بينما من سنن الله مع المسلمين الا يمكن لهم فى الأرض إلا وهم مستقيمون على طريقه ، فإذا انصرفوا زال عنهم التمكين حتى يعودوا إليه . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا : يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » ٤ «

ويقيم الناس فى حياتهم علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية ليس بعضها نابعا من بعض ولا بعضها تابعا لبعض .. إنما الأصح أن نقول إنها - كلها - أوجه متعددة « لموقف » معين ، فى اتجاهات مختلفة ولكنها مترابطة .. فالموقف الواحد : على طريق الله أو على غير طريقه ، يتجسم فى كيان سياسى اجتماعى اقتصادى معين ، وفكرى وروحى وخلقى وفنى كذلك .. أى فى جميع

١ . أى بالتدمير عليهم كما كذبوا الرسل ولم يستجيبوا لهم

٢ . سورة الروم [٩]

٣ « سورة الانعام [٤٤ - ٤٥]

٤ « سورة النور [٥٥]

الاتجاهات ، وتكون كلها - في المعتاد - متناسقة بعضها مع بعض ، إلا أن يكون هناك اختلال في الشخصية - شخصية الجماعة - فيكون بعض نشاطها من منبع معين وبعضه من منبع مخالف ، كما هو حاضر « المسلمين » اليوم في كل الأرض ، يعيشون بعض جوانب حياتهم على تراثهم الذي « ورثوه » وبعض جوانبها الأخرى من الجاهلية المعاصرة ، في القيم والأفكار والمشاعر وأنماط السلوك .. وهو وضع شاذ في حياة المسلمين وفي حياة البشرية كذلك .

وتختلف صورة الكيان الاقتصادي باختلاف مدى التقدم العلمي والمادي للجماعة البشرية ، فينتقل من اقتصاد رعوى إلى زراعى إلى صناعى .. الخ .. ولكن العبرة لا تكون بمقدار التغير في « الصورة » إنما العبرة « بالموقف » الذي تنبثق منه الصور جميعا وتجسده .. وهو لا يخرج عن أحد موقفين : إما موقف إيمانى قائم على المنهج الربانى ، وإما موقف جاهلى مجاف للمنهج الربانى . أى أن العبرة ليست بكون المجتمع رعويا أم زراعى أم صناعيا ، إنما العبرة في كونه رعويا مؤمنا أم رعويا جاهليا ، وزراعى مؤمنا أم زراعى جاهليا ، وصناعيا مؤمنا أم صناعيا جاهليا .. وهذا هو الذى يحدد مركزه في التاريخ الأرضى ، فضلا عن مركز أفراده في اليوم الآخر» ١ .

وعلى ذلك فإن القيم في المنهج الربانى لا تتغير مع تغير الصورة . فيظل المجتمع المسلم - في جميع أطواره الاقتصادية - عابدا لله ، بمعنى الاعتقاد الصحيح في الله ، وأداء الشعائر التعبدية لله ، وتحكيم شريعة الله . ويظل متمسكا بأخلاقيات لا إله إلا الله سواء في علاقات الجنس ، أو علاقات المال ، أو علاقات الولاء والسلم والحرب .. الخ ، أى ملتزما بالجلال والحرام وبسائر ما أنزل الله .

أما في « الموقف » الآخر غير الإيمانى فلا معيار لشيء ، لأن القيم ذاتها غير قائمة على أساس واضح .. ولهذا يعيث بها من أراد أن يعيث كما عبث اليهود بكل القيم في المجتمع الغربى مع الثورة الصناعية وزعموا أن عبثهم ذلك حتمية وقانون !

« ١ في اليوم الآخر يحمل كل إنسان مسئوليته الخاصة » لا تزر وازرة وزر أخرى وإن ليس للإنسان إلا ما سعى . وإن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . [سورة النجم ٢٨ - ٤١] « لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم أتاه يوم القيامة فردا » [سورة مريم ٩٤ - ٩٥] « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله » [سورة الانفطار ١٩] ولكن مسئولية كل إنسان الاجتماعية راحلة في مسئوليته الخاصة التى يحاسب عنها يوم القيامة . هل سعى إلى إقامة المنهج الربانى وأمر بالمعروف ونهى المنكر بيده أو بلسانه أو بقلبه أم نكل عن ذلك جميعا ..

وصحيح أن هناك سمات مشتركة تصنعها «البيئة» في المجتمع الرعوى أو الزراعى أو الصناعى قد يتشابه فيها المؤمنون وغير المؤمنين . ولكن هذا الشبه العارض لا يجوز أن ينسبنا أن الذى يحدد المركز الحقيقى للإنسان فى الدنيا أو الآخرة هو «الموقف» الذى يتخذه ، وليست المظاهر الثانوية التى قد تتوافق أو تتعارض بغير تأثير حاسم فى حياة الناس .

وتقوم فى حياة الناس على الأرض صراعات متعددة ..
فأما فى المجتمع الايمانى فالصراع هو دائما الصراع بين الحق والباطل يأخذ صوراً شتى .
صورة منه هى القتال ضد النظم والحكومات والجيوش الكافرة لإزالتها من طريق الدعوة، باعتبار أن وجودها ذاته عائق واقعى يمنع الناس من الاستجابة إلى دعوة الحق .. فأما إذا أزيلت فلا إكراه على اعتناق العقيدة الإسلامية . ولكن تحكم شريعة الله ليستظل بعدتها الناس جميعاً ولولم يدخلوا فى العقيدة الصحيحة .

وصورة منه هى مجاهدة عوامل الانحراف فى المجتمع الإسلامى ذاته ، عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
وصورة منه هى مجاهدة النفس الأمارة بالسوء ، اللاصقة بالشهوات ، حتى تصير إلى النفس اللوامة التى أقسم بها الخالق جل جلاله ، لأنها تنهى النفس عن الهوى .

« لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة » « ١ »
« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى .
الماوى » « ٢ »

وأما فى المجتمع الجاهلى فالصراع لا يدور أساساً بين الحق والباطل ، وإن كانت تدور بين الحين والحين صراعات بين جوانب جزئية من الحق وجوانب جزئية من الباطل . إنما يدور الصراع أساساً بين قوى الباطل المختلفة ، ويتخذ صوراً شتى :

صورة منه هى عدوان أمة على أمة بدافع شهوة الغلبة والتوسع والعدوان

« ١ » سورة القيامة [١ - ٢]

٢ سورة المازعات [٤٠ - ٤١]

والاستزادة من متاع الأرض عن طريق العدوان . إما بتأسيس إمبراطوريات أو « دول عظمى » ! تبتلع الدول الصغرى وتستذلها لصالحها ، وإما بحروب دائمة بين الجيران وغير الجيران .

وصورة منه هى الصراع داخل المجتمع بدافع شهوة السلطة أو شهوة الملك أو شهوة الجنس أو شهوة البروز أو غيرها من الشهوات ، على هيئة صراع طبقى وصراع فردى .

ويتلخص الفارق بين نوعى الصراع فى الآية الكريمة
« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل
الطاغوت » ١ «

والطاغوت هو كل ما يستعبد الناس له من دون الله .

والتفسير الإسلامى للتاريخ واقعى واقعية الإسلام .
فمن ناحية يقدر أن الصورة المثالية للتطبيق الإسلامى ليست هى الصورة الدائمة . وأن الضغوط المادية والاقتصادية وضغوط الشهوات البشرية يمكن أن تؤثر فى التطبيق الواقعى فتنزله من صورته المثالية إلى صورة أدنى . ومن ناحية أخرى يقدر أن الحكام يمكن أن يطفخوا بسلطان الحكم وسلطان المال الذى فى أيديهم فيجوروا ويظلموا، رغم قيامهم بتطبيق شريعة الله فى المواضع التى لاتخص سلطانهم وامتيازاتهم التى يصنعونها لأنفسهم .

ولكن التفسير الإسلامى - الذى يفسر التاريخ بحسب السنن الربانية - يقول إن هذه الأمور كلها هى انحرافات عن المنهج الربانى الصحيح ، ليس لها إلا إحدى صورتين ، وإحدى نتيجتين :

إما أن تكون فى حيز محدود ، فلا يصيب الظلم أو الفساد رقعة كبيرة من الأمة بسبب تأثير العقيدة فى النفوس من ناحية ، وتأثير تطبيق الشريعة فى حصر الظلم فى الحيز المحدود المحيط بالحكام من ناحية أخرى . وعندئذ تستطيع الأمة أن تعيش فترة طويلة حتى والفساد فى داخلها ، وتكون برغم هذا الفساد الجزئى أفضل وأنظف وأعلى من الجاهلية .. وإما أن تزيد رقعة الفساد عن الحد المعقول ، وعندئذ تدركها سنة الله التى لاتتخلف ولا تحابى أحدا ، فتنهار الأمة حتى وهى تحمل اللافتات الإيمانية ، لأنها تكون عندئذ لافتات مزيفة لا

١٠٠ . سورة النساء [١٦]

رصيد لها من الواقع . والسنة الربانية - الحتمية التى لا تتبدل ولا تتحول -
لاتتعامل مع اللافئات المرفوعة إنما تتعامل مع الواقع الحقيقى .
وفى جميع الحالات لا يغفل التفسير الإسلامى للتاريخ ضغوط « الواقع »
المادى والاقتصادى التى يعنى بها التفسير المادى للتاريخ ، وتأثيرها فى نفوس
الناس ومشاعرهم . ولكن يختلف الأمر كثيرا ما بين وجود العقيدة وعدم
وجودها .

الضغوط المادية والاقتصادية دائما موجودة ودائما ذات ثقل .. ولكن
العقيدة ترفع الإنسان بمقدار تمكنها من نفسه وفاعليتها فى حياته ، فاما إن
كانت على درجة عالية من التمكن والعمق والفاعلية فانها ترفع الإنسان فوق
الضغوط المادية والاقتصادية ، فينجو من ثقلها كله ، ويصوغ حياته بمقتضى
القيم التى يؤمن بها ولايحيد عنها .. وهؤلاء هم أفاضل التاريخ .. وأما إن كانت
موجودة ولكنها على درجة من التمكن والفاعلية أقل ، فإنها على الأقل ترفع
الإنسان فتضعه إزاء الضغوط ، فيصارعها وتصارعه ، ويغلبها مرة وتغلبه
مرة ، ويكون ضغطها عليه محسوسا ولكنه ليس قاهرا .. وهذه هى الحالة
العادية للمؤمنين، سواء فى صورة مجتمع أو فى صورة أفراد .

أما فى غياب العقيدة فالإنسان فى معظم حالاته واقع تحت الضغوط المادية
والاقتصادية، لا يملك أن يرفع رأسه إزاءها ولا أن يرتفع عليها ، فتكون هى
القاهرة وهو المقهور تحتها .. وتلك هى الحالة التى ركز على شرحها التفسير
المادى للتاريخ ، وأجاد فى شرح كثير من تفصيلاتها (بصرف النظر عن
مغالطاته المكشوفة فى تفسير الدين والأسرة وأخلاقيات الجنس ، وفى تصوير
المخطط اليهودى لافساد أوربا فى الثورة الصناعية على أنه تقدم وتطور ، وأنه
حتمى !) .

ولكن هذا التفسير أخفق فى أمرين :

أخفق أولا فى إعطاء التفسير الصحيح لتلك الحالة التى ركز عليها ، إذ قدمها
على أنها هى الوضع الدائم والطبيعى للبشرية، ولم يعطها تفسيرها الحقيقى ،
وهى أنها وضع منتكس للإنسان بسبب جاهليته ، لا بسبب أن المادة بطبيعتها
رب قاهر والإنسان بطبيعته عبد للمادة !

أما إخفاؤه الأكبر فهو - كما أسلفنا - إخفاؤه فى تفسير الإسلام ، وهو
الوضع الصحيح للإنسان :

« فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « ١ »

ويقول التفسير الإسلامى للتاريخ إن هناك سننا ربانية تحكم حياة البشر على الأرض ، وإنها سنن دائمة غير قابلة للتبديل ولا التحويل .

« فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » « ٢ »

وسنة الله هى الحتمية الوحيدة فى هذا الكون ، والكون كله خاضع لهذه الحتمية بما فى ذلك الإنسان .

ولكن هناك فارقا أساسيا - بالنسبة للإنسان - بين حتمية السنن الربانية وبين الحتميات المادية والاقتصادية والتاريخية التى يزعمها التفسير المادى للتاريخ .

إن حتمية السنن الربانية لا تفرض سلوكا قهريا معيناً على الإنسان ، ولا تنفع بمعزل عن إرادته . إنما هى تفرض نتائج حتمية على السلوك الذى يتخذه الإنسان باختياره .

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » « ٣ »

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ٤ »

« وألواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » « ٥ »

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » « ٦ » .

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » « ٧ » .

« ١ » سورة الروم [٣٠]

« ٢ » سورة فاطر [٤٣]

« ٣ » سورة الروم [٤١]

« ٤ » سورة الاعراف [٩٦]

« ٥ » سورة الجن [١٦]

« ٦ » سورة الانعام [٤٤]

« ٧ » سورة هود [١٥ - ١٦]

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « ١ »
« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان
فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا
يصنعون » « ٢ »

نبراس واضح : يختار الإنسان سلوكه ثم تترتب على اختياره نتائج حتمية
الوقوع . ويغير الإنسان ما هو عليه فيغير الله له . إن كان في نعمة فكفرها يغير
الله حاله إلى سوء ، وإن كان في سوء فغيره يغير الله حاله إلى الخير .
وتفسح السنن الربانية الرقعة فلا تنحصرها في الحياة الدنيا وأحداثها ، إنما
تمدها إلى اليوم الآخر ، الذي يتحقق فيه الجزاء الكامل ، وتكتمل صورة الحق
التي لم تكتمل في الحياة الدنيا :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » « ٣ »
« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا .. ذلك ظن الذي كفروا » « ٤ »
فقد يقع الظلم من إنسان ، ويظل ظلما حتى الموت دون أن يأخذ جزاءه في
الحياة الدنيا ، وقد يقع الظلم على إنسان فيظل مظلوما حتى الموت دون أن ينتقم
الله له من ظالمه في الحياة الدنيا . ولكن هذا ليس آخر المطاف .. إنما آخر
المطاف يوم « يوفيه الله دينهم الحق » « ٥ » فينال الإنسان جزاءه الكامل على
الموقف الذي اتخذ والطريق الذي اختاره ، سواء كان قد عجل له بشيء من
الجزاء في الحياة الدنيا أو أجل له كله إلى يوم الحساب .
وفرق كبير بين وضع « الإنسان » في التصور الإسلامي والتصور الذي
يقدمه التفسير المادي للتاريخ ، وبين حجم الإنسان وحجم فاعليته في كلا
التصورين . ففي التصور الإسلامي هو حقيقة « إنسان » يمارس مسؤوليته في
الأرض . يمارس حمل الأمانة التي اختصه بها الله بين المخلوقات . وهو في
التصور الآخر شبح غير محدد الكيان ، أو أداة لا حرية لها ولا اختيار .

وأخيرا فإن الإنسان في تطوره التاريخي له كيان ثابت وصور متغيرة على
الدوام .

١ . سورة الرعد [١١]

٢ . سورة النحل [١١٢]

٣ . سورة المؤمن [١١٥]

٤ . سورة ص [٢٧]

٥ . سورة النور [٢٥٦]

فأما الكيان الثابت فمصدره الفطرة . وأما الصور المتغيرة فمصدرها التفاعل الدائم بين هذه الفطرة وبين الكون المادى . ومحاولة الإنسان الدائبة تحقيق التسخير الربانى لما فى السموات والأرض من أجل الإنسان « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » ١ .

والفطرة البشرية ذات مرونة تسمح لها بالتشكل المستمر ، بما يناسب القدر الذى يتم تسخير من طاقات السموات والأرض . ولكن هذه المرونة - وهى مزية ميز الله بها الإنسان ليعينه على دور الخلافة فى الأرض - ليس معناها انعدام الشخصية الإنسانية ، أو السلبية الكاملة ، أو عدم وجود كيان محدد للإنسان . إنما معناها فقط عمق هذه التحصية وسعها وتعدد جوانبها . بحيث تستطيع أن تستوعب أشكالا متعددة من الحياة ، وتبذل ألوانا متعددة من النشاط .

وحقيقة إن هذه المرونة تجعل الإنسان يحتمل كثيرا من الضغوط ، ويتشكل تحتها بصور تخالف ماهو مفروض أن يكون عليه فى حالته السوية ، مما يغرى الطغاة على طول التاريخ البشرى أن يضغطوا على شعوبهم ويستعبدهم . ولكن هذا ليس معناه عدم وجود حدود حاسمة للكيان البشرى يقف عندها فى تشكله . أو فى خضوعه للضغوط الواقعة عليه ، فإنه فى النهاية يثور ..

ومعنى ثورته أن احتماله للتشكل الخاطى الذى فرض عليه بالضغوط قد انتهى ، وأنه يريد أن يصحح وضعه بما يناسب كيانه الطبيعى .. وسواء نجحت الثورة أو فشلت فدلالتها ثابتة فى الحالىن .. والنجاح والفشل مسألة ظروف مواتية أو غير مواتية ، ومسألة إعداد وتنظيم أو فوضى وارتجال . أما الثورة فمعناها أن شيئا مخالفا لطبيعة الإنسان قد فرض عليه بالقوة، وهو يريد أن يرده عنه ليعود إلى وضعه الطبيعى .

وفى التاريخ البشرى ثورات كثيرة فاشلة وناجحة ، هى محاولات دائمة لدفع ضغوط مفروضة وتصحيح أوضاع خاطئة .. وكل ثورة تحدث « شيئا ما » فى حياة البشرية يغير خطاها إلى خط جديد .. ولكن تظل البشرية تتخطى مدامت بعيدة عن المنهج الربانى ، فتحل مشكلة بمشكلة جديدة ، وتتخلص من ضغط لتقع فى ضغط من نوع آخر ، كما خرجت من الرق إلى الإقطاع ، ومن الإقطاع

١٠ . سورة الجاثية [١٢]

إلى الرأسمالية ، ومن الرأسمالية إلى الشيوعية . ولا سبيل لها إلى التصحيح الحقيقى لأوضاعها إلا بالدخول فى المنهج الربانى ، الملائم للفطرة السوية ، المنزل من عند خالق هذه الفطرة ، العليم بما يصلحها وما يصلح لها . وهو منهج ثابت القيم والأركان كثبوت هذه الفطرة ، ويسمح فى الوقت ذاته بتغير الصورة على الدوام بما يلائم النمو الدائم للحياة البشرية . ولكنه لا يسمح بالصورة المنحرفة لأنها تمرض الفطرة ، وتؤدى إلى الفساد فى الأرض . ومن أجل ذلك يجعل القواعد الثابتة هى التى تحكم المتغيرات ، ولا يسمح للمتغيرات بتغيير القواعد الثابتة .

ولا تزال البشرية تهتدى فتستقيم حياتها ، وتضل فتصيبها السهنة الربانية التى تترتب على الضلال . ولكن لا توجد حتمية واحدة للهدى ولا حتمية واحدة للضلال . إنما الانسان هو الذى يقرر لنفسه :

« ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » « ١ »

« والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » « ٢ »

تلك لمحة سريعة عن التفسير الإسلامى للتاريخ فى مواجهة التفسير الجاهلى ، قد لا تكون كافية لإبراز ملامحه .. ولكنها تكفى على أى حال لرؤية الهوة العميقة التى يضع التفسير المادى فيها الإنسان .

ثالثاً : المنهج الاقتصادى بين النظرية والتطبيق

أشرنا فى التمهيد إلى أن الشيوعية ليست مذهباً اقتصادياً بحتاً كما يجرى الحديث عنها أحياناً ، ولكنها تصور شامل للكون والحياة والإنسان ولقضية الألوهية كذلك ، وتفسير شامل لذلك كله على أساس مادى .

بعبارة أخرى فإن المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ جزء من « النظرية » الشيوعية لا ينفصل عنها . ولذلك لم يكتف ماركس أو إنجلز أو غيرهما من الكتاب الشيوعيين بأن يتحدثوا عن الشيوعية كمذهب اقتصادى ،

١ . سورة الشمس [٧ - ١٠]

٢ . سورة العصر [١ - ٢]

إنما جعلوا حولها هذه الفلسفة الشاملة لتفسرها - أولتبررها - سيان .
وهذا الذى صنعه ماركس وإنجلز والمفسرون الشيوعيون هو الأمر
الطبعى ، الذى يتجافاه أو يتجاهله الذين يتحدثون عن الشيوعية كمذهب
اقتصادى بحت . ذلك أنه لا يوجد مذهب اقتصادى مجرد ، ليس له ارتباط
بتصور شامل عن الكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية !

ورغم أننا لا نوافقهم فى زعمهم أن الأوضاع الاقتصادية والمادية هى الأصل
الدائم الذى تنبثق منه الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، والفنية ..
الخ ، فإننا نرى - كما أشرنا من قبل - أن هناك ارتباطا بين هذه الأمور كلها،
لأنها أوجه مختلفة لقضية واحدة، أو لموقف معين من قضايا الألوهية والكون
والحياة والإنسان .

وسواء أخذنا بوجهة النظر هذه أو تلك فإن النظرية الاقتصادية لا يمكن أن
تقف وحدها مجردة عن فلسفة شاملة تربطها بالقضايا الأخرى كلها ، سواء
كانت هذه النظرية شيوعية أو رأسمالية أو إسلامية ..

وقد نجد فى التحليل الأخير أن الفلسفة المحيطة بالنظرية الشيوعية لا تختلف
كثيرا - فى جوهرها - عن الفلسفة المحيطة بالنظرية الرأسمالية !

فكلتاهما فلسفة مادية حيوانية لا ترتفع بالإنسان عن مستوى المادة أو
مستوى الحيوان ، وتعتبر الوضع المادى والاقتصادى هو الأصل الذى يشكل
الحياة .. وكلتاهما تبعد المنهج الربانى كلية عن أن يحكم الحياة أو يسيطر
عليها . وكلتاهما تبيح الفساد الخلقى وتسمح له أن يستشري فى الأرض !
ولكننا سنجد - على الأقل - فرقا فى الدرجة بين هذه وتلك !

فالشيوعية أشد إمعانا فى إبعاد المنهج الربانى إلى حد النص الرسمى على
الإلحاد فى صلب الدستور : « لا إله . والكون مادة » وأشد إبعادا للإنسان عن
إنسانيته ، باعتبارها إياه مادة خالصة، لا خليطا من المادية والحيوانية كما
تصنع الرأسمالية .

إن الفارق الوحيد - الذى يرويه جوهريا ولا نراه كذلك - هو فى « من
يملك » ؟ وهو فارق فى « القشرة » الاقتصادية والسياسية والاجتماعية
والفكرية أكثر مما هو فارق فى الأصل الذى تغطيه هذه القشرة . لأن النزاع
انحصر كما هو ظاهر فى « من يملك » ولم يتجاوزه إلى النظر فى المالكين أنفسهم ،
ونظرتهم إلى الكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية ، وهى نظرة صحيحة

أم خاطئة ، وهل هم - بمعيار القيم الإنسانية - مرتفعون أم هابطون .
فإذا وجدنا - بالمعايير الربانية - أن المالكين كلهم سواء في الجاهلية
المعاصرة ، كلهم جاهليون ، كلهم نابذون للمنهج الرباني معادون له مصرون
على إبعاده عن حياتهم ، فإن الفوارق الجزئية بينهم بعد ذلك تظل فوارق ثانوية .
وليست جوهرية كما قد ينظرون إليها فيما بين بعضهم وبعض ، وخاصة في
لحظات التنازع والخصام .

وصحيح أن « مظهر » الحياة يختلف كثيرا فيما بين الرأسمالية
والشيوعية ، على الأقل من الناحية الاقتصادية والناحية السياسية ، ولكننا
نضرب مثلا لتقريب الصورة فحسب .. إذا دخلت مكانا تحسب أن فيه
« آدميين » فوجدت أنه عبارة عن حظيرتين كبيرتين ، الدواب في إحدهما طليقة
« سائبة » وفي الأخرى مربوطة مقيدة ، فليس الذى بيدهك للوهلة الأولى هو أن
هذه سائبة وهذه مقيدة ، إنما الذى بيدهك أنك وجدت الدواب حيث كنت تتوقع
وجود الأدميين ، ولابد - بطبيعة الحال - أنك ستلاحظ الفارق بين مجموعة
الدواب هذه وتلك ، وقد تلحظه لأول وهلة ، ولكنك لا تعيره اهتماما كبيرا طالما
أنت ناظر إلى قضية وجود الدواب في مكان الأدميين . أما إذا ألقيت هذه القضية
جانبا فسيتضخم في حسك ولا شك ذلك الفارق الشكلى ، وستروح تبحث ، أيهما
الأولى : أن تكون جميعها سائبة أم جميعها مقيدة !

تشبيه تمثيلي لتقريب الصورة فحسب .

فمن وجهة النظر الإسلامية لا يفترق الوضع الرأسمالى كثيرا عن الوضع
الشيوعى . كلاهما وضع جاهلى يحكم بغير ما أنزل الله . كلاهما ينفر نفورا تاما
من إدارة شؤون الحياة بمقتضى المنهج الربانى . كلاهما لا يعترف على الإطلاق
بأن حق التشريع ، أى حق تقرير الحلال والحرام والحسن والقبيح والطيب
والخبث ، هو حق الله وحده ، إنما يقوم كلاهما على أن هذا الحق هو حق البشر
وحدهم من دون الله .. ثم يختلف هؤلاء البشر فيما بينهم بعضهم يذهب إلى
اليمن ، وبعضهم يذهب إلى اليسار ، وكلاهما يتنكب الطريق .

بعد هذه المقدمة الضرورية ، التى نخلص منها بنتيجتين رئيسيتين : الأولى
أن الشيوعية ليست مذهباً اقتصادياً بحتاً يمكن تجريدته بمفرده ، إنما هى
تصور شامل للكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية ثم مذهب اقتصادى

مبنى على هذا التصور ومرتبطة به بحيث لا يمكن فصله عنه . والثانية أن الفارق بين الفلسفة الشيعية الخاصة بقضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان والفلسفة الرأسمالية المتعلقة بهذه القضايا ذاتها فارق ثانوى من وجهة النظر الإسلامية ، لأنه فارق في « القشرة » وليس في الجوهر الحقيقى ... بعد هذه المقدمة نأخذ في الحديث عن المذهب الإقتصادى في الشيعية ، مبتدئين بالنظرية ثم معقبين بالتطبيق .

النظرية الشيوعية

تقوم النظرية الشيوعية على مجموعة من الأسس والمبادئ يمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

- ١ (إلغاء الملكية الفردية إلغاء باتا وإحلال الملكية الجماعية بدلا منها .
 - ٢ (إلغاء الطبقات بإقامة دكتاتورية البروليتاريا وإبادة الطبقات الأخرى
 - ٣ (كفالة الدولة لجميع « المواطنين » في مقابل تكليف القادرين منهم بالعمل رجالا ونساء .
 - ٤ (المساواة في الأجور .
 - ٥ (إلغاء الدين .
 - ٦ (تطبيق مبدأ « من كل بحسب طاقته ، ولكل بحسب حاجته » .
 - ٧ (إلغاء الصراع من المجتمع البشرى بإلغاء الباعث عليه وهو الملكية الفردية .
 - ٨ (إلغاء الحكومة في المستقبل ، وإقامة مجتمع متعاون متعاطف بغير حكومة .
- ونحاول فيما يلي بسط كل واحد من هذه المبادئ في إيجاز دون تفصيل

١ - إلغاء الملكية الفردية :

اسلفنا القول في مناقشة المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ أن الشيوعيين يعتبرون الملكية الفردية هي المسؤولة عن كل الشرور التي خاضتها البشرية منذ تركت مرحلة الشيوعية الأولى حتى دخلت مرحلة الرأسمالية ، وأنها كانت خلال ذلك التاريخ كله مثار « الصراع الطبقي » الذي يبعث الأحقاد والاضطرابات في المجتمع البشرى . وأنه لابد من إزالتها والرجوع بالناس إلى الملكية الجماعية التي كانوا عليها في الشيوعية الأولى لكي تستريح البشرية من الصراعات والأحقاد وتعيش في طمأنينة وسلام . ويرى الشيوعيون أن الشيوعية الثانية والأخيرة التي يدعون إليها هي الحل ، وهي طريق الخلاص . لأنها ستلغى الملكية الفردية إلغاء باتا وتحل الملكية الجماعية محلها ، فلا يملك أحد شيئا من وسائل الإنتاج وأدواته ملكية فردية ، سواء كان الإنتاج زراعيا أو صناعيا ، إنما تكون الملكية جماعية .

وليس معنى الملكية الجماعية أن أى مجموعة من الناس يملكون أو يمكن أن يملكوا ما تحت أيديهم من وسائل الإنتاج وأدواته ملكية مشتركة ، كأن يملك العمال المصنع الذى يعملون فيه ، أو يملك الفلاحون المزرعة التى يفلحونها (كما يتبادر أحيانا إلى أذهان السذج الذين يستمعون إلى الدعاية الشيوعية فيتصورونها على غير حقيقتها) إنما معناها أن « الدولة » هى المالك الوحيد للإنتاج كله ، بوسائله وأدواته ونتاجه ، فهى التى تملك المصانع وإنتاجها كما تملك المزارع ومحاصيلها . وتقول النظرية إن الدولة تقوم بذلك نيابة عن الشعب ، أو عن طبقة « البروليتاريا Proletariat » (ومعناها الطبقة الكادحة) التى يفترض فيها حسب النظرية أنها هى المالك الحقيقى ! ذلك أن النظرية الشيوعية تقول إن المنتج الحقيقى لأى سلعة هو العامل الذى يبذل الجهد لإنتاجها . ولكنه فى ظل الإقطاع والرأسمالية لا يملك الناتج الذى أنتجه بجهد ، إنما هو يبيع جهده للإقطاعى أو الرأسمالى الذى يشتري هذا الجهد بأبخس الأثمان ويستمتع وحده بفائض القيمة (وهو الفرق بين ثمن المادة الخامة مضافا إليه أجر العامل وبين سعر السلعة فى السوق) وعلى هذا يعتبر الإقطاعى والرأسمالى مستغلا لجهد العامل وظالم له ، ويعتبر العامل فى وضع غير إنسانى لأنه مستغل لحساب إنسان آخر ، وهذا فى شرعة الشيوعية غير جائز لأن الجريمة الكبرى فى حق الإنسان هى أن يكون مستغلا من قبل إنسان آخر . أما فى الشيوعية فليس هناك استغلال من إنسان لإنسان لأن الكل مالكون ، وإن كانت الدولة من الوجهة العملية هى التى تدير هذه الملكية ، وهى التى توزع الناتج على « المالكين الحقيقيين » !

وسنتحدث عن طريقة التوزيع فيما بعد . إنما نكتفى هنا بالقول بأن الدولة هى المتصرف الحقيقى فى جميع الأمور .

ويقول الشيوعيون كما أسلفنا إن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية (بل إنه لا توجد نزعات فطرية على الإطلاق) وإن الملكية الجماعية هى الأصل فى حياة الإنسان بدليل الشيوعية الأولى . إنما اكتسب الإنسان تلك النزعة الشريرة فيما بعد اكتشاف الزراعة . وإنه ينبغى تطهير الناس من هذا الشر الذى اكتسبوه ، وإعادةهم إلى الحالة التى كانوا عليها أول مرة بجعل الملكية ملكية جماعية .

٢ - إلغاء الطبقات

منذ خرج الناس من الشيوعية الأولى التى لا ملكية فردية فيها ، أو بعبارة أخرى منذ بدأت الملكية الفردية بدأ ظهور الطبقات فى المجتمع . اذ انقسم الناس إلى مالكين وغير مالكين . واستغل المالكون ما فى أيديهم من الملك لاستغلال الآخرين الذين لا يملكون . فأصبحت الملكية سلطة استغلالية ، وأصبحت الطبقة المالكة هى التى تحكم ، وبما أن السلطة فى يدها فقد صارت تحكم بما يناسب مصالحها على حساب الطبقة التى لا تملك (ومن ثم لا تحكم) واستمر هذا الوضع بصورة سافرة فى عهدى الرق والإقطاع ، وبصورة مقنعة فى ظل الرأسمالية . وتقرر الشيوعية أن هذا كان ظلما فاحشا بالنسبة لطبقة الكادحين الذين هم المنتجون الحقيقيون ، إذ بدلا من أن يملكوا نتيجة جهدهم فإن طبقة السادة التى تستغلهم هى التى تستمتع وحدها بثمره هذا الجهد ، بينما يظلون هم فى الحرمان والذل والهوان ، وليس أقل الذل أن يضطروا إلى بيع جهدهم للمستغل الذى يعملون عنده أو يعملون لحسابه .

ثم تقرر النظرية أن هذا الظلم الفاحش لا سبيل إلى إزالته إلا بإزالة النظام كله ، نظام الطبقات القائم على الملكية الفردية .

فطالما كان هناك ملكية فردية فهناك طبقات . وطالما كان هناك طبقات فهناك ظلم . والسبيل هو إلغاء الطبقات المستغلة (أى المالكة) والإبقاء على الطبقة الوحيدة المنتجة ، وهى طبقة الكادحين (البروليتاريا) لأن الطبقات الأخرى طبقات طفيلية لا تستحق البقاء ، كل عملها أن تمتص دماء الكادحين وهى لا تتعب ولا تبذل جهدا ، إنما تسرق الجهد لتعيش به حياة ترف وكسل وخمول بينما المنتجون الحقيقيون فى شقاء وكدح وعناء .

والطريق المؤدى إلى ذلك هو الثورة وهى ثورة حمراء تراق فيها دماء غزيرة حتى يستتب الأمر لطبقة البروليتاريا، فتصل إلى السلطة وتبديد الطبقات الأخرى إبادة ، ثم تلغى الملكية الفردية حتى لا تظهر من جديد طبقة مالكة تستغل الكادحين .

ويسمى نظام الحكم الذى ينشأ من هذه الثورة « دكتاتورية البروليتاريا » لأن البروليتاريا لابد أن تحكم بالديكتاتورية ما دامت المعركة ما تزال قائمة بين الشيوعية وأعدائها .

وحكمة الديكتاتورية أن أعداء الشعب لا ينبغي أن تترك لهم أى ثغرة ينفذون منها للقضاء على النظام الصحيح (وهو الشيوعية) لأنهم - بطبيعة الحال - لن يرضوا عن النظام الذى يحرمهم من امتيازاتهم الطبقيّة ، فهم أعداء الداء له . وما دام هناك دول رأسمالية وإقطاعية ما تزال قائمة فى الأرض فإن أعداء الشعب سيتعاونون معها ، أو أن هذه الدول ستستغلهم ضد النظام . ولا ينبغي التهاون فى هذا الأمر لحظة واحدة ، ولا التراخى مع أعداء النظام - أعداء الشعب - بل لابد من مقاتلتهم بكل شدة . والسبيل إلى ذلك هو أن تتولى الدولة كل السلطات فى يدها ، وتقبض على الأمر بيد من حديد .. إلى أن يأتى الوقت الذى ينتهى فيه الأعداء من الوجود ، وعندئذ لاتزول الديكتاتورية فقط بل تزول الحكومة كذلك لانتفاء الحاجة إليها .

٣ - كفالة الدولة لجميع المواطنين :

تقوم الشيوعية على مبدأ كفالة الدولة لجميع المواطنين على أساس أن هذا واجب الدولة تجاه المواطنين ، وحق المواطنين على الدولة . ويندد الشيوعيون بالرأسمالية خاصة التى تحتفظ دائماً بجيش من العاطلين لتضرب به حركات العمال الذين يتمردون على الظلم ويطالبون بحقوقهم ، وبالإقطاع الذى يترك الناس يموتون جوعاً ليكتنز الإقطاعى ويسمن من دماء الكادحين . وفى « المنيفيستو » أى الاعلان الشيوعى الذى أعلنه ماركس أوجب على الدولة أن تكفل لكل فرد من أفراد المجتمع ضروراته الأساسية وهى الطعام والملبس والسكن والجنس ، باعتبارها حقوقاً طبيعياً ، وضرورات ينبغي إشباعها ، وتعتبر الدولة مقصرة إذا قصرت فى تحقيق شئ من ذلك لأى فرد من المواطنين .

وفى مقابل كفالة الدولة لجميع المواطنين فإنه ينبغي على كل قادر على العمل أن يعمل - رجالاً ونساء - ومن لا يعمل لا يأكل . فكما أن الكفالة واجبة على الدولة فالعمل واجب على الفرد مادام قادراً عليه ، ولا يعفى من ذلك أحد على الإطلاق إلا الأطفال حتى يبلغوا السن التى تؤهلهم للعمل ، والعجزة من الرجال والنساء الذين لا يقدرّون على أى نوع من أنواع العمل فأولئك تكفلهم الدولة بلا مقابل . وبما أن الدولة هى - من الوجهة العمليّة - المالك الوحيد والمسيطر الوحيد على الإنتاج، فهى التى تحدد لكل فرد فى المجتمع نوع العمل الذى يقوم به ومكانه

كذلك مقابل كفالة الدولة له . وتحدد الدولة صلاحية أى إنسان لنوع معين من العمل بحسب اختبارات تجريها على الأفراد لتحديد مواهبهم وقدراتهم . أما مكان العمل فتحدده الدولة حسب احتياجاتها بوصفها المشرفة على الإنتاج كله .

والمرأة - كالرجل - لابد أن تعمل فى أماكن العمل خارج البيت .
وكونها زوجة وأما لايتعارض مع هذا المبدأ . فهي تأخذ الإجازة المقررة فى حالات الحمل والوضع ، أما الأطفال فتتولاهم المحاضن لا الأمهات .
ومن ثم فإن أى أم - بعد تمضية الإجازة المقررة للوضع - تأخذ وليدها إلى المحضن وتذهب هى إلى العمل ، حتى تتسلمه مرة أخرى بعد العودة من العمل .

وتقوم المحاضن بتقديم الرعاية المطلوبة للأطفال ، حتى تنتهى أمهاتهم من العمل . حتى إذا كبروا تولت المدرسة ما كانت تتولاه المحاضن من قبل .
وبذلك لا تشغل المرأة بشؤون الأطفال عن واجب العمل خارج البيت .

وتتولى الدولة كفالة الأفراد بتقديم الطعام لهم مقابل بطاقات تموينية موحدة ، وتقديم الملابس مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف على المنوال ذاته ، كما تعد سكنا لكل فرد . أما الجنس فتطلق فيه الحرية للأفراد ينشئون علاقاتهم الجنسية على النحو الذى يحولهم . وكانت النظرية قائمة فى الأصل على أساس الشيوعية الجنسية الكاملة باعتبار أن هذه هى الصورة التى كانت عليها الشيوعية الأولى ، وأن هذا هو الأصل فى العلاقات الجنسية . ثم قام لنين بتعديل النظرية فاستبدل بالشيوعية الجنسية الكاملة نظرية « الكوب » التى تقول إن الكوب الذى يشرب به كل إنسان يصبح ملوثا ، وكذلك الجنس لابد أن تنظم علاقاته لكى لا يصبح ملوثا كالكوب اذى يشرب به الجميع ! (وكان هذا بعد الدعاية المضادة التى قامت ضد الشيوعية الجنسية من المعسكرات المعادية) فصارت هناك مكاتب للزواج والطلاق تقوم فقط بتسجيل ما يحدث من الزيجات والانفصالات ، وفى إمكان أى زوج من البشر : رجل وامرأة ، أن يذهبا فى أى وقت إلى مكتب الزواج ليسجلا زواجهما ، كما أن فى إمكانهما فى أى وقت أن يذهبا إلى مكتب الطلاق ليثبتا انفصالهما ، ولا يترتب على ذلك أى إجراءات تقيد حرية العلاقات الجنسية .

٤ - المساواة في الأجور :

تقوم النظرية الشيوعية على أساس مبدأ المساواة بين جميع الأفراد في المجتمع ، لأن هذه هي الصورة التي كانت عليها البشرية في الشيوعية الأولى ، وهي - عندهم - الأصل الذي تستمد منه كل المبادئ التي ينبغي أن تعود إليها البشرية .

تقول النظرية إن أول صورة للوجود البشري هي التعبير الطبيعي عن هذا الوجود ، وإن أي انحراف طرأ بعد ذلك لا ينبغي أن يعتد به ، بل ينبغي أن تعود البشرية فتصح أوضاعها بالرجوع إلى الصورة الطبيعية التي كانت عليها أول مرة .

وفي الشيوعية الأولى كان جميع الأفراد متساوين في الحقوق والواجبات ، وفي المأكل والملبس والسكن والجنس ، فينبغي أن تكون هذه هي الصورة الدائمة للبشرية . ولكن التطور الذي حدث بعد اكتشاف الزراعة غير هذا المبدأ الجميل ، وأخل بالمساواة التي كانت قائمة في المجتمع الشيوعي الأول . فأصبح بعض الناس مالكيين وبعضهم غير مالكيين ، فاختلفت الحقوق والواجبات بين المالكين وغير المالكين ، وأصبحت للمالكيين امتيازات اقتصادية (ومن ثم سياسية واجتماعية) تميزهم عن غير المالكين .

ولكن عدم المساواة ليس أصلاً من أصول الوجود البشري ، ومن ثم فهو ظلم ينبغي إزالته . وطريقة إزالته - بعد إلغاء الملكية الفردية وأيلولة الإشراف على الإنتاج إلى الدولة - أن تسوى الدولة بين أجور جميع العاملين ، لكي تتحقق المساواة التامة في كل شيء ، وييزول الظلم الذي عاشت فيه البشرية عدة قرون . ومن أجل تقرير هذه المساواة قررت وحدة عمل إجبارية ينبغي على كل قادر أن يقوم بها ، وتصرف للعامل بمقتضاها كل حاجاته الأساسية من مسكن وملبس ومطعم على قدم المساواة .

وعلى هذا النحو تحقق الشيوعية الثانية ما كان قائماً من المساواة في الشيوعية الأولى ، وتلغى الفوارق والامتيازات الطبقة التي أحدثتها فترات الظلم في الحياة البشرية ، وهي فترات الرق والإقطاع والرأسمالية .

٥ - إلغاء الدين :

تعتبر الشيوعية الدين أمراً واجب الإلغاء من اعتبارات عدة .

أحد الاعتبارات أنه خرافة .. ونحن الآن في عصر العلم . فقد كان الباعث الأول على الدين هو جهل الانسان بالطبيعة من حوله ، وعجزه عن السيطرة عليها . فتخيل وجود قوى خفية تسيطر على هذا الكون وتجرى الأحداث فيه . وراح يسترضى هذه القوى ليدفع أذاها عنه فتقرب إليها بالشعائر التعبدية وتقديم القرابين .

ولما كانت البشرية اليوم قد شبت عن الطوق ، وتعلمت من العلم ما تعرف به قوانين الطبيعة وتسيطر به على البيئة فقد آن أن تتخلص من هذه الخرافة غير اللائقة بالإنسان المتعلم .

الاعتبار الثاني أنه كان ناشئاً من طبيعة الوضع المادى والاقتصادى في العهد الزراعى ، حيث كان جزء من عملية الإنتاج خارجاً عن سيطرة الإنسان ، فتخيل وجود قوة غيبية نسب إليها الهيمنة على ذلك الجزء الخارج عن سيطرته وراح يتعبد لها لاجتلاب رضاها وصرف أذاها وغضبها عنه ، وسماها الله . والآن تغير الوضع المادى والاقتصادى وأصبحت عملية الإنتاج كلها منظورة وكلها تحت سيطرة العامل الذى يقوم بالإنتاج ، فلم تعد هناك حاجة لافتراض تلك القوة الغيبية التى أصبحت الآن غير ذات موضوع .

الاعتبار الثالث أن الدين يخالف المعتقد الشيعوى القائم - في نظرهم - على أسس علمية ، وهو أن المادة هى الأصل ، وهى سابقة في الوجود على الفكر . إذ يقوم الدين على أساس أن المادة مخلوقة ، وبالتالي فليست هى الأصل ، وليست سابقة على الفكر ، ومن ثم يجب إلغاء الدين لأنه يصادم التصور الشيعوى ، الذى ينبغى أن يبقى وحده ويلغى كل ما سواه .

الاعتبار الرابع أن « الدين أقيون الشعب » فقد كان المستغلون من الاقطاعيين والرأسماليين يستخدمونه لتخدير الجماهير لكى ترضى بالظلم الواقع عليها ولا تتمرد عليه ، مقابل الحصول على نعيم الجنة فى الآخرة . وبصفة خاصة فقد كان الدين يستخدم ضد الشيوعية بالذات . فحين يقوم الشيوعيون بالدعوة إلى الشيوعية يستخدم الدين لوقف هذه الدعوة ومحاربتها .

فالآن بعد قيام المجتمع الشيعوى الذى ليس فيه مستغلون ، ينبغى إلغاء ذلك المخدر الذى كانوا يستخدمونه إذ لم تعد هناك حاجة لاستخدام المخدر . ومن جهة أخرى فقد وجب القضاء على ذلك العدو اللدود الذى يستخدم ضد « العقيدة » الجديدة ومحوه من الوجود .

٦ - من كل بحسب طاقته ولكل بحسب حاجته

كان هذا المبدأ من ضمن المبادئ النظرية التي وضعت في أول الأمر لتقوم الشيوعية عليها . ومقتضى هذا المبدأ أن الناس في ظل التطبيق الشيوعي سيرتفعون بمتاعرهم وسلوكهم إلى صورة مثالية تجعل كل إنسان يبذل أقصى ما في طاقته من جهد من تلقاء نفسه دون ضغط عليه ولا إلزام، ولكن من جراء حبه للنظام وللمزايا التي يحققها له، وشعوره بالاستقرار والطمأنينة والسعادة في ظله ، وفي الوقت ذاته لا يأخذ من الإنتاج - الذي يشارك فيه الجميع ، كل بحسب طاقته - إلا بمقدار ما يحتاج إليه فحسب ، فلا يزيد عن الحاجة بدافع الجشع والطمع الناشئين أساسا من الحياة في مجتمع طبقي يمارس الملكية الفردية والصراع الطبقي . فإذا زالت الأسباب زالت الأعراض .. أى أنه إذا ألغيت الملكية الفردية وألغيت الامتيازات الطبقيّة بإزالة الطبقات كلها إلا الطبقة الكادحة فإن الجشع والطمع يزولان من نفوس الناس بزوال الأسباب الدافعة إليهما ، وعندئذ يأخذ كل إنسان من الإنتاج العام بقدر ما يحتاج إليه فحسب ، ويترك الباقي للمحتاجين غيره من الناس .

ولكن عند التطبيق تعدلت النظرية شيئا من التعديل ، فلم يلغ هذا المبدأ إلغاء كاملا ولكنه أجل إلى أجل غير محدد بزمان معين ، ولكنه مرهون بزيادة الإنتاج - بوسائل التقدم العلمى - إلى الحد الذى يمكن معه تطبيق المبدأ .

وقيل في تفسير ذلك إننا بعد لم نصل إلى مرحلة الشيوعية إنما نحن في مرحلة التطبيق الاشتراكي . ومن أسباب ذلك أننا مشغولون بالمعركة الدائرة ضد أعداء الشيوعية ، وهذا يستوجب توجيه جزء من الإنتاج إلى إنتاج حربي لمنع الأعداء من التغلب علينا أو عرقلة خطواتنا، وهذا يعوق زيادة الإنتاج إلى الحد الذى يكفى كل احتياجات الناس ويفيض عليها، بحيث لا يؤثر على عدالة التوزيع أن يأخذ كل إنسان منه بقدر ما يريد . ومن ثم فإنه في مرحلة التطبيق الاشتراكي لابد أن تظل الدولة قائمة على التوزيع ، لتعطي كل إنسان نصيبه من الإنتاج بحسب كمية الإنتاج الموجودة بالفعل ، كما تشرف الدولة على الإنتاج لتضمن قيام كل إنسان بالجهد المطلوب منه .

ولكن حين تتحقق الشيوعية يتحقق ذلك المبدأ فيبذل كل إنسان ما في طاقته من الجهد من تلقاء نفسه ، ويأخذ ما يحتاج إليه من الإنتاج ، مكتفيا من تلقاء نفسه بلا رقيب .

٧ - إلغاء الصراع :

حين تلغى الملكية الفردية ينتهى الصراع . تلك من مقررات المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ .. وقد أشرنا إلى ذلك مرارا ، وما كان بنا من حاجة إلى أفراد هذه النقطة بالحديث بعد أن أشرنا إليها عند الكلام على الملكية الفردية وموقعها من النظرية الشيوعية . ولكننا نريد أن نزيد هنا في هذه العجالة أن النظرية الشيوعية تتنبأ بحلول هذا العهد السعيد الذى يزول فيه الصراع نهائيا من حياة البشرية ويصبح المجتمع البشرى مجتمعا ملائكيا يسوده الوئام والسلام ، وذلك حين تنتشر الشيوعية في أرجاء الأرض كلها ، وعندئذ يتحقق الفردوس المفقود في واقع الأرض وتستقر الأمور في الأرض إلى آخر الزمان .

٨ - إلغاء الحكومة :

من تنبؤات الشيوعية كذلك إلغاء الحكومة في مستقبل البشرية . ونظريتهم في ذلك أن الحكومة موجودة الآن لأنها تؤدي مهام معينة لابد من أدائها في المجتمعات الحالية،حتى المجتمعات الشيوعية ذاتها (أى الاشتراكية باعتبار أننا لم نصل بعد إلى مرحلة الشيوعية الكاملة) ولكن الحكومة ليست أصلا من أصول المجتمع البشرى بحيث تلازمه في جميع أطواره . وسيأتى اليوم الذى تلغى فيه الحكومة إلغاء تاما يوم تنتهى المهام التى تؤديها . فحين تعم الشيوعية الأرض كلها وتصبح هناك حكومية عالمية واحدة ، يأتى وقت لا تعود هذه الحكومة ذاتها لازمة ، لأن مهمة الدفاع عن الشيوعية ستنتهى ، وهى إحدى المهام التى تضطلع بها الحكومة . ثم إنه لن يكون هناك صراع يحتاج إلى تدخل الحكومة بالقوة لحسمه ، فتسقط مهمة أخرى من مهام الحكومة الحالية .

ثم يزيد الإنتاج فيصل إلى الحد الذى يجد فيه كل إنسان طلبته دون أن يؤثر ذلك على احتياجات الآخرين ، فلا يعود هناك موجب لتدخل الحكومة في التوزيع .

وتكون مشاعر الناس قد ارتفعت بتأثير الحياة في ظل التطبيق الشيوعى ، فيبذلون غاية جهدهم دون حاجة إلى رقابة مفروضة عليهم من خارج ضماثرهم .

وكذلك لايتنازعون فيما بينهم - بعد إلغاء السبب الوحيد في النزاع

والصراع ، وهو الملكية الفردية - فيستتب ، الأمن تلقائيا نتيجة سيطرة مشاعر المحبة والاخاء والتعاون بين الناس .
وهكذا تسقط كل مهام الحكومة الحاضرة .. فتسقط إلى غير رجعة !

ذلك عرض موجز لأهم المبادئ والأسس التطبيقية التى تقوم عليها الشيوعية ، لم نرداعيا إلى التوسع فيه بعد ما توسعنا فى مناقشة الأسس الفكرية التى تقوم عليها النظرية . ويتبين من هذا العرض أن الشيوعية ليست مذهباً اقتصادياً مجرداً يمكن نزع بمفرده وتركيبه فى أى نظام آخر لا يشترك معه فى قاعدة التصور . فقد تبين من هذه النقاط أنها لا تقتصر على المجال الاقتصادى ، بل تمتد إلى المجال السياسى والاجتماعى والدينى والفكرى .. الخ .

وبصرف النظر عن قولهم إن هذه المجالات كلها إن هى إلا انعكاس - حتمى - للوضع الاقتصادى ، وقولنا إن هذه المجالات كلها أوجه مختلفة - ولكنها متلازمة - لموقف معين من قضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان ، فإن الشيوعية - على القولين - لم تكن ولن تكون نظاماً اقتصادياً بحتاً مقطوع الصلة ببقية المجالات . إنما هى نظام شامل للاقتصاد والسياسة والاجتماع والدين والفكر والفن .. مترابط كله على أساس تصور معين .. مادى بحت .

بين النظرية والتطبيق

نضرب الذكر صفحاً عن التناقض بين سخرية الشيوعيين بالحق والعدل الأزلين ، وبين قولهم فى النظرية الشيوعية إن استغلال إنسان لإنسان ظلم ينبغى إزالته .. وبين نفيتهم أن هناك أصلاً ثابتاً للكيان البشرى ينبغى أن يرد إليه ويقاس به ، وقولهم إن صورة الحياة فى الشيوعية الأولى - بكل ما تحويه من ملكية جماعية ومساواة ولا طبقية وتعاون .. الخ - هى الأصل الذى ينبغى أن تعود البشرية إليه ، والذى تسعى الشيوعية الثانية إلى الرجوع إليه لتعيش البشرية فى سلام !

نضرب صفحاً عن ذلك التناقض لأننا قلنا فى مناقشتنا للتفسير المادى للتاريخ إنه ليس بمبادئ حقيقية يؤمنون بها عن اقتناع « علمى » إنما هى مجرد وسائل

لغايات . والغايات هي المطلوبة والأدلة تساق سوقا وتحشر إلى جانب بعضها البعض حشرا سواء كانت متناسقة مع الغايات أو غير متناسقة .. ولا حرج عليهم أن تتناقض الأدلة ! فإذا كانت الغاية هي القول بأن الأوضاع الاقتصادية هي الفاعلة وليس الحق والعدل قيل ذلك ، وإذا كانت الغاية هي نفى الملكية الفردية بوصفها نزعة فطرية قيل إنه لا فطرة ولا أصل ثابتا للإنسان ، وإذا كانت الغاية تبرير مجيء الشيوعية الثانية قيل إن الشيوعية الأولى تمثل الأصل الذي ينبغي أن تعود إليه البشرية .

ندع هذا جانبا لأنه لن يزيد الصفحة سوءا . إنما نشير بادئ ذي بدء إلى أن النظرية الشيوعية - والتطبيق كذلك - قد نقضا كل « القشرة » السياسية والاقتصادية والاجتماعية للرأسمالية ، وأنشأ قشرة مختلفة عنها « ١ » فيما عدا أمرين اثنين : إقصاء الدين عن الحياة ، والفوضى الجنسية ، فقد رضيت عنهما الشيوعية رضاء تاما وزادت في جرعتهما حتى نصت على الإلحاد نصا في الدستور السوفيتي ، فقالت : « لا إله . والكون مادة » ونصت على الفوضى الجنسية نصا ودافعت عنها .. وحين اضطرت إلى تعديلها في النظرية على عهد لنين فإنها لم تغير شيئا حقيقيا في التطبيق .

من هنا نفهم كيف أن الشيوعية خطوة « تقدمية » إلى الأمام ! ونأخذ الآن في الحديث عن التطبيق الشيوعي ، ومدى التزامه بالنظرية من جهة ، ومدى « عدالة » هذا التطبيق من جهة أخرى .

فأما من حيث إلغاء الملكية الفردية فقد تم ذلك وبصورة حادة في المرحلة الأولى من التطبيق على عهد لنين وجزء من عهد ستالين . أما إحلال الملكية الجماعية محلها فقد تكشف عن أسطورة ضخمة ليس لها وجود حقيقي ! فلا أحد من طبقة البروليتاريا يملك شيئا في الحقيقة أو يحس بملكية شيء . إنما الدولة - كما نصت النظرية - هي المالك الحقيقي لكل شيء . والدولة - عند التطبيق - شيء والشعب شيء آخر . ومهما قيل من « نيابة » الدولة عن البروليتاريا في الملكية والإشراف عليها فهو مجرد كلام للاستهلاك النظري . أما الواقع فهو أن الدولة أصبحت كابوسا ثقيلا بدكتاتوريتها البشعة التي لاتدع

« ١ » قلنا من قبل إن الاختلاف بين الرأسمالية والشيوعية هو اختلاف في القشرة وليس في الجوهر

للناس فرصة للإحساس بوجودهم فضلا عن أن يحسوا بأنهم يملكون شيئا على الإطلاق !

فجو الإرهاب الدائم الذى تمارسه الدولة على الشعب بحجة المحافظة على النظام من أعدائه ، وجو الجاسوسية الذى يعيش فيه الشعب إلى حد أن الوالد لا يأمن ولده ولا الزوج يأمن زوجته ولا الأخ يأمن أخاه - ضمانا ألا يجتمع اثنان على سر خشية أن يكون السرمؤامرة على « النظام » - هذا الجو الذى يمكن أن يؤخذ فيه الإنسان بالظنة فيحاكم ويحكم عليه بالإعدام أو الاعتقال فى ثلوج سيبيريا أو بأى عقوبة أخرى « رادعة » .. هو جو لايسمح بوجود « التعاطف » بين الشعب والدولة ، ذلك التعاطف الذى يحس فيه أن الدولة نائبة عنه فى الملكية والإشراف عليها .. فالنيابة لا تكون بالحديد والنار والتجسس .. إنما يخضع الشعب للدولة بعامل الإرهاب المسلط عليه ، ويفقد فى النهاية أى شعور بملكية شيء على الإطلاق ! ولا يبقى له إلا شعوره بالحرمان !

ولا ينسى المصريون ما شاهدوه فى أسوان أيام كان « الخبراء الروس » يعملون فى السد العالى ، فقد كانوا يعيشون بطبيعة الحال فى جو مختلف عن النظام الذى ألفوه فى روسيا . فكان أشد ما عجبت له زوجات أولئك « الخبراء » أن الشراء حر فى الأسواق ، وأن الإنسان يستطيع أن يشتري بقدر ما يريد ، أو بقدر ما تتسع نقوده .. فكن يذهبن إلى بائعى الخضر والفواكه فيسألن فى عجب : هل نستطيع أن نأخذ بقدر ما نريد ؟! فإذا قيل لهن : نعم ! لم يصدقن ! حتى وجدن بالممارسة الفعلية أن ذلك ممكن بالفعل !

وليست المسألة هى العجب من اختلاف النظام ، فهذا أمر طبيعى . وكل إنسان يفاجأ بنظام يختلف عما ألفه وتعود عليه سيعجبه فى بادئ الأمر حتى يألف . ولكن المسألة هى اللهفة على الشراء ، ودلالاتها على مدى الإحساس بالحرمان ، والفرحة الغامرة بالتخلص من هذا الحرمان ولو إلى أمد محدود ! وتكفى هذه التجربة الواقعية للكشف عن حقائق كثيرة فى أن واحد ، عن الملكية الفردية والملكية الجماعية .. وعن النظام !

على أن الذى يعنينا هنا ليس هو البحث فى مدى تحقق تلك الأسطورة التى يطلق عليها اسم « الملكية الجماعية » حين تكون الدولة هى المالك الحقيقى ويكون الشعب كله محروما من الملكية ! إنما الذى يعنينا أكثر هو الأسطورة

التي تقول إن تلك الملكية الجماعية المزعومة يمكن أن تحل محل الملكية الفردية .
لقد زعمت النظرية الشيوعية أن الأصل في الإنسان هو الملكية الجماعية ،
وأن الملكية الفردية هي انحراف شريع وقعت فيه البشرية بعد اكتشاف
الزراعة ، وأن الشيوعية الثانية ستترد الإنسان إلى أصله « فيستمتع » بالملكية
الجماعية، ويشفى من هذا الانحراف الخطير الذى أفسد إنسانيته وأشاع الظلم
في المجتمع البشرى لقرون عديدة من الزمان !

ثم فرضت « الدولة » الأمر فرضا بالحديد والنار ..
فهل شفيت النفوس من الداء وسلمت من الانحراف ، وارتدت إلى أصلها
الملائكى المزعوم ؟!

إن الذى حدث بالفعل - وأشرنا إليه من قبل - أن « النظام » تراجع في عهد
ستالين ثم في عهد خروشوف عدة تراجعات .

ففى المرحلة الثانية من عهد ستالين كان « النظام » في حاجة إلى زيادة
الإنتاج ، ومن ثم أعلن ستالين أنه من أراد من العمال - بعد وحدة العمل
الإجبارية الأولى - أن يقوم بوحدة ثانية إضافية فسيكون له عليها أجر إضافي
يستطيع به أن يحسن أحواله المعيشية فيشتري أنواعا من الطعام أفخر ، أو
كميات أكبر ، وأنواعا من الملابس أرقى مما توفره وحدة العمل الإجبارية .

وموضع الدلالة أن الدولة حين احتاجت إلى زيادة الإنتاج لم تجد وسيلة إليه
إلا إثارة الحافز الفردى والالتجاء إليه . ولو كانت ترى - أو تعتقد في دخيلة
نفسها - أنه يمكن زيادة الإنتاج دون الالتجاء للحافز الفردى لفعلت ، خاصة
وهي تملك الحديد والنار وتستخدمهما - بإسراف - في جميع المجالات ، ذلك أن
الالتجاء للحافز الفردى - أيا تكن مبرراته التي تلقى أمام الناس - هو تراجع
عن أصل من أصول النظرية ، وهو الأصل القائل بأن الملكية الفردية ليست
شيئا فطريا وأن الأصل في الناس هو الملكية الجماعية !

موضع الدلالة إذن أن كل بطش الدولة لم يستطع أن « يشفى » الناس من
الحافز الفردى ويضع الحافز الجماعى مكانه . ومعنى ذلك أن الحافز الفردى -
الوثيق الصلة بالملكية الفردية - عميق عميق في الفطرة إلى حد لا يمكن انتزاعه ،
ولو استخدمت في انتزاعه كل وسائل البطش والإرهاب .

ثم حدث في فترة حكم خروشوف أن تزايد نقصان المحاصيل الزراعية
(وكان هذا التناقص قد بدأ في عهد ستالين ذاته ولكنه لم يكن محسوسا

بالصورة التي ظهر عليها أيام خروشوف (حتى إن روسيا بدأت تستورد القمح من أمريكا بكميات متزايدة . وكان علاج خروشوف للأمر هو تملك الفلاحين جزءاً من المحصول لأنفسهم ، وتمليكهم الدار التي يسكنونها وما تحويه من الأثاث والأدوات وما يمكن أن يشتروه لأنفسهم من هذه الأشياء .

وهو تراجع صريح عن مبادئ الشيوعية ، دلالة واضحة .. وهي أن الملكية الجماعية لم تستطع - بكل وسائل القهر - أن تحل محل الملكية الفردية .. وأن العلاج الوحيد الذي يضطرون إليه جولة بعد جولة هو الإذعان لهذا الدافع الفطري الذي نفوا - في النظرية - وجوده ، وجادلوا بكل أنواع الجدل ليثبتوا أنه غير أصيل في النفس البشرية ، وأنه « مرض » يمكن « الشفاء » منه !
والتجربة التي تمت - في العالم الشيوعي ذاته وعلى يد الدولة الشيوعية ذاتها - تغنيانا عن الالتفات إلى كل الجدل الفارغ الذي يجادل به الشيوعيون في أمر الملكية الفردية والحافز الفردي .

أما إنشاء مجتمع غير طبقي ، وإلغاء جميع الطبقات ماعدا طبقة البروليتاريا، وإقامة دكتاتورية البروليتاريا .. فقد اختلف التطبيق فيها اختلافاً واسعاً عن النظرية !

ولسنا نتحدث هنا عن « محاسن » إنشاء مجتمع غير طبقي ، ولاكون هذا الأمر واجباً أو غير واجب ، ممكناً أو غير ممكن « ١ » إنما نتحدث عن الواقع التطبيقي لنرى مقدار قربيه أو بعده عن الشيء الذي قالوا إنه واجب أن يكون .
لقد زالت طبقة الاقطاعيين نعم ، وحال تطبيق الشيوعية في الدولتين الشيوعيتين الكبيرتين دون ظهور الطبقة الرأسمالية ، وما كان منها موجوداً في الدول الأخرى التي اعتنقت الشيوعية فقد أزيل إما بنزع الملكية الفردية وإما بالابادة الثورية ..

ولكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟!

الذي حدث بالفعل أن « طبقة » جديدة بكل تعريف الطبقة ومواصفاتها قد برزت في المجتمع الشيوعي تحت اسم جديد بالمرّة هو « الحزب » !

١ . « نقول نحن إنه ممكن في حالة واحدة فقط ، حين ينزع حق التشريع من البشر ويتحكمون كلهم إلى شريعة الله ، فعندئذ لا يكون لأحد من البشر سلطة تشريعية يتمكن بها من رعاية مصالحه ومصالح طبقة على حساب بقية الطبقات ، ولأنهم في هذه الحالة تفاوت الناس في ثرواتهم لأن هذا التفاوت يظل أمراً فردياً لا طبقياً ، ولا يتجاوز حظ كل إنسان من « المتاع » في الحياة الدنيا ولنا عود إلى الموضوع عند الحديث عن نظرة الإسلام »

والفارق بين أفراد الحزب - بدرجاته المختلفة - وبين أفراد الشعب هو ذات الفارق بين أية طبقة كانت مالكة وحاكمة من قبل وبين الشعب ! فأدنى درجات الحزب - وهى العضوية العادية - تنشئ لتوها فارقا ضخما فى كل شؤون الحياة . وليست العبرة بوجود الملكية الفردية أو عدم وجودها، فلم يكن منشأ الطبقة فى المجتمعات الطبقة هو مجرد وجود الملكية الفردية كما زعم التفسير الجاهلى للتاريخ ، إنما كان ما يترتب على الملكية من سلطان ونفوذ ، انطلاقا من مبدأ أن الذى يملك هو الذى يحكم . أى أن الطبقة فى الواقع - وإن نبعت فى المجتمعات الجاهلية من الملكية الفردية كما يقول التفسير المادى - إنما هى طبقة السلطان والنفوذ ، التى تنبع من قدرة هذه الطبقة على التشريع لحساب نفسها وإلزام الآخرين بالخضوع لهذا التشريع .

وقد ألغيت الملكية الفردية من المجتمع الشيوعى ، ولكن السلطان والنفوذ الذى تركز فى « الحزب » قد جعل منه طبقة متميزة ، لها كل سمات الطبقة ومميزاتها سواء فى نوع المعيشة - أى المتاع - أو فى النفوذ والسلطان .

فمع أن العنوان العام فى الشيوعية أنه لا أحد يملك شيئا ملكية فردية فإن هناك فارقا - لا شك - بين أن تكون أنت وأفراد أسرتك جميعا تسكنون فى غرفة واحدة فى مسكن شعبى بدورات مياه مشتركة (وغالبا ما تكون بلا أبواب !) وبين أن تكون ساكنا فى « فيلا » خاصة أو فى شقة كاملة فى عمارة ، حتى ولو كنت غير مالك للشقة أو ما فى داخلها من الأثاث ملكية فردية !

هناك فارق فى نوع المتاع ودرجته ، وفارق فى مشاعرك حين تكون هنا وحين تكون هناك .

ولست أناقش هنا شرعية هذا المتاع أو عدم شرعيته ، إنما أقول فقط إنه فى النظرية الشيوعية غير جائز وغير شرعى : أما فى التطبيق فهو موجود ، ويتسع الفارق كلما صعد الإنسان الدرجات فى « الحزب » حتى يصبح عضوا فى اللجنة التنفيذية العليا أو من الأعضاء البارزين فى الحزب ، فينقلب نعيمه ترفا ما كان يحلم به بعض القياصرة فى زمانهم ! والشعب فى « أكواخه » العصرية ، الأسرة كلها فى غرفة واحدة تجمع الأم والأب والأطفال بنين وبنات ما دون سن التكليف ، وتجرى فيها العلاقات الزوجية بين الأم والأب - بحكم الأمر الواقع - فى حضرة البنين والبنات ، البالغين وغير البالغين !

وليس فارق المتاع على أى حال هو الفارق الأهم أو الفارق الوحيد . إنما المهم فارق السلطان .

إن مجرد انتقال الانسان من كونه فردا من أفراد الشعب إلى كونه عضوا في الحزب ، ينقله من « شئ » لا وجود له إلى شئ آخر له وجود ملموس ، سواء في نظر نفسه أو في نظر المجتمع من حوله ، لأنه ينقله من طبقة المحكومين إلى طبقة الحكام الذين يسيطرون على كل شئ في المجتمع الشيوعى .. حتى لو كان هو في أسفل طبقة أولئك الحكام .

إن تركيز النفوذ في « الحزب » و « الدولة » و « الزعيم » هو الذى ينشئ ذلك الفارق الضخم بين « اللاشيئية » و « الشيئية » في المجتمع الشيوعى .. ولذلك يصبح أكبر مطمح للفرد العادى في المجتمع الشيوعى أن يضع قدمه - مجرد وضع - ولو على أدنى درجة من درجات ذلك البناء الشاهق الذى يمثل السلطان ، فيتغير وجوده كله ، بل يصبح في الحقيقة موجودا بعد أن لم يكن له وجود .

وسبيله إلى هذه النقلة الضخمة التى يتشهاها كل طامح إلى الوجود لا يخرج عن أمر من ثلاثة أمور ، أشرفها جميعا - وأندرها - القيام بعمل غير عادى في خدمة « الوطن » . أما السبيل الميسرة والمعتادة فهى الملق للحزب وللدولة وللزعيم ، والظهور بمظهر التفانى في حبهم جميعا ! أو التطوع بالجاسوسية وإلقاء الشبه على الأبرياء تقربا للسلطان وإظهارا للولاء !

أما دكتاتورية البروليتاريا فهى شئ بشع إلى أقصى درجات البشاعة التى يتخيلها الخيال . وبالرغم من كل المبررات التى تساق لتبرير النظام البوليسى القائم على الحديد والنار والتجسس فستبقى حقيقة واحدة لاسبيل إلى محوها ولا إنكارها ، أن الدكتاتورية القائمة ليست - كما زعموا - دكتاتورية البروليتاريا ، إنما هى الدكتاتورية الواقعة على البروليتاريا .

إن حجم الشعب الروسى - على وجه التقريب - هو مائتان وخمسون مليوناً من البشر ، والحزب الشيوعى يكون منه ستة ملايين ، ستة ملايين من المحظوظين - على درجات مختلفة من الحظ - في وسط هذا الخضم الهائل من القطع الادمية التى لا وزن لها ولا كيان . عملها أن تنتج كالألة ثم تفرق في حمأة الجنس كالحيوان ، وليس لها بين هذا وذاك قلوب ولا مشاعر ولا وجود .

في الوضع السياسي هم أولئك الأصفار الذين لا يقدمون ولا يؤخرون ولا يقام لهم وزن . ولا عبرة بمسرحية الانتخابات ولا بقول الشيوعيين عن أنفسهم إنهم هم « الديمقراطية الحقيقية » !

ولسنا ندافع عن المسرحية الأخرى القائمة في الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية ، فقد سبق أن عرضناها على حقيقتها . ولكنها تحمل على أقل تقدير « مظهر » الحرية و « مظهر » الاختيار ، وإن كانت الغالبية العظمى ممن يصلون إلى المجالس النيابية هم - كما بينا - أدوات الرأسمالية الحاكمة ، ولا تستطيع هذه المجالس ، مهما قيل فيها من « كلام » أن تتخذ قراراً ضد المصالح الحقيقية للرأسمالية الحاكمة .

أما حين يكون الناس كلهم حزبا واحدا - بأمر الدولة - هو حزب الدولة ، فإن المسرحية تفقد حتى ذلك المظهر المزيف ، وتصبح سخرية ضخمة لا متعة فيها على الإطلاق !

ما الفرق بين أن تنتخب هذا الصفر أو هذا الصفر أو ذاك الصفر ، إذا كانوا كلهم أصفارا من جهة ، وكلهم يمثلون وجهة نظر واحدة من جهة أخرى ، وكلهم لا يملكون الكلام إلا بإذن الدولة وبالقدر الذي تأذن به الدولة من جهة ثالثة ؟ ! إن المسرحية كلها واحدة .. نعم ! ولكنك ربما تكون على استعداد لمشاهدة المسرحية والتلهي بها حين يكون الممثلون يؤدون دورهم المرسوم لهم وكأنهم يؤدونه من عند أنفسهم ، أما حين تسمع صوت الملقن واضحا يمل على الممثل أقواله وأفعاله فلاشك أن المسرحية تكون في حسك سمجة وغير مستساغة ، وإن كتب عنها في لوحة الإعلان أنها « مسرحية الديمقراطية الحقيقية » !

وفي الوضع الاقتصادي هم أولئك الكادحون .. كانوا وما زالوا .. الذين يقومون بأشق الجهد وينالون أقل الجزاء ، ويستمتع غيرهم « بفائض القيمة » لأنهم أصحاب نفوذ وأصحاب سلطان ! وليس من الضروري أن يكون « فائض القيمة » نقوداً توضع في الجيوب ، فغياب المظهر لا ينبغي أن يخدعنا عن حقيقة الجوهر . ففائض القيمة هنا هو المتاع الموفر - بصرف النظر عن الملكية - وهو السلطان والنفوذ !

حين يمرض الفرد من البروليتاريا يعالج بالأدوية المحلية ، وحين يمرض الفرد من الحزب الحاكم يعالج بالدواء الأجنبي ! وحين يتنقل الفرد من البروليتاريا يتنقل في المركبة العامة التي لاتراعى فيها أسباب الراحة ، بينما

عضو الحزب يتنقل في السيارة الخاصة - ولولم يملكها ! - فإن كان عضوا « كبيرا » في الحزب فله السيارات الأجنبية المريحة المكيفة .. وهذا غير المسكن الذى أشرنا إليه من قبل وغير صنوف الطعام .
ما الفرق بين هذا وبين التمتع بفائض القيمة في المجتمع الطبقي الذى كانوا - ومازالوا - ينددون به ؟!

وفي الوضع الاجتماعى هم أولئك الأحجار المقراصة التى يبنى بها البناء ليسكنه السكان ! السكان هم الحزب بدرجاته المختلفة من أول العضو العادى إلى « الزعيم » ، والبروليتاريا مجرد بناء مقام ليسكن فيه هؤلاء ! هل يحسن الحجر من الساكن ؟ أو يهمه أن يعرف ؟ أو يتغير وضعه بتغير السكان ؟!
كلا ! إنهم أحجار !

على أن أبشع ما فى الوضع كله هو الإرهاب البوليسى الذى يقع الشعب كله تحت وطأته .

منذا الذى يجزؤ أن يقول كلمة واحدة فى نقد الحاكم ؟ سواء فى سره أو فى العلانية ؟ أما فى العلانية فلا يلومن إلا نفسه إذا وجد رأسه طائرا عن عنقه ، ولا يوجد شخص « عاقل » يصنع ذلك الصنيع !
وأما فى سره فالجاسوسية تكشف النقاب عنه .. ومجرد الخوف من الجاسوسية يرهب القلوب ويكمم الأفواه .
ومع ذلك كله تظهر بين الحين والحين فى كل نظام شيوعى حركات التطهير التى يذهب ضحيتها المئات والآلاف .

وهذه « النكتة » من عهد خروشوف كافية لإعطاء صورة الإرهاب .. فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى وقف خروشوف يندد بـ ستالين . ويقول عنه إنه دكتاتور سفاك مجرم سافل دنىء ! وإنه غلطة لا ينبغى أن تتكرر .. وإنه ارتكب من الجرائم البشعة ما تقشعر له الأبدان ..

وهنا تقدم « مجهول » بسؤال مكتوب إلى خروشوف يقول له فيه : إنك كنت عضوا بارزا فى الحزب الشيوعى ، ورأيت هذه الجرائم كلها وكنت عالما بوقوعها ، فلماذا سكنت على ارتكابها ؟

وقرأ خروشوف الورقة - وكان حاضر البديهة حاضر النكتة - فقال : من الذى أرسل إلى هذه الورقة ؟! وبالطبع لم يجب أحد ! فقال خروشوف : الآن قد عرفت السبب ! لقد كنت خائفا مثلك فلم أنبس ببنت شفة !

وكون هذه نكتة لا يغير شيئاً من الحقيقة ، ولا يخفف شيئاً من بشاعة الارهاب .. فهى نكتة ذات دلالة على الواقع المرهوب .
والمهم على أى حال أنها ليست « دكتاتورية البروليتاريا » كما كانوا يزعمون في النظرية ، إنما هى الدكتاتورية التى تعانى غصتها البروليتاريا المسحوقة تحت الأقدام . إنما كانت أسطورة تملك المصانع للعمال ، وأسطورة منح السلطة للعمال مجرد إغراءات دعائية ليقبل الناس على الفخ المنصوب !

* * *

أما كفالة الدولة لكل فرد من أفراد المجتمع فهى الشئ الوحيد الذى برزت به الشيوعية في عالم الواقع على كل جاهليات التاريخ .
لا يوجد فرد لا يأكل ولا يلبس ولا يسكن من كل أفراد الشعب . وهذا هو الواجب الذى نكلت عنه الدولة الإقطاعية والدولة الرأسمالية على السواء . وإذا كانت الدولة الرأسمالية الحديثة قد اقتربت من أداء هذا الواجب شيئاً من الاقتراب بالضمانات الاجتماعية والإعانات التى تصرف للمتقاعدين من نقاباتهم أو من الدولة ، وبالرعاية الصحية المجانية ، وبالخدمات المجانية العامة .. الخ ، فإنها لم تبلغ بعد الحد الذى التزمت به الدولة الشيوعية ، فضلاً عن كونها قد فعلت ما فعلت لادفاع إنسانى، ولكن خوفاً من الشيوعية من جهة ، وخوفاً من الضرر الذى يلحقها إذا لم تستجب لطلبات العمال المطالبين بهذه الحقوق .
ولكن لنا على هذه الكفالة مجموعة من الملاحظات . إذا قسناها على الكفالة التى قررها الإسلام لكل فرد من أفراد الأمة قبل ذلك بثلاثة عشر قرناً من الزمان !

تكفل الدولة الشيوعية أفرادها على الحد الأدنى الذى وظيفناه من قبل ، ومع ذلك لا تكفلهم وهم كرماء على أنفسهم ولا على دولتهم ! ولا نتحدث الآن عن تكليفهم بالعمل - رجالاً ونساء - مقابل كفالتهم ، أى أن الدولة لا تفضل عليهم بالكفالة، إنما هى تجندهم لحسابها، وتستصفى جهدهم كله قبل أن تعطىهم ضرورات حياتهم ، وتهددتهم تهديداً صريحاً بقولها : من لا يعمل لا يأكل ..

لا نتحدث الآن عن هذا ، فالعمل على أى حال هو الأصل في حياة الإنسان وليست البطالة هى الأصل .. ولكننا نقول إن الدولة الشيوعية بإلغائها الملكية الفردية والعمل الحر ، وتحويل كل الناس إلى إجراء للدولة ، إنما تستذلهم في

الواقع بلقمة الخبز ، فلا يملكون أن يتوجهوا بكلمة نقد واحدة للقائمين بالأمر خوفا على لقمة الخبز أن تضيع .. وذلك بخلاف الإرهاب بالحديد والنار والتجسس ، الذى يزيد من مذلة الناس وانكماشهم وخضوعهم للظلم الواقع عليهم، دون التفوه بكلمة أو إشارة تدل على عدم الارتياح فضلا عن الاحتجاج الصريح .

ولقد زعمت الشيوعية أن الذل الوحيد فى الأرض هو عمل الإنسان أجيرا لإنسان آخر ، وزعمت أنها هى التى ستخلص الناس من الظلم وتمنع الاستغلال، حين تمنع تأجير جهد الإنسان لإنسان آخر .

نعم .. ولكن ما الفرق بين تأجير جهد الإنسان لإنسان آخر ، وتأجيره « للدولة » التى هى شخص معنوى فى الكلام فقط ، ولكنها فى الواقع مجموعة من البشر يحملون من السلطان ما يجبرون به الناس على أداء العمل الذى يطلبونه منهم ، وما يعاقبونهم به إذا قصرُوا فى أدائه ؟ وأيها أذل - فى عالم الواقع - الأجير الذى يملك ولو ذرة واحدة من الحرية فى اختيار نوع العمل ومكانه ، واختيار شخص « السيد » الذى يبيع له جهده ، والمساومة على زيادة هذا الأجر ، والاحتجاج على انخفاضه إذا رآه كذلك ، أم الأجير الذى لا يملك ذرة من الحرية فى تلك الأمور كلها ، لا اختيار نوع العمل ولا مكانه ، ولا اختيار « السيد » الذى يخدمه - فهو مفروض عليه بالحديد والنار - ولا حق الاحتجاج على الأجر المنخفض ولا طلب زيادته .. وإن فتح فمه بكلمة يموت جوعا ، إن لم يمت بوسيلة أخرى غير الجوع ؟!

واية سفسطة تلك التى تقول إن الذل لا يكون قائما حين تكون « الدولة » هى التى تسخر الناس للعمل وهى التى تمنح الأجور ؟! ما تعريف الذل ؟! وما اسم ذلك الإحساس الذى يحسه الإنسان حين يجد أنه لا يملك حريته فى أى أمر من الأمور ، وأن عليه أوامر ينبغى أن يطيعها ، وواجبات ينبغى أن يؤديها ، دون أن يكون له حق الاعتراض على شيء من الأشياء ؟!

أم يخلونه عاما ويحرمونه عاما ؟!

يخلونه إذا كان صادرا منهم ومحققا لمصلحتهم ، ويحرمونه إذا صدر من غيرهم أو لم يكن فى صالحهم ؟

* * *

قضية المساواة في الأجور لا تزيد على أن تكون واحدة من الأساطير الكثيرة التي بددها التطبيق .

في عهد لنين والجزء الأول من عهد ستالين طبقت روسيا بصرامة مبدأ المساواة في الأجور لجميع العمال في الاتحاد السوفيتي . ولكن هل كانت هناك مساواة عامة في الأجور بالنسبة لكل العاملين ؟

هل كان أجر المهندس كأجر العامل ؟ وأجر الطبيب كأجر الممرض ؟ وأجر الجندي كأجر الضابط ؟

إن هذا بداية مستحيل !

ومع استحالة فقد ظلت النظرية الشيوعية تنافح عن قضية المساواة وتندد بقضية التفاوت في الأرزاق !

ثم جاء اليوم الذي انهارت فيه المساواة حتى في صفوف العمال أنفسهم ، بعد أن كانت منهارة ما بين العمال وغيرهم من العاملين . فقد لجأ ستالين - كما أسلفنا - إلى إباحة العمل بعد الوحدة الإجبارية الأولى لقاء أجر إضافي ينفق في « الكماليات » .. وهكذا ضاعت المساواة تماما ولم يعد لها وجود !

ويقولون إن هناك أجورا عالية جدا في الاتحاد السوفيتي .

وقد تحسب لأول وهلة أنها أجور المهندسين .. أو علماء الذرة .. أو علماء الصواريخ .. أو الأطباء (وكلهم من ذوي الأجور العالية في الاتحاد السوفيتي) ولكنك تسمع الحقيقة المذهلة في النهاية ! إنها أجور المطربين والمطربات والراقصين والراقصات والمهين عامة والمهيات !

الأجر على قدر الخدمة !

هل تعلم الخدمة الجليلة التي يقوم بها المطربون والمطربات والراقصون والراقصات والممثلون والممثلات في اتحاد السوفييتات ؟!

نعم !! إنها « تلهية » الشعب عن الإحساس بالضغط البشع الواقع عليه .. لكي ينسى .. لكي لا ينفجر !

إن الضغط على الكائن البشري من جميع منافذه أمر غاية في الخطورة ! لأنه يولد الانفجار ..

ودكتاتورية البروليتاريا لا تستغنى عن الضغط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري الذي تمارسه على البروليتاريا (التي تحكم باسمها !) وإلا اقلت الزمام ؛ وتزلزلت الدولة وتزلزل « النظام » !

فلا بد إذن من التنفيس عن الناس في جانب من الجوانب ليتسرب الغضب
المكظوم قبل أن يكوّن التجمع الذى يولد الانفجار .
والمتنفس هو الشهوات .. والملهيات ..

فأما الجنس فيمارسه الناس لأنفسهم أنى شاءوا وكيفما شاءوا لا حجر
عليهم ولا تدخل في « إرادتهم » !

وأما التلهية فيقوم بها الملهون من المطربين والراقصين والممثلين من الرجال
والنساء .. فينالون « تقدير » الدولة على خدمتهم الهائلة ، وينالون أعلى
الأجور !

المهم في الأمر على أى حال أن المساواة أسطورة غير قابلة للتطبيق في دنيا
الواقع .. ومع ذلك فما زالوا يتحدثون عن المساواة في النظرية ، وما زالوا ينددون
بالتفاوت في كل نظام يجدونه فيه !

لو قالوا منذ البدء نريد أن نقرب الفوارق بين الفئات المختلفة من الناس
ونضمن حدا أدنى معقولا لكل الناس ...!

لو قالوا لقلنا نعم .. للنظرية على الأقل بصرف النظر عن واقع التطبيق !

* * *

يقول الشيوعيون في نظريتهم إن الحياة في الشيوعية الأولى (كما
يتخيلونها) هى الأصل الذى ينبغى أن تعود البشرية إليه ، وإن الشيوعية
الثانية هى التى ستردهم إلى هذا الأصل الجميل ..

فيما عدا استثناء واحدا في أمر لم يرق لهم من الشيوعية الأولى فحذفوه !
ذلك هو الدين !

ففى الشيوعية الأولى (كما يتخيلونها) كان عند البشرية دين . وهنا -
فقط - قالوا إن هذا كان بسبب بداءة البشرية وقلة معلوماتها عن الكون المادى
وعدم سيطرتها على البيئة ! أما فيما عدا ذلك فلا دخل للبداءة في شئ على
الإطلاق !

ولما كانت الشيوعية الثانية تأتى من غير بداءة ، فقد وجب القضاء على
العنصر الوحيد الذى سببته البداءة وهو الدين !

وفي التطبيق اشتد الشيوعيون في محاربة الدين . فلم يكتفوا بتحريم الحديث
فيه ، ومعاقبة من يضبط « متلبسا » بالحديث في الدين مع شباب أو فتاة دون
الثامنة عشرة ، بل بالغوا في الاحتياط فوضعوا في مناهجهم الدراسية درسا

للالحاد في مكان درس الدين ! فحيث يضع البشر كلهم درسا للدين في مدارسهم - مؤمنين وغير مؤمنين - يتحدثون فيه عن الله ، يضع الشيوعيون في مدارسهم درسا يقال للتلاميذ فيه إنه لا إله . والكون مادة (اى بلا خالق) . ولا مكان للمتدينين في الدولة الشيوعية . وقد قتل ستالين وحده ثلاثة ملايين ونصف مليون من المسلمين في عهده ، لأن الشيوعية كانت قد طلبت معونة المسلمين في الثورة ضد القيصر . ووعدتهم بأن تجعل لهم مكانة خاصة إذا نجحت الشيوعية ، وتترك لهم حرية ممارسة حياتهم الإسلامية ، فلما طالبوا بتحقيق الوعد ، حققه ستالين لهم على هذا النحو بالقتل والتعذيب والتشريد الجماعي . ولقد اضطرت الشيوعية إلى « التراجع » عن قرار الإبادة الجماعية الذي كان مقررا من قبل ، حين سنحت لهم فرصة الانتشار والتوغل في العالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الثانية ، فوجدوا أن قرار الإبادة سيعوق انتشارهم، ويفوت عليهم فرصة قد لا تسنح من بعد ، فأعلنوا أنهم « متسامحون » وأنهم لا يتعرضون لأصحاب العقائد الدينية بالإبادة ! ولعلمهم كانوا قد ظنوا أنه لم يعد هناك خطر من « التسامح » بعد إبادة من أبادوه ونفى من نفوه وتشريد من شردوه ! ولكن دخولهم أفغانستان لإبادة المسلمين هناك يدل على أن تقديراتهم في هذا الأمر لم تكن على صواب ! فهم اليوم يضربون المسلمين الأفغان حتى لا يجمع غدا المسلمون الروس !

وبصرف النظر عن وضع المسلمين في الدول الشيوعية ، فإن الشيوعية تكره الدين كراهية شديدة كما أسلفنا ، وتحاربه بكل وسائل الحرب ، وتتمنى اليوم الذي يزول فيه من الوجود .

وفي إمكاننا أن نستدل من هذه الحرب ذاتها على عمق الدين في الفطرة ! فلولا أنه عميق في الفطرة كل هذا العمق ما خافت الشيوعية من عودته كل هذا الخوف ولا حاربت كل هذه الحرب .

ولكننا لسنا في حاجة إلى الاستدلال عن طريق غير مباشر . فقد أغنانا حديث « جاجارين » عن ذلك ، وشهدت الفطرة على لسانه أنه لا إله إلا الله .. وهو الذي ولد وتربى في ظل الاحاد الرسمي والشعبي على السواء !

* * *

إلى هنا كنا نتحدث عن « الواقع » التطبيقي للشيوعية بالقياس إلى النظرية .. وراينا أن مبادئ كثيرة من التي تقوم عليها النظرية أثبتت عدم

جديتها أو عدم واقعيتها عند التطبيق ، كقضية الملكية الجماعية ، وإحلالها محل الملكية الفردية ، وقضية البروليتاريا ووضعها في مكان السلطة ، وقضية الطبقات وإلغائها ، وقضية المساواة التامة بين الجميع .

ولكن بقيت في النظرية « وعود » لم تتحقق بعد ، ويتذرعون - لعدم تحقيقها - بشتى المعاذير ..

بقى المبدأ القائل بأنه يؤخذ من كل بحسب طاقته ويعطى كل بحسب حاجته . وإلغاء الحكومة . وإلغاء الصراع .

وهم يستخدمون بشأنها أسلوب الشاعر العربى :

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا !

أى فى الخيال والتمنى !

وقد كان من حقنا أن ننفض أيدينا من هذه الأمانى ، ونقول : دعونا حتى تقع بالفعل ! أو نقول إن ما مر من التجربة الشيوعية فى الأمور السابقة لا يبشر بتحقيق شئ من هذه الوعود ، فإن أمورا أكثر واقعية من هذه بكثير أثبتت التجربة عدم واقعيتها أو عدم جدية الشيوعيين فى الحديث عنها إلا للدعاية والترغيب فحسب !

ولكننا ننظر فى طبيعة هذه الأمور فنجدها - بطبيعتها - غير قابلة للتحقيق !

من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته ! بلا حكومة ولا صراع !

متى كان الناس بهذه الملائكية حتى نفترض أنهم يمكن أن يعودوا إليها فى

يوم من الأيام ؟!

أوليسوا هم الذين يقولون إنه بمجرد اكتشاف الزراعة جنح الناس إلى الملكية الفردية ، وظهر الطمع والجشع واختلف وضع الناس فى المجتمع ، وانتهت المساواة والتعاون والود والإخاء وحل محلها الصراع ؟!

أى بمجرد ظهور شئ يمكن امتلاكه !

فما الذى تغير فى طبائع البشر حتى يجىء عليهم يوم لا حكومة فيه ولا رقابة ،

ثم يبذل كل منهم طاقته - حبا فى الحق والعدل فقط ، أو حبا فى الإنسانية ، أو

حبا فى أى قيمة من القيم العليا (التى لا وجود لها فى ذاتها كما يقولون !) -

ثم يأخذ فقط بقدر حاجته ، ويقدر هذه الحاجة بلا طمع ولا جشع ولا إسراف ؟!

إن المثاليين الذين ينعى الشيوعيون عليهم عدم واقعيتهم لم يبلغوا هذا الحد

من الإسراف فى الخيال !

ولقد وصل أفراد من البشر إلى هذا المستوى بالفعل مرة واحدة في التاريخ ، على عهد رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فكان كل إنسان منهم يبذل أقصى ما في طاقته من الجهد ابتغاء مرضاة الله فحسب ، ثم لا يجد في نفسه حاجة مما أوتي ويؤثر أخاه على نفسه :

« ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد » « ١ »

« ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » « ٢ »

ولسنا نقول إن هذه الصورة حدثت مرة واحدة وهي غير قابلة للتكرار في أي جيل قادم من أجيال البشرية ، ولكننا نقول أولاً إن هذا - بالتجربة - لم يحدث إلا ابتغاء مرضاة الله ، ولا يمكن لأي قيمة أخرى من القيم - غير الإيمان الصادق بالله - أن ترفع الإنسان إلى هذه الصورة الرفيعة الشفيفة العالية . ونقول ثانياً إنه ليس كل الناس يرتفعون إلى هذا المستوى السامق الرفيع . فقد كان إلى جوار هؤلاء - في نفس الجيل ونفس الظروف - من قال فيهم رب العالمين :

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل » « ٣ »

والإسلام في واقعياته لا يفترض أن كل الناس يصلون إلى القمة ، وإن كان يدعو كل الناس أن يحاولوا الصعود إليها ، ثم يرضى منهم بما يصلون إليه في محاولتهم ماداموا لا يهبطون عن المستوى الذي حرم الله الهبوط عنه ، أو ماداموا لا يصرون على الهبوط إذا غلبتهم مرة دوافع الشر رغم المجاهدة والتطلع إلى الخير :

« ولكل درجات مما عملوا » « ٤ »

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك

١ - سورة البقرة [٢٠٧]

٢ - سورة الحشر [٩]

٣ - سورة محمد [٢٨]

٤ - سورة الأنعام [١٣٢]

جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين « ١ »

أما حلم الملائكية العامة الشاملة التي ستعم البشرية كلها ذات يوم ، ودون أى احتياط لإمكان الهبوط من أحد الناس أو كل الناس (بإلغاء الحكومة التي يمكن أن تردع الهابطين) فحلم أقل ما يقال فيه إنه ما وضع إلا للتخدير ! ليرضى الناس بالحرمان والشقاء الحالى ، والضغط الإرهابى الذى لم تشهده حتى قساوة القرون المظلمة ، على أمل تحقق تلك الجنة الموعودة فى الأرض فى يوم من أيام التاريخ !

كانوا يقولون إن الدين أفيون الشعوب ! لأنه يخدرهم عن عذابياتهم الحاضرة بحلم الجنة فى الآخرة ! فما القول فى هذا الأفيون العجيب الذى تقدمه الشيوعية للكادحين ؟!

إن الدين - فى صورته الكنسية التى استخدمت بالفعل لتخدير الشعوب - كان يحوى بعض الحقائق وبعض الأباطيل . فوجود الله حق ، ووجود الآخرة حق ، ووجود الجنة حق . أما رضا الله بالظلم ، ودعوة الناس إلى الرضا بالظلم فى الدنيا ليمنحهم الله الجنة فى الآخرة فباطل ، لأن الله أمر الناس أن يرفضوا الظلم الناشئ من تحكيم شرائع غير شريعة الله ، وأمرهم أن يجاهدوا لتغيير المنكر . وأما الذين يحتجون بأنهم كانوا مستضعفين فى الأرض وأنهم رضوا من أجل ذلك بالظلم فيسميهم الله « ظالمى أنفسهم » ويقول فيهم :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ! قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » « ٢ »

نعم كان الدين الكنسى يحوى بعض الحقائق وبعض الأباطيل .. فما القول فى هذا المخدر الشيوعى الذى لا يحمل شيئا من الحق وكله أباطيل ! أى الفريقين - وكلاهما على باطل - أشد استخداما « للأفيون » فى تخدير الجماهير ؟!

١٠ . سورة ال عمران [١٢٥ - ١٣٦]

٢٠ . سورة النساء [٩٧]

بين الشيوعية والإسلام

آن لنا أن ننتهى من الحديث عن الشيوعية في كل مجالاتها ، سواء في المادية الجدلية أو المادية التاريخية أو المذهب الاقتصادي .. لولا أن بعض المسلمين - بل بعض الدعاة من المسلمين - يتحدثون عن « اشتراكية الإسلام » وعن إمكانية اللقاء بين الشيوعية - أو الاشتراكية - وبين الإسلام ..

فنعود إلى ذات المقاييس التى استخدمناها فيما بين الديمقراطية والإسلام .
(١) قضية المعبود .

(٢) قضية إنسانية الإنسان .

إن الشبه العارض الذى يمكن أن يكون قائما بين الاشتراكية والإسلام في مبدأ كفالة الدولة لكل أفرادها ، وتقريب فوارق الفئات المختلفة من الناس ، لايجوز أن ينسينا الاختلاف الجوهرى في القاعدة التى يقوم عليها كل من النظامين ، فضلا عن الاختلاف حتى في هذا الشبه العارض في تلك الجزئيات .

إن القضيتين الرئيسيتين في حياة الإنسان كما أشرنا إليهما وشرحناهما من قبل هما هاتان القضيتان : قضية الألوهية وقضية الإنسانية ، وكل ما بقى من الأمور فهى أمور ثانوية بالنسبة لهاتين القضيتين ، أو هى أمور تنفرع - تلقائيا - من هاتين القضيتين .

فأما المعبود في الشيوعية أو الاشتراكية فهو ليس الله قطعا بتصريحهم هم بأفواههم : « لا إله . والكون مادة » (أى بلا خالق) وقد يكون الإله عندهم هو المادة . أو هو الدولة . أو هو الحزب . أو هو النظام . أو هو الزعيم . ولكنه على أى حال ليس الله . ومن هنا يستحيل اللقاء بين النظامين مهما كانت الأشباه العارضة هنا أو هناك .

وأما الإنسان فهذا وضعه في التصور الشيوعى وفي التطبيق ! في التصور هو نتاج المادة ، وهوتلك الأداة السلبية التى تحركها الحتميات « مستقلة عن إرادتهم » ! وفي التطبيق هوتلك الآلة المنتجة في قسم من الوقت ، وهو ذلك الحيوان الغليظ الحس في بقية الوقت ، وهو ذلك الصفر اللاشيئ في كل الوقت .. إلا أن يكون من الآلهة المحظوظين ، عضوا في الحزب على أقل تقدير ، أو زعيما مقدسا على أعلى تقدير !

أما ذلك الشبه العارض في مبدأ الكفالة الشاملة وتقريب الفوارق بين الناس فهو أولا لا يبرر اللقاء بين النظامين مع وجود ذلك الاختلاف الجوهرى في قضية الألوهية وقضية إنسانية الإنسان ، وهو ثانيا شبه غير كامل حتى في الجزئيات . فالكفالة في الإسلام ليست مقابلا لتكليف الناس بالعمل على طريقة من لا يعمل لا يأكل ، إنما هى حق إنسانى بحث لكل من يحتاج إليه بسبب من الأسباب . وكفالة المرأة بالذات واجب مفروض في الإسلام على الرجل لكى لا تنشغل أعصابها ولا يذهب جهدها في العمل خارج البيت على حساب مهمتها العظمى في تنشئة الأجيال . كما أن الكفالة تتم في الاسلام بغير إذلال الناس بلقمة الخبز ، ودون دكتاتورية الدولة التى ترهق القلوب وتخفق الأنفاس .

إن الإسلام - دين الله الحق - قد فرض على الدولة المسلمة كفالة كل فرد فيها يحتاج إلى كفالة .. وجعل مهمة بيت المال هى هذه الكفالة لمن يعجز عن كفالة نفسه بنفسه ، أو عجزت أسرته القريبة عن كفالته . وجعل المجتمع كله مكلفا بالأ يكون فيه محتاج « ١ » . وقد أشرنا من قبل إلى قوله عمر رضى الله عنه ، التى عبر فيها عن مسئوليته لا عن الأدميين فحسب ، بل عن كل كائن حى يحتاج إلى الكفالة حيث قال : « لو عثرت بغلة ببغداد (أو قال بصنعاء) لكنت مسؤولا عنها لِمَ لَمْ أسولها الطريق ! »

ولكن الإسلام في كفالته للناس لا يستذلهم بلقمة الخبز كما تصنع الشيوعية ، بل يكفلهم وهم كرماء على أنفسهم وعلى الناس . فهو يكلف الدولة المسلمة بهذه الكفالة دون مقابل على الإطلاق ، لا العمل ، ولا الخضوع المذل للحزب ولا الدولة ولا الزعيم !

إن المطلوب من المسلم - سواء كفلته الدولة أو كفل نفسه بنفسه أو كفلته أسرته أو كفله القادرون في المجتمع - أن يعبد الله وحده بلا شريك . وأن يقيم دين الله في نفسه وفي مجتمعه بإقامة شريعة الله والحكم بما أنزل الله . والمطلوب منه - من بين المطلوبات - أن يكون رقيبا على ولى الأمر، لينظر هل قام بواجبه في إقامة الشريعة على الوجه الصحيح أم انحرف في التطبيق !

ولقد كان سلمان الفارسي ممن تجرى عليهم الدولة الإسلامية نصيبا من بيت المال .. وهو الذى قال لعمر رضى الله عنه : لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة حتى

١٠ ، راجع الحديث عن مسؤولية الدولة المسلمة في كفالة جميع أفراد المجتمع في الفصل السابق .

تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي انتزرت به ! وهو كذلك الذي قال له : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف !

والإسلام يحض على العمل بكل وسائل الحض ، ويوضح للناس أن الإنسان خلق ليقوم بعمارة الأرض ، وليمشى في مناكبها ويبتغى من رزق الله ، وأن العاطلين المتبطلين لا يحبهم الله ولا يحبهم رسوله صلى الله عليه وسلم .. ومع ذلك فلا يجعل كفالة الدولة لأفرادها مقابل قيامهم بالعمل .. إنما مقابل إنسانيتهم فقط ومقابل حاجتهم ! فكون الإنسان إنسانا وكونه محتاجا إلى الكفالة هما كل مقومات كفالة الدولة للفرد في الإسلام . وهذا هو الفرق بين فضل الله وكرمه وبين كزارة البشر حين يكون بأيديهم المال والسلطان !

« قل : لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى إذن لامسكتم خشية الإنفاق

وكان الإنسان قتورا » « ١ »

ثم إن الاسلام في كرمه وتفضله قد حض على العمل ، نعم ، ولكنه لم يحوج المرأة إلى العمل خارج البيت من أجل أن تحصل على لقمة الخبز ! بل قرر لها الكفالة الكاملة وهي مستقرة في بيتها ، عاملة فيه ، قائمة بأنيل مهمة يقوم بها البشر في الأرض ، وهي تنشئ الجيل الناشئ ليخرج إلى الحياة سويا مستقيما على أمر الله .

فأين هذا من إكراه المرأة على العمل خارج البيت في كنس الشوارع وحمل الأمتعة في المطارات ومحطات السكك الحديدية تحت هذا التهديد المرعب : من لا يعمل لا يأكل !

وهذا فضلا عما في إخراجها من مهمتها الفطرية من إفساد للفطرة وإفساد للنشء وإفساد للأخلاق !

وأمر آخر يأتى بهذه المناسبة تتضح لنا حكمته في الإسلام على ضوء ما وقع في التطبيق الشيوعى .

لقد قرر الإسلام مبدأ الملكية الفردية تقريرا واضحا لاشبهة فيه ، وإن كان قد وضع للملكية حدودا كثيرة تحقق الخير وتمنع الشر . وللإسلام حكمته - بل حِكْمَتُهُ - في إقرار الملكية الفردية على هذا النحو . ولكن حكمة معينة تبدولنا الآن من خلال التطبيق الشيوعى ربما لم تكن واضحة للناس من قبل ، هي حرص

الإسلام على أن تكون أرزاق الناس بأيديهم - على قدر الإمكان - لاييد الدولة !
وذلك حتى لا يستذل الناس بلقمة الخبز ! فحين يكون العمل حرا ، والاسترزاق
حرا لا يحس الناس بسطوة الدولة كما يحسون بها لو كانوا كلهم أجراء للدولة
كما هو حالهم في الشيوعية .

وصحيح أن أولى العزم من البشر لن يحسوا بالمذلة للدولة ولو كانت لقمة
الخبز في أيديها . ولكن الإسلام في واقعيته لا يفترض في كل الناس أنهم من أولى
العزم . إنما يتعامل معهم بحسب واقعهم، ويعلم أنهم عرضة للضعف أمام
الضغوط الواقعة عليهم . لذلك جعل التكافل في الأسرة والمجتمع هو الأصل
الكبير الذى تقوم عليه الحياة في المجتمع الإسلامى ، وجعل كفالة الدولة
المباشرة هى الاحتياط الأخير الذى يسد الثغرات التى لم تستطع سدها الأسرة
ولا المجتمع . ويظل الناس بعيدين عن سطوة الدولة بقدر الإمكان، ليقوم التوازن
السياسى في المجتمع الإسلامى . ولي الأمر له على الناس السمع والطاعة ،
والناس لهم على ولي الأمر النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أى
الرقابة على تنفيذ شريعة الله .

وعلى ضوء الخط المستقيم المتمثل في دين الله يتبين لنا مدى الانحراف في
الجاهليات ، وفي الجاهلية الشيوعية بالذات .

أما تقريب الفوارق بين الناس فلا يتم في الإسلام بمصادمة الفطرة وقتل
الحافز الفردى .

إنما الإسلام دين الفطرة يتمشى معها ويرفعها إلى أقصى ما تطيق من درجات
الرفعة ولكن دون مصادمة لاتجاهاتها الأصلية . ومن ثم لا يلغى الإسلام الملكية
الفردية إنما ينظمها على الوجه الذى تستجيب فيه للفطرة دون أن يترتب عليها
الشر ، ثم يضع في يد ولي الأمر الصلاحية الدائمة لتصحيح الأوضاع إذا
اختلت رغم كل التنظيمات والترتيبات .

وتنظيمات الإسلام وترتيباته تتضمن أولا نظافة الوسائل التى يحصل بها
الإنسان على المال ، فلا غصب ولا نهب ولا سرقة ولا غش ولا ربا ولا احتكار ولا
أكل حق الأجير .

وتتضمن ثانيا تزكية المال بإخراج زكاته التى توضع في بيت المال لتقوم الدولة
منها - ومن الموارد الأخرى المشروعة - بكفالة من يحتاج إلى الكفالة من
الناس .

وتتضمن ثالثاً ضرورة إنفاق المال وعدم حبسه عن التداول . فيما أن يوظف المال في عمل نافع فيستفيد منه المجتمع ويستفيد منه الأفراد الذين يعملون فيه ، وإما أن ينفق إنفاقاً مباشراً في أبواب الإنفاق التي شرعها الله ، بما يحقق كفالة القادرين لغير القادرين في المجتمع .

وتتضمن رابعاً تحريم الإنفاق في المعصية ، وكراهة الإنفاق في الترف والسرف كراهة تشبه التحريم .

وتتضمن خامساً تنظيمًا دقيقًا للموارث يفتت الثروة على الدوام ويعيد توزيعها في كل جيل .

وأخيراً تقرر الشريعة مبدأ « لا ضرر ولا ضرار » .. فتضع في يد ولي الأمر سلطة التصحيح كلما وقع ما يوجب التصحيح دون مصادمة للفطرة ولا إغاث للناس .

وليس هنا مجال التفصيل ، إنما يطلب ذلك في الكتب المتخصصة في هذه الأمور . ولكن تكفي هذه الخطوط العريضة لبيان الفارق بين الإسلام والشيوعية أو الاشتراكية حتى في المواطن التي يبدو فيها وجود شبه غارض في بعض الجزئيات .

إن الإسلام نظام متكامل ، وأجهزته كلها تعمل من داخله ، وتعمل بوسائله الذاتية ، وليس في حاجة أن يستعير أجهزة أجنبية عنه ، ولا في الإمكان تركيب هذه الأجهزة الأجنبية لتدور معه في دائرته ، لأنها من مقاس غير مقاسه ، وتعمل على قاعدة غير قاعدته ..

ليس الإسلام نظاماً اشتراكياً كما أنه ليس رأسمالياً ولا ديمقراطياً ..
الإسلام هو الإسلام .. هو هو كما أنزله الله ..

وإذا كنا نعتقد - بصدق - أن الاشتراكية تحمل مشابهة من الإسلام في بعض النقاط ، فلماذا نأخذها من الاشتراكية ولا نأخذها من الإسلام ؟!

فلنكن صرحاء مع أنفسنا ، ولننف الهزيمة الداخلية من أرواحنا - أيا كانت أسبابها - ولنطلب الإسلام باسم الإسلام ، فهذا هو الاسم الذي قرره الله من فوق سبع سماوات : « إن الدين عند الله الإسلام » « ١ »

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » « ٢ »

العلمانية

« العلمانية » هي الترجمة العربية لكلمة « Secularism, Secularite » في اللغات الأوروبية . وهي ترجمة مضللة لأنها توحي بأن لها صلة بالعلم ، بينما هي في لغاتها الأصلية لا صلة لها بالعلم . بل المقصود بها في تلك اللغات هو إقامة الحياة بعيدا عن الدين ، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة .

تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريف كلمة « Secularism »

« هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها . ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر . ومن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ « Secularism » تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية البشرية ، وبإمكانية تحقيق طموحاتهم في هذه الحياة القريبة . وظل الاتجاه إلى الـ « Secularism » يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية » « ١ »

وهكذا يتضح أنه لا علاقة للكلمة بالعلم ، إنما علاقتها قائمة بالدين ولكن على أساس سلبي ، أي على أساس نفى الدين والقيم الدينية عن الحياة . وأولى الترجمات بها في العربية أن نسميها « اللادينية » بصرف النظر عن دعوى « العلمانيين » في الغرب بأن « العلمانية » لاتعادي الدين، إنما تبعده فقط عن مجالات الحياة الواقعية : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .. الخ ولكنها تترك للناس حرية « التدين » بالمعنى الفردي الاعتقادي، على أن يظل هذا التدين مزاجا شخصيا لا يدخل له بأمور الحياة العملية

بصرف النظر عن هذا الاعتراض الذي سناقش مدى حقيقته بالنسبة للحياة الأوروبية ذاتها ، كما سناقشه بالنسبة للإسلام لنتبين مدى تطابقه أو

عدم تطابقه مع المفاهيم الإسلامية ، فإن « اللادينية » هى أقرب ترجمة تؤدي المقصود من الكلمة عند أصحابها ، ولكننا مع ذلك سنظل نستخدم المصطلح المعروف عند الناس - مع بيان بعده عن الدقة - حتى يتفق الكتاب على نبذ هذا المصطلح المضلل ، واستخدام اللفظة الأدق .

نبذ الدين وإقصائه عن الحياة العملية هولب العلمانية . وتبدو نشأة العلمانية في أوروبا أمرا منطقيا مع سير الأحداث هناك ، إذا رجعنا إلى الظروف التى شرحناها من قبل في التمهيد الأول من هذا الكتاب ، أى إلى عبث الكنيسة بدين الله المنزل ، وتحريفه وتشويهه ، وتقديمه للناس في صورة منفرة ، دون أن يكون عند الناس مرجع يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث وإرجاعه إلى أصوله الصحيحة المنزلة ، كما هو الحال مع القرآن ، المحفوظ - بقدر الله ومشيتته - من كل عبث أو تحريف خلال القرون .

فمن المعلوم أن الإنجيل المنزل من عند الله لم يدون على عهد المسيح عليه السلام ، إنما تلقاه عنه حواريوه بالسماع ، ثم تشتتوا تحت تأثير الاضطهاد الذى وقع على أصحاب الرسالة الجديدة سواء من اليهود أو من الرومان ، فلما بدأ تدوينه بعد فترة طويلة من نزوله كان قد اختلط في ذاكرة أصحابه ، كما اختلطت النصوص فيه بالشروح ، ثم غلبت الشروح على النصوص .. ووقع الاختلاف والتحريف والتصحييف الذى يشير إليه كتاب التاريخ الأوروبى ومؤرخو الكنيسة على السواء ، واستبد رجال الدين بشرح مسمى الأناجيل (مع أن المنزل من عند الله إنجيل واحد لا معنى للتعدد فيه) ثم استبدوا أكثر بالاحتفاظ بعلم « الأسرار » التى نشأت من التحريف والتصحييف والتى لا أصل لها في دين الله المنزل ، ثم زاد استبدادهم - كما أسلفنا في ذلك التمهيد - فصار طغيانا شاملا يشمل كل مجالات الفكر والحياة : طغيانا روحيا وفكريا وعلميا وسياسيا وماليا واجتماعيا .. وفي كل اتجاه .

فحين يحدث نفور من الدين في مثل هذا الجو فهذا أمر منطقى مع سير الأحداث، وإن لم يكن منطقيا مع « الإنسان » في وضعه السوى . فإذا كان الإنسان عابدا بفطرته ، وكان الدين جزءا من الفطرة أو هو طبيعة الفطرة ، فإن الإنسان الراشد في مثل الوضع الذى وجدت فيه أوروبا كان ينبغي عليه أن ينبذ ذلك الدين الذى تحوطه كل تلك التحريفات في نصوصه وشروحه ، وكل تلك

الانحرافات في سلوك رجاله ، ثم يبحث عن الدين الصحيح فيعتقده . وقد فعلت أوروبا الأمر الأول فنبذت دين الكنيسة بالفعل ، ولكنها لم تفعل الأمر الثاني حتى هذه اللحظة إلا أفراداً متناثرين لم يصبحوا بعد « ظاهرة » ملموسة . ومن هنا نقول إن الظروف التي أحاطت بالدين في أوروبا تفسر ولا تبرر . تفسر شرود الناس في أوروبا عن الدين ولكنها لا تبرره . فإنه لا شيء على الإطلاق يبرر بعد الإنسان عن خالقه ، ونبذه لعبادته على النحو الذي افترضه على عباده ، سواء بالاعتقاد بوحداً نيته سبحانه ، أو بتوجيه الشعائر التعبدية إليه وحده ، أو بتنفيذ شريعته . فهذا التصرف المنحرف من الإنسان الذي نبذ الدين وابتعد عن الله . هو الذي قال الله فيه : « بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ؟ » « ١ » أى أنه لا يقبل منه عذر فيه !

على أن الذى يعنينا الآن ليس هو محاسبة أوروبا على انحرافاتهما في مجال الدين والعقيدة ، فالخلق صائرون إلى ربهم وهو الذى يحاسبهم : « فذكر ، إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » « ٢ »

ولكن الذى يعنينا هو شرح هذه الانحرافات وبيان الصورة التى حدثت عليها ، والظروف التى أحاطت بها منذ مبدئها حتى صارت إلى ما صارت إليه . ونخطئ - من وجهة نظرنا الإسلامية - إن قلنا إن « العلمانية » حدثت فقط بعد النهضة . فالحقيقة - من وجهة النظر الإسلامية - أن الفصل بين الدين والحياة وقع مبكراً جداً في الحياة الأوروبية ، أو أنه - إن شئت الدقة - قد وقع منذ بدء اعتناق أوروبا للمسيحية ، لأن أوروبا - كما أسلفنا في التمهيد - قد تلقت المسيحية عقيدة منفصلة عن الشريعة (بصرف النظر عما حدث في العقيدة ذاتها من تحريف على أيدي الكنيسة) ولم تحكم الشريعة شيئاً من حياة الناس في أوروبا إلا « الأحوال الشخصية » فحسب ، أى أنها لم تحكم الأحوال السياسية ولا الأحوال الاقتصادية ولا الأحوال الاجتماعية في جملتها . وهذا الوضع هو علمانية كاملة من وجهة النظر الإسلامية « ٣ » ولكن الذى تقصده أوروبا بالعلمانية « Secularism » ليس هذا ، لأنها لم تألف الصورة الحقيقية للدين أبداً في يوم من الأيام ! إنما الذى تقصده أوروبا حين تطلق هذه

٣ . سنتحدث في هذه النقطة تفصيلاً في نهاية الفصل .

١ . سورة القيامة [١٤ - ١٥]

٢ . سورة الفاشية [٢١ - ٢٦]

الكلمة هو إبعاد ما فهمته هي من معنى الدين عن واقع الحياة ، متمثلاً في « بعض » المفاهيم الدينية، وفي تدخل « رجال الدين » باسم الدين في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والعلم والأدب والفن .. وكل مجالات الحياة ؛ ثم إقامة هذا كله بعيداً عن نفوذ الكنيسة من جهة ، وبعيداً عن مفاهيم الدين كلها من جهة أخرى، بصرف النظر عن وجود الكنيسة أو عدم وجودها .

بعبارة أخرى نقول إن ما نبذته أوروبا حين أقامت علمانيتها لم يكن هو حقيقة الدين - فهذه كانت منبوذة من أول لحظة ! - إنما كان بقايا الدين المتناثرة في بعض مجالات الحياة الأوروبية أو في أفكار الناس ووجداناتهم . فجاءت العلمانية فأقصت هذه البقايا إقصاء كاملاً من الحياة ، ولم تترك منها إلا حرية من أراد أن يعتقد بوجود إله يؤدي له شعائر التعبد في أن يصنع ذلك على مسئوليته الخاصة ، وفي مقابلها حرية من أراد الإلحاد والدعوة إليه أن يصنع ذلك بسند الدولة وضمانتها !

* * *

كيف نشأت هذه العلمانية في أوروبا ؟

أى كيف أقصيت بقايا الدين من الحياة الأوروبية وصارت الحياة « لادينية » تماماً في كل مجالاتها العملية ؟

نحتاج أن نتذكر أولاً أنه في الوقت الذى لم يكن للدين الحقيقى وجود في أوروبا - سواء في صورة عقيدة صحيحة أو صورة شريعة حاكمة - كان هناك نفوذ ضخم جداً يمارس باسم الدين في مجال العقيدة وفي مجالات الحياة العملية كلها من قبل رجال الدين ، ويتمثل في حس الناس هناك على أنه هو « الدين » !

أى أن الصورة الواقعية للدين في أوروبا كانت تتمثل أولاً في عقيدة مأخوذة من « الأنجيل » وشروحها تقول إن الله ثالث ثلاثة وإن الله هو المسيح ابن مريم ، وتتمثل ثانياً في صلوات وقداصات ومواعظ واحتفالات تقام في الكنائس يوم الأحد بصفة خاصة ، وتتمثل أخيراً - وليس آخراً - في نفوذ لرجال الدين على الملوك وعلى عامة الناس ؛ فأما نفوذهم على الملوك فيتضمن أنهم لا يجلسون على عروشهم إلا بإذن البابا ومباركته ، ولا يتولون سلطانتهم على شعوبهم إلا بتولية البابا لهم ، وإذا غضب عليهم البابا - غضباً شخصياً لا علاقة له البتة بتحكيم شريعة الله - نبذتهم شعوبهم ولم تدع لأوامرهم . وأما نفوذهم على

عامة الناس فيتضمن أنهم لا يصبحون مسيحيين إلا بتعميد الكاهن لهم ، وليس لهم صلاة إلا بحضور الكاهن أمامهم في مكان محدد هو الكنيسة ، ولا يموتون موتا صحيحا إلا بإقامة قداس الجنازة لهم على يد الكاهن ، ولا يعتقدون إلا ما يلقنهم إياه رجال الدين من شؤون العقيدة ، ولا يفكرون إلا فيما يسمح لهم رجال الدين بالتفكير فيه ، وعلى النحو الذي يسمح لهم به ، ولا يتعلمون إلا ما يسمح لهم رجال الدين تعلمه ، ولرجال الدين فوق ذلك نفوذ على أموالهم وعلى أجسادهم وعلى أرواحهم أشرنا إلى جوانب منه من قبل .

هذا الدين - بهذه الصورة - مخالف للدين المنزل من عند الله في أكثريته ..

ولكنه ليس خلوا بالمرة من حقائق الدين ، وهذه شهادة الله فيهم :

« ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا

به » ١ «

ففيه من حقائق الدين أن الله هو الذي خلق الكون كله ، وهو الذي خلق الإنهسان على هذه الصورة الإنسانية وجعله عاقلا مفكرا مريدا ، وكلفه الأمانة ، وكلفه عمارة الأرض والهيمنة عليها ، وعرفه أن هناك بعثا ونشورا وحسابا وثوابا وعقابا يوم القيامة ، وأن هناك جنة ونارا أبديتين يصير الناس إليهما كل بحسب عمله . وفيه من حقائق الدين كذلك أن الله حرم القتل والسرقة والزنا والربا والكذب والغش والخيانة .. وأوجب على الناس في حياتهم أخلاقيات معينة يتقيدون بها في تعاملهم بعضهم مع بعض ، وأن الله شرع الزواج وحرم علاقات الجنس خارجه ، وشرع الأسرة وأوجب صيانتها وجعل للرجل القوامة عليها .. إلى آخر ما يجري هذا المجرى من حقائق الدين .

ولكن الدين المنزل من عند الله ليس فيه أن الله هو المسيح ابن مريم وأن الله ثالث ثلاثة ، وليس فيه أن يشرع رجال الدين (الأحيار والرهبان) من عند أنفسهم فيحلوا ويحرموا بغير ما أنزل الله (كما أحلوا الخمر والخنزير وأبطلوا الختان) وليس فيه أن يطلب رجال الدين لأنفسهم سلطانا يرهبون به الناس ويفرضون عليهم ما أحلوا هم وما حرموا من دون الله ، كما يفرضون عليهم الخضوع الكامل لأهوائهم في الوقت الذي لا يستخدمون فيه سلطانهم الرهيب في فرض شريعة الله على الأباطرة والملوك ليحكموا بها بدلا من القانون الرومانى ،

ويكتفون بجعل هذه الشريعة مجرد مواظب خلقية وروحية من شاء أن يتقيد بها
تقيد ومن شاء أن يتفلسف منها فلا سلطان لأحد عليه في الأرض ، بينما القانون
الرومانى يعاقب المخالفون له بالقتل أو الحبس أو ما سوى ذلك من العقوبات !
وليس في الدين المنزل أن الأرض منبسطة وليست كروية ، وأن من قل
بكرويتها يحرق حيا في النار !

وليس فيه أن يفرض رجال الدين لأنفسهم - لا للفقراء والمساكين - عشور
أموال الناس ، ولا السخرة المجانية في أرض الكنيسة .

وليس فيه كل ما فعله رجال الدين من فضائح ومخاز ودناءات .. كصكوك
الغفران والفساد الخلقى بكل أنواعه ومناصرة الكنيسة للمظالم السياسية
والاقتصادية والاجتماعية الواقعة على الشعوب !

ولكن أوروبا حين أنشأت علمانياتها نبذت الدين كله ، لم تفرق بين أباطيل
الكنيسة وبين حقائق الدين !

وصحيح أن الدين الكنسى - بحقائقه وأباطيله - لم يكن صالحا للحياة ، ولم
يكن مقبولا عند الله :

« قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل
إليكم من ربكم » ١ .

ولكن أوروبا - كما أشرنا من قبل - حين نبذت دين الكنيسة الفاسد لم تبحث
عن الدين الصحيح ، الذى يصدق الحقائق ويبطل الأباطيل .

كان الدين الكنسى ذا سطوة عنيفة على كل مرافق الحياة في أوروبا في قرونها
الوسطى المظلمة . وكان ذلك أمرا سيئا شديد السوء ، لا بسبب سيطرة
« الدين » على الحياة كما خيل لأوروبا بغباء في جاهليتها المعاصرة ، ولكن
بسبب سيطرة الفساد الكامن في ذلك الدين الكنسى على كل مرافق الحياة !

ولكى نستيقن من الحقيقة في هذا الأمر ما علينا إلا أن نراجع فترة مقابلة
« وموازية » من التاريخ ، كان فيها الدين الصحيح ذا سيطرة عظيمة على كل
مرافق الحياة .. تلك هى الفترة الأولى من حياة المسلمين التى امتدت حوالى
سبعة قرون من الزمان .. فكيف كانت ؟! كان الهدى . وكان النور . وكان

العلم . وكانت الحضارة التى عرفت أوروبا طرفا منها فى الأندلس والشمال
الأفريقى . وكان كل جميل من الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك برغم كل
الانحراف الذى طرأ على حياة المسلمين فى تلك القرون ، سواء من جانب الحكام
أو من جانب المحكومين !

فلم يكن « الدين » فى ذاته إذن هو مصدر السوء فى الحياة الأوروبية فى تلك
الفترة (ولنذكر أن أسبانيا - وهى جزء من أوروبا - كانت مزدهرة فى نفس
الوقت بتأثير الدين الصحيح ، كما كانت صقلية وغيرها من الأصقاع الأوروبية
التي دخل فيها الإسلام) إنما كان « فساد الدين » هو السبب فى ذلك الظلام
الذى اكتنف أوروبا فى قرونها الوسطى المظلمة الحالكة السواد .

وأوروبا لا تحب أن تصدق هذه الحقيقة فى جاهليتها المعاصرة - مع أنها
حقيقة موضوعية بحته يشهد بصحتها كل ما كتبه مؤرخوهم المنصفون عن
الحضارة الإسلامية - لأن مجرد تصديقها معناه أنهم كانوا مخطئين فى نبذهم
« الدين » كله بحجة فساد الدين الذى قدمته الكنيسة لهم ، وأنهم مازالوا
مخطئين إلى هذه اللحظة للسبب ذاته .. وهم لا يريدون أن يرجعوا إلى الدين بأى
وسيلة من وسائل الرجوع !

مرة أخرى لا نريد أن نحاسب أوروبا على انحرافاتنا فى مجال الدين
والعقيدة ، إنما نشرح فقط خطوات ذلك الانحراف .

كانت سيطرة الدين الكنسى على الحياة الأوروبية فى قرونها المظلمة أمرا
سيئا كما قلنا - برغم سيطرة بعض الفضائل الدينية على الحياة وخاصة فى
الريف الأوروبى - لأن ذلك الدين - بما حواه من انحرافات جذرية فى العقيدة
من ناحية ، وفى فصل العقيدة عن الشريعة من ناحية أخرى ، وفى فساد ممثليه
من رجال الدين وجهالتهم من ناحية ثالثة - كان مفسدا للحياة ومعتلا لدفعتها
الحية، كما كان مفسدا للعقول ومعتلا لها عن التفكير السليم .

لذلك كان نبذ ذلك الدين والانسلاخ منه أمرا ضروريا لأوروبا إذا أرادت أن
تتقدم وتتحرر وتعيش ..

ولكن البديل الذى اتخذته أوروبا بدلا من دينها لم يكن أقل سوءا إن لم يكن
أشد ، وإن كان قد أتاح لها كل العلم والتمكن المادى الذى يطمح إليه البشر على
الأرض ، تحقيقا لسنة من سنن الله التى تجهلها أوروبا وتجهل حكمتها ، لأنها
لاتؤمن بالله وما نزل من الوحي :

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا قرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » « ١ »

نعم ! لم تكن العبودية للأخبار والرهبان من البابوات ورجال الدين أمرا
صالحا للحياة ولو كانوا هم أنفسهم من الصالحين ، لأن العبودية لاتصح إلا لله
وحده ، ولا تصلح الحياة إلا إذا كانت لله وحده .. فكيف وهؤلاء الأخبار
والرهبان على ماكانوا عليه من الفساد والجهالة والبعد عن حقيقة الدين ؟
« اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امرؤ
إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » « ٢ »

ولم يكن الدين الذى يحوى كل ذلك القدر من الأساطير ، ويحارب العلم
ويحجر على الفكر ، ويفصل بين الدنيا والآخرة فيهمل الدنيا وينبذها من أجل
الخلاص فى الآخرة ، ويحتقر الجسد ويعذبه من أجل خلاص الروح ، ويبيع فى
الوقت نفسه للإقطاعيين أن يمتصوا دماء الفلاحين ويكتنزوا بها ويترفوا
ويفسدوا ، ويخذل الفلاحين عن الثورة على هذا الظلم بحجة الحصول على
رضوان الله وجنته فى الآخرة إن رضوا بالمذلة والظلم فى الحياة الدنيا .. لم يكن
ذلك الدين ليسمح للحياة بالتقدم،وهو يلفها بأغلفة سميكة من الظلام .

ويقول التاريخ - الذى تكره أوروبا الاعتراف به إلا القلة المنصفة - إن
أوروبا بدأت تخرج من ظلمات قرونها الوسطى المظلمة حين احتكت بالمسلمين
فى مشارق الأرض ومغاربها : سواء فى الحروب الصليبية أو البعوث التى بعثتها
للتعلم فى مدارس المسلمين فى الأندلس بصفة خاصة ، وفى صقلية وغيرها من
البلاد التى نورها الإسلام .

بل تقول الروايات التاريخية إن رجال الدين المسيحي أنفسهم كانوا
يتعاطون الثقافة الإسلامية فى تلك المدارس،أو فيما ينقل منها إلى اللغات
الأوروبية ، وإنهم كانوا يترقون فى مناصب الكليروس بقدر ما يحصلون عليه
من تلك الثقافة . ! « ٣ »

ويقول روجر بيكون (فى القرن الثالث عشر الميلادى) : « من أراد أن يتعلم
فليتعلم العربية لأنها هى لغة العلم »

١ . سورة الانعام [٤٤]

٢ . سورة التوبة [٢١]

٣ . انظر كتاب « المستشرقون » لنجيب العقيقى ، ج ١ ، ص ١١٣ - ١٢٠

ولقد وجدت أوروبا حين احتكت بالمسلمين عالما عجيبا بالنسبة إليها ، ليس فيه بابوات ولا رجال دين ! وليست فيه أسرار عقيدية يختص بعلمها فريق من الناس دون فريق .. وليس فيه « نبلاء ! » يستعبدون الناس في إقطاعياتهم .. وليس فيه حجر على العقول أن تفكر ، ولا حجر على العلم أن يبحث ويجرب وينشر أبحاثه على الناس .

يقول « راندال » في كتابه « تكوين العقل الحديث » (ترجمة جورج طعمة ج ١ ص ٢١٤ من الترجمة العربية) :

وينوا (يقصد المسلمين، وإن كان يستخدم لفظة « العرب » تحاشيا لذكر المسلمين !) في القرن العاشر في أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب ، بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية ، وعلى الإجمال كان العرب يمثلون في القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما في أذهاننا اليوم المانيا الحديثة «

ويقول ليوبولد فايس (محمد أسد) في كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » (ترجمة عمر فروخ ص ٣٩ - ٤٠ من الترجمة العربية) :

« إن العصور الوسطى قد أتلقت القوى المنتجة في أوربة .. كانت العلوم في ركود ، وكانت الخرافة سائدة ، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم ، في ذلك الحين أخذ النفوذ الإسلامى في العالم - في بادئ الأمر بمغادرة الصليبيين إلى الشرق ، وبالجامعات الإسلامية الزاهرة في أسبانيا المسلمة في الغرب ، ثم بالصلوات التجارية المتزايدة التى أنشأتها جمهوريتا جنوة والبندقية - أخذ هذا النفوذ يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية العربية .

« وأمام تلك الأبصار المشدوهة ، أبصار العلماء والمفكرين الأوربيين ، ظهرت مدنية جديدة ، مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة ، ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت ثم أصبحت في أوربة من قبل نسيا منسيا . ولكن الذى صنعه العرب كان أكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة .. لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة .. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها ، ثم حملوا هذا كله بوسائل مختلفة إلى الغرب . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه لم يبدش في مدن أوربا النصرانية ، ولكن في المراكز الإسلامية : في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة «

وتعلمت أوروبا كل العلم الذى وجدته عند المسلمين ، كما أخذت كثيرا من الأصول الحضارية التى وجدتتها عندهم » ١ . ولكنها لأمر ما رفضت أن تأخذ الإسلام ، رغم السماحة الهائلة التى لمسها المسيحيون من المسلمين فى الأندلس ! وارتدت من جاهلية الدين الكنسى المحرف إلى جاهلية ما قبل ذلك الدين ، الجاهلية الإغريقية الرومانية Greco-Roman لتنشئ على أساسها جاهلية جديدة متقدمة كل التقدم فى العلم والتكنولوجيا (على أساس العلم الذى أخذته من المسلمين ، والمنهج التجريبى فى البحث العلمى الذى استمدته منهم) ومنتكسة أشد الانتكاس فيما عدا ذلك من جوانب الحياة ..

من الإغريق أخذت عبادة العقل وعبادة الجسد فى صورة جمال حسى . ومن الرومان أخذت عبادة الجسد فى صورة متاع حسى ، وتزيين الحياة الدنيا بكل وسائل العمارة المادية إلى أن يستغرق الإنسان فى المتاع وينسى « القيم » التى تكوّن الإنسان . كما أخذت شهوة التوسع الحربى واستعباد الأمم الضعيفة لحساب الدولة « الأم » فى صورة إمبراطوريات . والمهم - بالنسبة لبحثنا الحاضر - أنها بدأت تنبذ الدين !

* * *

قامت النهضة على أسس معادية للدين من أول لحظة . قامت على أصول « بشرية » بدلا من الأصول الدينية أو الإلهية كما كانت تصورها لهم الكنيسة . كان الدين الذى قدمته لهم الكنيسة على أنه الدين الإلهى دينا أخرويا لا يقيم وزنا للحياة الدنيا ، بل يحتقرها ويزدريها ويدعو إلى إهمالها وعدم الالتفات إليها فى سبيل الحصول على « الخلاص » ، خلاص الروح ، الذى لا يمكن الوصول إليه إلا بالتجرد من متاع الأرض ، والاستعلاء على مطالب الجسد ، والتطلع إلى ملكوت الرب الذى يتحقق فى الآخرة ولا سبيل إلى تحقيقه فى الحياة الدنيا . ومن ثم فإن « حركة التاريخ » ومحاولة تصحيحها بتصحيح حركة المجتمع كما يقول ولفرى كانتول سميث Wilfred Cantwell Simth فى كتاب « الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History » لم تكن فى حساب الكنيسة

١ . انظر كتاب « شمس الله تشرق فوق الغرب » وانظر فصلا بعنوان « المسلمون فى أسبانيا » فنونهم وصناعاتهم وما كان لهم من فضل فى ثقافة أوروبا فى العصر الحديث . بقلم ج . ب . ترند G. B. Trend ص ٧٢٩ - ٧٦٠ من الترجمة العربية لكتاب « تاريخ العالم » نشر وزارة التربية والتعليم المصرية .

المسيحية لا أيام ضعفها في القرون الأولى ولا حين أصبح لها السلطان « ١ » .
إنما يسعى كل إنسان إلى خلاصه الشخصي ، كالذى يسير على معبر دقيق كل
همه ألا يفقد توازنه فيقع في الهاوية ، أو كالذى يسير في الوحل كل همه أن يشمر
ثيابه ويلتفت إلى مواقع قدميه حتى لا ينزلق أو يتلطح بالوحل ، لا يهمه أن
يصحح مواضع أقدام الآخرين أو يقيهم من الانزلاق .

ومن هنا فإن هذا الدين في صورته الكنسية تلك لم يكن يسعى إلى تحسين
أحوال البشر على الأرض ، أو إزالة المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية
التي تقع عليهم ، وإنما يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا برمتها ، وترك كل شيء
على ما هو عليه ، لأن فترة الحياة الدنيا أقصر وأضال وزنا من أن يحاول
الإنسان تعديل أوضاعه فيها . إنما يسعى جاهدا إلى الخلاص منها دون أن
يعلق بروحه شيء من الآثام . والمتاع ذاته هو من الآثام التي يحاول المتطهرون
النجاة منها بالرهبة واعتزال الحياة .

بل أكثر من ذلك : إن احتمال المشقة في الحياة الدنيا ، واحتمال مايقع فيها
من المظالم هولون من التقرب إلى الله يساعد على الخلاص . ومن ثم دعت
الكنيسة الفلاحين للرضا بالمظالم التي كانت تقع في ظل الإقطاع وعدم الثروة
عليها لينالوا رضوان الله في الآخرة ، وقالت لهم : « من خدم سيدين في الحياة
الدنيا خير ممن خدم سيدا واحدا » !

ومن جهة أخرى كان هذا الدين يحصر كيان الإنسان في نطاق محدود
محصور أشد الحصر ، ليبرز جانب الألوهية في أكمل صورة .

الوهية الله في ذلك الدين معناها السلبية الكاملة للإنسان ، وحصر دوره - لا
في العبادة بمعناها الواسع - أى على النحو الذى قرره الإسلام ، والذي يشمل
عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى - إنما في الخضوع لقدر الله القائم ، وعدم
العمل على تغيير شيء من الواقع المحيط بالإنسان ، لأن محاولة التغيير - ولو إلى
الأحسن - تحمل في طياتها « عدم الرضا » بالأمر الواقع ، وهولون من التمرد
على إرادة الله لا يقره ذلك الدين .

ومن ثم فإن فاعلية الإنسان محصورة في الطاعة للأوامر الالهية - كما
تعرضها الكنيسة بالحق أو الباطل - لا تتعدها إلى الإنشاء لأنه « ليس للإنسان

أن ينشئ شيئاً من عند نفسه، ولو كان يلتزم في هذا الإنشاء بالهدى الربانى .
ومن ثم كذلك كان ثبات الأوضاع في أوربا في العصور الوسطى لفترة طويلة من
الزمان بكل ماتحمل من ألوان الفساد السياسى والاقتصادى والاجتماعى
والفكرى والروحى .. على أساس أنها قدر الله الذى لا يجوز للناس تغييره ،
إنما ينبغى الخضوع له والمحافظة عليه تقرباً إلى الله !

هذا الدين بصورته تلك لم يكن هو الدين المنزل من عند الله ، ولم يكن - كما
أسلفنا - صالحاً للحياة . كان لابد من نبذه والانسلاخ منه لكى تسير دفعة
الحياة في خطها الصحيح .

ولقد كان على مقربة من أوربا - بل في جزء من أرضها - دين آخر يقدم المنهج
الصحيح للحياة ، فلا هو دين أخروى بحث بمعنى إهمال الحياة الدنيا ، ولا هو
الدين الذى يفرض السلبية الكاملة على الإنسان ، ويفرض عليه الخضوع
« للأمر الواقع » وعدم التفكير في تغييره .

إنه دين يعمل للأخرة من خلال العمل في الدنيا « الدنيا مزرعة الآخرة » .
ويبين أن العمل للأخرة لا يعنى إهمال الحياة الدنيا « وابتغ فيما آتاك الله
الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » « ١ » « قل من حرم زينة الله التى
أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة
يوم القيامة » « ٢ » .

وهو دين يعمل لإصلاح الحياة الدنيا بإقامة المنهج الربانى الذى يأمر بالعدل
والقسط ، كما يدعو إلى الجهاد لإقامة هذا المنهج ومنع الانحراف عنه ، ذلك
الانحراف الذى يؤدى إلى فساد الحياة وإلى وقوع الظلم على الناس :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس
بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره
ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز » « ٣ »

وهو دين يجعل للإنسان إيجابية واسعة في الأرض .

فقد خلقه الله ابتداء ليكون خليفة في الأرض :

« وإن قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » « ٤ »

١ - سورة القصص [٧٧] ٢ - سورة الحديد [٢٥]
٢ - سورة الاعراف [٢٢] ٤ - سورة البقرة [٢٠]

ومن شأن الخلافة الهيمنة على الأرض والسيطرة عليها ، والإنشاء والتعمير فيها ، واستغلال الطاقات المذخورة في السماوات والأرض ، التي سخرها الله للإنسان من أجل عمارة الأرض ، والمشى في مناكب الأرض لاستخلاص الأرزاق المكنونة فيها والظاهرة :

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » « ١ »

« وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه » « ٢ »

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » « ٣ »

بل إن المنهج الرباني ذاته يستدعي إيجابية الإنسان لتنفيذه ، فهو لا ينطبق انطباقا أليا على الأحداث والأشياء ، بل الإنسان المستبصر بالهدى الرباني هو الذي يطبقه ويجتهد بفكره ليضع تفصيلات تنفيذه ، خاصة وهو منهج حياة كامل ، يشمل الثابت والمتغير في حياة الإنسان ، فلا بد أن يجتهد على الدوام ليضع للمتغير حلا مستمدا من المبادئ الثابتة في هذا المنهج .. ومن ثم يعمل الإنسان بإيجابيته الكاملة في التنفيذ ، سواء إيجابية العزيمة اللازمة لإقامة المنهج والجهاد لإقراره في الأرض، أو إيجابية التفكير في الوسيلة المثلى لإقامته .. بل إن قدر الله ذاته يجرى من خلال أعمال الإنسان بالخير والشر سواء :

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » « ٤ »

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » « ٥ »

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ٦ »

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « ٧ »

وهذا الدين الذي يعطى التوازن الصحيح بين الدنيا والآخرة ، وبين فاعلية قدر الله وفاعلية الإنسان ، وبين العبودية الكاملة لله والإيجابية السوية للإنسان ، هو الدين الصحيح الذي تصلح به الحياة في الأرض ، وتستقيم به خطى البشر في الحياة الدنيا . « ٨ »

-
- | | |
|-------------------------|--|
| ١ . سورة هود [٦١] | ٥ . سورة النحل [١١٢] |
| ٢ . سورة الملك [١٥] | ٦ . سورة الاعراف [٩٦] |
| ٣ . سورة الجاثية [١٢] | ٧ . سورة الرعد [١١] |
| ٤ . سورة الروم [٣١] | ٨ . انظر فصل التوازن في كتاب خصائص التصور الاسلامي |

ولكن أوروبا - بدافع العصبية الصليبية - أعرضت عن هذا الدين واتجهت إلى الجاهلية الإغريقية الرومانية ، تنتقم بها من الكنيسة ودينها الفاسد الذي يهمل الحياة الدنيا ويلغى الوجود الإيجابي للإنسان .

وإن كانت النهضة في مجموعها « رد فعل » للكبت الواقع على « الإنسان » بفعل التصور الكنسي للدين ، والممارسة الكنسية له ، وإن كان الغالب على ردود الفعل هو الاندفاع لا التعقل ولا التبصر ولا الروية ولا الاتزان .. فقد اندفعت أوروبا في نهضتها تنزع من طريقها كل معلم من المعالم الإلهية (سواء كانت إلهية حقا أو مبدعة من قبل الكنيسة) وتضع مكانها معالم بشرية من صنع الإنسان ، كما تنزع من طريقها كل ما يتصل بالآخرة لتضع بدلا منه ما يتصل بالحياة الدنيا .. وكانت هذه هي بداية « العلمانية » بالتعريف الأوربي ..

لقد أصبح الطابع المميز للفكر الأوربي منذ النهضة هو التمرد على الدين والتمرد على الله ، وكان ذلك نابعا من تأثيرين في آن واحد . التأثير الأول هو روح رد الفعل الذي قام ضد الدين والكنيسة ، والثاني هو تأثير الجاهلية الإغريقية في هذا الشأن بالذات .

فأما رد الفعل فقد أخذ صورة الخروج على كل ما كان سائدا من قبل في فترة السيطرة الكنسية .

كان السائد هو ألا يفكر الإنسان لنفسه في شيء من الأشياء إنما يأخذ الأفكار جاهزة من الكتب المقدسة وشروحها عن طريق رجال الدين ، سواء كانت الأفكار متصلة بالعقيدة أو بأمر من أمور الدنيا ، أو حتى أمور العلم كقضية شكل الأرض .

وغنى عن البيان أن هذا ليس الموقف الصحيح للإنسان في ظل الدين الصحيح « ١ » ولكن هكذا كانت الممارسة الدينية في ظل الجاهلية الكنسية المنحرفة ، والتي من جرائها كان لرجال الدين كل ذلك النفوذ على عقول الناس وأرواحهم ، فهم الوسطاء بين الناس وبين الدين ومفاهيمه ، بل هم الوسطاء بين الناس وبين الله ، والناس - علماء أو غير علماء - لا يبحثون في أي شأن من الشؤون ليكوّنوا فيه رأيا أو موقفا . إنما يسألون رجال الدين ليدلوهم على الرأي

١ - سنعاود الحديث في هذه النقطة في هذا الفصل وفي فصل « العقلانية » كذلك .

أو الموقف الذى ينبغى عليهم اتخاذه . هذا بالإضافة إلى أن الأمور التى يسألون عنها هى أولا وقبل كل شىء أمور « الخلاص » . الخلاص من أدران الحياة الدنيا للحصول على رضوان الله فى الآخرة .

وكان رد الفعل أن الإنسان هو الذى ينبغى أن يستشار فى الأمور كلها وليس الدين ، وأن العقل البشرى هو الذى ينبغى أن يكون صاحب القرار وليس الله .. ولو كان الأمر متعلقا بالعقيدة أو الأمور الأخروية . وبمقدار ما كان العقل مكبوتا ومحجورا عليه ، انطلق هذا العقل يريد أن يقتحم كل ميدان ولو كان خارجا عن اختصاصه ! يقتحمه بروح أنه هو صاحب الحق الذى كان ممنوعا من حقه فهو يريد أن يؤكد هذا الحق . ويقتحمه بروح الشك ، أو روح المحولكل ما كان موجودا من قبل ولم يشترك فيه ، فهو يريد أن ينشئه من جديد سواء وافق ما كان موجودا من قبل أو خالفه ، والأجدر به أن يخالفه لكى يثبت وجوده .

بهذه الروح بدأ الكتاب و« المفكرون الأحرار » يهاجمون فكرة الألوهية وينفون الرسالات والوحى ، وينفون الحياة الآخرة والجنة والنار .. ويقولون إن هذه كلها أوهام تبنتها البشرية فى غيبة من العقل ، والآن وقد صحا العقل فقد أن الأوان لنبذها وتركها للهمج المتأخرين .. وربما كان خير ممثل لهذا الاتجاه هو « فولتير » الكاتب الفرنسى الملحد المشهور .

أما التأثير الثانى الذى أشرنا إليه فهو تأثير الجاهلية الإغريقية التى تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة صراع وخصام لايفتر : الآلهة تريد أن تقهر الإنسان وتكبته وتحطمه لكى لايطمح فى أن يكون مقتدرا مثلها ، فلا تفتأ كلما حقق نجاحا أن تصب الكوارث فوق رأسه لكى لا يستمتع بثمرات نجاحه ، وهو من جانبه دائم التحدى للآلهة ، كلما وقع فى حفرة من حفائرها عاد يستجمع قواه ليصارعها من جديد . وتكفى أسطورة بروميثيوس الشهيرة لبيان هذا المعنى بصورة مباشرة، إذ تزعم تلك الأسطورة أن « زيوس » إله الآلهة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ثم سواه على النار المقدسة (التى ترمز إلى المعرفة) ثم وضعه فى الأرض محاطا بالظلام (الذى يرمز إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى بروميثيوس، فسرق له النار المقدسة لكى ينير له مآحوله ، فغضب زيوس على الإنسان وعلى بروميثيوس كليهما . فأما

بروميثيوس فقد وكل به نسرا يأكل كبده بالنهار ثم تنبت له كبدة جديدة بالليل
يأكلها النسرا بالنهار في عذاب أبدي !

وأما الإنسان فقد أرسل له زيوس « باندورا » (التى ترمز إلى حواء) لكى
تؤنس وحشته (فى ظاهر الأمر !) وأرسل معها هدية عبارة عن علبة مقفلة ،
فلما فتحها إذا هى مملوءة بالشروخ التى قفزت من العلبة وتناثرت على سطح
الأرض لتكون عدوا دائما وحزنا للإنسان !

ويشير جوليان هكسلى إشارة صريحة إلى هذه الأسطورة فى كتابه « الإنسان
فى العالم الحديث Man in the modern world » فيقول إن موقف الإنسان
الحديث هو ذات الموقف الذى تمثله هذه الأسطورة ، فقد كان الإنسان يخضع
لله بسبب الجهل والعجز . والآن بعد أن تعلم وسيطر على البيئة فقد أن له أن
يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق
الله ، ويصبح هو الله !!

من هذين التأثيرين معا انطلق الفكر « المتحرر » يهاجم الدين ، ويصفه بأنه
الأغلال التى تغل الفكر عن الانطلاق ، والتى ينبغى أن تحطم لكى يثبت
الإنسان وجوده، ويقوم بدوره الذى يجب أن يقوم به فى الأرض !

وفى نفس الوقت اتجه الفكر المنسلخ من الدين إلى البحث عن مصدر آخر
للقيم الإنسانية غير الدين ! ذلك أن أوروبا لم تكن قد انسلخت بعد من القيم
ذاتها كما حدث فيما بعد، حين امتد الخط المنحرف فازداد بعدا وانحرافا ، ولم
تكن قد سنحت الفرصة للشريرين أن يعلنوا الحرب المنظمة على كل مقومات
« الإنسان » كما سنحت لهم بعد ظهور الداروينية وإعلان حيوانية الإنسان !
ففى تلك الفترة وجد « الفكر الحر ! » أنه إن أقرباؤ الدين هو مصدر القيم
الإنسانية فقد وجب عليه أن يحافظ عليه ولا يهاجمه ولا يسعى إلى تحطيمه !
فينبغى إذن أن يبحث ذلك الفكر عن مصدر آخر يستمد منه القيم ويسندها
إليه ، لكى لا يقول أحد إنه لا يمكن الاستغناء عن الدين ! وعلى هذا الضوء
يمكننا فهم فلسفة « أوجست كومت » من ناحية ، وأفكار جان جاك روسو من
ناحية أخرى . فكلاهما يجهد نفسه ليقول للذين يقفون مدافعين عن الدين : ها
قد وجدنا مصدرا آخر تنبع منه القيم الضرورية لحياة الإنسان غير الدين ،
وجدناه فى « الطبيعة » وفى « النفس البشرية » وهو مصدر أفضل - فى إنبات القيم

وترسيخها - من الدين .. فدعونا إذن من الدين ، وتعالوا معنا إلى تلك المصادر « الحرة » التي يقبل عليها الإنسان إقبالا « طبيعيا » و « ذاتيا » دون أن يحس بالقهر المفروض عليه من قوة أعلى منه !

وفي الوقت ذاته اتجه هذا « الفكر المتحرر » إلى عبادة الطبيعة بدلا من عبادة الله ، ونسبة الخلق إليها بدلا من الله . وقد تحدثنا من قبل عن هذا الأمر بما فيه الكفاية فلانعود إلى الحديث فيه ، ولكن نضعه فقط في مكانه من التسلسل التاريخي .

وفي ذات الوقت كذلك اتجه الفن إلى مناجاة الطبيعة بدلا من مناجاة الله ، وتأليهها بدلا من تأليه الله « ١ » .

ومضى الزمن في خطواته ، وجاءت الثورة الصناعية .. وجاء مزيد من إبعاد الدين عن الحياة .

ففي العهد الزراعي - أو الإقطاعي كما يسمونه - كان ما يزال للدين نفوذ كبير في حياة الناس .

كان الملوك قد استقلوا عن سلطان البابا ، وقامت « علمانية الحكم » بفصل الدين عن السياسة (أى إقصاء رجال الدين عن التدخل في شؤون السياسة) ولكن الكنيسة كان ما يزال لها سلطان ضخم على أخلاق الناس وعاداتهم وأفكارهم رغم كل الصراعات وكل الاعتبارات .

ولكن الثورة الصناعية أحدثت - أو أريد لها أن تحدث - هزات عنيفة في حياة الناس .

ولقد مر بنا في الفصول السابقة تفصيل ماصنعت الثورة الصناعية في حياة أوربا ، وما بنا من حاجة إلى إعادته . ولكننا نذكر مجرد تذكير بإخراج المرأة إلى العمل وإفساد أخلاقها وإفساد أخلاق الرجل معها ، واستغلال قضية المساواة مع الرجل في الأجربث روح الصراع في نفس المرأة وإحراج صدرها من قوامة الرجل والعمل في البيت والتفرغ للأمومة ، ومانتج عن ذلك كله من تحطيم

١ « ليست مناجاة الطبيعة في ذاتها انحرافا عن السلوك القويم في عالم الفن ، بل العكس هو الصحيح . فالفن السليم لابد أن يلتفت إلى الطبيعة ويتفاعل معها . ولقد لفت القرآن الكريم حس المسلمين لفتا شديدا إلى الطبيعة في شتى مظاهرها من الجبال والأنهار والوديان والزرع والرعد والبرق والسحاب والمطر والرياح والسماء والأرض .. ولكن المناجاة شيء والتأليه الذي مارسه الفنون الأوروبية العلمانية شيء آخر .

الأسرة وتشريد الأطفال والفوضى الجنسية .. الخ ونسبة ذلك إلى التطور الذى يهدم مايشاء من القيم ويلغى مايشاء !
وكانت الطامة العظمى هى الداروينية وإبعاد الإنسان ذاته من عالم الإنسان وإحاقه بعالم الحيوان ! فعندئذ لم تعد هناك حاجة إلى القيم أصلا .. لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد المستمدة من الدين .. فما حاجة الإنسان إلى شيء من ذلك وهو عريق فى الحيوانية مستقر فى عالم الحيوان ؟!
ثم أتى على الإنسان حين من الدهر لم يعد حتى حيوانا ! بل هبط عن ذلك دركات فأصبح جزءا من عالم المادة الصماء !

لم نكن هنا نستعرض خطوات العلمانية بالتفصيل ، فسيأتى شيء من ذلك فيما بعد حين نتحدث عن علمانية السياسة وعلمانية الاقتصاد والاجتماع والعلم والأخلاق والفن .. ولكننا أردنا فقط أن نلفت النظر إلى حقيقة واقعة هى استمرار « الإنسان » فى الهبوط كلما أمعن فى السير على الخط العلمانى .
وأيا تكن الأسباب التى أدت بأوروبا إلى العلمانية فهى كما قلنا من قبل تفسر العلمانية ولا تبررها ، ولا تبرر بالطبع نتائجها التى أدت إليها ، والتى بدأ المفكرون الغربيون أنفسهم يتنبهون إليها وينذرون نتائجها ، ولكن دون أن يعرجوا على السبب الحقيقى ولا العلاج الحقيقى !
ولئن كانت الكنيسة هى المعتدية على الملوك والعلماء فى بادئ الأمر ، مما أسفر عن العداء بين الدين والسياسة وبين الدين والعلم ، فلم تكن هى المعتدية ولا المتسببة حين أقامت الثورة الصناعية اقتصادياتها على الربا ولجت فيه ، وحين سقطت « الأخلاق » واحدا إثر الآخر ، حتى الأخلاق التى أقرها « المفكرون الأحرار » فى مبدأ عهدهم وهم يناصبون الكنيسة العداء ، ويبحثون عن مصدر آخر للقيم غير الدين !

إنما استمرأ القوم الفوضى الخلقية وأمعنوا فيها لا للدوافع القديمة التى دفعتهم للخروج على الدين أول مرة ، ولكن لأن هذه هى طبيعة السير على المنزلق .. كل خطوة تصبح أشد هبوطا من السابقة .. وهذه طبيعة الحياة حين يكف الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. يزداد المنكر وينتفش ويستفحل حتى يصبح هو الأصل ، أو حتى يصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومن أجل ذلك لعن الذين

كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم :
« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك
بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ماكانوا
يفعلون » ١ »

ويجدر بنا الآن على أى حال أن نستعرض الصورة الراهنة للعلمانية في أوروبا
في مجالات الحياة المختلفة ، لا على أنها الصورة الأخيرة التى ستقف عندها !
فقد لاتقف عند هذا الحد من السوء ، وإن لم يكن في وسع الخيال أن يتصور
ماهو أسوأ ، ولكن لنقيس المسافة بين الأصل الذى كان ينبغى وبين ماوصلت
إليه الأمور حين قال الإنسان لنفسه : لقد شب الإنسان عن الطوق ولم يعد في
حاجة إلى وصاية الله !

(١) في السياسة :

لم تكن السياسة من أول عهدها في الإمبراطورية الرومانية محكومة
بالشريعة المنزلة من عند الله ، وإن وقعت لفترة من الوقت تحت سلطان البابوات
ورجال الدين ، يفرضون على الملوك أن ينزلوا على إرادتهم على اعتبار أن
إرادتهم من إرادة الله .

فقد بينا من قبل أن الفصل بين الدين والسياسة كان قائما من أول اعتناق
الدولة الرومانية للمسيحية ، إذ اعتنقتها عقيدة فقط ، ولم تأخذ من الشريعة إلا
مايتعلق بالأحوال الشخصية ، وبقيت الأمور الجنائية والأمور المدنية وعلاقة
الحاكم بالمحكوم وغيرها من شؤون الحياة الواقعة يحكمها القانون الرومانى
ولاتحكمها الشريعة المنزلة في التوراة والمعدلة تعديلا جزئيا بالإنجيل :

« ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » ٢ «
« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك
هم الفاسقون » ٣ «

ولكن الكنيسة مع رضاها بهذا الأمر - المخالف لأمر الله - في أيام
ضعفها، لم تحاول في أيام سلطانها وسطوتها أن تعود إلى الوضع الدينى

١ . سورة المائدة [٧٨ - ٧٩]

٢ . سورة آل عمران [٥٠]

٣ . سورة المائدة [٤٧]

الصحيح ، فتلزم الملوك والباطرة أن يحكموا بما أنزل الله ، وهى تمارس عليهم من السلطان مالا يستطيعون معه مخالفتها أو الخروج على أمرها ، بل استغلت سلطانها في إخضاعهم لأهوائها الخاصة ، بينما تركتهم يحكمون بغير ما أنزل الله وهى راضية عنهم كل الرضا ماداموا يخضعون لأوامرها ، وهذا هو الذى تسميه أوربا الحكم الدينى أو الثيوقراطى وما أبعده عن الدين !

صحيح أن إخضاع الكنيسة الملوك والباطرة لأهوائها الذاتية كان يتم باسم الدين وتحت شعاراته ، ولكن هذا لا يكفى لاعتباره حكما دينيا مادام لا يحكم بما أنزل الله . ولكن الحس الأوربى المضطرب يخلط بين الدين ورجال الدين نتيجة اتخاذ الأقباط والرهبان أربابا من دون الله ، واعتبار أعمالهم وأقوالهم أعمالا دينية وأقوالا دينية ولو كانت بعيدة كل البعد عن حقيقة الدين !

مهما يكن من أمر فقد استطاعت الكنيسة بنفوذها أن تجعل الملوك والباطرة طوع إرادتها . وأعلن البابا « نقولا الأول » (٨٥٨ - ٨٦٧ م) بيانا قال فيه : « إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها . وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل .. (ولذلك) فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين ، حكاما كانوا أو محكومين »

وأعلن البابا جريجورى السابع (تولى البابوية ١٠٧٣ - ١٠٨٥) « أن الكنيسة بوصفها نظاما إلهيا خليفة الله فى أرضه - أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال »

ولم يكن ذلك كلاما فى الهواء ، إنما كان واقعا عاشته أوربا عدة قرون .. وأبرز الأمثلة التى يرويها التاريخ الأوربى ماحدث بين « جريجورى السابع » هذا والامبراطور الألمانى « هنرى الرابع » مما أشرنا إليه من قبل ، إذ أن خلافا نشب بينهما حول مسألة « التعيينات » أو مايسمى « التقليد العلمانى » فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ، ورد البابا بخلع الإمبراطور وإصدار قرار حرمان ضده ، كما أحل أتباعه وأمرأه مملكته من ولائهم له وألهم عليه . فعقد الأمراء مجمعا قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد ، فوجد الإمبراطور

نفسه مضطرا إلى استرضاء البابا، ولم يستطع أن ينتظر حتى يصل البابا إلى ألمانيا ، فسافر إليه في « كانوسا » وظل واقفا في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام في لباس الرهبان متدثرا بالخيش حافي القدمين عارى الرأس حتى تعطف عليه البابا ومنحه مغفرته !

وفي بريطانيا حصل نزاع بين الملك « هنرى الثانى » وبين « توماس بكت » رئيس أساقفة كنتربرى بسبب دستور رسمه الملك يقضى على كثير من الحصانات التى يتمتع بها رجال الدين ، ثم إن رئيس الأساقفة اغتيل فثارت المسيحية على هنرى الثانى ثورة عنيفة ، فاعتزل الملك في حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام ، ثم أصدر أمره بالقبض على القتلة وأعلن للبابا براءته من الجريمة وألغى الدستور ، ورد إلى الكنيسة كل حقوقها وأملاكها ومع ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء إلى كنتربرى حاجا مظهرا ندمه ، وسار الأميال الثلاثة الأخيرة من الطريق على الحجر الصوان حافي القدمين حتى دميت قدماه ، ثم استلقى على الأرض أمام قبر رئيس الأساقفة المقتول وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط ، وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الإهانات في سبيل استرضاء البابا وأتباعه « ١ »

ولكن الملوك والباطرة أخذوا آخر الأمر يتمرّدون على ذلك السلطان القاهر الذى تستذلهم به الكنيسة ، ويطالبون « بالسلطة الزمنية » خالصة لهم على أن تقتصر الكنيسة على السلطة الروحية فحسب ، وكان مستندهم في ذلك نظرية الحق الإلهى المقدس .
يقول رندال (ج ١ - ص ٢٧٧ من الترجمة العربية لكتاب « تكوين العقل الحديث ») :

« نشأت نظرية الحق الإلهى للملوك في أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية ، أو العلمانية من رقابة البابا والكهنة . كما أنها كانت ردا على دعواه أن له حقا إلهيا في السيطرة على الأمور الزمنية » .
ونظرية الحق الإلهى تستند بدورها إلى نظرية رومانية قديمة تعرف بنظرية العقد الاجتماعى .

١ . عن كتاب « قصة الحضارة » لول يورانت ترجمة محمد بدران ، ج ١٥ - ص ١٩٤ ، ١٩٧ .

يقول راندال (ج ١ - ص ٢٨١ من الترجمة العربية من المصدر السابق) :

« تعود أصول فكرة العقد الاجتماعى إلى الفكر الرومانى وفكر القرون الوسطى معا . وقد كانت الإمبراطورية الرومانية - كما ضمنت في مجلة الحقوق المدنية - على القول بأن كل السلطة وكل حق في وضع القوانين يعودان للشعب الرومانى ، غير أن الشعب تنازل بموجب قانون شهير عن هذه الحقوق للإمبراطور ، وهو تفسير طبيعى لمجرى التاريخ الرومانى ، فجميع حقوق الشعب الرومانى وجميع سلطاته انتقلت إلى الإمبراطور ، وله وحده حق « إصدار » القوانين وحق تفسيرها . وعندما تم إحياء القانون الرومانى في القرون الوسطى ، انتبه الإمبراطور إلى هذه النظرية واتخذها سلاحا ضد سيطرة الكنيسة ، ثم تبعه في ذلك جميع الأمراء . وهكذا نشأت نظرية العقد الاجتماعى القائلة بأن كل سلطة مدنية تتركز في أساسها على الشعب ، وأن الشعب قد حولها إلى الحاكم ليتمكنه من القيام ببعض الوظائف الضرورية . ومن الواضح أنها نظرية ذات حدين .. فقد تفسر لتأكيد سلطة الحاكم الشاملة باعتباره مصدر جميع السلطات ، أولتأكيد سيادة الشعب الأساسية باعتباره المصدر الأخير لتلك السلطة .. »

وكان « مكيافيللى » و « هوبز » من أشهر المدافعين عن الحق الالهى المقدس ، وعن استبدادية الحكام .

ويهمنا مكيافيللى هنا أكثر ، لأنه علم على اتجاه معين في السياسة الأوربية لاحظ آثاره بشدة في أوربا العلمانية المعاصرة .

هناك حقيقة أكدناها مرارا أن الحكم بما أنزل الله لم تعرفه أوربا المسيحية في أى يوم من الأيام ، وأن علمانية الحكم - بهذا المعنى - قائمة في أوربا منذ اعتنقت المسيحية . ولكن هذا لم ينف - كما بينا مرارا كذلك - أنه كان للكنيسة ورجالها نفوذ شخصى على الملوك والأمراء طيلة اجتماع السلطة الزمنية والسلطة الروحية في يد الكنيسة . وفي تلك الفترة لم يكن الحكم دينيا بالمعنى الصحيح - وإن سمته أوربا كذلك - لأنه لم يكن يحكم بما أنزل الله لا من قبل الملوك والأمراء ولا من قبل الكنيسة المسيطرة عليهم . ومع ذلك فقد كان هذا النفوذ الدينى الذى تمارسه الكنيسة على الحكام يلزم هؤلاء الحكام بشيء من

« أخلاقيات » المسيحية رضوا أم كرهوا ، عن إيمان حقيقى أم عن ملق للروح المسيحية ونفاق ..

وليس معنى ذلك أن الحكام التزموا دائما بتلك الأخلاقيات المسيحية ، فكثيرا ما كانوا يخالفونها، ولكنهم كانوا يحسون بالحرع من مخالفتها ، ويعتذرون دائما عن المخالفة بشتى المعاذير .

فالذى صنعه مكيافيللى هو تعرية « السياسة » من ذلك القناع الأخلاقى المستمد من الدين ، وكشفها عارية من كل أثر للدين أو الأخلاق !

جاء يشرع الجريمة السياسية ويجعلها أصلا ينبغى للحكام أن يتبعوه ! ولقد كان الحكام - إلا من رحم ربك - يسيرون فى سياستهم على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة ، والغاية طبعاً هى غايتهم هم ! ولكنهم كانوا - حين يستخدمون الوسائل غير النظيفة لتحقيق غاياتهم غير النظيفة - يستترون وراء عبارات براقة تحوى كل نبيل من القيم والمبادئ والأخلاقيات ، أما مكيافيللى فإن الجديد الذى أتى به - وهو خطر فى ذاته - أنه أعطى الوسائل الخسيسة فى السياسة شرعية صريحة لا موارد فيها ولا إنكار .

ولقائل أن يقول : وماذا أضاف مكيافيللى من عنده إلى الواقع ؟ ألم يكن الواقع خسيساً فى غاياته ووسائله ؟ فكل ما فعل مكيافيللى أنه كان صريحاً بالدرجة التى كشف بها القناع عن الواقع المزيف وجعله حقيقة واقعة ! نعم : ولكن الفارق - العمل - كبير !

وقد لا يتضح الفرق فى البداية لأن البداية تكون مجرد مطابقة النظرية للواقع الموجود بالفعل . ولكن الفارق يتبين - ويزداد - مع التطبيق .

حين ترتكب المنكر وأنت شاعر بأنه منكر ، فستقتصد فى ارتكابه فلا تلجأ إليه إلا تحت ضغط قاهر ، وستقف فى ارتكابه عند الحد الذى ترى أنه لا يطيح بسمعتك كلها أمام الناس ، وقد تحاول الرجوع عنه فى يوم من الأيام . أما حين يكتسب المنكر فى حسك الشرعية فلماذا تقتصد فى ارتكابه ، ولماذا تقف عند حد من الحدود ؟!

إنها هى ذاتها حكمة وقوع اللعنة على الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه .. لأنهم لا يوقفون فى ارتكاب المنكر عند حد معلوم .

وحقيقة إن كتاب « الأمير » الذى ألفه مكيافيللى وأعطى فيه الشرعية للوسائل الخسيسة التى يستخدمها الحاكم من كذب وغش وخديعة وقتل وسفك

دماء .. قد قوبل باستنكار عنيف وقت ظهوره ، لأن أوربا - كما أسلفنا - كانت نافرة من الدين منسلخة منه ، ولكنها ماتزال تعترف « بالقيم »، وتحاول الحفاظ عليها، ولكن بشرط العثور على منبع آخر لها غير الدين .. ومن ثم ظهرت عدة نظريات تحاول أن تجعل للحكم « أخلاقا » ولكنها غير مستمدة من الدين ، كما فعل جان جاك روسو في حديثه عن نظرية العقد الاجتماعى وأوجست كومت في فلسفته الوضعية ..

ولكن المنزلق « العلمانى » كان لابد أن يأخذ طريقه .. فمئذ استقلت السياسة عن الدين واستقلت عن الأخلاق المستمدة من معين الدين ، لم يكن من الممكن أن تظل لها أخلاق !

والقرن - الجاهلى - العشرون خير نموذج لما نقول ، فقد قامت في هذا القرن أبشع دكتاتوريات التاريخ !

ونظرة إلى ما وقع في أيام موسولبنى وهتلر ، وما وقع في الدول الشيوعية منذ الثورة الشيوعية حتى اليوم، كقيلة بأن ترينا إلى أى مدى انحدرت السياسة « العلمانية » في تبرير الوسيلة بالغاية ، وكلتا الوسيلة والغاية ما أنزل الله بها من سلطان !

في فاشية موسولبنى ونازية هتلر كانت الغاية هى التجمع القومى والعزة القومية وإحلال قومية كل منهما مكانها « تحت الشمس » !

وفي سبيل هذه الغاية (التى قد تكون مشروعة في ذاتها إذا خلت من العدوان على الآخرين) استباح كل من الرجلين أن يقتل ألفا ومئات الألوف من المعارضين باسم « حركات التطهير » و « وحدة الصف » و « القضاء على الثورة المضادة » و « القضاء على الطابور الخامس » وما أشبه ذلك من التعللات . وفتحت معسكرات التعذيب ، وذاق الشعب كله ويلات الجاسوية والارهاب .

وفي الثورة الشيوعية كانت الغاية إزالة الظلم (!!) الذى يقع على الناس من جراء الملكية الفردية والصراع الطبقي واستئثار الطبقة المالكة بالحكم والسلطان والمنافع على حساب الطبقة الكادحة ! وقد مر بنا في فصل الشيوعية وصف العدل (!) الذى طبقته الشيوعية بالوسائل النبيلة (!) التى طبقت بها ذلك العدل ، ومن بينها ذبح ثلاثة ملايين ونصف مليون من المسلمين في عهد رجل واحد .. وإخضاع الشعب كله لآلوان من الإرهاب نادرة في التاريخ !

أما الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية فهى التى تبيح احتراف المعارضة

واحتراف التأييد بحسب موضع كل حزب من الحكم : هل هو بداخله أم خارجه ، بصرف النظر عن الحق والعدل والمصلحة الوطنية أو القومية .. وتبيح الكذب من السياسة على شعوبهم في الدعاية الانتخابية (وغير الانتخابية) وتبيح استخدام وسائل استراق السمع بحجة المحافظة على الأمن ، وهى تقوم أساسا على مساندة الطبقة الرأسمالية في امتصاص دماء الكادحين وإن أخرجت ذلك كله في مسرحية طريفة اسمها « الحرية والإخاء والمساواة » ! وهذا كله في السياسة الداخلية ..

أما في السياسة الخارجية فالأمر أدهى وأمر .
فالقرن الجاهلى العشرون هو الذى شهد أبشع حالات قانون الغاب : القوى يأكل الضعيف !

في حربين عالميتين متتاليتين شهد الناس أفظع فنون العدوان في التاريخ ، من غازات سامة وقنابل محرقة وتدمير جماعى وقتل للنساء والأطفال والشيوخ والمدنيين غير المحاربين .. إلى أن كانت القمّة قنبلتى هيروشيما ونجازاكي الذريتين ، اللتين ماتزالان حتى اليوم بعد أربعين سنة من إلقائهما تنتجان أجنة مشوهة بفعل الإشعاع الذرى السام ، وذلك غير الخراب المدمر الذى أحدثته وقت إلقائهما في مساحة كبيرة من الأرض قتلتا فيها كل من عليها من الأحياء من البشر والدواب والشجر ، وحرمتا الحياة فيها لأجل غير معلوم !
والقنبلة الذرية لعبة صغيرة إلى جوار المدمرات التى اخترعت بعد ذلك ، والتى تهدد الحياة في أى حرب تالية تقوم بين الوحوش ويصلاها آدميون !
وذلك إلى إباحة الكذب الدولى والخيانة على أنهما عملة « شرعية » في عالم السياسة الدولية !

تبرم المعاهدات لكى تنقض ! ويعلم المبرمون جميعا أنها حبر على الأوراق !
وانه لن يتقيد بها أى طرف إلا ريثما يجد الفرصة السانحة للخروج عليها وإلقائها طعمة للنيران !

وتتكون عصابة للأمم وهيئة للأمم كلتاهما ستار للسياسة العدوانية التى تتخذها « الدول العظمى » ضد الدول الصغار ! وانظر موقف هيئة الأمم الموقرة « من أية قضية يكون المسلمون طرفا فيها أمام غير المسلمين ! يقع العدوان على المسلمين في أى مكان في الأرض فتممرره الهيئة الموقرة باحتجاج شفوئى على أقصى تقدير لا يغير شيئا من الواقع ولا يضمن ولا يغنى من جوع !

ويقع الدفاع من المسلمين ضد أى عدوان واقع عليهم فتجند هيئة الأمم قواتها لتأديب المدافعين ! لأنهم تجرءوا فردوا على المعتدين !
وذلك بخلاف الوسائل الفردية التى تستخدمها « الدول العظمى ! » بطريقها المباشر لتنفيذ « غاياتها » النبيلة !

حين قامت ثورة المجر سنة ١٩٥٦ ميلادية وجدت روسيا فى نفسها من « النبل » ماتحرك به الدبابات الشاهقة تهدم به البيوت على أصحابها أحياء وتردمهم فى الركام لأنهم تجرءوا فطلبوا أن يمنحوا حرية التصرف بأنفسهم فى أمر أنفسهم دون وصاية الدولة الروسية عليهم .. فهل تقاوم الردة إلا بالقتل الجماعى ؟! إلا أن تكون ردة عن دين الله ! فما أشد همجية المقاتلين يومئذ إذا قاموا يقاتلون المرتدين ويدعونهم إلى الرجوع فى دين الله !

كذلك حين قام الأفغانيون يقولون نريد أن تكون لنا الحرية فى أن نكون مسلمين ! فما « أنبل » الجيوش الروسية التى تصب فوقهم القنابل السامة وقنابل النابالم والتدمير الجماعى للقرى وتحريق المزارع من الجو وحرب الجراثيم وكل محرم فى عرف « الإنسان » ..

أما المخابرات الأمريكية فالأرض كلها مجال لمؤامراتها بغير حساب ..
نريد انقلابا هنا .. ونريد تغييرا هناك !
وسرعان ما تنقلب الأرض وتتغير الأحوال !
وكل الوسائل حلال !

الكذب والغش والتصفية الجسدية وشراء الضمائر بالمال !
المهم أن تنفذ الغاية .. والغاية والوسيلة كلتاهما غارقة فى الأحوال !

يقول كاتب غربى مشيرا إلى هذه الحقائق بلسان ساخر :
« بعض الناس يقض مضاجعهم ما يقترفه العالم الرأسمالى من جرائم وأثام ، فيظلون عميا لا يرون جرائم البلشفية وإفلاسها .. وكثير منهم يستقلون نقائض العالم الغربى ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو البشعة .. أما أنا فأقول : لعن الله كليهما » « ١ »

١ . من كلام « لويس فيشر » فى كتاب « الصنم الذى هوى » (ترجمة فؤاد حمودة) ، ص ٢٧٤ من الترجمة العربية (عن كتاب العلمانية تأليف « سفير عبد الرحمن الحوالى » .

(٢) في الاقتصاد :

لم يكن النظام الإقطاعى متمشياً مع الدين الربانى فى صورته ومضمونه ، ولا كانت فيه أى ذرة من العدل ، وإن كانت الكنيسة أوهمت الناس أنه هو النظام الربانى الدائم الثابت الذى لايتغير ، لأن أوضاع الناس فيه هى الأوضاع التى قدرها الله منذ الأزل ورضى عنها ، واقتضت مشيئته أن يظل الناس عليها إلى الأبد ! وأنه من رضى بما فيه من هوان ومذلة وشظف ومشقة فقد استحق من الله الجنة والرضوان !

ولكن الناس حين خرجوا من الدين على خط العلمانية لم يستبدلوا بالإقطاع ماهو خير منه ، سواء فى الرأسمالية أو الشيوعية ، بل ظلوا ينتقلون من جاهلية إلى جاهلية حتى هذه اللحظة ، وكلما حاولوا أن يصلحوا الظلم جاءوا بظلم جديد . وهذا هو شأن البشر دائماً حين يشرعون لأنفسهم ويرفضون الهدى الربانى ، ينقسمون أولاً إلى سادة وعبيد ، سادة فى أيديهم المال والسلطان ، يشرعون ، وحين يشرعون فإنهم يضعون القوانين التى تضمن مصلحتهم وتسخر الآخرين لهم ، وعبيد ليس فى أيديهم مال ولا سلطان ، فلا يشرعون ، إنما يقع عليهم ما يضعه السادة من تشريعات ، ويسخّرون - رضوا أم أبوا - لمصلحة أصحاب السلطان .. ومن جهة أخرى يصيبهم الخبل والاضطراب والتخبط نتيجة القصور البشرى والجهل البشرى والعجز عن الإحاطة والعجز عن رؤية المستقبل الذى ينبى على الحاضر ، نعم ، ولكنه مع ذلك غيب لايمكن التنبؤ به عن يقين .

ولم يكن الإقطاع - كما أسلفنا - نظاماً ربانياً ، ولا كانت فيه ذرة من عدل .. ولكن النفوذ الذى كان للدين على القلوب - مع كل ما كان فى ذلك الدين من تحريفات ، وفى أهله من فساد - كانت له جملة من الآثار فى أهل الريف الأوربى الذى يعيش فى ظل الإقطاع . فمن جهة كان عند الناس « أخلاق » يتعاملون بها ، مستمدة من تعاليم ذلك الدين ، وكانت هذه الأخلاق أبرز ما تكون فى قضية العفة الجنسية وقدسيتها الرباط المقدس بين الزوجين ، وكانت كذلك تشمل حسن الجوار وترابط أفراد المجتمع عن طريق التزاور والمجاملات الاجتماعية ، ومن جهة أخرى كان فى نفوس الناس رضى وقناعة تجعل الحمل العصبى الذى يعانونه محتملاً فى النهاية رغم سوء الأحوال الاقتصادية إلى أقصى حد .. ومابنا أن ندافع عن الظلم المتمثل فى الإقطاع ، ولا حتى عن الرضى

الذليل الذى كانت الكنيسة تطلبه من الفلاحين مقابل الوعد بنعيم الآخرة ، فإن الدين الصحيح يطلب من الناس أن يثوروا على مثل ذلك الظلم ويصححوه بتحكيم شريعة الله . ولكننا نقرر واقعا تاريخيا كان قائما بالفعل بخطئه وصوابه ، لنقيس به الواقع التاريخي الذى تلاه على خط العلمانية حين خرج الناس من نفوذ ذلك الدين .. فقد بقى الظلم - من حيث المبدأ - كما هو ، ولكن ذهب الأخلاق ، وذهب الرضى من نفوس الناس ! وأصبح الحمل العصبي الذى يعانونه أبشع من أن يطاق ! فانتشر الجنون والقلق والانتحار والحالات العصبية والنفسية وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة ..

لم تكن « المكافيللية » فى الحقيقة مقصورة على عالم السياسة . إنما كانت ديننا جديدا حل محل الدين المخلوع ! الغاية تبرر الوسيلة . لا فى السياسة فقط ، ولكن فى الاقتصاد والاجتماع كذلك .. بل فى كل شئ تدخل فيه الوسائل والغايات ..

يقول « سول » فى كتاب « المذاهب الاقتصادية الكبرى » (ترجمة الدكتور راشد البراوى ، ص ٥٠ - ٥١ من الترجمة العربية) عن الفترة التى نبذ فيها الدين ولكن ظلت بقايا القيم - قبل اندثارها - يبحث الناس لها عن سند غير الدين :

« سيطرت فكرة الآخرة على المذاهب السائدة خلال العصور الوسطى وإن لم تسيطر على العادات والتقاليد ، والمجال الدنيوى بما فيه الحياة الانسانية نفسها ليس سوى مكان يستعد فيه الناس للحياة بعد الموت بما تشتمل عليه من ثواب وعقاب ، فكان على المرء أن يتحمل الألم وهو عالم أنه ليس إلا مقدمة لما يتوقع فى حياة مستقبلية .. أما الدافع الفكرى على تقويم العادات الاجتماعية أو زيادة الرفاهية الدنيوية فكان ضئيلا ، اللهم إلا من حيث الفائدة الروحية التى يمكن اجتناؤها .

« والآن تحول الاهتمام فأصبح محصورا فى تحسين الحياة على الأرض ، وكشفت العلوم والمخترعات عن إمكانات الأرض لذاتها ، لقد كانت المكاسب المادية ظاهرة فى كل شئ ، وكان لا حد لها من حيث وجود أساليب أفضل وأيسر لإنتاج الأشياء ، وسرت روح المغامرة .

« وهنا برز السؤال التالى : أليس فى وسع الفلسفة أن تعالج النظم البشرية بنفس الطريقة التى تدرس بها الأشياء المادية ؟

« وكان الجواب بالإمكان . ذلك أن المطلوب إنما هو تطبيق العقل علي الأساليب التي يستخدمها الناس كيما يعيشوا (في الأصل : كيما يعيشون) معاء وراح الكثيرون يصوغون الخطط والمشروعات التي تكفل قيام الحياة المثالية أو اليوتوبيا .

« وصار لزاما على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ، ووجدوه في الطبيعة .. أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان - وإن لم يكن في الواقع كما هو أغلبهم - فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة . وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شيء له وجود فحسب ، وإنما هو شيء ينبغي أن يطاع ، وصارت مخالفتها دليلا على نقص في التقوى والأخلاق .

ويقول راندال في كتاب « تكوين العقل الحديث » (ج ٢ ، ص ٤٦٨ من الترجمة العربية) عن الفترة التالية التي تم فيها الانسلاخ من القيم كلها بعد فقدان معينها الحقيقي وهو الدين :

« هكذا كان العلم (يقصد علم الاقتصاد السياسي) يبدو في الظاهر محاولة مجردة عن المصلحة ، للوصول إلى فيزياء اجتماعية للثورة ، لكنه كان في الحقيقة تبريرا منظما للمطالب التي تهدف إلى زيادة حرية جمع المال وتستعين بالعلوم الجديدة البشرية والطبيعية »

ويقول « روبرت داونز » في كتاب « كتب غيرت وجه العالم » (ترجمة احمد صادق وزميله ، ص ٧٣ من الترجمة العربية) :

« النظرية الأساسية في كتاب ثروة الأمم » ١ « نظرية ذات نزعة مكيافلية ، وهي أن العامل الأول في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية ، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا مظهر من مظاهرها . وبذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشري . وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها ، وإنما هي على العكس عوامل تحمل الخير إلى المجتمع برمته . وفي رأيه أنه إذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلا بد من ترك كل فرد يستغل أقصى إمكانياته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقيد

١ « كتاب ثروة الأمم هو من تأليف « آدم سميث » ، فيلسوف الرأسمالية وإمامها الفكري وقد كان له دور هائل في الغرب

بأى قيود . فللحصول على غذائنا لانتعبد على كرم الخمار « ١ » أو الخباز أو الجزار ، وإنما هم يقدمونه لنا بدافع من مصلحتهم الشخصية ، وإنما عندما نخاطبهم لا نتجه إلى ما فيهم من دوافع إنسانية ، وإنما نتجه إلى مصلحتهم المادية ، ولا نكلمهم عن احتياجاتنا ، بل عما يعود عليهم من نفع وفائدة .
هذه الصورة المادية البحتة هي التي شكلت روح الرأسمالية ورسمت سمات الحياة في ظلها ، ففقد الناس آدميتهم بالفعل وصاروا إلى ذلك المسخ الذي يعيش اليوم في الغرب الرأسمالي .

ينقل كوث لن في كتابه « تطور المجتمع الأمريكى » (ترجمة نعيم موسى - ص ١١٢ من الترجمة العربية) من كلام جورج فيتزهيو ، أحد الذين ساءهم وضع الرأسمالية في نهاية القرن الماضى مايلي :

« إننا جميعا في الشمال والجنوب نعمل في تجارة الرقيق الأبيض . وبقدر نجاح الشخص فيها يزداد احترامه .. وهذه التجارة أشد قسوة من تجارة الرقيق الأسود لأنها تفرض المزيد من العمل على عبيدها .. وفي الوقت الذي لاتحميهم فيه ولا تسوسهم برقق تفاخر بأنها تفرض المزيد (أى من العمل) ..
« نعم إنه (أى العامل) بعد انتهاء عمل اليوم يصبح حرا ، إلا أنه يظل يروح تحت عبء العناية بعائلته وبيته ، مما يجعل حريته سخرية جوفاء باطلة ، في حين يبقى رب العمل حرا بالفعل ، ويستطيع أن يتمتع بالأرباح التي جناها من عمل الآخرين دون اهتمام بمصلحتهم ورفاهيتهم » .

أما ما تلا تلك الفترة حتى اليوم في العالم الرأسمالى فمعروف لايحتاج إلى بيان .. ففوارق الدخل بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال فوارق بشعة إلى حد مذهل .. ولا يأتى هذا الربح المتضخم - كما أسلفنا في فصل الديمقراطية - إلا من الوسائل الخسيسة التي تستخدمها الرأسمالية لتحقيق غاياتها الخسيسة ، وكلها محرم في دين الله :

(١) الربا ..

(٢) أكل مال الأجير وعدم توفيقه حقه ..

(٣) إفساد فطر الناس وأخلاقهم ليقبلوا على منتجات ليس فيها فائدة حقيقية لهم ، ولكنها تدر على الرأسماليين أرباحا طائلة لاتدرها المنتجات الجادة التي

١ « لاحظ اثر الجاهلية في اعتبار الخمار واحدا من مقدمى الغذاء بل في مقدمتهم !

يحتاج إليها الناس حقا في حياتهم النظيفة المستقيمة .

(٤) وأخيرا الاحتكار ..

والنتيجة الأخيرة التي تحققها الرأسمالية العلمانية من طرفيها المتمثلين في أصحاب رؤوس الأموال والعمال ، هي الفساد الخلقى الفاحش ، والقلق العصبي الذي يؤدي إلى الانتحار والجنون والخمر والمخدرات والجريمة وتفكك الأسرة وتشريد الأطفال والهبوط المستمر بالإنسان إلى عالم الآلة وعالم الحيوان ..

أما الشيوعية فربما كانت أسوأ بديل عرفته البشرية إلى اليوم ..

حقيقة إن الشيوعية هي النظام الجاهلي الوحيد - حتى اليوم - الذي فرض على الدولة كفالة كل فرد يعيش في ظلها ، ولكن ذلك - كما أسلفنا - لم يكن كرما إنسانيا منها ، فهي تأخذ مقابل ذلك جهد الفرد كله ، و« من لا يعمل لا يأكل » على الحقيقة لاعلى المجاز . ثم إن الدولة تستذل الناس بلقمة الخبز على نحو غير مسبوق في كل النظم التي مرت بها الجاهلية البشرية على الأقل في التاريخ الحديث .

وربما كان من الحق أن الناس كانوا دائما في جاهليات التاريخ مستذلين بلقمة الخبز ، يبيعون مقابلها بعض كراماتهم أو كلها ، وبعض إنسانيتهم أو كلها .. ولكن النظام البوليسى الصارم الذي يحكم الناس بالحديد والنار والتجسس ، ويمنع الناس بالرعب والإرهاب أن يفتحوا أفواههم بكلمة نقد واحدة ضد الدولة أو الزعيم المقدس أو المذهب أو النظام .. إنه ليفرض على الناس - مقابل لقمة الخبز - قدرا من الذل ومن ضياع الكرامة الإنسانية لامثيل له - في نوعه ودرجته - في كل النظم التي تزعم أنها نظم « حضارية » على مدار التاريخ !

وهذا فوق التفرقة الضخمة في كل جانب من جوانب الحياة بين أن يكون الإنسان مجرد فرد في القطيع، وبين أن يكون عضوا في الحزب ولو في أسفل درجاته فضلا على الدرجات العليا .

يقول « ميليوفان دجيلاس » نائب الرئيس « تيتو » في كتاب « الطبقة الجديدة » :

« إن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة .. وإذا

ما عدنا لدراسة الملكية فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة ، وإذا ما اتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق في إطار تلك الحرية فإن الدولة الشيوعية تتجه في النهاية إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكية وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة .

« إن الطغيان الشيوعي والإرهاب في أساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسى » .

« لقد سبق أن أعلن ستالين عام ١٩٢٦ مع صدور الدستور الجديد للاتحاد السوفيتى أن الطبقة المستثمرة قد تم القضاء عليها نهائيا .. وفى الحقيقة لقد تم في المعسكر الشيوعي القضاء التام على قوى الرأسمالية الوطنية التى استؤصلت تماما من الجذور . ولكن مع زوالها بدأت تبرز في صلب المجتمع الشيوعي طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى لها مثيلا .

« ولقد أكدت هذه الطبقة انها أكثر تسلطا في الحكم من أى طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ ، كما أثبتت في الوقت نفسه أنها تحمل أعظم الأوهام ، وأنها تكرر أعتى أساليب الظلم في مجتمع طبقى جديد .

« لقد تم تأمين المقدرات المادية إلا أنه لم يجر توزيعها على أبناء الشعب ، بل أصبحت ملكا مكتسبا للطبقة الحاكمة وللأعضاء القياديين للحزب والبيروقراطيين السياسيين »

« لقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف ، وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا وحسب ، إنما على أجمل المساكن وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات ، أما بقية الأعضاء من دونهم فقد حازوا امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية »

« وليس هناك أية طبقة أخرى في التاريخ تشابه الطبقة الجديدة في وحدة تماسكها ، ووحدة الفكر والعمل في دفاعها عن نفسها ، وفي قدرتها على إحكام القبضة على كل ما هو واقع تحت سيطرتها من الملكية الجماعية حتى السلطة الاستبدادية المطلقة » ١ «

١ . مقتطفات من الكتاب من صفحات ٥١ ، ٥٤ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ مأخوذة من كتاب « العلمانية » لسفر عبد الرحمن الحوالى ، وهو من أحسن ماكتب في موضوع العلمانية .

وأما « الأخلاق » في ظل الاقتصاد العلماني الشيوعي فلا مجال للحديث عنها بعد الذي فصلناه في فصل « الشيوعية » . ولسنا نقول : إن هناك « أخلاقا » أفضل منها في ظل الاقتصاد العلماني الرأسمالي . كلاهما بلا اخلاق ، كلا المعسكرين يهبط بالإنسان إلى مرتبة الحيوان . فإذا كان هناك فارق بين الحيوانات السائبة والحيوانات المقيدة داخل الحظيرة فهو الفرق بين التسييب والتقييد .. وليس فارقا في « نوع » الحيوان ..

(٣) في الاجتماع :

كان الإقطاع ظالما كما قلنا ، ولكن بعض الجوانب الاجتماعية فيه كانت تحكمها أعراف مستمدة من روح الدين .. ومن ذلك الحفاظ على الأسرة ، والزواج المبكر ، وقوامة الرجل وقيامه بالإنفاق ، واستقرار المرأة في بيتها ، وتفرغها للأمومة وتدبير المنزل ورعاية النشء ، ومحافظتها على عرضها قبل الزواج وبعده ، واعتبار ذلك جزءا من مقومات الأسرة وركنا أساسيا من أركانها ، والتعاون بين أفراد المجتمع .. وما إلى ذلك من العلاقات الاجتماعية القائمة على وصايا الدين .

ولكن ذلك كله لم يعجب المنسلخين من الدين فقرروا تغييره ، وإنشاء بديل منه ليقوم على أساس الدين !

كان التغيير في المبدأ هو تغيير « السند » أو « المنبع » مع محاولة المحافظة على شيء من الأخلاق ، أي البحث عن منبع آخر للقيم الاجتماعية غير الدين .. فليكن هو « الطبيعة » أو يكن هو « النفس الانسانية » ذاتها .. المهم ألا يكون المنبع هو الدين ، ولا يكون المرجع الذي تستمد منه القيم هو الوحي الرباني ! ولكن القيم لم تكن لتستمر في فاعليتها بعد أن تنقطع عن معيها الحقيقي وهو الدين والوحي الرباني ..

ثم إن الهزات العنيفة التي أحدثتها الثورة الصناعية جاءت والقيم مهتزة بالفعل ، قائمة على غير أساس حقيقى يقيها من الهزات . فإذا انهارت هذه القيم سريعا فلا عجب .. وإذا أفلح الشريريون في هدمها بوسائلهم الشريرة بعد أن استعصت عليهم خلال عدد متطاوّل من القرون فلا عجب كذلك .. فالجدار القائم على غير أساس ينتظر من يهزه ليسقط إذا لم يتداع من تلقاء نفسه ، بينما الجدار القائم على أساس متين لا يتزلزل إلا بالجهد الجهيد .

جاءت الثورة الصناعية « فحررت » المرأة .. أى استعبدتها (والرجل كذلك) لأغراضها الخاصة . وكانت « أغراضها » قدرا من الشر لا يخطر على بال إنسان ..

تحررت المرأة فتحللت من القيود كلها ، وفى مقدمتها قيود الدين وقيود الأخلاق .

وطالبت بالمساواة الكاملة مع الرجل فرفضت أن يكون قيما عليها لأن القوامة لاتصلح بين الأنداد !

واشتغلت ، فانشغلت عن مهمتها الأولى فى تربية النشء .. وتفككت الأسرة وانحل البيت وتشرد الأطفال ، وتكونت منهم عصابات جانحة ترتكب الجرائم لمجرد سد الفراغ .

وانحلت روابط المجتمع فصار كل إنسان يعيش وحده .. حتى الأسرة .. الزوج له عمله ومغامراته ، والزوجة لها عملها ومغامراتها .. والأولاد يغادرون البيت فى سن معينة ولا يعودون بعد ذلك ، ولا يربطهم بالآب والأم رباط ، إلا زيارات خاطفة فى مناسبات متباعدة فى أحسن الأحوال .. ويكبر الأبوان فى تلك العزلة الباردة فلا يجدان من يطرق عليهما الباب .. فينشدان سلواهما فى الكلاب !

وانتشر الشذوذ لأسباب كثيرة ، من بينها - كما يقولون هم بأفواههم - رفض المرأة للقوامة وضياح سيطرة الآب .. وفى جانب آخر من الأرض قامت « فلسفة » بشرية مغايرة ، وإن كانت تشترك مع سابقتها فى كثير من السمات !

تشترك معها فى إخراج المرأة من البيت وشغلها عن الأسرة والأولاد .

وتتشترك معها فى تحطيم كيان الأسرة ..

وتتشترك معها فى حل روابط المجتمع ..

ولكنها تختلف عنها فى الطريقة !

فى الأولى يتم تحطيم المجتمع عن طريق تضخيم الفرد وجعله هو الأساس . فيتحطم المجتمع نتيجة المبالغة فى إحساس الفرد بذاتيته الزائدة عن الحد . أما الثانية فتجعل المجموع هو الأساس لا الفرد ، فتسحق الفرد من أجل المجموع ، ثم تعود فتحطم المجتمع نتيجة تحويله إلى مجموعة من الأصفار كل منهم بلا مشاعر ولا كيان !

(٤) في العلم :

بدأ الصراع بين الدين والعلم حين هاجمت الكنيسة العلماء الذين قالوا بكروية الأرض وهددتهم بالحرق أحياء في الأفران .. وكانت الكنيسة هي المعتدية بلا شك ، وكانت حماقة شنيعة منها أن تقف هذا الموقف من أمور علمية بحثية ، يخطئ العلماء فيها أو يصيبون ولكنها تظل في دائرة العلم لا يتدخل فيها « رجال الدين » لأن الدين الصحيح لم يحرم البحث العلمي ، وإنما لفت نظر البشر إلى آيات الله في الكون، وقال لهم تفكروا فيها وتدبروا لتعرفوا قدرة الخالق العظيم ، دون أن يقيدهم بنظرية معينة في تفسير ظواهر الكون ، بل ترك ذلك للعقل البشري يحاول فيه بقدر ما يطيق ..

ولكن الاحتجاج بحماقة الكنيسة لفصل الدين عن العلم أو بذر بذور العداء بين الدين والعلم كان في ذاته حماقة أشد !

فلتكن الكنيسة حمقاء بقدر ماتكون .. ولكن الفطرة السوية لاتفصل بين الدين والعلم ، لأن كلا منهما نزعة فطرية سوية لازمة للكيان البشري ، ولازمة لمهمة الخلافة التي وجد الإنسان من أجلها في الأرض .

الإنسان عابد بطبعه ، راغب في المعرفة بطبعه ..

ولاتعارض في الفطرة السوية بين نزعة العبادة ونزعة المعرفة ، ولا بين الإيمان بالغيب والإيمان بما تدركه الحواس .

ولقد خلق الله الإنسان ليعبده :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » « ١ »

وجعل من بين العبادة عمارة الأرض :

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » « ٢ »

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » « ٣ »

وجعل من الأدوات المعينة على عمارة الأرض العلم النظري في صورة « معلومات » عن الكون ، والعلم التطبيقي في صورة تسخير طاقات السماوات والأرض للإنسان .

« علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » « ٤ »

« وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة »

١٠ . سورة الذاريات [٥٦]

٣٠ . سورة الملك [١٥]

٢٠ . سورة هود [٦١]

٤٠ . سورة العلق [٤ - ٥]

لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا « ١٠ »

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه » « ٢ »

ومن هنا يكون العلم ذاته جزءا من العبادة المطلوبة من الإنسان ، يستوى فى ذلك العلم بأمور الدنيا والعلم بأمور الدين ، فإن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى تحتاج إلى هذا العلم وذاك .. العلم الدنيوى من أجل العمارة المادية . والعلم الدينى لجعل هذه العمارة المادية مستقيمة على المنهج الربانى ، وتلك هى الخلافة الراشدة المطلوبة من الإنسان .

من أجل ذلك لا يوجد فى الدين الصحيح ولا فى الفطرة السوية تعارض ولا تنازع ولا خصومة بين الدين والعلم ! إنما تعمل نزعة العبادة ونزعة المعرفة فى تناسق كامل فى النفس السوية دون قلق ولا حرج ولا تصادم ولا تنازع .. وكذلك قامت الحركة العلمية الهائلة التى قامت فى العالم الإسلامى فى ظل العقيدة ، بل بدافع من العقيدة ! فمن المعلوم من التاريخ أن المسلمين لم يصبحوا أمة علم إلا بعد أن دخلوا فى الإسلام !

ولقد كان النموذج الإسلامى قائما حول أوربا من الشرق والغرب والجنوب .. بل إن أوربا لم تعرف العلم الحقيقى إلا حين أرسلت أبنائها يتعلمون فى مدارس المسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية الإسلامية ، فلئن كانت الكنيسة قد ارتكبت حماقتها بمعاداة العلم والعلماء ، فلقد كان الحل هو نبذ دين الكنيسة الفاسد لا نبذ الدين كله ، وقد رأوا نموذجا مفلحا ومثمرا منه فى العالم الإسلامى .. ولئن كانت « المكيدة » قد أصبحت هى العملة المتبادلة بين الكنيسة من جهة والعلماء من جهة ، فلقد كان المقتضى السليم لذلك هو أن يرد العلماء للكنيسة إلهها الزائف الذى تعذب العلماء باسمه وتطاردهم ، ويفروا إلى الله الحق الذى وجدوه معبودا عند أولئك العلماء الأفذاذ الذين تتلمذوا عليهم وتعلموا العلم على أيديهم ، والذى وجدوا العبادة الصحيحة له تخرج مثل هؤلاء الأفذاذ ، وتتيح لهم حرية البحث العلمى بلا قيود .

١٠ . سورة الإسراء [١٢]

٢٠ . سورة الجاثية [١٢]

ولكن رد الفعل للحماقة التي ارتكبتها الكنيسة كان حماقة جديدة ارتكبتها
« العلماء » !

لقد كانوا معذورين في أن يتشككوا في كل حرف تقوله الكنيسة وتزعم أنه من
عند الله ، وفي أن يبدأوا العلم كله من نقطة الصفر ، ويجربوا لأنفسهم
ليثبتوا .. فهذا على أى حال هو المنهج العلمى الصحيح الذى تعلموه على أيدي
اساتذتهم المسلمين . ولكنهم غير معذورين حين تصل بهم حقائق العلم إلى رؤية
القدرة المعجزة للخالق ، فيلوون رؤوسهم في كبر ، أو يهزون أكتفاهم في
استهتار « غير علمى » ! ويقولون إنه ليس الله ، ولكنه الطبيعة !
هنا الحماقة التي لا يبررها شيء .. لا الأمانة العلمية ولا الإنسانية الحقيقية
للإنسان !

ولكن أوروباً بدأت من هذه الحماقة ثم لجت فيها إلى أبعد الحدود ..
مجرد ذكر اسم الله في البحث العلمى يعتبر إفساداً للروح العلمية ، ومبرراً
ل طرح النتائج العلمية كلها ولو كانت كلها صحيحة بمقياس العلم ذاته الذى
جعلوه إلهاً من دون الله !

بل مجرد الاعتقاد بوجود الله ، وأنه هو خالق الخلق وخالق الكون كفى
بإخراج العالم من دائرة العلماء الذين يعتد بهم ويؤخذ بأرائهم ولو كانت آراؤه
صحيحة بمقياس البحث العلمى ، بل إنه يحيط ذلك العالم بالارتباك والشك في
كل مايقول ، ويجعله موضع الزرابة من العلماء « الحقيقيين » ! الذين لا بد أن
يكونوا ملحدين لتكون آراؤهم موضع التسليم !

أى زرابة بالعلم ذاته تؤدي إليه هذه الحماقة ؟
بل أى روح « غير علمية » تلك التي تسيطر على « العلماء » في تلك الجاهلية
التي تقوم باسم العلم ؟!

ما التعصب إذن ، وما فقدان « الروح العلمية » والأمانة العلمية. إذا كان
هذا علماً وأمانة وروحاً علمية ؟

وأى انتكاسة في عالم « القيم » وعالم « الإنسان » أكبر من تلك الانتكاسة
الشنيعية التي ترفض « الحقائق » بمجرد الأهواء ؟!

وكيف — كما قلنا من قبل — كيف يكون الشيء ذاته صحيحاً « وعلمياً »
إذا نسب إلى الطبيعة وغير صحيح وغير علمى إذا نسب إلى الله ؟! ويكون هذا
هو الشرط الذى لا يقبل غيره للدخول في مجال العلم والعلماء ؟!

وكيف يتأتى لهذه الجاهلية أن تفصل - في النفس الواحدة - بين نزعتين فطريتين : نزعة العبادة ونزعة العلم ، فتقول للناس : إذا أردتم الله فاتركوا العلم وإذا أردتم العلم فاتركوا الله ، وتسمى هذا « علما » و« روحا علمية » ؟ وما الفرق بين هذه الحماقة وحماقة الكنيسة التي من أجلها حاربها العلماء ؟! الم تقل الكنيسة نفس القولة ولكن من الجانب الآخر ؟! قالت . إذا أردتم الله فاتركوا هذا العلم ، وإذا أردتم هذا العلم فأنتم خارجون على الله !
وحين نستبدل حماقة بحماقة هل نكون راشدين ؟ وهل يحق لنا أن نستعمل بحماقتنا على حماقة الآخرين ؟!

على أن الحماقة البديلة لاتقف عند حد تمزيق البشرية بين نزعتيها الفطريتين ، مما يشكل سببا من الأسباب الكثيرة للاضطراب والقلق النفسى والعصبى الذى تعانيه الجاهلية المعاصرة . إنما يستخدم العلم عن قصد في إفساد العقيدة وإفساد الأخلاق ..

فبين الحين والحين تخرج « أبحاث علمية » كاذبة - ويعلم أصحابها أنهم كاذبون - تزعم أن الإنسان قد « خلق » الخلية الحية في المعمل ! وتسفر الحقيقة بعد الاستفسار والتقصي أنهم أعادوا تركيب خلية حية في المعمل من أجزاء حية أخذت من مجموعة من الخلايا الحية !!

ولكن هذا الدجل « العلمى » يراد به أن يقال للناس هاهوذا الإنسان قد خلق فلم تعد هناك ضرورة للخالق ! أى يستخدم العلم الزائف لنشر الإلحاد في الأرض ، وتتقبله المجلات « العلمية » الرصينة التى ترفض أى بحث علمى يذكر فيه اسم الله !

« وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » « ١ »

وسيظل التحدى الربانى قائما في وجه الملحدین :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » « ٢ »

وكما يستخدم العلم الزائف لنشر الإلحاد تستخدم ثمار العلم لإفساد الأخلاق . وأوضح الأمثلة على ذلك حبوب منع الحمل التى يقول الأطباء « الأمناء » - وقليل ما هم - إنها ليست مأمونة تماما ، وإنها قد تسبب

١ - سورة الرمر [٤٥]

٢ - سورة الطور [٢٥]

أضراراً خطيرة ، وإنها ينبغي ألا تستخدم إلا بإشراف الطبيب .. هذه الحبوب تباع في الصيدليات بسعر مخفض يكاد يساوى سعر التكلفة ، ويباع لأى فتاة تطلبه - وتكرره - دون تذكرة طبية .. لأنها - كما لا يخفى - أداة جبارة لنشر الفاحشة في الأرض ، لأن الفتاة التى تستطيع أن تأمن نتائج اتصالاتها الجنسية غير المشروعة أيسر انزلاقاً من التى تخشى حدوث المتاعب من هذه الاتصالات .

وذلك فضلاً عن صرف جهود كثيرة في أبحاث « علمية » بقصد اختراع المدمرات البشعة بغير موجب حقيقى ، فقد كان انتصار بعض البشر على بعض ممكناً بغير كل تلك البشاعة في أدوات التدمير .. « ١ »
وهذا الشر العميق كله قد نشأ من « غلمانية » العلم .. أى من ذلك المبدأ الملوث الشرير : مبدأ فصل الدين عن الحياة ..

(٥) في الأخلاق :

ربما لم يكن هناك مجال تأثر بالعلمانية بقدر ما تأثرت الأخلاق .. ذلك أن الدين هو المنبع الطبيعى للأخلاق ، فإذا جفف هذا المنبع أوجف بسبب من الأسباب فلا بد أن يتبعه حتما انهيار تدريجى في الأخلاق ينتهى إلى « اللأخلاق » .

ولقد كانت « النهضة » في أول عهدها تعتقد - ربما بإخلاص وحسن نية - أن في إمكانها أن تجد للأخلاق منبعاً آخر غير الدين .. من الطبيعة أو من النفس البشرية أو من أى مكان آخر .. والواقع أنهم كانوا في أول مرحلة الفساد ، فكانوا هم أنفسهم لا يتصورون أن البشرية يمكن أن تعيش بلا أخلاق ، وأنه سيأتى وقت عليها تكون عارية من الأخلاق . فكان المشكل بالنسبة لهم هو محاولة البحث عن منبع للأخلاق غير الدين ، حتى لا تتخذ تلك ثغرة يُهاجمون منها من قبل ذوى الغيرة على الأخلاق وهم يومئذ غير قليل .. ولكن المنبع البديل - أيا كان هو - قد أثبت عجزه عن إنبات القيم التى يحتاج إليها الإنسان في حياته ، ككل التصورات التى تخطر في بال الفلاسفة ولا تتعدى أذهانهم إلى واقع الحياة !

ثم جاءت أجيال أكثر علمانية من السابقة ، لأنها كانت قد بعدت أكثر عن

« ١ » حدث فيما بين صدور الطبعة الأولى والطبعة الثانية من الكتاب حادث انفجار المفاعل النووى الروسى . الذى تسربت منه الإشعاعات المدمرة . وتعرض لخطرها ملايين من البشر في أوروبا . وهم في حالة « سلم » لالحرب !

المنبع الحقيقي للقيم ، فبدأت تناقش مبدأ القيم ذاته : هل هى ضرورية حقاً للحياة البشرية ؟ وهل هى حقائق واقعية أم مجرد مثل خيالية معلقة فى الفضاء غير قابلة للتطبيق ؟ وإذن فلماذا لانكون « واقعيين » ونتعامل مع الواقع البشرى كما هو ؟ أى بغير مثل وبغير قيم ؟!

وكانت هذه بداية موجة جديدة من الانحدار على المنزلق .. فلننظر إذا سلمنا بالواقع الموجود اليوم على أنه هو الواقع الذى لايمكن أن يوجد أفضل منه ، فما الذى يمنع هذا الواقع أن ينحدر غداً إلى هوة جديدة ، ثم ما الذى يمنعنا من مجاراته فى الهبوط بحجة الواقعية ؟!

إن الذى يمنع من هذا شيء واحد ، هو وجود القيم الأصيلة التى نقيس إليها أفعالنا ومستوانا ، لنعرف على ضوءها أهائطون نحن أم مرتفعون .. فإذا وجدنا أننا هبطنا حاولنا أن نوقف هبوطنا ونصعد من جديد .. أما فى غياب الميزان فما المعيار ؟ إن الواقعية ليست معياراً يقاس إليه أى شيء ، مادامت تعتبر الواقع هو المقياس ! والناس إذا أقلت أيديهم من خيط الصعود الذى يشدهم إلى أعلى فلا بد أن تهبط بهم ثقله الشهوات وجواذب الأرض فيزداد واقعهم هبوطاً على الدوام .. ومادام معيارنا هو الواقع ، فسيظل المعيار ذاته يهبط مع هبوط الإنسان ! ونظل نحن - بحجة الواقعية - تابع الهبوط .

لقد كان القرن التاسع عشر « واقعياً » فنبت القيم التى سماها مثالية - بمعنى غير واقعية - واعتبرها ترفاً عقلياً لاتطبيقه طبيعة الحياة .. وكانت نتيجة ذلك هى القرن العشرين ! قرن التقلت من القيود كلها ، والهبوط إلى الحمأة التى يستعفف عنها الحيوان !

وذلك أمر معروف من التاريخ وإن جادلت فيه الجاهلية المعاصرة ، وهى ليست أول جاهلية تجادل فى الحق وتنكر البديهيّات ! إن أى جيل من أجيال البشرية أنكر القيم الإنسانية لم يقف حيث كان يوم أنكرها ، إنما ازداد هبوطاً .. حتى أدركه الدمار !

ولنستعرض خط العلمانية مع الأخلاق من أوله لنعلم مدى الهبوط .. ولنبدأ بالمفهوم الحقيقى للأخلاق ، الذى كانت تؤمن به أوروبا ذات يوم ثم ظلت تتخلى عنه خطوة خطوة وهى تسير مع الشيطان .

إن الأخلاق « ميثاق » شامل .. يشمل كل أعمال الإنسان . « إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولايتقضون الميثاق .

والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار » « ١ »
والميثاق هو أصلا ميثاق مع الله ، تتفرع منه وتندرج تحته جميع المواثيق :
« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » « ٢ »

وأول الأمانات هي الأمانة المؤداة إلى الله ، ثم تأتي بعدها جميع الأمانات التي أبرز سياق الآية منها الحكم بين الناس بالعدل ..
وعلى هذا الأساس يكون للسياسة أخلاق ، وللاقتصاد أخلاق ، وللإجتماع أخلاق ، وللعلم أخلاق ، ولكل شيء على الإطلاق أخلاق .. ولا يكون هناك شيء واحد في حياة الإنسان بلا أخلاق ..

ومنشأ الأخلاق ليس هو الفرض من الخارج .. في صورة أوامر ونواه وزواجر من عند الله أو من عند غيره ، إنما الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد ما هو حلال وما هو حرام ، وما هو حسن وما هو قبيح ، وما هو خير وما هو شر .. الخ فيتبعه المؤمنون التزاما بما أنزل الله ، وأما غير المؤمنين فيستمدون ذلك كله من عند غير الله . وفي الحالين لا يكون هذا هو منشأ « الأخلاق » عند هؤلاء وهؤلاء .. إنما يكون فقط هو منشأ « المعايير » التى تضبط الأخلاق .

إنما تنشأ الأخلاق - كما قلنا من قبل في أكثر من موضع في الفصول السابقة - من طبيعة الإنسان ذاته ، من أن له طريقين ، وأن له القدرة على التمييز والاختيار بين الطريقين :

« ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » « ٣ »

ومن ثم فالقيمة الخلقية لاصقة بأعمال الإنسان بحكم طبيعته .. وإنما تختلف القيم باختلاف واضعها : هل هو الله أم هم البشر . فإن كانت من عند الله فهذه هي القيم الحقيقية الصالحة ، لأنها من عند خالق الإنسان العليم به وبما يصلح له وما يصلح له :

« الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » « ٤ »

٣ سورة الشمس [٧ - ١٠]

٤ سورة الملك [١٤]

١٠ سورة الرعد [١٩ - ٢٢]

٢٠ سورة النساء [٥٨]

وإن كانت من عند البشر فهي عرضة للأهواء وعرضة للاختلاف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وتاريخ البشرية في جاهليتها هو الدليل ، يستوى في ذلك أن يكون الجاهليون من الفلاسفة أو من عامة الناس !

ولقد كان هذا كله واضحا لأوروبا المسيحية في الفترة التي سيطر فيها الدين على قلوب الناس ، بصرف النظر عما في ذلك الدين الكنسى من انحرافات .. فقد سبق أن قلنا إن وجود الانحراف والتحريف فيه لم يمنع وجود بعض الحقائق لأنهم كما يقول الله عنهم : « فنسوا حظا مما ذكروا به » وبقي مما ذكروا به بعض أشياء .. وكانت القيم الخلقية من بعض هذه الأشياء .

ثم زحفت العلمانية شيئا فشيئا على الحياة الأوروبية فأقصت الدين عن الحياة بقدر ما تمكنت هي من الحياة .. ومع إقصاء الدين أقصيت الأخلاق ، لأنها أصلا مستمدة من الدين .

وأول مجال أزيحت الأخلاق عنه هو مجال السياسة منذ قال مكيافيللي : إن الغاية تبرر الوسيلة .. ومعناها بصريح العبارة إسقاط الأخلاق من مجال السياسة ، وممارسة السياسة بلا أخلاق !

ثم أزيحت الأخلاق من المجال الاقتصادي منذ الثورة الصناعية بتحليل الربا ، وتحليل الغش والخداع والكذب وسرقة أجر الأجير وشغل الناس بتوافه الأشياء من أجل الربح ، وتحليل شن الحروب والاستعمار من أجل إيجاد أسواق لتصريف البضائع .. إلى آخر ما قامت به الرأسمالية من حيل غير شريفة للاستزادة من المال على حساب البشرية .

ثم أزيحت الأخلاق من مجال العلم ، فلم يعد هدف العلم البحث عن الحقيقة المجردة - الله - إنما صارت تصاحبه المصالح والأهواء والشهوات التي أسلفنا نماذج منها في إبعاد اسم الله عمدا من البحث العلمى مع وضع بديل مزيف هو الطبيعة ، لا لأن هذه حقيقة ولكن لأنها تخدم هدفا معينا في معركة معينة بين العلماء وبين الكنيسة ! ومن نشر أبحاث كاذبة بقصد نشر الإلحاد . ومن استخدام ثمار العلم لإفساد الأخلاق .. وغير ذلك مما كان مستحيلا أن يحدث في ظل سيطرة الدين على مشاعر الناس، ومن ثم التزامهم بأخلاقيات الدين .. ولكنه يحدث بسهولة في ظل العلمانية التي تفاخر بإقصاء الدين عن كل مجالات الحياة !

ثم أزيحت الأخلاق من مجال الفكر . فلم يعد يحس المفكر أنه ملتزم بأمانة

معينة هي في أصلها الأمانة المؤداة إلى الله .. فحفلت وسائل الإعلام جميعا من أول الكتاب إلى التلفزيون ، مرورا بالصحيفة والمسرح والسينما والإذاعة ، بكل صنوف التضليل والكذب والخداع والغش وإفساد العقيدة وإفساد الأخلاق . ثم أزيحت من مجال العلاقات الجنسية بصفة خاصة - وهي أدق مجالات الأخلاق - فقليل إن الجنس مسألة « بيولوجية » لا علاقة لها بالأخلاق ! أى مسألة ذكر وأنثى يجرى بينهما مايجرى بين الذكر والأنثى .. بلا قيود ولا أخلاق ولا ضبط ولا تصعيد .. وكانت الحمأة الدنسة التى تردت فيها البشرية ، وكان السعار الجنسي المجنون الذى لايشبع ولايرتوى ولايفيق .. وأخيرا أفرغت الأخلاق ذاتها من مضمونها حين قيل إنه ليس لها وجود ذاتى ، إنما هي انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية ، أو إنها من صنع العقل الجمعى وإنها تتغير على الدوام ولا تثبت على حال ! وسقط « الإنسان » بسقوط الأخلاق !

(٦) فى الفن :

كان الفن فى أوربا فى فترة الجاهلية الكنسية فنا دينيا بمعنى أنه موجه لخدمة الدين ، وكان يحمل كل ما فى العقيدة الكنسية من انحراف ، إذ كان كله موجها لتمجيد « الرب » الذى ألهمته الكنسية وهو المسيح عيسى ابن مريم ، أو تمجيد الأقانيم الثلاثة عامة : الأب والابن وروح القدس ، مع مريم البتول ومجموعة من القديسين .. سواء بالشعر أو النثر أو الرسم أو التصوير (بمعنى إقامة التماثيل) .

وقد لاحظت فى كتاب « جاهلية القرن العشرين » ملاحظة خاصة بالفن الأوروبى ، وقلت إنها معروضة للدراسة لمن أراد أن يدرس ، تلك هي أن الفن الأوروبى فى جميع أدواره التاريخية كان مشغولا بالمعبود .. فحين كان المعبود فى الجاهلية الإغريقية مجموعة من الآلهة المختلفة توجه الفن الإغريقى إلى تلك الآلهة سواء فى الأساطير أو المسرحيات أو التماثيل . وحين انتقلت أوربا إلى المسيحية عنى الفن بالإله كما صورته الكنيسة ، وحين كفرت أوربا بإله الكنيسة والهة الطبيعة اتجه الفن إلى المعبود الجديد وخاصة فى الفترة الرومانسية ، وحين صار المعبود هو « الإنسان » اتجه الفن كله إلى دراسة الإنسان فى جميع أوضاعه .

واليوم صارت المعبودات فوضى، وتمتلئت الفوضى كذلك في الفن الأوربي الحديث !

وهذه نقطة فنية على أى حال ليس مجالها التفصيل في هذا الكتاب إنما ينبغى أن تدرس دراسة نقدية متخصصة .

ثم إنى ألفت كتابا كاملا هو « منهج الفن الإسلامى » لأبين العلاقة بين الفن الصحيح والدين الصحيح ، وكيف تكون مجالات الفن الملتزم بالدين ، وكيف أن ارتباط الفن بالدين لا يضيق مجالاته كما يفهم البعض ، ولا يحوله إلى مواءم دينية كما يفهم البعض الآخر ، إنما يوسع مجالاته في الحقيقة ويعمقها ، ولكنه ينظفها فقط ويطهرها من الأرجاس .

وليس هنا مجال إعادة الحديث في هذه الموضوعات ..

إنما نحن هنا نتحدث فقط عن آثار العلمانية في الفن الأوربي ..

فأول آثارها - في التسلسل التاريخي - هو عبادة الطبيعة في الفترة الرومانسية .

وليس ثمة عيب - كما قلنا من قبل - في مناجاة الطبيعة والتفاعل معها والحفاوة بها ، فذلك كله أمر طبيعي في النفس السوية . ذلك أن الله خلق الكون جميلا ثم جعل في النفس البشرية حاسة تلتقط الجمال وتنفع به . والقرآن يوجه الحس توجيها صريحا لرؤية الجمال في الكون والإحساس به ، لا في الورود والأزهار والجبال والوديان فحسب ، بل في الأنعام كذلك ، التي هي مظنة الفائدة وحدها .

« والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » ١

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دائية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ٢

« أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبئتنا به حدائق

١ . سورة النحل [٥ - ٦]

٢ . سورة الأنعام [٩٩]

ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ إله مع الله ؟ بل هم قوم
يعدلون » ١ «

ولكن رؤية هذا الجمال والتفاعل معه والانفعال به تحدث في النفس السوية
توجها إلى الله بالعبادة لأنه هو خالق هذا الكون الجميل ومسخره للإنسان ،
وخالق هذه الحاسة الجمالية في تركيب الإنسان ليستمتع بهذا الجمال .

أما النكسة العلمانية في الحس الأوربي المنسلخ من الدين فقد ذهبت في
طريق آخر مخالف ، فجعلت من هذا الحس الجمالي وثنية كاملة تعبد الطبيعة
بدلا من عبادة الله . وقد وردت كلمة الوثنية بالذات ورودا مكررا في شعر
الرومانسيين كأنما هو أمر مقصود !

بل إن الرومانسية في الحقيقة هي التي يسرت للحس الأوربي الانزلاق إلى
تلك المغالطة المكشوفة التي جعلت الطبيعة إلها بدلا من الله ، حتى سرت هذه
المغالطة إلى « العلماء » أنفسهم فتعاملوا معها كأنها حقيقة واقعة .. بل صاروا
في النهاية يقبلونها - وحدها - على أنها هي العلم ، ويرفضون الحقيقة
الأصلية وهي كون الله هو الخالق ، ويعتبرونها إفسادا لروح البحث العلمي !
ثم ذوت الرومانسية بعد فترة من الوقت وحلت محلها الواقعية رد فعل لها ،
إذ كانت الرومانسية مفرقة في الخيال المغرب فجاءت الواقعية لترد الناس وترد
الفن إلى الواقع ..

ولكن أى واقع هو الذى ارتد إليه الفن وارتد إليه الناس ؟
إنه الواقع الصغير .. الهابط .. المنسلخ من الدين .. من القيم .. من
الأخلاق !

ففى الفترة التي استغرقتها الرومانسية وارتدت بعدها إلى الواقع كان الناس
قد ساروا خطوات على خط العلمانية المنسلخة من الدين فهبطوا ، فجاءت
الواقعية لترصد واقعهم حيث هم .. ثم تقول هذا هو الواقع البشرى !
فأما كون هذا هو الواقع الذى كان عليه الناس وقتئذ فهذا حق لاشك فيه ،
وأما أن هذا هو الواقع البشرى على إطلاقه فأمر يكذبه التاريخ . تكذبه فترات
الهدى في حياة البشرية ، التي ارتفع الناس فيها إلى قمم تبدو - في هذا الواقع
المنحرف - كأنها خيالات ، ولكنها كانت واقعا عاشه الناس بالفعل ، وينبغي
أن يحاولوا على الدوام أن يعودوا إلى ذلك المستوى السامق أو يعودوا إلى قريب

منه . وليس المطلوب من الفن الواقعى أن يدارى على هبوط الناس ولا أن يصورهم فى صورة غير واقعية من أجل إرضاء المثل العليا ! كلا ! فالفن المزور لا يستطيع أن يعيش .. ولكن هناك فرقا بين تصوير الواقع على أنه واقع نعم ، ولكنه منحرف عن الأصل الذى كان ينبغى أن يكون عليه ، وبين تصويره على أنه هو الواقع الإنسانى الذى لا يمكن تعديله أو لا ينبغى تعديله أو لا يعيننا تعديله ! كلاهما تصوير للواقع . ولكن أحدهما يصور الواقع المنحرف بروح الإنكار ويدعو إلى الارتفاع عنه ، والآخر يعطيه شرعية الوجود فتكون النتيجة الحتمية - دائما - مزيدا من الهبوط !

نموذج الواقعية الهادفة هو سورة يوسف فى القرآن الكريم :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . قال : معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين » ١ .

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وأتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن . وقلن حاش الله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » ٢ .

ولكن هذه ليست اللقطة الأخيرة .. إنما اللقطة الأخيرة هى الأوبة والتوبة والترفع والارتفاع :

« قال ماخطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ! أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي ! إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » ٣ .

ونموذج الواقعية الهابطة هو الأدب الذى يدعى الواقعية وهو فى الواقع يدعو

١ . سورة يوسف [٢٢ - ٢٤]

٢ . سورة يوسف [٢١ - ٢٢]

٣ . سورة يوسف [٥١ - ٥٣]

إلى الهبوط ! وهبه صادقا في ادعاء الواقعية فلماذا يصر على التقاط اللحظات الهابطة وحدها ويتجنب لحظات الارتفاع ؟! ثم لماذا لا يسمى الهبوط باسمه الحقيقي وهو الهبوط ؟!

ثم .. تبعثرت الاتجاهات الفنية في الفترة الأخيرة .. ولكنها حافظت على طابع واحد .. هو الهبوط !

من السريالية إلى الوجودية إلى اللامعقول .. إلى أدب الجنس المكشوف .. أما السريالية فقد تتبعت التحليل النفسي الذى أنشأه فرويد وقال فيه إن حقيقة النفس الإنسانية ليست فى النفس الواعية التى تتعامل مع الواقع الخارجى ، إنما هى فى العقل الباطن الذى لا ترتيب فيه ولا منطق ! فحاولت فى نماذج أقرب إلى الخبل منها إلى العقل أن تبرز « حقيقة النفس الإنسانية » ! فلم تصنع شيئا فى الحقيقة إلا بعثرة هذه النفس إلى قطع متناثرة لا دلالة لها ولا معنى ولا طعم .

وأما اللامعقول فقد كان هروبا من « المعقول » . هروبا من العقلانية التى طغت على الفكر والحياة الأوروبية ، ومحاولة للقول بأن الحياة ليست معقولة .. ليس لها هدف .. ليس لها نظام .. ليس لها منطق .. ليس لها غاية .. إنما تحدث فيها الأحداث لمجرد الحدوث ! وحين تحدث فلأنه يكون لها ثقل « الواقع » . ولكن حدوثها وعدم حدوثها سيان ! وحدثها على هذه الصورة وحدثها على صورة أخرى سيان ! لأن كل الصور تتساوى فى عدم المعقولية وفى الافتقار إلى معنى واضح وغاية واضحة .

ولقد كان هذا تعبيرا باطنيا حقيقيا عن أن الحياة فقدت معناها وفقدت غايتها حين فقدت الخيط الذى يَنْظِمُها جميعا وينظّمها ويفسر غايتها ويفسر أحداثها ، وهو الدين .. ولكن الجاهلية لا تدرك ذلك ، وتأخذ الأمر على أنه مجرد فن ! أو إن أدركت فإنها تدرك أن الحياة البشرية أصبحت فى حاجة إلى « فلسفة » جديدة تعطيها معنى وتعطيها غاية ، بشرط ألا تكون هذه « الفلسفة » مستمدة من الدين !!

وأما الوجودية فهى أخبت من ذلك كله .. ولاتنس أن سارتر - « الكاتب الإنسانى العظيم » - يهودى من أم يهودية .

تقول وجودية سارتر إن الكون والحياة لا هدف لها ولا غاية .. ولا عدل فيها ولا حق . إنما كله ضلال وعبث . وإن الوجود الإنسانى ضياع كله ، ومن

المستحيل أن يحقق الإنسان فيه وجوده !
وإلى هنا نستطيع أن نقول إن هذا أيضا تعبير باطنى صادق عن فقدان
الحياة معناها وهدفها حين تفقد العنصر الذى يوجد الترابط بين أجزائها ويعطى
أحداثها تفسيرها ومعناها وهو الدين .
ولكن وجودية سارتر لاتقف عند تسجيل الضياع والعبثية وفقدان المعنى
والغاية .. ولكنها تقدم حلا للمشكلة ! ويا له من حل !
الحل أن يعيش كل إنسان وحده ، وأن يحقق وجوده بأن يفعل مايرى هو أنه
حق وأنه واجب وأنه حسن !

فى مسرحيته « الجحيم هو الآخرون » يرسم الجحيم فى نفس إنسان - إذا
كان إنسانا ! - يتعذب من أول المسرحية إلى آخرها من جود آخرين لا يكفون
عن الوجود من حوله، ويفرضون عليه أن يكونوا موجودين معه ، فيمنعونه أن
يكون نفسه .. أن يحس بذاتيته .. أن يفعل مايمليه عليه هواه الشخصى . فيظل
ساكنا ساكنا يتعذب . يتطلع إلى اللحظة التى يذهب فيها عنه « الآخرون »
لينطلق بوجوده الذاتى ، ليحقق ذاته .. ولكنهم لا ينصرفون .. فيظل هو فى
الجحيم !

أما أدب الجنس المكشوف - إن كان يسمى « أدبا » - فهو أوضح من أن
يحتاج إلى تعليق !

وفى تاريخ البشرية كله « أداب » تعالج الجنس بقصد الاثارة ، أو تعبر عن
تجارب هابطة لإنسان شهوان .. ولكنها كانت تأخذ فى عالم الأدب مكانا منزويا ،
يتستر بها صاحبها فى الظلام ، ويسقط عن يتعاطونها رداء التوقير والاحترام ،
ويقبل عليها « المراهقون » من أى عمر كانوا ، فليست المراهقة فترة معينة من
عمر الإنسان كما هى فى اصطلاح علم النفس ، إنما هى حالة نفسية غير
مستقرة وغير متزنة يمكن أن يصاب بها الفتى فى إبان طيشه . ويمكن أن يصاب بها ابن
السبعين .. فتخف أحلامه ويذهب وقاره وتذهب عنه قدرته على الحكم المتزن على
الأشياء ..

ولكن الجديد الذى أحدثه « التطور » العلمانى هو إعطاء « الشرعية » لهذا
الهبوط الحيوانى ، وكشفه فى النور ، وإعطاؤه صفة « الفن » ، ووضع منتجيه
فى قائمة المشاهير ، بل فى قائمة العظماء من الفنانين ! وينشغل النقد الأدبى
والنقد الفنى بتتبع آثارهم وكشف جوانب العظمة الفنية فيهم .. بل يتبجح نقاد

فيبحثون لهم عن عظمات « نفسية » في وسط الماخور الكبير الذي يعيش فيه هؤلاء وهؤلاء من نقاد و« فنانين » !

لقد سقط « الإنسان » كله إلى السرايب ، وتقرر المقام هناك ، وأضاء الأنوار على قاذوراتها وعرضها على أنها « البضاعة الحاضرة » ! لم تعد سرا يستخفى منه . لم تعد قذارة تستنكر .. لم تعد شيئاً يتقزز منه الناس .

أرايت إلى دودة الأرض اللاصقة بالطين ؟! إنها تستروح أنسام المستنقع الآسن الذي تعيش فيه ، وترى أنه بالنسبة لها هو الوضع الطبيعي .. هو الأصل الذي ينبغي أن تعيش فيه !

أرايت لو أنك أردت أن ترفعها من الطين وتنظفها ؟

إنها تستنكر وترفض .. وتتفقت من بين أصابعك لتزداد لصوقاً بالطين ! وهكذا لم يعد أدب الجنس المكشوف قذارة يترفع عنها الفن . إنما صار هو الفن الذي يتفنن فيه الكتاب ، يعرضون مفاتنه - أو بالأحرى مياذله - في تفصيل دقيق مكشوف ، ويعرضونه على أنه قاعدة الحياة أو قمة الحياة !

هل هي عدوى « فرويد » في عالم الفن ؟

لاشك أن فرويد مسئول عن البداية التي ابتدأ بها هذا الفن الهابط . وقد كانت البداية هي قصة « عشيق ليدى تشاترلى Lady Chatterly's Lover » للقصاص الانجليزي د . هـ . لورنس D. H. Lawrence المتلمذ على فرويد ، والذي يعتبر هو نفسه « حالة فرويدية » . تلك القصة التي صودرت وصودرت وصودرت .. ثم أبيحت مع حذف الجزء الشديد الإفحاش منها . ثم أبيحت مع جزء منه .. ثم أبيحت كاملة كما هي .. عارية من كل حياء .. وطبع منها ملايين ! ولكن فرويد وحده لا يكفي لتفسير كل ذلك الهبوط ..

إنه الانسلاخ من الدين ، الذي يسمى « العلمانية » !

ففرويد لم يكن يتصور - وإن تمنى - أن يأتي يوم تعرض فيه العملية الجنسية على المسرح بوصفها جزءاً من مسرحية « فنية » ! ثم ينقلها التليفزيون على شاشته ليراها الأولاد البنات في البيوت !

وذلك إلى آلاف وآلاف من المسرحيات والقصص والأفلام والأغاني والصور والصحف والمجلات ، لا تعرض شيئاً إلا الجنس ، ولا تعرضه إلا في وضع الحيوان .

تلك هي العلمانية في مجالات الحياة المختلفة .. في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والأخلاق والفن .. وكل نشاط يمكن أن يصدر عن « الإنسان » إن كان قد بقى له بعد ذلك كله مكان في عالم « الإنسان » !
وتقول العلمانية - الغربية على الأقل - إنها لاتحارب الدين ! فمن شاء أن يتدين فليتدين ! وانظر حولك تجد متدينين بالفعل لاتتعرض لهم العلمانية من قريب ولا من بعيد !

أرايت لو أن إنساناً أطلق حولك كل أنواع الجراثيم الموجودة في الأرض ، في الهواء الذي تتنفسه ، في الماء الذي تشربه ، في الطعام الذي تأكله ، في الوجود الذي تلمسه . ثم قال لك إن أردت أن تظل سليماً معافى فكن كما شئت ، فنحن لانتعرض لك ! كم يكون قوله مسخرة المساهر ، وكم يكون مغالطة مكشوفة ؟
وذلك فضلاً عن أنه في عرف نفسه لايعتبر ما يطلقه من حولك جراثيم .. بل يعتبرك أنت الجرثومة التي يخشى منها على كيانه ، والتي لم يستطع أن يقضى عليها قضاء كاملاً فتركها وهو يتمنى - من الشيطان - أن تزول !
« ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء » ١

إن الدين - حتى بمعناه الغربي المشوه - لم يعد له مكان في العلمانية المعاصرة .

فإذا كان قد أخرج من عالم الاقتصاد ومن عالم الاجتماع ومن عالم العلم ومن عالم الأخلاق ومن عالم الفن .. فماذا بقى له من واقع الحياة وماذا بقى له من النفس الإنسانية ؟

بقيت له ساعة في الكنيسة من يوم الأحد من كل أسبوع عند أفراد من الناس !

نعم .. ولكن ما الدين حتى بالنسبة لهؤلاء ؟

هل له واقع في حياتهم ؟

هل يمنح قلوبهم الطمأنينة اللازمة لحياة الإنسان .. الطمأنينة التي تمنع التمزق النفسي وتمنع القلق والاضطراب ؟

هل يمنح وجودهم معنى يحميهم من الإحساس بالضيق ؟

هل يمنحهم تصورا للكون والحياة والإنسان غير التصور المادى الذى تقدمه العلمانية الجاهلية ؟

لوسألت أولئك الخارجين من سماع الموعظة يوم الأحد عن رأيهم الدينى فى التعاملات الاقتصادية الربوية التى تقوم عليها حياتهم فهل تجد عند أحد منهم تحريما لها أو استنكارا لقيامها ؟ أم يقول لك قائلهم : هذه مسألة اقتصادية .. ما علاقة الدين بالاقتصاد ؟!

ولو سألت أحدا منهم : ما رأيك فى كذب الساسة بعضهم على بعض فى السياسة الدولية ، وعلى شعوبهم فى السياسة الداخلية ؟ وما رأيك فى الالتزام الحزبى الذى يلزم صاحبه بالمعارضة أو التأييد حسب وضع حزبه من السلطة ؟ وما رأيك فيما تكتبه الصحافة السياسية بقصد التشويش على الحقائق لابقصد إظهار الحق ؟ ألا يقول لك على الفور إن هذه مسائل سياسية .. ولادخل للدين بالسياسة ؟!

ولو سألت الفتاة وصديقها الخارجين من « الصلاة » ماقولكما فى العلاقة القائمة بينكما ؟ أليس الدين يحرمها ؟ ألا يقولان لك إن الدين مسألة اعتقادية ولا علاقة له بالعلاقات الاجتماعية ؟! إن لم يقول لك - كما يقول الكثيرون والكثيرات - إن الجنس مسألة بيولوجية بحته لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق ؟!

كلا ! مايزيد « الدين » فى ظل العلمانية على أن يكون مجرد وجدانات حائرة لاتلبث أن تتبدد وتضيع فى الدوامة العاتية المعادية لكل ما يأتى من عند الله !

العلمانية والاسلام

إذا صحت دعوى العلمانيين فى الغرب بالنسبة للدين الكنسى أنهم يتعايشون معه ويتعايش معهم دون تدخل من أحدهما فى شؤون الآخر - وهى كما رأينا ليست صحيحة فى الحقيقة - فإنها بالنسبة للإسلام لاتصح على الإطلاق ! لقد كان الدين الكنسى منذ اللحظة الأولى دينا يهتم بالآخرة ويدير ظهره للحياة الدنيا ، نتيجة مادخل فيه من تحريف فصل الشريعة فيه عن العقيدة ، وجعله عقيدة صرفا إلا فيما يتعلق بالأحوال الشخصية .. ومع ذلك فقد كان العمل من أجل الآخرة يلقى أثره على الحياة الدنيا ، قصد الناس أم لم

يقصدوا ، ووعوا ذلك في إدراكهم أم لم يعوه ، فكان ذلك الدين - رغم التحريف الضخم في كل جوانبه - يعطى أثارا واقعية في حياة الناس وسلوكهم ، وتصوراتهم ومشاعرهم ، وهى التى جاءت العلمانية لتزحزحها من مكانها رويدا رويدا حتى أجلتها إجلاء كاملا ، فلم يعد للدين عند الأكثرية العظمى من الناس في الجاهلية المعاصرة مكان على الإطلاق ، وبقي عند الأقلية « المتدينة » مجرد مشاعر ووجدانات ، وعلى الأكثر بعض « العبادات » ولكن هذه وتلك لاتحكم شيئا في واقع الحياة . وبهذا وحده - أى بمسخ الدين على هذه الصورة المزرية - أصبحت العلمانية تتعايش - على مضض ! - مع الدين ! وقد كان هذا مسخا بالنسبة للدين الكنسى ذاته ، الذى شوهته الكنيسة حتى قطعت صلته بالأصل السماوى .. فكيف يكون الأمر بالنسبة لدين الله الحق ؟!

إن الدين الحق لايمكن ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة .. فالالتزام بالشريعة - في دين الله الحق - هو مقتضى العقيدة ذاتها . مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. بحيث لاتكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى ، وهو الالتزام بما جاء من عند الله ، والتحاكم إلى شريعة الله ، ورفض التحاكم إلى أى شريعة سوى شريعة الله .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » « ١ »
يقول ابن تيمية في كتاب الايمان (ص ٢٣ من طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة) :

« والمقصود هنا أن كل مانقاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الايمان والاسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج وغير ذلك فإنما يكون لترك واجب في ذلك المسمى .. ومن هذا قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فلما نفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل ذلك على أن هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد » .

لقد نزل هذا الدين ليعطى التصور الصحيح لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وليقيم في عالم البشر واقعا محكوما بهذا التصور ، منبثقا عنه ، مرتبطا به ، متناسقا معه في كلياته وجزئياته ، لا يتصادم معه ولا ينحرف عنه . فالله الخالق البارئ المصور ، الرازق المحيي المميت ، المدير اللطيف الخبير ، عالم الغيب والشهادة .. بكل أسمائه وصفاته الواردة في كتابه المنزل ، هو المتفرد بالألوهية والربوبية ، وهو المستحق للعبادة وحده بغير شريك .. وكل ما في الكون وكل من في الكون غيره سبحانه هم خلقه وعباده .. واجبه عبادته وحده بغير شريك .

والإنسان واحد من خلقه .. متميز .. نعم .. مكرم نعم .. ذو وعى وإدراك وإرادة وفاعلية .. نعم . ولكنه مخلوق من مخلوقات الله ، واجبه ككل خلقه الآخرين محصور في عبادة الخالق وحده بغير شريك . ولقد كرمه الله بالوعى والإدراك والإرادة والفاعلية، وأعطاه قدرا من الحرية في تصرفاته الإرادية يملك به أن يسير في طريق الطاعة وأن يسير في طريق العصيان .. ولكنه لا يرضى من عباده إلا أن يعبدوه :

« إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لکم » « ١ »

والذى يقرر العبادة المفروضة على كل كائن من الكائنات هو خالق الكائنات جميعا ، الذى خلقها وحده بغير شريك ، ومن تفرد بالخلق ينشأ انفراده بالحاكمية :

« أله الخلق والأمر » « ٢ »

وبحق الحاكمية الناشئة من التفرد بالخلق أمر الإنسان أن يعبد وحده ويخلص العبادة له :

« إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه » « ٣ »

« أله الدين الخالص » « ٤ »

« قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » « ٥ »

١ . سورة الزمر [٧]

٢ . سورة الأعراف [٥٤] ٣ . سورة الزمر [٢]

٤ . سورة يوسف [٤٠] ٥ . سورة الزمر [١٦]

وإخلاص العبادة يقتضى الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، ويقتضى توجيه الشعائر التعبدية له وحده ، ويقتضى كذلك التصديق بكل ما جاء من عنده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، والاحتكام إلى شريعته وحدها دون الشرائع الجاهلية التى يصنعها البشر من عند أنفسهم دون سلطان من الله والإخلال بأى واحدة من هذه الثلاثة يوقع الإنسان فى الشرك ويخرجه من دائرة الايمان :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا أبائنا ولا حرمتنا من دونه من شىء » « ١ »
كما قالوا : « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب » « ٢ »

فهذه هى الثلاثة التى أوقعتهم - أساسا - فى الشرك : توجيه الشعائر التعبدية لغير الله ، والتحليل والتحریم من دون الله ، والاعتقاد بوجود آلهة مع الله ..

وكلها مجتمعة شرك ، وكل واحدة بمفردها شرك لا يستقيم معه إيمان ..

والمعاصى تقع من البشر جميعا : كل بنى آدم خطاء « ٣ »

ولكنها لا تخرجهم من الإيمان باتفاق علماء الأمة ..

إلا أن يجعلوها شرعا فعندئذ يكفرون بها . بل هم يكفرون بالتشريع ولولم يرتكبوا المعصية بأنفسهم .. فالذى يقول - بلسانه أو بفعله - إن الله أمر بقطع يد السارق ولكنى أرى أن العقوبة المناسبة للسارق هى السجن - وهو ماتفعله العلمانية الجاهلية - فقد كفر بذلك وإن لم يسرق بنفسه ولم يفكر فى السرقة .

والذى يقول - بلسانه أو بفعله - إن الله أمر بجرم الزانى المحصن وجلد الزانى غير المحصن ، ولكنى أرى أنه لا عقوبة على الزنا إذا كان برضى الطرفين البالغين الراشدين (أى لم تكن الفتاة قاصرا) ولم تقع شكوى من أحد الزوجين : فإن كان هناك اغتصاب أو اشتكى أحد الزوجين فالعقوبة هى السجن - وهو ماتفعله العلمانية الجاهلية - فقد كفر بذلك وإن لم يرتكب الفاحشة بنفسه ولم يفكر فى ارتكابها ..

١ . سورة النحل [٢٥]

٢ . سورة ص [٥]

٣ . رواه احمد

وكذلك كل شرع من شرع الله ..
من اعتقد بأفضلية غيره عليه ، أو حتى مساواته معه ، فعدل عنه إلى غيره ،
أو رضى بغيره ولم يجاهده بيده أو بلسانه أو بقلبه فقد خرج من دائرة الإيمان ،
وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم !
« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ! ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك
وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم
معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم
ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون . إنما
كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا
وأطعنا وأولئك هم المفلحون » ١ «
« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك .. » ٢ «
« إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ومن
انكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع » ٣ «
« فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن . ومن
جاهدكم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » ٤ «
فإذا كان هذا أمر الله ورسوله فأنى يقول قائل إن الإسلام يمكن أن يلتقى
مع العلمانية التى تقول : لادين فى السياسة ولا سياسة فى الدين ؟!! أو تقول إن
الاقتصاد لا علاقة له بالدين .. أو تفصل بين حكم الدين وبين أى شىء فى حياة
الإنسان ؟ » ٥ «

١ . سورة النور [٤٧ - ٥١]

٢ . سورة النساء [٦٥]

٣ . رواه مسلم

٤ . رواه مسلم

٥ . انظر تفصيلا لهذه القضية فى كتاب « معامير ينبى أن تصحح »

العقلانية

العقلانية - بمعنى التفسير العقلاني لكل شيء في الوجود ، أو تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل لإتباته أو بفيه أو تحديد خصائصه - مذهب قديم في البشرية ، يبرز أئند ما يبرز في الفلسفة الإغريقية القديمة ، ويمتله أشد ما يمتله سقراط وأرسطو

ولقد ظلت الاتجاهات الفلسفية الإغريقية - التي تمثل العقلانية قسما بارزا منها - تسيطر على الفكر الأوروبي ، حتى جاءت المسيحية الكنسية فغيرت مجرى ذلك الفكر في انعطافة حادة تكاد تكون مضادة لمجرأه الأول الذي استغرق من تاريخ الفكر الأوروبي عدة قرون . فلم يعد العقل هو المرجع في قضايا الوجود إنما صار هو الوحي - كما تقدمه الكنيسة - وانشصرت مهمة العقل في خدمة ذلك الوحي في صورته الكنسية تلك، ومحاولة تقديمه في ثوب « معقول »^١

يقول الدكتور محمد البهى في كتابه « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » : « كان الدين أو النص طوال القرون الوسطى سائدا في توجيه الإنسان في سلوكه وتنظيم جماعته ، وفي فهمه للطبيعة . وكان يقصد بالدين « المسيحية » وكان يراد من المسيحية « الكتلكة » وكانت الكتلكة تعبر عن « البابوية » والبابوية نظام كنسى ركز « السلطة العليا » باسم الله في يد البابا ، وقصر حق تفسير « الكتاب المقدس » على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى ، وسوّى في الاعتبار بين نص الكتاب المقدس وأفهام الكنيسة الكاثوليكية .. »^١ « ١ »

وقد نشأت عن ذلك في الحياة الأوروبية والفكر الأوروبي مجموعة من الاختلالات عرضنا لبعضها في الفصول السابقة ، وقد نعرض لها أولغيرها مرة أخرى في هذا الفصل ، ولكننا نبادر هنا فنقول إن هذه الاختلالات لم تنشأ - كما تصور الفكر الأوروبي في مبدأ عصر النهضة - من إهمال الفلسفة والعلوم

« ١ » ص ٢٧٩ من الطبعة الثامنة

الإغريقية والالتجاء إلى الفكر « الدينى » . فلم يكن « الفكر الدينى » من حيث المبدأ ، ولا إخضاع العقل للوحى هو مصدر الخلل فى فكر العصور الوسطى فى أوروبا ، إنما كان الخلل كامناً فى ذلك الفكر الذى قدمته الكنيسة باسم الدين ، وفى إخضاع العقل لما زعمت الكنيسة أنه الوحى ، بعد تحريفها ما حرفت منه ، وإضافتها ما أضافت إليه ، ومزج ذلك كله بعضه إلى بعض وتقديمه باسم الوحى .

والفلسفة الإغريقية التى ظنت أوروبا فى عصر النهضة أن ضلالها فى العصور الوسطى كان بسبب إهمالها ، وأن العلاج هو الرجوع إليها والاستمداد منها ، لم تكن هى فى ذاتها بريئة من الخلل ولا سليمة من العيوب ، ولا كانت فى صورتها التى قدمها فلاسفة الإغريق القدامى زادا صالحا لحياة إنسانية مستقيمة راشدة ، على الرغم من كل ما احتوته من إبداع فكرى فى بعض جوانبها .. وإنما ظل الفكر الأوروبى فى الحقيقة يتنقل من جاهلية إلى جاهلية حتى عصره الحاضر . فمن الجاهلية الإغريقية والرومانية ، إلى جاهلية الدين الكنىس المحرف فى العصور الوسطى ، إلى جاهلية عصر الإحياء ، إلى جاهلية عصر « التنوير » إلى جاهلية الفلسفة الوضعية .. إلى الجاهلية المعاصرة .

وليس هنا فى هذا الفصل أن نستعرض انحرافات الفكر الغربى فى جاهلياته المتتالية ، إنما يهمنا فقط أن نتابع خط العقلانية فى ذلك الفكر ، ثم نخص بالحديث العقلانية المعاصرة .

كانت العقلانية الإغريقية لونا من عبادة العقل وتآليهه ، وإعطائه حجما مزيفا أكبر بكثير من حقيقته ، كما كانت فى الوقت نفسه لونا من تحويل الوجود كله إلى « قضايا » تجريدية مهما يكن من صفاتها وتبلورها فهى بلا شك شىء مختلف عن الوجود ذاته ، بحركته المواره الدائمة ، بمقدار ما يختلف « القانون » الذى يفسر الحركة عن الحركة ذاتها ، وبمقدار ما تختلف البلورة عن السائل الذى نتجت عنه .. قضايا تعالج معالجة كاملة فى الذهن بصرف النظر عن وجودها الواقعى ' وبصرف النظر عن كون وجودها الواقعى يقبل ذلك التفسير العقلانى فى الواقع أو لا يقبله ، ويتمشى معه أو يخالفه ! وكان أشد ما يبدو فيه هذا الانحراف معالجة تلك الفلسفة « لقضية »

الالوهية و« قضية » الكون المادى وما بينهما من علاقة . ويتشعب هذا الانحراف شعبا كثيرة ى وقت واحد .

فأول انحراف هو محاولة إقحام العقل فيما ليس من شأنه أن يلم به فضلا عن أن يحيط بكنهه فى قضية الذات الإلهية . فمن باب احترام العقل لذاته ومعرفته لطبيعته وحدود مقدرته ، ماكان لهذا العقل أن يقتحم ميدانا ليس بطبيعته مؤهلا لاقتحامه ، ولاقدرة له على الخوض فيه .

إن المحدود لايتسنى له أن يحيط بغير المحدود . والفانى لاقدرة له على الإحاطة بحقيقة الأزل والأبد،حيث لأبدية ولانهاية ولاحدود . إنما يستطيع العقل أن « يتصور » ذلك لونا من التصور ، وأن يدرك أنه يمكن أن يوجد على هذه الصورة .. أما أن يحيط « بكنهه » على أى نحو من الأنحاء فقضية أخرى خارجة عن نطاق العقل ، وهى التى نقول إن احترام العقل لذاته ومعرفته لطبيعته وحدود مقدرته هى التى توجب عليه أن يتجنب الخوض فيها لأنه لن يصل فيها إلى شىء له اعتبار .

وليس معنى هذا أن « الدين » كله أمر خارج عن نطاق العقل ، أو أن الاعتقاد فى وجود الله ومعرفة صفاته أمر لانصيب فيه للعقل .

كلا .. إنما يدخل العقل إلى هذا الميدان من بابه الذى هو مؤهل بطبيعته أن يدخل منه ، لامن الباب الذى لايقدر على فتحه ، والذى يضل فيه لو اقتحمه بغير أدواته ! يدخل من باب إدراك آثار القدرة الإلهية والاستدلال من هذه الآثار على وجود الله،ومعرفة صفاته التى يتفرد بها دون الخلق . ولكن لايدخل من باب « الكنه » الذى لا يقدر عليه ولا يصل إلى نتيجة فيه . « ١ »

أرايت لو أنك أدخلت مفتاحا فى قفل أكبر منه ، فظل يدور فى القفل ويدور دون أن يصل إلى فتحه ، فهل تظل تقول إن هذا المفتاح صالح لكل شىء ، ولابد أن تفتح به جميع الأبواب ، ولو بقيت الدهور تدير المفتاح فى القفل فلا يفتح لك الباب ؟! أم تتواضع أمام الأمر الواقع،وتقر بأن هذا المفتاح لا يصلح لذلك الباب ، وتبحث له عن مفتاح آخر يناسبه ، وتحفظ بمفتاحك للباب الذى يُخسِنُ فتحه !

ليس العيب فى القفل ولا فى المفتاح ! إنما العيب فى أنك أنت تحاول أن تقتحم به بابا لايقدر على اقتحامه !

« ١ » سنعود إلى تفصيل هذه النقطة عدد بسط وجهة النظر الإسلامية فى قضية العقل والعقلانية .

وحين أصرت الفلسفة اليونانية - ومن تبعها بعد من فلاسفة النصارى وفلاسفة المسلمين - أن يقتحموا باب الكنه بمفتاح العقل ، فقد وصلوا جميعاً إلى ذلك التخبط الذى يملأ كتب الفلسفة كلها من أول التاريخ إلى آخر التاريخ ! لاجرم أن تجد أرسطو ، الذى يعتبره دارسو الفلسفة أعظم « عقل » فى التاريخ القديم ، يصف إلهه - بعقله - على هذه الصورة :

يقول « العقاد » فى كتاب « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » :
« ومذهب أرسطو فى الإله أنه كائن أزلى أبدى مطلق الكمال لا أول له ولا آخر ولا عمل له ولا إرادة . منذ كان العمل طلباً لشيء والله غنى عن كل طلب ، وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح والأفضل من كل كمال فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضل . وليس مما يناسب الإله فى رأى أرسطو أن يبتدىء العمل فى زمان لأنه أبدى سرمدى لا يطرأ عليه طارئ يدعو إلى العمل ، ولا يستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ولا جديد ولا قديم . وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقاءه التى لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج عن نطاقها عناية تعنيه .

« فالإله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الأولى وهى « الهىولى » .. ولكن هذه « الهىولى » قابلة للوجود يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذى يفيض عليها من قبل الإله ، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع فى حدودها ، فتتحرك بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها إنها من خلقه الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار .. » « ١ »

ويعلق العقاد - بصدق - على هذا التصور فيقول :

« كمال مطلق لا يعمل ولا يريد ..

« أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء .. » « ٢ »
والانحراف الثانى هو تحويل الموضوع كله إلى قضايا فلسفية ذهنية بحتة ، تبدأ فى العقل وتنتهى فى العقل ، ويثبت ما يثبت منها وينفى ما ينفى بالعقل ، فلاتمس الوجدان البشرى ، ولا تؤثر فى سلوك الإنسان العملى ، فتفقد قيمتها فى واقع الحياة ..

١ . ص ٢٣ - ٢٤ من طبعة دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٦٩ « ٢ » ص ٣٤ من المرجع السابق

إن موضوع الألوهية ليس موضوعا فلسفيا بالصورة التي تتناوله بها الفلسفة ، إنما هو موضوع « العقيدة » . والفرق بين الفلسفة والعقيدة أن الفلسفة تخاطب الذهن وحده . تبدأ من هناك وتنتهى هناك .. ولا تتجاوز الذهن إلى الواقع الحى الذى يعيشه الإنسان فى الأرض . أما العقيدة فتخاطب الكيان الإنسانى كله : عقله وجسمه وروحه وكل شئ فيه . إنها لا تسكن كما تسكن الفكرة فى الذهن ، ولا تتحرك حول نفسها فى الفراغ كما تتحرك الفكرة فى الذهن إن تحركت ، إنما هى دائما تدفع الإنسان إلى « سلوك » معين ينبثق منها ويتناسق معها ، وإلى « حركة » معينة وجدانية وسلوكية وفكرية فى عالم الواقع . ومن ثم لم تكن الفلسفة قط من وسائل الهداية للبشرية ! إن غاية مايمكن أن تصل إليه هو نوع من المتعة العقلية عند هواة هذا اللون من المتعة ، وهم بطبيعتهم محدودون . ولكنها - وحدها - لم تنشئ قط أمة ولم تحرك أمة . والقليلون الذين يجدون فيها المتعة العقلية ينتهى بهم الأمر إلى هذا المتاع الذاتى ولا زيادة . أو إن تحركوا فلاتزيد حركتهم على محاولة إحداث هذه المتعة عند مجموعة قليلة حولهم .. ولازيادة . إنها لاتهدف إلى إحداث « سلوك » معين فى واقع حياة الناس ، ولا تملك ذلك . ونظرة سريعة إلى واقع المجتمع الإغريقى الذى عاش فيه أولئك الفلاسفة والمفكرون الكبار تبين هذه الحقيقة بوضوح ، فما كانت هناك صلة على الإطلاق بين « أفكار » هؤلاء الفلاسفة و « واقع » الناس . هؤلاء يتكلمون فى « الحكمة » وفى السلوك الإنسانى « كماينبغى أن يكون » والمجتمع غارق فى كل أنواع الفسق والرذيلة والفساد والظلم ، لايغنى نفسه بشئ مما يملأ « أذهان » أولئك المفكرين .

أما العقيدة فلها شأن آخر ..

إنها تخاطب العقل فيما تخاطبه من كيان الإنسان ، ولكن لا من أجل المتعة العقلية كما تصنع الفلسفة ، بل من أجل إحداث الوعى اللازم بحقيقة الألوهية ، الذى يترتب عليه الوعى بالالتزام الواجب تجاه تلك الحقيقة .. أى الالتزام بمقام العبودية ، الذى يستلزم الحب والخشية والطاعة والاستقامة على أمر الله .

ثم إنها تخاطب الوجدان .. أو قل إنها تركز خطابها مع الوجدان - وإن كانت قط لاتهمل مخاطبة العقل - لأن الوجدان هو الأداة المثلى لتحويل قيم العقيدة ومبادئها إلى سلوك عملى . لأنه حى منفعل متحرك . فهو الأقدر على تلقى

الشحنة العقيدية ، وهو الأقدر على ترجمتها في صورة واقعية حية ، لأن من طبيعته أن يفعل بما يتلقى، ويشع من هذا الانفعال في داخل النفس يقيناً اعتقادياً من جهة ، وتوجهاً متحركاً يتناسق مع هذا اليقين من جهة أخرى . . . ولذلك كانت العقيدة الحية دائماً هي التي تنشئ الأمم وتحكم السلوك البشري ، وكانت دائماً هي سبيل الهداية للبشرية ..

ويحدث ولاشك فتور في العقيدة في نفوس الأمم ونفوس الأفراد . ويحدث ولاشك تفلت من المقتضيات السلوكية للعقيدة في صورة معاص وانحرافات ، ولكن يظل الأمر في أسوأ حالاته مختلفاً عن الشأن مع الفلسفة . فمع العقيدة هناك ارتباط قوى في أصله يمكن أن يطرأ عليه الضعف ، ومع الفلسفة لا يوجد ارتباط على الإطلاق .

وموضوع الألوهية هو أصلاً موضوع عقيدة .. أو هو موضوع « العقيدة » باعتبار الإنسان كائناً معتقداً بطبعه ، عابداً بفطرته ، حتى إن ضلت هذه الفطرة عن طريقها السوي لسبب من الأسباب . وليس معنى ذلك أنه محرم على الفلسفة - أو الفكر - أن يتناوله . ولكنه حين يتناوله على النحو الذي تناولته به الفلسفة الإغريقية العقلانية ، وتبعها فيه فلاسفة النصارى فيما يعرف « باللاهوت » وفلاسفة المسلمين فيما يسمى « الفلسفة الإسلامية » أى التناول الذهني التجريدي الخالص ، يكون قد انحرف به عن طريقه الأصيل ، وحوله إلى « كلام » و « أفكار » لا تنشئ سلوكاً واقعياً ، ولا تغير شيئاً في حياة الناس .. فيتحول إلى زبد لا ينفع .

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » « ١ »
وأما الانحراف الثالث الناشئ من التناول العقلاني لقضية الألوهية ، وعدم الرجوع فيها إلى المصدر اليقيني الأوحد وهو الوحي الرباني ، فهو تخبط الفلاسفة فيما بينهم وتعارض مايقوله كل واحد منهم مع مايقوله الآخر . ولا عجب في ذلك ، فمادام « العقل » هو المحكم في هذه القضية ، فعقل من ؟ إن العقل المطلق أو العقل المثالي تجريد لا وجود له في عالم الواقع ! إنما الموجود في الواقع هو عقل هذا المفكر وذاك المفكر . ولكل منهم طريقته الخاصة في « تعقل » الأمور ، ولكن منهم « نوازعه » الخاصة التي يحسبها بعيدة عن

التأثير في عقله وهو واهم في حسابه ، ولكل منهم اهتماماته الخاصة التي تجعله يركز على أمور ويغفل غيرها من الأمور ..
ومن ثم لا تصبح تلك الفلسفة في هذه القضية بالذات أداة هداية وإنما أداة تشتيت وأداة تضليل .

وما نريد أن نتطرق لتقويم موقف تلك الفلسفة العقلانية من القضايا الأخرى غير قضية الألوهية فقد يكون لها توفيقاتها في بعض جوانب الفكر البشري ، وقد تكون فائدتها الأساسية تنمية القدرة على إدراك الكليات التي تحكم الجزئيات ، وتلك مباحث لا تبتغى في مثل بحثنا الحاضر .. ولكننا نشير إشارة موجزة هنا ، نعود إلى تفصيلها فيما بعد ، إلى أن هذه العقلانية تكاد تقف نفس الموقف من قضية أخرى لا تقل خطورة في حياة الناس عن قضية الألوهية ، وهى قضية « منهج الحياة » الذى ينبغى أن يسير عليه البشر . فقد تخبطت تلك « الفلسفة » « ١ » في تلك المسألة من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، فضلا عن كونها حولتها إلى أحلام طويالية أو ذهنية لا علاقة لها بواقع الحياة ، ومن ثم لا أثر لها في واقع الحياة !

* * *

من هذه الجاهلية انتقل الفكر الأوروبى إلى عصر « سيادة الدين » .
وكان المفروض أن يخرج ذلك الفكر إذن من الجاهلية إلى النور . ولكنه في الحقيقة دخل إلى ظلمات حالكة ليس فيها حتى ذلك « البريق » الذى تميزت به الفلسفة الإغريقية في كثير من المواضع بصرف النظر عن القيمة الحقيقية لذلك البريق ، وعن كونه بريقا هاديا أم مضللا عن الطريق !
كان المفروض وقد التزم العقل بالوحي ، واستمد منه اليقين والهدى - في المسائل التى لايهتدى فيها وحده ولا يستيقن فيها بمفرده - أن ينطلق الفكر في ميادين الأصيلية يبدع وينتج ، ويمد « الإنسان » بما يحتاج إليه في شؤون « الخلافة » وعمارة الأرض .

ولكن الكنيسة الأوروبية أفسدت ذلك كله بما أدخلته من التحريف على الوحي الربانى المنزل من السماء لهداية البشرية على الأرض ، وتخبطت في

١ . في هذه القضية ن الحقيقة تحبطت كل الفلسفات كما سيأتى ذكره فيما بعد . ولكن كل فلسفة كان لها وتحبطها مدخلها الخاص

قضية الألوهية تخبطا من نوع جديد ، حين قالت إن الله ثلاثة أقانيم ، وإن المسيح ابن مريم عليه السلام واحد من هذه الأقانيم الثلاثة ، وإنه ابن الله وفي الوقت ذاته إله ، وشريك لله في تدبير شؤون الكون .
وفضلا عن ذلك - أو ربما بسبب ذلك - حُجِّرَ على العقل البشرى أن يعمل وأن يفكر .

فإن هذه الألغاز التي ابتدعتها المجامع المقدسة في شأن الألوهية لم تكن « معقولة » ولا مستساغة . فما يمكن للعقل البشرى أن يتصور ثلاثة أشياء هي ثلاثة وهي واحد في ذات الوقت . وما يمكن أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى ظل متفردا بالألوهية وتدبير شأن هذا الكون مالا يحصى من الزمان ، ثم إذا هو - فجأة - يوجد كأننا آخر ليكون شريكا له في الألوهية ومعينا له في تدبير الكون !! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومن أجل كون هذا العبث « المقدس ! » الذي ابتدعته المجامع المقدسة ! « غير معقول ولا مستساغ ، فقد سَخَّرت الكنيسة « العقل » في محاولة إخراج هذا المزيج المتنافر المتناقض في صورة « فلسفية » مستساغة (أو هم قالوا عنها إنها مستساغة !) وفي الوقت ذاته حجرت على العقل أن يناقشها ، لئلا تجر المناقشة إلى القول بأنها غير معقولة على الرغم من كل الصناعة « العقلية » التي وضعت فيها !

ومن ثم نشأت في الفكر الأوروبي تلك « المسلمات » أو العقائد المفروضة فرضا التي لايجوز مناقشتها Dogmas ولا لأنها - في حقيقتها - من الأمور التي ينبغي للعقل أن يسلم بها دون مناقشة ، ولكن لأنها مناقضة للعقل ، ومفروضة عليه فرضا من قبل رجال الدين ، الذين زعموا لأنفسهم حق صياغة العقائد وفرضها على الناس بالقوة دون أن يكون لهم حق المناقشة أو الاعتراض وإلا كانوا مهرطقين مارقين ، يجوز فيهم كل شيء حتى إهدار الدم وإزهاق الأرواح - كما مر بنا من شأن محاكم التفتيش التي قال عنها « ويلز » في كتابه « معالم تاريخ الانسانية » (ص ٩٠٢ - ٩٠٣ من الترجمة العربية) :

« فأصبح قساوستها واساقفتها على التدريج رجالا مكيفين وفق مذاهب واعتقادات حتمية Dogma وإجراءات مكررة وثابتة .. ونظرا لأن كثيرا منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة لم يسمحوا بآية مناقشة فيه . كانوا لا يهتمون أسئلة

ولا يتسامحون في مخالفة ، لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين فيها .

« وقد تجلى في الكنيسة عندما وافي القرن الثالث عشر مايساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكمله ، وقد تجعله أثرا بعد عين . فلم تكن تستشعر أى اطمئنان نفسى . وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان كما تبحث العجائز الخائفات - فيما يقال - عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل الهجوع في فراشهن » .

ومن الأدلة التاريخية التي تثبت أن النصارى - على الرغم من تشبثهم الشديد بمقررات المجامع المقدسة بشأن قضية الألوهية - لم يكونوا يؤمنون بها في دخيلة أنفسهم إلى درجة اليقين ، ما حدث من وفد نصارى نجران مع الرسول صلى الله عليه وسلم حين دعاهم - بأمر ربه - إلى المباهلة :

« قل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » « ١ »

فقد امتنعوا عن المباهلة وانصرفوا رغم جدالهم الشديد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حول بنوة عيسى لله والوهيته مع الله .. ولو كانوا على يقين حاسم ما امتنعوا !

وأيا كان الأمر فقد استخدمت الكنيسة كل طغيانها الروحى للحجر على العقل .. وصنعت ذلك باسم « الدين » !

والدين الصحيح ليس في حاجة إلى شيء من ذلك الذى صنعت الكنيسة .. حقيقة إن في الدين الصحيح « مسلمات » لاتناقش ، تعتبر من أصول الايمان كما جاء في حديث جبريل عليه السلام :

« قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » « ٢ »

وبعض هذه الأمور ليس للعقل سبيل إليها من ذات نفسه ، إنما يتعرف عليها عن طريق الوحى ، ويسلم بها تسليما ، كالايمان بالملائكة واليوم الآخر وما يشتمل عليه من بعث ونشور وحساب وجزاء وجنة ونار .. وكان هذا كله واردا في « مسلمات » الدين الكنىسى ، ولا اعتراض عليه .

« ١ » سورة آل عمران [٦١] .

« ٢ » رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ولكن هناك فارقا أساسيا بين « مسلمات » الدين الصحيح والمسلمات الكنسية الأخرى التى كانت تجبر الناس عليها إجباراً وتمنعهم من مناقشتها فى أمر صحتها ، وتتهمهم بالمروق عن الدين إن خالفوها أو هموا مجرد هم بمناقشتها !

فالمدخل إلى هذه المسلمات فى الدين الصحيح هو الإيمان بالله والتعرف على صفاته التى لا يشاركه فيها أحد ، وفى مقدمتها أنه هو الخالق وأنه على كل شيء قدير ، والإيمان بالرسول المرسل صلى الله عليه وسلم وصدقه وأمانته « ١ » ، والإيمان بأن ما يخبر به عن ربه وحى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكل هذه يدعى العقل دعوة صريحة إلى التفكير فيها ، والتأكد منها قبل الإيمان بها ، وخذ مثالا على ذلك ما جاء فى كتاب الله من خطاب للقوم المدعويين للإسلام :

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟! » « ٢ »

« قل أرايتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات . إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » « ٣ »

« هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه . بل الظالمون فى ضلال مبين » « ٤ »

« قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة » « ٥ »

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .. » « ٦ »

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . إذا ذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » « ٧ »

« أفلا يتدبرون القرآن . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » « ٨ »

« ١ » . وهو بالنسبة للنصارى المسيح عيسى ابن مريم .

« ٢ » . سورة النحل [١٧]

« ٣ » . سورة الاحقاف [٤]

« ٤ » . سورة لقمان [١١]

« ٥ » . سورة سبا [٤٦]

« ٦ » . سورة الأنبياء [٢٢]

« ٧ » . سورة المؤمنون [٩١]

« ٨ » . سورة النساء [٨٢]

فإذا آمن الانسان - وهو مدعو للتفكر والتدبر وإعمال العقل ليؤمن - بأن الله هو الخالق وهو على كل شيء قدير ، وآمن بصدق الرسول المرسل صلى الله عليه وسلم ، وآمن بأن ما يخبر به الرسول عن ربه وحى لا شبهة فيه ، فقد أخبره الوحي بأمور لا سبيل للعقل أن يصل إليها من تلقاء نفسه لأنها ليست مما يقع في محيط رؤيته ولا تجربته ، وطلب منه التسليم بها لأنها آتية من المصدر الحق الذى آمن بصدقه وصدق كل ما يجيء من عنده . وهى فى الوقت نفسه ممالا يملك العقل دليلا حقيقيا ينفيها .. فوجب عليه أن يسلم بها وقد آمن بمقدماتها التى توصله إلى التسليم بها .

هذا شأن المسلمات فى الدين الصحيح : أمور لا يملك العقل أن يستدل عليها من تلقاء نفسه ، ولا يملك فى الوقت ذاته دليلا حقيقيا ينفيها ، ثم إنه لا يدعى إلى التسليم بها قبل أن يسلم بالمقدمات التى توصل إليها عن طريق التفكير والتدبر والتأمل فى ملكوت السماوات والأرض .

أما المسلمات التى فرضتها الكنيسة فرضا وأرهبت الناس من مناقشتها فهى غير ذلك تماما .

فحيث يتجه العقل والتدبر والتأمل إلى الايمان بأن الله واحد أحد ، وأنه لو كان فى السماوات والأرض آلهة إلا الله لفسدنا .. تقول له الكنيسة إن الله ثلاثة ، ثم تزيد الأمر تعقيدا فتقول له إن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة ، ثم تمنعه من المناقشة عن طريق الإرهاب ..

وحيث يتجه العقل - بوسائل تفكيره - إلى الايمان بأن الله الذى خلق كل شيء وقدره تقديراً هو فى غنى عن كل شريك لأنه « بيده ملكوت كل شيء » ولأنه يقول للشيء « كن فيكون » ومن ثم فهو الجدير بالعبادة وحده .. تقول له الكنيسة إن هناك شريكا لله هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، هو إله مع الله ، ومعبود كذلك مع الله . ثم تمنعه من المناقشة وتتهمه بالمروق إن خالف .. وحيث يتجه العقل - بمنطقه الذاتى - إلى الإيمان بأن الله ليس فى حاجة إلى اتخاذ الولد - والخلق كلهم خَلْقُهُ، خَلَقَهُمْ بمشيئته وهم عباد له - وليس من شأنه سبحانه أن يتخذ مالا حاجة له إلى اتخاذه ، وهو المهيمن الذى يدبر أمر الوجود كله بمفرده ، بلا كلفة عليه سبحانه ولا جهد ولا حاجة إلى معين .. تقول له الكنيسة إن لله ولدا ، خلقه بمشيئته كما يخلق كل شيء بمشيئته ثم تبناه - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - ليضعه بعد ذلك على الصليب ،

ويجرعه آلام الصلب ، ليكفر بذلك عن خطيئة لم يرتكبها ذلك الابن إنما ارتكبها آدم وحواء قبل ذلك بزمن لا يحصىه إلا الله ! ثم تفرض عليه ذلك فرضا وتقول له هذه هى العقيدة .. ومن لم يعتقدوها فقد حلت عليه لعنة السماء .

تلك هى المسلمات التى لا يمكن التسليم بها لأن العقل يملك كل دليل ينفىها ، ولأنها لا تستند إلى شيء إلا قرارات المجامع المقدسة التى تبتدعها من عند نفسها وتزعم مجرد زعم أنها من عند الله ، بينما الناس يرون رجال الدين فى تلك المجامع يتناقشون ويتحاورون ، ويختلفون فيما بينهم أشد الاختلاف ، ثم يصدرون القرار من تفكيرهم الذاتى - ولو كان وحيا سماويا للترزموا به عقيدة ولم يجزلهم الاختلاف فيه - ثم يرون أسوأ من هذا أن الأقلية تصدر القرار أو تفرضه فرضا على الأكثرية ثم تطرد الأكثرية بالقوة كما حدث فى مجمع خلقدونية .. ولا تطردهم من المجمع فحسب ، بل تزعم كذلك أنها تطردهم من رحمة الله !

ومن أجل أن هذه المسلمات المزعومة لا يمكن للعقل التسليم بها فقد حظرت الكنيسة على العقل أن يفكر فيها أو يناقشها ، وزعمت للناس أن التفكير فيها منافي للإيمان ، وأن الموقف الصحيح للمؤمن هو التسليم بها بغير جدال ، وتفويض الأمر فيها لا - لله ! - بل « لقداسة » البابا ومن حوله من « كبار » رجال الدين !

وفى ظل الإرهاب الفكرى الذى مارسته الكنيسة انكمش نشاط العقل الأوروبى وانحصر فى التسليم بما تمليه الكنيسة والمجامع المقدسة ، ومحاولة التوفيق بينه وبين مقتضيات التفكير السليم ، فى مغالطات « فلسفية » هى أقرب إلى التلفيق منها إلى التوفيق !

ومن ناحية أخرى انصرف الفكر الأوروبى عن النظر فى هذا العالم وفى الحياة الدنيا بتأثير آخر من تأثيرات الدين الكنى المحرف . فقد أوجت المسيحية المحرفة إلى الناس بأن هذه الدنيا لا سبيل إلى إصلاحها أو تقويم معوجها لأنها ناقصة بطبيعتها . وأن الطبيعة الإنسانية ناقصة كذلك ، ولا سبيل إلى إصلاحها إلا بصرفها عن الاهتمام بالحياة الدنيا جملة ، وصرف اهتمامها إلى اليوم الآخر كما ألحنا فى فصل « العلمانية » ، وأنه بقدر ما ينصرف الإنسان عن هذا العالم والتفكير فيه - بالرهبانية - يكون أقرب إلى الصلاح ، وأقرب إلى الفوز بملكوت الرب فى العالم الآخر .

هذا اللون من التفكير صرف الفكر الأوروبي عن النظر في شؤون العالم الأرضي والكون المادى إلا في أضيق نطاق مستطاع . ففى أمور الحياة رضى الناس عامة - والمتدينون خاصة - بعيش الكفاف^١ ، ولم يتطلعوا إلى زيادة الإنتاج أو تحسينه، لأن ذلك يخالف روح الدين . ومن ثم لم يسعوا إلى زيادة العلم تمكنهم من زيادة الإنتاج أو تحسينه .

كذلك لم يهتموا بزيادة معلوماتهم عن الكون المادى من حولهم من فلك أو رياضيات أو كيمياء أو فيزياء .. الخ ، لأن الأمر - فى حسهم - لا يستحق الاهتمام من ناحية ، ولأن المعلومات التى تقدمها المصادر « الدينية » عن هذا الكون فيها كفاية لهم من ناحية أخرى . ولم تكن تلك المعلومات تعدو أن الله خلق الأشياء على صورتها لحكمة هو يعلمها ، ولغاية هو يريد لها ، وأن كل شيء يجرى على النحو الذى أراده الله منذ الأزل بلا تغيير ، وهذا فى ذاته حق ولاشك ، ولكنه لا يعطى التفسير التفصيلى لظواهر الكون المادى المحيط بالإنسان ! ولا ما يحدث من التحول الدائم فى الكون والحياة والإنسان !

على هذا النحو الضيق المغلق المحصور كان الفكر الأوروبي فيما يسمى - هناك - بالعصور الوسطى المظلمة ، التى استمرت زهاء عشرة قرون ، خيم فيها على أوروبا ظلام الجهل والانحسار والانحصار ، فى ظل الطغيان الكنسى المتعدد الألوان المتشعب الأطراف .

فلما بدأت أوروبا تفيق فى عصر النهضة نتيجة احتكاكها بالمسلمين فى الحروب الصليبية من ناحية ، والاتصال السلمى بمراكز العلم والثقافة فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها ، كان العقل الأوروبى فى حالة تشوق عنيف لاسترداد حريته فى العمل ، أى حرية التفكير . ولكن ، كما اتسمت فترة العصور الوسطى المظلمة بالتطرف فى إلغاء دور العقل والحجر على حرية الفكر ، كذلك اتسمت فترة النهضة وما بعدها بالتطرف فى الجانب الآخر ، جانب أعمال الفكر فى كل شيء ، سواء كان داخلا فى مجال العقل أو غير داخل فيه ، وإعماله « بحرية » لاتقبل القيد ، سواء كان القيد مشروعا أو غير مشروع ! كان عصر « الإحياء » هو عصر العودة إلى الجاهلية الإغريقية بكل

^١ « ماعدا الإقطاعيين بطبيعة الحال » ومع ذلك فقد كانت الكنيسة تساندهم - بكل جشعهم وظلمهم - لأنها هى ذاتها كانت قد أصبحت من ذوات الإقطاع .

انحرافاتهما .. مع زيادة انحراف جديد .. هو النفور من الدين ، ومحاولة إبعاده عن كل مجال من مجالات الحياة .

والحقيقة أن الحياة الأوروبية في تلك الفترة تستلزم نظرة فاحصة تقف على التيارات والعوامل المختلفة التي كانت تمور في كيانها ، والتي تمخضت فيما بعد عن الصورة الحالية « الحضارة » الغربية .

لقد أخذت أوروبا في نهضتها شيئا كثيرا من الإسلام والمسلمين ، ورفضت في الوقت ذاته أن تعتمد الإسلام ديناً وعقيدة ومنهج حياة - كما بينا في الفصل السابق - وكان من جراء ذلك آثار بعيدة المدى في الحياة الأوروبية إلى وقتنا الحاضر ..

فقد صحت أوروبا من غفوتها الطويلة بالاحتكاك الحربي والسلمي بالمسلمين في الشرق والغرب .

وتزعم أوروبا أنها لم تأخذ عن المسلمين إلا التراث الإغريقي الذي كانت قد أضاعته في عصورها المظلمة ، فوجدته محفوظاً عند المسلمين فاستردته ، وأقامت نهضتها على أساسه .

وفي هذا الزعم شيء قليل من الحق وشيء كثير من المغالطة التي لم ينج منها إلا عدد قليل من كتاب أوروبا المنصفين .

فأما أن التراث الإغريقي الذي فقدته أوروبا في عصورها المظلمة كان محفوظاً عند المسلمين فيما يسمى « الفلسفة الإسلامية » ، وفي التراجم التي كان المسلمون قد ترجموها عن الإغريقية ، وأن أوروبا استردته عن طريق التعلم في مدارس المسلمين ، وأقامت جانباً من نهضتها عليه .. فهذا صحيح .

ولكن هذا التراث الإغريقي ، على كل اعتزاز أوروبا به وتعصبها له ، لم يكن صالحاً - وحده - لإقامة النهضة الأوروبية ، ولا أي نهضة على الإطلاق ، باعتبارها مجموعة من « الأفكار » التجريدية الذهنية المنقطعة عن واقع الحياة . وهو - بكل لمعانه الفكري - لم يستطع أن يداوم الحياة في بيئته الأصلية التي أنبتته ، فضلاً عن أن يكون - وحده - باعث نهضة جديدة على اتساع أوروبا كلها ، وعلى اتساع العالم كله في العصر الحديث !

نعم ، يوجد في هذه الأفكار قيم ومبادئ يمكن أن تكون زادا لقوم « يرغبون » في الحياة ، ويرغبون في إقامة نهضة شاملة . ولكنها - وحدها - لا تبعث فيهم هذه الرغبة ولا تلك .

إنما الرغبة في الحياة ، والرغبة في إقامة نهضة شاملة ، كانت هي الأثر الذي أخذته أوربا من احتكاكها بالمسلمين ، وملاستها للحياة المواترة في العالم الاسلامي ، وللنهضة الشاملة فيه .. وليس هذا فقط ..

فإن أوربا لم تغنم من احتكاكها بالمسلمين تلك الرغبة في الحياة والحركة وإقامة النهضة الشاملة فحسب ، بل وجدت كذلك « مقومات » تلك النهضة بكاملها موجودة عند المسلمين ، فأخذت منها كل ماوسعها أخذه ، والعنصر الذي رفضت أخذه - وهو الإسلام - كان هو العنصر الوحيد القمين بترشيده تلك النهضة وإقالة أوربا من عثرتها .. ولكنها رفضت - بدافع من العصبية الصليبية - فخسرت العنصر الجوهري ، وأقامت نهضة عرجاء .. هي التي يعاني منها اليوم كل سكان الأرض !

نعم ، لم تكن رغبة الحياة ورغبة النهوض وحدها هي كل ما أخذته أوربا عن المسلمين .

لقد كانت أوربا في جهالة تامة من كل علم إلا ما تملكه الكنيسة ورجال دينها من معلومات سطحية معظمها محشو بالأخطاء .

وعند المسلمين وجدوا « العلم » .. في كل مجالات العلم .. في الطب والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء ، إلى جانب العلوم الدينية الإسلامية التي كانت تدرس - جنباً إلى جنب - في الجامعات الإسلامية .

وقد مر بنا قول « روجر بيكون » : من أراد أن يتعلم ، فليتعلم العربية ، فإنها هي لغة العلم »

ونضيف هنا قوله « ألفارو القرطبي » قبل ذلك بقرون في الأندلس :

« يطرب إخواني المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها ، بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق . فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة ؟ وأين ذلك الذي يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل ؟ وأسفاه ! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ، ليسوا على علم بأي أدب ولا أية لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفه وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب . وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية إذا

ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جدية بالتفاتهم . فواحر قلوباه ! لقد نسي المسيحيون لغتهم ، ولا يكاد يوجد منهم واحد في الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة ! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة بالعربية ، فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه في تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة ، بل لقد يقرضون من الشعر مايفوق في صحة نظمه شعر العرب أنفسهم « ١ » .

ولم يكن العلم وحده هو الذى أخذته أوربا عن المسلمين بجانب الرغبة في الحياة والرغبة في النهوض ؛ إنما اخذت كذلك المنهج الذى تقيم عليه العلم ، وهو المنهج التجريبي .

يقول بريفولت في كتاب « بناء الإنسانية Making of Humanity » :
« فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في داب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي « ٢ »

كذلك لم يكن العلم وحده ولا المنهج التجريبي وحده .. يقول .. بريفولت :
« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية (يقصد الإسلامية) على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .. إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا ، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل من اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد أوربا إلى

١ « حضارة الاسلام ، جرونباوم ، ص ٨١ - ٨٢ من الترجمة العربية .

٢ « من كتاب « تجديد الفكر الدينى » تأليف محمد اقبال ، ترجمة عباس محمود ، ص ٢٥٠ من الترجمة العربية .

الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون ، في نشأة تلك الطاقة التي تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، وفي المصدر القوى لازدهاره : أى في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى « . ١ .

ويطول بنا الاستطراد لو رحنا نحصى بالتفصيل ما أخذته أوروبا في بدء نهضتها من الإسلام والمسلمين . ولكننا نعود إلى موضوعنا الأصلي فنقول إن أوروبا أخذت ما أخذت ولكنها رفضت أن تأخذ الإسلام ذاته عقيدة ومنهج حياة ، وعادت إلى الجاهلية الإغريقية والدومانية تستمد منهما بدلا من الدين الكنسى الذى لفظته ، والدين،الصحيح الذى رفضت بدافع العصبية أن تدخل فيه . ومن ثم عادت - كما قلنا - إلى العقلانية اليونانية بزيادة انحراف جديد هو النفور من الدين،والسعى إلى إخراجه من مجالات الفكر والحياة .

لقد كانت الجاهلية الإغريقية جاهلية وثنية خالصة في واقع حياتها ، ولكن « المفكرين » و« الفلاسفة » فكروا في الله سبحانه وتعالى ، وحاولوا تصويره على قدر ما اجتهدت عقولهم ، فاهتدوا إلى وحدانيته وكماله وجلاله ، ولكن تشعبت بهم الظنون في متاهات لا قرار لها حين أخذوا يصفون كنه هذا الكمال وهذا الجلال ، كما مر بنا من تصور أرسطو .

أما جاهلية عصر الإحياء وعصر النهضة فقد سخّرت « عقلها » في كيفية الاستغناء عن الله ، وإخراج موضوع الألوهية من ميادين الفكر والحياة واحدا إثر الآخر .

كان « التفكير الحر » معناه الإلحاد ! ذلك أن التفكير الدينى معناه الخضوع للقيد الذى قيدت الكنيسة به العقل وحجرت عليه أن يفكر . فمعنى الحرية الفكرية هو تحطيم ذلك القيد الذى يغل العقل من التفكير . ولم يكن أمام أوروبا بعد أن رفضت الإسلام إلا ذلك السبيل الواحد إلى الحرية الفكرية .. وهو الخروج على الدين !

يقول برنتون كما سبق أن نقلنا من كلامه في كتاب « منشأ الفكر الحديث »
(ص ١٠٢ من الترجمة العربية - ترجمة عبدالرحمن مراد) :

« فالمذهب العقلي يتجه نحو إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون .. فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون .. »

ويقول عن قانون السببية الذي كشفه نيوتن : « إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة (يقصد المعتقدات الدينية) في هذا العالم » (ص ١٥١ من المرجع السابق)

ويقول : « الاله في عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة ولكن صانع هذه الساعة الكونية ونعنى بها الكون ، لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد ، فيمكنه أن يجعلها تعمل حتى الأبد .

« أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء من آله الضخمة هذه ليجروا عليها . وإنه ليبدو أن ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الضخمة الكونية ، الذي لا يستطيع إذا ما أراد التدخل في عمله » !!

ولنا وقفة عند هذه النصوص ..

إن الاتجاه الفكرى النافر من الدين ، المتجه الى الإلحاد ، لم يكن رد فعل لخطأ واحد من أخطاء الكنيسة وهو الحجر على العقل خوفا من مناقشة « المسلمات » المفروضة ، إنما كان في الحقيقة رد فعل أو نتيجة لأخطاء متعددة في وقت واحد .. فالجهالة العلمية التي عانتها أوروبا عدة قرون في ظل السيطرة الكنسية جعلت للعلم - حين بدأت أوروبا تتعلم - فتنة ليست من طبيعته في الأحوال العادية وفي النفوس السوية ، فضلا عن أن حرب الكنيسة للعلم والعلماء في عهد النهضة - باسم الدين - جعلت طريق البحث العلمى هو طريق معاداة الدين .

إن الدين والعلم كما بينا في فصل « العلمانية » ليسا ندين متنافرين متعادين كل منهما يسعى للسيطرة على حساب الآخر ورغمما عنه ! فنزعة العبادة ونزعة المعرفة كلتاها نزعة فطرية ، والفطرة - في النفس السوية - لا يتنافر بعضها مع بعض ، إنما تتعاون جوانبها المختلفة لبناء الشخصية السوية المتوازنة . وقد تختل الشخصية لزيادة أو نقص في أحد الجوانب

بالقياس إلى حده المفروض ، وبالقيااس إلى الجوانب الأخرى في النفس ، ولكنها لا تختل قط من اجتماع جوانب الفطرة كلها في النفس ، فهذا هو الأمر الطبيعي الذي لا تستقيم النفس بدونه ، بل العكس هو الصحيح . تختل النفس خللاً مؤكداً حين يزاح جانب من جوانب الفطرة أو يضمحل محلّه جانب آخر . وفي العالم الإسلامي الذي استتقت أوربا العلم منه ، كان هذا هو الأمر الواقع : كان الدين والعلم يعيشان معاً متساندين متعاونين بلا تنازع ولا تنافر ولا خصام . بل كان العلم في حقيقة الأمر نابعاً من العقيدة منبثقاً عنها ، يعمل في خدمتها ، ومع ذلك كان له ذلك المجال الواسع كله الذي يعمل فيه ، والحرية التي يمارسها في البحث وتحصيل النتائج وتدوينها ، والثمار العملية المفيدة التي تقوم عليها نهضة علمية زاهرة .

ولم يكن للعلم في نفوس المسلمين فتنة !

لا هو فتنة عن الدين ، ولا صار في حسهم إلهاً مكان الله ! لأنهم كانوا يتناولونه كما تتناوله الفطرة السوية ، التي تأخذ حظها من العبادة كما تأخذ حظها من المعرفة العلمية ، وتطلب هذه وتلك بلا تنافر بينهما ولا صدام !

وقد كان العالم الواحد - في كثير من الأحيان - عالماً في الطب أو الفلك أو الرياضيات .. الخ ، وعالماً بالعلوم الدينية في نفس الوقت ، متبحراً في هذه وتلك ، متوازناً في ذات الوقت ، لا يصرفه الدين عن العلم ولا يصرفه العلم عن الدين .

وكان الحسن بن الهيثم - على سبيل المثال - الذي ظلت أوربا تدرس نظرياته في علم الضوء (البصريات) إلى بداية القرن التاسع عشر لتفوقها وتقدمها الباهر ، والذي أثبت ملاحظة كانت بالقياس إلى وقته من أعجب العجائب ، وهي انحناء الشعاع الضوئي عند ملامسته جسماً منحنياً وعدم سيره في خط مستقيم « ١ » - كان على كل عبقرية العلمية تلك يقدم إنتاجه العلمي باسم الله ، ويحمد الله ويثني عليه ويشكره على فيض نعمه عليه ! كلا ! لم يكن العلم عند المسلمين مثاراً للفتنة ، لأنهم صاحبه عدة قرون على

١ . وفسر بذلك أننا نرى الشمس قبل ظهورها الحقيقي بدقائق ، ونظّل نراها بعد غروبها بدقائق ، وفي القرن العشرين اكتشف انحناء الضوء في الكون الواسع لا يتخذ مساراً مستقيماً بل ينحني حول الأجرام السماوية بفعل الجاذبية .

رزانة وروية، فلم يفاجئوا به كما فوجئت أوروبا في عصر النهضة ، ولأنه تبع في حياتهم من نبع الدين فلم يثربينه وبين الدين ذلك الخصام الذي ثار بين الدين والعلم في أوروبا ، ولأن المعرفة كلها في حس المسلم نفحة ربانية يفتح بها على عباده ، فيكون جزاؤها في حسه مزيدا من التقرب إلى الله ، لا بعدا عنه وازورارا عن عبادته .

كذلك كان اكتشاف قانون السببية بالذات باعثا من بواعث الإلحاد كما مربنا من كلام « برنتون » .

والمسئول في ذلك أيضا هو الكنيسة !

لقد ظلت الكنيسة تصرف الناس عن العلم عدة قرون ، وتسوحى إليهم بالاكتماء بما عندها هي من العلم ، الذي لم يكن يتجاوز - كما قلنا - أن الله خلق الأشياء على صورتها لحكمة يعلمها ولغاية يريدها .. أى إرجاع الأمور كلها والظواهر كلها إلى إرادة الله ومشيئته . ومن شأن الدين أن يركز دائما على هذا المعنى . انظر إلى بعض ما جاء في القرآن الكريم في هذا الشأن :

« وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ١

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرا لكم في الأرض مختلفا ألوانه . إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، والقى في الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق » أقلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم » ٢

١ سورة البقرة [٦٤]

٢ سورة النحل [١٠ - ١٨]

وحكمة ذلك واضحة .. « فالدين » يذكر الإنسان دائما بالله لكي يظل قلبه معلقا بالله في جميع حالاته ، فيحبه ويخشاه ، ويتطلع إليه في كل أمر من أموره . وبهذا وحده تصلح نفس الإنسان وتستقيم .. ولأن الإنسان عرضة دائما أن ينسى فإن الدين الصحيح يلح في تذكيره حتى لاتدركه الغفلة التي ينشأ عنها كل شر في حياة البشر على الأرض .

ولكن هذا التركيز الشديد في الدين الصحيح على رد الأمور كلها إلى مشيئة الله ، لم يمنع المسلمين من البحث عن « الأسباب الظاهرة » في الكون المادى وفي الحياة البشرية ، بلا تعارض في حسهم بين هذا وذاك .

ذلك أن الدين الصحيح - وقد رد كل شيء بحق إلى مشيئة الله وقدره « ١ » - نبه البشر إلى أن هناك سننا كونية تعمل بإرادة الله من خلالها في الكون المادى ، كما أن هناك سننا أخرى تعمل تلك الإرادة من خلالها في الحياة البشرية ، ودعاهم إلى التعرف على هذه وتلك ، الأولى ليقوموا بتعمير الأرض - وهو جزء من مهمة « الخلافة » التي خلق الإنسان من أجلها - والأخرى لتكون هذه الخلافة راشدة حين يتم تعمير الأرض بمقتضى المنهج الربانى .

لقد ظل القرآن يلفت نظر الناس إلى آيات الله في الكون وانتظامها ورتابتها ودقتها وانضباطها :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضنا يسيرا » « ٢ »

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » « ٣ »

١ . يقول تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » [سورة القمر : ٤٩]

٢ . سورة الفرقان [٤٥ - ٤٦]

٣ . سورة يس [٢٢ - ٤٠]

« وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » ١ .
وقهـم المسلمون من هذه التوجيهات المتكررة أن الله يدعوهم إلى التأمل في
هذا الكون من حولهم ، ليتعرفوا على قدرة الله القادرة التي لا يعجزها شيء ،
وليتعرفوا كذلك على السنن الربانية التي أودعها في هذا الكون ، والطاقات التي
سخرها لهم فيه ليقوموا بعمارة الأرض ، ويبتغوا من فضل الله :
« وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة
لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه
تفصيلا » ٢ .

« ماترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من
فطور » ٣ .

ومن ثم انطلقوا « يدرسون » هذا الكون ويتعرفون على أسرارهِ .. فتقدم
العلم على أيديهم تقدما ضخما ، في الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات
والطب وغيرها من العلوم النظرية والتجريبية .. واكتشفوا - من بين
ما اكتشفوا - أن هناك سببا لكل شيء يحدث في الكون المادي ، من نور وظلام ،
وكسوف وخسوف ، ورياح ومطر ، وجذب وخصب وزيادة ونقص .. الخ ..
الخ .

ولكن اكتشاف « السبب الظاهر » لم يكن فتنة لهم كما كان بالنسبة لنيوتن
ومن بعده من « العلماء » !

فلم يجعلوه بديلا من السبب الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى ، ولم يستغنوا
به عن الله ، ولم يتصوروا أن له حتمية تقيد مشيئة الله الطليقة بحيث يعجز
سبحانه عن التصرف في الكون بما يشاء ، كما توهم نيوتن ومن بعده .

إنما عرفوا أن هذا « السبب الظاهر » هو « السنة الجارية » التي تجري
شئون الكون المادي من خلالها ، ومن ثم فهي ليست بديلا من الله سبحانه
وتعالى ، وهي جزء من مشيئته ، ولا تعارض بين تفسير أى أمر من أمور هذا
الكون بسببه الظاهر وتفسيره بأنه راجع إلى مشيئة الله ، مادام السبب الظاهر
أو « السنة الجارية » من مشيئة الله ، ومن ثم فلا تعارض بين ماسمونه

١ . سورة النازعات [٢٠ - ٢١]

٢ . سورة الاسراء [١٢]

٣ . سورة الملك [٣]

« الطبيعة » وما سموه « ما وراء الطبيعة » بحيث يتمتع عليك الايمان بهذه وتلك في أن واحد كما توهمت عقلانية مابعد النهضة في أوربا ، نتيجة أن ما وراء الطبيعة في ظل السيطرة الكنسية والحجر على العقل كان ينفى الأسباب الظاهرة أو لا يعول عليها في تفسير أمر من أمور الكون ، وأن اكتشاف « السبب الظاهر » جاء في جوم من العدا للدين والكنيسة ، فوضع - من ثم - مناهضا ومعاديا لما وراء الطبيعة ، بالإضافة إلى أن القوم هناك ظلوا - في ظل الإيمان بما وراء الطبيعة على الطريقة الكنسية - في جهل مطبق بكثير مما يحيط بهم في هذا الكون ، بينما جاء اكتشاف السبب الظاهر في وسط معلومات عن هذا الكون تبهر العقول !

كلا ! لم يفتن المسلمون باكتشاف السبب الظاهر كما فتنت أوربا في جاهلية مابعد القرون الوسطى ، المظلمة عندهم ، بل ظلوا يكشفون كل يوم جديدا من اسرار هذا الكون ويحققون به تسخيرا جديدا لطاقات السماوات والأرض ، المسخرة من الله أصلا للإنسان ، والتي يحتاج تحقيق تسخيرها من قبل الإنسان إلى جهد عقلي يتعرف به على السنن الربانية وجهد عضلي لتحويل المعرفة النظرية الى واقع .

« وسخر لكم مافي السماوات ومافي الأرض جميعا منه » « ١ »

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » « ٢ »

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » « ٣ »
ولم يتصور المسلمون في بلاهة تلك الجاهلية « أنه ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الضخمة الكونية » لمجرد أنهم عرفوا سرا من أسرارها ، بل أحسوا - كما بينا من قبل - أن العلم نفحة ربانية يمن الله بها على عباده ، فينبغي أن يشكروه عليها بإقامة الصلاة لا بقطعها ، وإدانة التعبد والخشية لله . كما عرفوا أنهم مهما تعلموا من أمور الكون فعلمهم قليل ، وأنهم في فقر دائم إلى الله واحتياج :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » « ٤ »

١ - سورة الجاثية [١٣]

٢ - سورة النحل [٧٨]

٣ - سورة الملك [١٥]

٤ - سورة فاطر [٢٨]

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » « ١ »

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » « ٢ »

كنك لم يتصوروا في بلاهة أن الله عاجز عن التصرف في شئون الكون بمشيئته الطليقة لمجرد أنه ثبت سنته الجارية كما تصور نيوتن : « ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الضخمة الكونية ، الذي لا يستطيع إذا ما أراد التدخل في عمله » !! ومن ثم لم ينكروا المعجزات كما انكرتها عقلانية النهضة وما بعدها . إنما عرفوا أن الله سبحانه وتعالى ثبت سنته - بمشيئته الطليقة - رحمة بالإنسان ، وإعانة له على القيام بدور الخلافة . ولكنه سبحانه وتعالى طليق المشيئة يصنع في هذا الكون ما يشاء ، لا يقيد مشيئته شيء على الإطلاق .. ولا ثبوت سنته الجارية « ٣ » . فإن شاء سبحانه وتعالى أن يغير شيئا من نظام الكون - لحكمة يريد بها - ليظهر للناس معجزة من معجزاته ، أو يغير نظام الكون كله يوم القيامة كما أخبر عباده في كتبه المنزلة ، فلن يقف ثبوت السنة الجارية أمام مشيئته جل وعلا ، إذ السنة الجارية من مشيئته ، والسنة الخارقة من مشيئته ، وهو سبحانه يستخدم هذه السنة أو تلك وبقدر ما يشاء وكيفما يشاء ، لا يقيد على مشيئته يمنعه من التصرف كيف يشاء .

و « المعجزة » كما نطلق عليها هي شيء خارق للسنة الجارية .. نعم . ولكن « الإعجاز » في السنة الجارية هو هو الإعجاز في الخارقة . مصدرهما واحد ، وجوهرهما واحد .. هو القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض .. وإلا فهل خلق الحياة من الموات - الذي هو في حسنا من السنة الجارية - أقل روعة أو أقل إعجازا من شق البحر بالعصا ، أو وقف دورة الشمس لفترة من الوقت أو غير ذلك من المعجزات ؟ وهل الذي يخلق الكون كله من العدم يعجز عن تصرف جزئي في هذا الكون تقتضيه حكمته سبحانه ؟!

وكما لم تكن معرفة المسلمين المبكرة بالأسباب الظاهرة وثبوت السنة الجارية مانعا لهم من الإيمان بالمعجزات التي جاءت في الكتب المنزلة ، كذلك لم يكن إيمانهم بالمعجزات داعيا إلى الخرافة ، ولا الاعتقاد بأن الكون فوضى لا يضبطه

١ . سورة الاسراء [٨٥]

٢ . سورة فاطر [١٥]

٣ . راجع في ذلك فصل « التوازن » في كتاب « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » .

ضابط ولا يربطه نظام . و « العلم » الذى أخرجوه هو البرهان على ذلك . فقد كان هذا العلم من الدقة والانضباط - بحسب المتاح في وقته من الأدوات - لدرجة شهد لها كل منصف في التاريخ . وكله شاهد بأن المسلمين كانوا يتعاملون مع هذا الكون على أساس أن هناك نظاما دقيقا يربطه ، نظاما من « الأسباب » و « النتائج » معجز بدقته ، رائع بانضباطه « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ » ١ .

إنما كانوا على « التوازن » الذى علمهم إياه الإسلام ..
أما « عقلانية » النهضة وما بعدها فقد خرجت على الناس بأمر « غير معقولة » على الإطلاق .. من نفى لوجود الله تارة ، ومن إثبات له تارة أخرى مع نفى قدرته على التصرف ، ومن جعل السبب الظاهر بديلا من السبب الحقيقي ، ومن جعل ثبوت الأسباب الظاهرة حتميات ٢ « تفرض نفسها على مشيئة الله !

* * *

ودار الزمن دورة أخرى فانتقلت أوربا - فيما يقال - من سيادة العقل إلى سيادة الطبيعة ، حين كشف العلم مزيدا من أسرار الكون واقتنع « المفكرون » أن الأصل الذى ينبغى الرجوع إليه هو « الطبيعة » لأنها هى التى تنقش في العقل ما يتولد فيه من أفكار . فليس مصدر المعرفة إذا هو الوحي الربانى - وقد نبذوه وراءهم ظهريا سواء منه ما كان حقيقيا بلا تحريف ، وما اخترعته الكنيسة من عندها ، وقالت إنه من وحي الله - ولا هو العقل ، الذى لا ينشئ - ولا ينبغى له أن ينشئ - شيئا من عنده ، إنما هو الطبيعة : هو عالم الحس .. هو الحقيقة الموضوعية ..

يقول الدكتور محمد البهى في تلخيصه الجيد الذى نقلناه من قبل عن الفلسفة الوضعية وتقديرها للطبيعة :

« ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة - في نظرها - هى التى تنقش الحقيقة في ذهن الإنسان ، وهى التى توحى بها وترسم معالمها الواضحة . هى التى تكون عقل الإنسان ، والإنسان - لهذا - لا يملئ عليه

١ - سورة الملك [٢]

٢ - ثاب العلم أخيرا إلى أنه لا توجد « حتميات » فيما سموه « قوانين الطبيعة » إنما هى « احتمالات » .

من خارج الطبيعة ، أى لا يمل عليه مما وراءها ، كما لا يمل عليه من ذاته الخاصة ، إذ ما يأتى من ما وراء الطبيعة خداع للحقيقة وليست (هى) حقيقة أيضا !

« وبناء على ذلك يكون « الدين » - وهو وحى (أى مابعد الطبيعة) - خداعا ! وهو وحى ذلك الموجود الذى لا يحده ولا يمثله كائن من كائنات الطبيعة . هو وحى الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية ..

« وكذلك « المثالية العقلية » وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى . إذ هى تصورات الإنسان من (عند) نفسه ، من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنشورة التى يعيش فيها وتدور حوله .

« إن عقل الإنسان فى منطق هذه الفلسفة - أى ما فيه من معرفة - وليد الطبيعة التى تتمثل فى الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية . إنه مخلوق ، ولكن خالقه الوجود الحسى » ١ «

ولقد يفهم من هذا لأول وهلة أن العقلانية التى تتبعنا أطوارها فى عصر النهضة وما بعدها قد انتهت وحل محلها طور جديد لا يمت لها بصلة .. ولكن هذا غير الواقع .

لقد تغير الإله المعبود عندهم بالفعل فلم يعد هو العقل ، وإنما صار هو الطبيعة التى قال عنها دارون « الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق » ..

ولكن الإله الجديد لم يقتل الإله الأول ، ولم يخرج من الساحة ليحل محله . إنما قيده فقط بقيوده وأخضعه لشروطه ، وإن كان قد شد على يديه فى حرارة مؤيدا ومؤازرا فى نقطة واحدة معينة هى نفى الإله الحقيقى - سبحانه وتعالى - وإخراجه نهائيا من الساحة (نستغفر الله) ، وإن اختلفت زوايا الرصد واختلف « المنطق » المستخدم . فالإله الأول - العقل - ينبذه بحجة أنه « غير معقول » !! والإله الثانى - الطبيعة - ينبذه لأنه لا يدرك بالحس ولا يخضع للتجربة فى المعمل !! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..

إن المنهج التجريبي الذى تعلمته أوروبا من المسلمين لم يؤت ثماره الظاهرة فى ميدان العلم إلا فى القرن التاسع عشر على وجه التقريب ، ولكنه تحول عندهم

١ . ٢٩٨ - ٢٩٩ من كتاب « الفكر الإسلامى الحديث » .

إلى فتنة طاغية .. لأن أوربا أخذته دون أن تأخذ القاعدة الإيمانية التي كان يقوم عليها عند المسلمين ، وهي قاعدته الأصلية . فكأنه نبات انتزع من بيئته انتزاعا وغرس في بيئة أخرى لاتناسب الأولى ، ولاتشبهها في مكوناتها ومقوماتها ، فطال وارفع ، ولكنه أثمر ثمارا شيطانية غير الثمار الطيبة التي كان يؤتيها من قبل .

كان المنهج التجريبي عند المسلمين نابعا من التوجيه الإسلامى الإيمانى ..
نابعا من مثل هذه التوجيهات :

« ولاتقف مالميس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » « ١ »

« يسألونك عن الأهلّة : قل : هي مواقيت .. » « ٢ »

« وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ » « ٣ »

« أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ؟ أفلا يبصرون ؟ » « ٤ »

« تداووا . عباد الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء ، إلا داء واحدا : الهرم » « ٥ » وغيرها .. وغيرها .. مما جاء في الكتاب والسنة .. كثير .

وكانت هذه التوجيهات - التي حولت المسلمين من أمة لا اهتمام لها بالعلم في جاهليتها إلى أمة عالمة في كل فروع العلم المتاحة لها بحسب وقتها ، وحولت العلم من الاتجاه النظرى الإغريقى إلى الاتجاه العملى التجريبي - موجهة إلى غايتين في آن واحد : التفكير في آيات الله في الكون للتعرف على قدرته المعجزة من أجل إخلاص العبادة له وحده ، والتفكير في تلك الآيات للتعرف على السنن الكونية الربانية لتحقيق معنى الخلافة وعمارة الأرض .

ومن ثم لم تفترق الغايتان في حس المسلمين كما افترقتا - وتعارضتا - في حس أوروبا !

لم يشعر المسلمون أن تفكرهم في آيات الله في الكون من أجل إخلاص العبادة له ، مانع لهم من البحث عن السنن الكونية الربانية من أجل عمارة الأرض ،

١ . سورة الاسراء [٢٦]

٢ . سورة البقرة [١٨٩]

٣ . سورة الذاريات [٢٠ - ٢١]

٤ . سورة السجدة [٢٧]

٥ . رواه احمد وغيره (انظر صحيح الجامع الصغير ٢/٣٧)

ولم يشعروا كذلك أن البحث عن هذه السنن من أجل عمارة الأرض مانع لهم من إخلاص العبادة لله . لأنه لاتعارض في الحقيقة . والله يقول لهم :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » ١ «

ويقول لهم :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه

النشور » ٢ «

فالمشى في مناكب الأرض والأكل من رزق الله - المؤدى إلى عمارة الأرض - يصبح في التوجيه الربانى التذكير بالآخرة ، وواجب إخلاص العبادة لله من أجل النشور ، يوم يحاسب الناس على ما عملوا في الحياة الدنيا . فلا العمل من أجل الحياة الدنيا مانع من إخلاص العبادة وتذكر النشور ، ولا تذكر النشور مانع من عمارة الأرض . وهكذا يتوازن « الإنسان » بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، ومطالب الدنيا ومطالب الآخرة .. بل هكذا في الواقع يصبح الإنسان إنسانا على الحقيقة لحيوانا في صورة إنسان كما هو في الجاهلية المعاصرة . إنسان يسعى بكل فاعليته في واقع الأرض لعمارتها والهيمنة عليها والإنشاء والتغيير فيها بما يحقق معنى الخلافة ، وهو في الوقت ذاته محكوم « بالقيم » المرتبطة بيوم النشور ، النابعة كلها من إخلاص العبادة لله ، ونبذ الأرباب المزعومة كلها ، المؤدية إلى عبادة الشيطان من سبله المتعددة :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن

سبيله » ٣ «

أما في الجاهلية المعاصرة فقد سارت الأمور في طريق آخر ..

ذلك أن أوروبا استنبتت المنهج التجريبي الذى أخذته من المسلمين ، في أرض سبخة يملؤها العداء لادين والفرار من الله بدلا من الفرار إليه :

« ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين . ولاتجعلوا مع الله إلها

آخر .. » ٤ «

وكانت النتيجة أن أصبح المنهج التجريبي فتنة لأوروبا ، كلما فتح عينيها

١ . سورة القصص [٧٧]

٢ . سورة الملك [١٥]

٣ . سورة الانعام [١٥٣]

٤ . سورة الذاريات [٥٠ - ٥١]

على مزيد من أسرار الكون زادوا بعدا عن الله ! أو كما يقول جوليان هكسلي في كتابه « الإنسان في العالم الحديث » : إن الإنسان كان يعبد الله من قبل في عصر العجز والجهل بسبب عجزه وجهله . أما الآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد أن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله .. ومن ثم يصبح هو الله !

ولم تكن الفتنة هي غرور الإنسان بنفسه وظنه أنه مستغن عن الله فحسب « ١ » ، بل كانت بالإضافة إلى ذلك فتنة بالعلم وبالمنهج التجريبي ، فأصبحت التجربة الحسية العملية هي « المعيار » الذي تقاس به « حقيقة » كل شيء ، ويرد إليه « صدق » كل شيء ! فما أمكن إثباته عن طريق التجربة العملية فهو الموجود على الحقيقة ، وهو الموثوق بصدقه ، وما لا يمكن إثباته عن هذا الطريق فهو إما شيء لا وجود له وإما شيء ساقط من الحساب . ودخلت في هذا القبيل قضية الألوهية بكاملها ، بكل ماحولها من وحي ورسول وكتب وبعث ونشور وحساب وجزاء .. أو باختصار : قضية الإيمان « ٢ » .

وإذا كانت عقلانية عصر النهضة وما بعدها قد أغلقت كل منافذ المعرفة إلا العقل ، ولكنها تركته يسرح حيث يشاء ، ويشطح كيف يشاء ، فإن « العقلانية التجريبية » التي سيطرت على الفكر الأوروبي منذ القرن التاسع عشر ، قد أغلقت كل منافذ العقل إلا التجربة والحس ! وتلك هي اللعنة التي نجا منها الفكر الإسلامي الأصيل « ٣ » وقت أن كان المسلمون مستقيمين على نهج الإسلام الصحيح .

لقد كان المسلمون - كما بينا - هم الذين أنشأوا المنهج التجريبي في البحث العلمي . ولكنهم أدركوا - بداهة - أنه ليس كل شيء يدخل العمل للتجربة ! إنما الذي يصلح لذلك هو « المادة » و « الجسم » . ولم يتوانوا هم في إدخال المادة والجسم معمل التجربة ، فتقدمت الفيزياء والكيمياء والطب على أيديهم تقدما يعتبر بالنسبة إلى وقتهم فتوحات . ولكنهم - فيما عدا القلة الشاذة التي تأثرت بالفكر الإغريقي - لم يفلحوا

١ - يقول رب العالمين جل وعلا . « كلا ! إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » . [سورة العلق ٦ - ٧]
٢ - مر النص من حديث جبريل عليه السلام . قال أخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .
٣ - أي الذي لم يتأثر بفكر اجنبي عن الاسلام .

كل منافذ المعرفة غير العقل « ١ » ، ثم إنهم - قط - لم يفلقوا كل منافذ العقل غير التجربة والحس .

لقد أدركوا ، وصدقوا ، وأمنوا أن الله « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » « ٢ » ومن ثم لم يجعلوا المرجع الذى يرجعون إليه فى إثبات وجود الله ووحدانيته وتفرد بصفاته التى يتصف بها هو التجربة الحسية ! إلا من جانب واحد هو رؤية آثار قدرة الله فى الكون ، والاستدلال منها على كل ما تدل عليه من وجود الله ووحدانيته وتفرد بصفاته . وهذا هو المنهج العلمى الصحيح الذى فاء إليه أخيرا نفر من العلماء فى الجاهلية المعاصرة فى القرن العشرين « ٣ » !

ثم إن المسلمين لم تكن لديهم كنيسة تدفعهم - بتصرفاتها - إلى حماقة عدم تسمية الله باسمه الصحيح ! ولا إضفاء صفات الله على إله آخر مزعوم اسمه الطبيعة ، أو اسمه المادة ، لمجرد الهروب من طغيان الكنيسة .. فإذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم وإذا ذكر الإله المزعوم إذا هم يستبشرون ! وإذا ظلوا يعرفون الله باسمه الصحيح ، ويعبدونه - من ثم - العبادة الصحيحة ، فإن السبل لم تختلط عليهم ، ولم يجعلوا قضايا الوحي والرسالة واليوم الآخر قضايا تجريبية ، إنما قضايا إيمانية يسلمون بها بعد أن تتأكد عقولهم - بكل وسائل الاستدلال - من وجود الله سبحانه وتعالى ، وقدرته التى لاتحدوها حدود ، وتتأكد من صدق الرسول المرسل إليهم صلى الله عليه وسلم ، ومن أن ما يخبر به عن ربه وحى لا شك فيه .

ولم يتعارض فى حسهم الإيمان بما تدركه الحواس مع الإيمان بما لاتدركه الحواس ، أو الإيمان بالغيب ، فهذا له قناة فى الفطرة وذاك له قناة ، كلتاهما تعد الإنسان بلون من المعرفة غير الذى تمده به الأخرى ، ومن مجموعهما معا تتكون المعرفة اللازمة للإنسان .

لم يفلقوا على أنفسهم نافذة الغيب فى سبيل تأكيد العالم المحسوس وتأكيد معرفتهم به .. كما لم يفلقوا على أنفسهم نافذة المحسوس فى سبيل تأكيد إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

١ . وحتى هؤلاء لم يصلوا إلى درجة الإغريق وإن كانوا تأثروا بهم .

٢ . سورة الأنعام [١٠٢]

٣ . انظر كتاب : الله يتجل فى عصر العلم . لمجموعة من العلماء الغربيين .

وبذلك تقدموا بالمنهج التجريبي ذلك التقدم الهائل الذى أحرزوه دون أن يحتاجوا إلى مسخ الإنسان وطمس بصيرته وتعتيم روحه على النحو الكريه الذى صنعتها الجاهلية المعاصرة ، فظلت تهبط بالإنسان دركا وراء درك حتى لتوشك أن تسلمه إلى الدمار .

ونريد أن نتعرف على الموقف الصحيح للعقل والعقلانية كما يقدمه الإسلام وكما مارسه المسلمون وقت أن كانوا مستقيمين على المنهج الصحيح . ولكننا لا نستطيع أن نختم الحديث عن عقلانية الجاهلية ، والعقلانية المعاصرة بصفة خاصة ، قبل أن نشير إلى قولة عجيبة وردت في كتاب من كتب سارتر ، الكاتب الوجودى المعروف ، ذات صلة بالموضوع ، ودلالة لا تحتاج إلى تعليق !

وسارتر يهودى وإن كان كثير من الناس لا يعلمون ذلك ! فقد ورد في الدستور اليهودى أن اليهودى من كانت أمه يهودية . وأم سارتر يهودية كما ذكر هو في هذا الكتاب المشار إليه ، والذى عنوانه « تأملات في المشكلة اليهودية - Reflec-tions sur la question juive » والذى أنصح بقراءته كل قارئ يملك قراءته بلغته الأصلية الفرنسية - أو ترجمته بالإنجليزية بعنوان : « Anti-Semite and Jew » ذلك أنه لم يترجم إلى العربية فيما أعلم .

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٦م بمناسبة الحديث عن تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية .. وقيمه من وجهة نظرنا أنه يعترف بأفاعيل اليهود في إفساد البشرية في أثناء محاولته الدفاع عنهم ! ذلك أن طريقته في الدفاع عن اليهود هى أن يذكر التهم الموجهة إليهم ، ثم يقول إنها صحيحة ! ولكنهم معذورون في إتيانها بسبب كذا وكذا !

وسواء اقتنعت بوجاهة الأسباب أم لم تقتنع - وهى في مجموعها متهافنة لا تقنع أحدا - فإنها تؤكد التهمة ولا تنفيها ! ويزيد من قيمته شهادته أنه « شاهد من أهلها » لا يتهم بالتعصب ولا التحيز ولا التقول ولا الافتئات ! يقول : إن اليهود متهمون بتهم ثلاث كبرى ، هى عبادة الذهب ، وتعرية الجسم البشرى ، ونشر العقلانية المضادة للإلهام الدينى . ويقول إن التهم كلها صحيحة ! ثم يروح يقدم لكل منها ما يقدر عليه من المعاذير .

قال عن عبادة الذهب إن اليهود مضطهدون في كل الأرض وكل التاريخ ، وإنهم لابد أن يسعوا إلى امتلاك القوة ليقاوموا هذا الاضطهاد . والوسيلة التى

لجأوا إليها هي السعى إلى امتلاك الذهب وتجميعه ليكون لهم عدة وقوة !
وقال عن تعرية الجسم البشرى إن اليهود متهمون بقبح أجسامهم وعدم
استقامتها ! فأرادوا أن يثبتوا للبشرية أن القبح كامن في الجسم البشرى ذاته
لا في أجسام اليهود وحدهم ! فعملوا على تعرية الجسم البشرى ليستيقن البشر
من هذه الحقيقة ! (أرايت إلى مدى السخف والتهافت ...)

أما نشر العقلانية المضادة للالهام الدينى (Rationalism as against in-
tuition) (كما ورد فى الترجمة الانجليزية) فقد كشف فيه الغطاء دون
مواربة ! قال : إنه طالما كان البشر يؤمنون بالدين ، فسيظل يقع على اليهود
تمييز مجحف على اعتبار أنهم يهود . أما إذا زال الدين من الأرض ، وتعامل
البشر بعقولهم ، فعقل اليهودى كعقل غير اليهودى ، ويومئذ لن يتميز اليهود
بكونهم يهودا ، ولن يقع عليهم التمييز المجحف ، وسيعيشون فى سلام مع غم
اليهود (أى بعد أن يغطوا على حقيقتهم ويندسوا فى وسط البشرية مبهمين
الجموع !!)

ومهما يكن فى هذا الكلام من المغالطات المكشوفة التى قصد بها التغطية على
الأهداف الحقيقية لليهود من وراء هذه الأفعال (وهى نشر الفساد فى صفوف
الأمميين لإفساد عقائدهم وأخلاقهم بالإضافة إلى سلب أموالهم ، لتيسير
استعبادهم للشعب الشرير) فإن ثبوت التهمة بشهادة شاهد من أهلها أمر غسى
عن التعليق ! « ١ »

ونعود الآن إلى تبين الموقف الصحيح للعقل والعقلانية كما يرسمه
الإسلام ..

يقدر الإسلام العقل باعتباره من اكبر النعم التى أنعم بها الله على الإنسان .
« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع
والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون » « ٢ »

ولكنه لا يبالغ فى تقدير قيمة العقل كما كانت تفعل العقلانية الإغريقية ومن
ورثها من بعد ، بحيث يجعله هو المحكم فى كل شئ ، وهو المرجع الأخير لكل
شئ !

١ . مما بلغت النظر فى هذا الكتاب أيضا قول سارتر إن تقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية لن يحل
المشكلة اليهودية . إنما الحل هو نشر الشيوعية العالمية . وهو أيضا قول لايحتاج إلى تعليق
٢ . سورة النحل [٧٨]

فهناك أمور لا يستطيع العقل من ذات نفسه أن يصل إليها لأنها ليست في محيط تجربته ، ولا تستطيع الأدوات التي يحصل بها المعرفة وهي أدوات الحس أن تصل إليها لأنها خارجة عن نطاق المحسوس .. وإن كان في إمكان العقل أن « يعقلها » حين تبين له : فهذه تلقن للعقل تلقينا عن طريق الوحي ، ويكون دور العقل فيها أن يعقلها لا بطريق التجربة المباشرة ولا بطريق الحس ، ولكن عن طريق التيقن من صدق الخبر وصدق المخبر . وهو مدعو - كما أسلفنا - إلى القيام بعملية التيقن هذه بكل الوسائل التي يملكها .. وهي مؤدية إلى الغاية الصحيحة حين يستقيم العقل على الطريق .

وهنا نقطة مهمة في الموضوع .

فالعقل المجرد عن الهوى ، المتمحض لتمحيص الحقائق ، المنزه عن كل شائبة تشوب التفكير أو تشوب الحكم وَهْمٌ توهمته الفلسفة الإغريقية ، كما توهمته من بعدها كل عقلانية بالغت في تقدير دور العقل وتقدير قدراته . والواقع البشري الطويل يشهد بأحد أمرين أو بهما معا في الحقيقة : إما أن هذا العقل - في صورته المجردة تلك - لم يوجد قط في واقع الأمر ، وإما أن البشرية لا تحكم عقلها في جميع أحوالها ، وكلا الأمرين صحيح ! فلا هذا العقل المطلق موجود عند أحد من البشر العاديين ولا الفلاسفة ولا المفكرين ، ولا البشرية تخضع لنداء العقل (على فرض صحته) وتصيخ إليه ! إلا من رحم ربك !

والدليل - العقلي - على الأمر الأول ، أنه لا يكاد ينطبق عقلان من عقول البشرية في تاريخها الطويل كله على تصور واحد بجميع تفصيلاته ، ولو كانت العقول - حتى عقول الفلاسفة والمفكرين - بالصورة الوهمية التي تصورها العقلانية لتلاقت وتطابقت لأن الحق لا يتعدد .

والدليل - العقلي كذلك - على الأمر الثاني هو هذا الجنوح الدائم والتخبط الذي تمارسه البشرية ، وتلك الحروب المجنونة ، وذلك الاتباع الجنوني للهوى والشهوات . ولو كانت البشرية تصيخ لنداء العقل في جميع أحوالها ماجنحت ولا تخبطت ولا أصابها الجنون !

إنما الحق - الذي تشير الدلائل كلها إليه - أن العقل - في خارج ميدانه الأصيل - أداة طبيعة لمن يسيطر عليه ! فإذا سيطرت عليه الروح المهتدية استقام منطقته واستقام تفكيره ، وأصبح خادما أميناً للهدى يسخر طاقاته كلها في خدمته . وإذا سيطرت عليه الروح الضالة ، أي سيطر عليه الهوى

والشهوات ، فهو خادم للضلال يسخر طاقته كلها في خدمته ، ويجادل أشد الجدل لتبرير موقفه :

« وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً » ١ »

« وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » ٢ »

« لهم قلوب لا يفقهون بها » ٣ »

ومعرفة هذه الحقيقة عن العقل لاتنقص من قدره كأداة للتفكير ، بل إن هناك ميادين من الفكر هي خالصة للعقل لا يشاركه فيها غيره من أدوات التلقى وأدوات تحصيل المعرفة ، كما سيجيء بيانه . وإنما معرفة هذه الحقيقة تجعلنا نتحفظ فقط في تقديرنا للقيمة النهائية للعقل ، بحيث لانجعله هو المحكم في كل شيء ، ولا المرجع الأخير لكل شيء ! إنما ننزله منزله الحق ، فما كان فيه هو المرجع الوحيد أو المرجع النهائي وكلناه إليه كله ، وما كان فيه قمينا أن يضل إذا ترك وحده جعلنا له الصحبة التي تمنع ضلاله ، وما كان عاجزا عن الوصول فيه إلى شيء لم نقحمه فيه .. وهذا هو منهج الإسلام .

يمنح الإسلام العقل مجالا واسعا للعمل ، هو أوسع مجال سليم للعقل منحه إياه نظام من النظم أو عقيدة من العقائد . وفي الوقت نفسه يمنعه من مجالات بعينها ، ويحظر عليه التفكير فيها ، أو ينكر عليه حق التفكير .. ونبدأ بالحديث عن الأخيرة لأنها - في الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة - مظنة الخجر على العقل بغير موجب !

يحظر الإسلام على العقل أمورا ثلاثة : التفكير في ذات الله ، والتفكير في القدر . والتشريع من دون الله .

« تفكروا في خلق الله ولاتفكروا في الله » ٤ »

« وإذا ذكر القدر فأمسكوا » ٥ »

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ٦ »

وأما الأولى والثانية فالحظر فيها ليس حجرا على « حرية الفكر » إنما هو

١ . سورة الكهف [٥٤]

٢ . سورة غافر [٥]

٣ . سورة الأعراف [١٧٩]

٤ . رواه أبو نعيم (انظر صحيح الجامع الصغير ٣ / ٤٩)

٥ . رواه الطبراني

٦ . سورة المائدة [٤٤]

صيانة لطاقة العقل أن تتبدد فيما لاطائل وراءه . وإلا فلننظر في « الإنتاج
البشرى » كله فيما يتعلق بذات الله ، في الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي
وما يسمى بالفلسفة الإسلامية وعلم الكلام .. إلى أى شيء وصل ؟ وإلى أى شيء
كان قمينا أن يصل ؟
لأشياء !

لأنه اقتحام بلا أداة .. أو بغير الأداة الصالحة للوصول ..
كالمفتاح الذى يدور في القفل ويدور .. والقفل لا يفتح .. لأن المفتاح أضال من
أن يفتح القفل !

كما قلنا من قبل : ليس العيب في القفل ولا في المفتاح ، ولكنه في إصرارنا نحن
أن نفتح القفل بغير مفتاحه !
الروح هى أداة الوصول !

لأنعرف نحن كيف تصل .. ولكنها تصل ! في لحظة الإشراق .. في لحظة
التوهج .. تصل ! وتحس بالوصول ! وتنعم بالوصول ! وليس معنى ذلك -
كما أوضحنا من قبل - أن العقل ليس له دور في عملية الإيمان . كلا ! إن له
دوره المخصص له . لكن الإيمان بالله شيء ، والإحاطة بكنه الذات الالهية -
وهو ما يحاوله العقل - شيء آخر لا يمكن أن نصل إليه .

والذى تصل إليه الروح ليس هو الإحاطة بكنه الذات الإلهية كذلك . إنما هو
انفراج الذى يتلقى النور ويفيض عليه النور ، فيستغنى عن « البحث » في
الكنه ، الذى يحاوله العقل ولا يصل إلى شيء منه ! وهذه المشاعر يملكها كل
إنسان في لحظات التوجه الصادق إلى الله . وإن كان الإنسان - بطبيعته -
لا يثبت عليها كما تثبت الملائكة الأطهار .. ولا هو مطلوب منه أن يثبت عليها لأن
الله لا يكلف كل نفس إلا وسعها ..

شكا الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم
حين يكونون معه يكونون في حال ، وإذا خرجوا من عنده وانساحوا في الحياة
تغيرت بهم الحال . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مامعناه إنهم لو
ظلوا على حالتهم التى يكونون عليها وهم في صحبته لصافحتهم الملائكة !
ذلك هو الوصول الذى تقدر عليه الروح .. ولا يستطيع العقل أن يمارسه لأنه
ليس من شأنه .

وأما القدر فشأنه كذلك ..

ليس للعقل فيه مجال ..

إنما يحتاج الإنسان لكي يدرك كيف يجرى الله قدره ، بخيره وشره ، أن يكون على مستوى الإله ! وذلك أمر لن يكون . فالله وحده هو المتفرد بالالوهية والعلم المحيط بالزمان والمكان والأشياء والأشخاص والأحداث ..

ومن ثم ضل « العقل » حيثما تكلم في القدر .. واستراح القلب المؤمن المطمئن بذكر الله .

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » « ١ »

ومن لم يطمئن قلبه .. وسعى « بعقله » أن يعقل القدر .. فلأى شيء وصل من خلال الفلسفة والفكر والكلام ؟!

كلا ! لم يكن حجرا على « حرية الفكر » إنما صيانة لطاقة العقل أن تتبدد فيما لا طائل وراءه .. ومن أبى أن يلتزم بالحظر فقد أنهك عقله ، وشقى ، ولم يجد في النهاية الظل الذي يفىء إليه من لفحة الرمضاء ! وهى على أى حال نصيحة يلتزم بها العاقل فيجد فيها الخير ، ويتجنبها من يتجنبها فيلقى جزاء المخالفة اضطرابا وحيرة لا تستقر .

أما التشريع بغير ما أنزل الله فليس الأمر فيه أمر « نصيحة » توجه إلى الناس . إنما هى قضية كفر وإيمان .

والقضية على أى حال ذات شقين ، كلاهما يتعلق بالالوهية وما ينبغى لها في شأن التشريع ..

الشق الأول من القضية هو المتعلق بمقام الالوهية : من الإله ؟ من المعبود ؟ من صاحب الأمر ؟ وهى كلها مترتبة على سؤال أولى : من الخالق ؟ من المدبر ؟ من المهيمن ؟ من صاحب السلطان ؟ الله أم الإنسان ؟

فإذا كان الله هو الخالق والإنسان هو المخلوق ، فقد تحدد مقام الالوهية ومقام العبودية ، وأصبح صاحب الحق في أمر التشريع - كما في كل أمر آخر - هو الله الخالق لا الإنسان المخلوق .. إلا أن يأذن له صاحب الأمر .
« ألا له الخلق والأمر » « ٢ »

١٠ . سورة الرعد [٢٨] .

٢٠ . سورة الأعراف [٥٤]

« إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « ١ »

« ألا لله الدين الخالص » « ٢ »

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله »! « ٣ »
وقضية الكفر والإيمان - أو قضية الجاهلية والإسلام - هي دائما هذه القضية ، مصحوبة - في الغالب - بقضية العبادة بمعنى أداء الشعائر التعبدية :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء » « ٤ »

فالأولى متعلقة بالالوهية : هل الله واحد أم آلهة شتى ؟ فإذا كان واحدا فمن حقه أن يعبد وحده ، أي تقدم الشعائر التعبدية له وحده . والثانية متعلقة بخصيصة من خصائص الألوهية وهي الحاكمية : هل الله الذي يحكم ، فيحل ويحرم ، ويبيح ويمنع ، أم له شركاء في التشريع ، يقولون من عند أنفسهم : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا مباح وهذا غير مباح ، بغير سلطان من الله ؟ فسادام الله واحدا في الوهيته ، فالحاكمية - من ثم - له وحده لأنها خصيصة الألوهية .

والإيمان هو التوحيد في هذه وتلك . والكفر هو الشرك في هذه أو تلك أو فيهما جميعا .

وقضية الجاهلية دائما هي الاستكبار عن عبادة الله ، سواء كانت العبادة هي أداء الشعائر التعبدية لله وحده ، المترتبة على الاعتقاد القلبي بوحداية الله ، أو كانت هي التحاكم إلى شريعة الله المترتبة كذلك على الاعتقاد القلبي بوحداية الله .

« إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » « ٥ »

١ . سورة يوسف [١٠]

٢ . سورة الرمر [٣]

٣ . سورة الشورى [٢١]

٤ . سورة النحل [٢٥]

٥ . سورة غافر [٥٦]

وفي الجاهليات القديمة كلها كان الناس يؤمنون بأن الله هو الخالق ، ولكنهم يشركون معه آلهة أخرى يضفون عليها بعض صفات الألوهية . أما في قضية التشريع فكان كبارهم يتنكبون الطريق ، فيعطون لأنفسهم حقا من الحقوق المتعلقة بالألوهية - هو حق الحاكمية - فيشرعون بغير سلطان من الله ، ويجعلون من أنفسهم أربابا مع الله . وأما المستضعفون فيخضعون لهؤلاء الأرباب المزيفين بحكم ما في أيديهم من السلطان القوى ، فيعطونهم حق التشريع ، ويستعبدون أنفسهم لهم بالخضوع لما يشرعونه من تشريع .. فيستترك الذين استكبروا والذين استضعفوا في شرك العبادة ، ثم ينقسمون بعد ذلك إلى سادة وعبيد . السادة يملكون ويحكمون ، والعبيد لا يملكون ولا يحكمون .. إنما يقع عليهم الذل والهوان والضياع والبؤس كشأن كل جاهلية في الماضي .. وكل جاهلية آتية إلى قيام الساعة .

أما الجاهلية المعاصرة فقد استكبرت استكبارا من نوع أخرفنت وجود الله أصلا ، وزعمت أن الطبيعة أو المادة هي الخالق الأزلي الأبدى ذو السلطان . ولكنها في قضية التشريع سارت على ذات النمط الذي سارت عليه كل جاهلية من قبل ، فاستأثرت بالتشريع ذوو السلطان ، وخضع لهم العبيد ، فاستوى بذلك عهد الرق وعهد الإقطاع وعهد الرأسمالية وعهد الشيوعية على خلاف في الصورة لا يقدم ولا يؤخر كثيرا في واقع الأمر « ١ » .

هذا هو الشق الأول من قضية التشريع المتعلق بمقام الألوهية . أما الشق الآخر فهو متعلق كذلك بقضية الألوهية ولكن من جانب آخر .

كان الشق الأول من القضية : من الذي يحق له أن يشرع ، الخالق أم المخلوق ؟ أما الشق الآخر فهو : من الذي يحق له أن يشرع ، العليم الخبير أم الذين لا يعلمون ؟

والإنسان - في الجاهلية الأخيرة خاصة - يزعم أنه هو العليم الخبير ، ومن ثم فهو الذي يحق له أن يضع التشريع .

وبصرف النظر عن أن الأصل في القضية هو الاستكبار عن عبادة الله فلننظر في هذا الإنسان الذي يزعم أنه هو العليم الخبير، كيف يعالج شؤون حياته في معزل عن منهج الله !

١ . راجع مصل الديمقراطية والشيوعية في هذا الكتاب

كان العمال في الرأسمالية خاضعين للظلم الواقع عليهم من أصحاب رؤوس الأموال ، يسرقون كدحهم ويأكلون جهدهم ولا يعطونهم إلا الكفاف .. ففكر « الإنسان » في طريقة لرفع ذلك الظلم فابتدع الشيوعية .. فازيلت الملكية الفردية كلها وأصبحت الدولة هي المالك الوحيد . فوقع الناس جميعا في الذل المهين للمالك الجديد ، يستعبدتهم بلقمة الخبز ، فلا يملكون أن يفتحوا أفواههم بكلمة نقد واحدة للسيد المعبود !

وكانت المرأة في الجاهلية الأوروبية في عهد الإقطاع مهينة محقرة ، تعير بأنها تحمل وتلد ، ولا تعطى وضعها الإنساني الكريم ، ففكر « الإنسان » في طريقة لرفع الظلم عن المرأة ورد الإنسانية المفقودة إليها .. فكيف فكر وكيف قدر ؟! أخرجها من البيت وشغلها في المصنع والمكتب ، وجعلها تختلط مع الرجل ، فاشتغل الرجل والمرأة كلاهما بفتنة الجنس ، وفسدت الأخلاق ، وتحطمت الأسرة ، وتشرذم الأطفال ، وانتشر الشذوذ ، وفسدت الحياة !

وكانت الكنيسة في العصور الوسطى تفسد الحياة كلها بإفساد الدين ، ففكر « الإنسان » في طريقة للإصلاح .. فكيف فكر وكيف قدر ؟! ألفى الدين كله . بل نفى وجود الله أصلا .. ثم راح يتخبط في الظلمات ! هذا هو الإنسان « العليم الخبير ! » الذى يزعم أنه شب عن الطوق ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله ! وهذه هى طريقة تفكيره حين يضع لنفسه منهج الحياة !

إنه يقع فريسة لقصور العقل البشرى ، وفريسة للهوى والشهوات ! إنما يلزم لمن يضع للإنسان منهج حياته أن يكون باديء ذى بدء عالما بذلك « الإنسان » ليضع له منهجا على قده ، ويلزم له أن يكون محيط العلم بماضى ذلك الإنسان وحاضره ومستقبله ، لكيلا يعالج مشكلة بمشكلة جديدة ، ولا يقوم انحرافا بانحراف جديد .. ويلزم له أن يكون منزها عن الغرض ، منزها عن الهوى والشهوات ، ليكون منهجه « موضوعيا » خالصا بالنسبة لحياة الإنسان ..

فهل كذلك الإنسان ؟! وهل يمكن أن يكون كذلك في يوم من الأيام !

يقول ألكسس كاريل عن معرفة الإنسان بنفسه :

« وفى الحق لقد بذل الجنس البشرى مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه ، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة

والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا . إننا لانفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة !
 « واقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلاجواب ... » « ١ »
 ومربنا من نماذج القصور في رؤية الإنسان وطريقة علاجه للأمور ما يغنيانا عن المزيد .

إنما الله هو العليم الخبير لا الإنسان !
 « الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » « ٢ »
 « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » « ٣ »
 « قد أحاط بكل شيء علما » « ٤ »
 « والله هو الغنى » « ٥ »
 « يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » « ٦ »
 من أي جانب إذن عالجت قضية التشريع ، فالتشريع هو حق الله تبارك وتعالى ، وليس الإنسان مأذونا له ولا هو صالح لوضع منهج حياته .. إلا ما أذن الله له فيه . وسنرى في النقاط التالية بأي شيء أذن الله للإنسان ، يعمل فيه عقله ويجتهد فيه .

إذا جاوزنا هذه الأمور الثلاثة ، التي نُصح العقل ألا يتناولها كقضية الذات الإلهية وقضية القدر ، أو منع منعا جازما منها كقضية التشريع ، فكل المجالات الأخرى مباحة للعقل ومتاحة له ، بل هو - في الإسلام - مدعو إليها دعوة

١ . كتاب الانسان ذلك المجهول ص ١٦ من الترجمة العربية (تعريب شفيق أسعد فريد) .

٢ . سورة الملك [١٤]

٣ . سورة البقرة [٢١٦]

٤ . سورة الطلاق [١٢]

٥ . سورة فاطر [١٥]

٦ . سورة النساء [٢٦ - ٢٨]

صريحة ، ويعتبر مقصرا إذا لم يقم بها .

وهناك خمسة مجالات رئيسية يدعى العقل للعمل فيها في ظل الاسلام :

أولا : تدبر آيات الله في الكون للتعرف على قدرة الله المعجزة ، وتقديره بالخلق والتدبير والهيمنة والسلطان ، بما يؤدي إلى إخلاص العبادة له وحده سبحانه ، وطاعته فيما أمر به ومأته عنه .

ثانيا : تدبر آيات الله في الكون للتعرف على السنن الكونية التي يجرى بها قدر الله في الكون ، لتحقيق التسخير الرباني لما في السموات وما في الأرض للإنسان ، من أجل تعمير الأرض والقيام بالخلافة بها .

ثالثا : تدبر حكمة التشريع الرباني لإحسان تطبيقه على الوجه الأكمل ، والاجتهاد فيما أذن الله فيه بالاجتهاد .

رابعا : تدبر السنن الربانية التي تجرى الأمور بمقتضاها في حياة البشر ، لإقامة المجتمع الإيماني الراشد الذي يريده الله .

خامسا : تدبر التاريخ

ولنقل كلمة موجزة عن كل مجال من هذه المجالات :

أولا : في قضية الإيمان - كما أسلفنا - يخاطب الإسلام الإنسان كله ، بكل جانب من جوانبه ، ويركز على الجانب الوجداني لأن العقيدة دائما تخاطب الوجدان وتَحْيِي فيه وتتحرك به ، ولكنه يخاطب العقل كذلك في ذات الوقت ، ويستنهضه للتفكير والتدبر والتأمل ، لتتأزر جوانب الإنسان كلها للوصول إلى الحقيقة ، حقيقة الألوهية ، وما يترتب على معرفتها من التزامات في كل مجالات الحياة والشعور والفكر والسلوك .

يخاطبه ليتدبر في آيات الخلق .. خلق الكون وخلق الإنسان .. هل من خالق غير الله ؟

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون ! » ١

« خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تُمِيدَ بكم ، ونبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم .

١٠ . سورة الطور [٣٥ - ٣٦]

هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ! بل الظالمون في ضلال مبين ! « ١ »

وما زال هذا التحدى قائما .. وسيظل قائما إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .. وكل محاولات الجاهلية المعاصرة أن تزيع عن مجابهة التحدى ، بالقول بالمصادفة تارة ، وبالخلق الذاتى تارة ، وبأى كلام تارة أخرى إنما هى محاولات متهافئة لا يقبلها « العقل » لو تجرد للتفكير بغير ضغوط وبغير شهوات ! والاسلام يخاطب العقل ليتجرد فى تفكره ، وليصل إلى النتيجة الموضوعية العلمية التى يدل عليها كل ما فى السماوات والأرض من شئ ، ويتخلى عن الهوى الذى يعمى وعن الكبر الذى يضل .. فيجد الحقيقة بارزة تملأ اليقين .

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ » « ٢ »

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » « ٣ »

« إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض .. » « ٤ »

وكما يخاطبه ليستيقن من حقيقة الألوهية وتغرد الله بالخلق والتدبير .. - بطرق استدلالاته الخاصة من استقراء واستنباط وقياس ومنطق .. الخ - يخاطبه ليرتب على يقينه ذلك ما يستتبعه من نبعات .. فإذا كان الله متمصفا بتلك الصفات التى استدل عليها وتيقن منها فمن الجدير بالعبادة غيره ، ومن الجدير بالطاعة غيره ؟

كذلك يخاطبه ليستيقن من الحق الذى خلقت به السماوات والأرض ، وما يستتبع هذا الحق من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » « ٥ »

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا .. » « ٦ »

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات

١ ، سورة لقمان [١٠ - ١١]

٢ ، سورة النحل [١٧]

٣ ، سورة الأنبياء [٢٢]

٤ ، سورة المؤمنون [٩١]

٥ ، سورة المؤمنون [١١٥]

٦ ، سورة هـ [٢٧]

والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه ، فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيت ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » « ١ »

إن الله الذى صفاته هى تلك التى عرفها العقل واستيقن منها لا يمكن - عقلا - أن يخلق شيئا عبثا ، أو أن يخلق شيئا باطلا ، إنما يخلق كل شيء بالحق . والحق يقتضى أن يكون هناك يوم يحاسب فيه الناس على ما عملوه فى الحياة الدنيا ، لأنه لا يتم الجزاء الحق فى الحياة الدنيا كما يرى الإنسان بنفسه... فكم من ظالم ظل يظلم حتى مات ، وكم من مظلوم ظل مظلوما حتى مات . فلو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف فأين الحق ؟ إنما يحق الحق حين يبعث الناس فيحاسبون على السيئة والحسنة ، ويأخذ كل إنسان جزاءه بالحق ..

وإذا كان الأمر على هذه الصورة فإن « العقل » يقتضى أن يحاسب الإنسان لهذا اليوم حسابه ، وأن يعمل من الأعمال ما يقربه من الجنة ويبعده عن النار .. ولا تفتنه اللذة العاجلة عن النعيم المقيم .

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » « ٢ »
وهذه الأمور كلها يخاطب فيها الوجدان - مع العقل - لتترتب عليها حركة سلوكية واقعية ، ولكن نصيب العقل فيها واضح لا يحتاج إلى تأكيد .

ثانيا : يوجه العقل بعد ذلك إلى تدبر آيات الله فى الكون للتعرف على أسرار . للتعرف على خواص ذلك الكون ، لإمكان تسخيرها لعمارة الأرض . والتسخير قائم من عند الله ابتداء :

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » « ٣ »

ولكن تحقيق هذا التسخير فى عالم الواقع لا يتم بمجرد رغبة الإنسان فى ذلك ،

١ . سورة ال عمران [١٩٠ - ١٩٤]

٢ . سورة ال عمران [١٨٥]

٣ . سورة الحاثية [١٢]

فهو ليس إلهًا يقول للشيء كن فيكون . إنما يتحقق هذا التسخير بجهد معين يبذله الإنسان . جهد عقلي يتعرف به الإنسان على أسرار الكون وخواصه ، وجهد عضلي يطبق به الإنسان ثمار معرفته في صورة عمل منتج . وكل ذلك يوجّه العقل لأدائه . بل هو ميدانه الأصيل الذي تتجلى فيه كل عبقريته ، والذي لا يشاركه فيه غيره . وليس معنى ذلك أنه في هذا الميدان لا يخطئ ولا يتوهم ، فكثيرا ما يقع في الخطأ والوهم كما بين تاريخ العلوم ، ولكن معناه أن لديه أوسع فرصة ليصل إلى الحقيقة فيما قدر الله أن يكشف له من أمور هذا الكون . ولكنه يوجّه إلى ذلك بعد أن يوجه إلى التعرف على الخالق ، وعلى كل قضايا العقيدة . ولذلك حكمة واضحة .

فالعقل البشري مالم يعوقه معوق - كما كان من أمر الكنيسة الأوروبية وحجرتها على العقل أن يفكر - مفطور بطبعه على التفكير فيما حوله ، واستنباط الطرق التي تحقق للإنسان حاجاته ، ثم تحسينها ومحاولة الوصول بها إلى أقصى حد من الإتقان والفاعلية ، من أجل الحصول على القدر من « المتاع » الذي قدره الله للإنسان في الأرض .

« ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » ١ «
ولكن العبرة في حياة « الإنسان » ليست بمجرد العمارة المادية للأرض ، ولا مجرد الحصول على المتاع من أي لون ومن أي طريق ، إنما « الإنسان » خلق لشيء أرفع من ذلك وأسمى .. خلق لحمل « الأمانة » التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال :
« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها . وحملها الإنسان .. » ٢ «

وحمل الأمانة لا يتم بمجرد العمارة المادية ولا المتاع الحسى .. إنما يتم بإقامة ذلك كله على أساس من « القيم » .. والقيم الحقيقية هي التي حوّاها المنهج الرباني للحياة (وقد رأينا من دراستنا السابقة أن كل ماعداها زائف لا يلبث أن تعبت به الأعاصير) ومن ثم كان لابد من توجيه العقل أولا - والكيان

١ . سورة البقرة [٢٦]

٢ . سورة الاحزاب [٧٢]

الإنسانى كله فى الحقيقة - للتعرف على الله والايمان به وطاعته ، حتى إذا جاء العقل يتعرف على الكون ، ويعمل على تسخير طاقاته فى عمارة الأرض ، كان مهتديا بالهدى الربانى ، فأقام عمارة الأرض على أساس المنهج الربانى الذى به وحده تصلح الحياة .

وقد مر بنا فى هذا الفصل وماقبله كيف صارت الأرض حين قامت عمارتها المادية على « قيم » أخرى غير القيم التى قررها الله وأمر بإقامتها فى الأرض . وحاضر الجاهلية المعاصرة غنى عن الإشارة وغنى عن التعليق .

فتوجيه العقل - فى الإسلام - إلى التعرف على السنن الكونية من أجل عمارة الأرض بعد توجيهه إلى الإيـمان بالله ، هو المنهج الصحيح لتنشئة « الإنسان الصالح » الذى تسعى البشرية - نظريا - إلى تنشئته ، ولكنها تخفق دائما حين تتنكب المنهج الربانى ، وتنشئ من عندها مناهج تؤدي إلى البوار .

وإن كان لنا من شئ نذكر به أو نعيد التذكير به فى هذا المجال ، فهو أن الأمة المسلمة - بتوجيه الإسلام - هى التى أنشأت المنهج التجريبي فى البحث العلمى ، الذى قامت عليه كل نهضة أوروبا العلمية فيما بعد ، ولكنها تفردت فى التاريخ بأنها هى التى أنشأت حضارة « إنسانية » حقيقية ، تمثل « الإنسان » كله لاجانباً واحداً من جوانبه ، وتمثله متوازناً كما ينبغى للإنسان ، لا العمل فى الدنيا يشغله عن الآخرة ، ولا المتاع الحسى يشغله عن المتاع الروحى المتمثل فى العبادة ، وفى الجهاد لإقامة الحق والعدل فى الأرض . ولارؤية الأسباب الظاهرة تفتنه عن السبب الحقيقى ، ولا العلم يفتنه عن الدين .. إلى آخر تلك الانحرافات التى وقعت فيها الجاهلية الأوروبية حين رفضت الهدى الربانى وجعلت « عقلها » يرسم لها الطريق !

ثالثا : يوجه العقل فى الإسلام إلى تدبر حكمة التشريع لإحسان تطبيقه . ومن أجل الاجتهاد فيما أذن الله فيه بالاجتهاد . وحقيقة إن هذا فى الإسلام فرض كفاية لا فرض عين ، لأنه لا يتيسر لكل الناس - وإن كانوا مؤمنين - أن يتفقهوا فى أحكام الدين . إنما الفقهاء لهم استعداد خاص ، ويحتاجون إلى دربة خاصة لانتاح لكل إنسان .

ولكن فرض الكفاية معناه أن يتخصص له فريق من الأمة - ممن يحملون الاستعداد وينالون الدربة - فيسقط التكليف عن الآخرين . فإن لم ينتدب له احد من أفراد الأمة فهي كلها أئمة حتى تهيب من يقوم عنها بهذا الأمر . « فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » ١٠ . وإعمال العقل لتدبر حكمة التشريع أمر واضح الضرورة وواضح الحكمة . فالتشريع أولاً لا ينطبق انطباقاً ألياً على كل حالة من الحالات التي تقع بين البشر .

إنما يحتاج الأمر إلى إعمال العقل لمعرفة الحكم الذي ينبغي تطبيقه في الحالة المعينة المعروضة للحكم ، لمعرفة الطريقة الصحيحة لتطبيقه . ثم إن هذه الشريعة التي نزلت لتواكب حياة البشرية كلها منذ نزولها إلى قيام الساعة ، قد روعي فيها أن تواجه الثابت والمتغير في حياة الناس .

فأما الثابت - الذي لا يتغير ، أو لا ينبغي أن يتغير لأن تغييره يحدث فساداً في الأرض - فقد أتت فيه الشريعة المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بتفصيلات وافية تشمل الأصول والفروع والكلية والجزئية . وأما المتغير - الذي يجد في حياة الناس بحكم التفاعل الدائم بين العقل البشري والكون المادي وما ينشأ عن ذلك من علوم وتطبيقات وتحويرات في أنماط الحياة ، والذي أذن الله فيه بالتغيير لأن ثباته يجمد الحياة ويوقف نموها - هذا المتغير لم تتناوله الشريعة بالتفصيل - بحكم تغيره الدائم - إنما وضعت له الأسس التي ينمون نمو سليماً في داخل إطارها ، وتركت للعقل المؤمن المهتدى بالهدى الرباني ، المتفقه في أمور الدين ، أن يستنبط له من الأسس الثابتة ما يناسبه في كل طور من أطواره .

لذلك كان الفقه عملاً دائماً النمو لا يتوقف ، ولا يجوز له أن يتوقف .. لأنه إذا توقف فليس لذلك من نتيجة إلا أن تجمد الحياة أو تخرج من إطار الشريعة الربانية الحكيمة .

ولقد قام العقل الإسلامي في ميدان الفقه في فترة نشاط هذه الأمة وحيويتها بجهد رائع ، مازال يعد تراثاً إنسانياً ثميناً إلى هذه اللحظة ، رغم ما أصاب الأجيال المتأخرة من الجمود ، وما أصاب الأجيال الأخيرة من الإعراض !

١٠ . سورة التوبة [١٢٢]

والذى يطلع على هذا الفكر يدرك مدى شمول هذه الشريعة وحيويتها وقدرتها على مواكبة النمو البشرى من جهة ، ويدرك من جهة أخرى ما قام به العقل الإسلامى المفكر من فتوحات فى هذا الباب ، كانت كلها وليدة توجيهات الإسلام .

رابعاً : ترد فى كتاب الله مجموعة من السنن التى يجرى الله بها قدره فى حياة البشر ، وترد الإشارة المكررة بأن سنة الله لا تتبدل ولا تتغير ، ولا تتوقف محاباة لأحد من الخلق . ويوجه العقل إلى تدبر هذه السنن من أجل إقامة المجتمع الصالح الذى يتمشى مع مقتضياتها ولا يصادمها .

فالحياة البشرية ابتداء ليست فوضى بلاضابط . إنما يضبطها نظام ربانى دقيق ، يسير بحسب سنن ثابتة ، ترتب نتائج محددة على السلوك البشرى فى جميع أحواله . ومن ثم يستطيع الإنسان أن يتبين السلوك الصائب الذى ينبغى أن يسلكه ، كما يتبين النتائج المتوقعة من سلوكه ، لارجمها بالغيب ، ولكن تحقيقاً لسنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير .

وهذه السنن تتناول حياة الجماعة ، فهى سنن اجتماعية فى غالبها . أما ما يرد بشأن الفرد فغالبا ما يكون متعلقا بالجزاء الذى يجزاه فى الآخرة لقاء عمله فى الدنيا ، وإن كان بعض السنن يأتى فيه ذكر المفرد كقوله تعالى :

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » ١ « ونحشره يوم القيامة أعمى » ٢ «

ونعرض هنا بعض هذه السنن على سبيل المثال لا الحصر ، فليس همنا تتبعها واستقصاءها ، إنما التنويه بعمل العقل إزاءها .

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » ٣ «

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ٤ «

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ٥ «

١ . أى فى الحياة الدنيا

٢ . سورة طه [١٢٤]

٣ . سورة الروم [٤١]

٤ . سورة الرعد [١١]

٥ . سورة الأنفال [٥٢]

« قلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » « ١ »
« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو
يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » « ٢ »
« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ،
ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ٣ »
« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين
من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » « ٤ »
« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها
لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها
ويأطل ماكانوا يعملون » « ٥ »
« وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا
على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » « ٦ »
« فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك
ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك
الكافرون » « ٧ »
ونقف وقفة قصيرة عند هذه السنة الربانية :
« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماما .
قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين » « ٨ »
فقد ابتلى الله إبراهيم عليه السلام بجملة ابتلاءات صبر فيها صبرا جميلا ،
وكان قمة الابتلاءات أمره - في الرؤيا - بذبح ولده الحبيب اسماعيل ،
واستسلامه وولده للأمر الرباني :
« قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل

١ . سورة الأنعام [٤٤]

٢ . سورة الأنعام [٦٥]

٣ . سورة الأعراف [٩٦]

٤ . سورة العنكبوت [٢ - ٣]

٥ . سورة هود [١٥ - ١٦]

٦ . سورة الزخرف [٢٣]

٧ . سورة غافر [٨٤ - ٨٥]

٨ . سورة البقرة [١٢٤]

ماتؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين ،
وناديناہ أن یا ابراهيم قد صدقت الرؤيا « ١ »
ولقد أكرمه الله جزاء نجاحه الباهر فى هذه الابتلاءات فاجتباہ واتخذہ
خليلا :

« واتخذ الله إبراهيم خليلا » ٢ »

وجعله للناس إماما .. وتلك نعمة كبرى يمن الله بها على عباده المقربين ..
فلما نال تلك الخطوة عند الله تحركت رغبته البشرية الطبيعية فى أن يكون هذا
العهد ماضيا فى ذريته ، فيكونوا أئمة للهدى ، يهدون الناس إلى الإيمان . فهل
حابه السنة الإلهية وهو فى موضع التكريم والتقريب والترحيب ؟ كلا ! لقد كان
الجواب حاسما : « لاينال عهدى الظالمين » أى أن العهد ماض فيهم إذا هم
استقاموا على الطريق ، فإذا ظلموا فلا عهد لهم عند الله . ذلك أن الله لايمكن
للناس فى الأرض لأن آباءهم أو أجدادهم كانوا مؤمنين ! بل حين يكونون هم
بأنفسهم مستقيمين على الطريق .. أما الذين يرثون العهد وراثه ، أو يرثون
كتاب الله وراثه - أى يتخذونه تراثا ! - فيصبح فى حسهم أنه كتاب الآباء
والأجداد وليس كتابهم هم ، ولاهم مكلفون بتطبيقه ، فأولئك يقول الله فيهم وفى
أمثالهم :

« فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى
ويقولون سيغفر لنا ! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق
الكتاب الا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ؟ والدار الآخرة خير للذين
يتقون ، أفلا تعقلون ؟! والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع
أجر المصلحين » ٣ » .

والذى يعنينا من هذه السنن هنا - كما أسلفنا - هو دور العقل فى
تدبرها ، لاتدبرا نظريا فلسفيا يبدأ فى العقل وينتهى فى العقل كما كان شأن
عقلانية الإغريق . إنما يتدبرها ليعمل - بوعى - على إقامة المجتمع الصالح
الذى يستحق التمكين فى الأرض بمقتضى الوعد الربانى :

١ - سورة الصافات [١٠٢ - ١٠٥]

٢ - سورة النساء [١٢٥]

٣ - سورة الاعراف [١٦٩ - ١٧٠]

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا .. » ١ »

وليتجنب النذير الرباني :

« وإن تولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » ٢ »

والنذير الآخر :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ٣ »

لسكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو قوام خيرية هذه الأمة .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ٤ »

فحين تسكت الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصيبها الفتنة ولا تصيب الذين ظلموا وحدهم ، ولكن تصيب المجموع كله لتقصيره في مقوم أصيل من مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية .

ولا تقتصر « التوعية » السياسية على قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . إنما تتعداها إلى التوعية بالدور التاريخي والإنساني لهذه الأمة :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ٥ »

والتوعية بأعداء هذه الأمة ، ومخططاتهم ضدها ، وأهدافهم من هذه المخططات ، وواجبهما إزاءهم ، وطريقة التعامل معهم في السلم والحرب ، وقضية الولاء ومع من يكون ، وما حدوده وطبيعته .. الخ .. الخ .. مما لا مجال لتفصيله هنا ، فله مباحثه الخاصة ، وإنما نتحدث هنا عن دور « العقل » في كل ذلك .. ودوره هو تدبر السنن الربانية التي يتحصل منها الوعي الاجتماعي والوعي السياسي ، وهو أمر واجب في الإسلام ليتم تنفيذ المنهج الرباني على وجهه الصحيح .

١ . سورة النور [٥٥]

٢ . سورة القتال [٢٨]

٣ . سورة الأنفال [٢٥]

٤ . سورة آل عمران [١١٠]

٥ . سورة البقرة [١٤٣]

خامسا : يوجه العقل إلى دراسة التاريخ :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين » ١ .

« أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا
أشد منهم قوة واثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم
بالبينات فما كان الله ليظلمهم » ٢ ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ٣ .
« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون
بها ؟ ! فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ٤ .
وواضح أن دراسة التاريخ المطلوبة هى للعبرة لا للتسلية وتزجية الفراغ !
ولكن ينبغى أن نعرف موطن العبارة من دراسة التاريخ ..

إن السنن الربانية التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة ، والتى يجرى قدر
الله بمقتضاها فى حياة البشرية ، والتى قلنا إن العقل البشرى مدعو إلى تدبرها
والتفكر فيها من أجل إقامة المجتمع الصالح القائم على المنهج الربانى .. هذه
السنن - بطبيعتها - نادرا ما تتحقق بتمامها فى داخل عمر الفرد المحدود ،
لأن السنن الاجتماعية بطبيعتها تستغرق أجيالا متوالية حتى يتم التحول
الاجتماعى سواء إلى الخير أو إلى الشر (فيماعددا القلة النادرة التى تقتضى
حكمة الله فيها تحقيق سنة بكاملها فى امد قصير ، تأييدا للنبي أو تمكينا لجماعة
مؤمنة ، كما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبناء هذه الأمة الشامخة فى
سنوات قصار) .

وانظر مثلا إلى هذه السنة :

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » ٥ .

فالجزء الأول من هذه السنة يمثل الواقع الأوربي فى وقته الحاضر .. نسوا
ماذكروا به ، وكفروا وجحدوا ، ففتح الله عليهم أبواب كل شيء ، من قوة
سياسية وقوة عسكرية وقوة علمية وقوة تكنولوجية وقوة اقتصادية .. وكل

١ . سورة ال عمران [١٣٧]

٢ . اى بالتدمير عليهم لتكذيبهم

٣ . سورة الروم [٩]

٤ . سورة الحج [٤٦]

٥ . سورة الانعام [٤٤]

ما يمكن أن يدخل في « أبواب كل شيء » ، وهذا الجزء وحده من هذه السنة قد استغرق قرنين كاملين من الزمان ، ولد فيه أفراد - بل أجيال - قضوا أعمارهم في هذه الحياة ورحلوا ، ولما تتحقق بقية السنة المذكورة في الآية ، « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » ! بل توهم أناس في وقت من الأوقات أن هذه الأبواب المفتوحة ستظل مفتوحة إلى الأبد لاتغلق ولا تهدم على أصحابها مهما ارتكبوا من أثام !

واليوم بدأ مفكرو الغرب أنفسهم يدركون أن « حضارتهم » أيلة الى الانهيار .. وبدأوا ينفذون قومهم إذا استمروا في البعد عن « القيم الروحية » كما يسمونها « ١ » أن يصيبهم الدمار الذي أصاب أمما من قبلهم .. ولكن كم يستغرق ذلك من الزمان ؟ جيلا أو أجيالا كما استغرق تحقيق الجزء الأول من سنة الله !

لذلك يوجه الله « العقل » أن يتدبر التاريخ ! فالتاريخ هو المجال الواسع الذي تتحقق فيه السنن الربانية بأكملها ، سواء منها ما يتحقق في عمر الفرد وما يتحقق في عمر الأجيال . والأغلب هو الأخير !

تدبر التاريخ إذن هو في الواقع تدبر السنن الربانية في واقعها التاريخي الذي يمتد خلال القرون ، ورؤية الطريقة الواقعية التي تتحقق بها تلك السنن في حياة الأمم والأفراد ، لتتحقق العبرة الكاملة في نفوس الناس ، فيسايروا هذه السنن ولا يصادموها ، ولا يقول قائل لنفسه - على سبيل المثال - هاأنذا قد عشت في المجتمع الفاسد عمرى كله وشاركته الفساد فلا أنا أصابني الدمار ولا المجتمع الذي عشت فيه ! ولا يقول قائل لنفسه لماذا أجهد نفسي في تقويم المجتمع من انحرافه الخلقى أو الفكرى أو الروحى .. مادام هذا المجتمع يملك القوة العسكرية والقوة السياسية والقوة الاقتصادية التى تسنده وتمنعه من الدمار ! ولا يقول قائل لنفسه : ماقيمة « القيم » ؟ وما فائدة « الدين » ؟ وما معنى « الأخلاق » ؟ إذا كان يمكن للمجتمع أن يعيش متماسكا قويا بغير ذلك كله عدة قرون ؟ !

تلك عبرة دراسة التاريخ ...

إن التاريخ لا يدرس - من وجهة النظر الإسلامية - لتسجيل انتصارات

« ١ » لأنهم مازالوا في جاهليتهم يكرهون أن يذكروا الدين باسمه الصريح !

الجيوش وانكساراتها ، ونشأة الدول وزوالها مجردة عن القيم المصاحبة لها ، وعن مجرى السنن الربانية فيها . إنما يدرس باديئ ذي بدء لتتبّع حياة « الإنسان » في حالتيه : حالة الهدى وحالة الضلال ، ومايجرى خلال كل من الحالتين من أحداث ، ونتائج تترتب على الأحداث ، مضبوطة بالمعيار الذي لا يخطئ ، معيار السنة الربانية الحتمية التحقيق ..

و« الإنسان » ابتداء هو ذلك المخلوق الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، لا « الحيوان » الذي ابتدعه دارون ، ولا « المادة » التي زعمها التفسير المادى للتاريخ .. ومقياس علوه وهبوطه ليس هو الإنتاج المادى والعمارة المادية للأرض :

« كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها .. »

ولكنهم كانوا جاهليين ، لأنهم رفضوا الهدى الربانى ، وأصابهم فى النهاية مايصيب الجاهلية من الدمار ، على الرغم من كل القوة التى يملكونها ، ومن إثارة الأرض وعمارتها ..

إنما مقياس علو « الإنسان » أو هبوطه هو مقياس « الإنسانية » .. مقياس التزامه بالهدى الربانى الذى يحقق - وحده - إنسانية الإنسان ، والتزامه بمقتضيات الخلافة الراشدة ، أى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى لا بأى منهج سواه .

وحين يتحقق هذه الوعى التاريخى - لا فى صورة فلسفية ذهنية تجريدية - ولكن فى صورة وعى حركى واقعى ، يكون هذا عوناً كبيراً للإنسان الراشد ، يوجهه إلى السلوك الناضج المستقيم ، الذى يتحقق به الوجود الأعلى للإنسان .

تلك عقلانية الإسلام .. عقلانية سليمة ناضجة تمثل الرشد البشرى فى أعلى حالاته .

عقلانية تعطى العقل مكانه اللائق به ، بلا إفراط ولا تفريط .. فلا هى تغالى فى تقدير قيمة العقل فتقحمه فيما ليس من شأنه أو تجعله المرجع الأخير لكل شئ حتى الوعى الربانى ، ولا هى تبخسه قدره فتمنعه من مزاولته نشاطه فى ميادين الطبيعة التى يصلح لها ويحسن العمل فيها .

عقلانية تكل إلى العقل مهام خطيرة وواسعة .. تكل إليه مهمة حراسة الوعى

الذى تكفل بحفظه الله « ١ » من كل تأويل فاسد مضل ، وحراسة أحكام الله من الانحراف بها عن « مقاصد الشريعة » ، وحراسة المجتمع من الآفات الاجتماعية والسياسية والفكرية والخلقية التى تؤدى إلى تدميره .. كما تكل إليه مهمة التقدم العلمى والبحث التجريبي وعمارة الأرض .
ولكنها لاتكل إليه - ولاتسمح له - أن يحيد عن الوحي الربانى والمنهج الربانى ، ولا أن يجتهد من عنده بما لم يأذن به الله ، لأنه عندئذ يجانب الصواب ، ويحيد عن الخير ، ويمكن للفساد :
وتلك هى العقلانية المتوازنة .. أين منها عقلانية الإغريق الغابرة ، والعقلانية التجريبية التى يمارسها الغرب فى جاهلية القرن التاسع عشر والقرن العشرين !

« ١ » قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [سورة الحجر ٩]

القومية والوطنية

الوطنية معناها أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن ، والتعصب له ، أيا كانت أصولهم التي ينتمون إليها ، وأجناسهم التي انحدروا منها . أى أن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس . والقومية معناها أن أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ينبغي أن يكون ولاؤهم واحدا وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم ، وإن كان معناها أيضا السعى في النهاية إلى توحيد الوطن بحيث تجتمع القومية الواحدة في وطن شامل ، فيكون الولاء للقومية مصحوبا بالولاء للأرض .. ولكن الولاء للقومية يظل هو الأصل ولولم تتحقق وحدة الأرض .

وأيا كانت التعريفات النظرية للقومية والوطنية ، فالذى يهمنى بادئ ذي بدء أن نتعرف على منشئها في أوروبا ، ثم أثارها التي ترتبت عليها في التاريخ البشرى الحديث .

كانت أوروبا في وقت من الأوقات وحدة سياسية تجمع قوميات ولغات وأجناسا شتى ، في ظل الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن هذا التجمع يشكل « أمة » بالمعنى الحقيقي . فقد كانت الدولة الأم هي « الأمة » في نظر نفسها وفي نظر المستعمرات التي استولت عليها والحقتها بالإمبراطورية ، كما كانت الدولة الأم هي « السيد » والمستعمرات هي « العبيد » . ولم تمتزج شعوب الإمبراطورية قط في وحدة حقيقية كالتي جمعت الأمة الإسلامية - أمة العقيدة - التي انصهرت القوميات والأجناس واللغات فيها في بوتقة العقيدة فصارت أمة واحدة على مستوى واحد ، هي « الأمة الإسلامية » .

في مجتمع المدينة كان بلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى في القمة من ذلك المجتمع ، مع السادة من قريش ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « سلمان منا أهل البيت » . وكان عمر رضى الله عنه يقول : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » ، إشارة إلى بلال رضى الله عنه ، فكأنه - وهو في الذؤابة من قريش - يقول عن بلال : « سيدنا بلال » وهى قمة لم تصل إليها البشرية في تاريخها كله إلا في أمة العقيدة ..

ثم انساح المسلمون في الأرض وفتحوا ما فتحوا من البلاد لا لينشئوا

إمبراطورية ولكن لينشروا العقيدة . لم تكن توسعة الأرض قط هي التي تهمهم أو تدفعهم إلى الخروج من أرضهم ، ولم يكن ضم موارد جديدة ، واستخدامها - أو تسخيرها - للدولة الأم لتغني وتكتنز ، خاطرا يدفع قائدا من القواد أو جنديا من الجنود . إنما كان الدافع الأصيل هو إزالة « الجاهلية » ليحل محلها « الإسلام » دون إكراه للناس على عقيدة الإسلام . إزالة الجاهلية ممثلة في دول وجيوش ونظم لا تؤمن بالله ولا تطبق المنهج الرباني ، ليحل محلها النظام الإسلامي ممثلا في تطبيق شريعة الله ، وتطبيق العدل الرباني والحكمة الربانية ، مع ترك الناس أحرارا في عقائدهم بإذن الدولة الإسلامية بل بحراستها وحمايتها !

إنها تجربة فريدة في التاريخ ، لم تتكرر ، وليس من شأنها أن تتكرر مع أي نظام آخر ، إلا أن يكون نظاما قائما على العقيدة الصحيحة في الله ، مطبقا لشريعة الله .

ومهما يكن من أمر فإن أوروبا لم تعرف هذا اللون من التجمع في تاريخها كله ، حتى بعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية - أو ادعى ذلك - وفرضها على الإمبراطورية كلها عام ٣٢٥ م .

وقد كان المفروض حين تصبح الإمبراطورية مسيحية أن يجمعها ذلك اللون من التجمع الذي وحد الأمة الإسلامية فيما بعد ، وصهر أجناسها وألوانها ولغاتها في كيان واحد متحد ، ليس فيه أتباع ومتبوعون ، بل فيه « مسلمون » على قدم المساواة .

ولاشك أن دخول الإمبراطورية في المسيحية قد أنشأ - لفترة من الوقت - لونا من التجمع الشعوري .. وقد كان هذا هو هدف قسطنطين الحقيقي من دخوله المسيحية ، فلم يكن همه « العقيدة » إنما كان همه توحيد الإمبراطورية التي كانت توشك على التمزق والافتراق .. ولكن هذا التجمع لم يرتق قط إلى الصورة التي مارستها الأمة الإسلامية لأكثر من سبب واحد .

أحد الأسباب - أولعه السبب الرئيسي - أن الدين لم يصل إلى الإمبراطورية في صورته الكاملة ، إنما وصل إليها - كما بينا في التمهيد الأول من هذا الكتاب - عقيدة مفصولة عن الشريعة . وقد كان لتلك العقيدة سلطانها على القلوب ولا ريب ، ولكن لا يستوى الدينان : دين متكامل يحكم مشاعر القلب وواقع الحياة ، ودين ممسوخ ، يقبع في وجدانات الناس ، وقد

يحكم بعض سلوكهم الشخصى ، ولكنه عاجز عن حكم الواقع العملى للناس ، يستكبر عنه الأباطرة فيحكمون بالقانون الرومانى ولا يحكمون بشرائع ذلك الدين .. لا يستوى الدينان فى اثرهما على الواقع ، ولا فى قدرتهما على تجميع الناس فى صورة « أمة » موحدة :

« ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا ؟ » ١

والسبب الثانى أن العقيدة حين وصلت للإمبراطورية الرومانية - أو حين فرضها عليها الإمبراطور قسطنطين - لم تكن على صورة واحدة ، فقد كانت قد انقسمت إلى مذاهب ومعتقدات شتى - لا فى الفروع كما هو شأن المذاهب الإسلامية - إنما فى أصل الاعتقاد ، بحيث لا يمكن أن يلتقى أصحاب مذهب ومذهب على شئ . فالدين قد انحصر فى العقيدة ، والعقيدة أصبحت عقائد مختلفة متعارضة ومتعادلة .. ويكفى نموذج واحد من هذا التعارض والعداء ، هو ما كان بين الدولة الرومانية وأقباط مصر .. فقد كانوا كلهم « مسيحيين » ولكن الخلاف بين مذهب الدولة الكاثوليكي ومذهب الأقباط الأرثوذكسى كان من السعة وعدم الالتقاء بحيث كان الأقباط يسامون الخسف والعذاب من أجل عقيدتهم ، حتى ليستخفون بها عن أعين الدولة ، ويقام فى الكنيسة الواحدة عبادتان مختلفتان ، إحداهما علوية ظاهرة والأخرى سفلية سرية ، كما كان الحال فى كنيسة « مار » ٢ « جرجس » حيث كانت تقام صلاة علنية على مذهب الدولة فى أروقة الكنيسة العلوية الظاهرة ، وصلاة أخرى سرية فى سراديب تحتية خفية ، يختفى فيها الأقباط عن عيون الدولة الرومانية التى تتعقبهم بالعذاب والإرهاب .. وشأن هذا الخلاف أن يمزق ويفرق لا أن يجمع الصفوف ويوحد البناء .

وصحيح أن أوروبا فى مجموعها كانت كاثوليكية لعدة قرون ، وكان اتحادها فى المذهب عاملا من عوامل تجمعها ، كما سنبين بعد ، ولكن حجم هذا التجمع وتأثيره فى حياة الناس كان يمكن أن يكون أكبر من واقعه الذى كان عليه ، لو كان فى حس أصحابه أن دينهم واحد فى كل الأرض ، وأنهم ليسوا مجرد قطاع

١ . سورة الزمر [٢٩]

٢ . مار . جرجس أى الشهيد جرجس ، وهى ليست . مارى . جرجس كما تجرى على السنة العامة فى مصر

من هذا الدين - وإن يكن القطاع الأعظم - تغايره بقية القطاعات في أصول الاعتقاد . ١ .

فإذا اجتمع إلى هذين السببين أن اللاتينية - لغة الكتاب المقدس . ٢ . - لم تكن قط لغة الكلام في الإمبراطورية الرومانية ، وإنما لغة المثقفين ورجال الدين فقط ، إلى جانب كونها اللغة « الرسمية » للدولة ، وإنما الشعوب داخل الإمبراطورية تتكلم لغات أخرى يختلف بعضها عن بعض اختلافا رئيسيا .

إذا اجتمعت هذه الأسباب كلها وضع لنا أن التجمع الذي تم في ظل الإمبراطورية الرومانية المسيحية لم يكن من شأنه أن يرتقى إلى تكوين « أمة » واحدة على النسق الذي تم به الأمر في ظل الإسلام ، الذي لم تنفصل فيه الشريعة عن العقيدة ، والذي لم تحدث فيه خلافات عقيدية تمزق وحدته ، والذي كانت لغته - لفترة طويلة من الوقت - لغة واحدة هي لغة القرآن .

ومع ذلك كله فقد كان لسلطان العقيدة في نفوس المسيحيين الأوربيين ، وسلطان الكنيسة البابوية من جهة أخرى ، تأثير ملموس لاشك فيه ، أوجد لونا من التجمع والوحدة رغم كل أسباب الفرقة والخلاف .

ولكن حماقات الكنيسة التي أشرنا إليها في التمهيد الأول مالبت أن عملت على تقويض ذلك التجمع من أكثر من باب ..

لقد كان طغيانها في كل جانب مثيرا لردود فعل مختلفة ، تلتقي كلها عند الرغبة في تحطيم نفوذ الكنيسة والتفقت منه ، فضلا عما حدث فيما بعد من النفور من الدين ذاته والانسلاخ منه .

وإذا كان الدين ونفوذ الكنيسة هما الرباط الذي أوجد ذلك القدر من التجمع في أوربا ، فلنا أن نتوقع أن يكون أثر ردود الفعل المشار إليها هو انفراط عقد هذا التجمع وقصم روابطه .. وذلك الذي كان !

كان تمرد الملوك على طغيان الكنيسة السياسي أول بادرة من بوادر التمزق في الوحدة الأوروبية . ولكن هذا التمرد وحده كان يمكن أن يظل محدود الأثر لولم

١ . - الاختلاف الذي يمكن أن يقارن بذلك في العالم الإسلامي هو الخلاف بين السنة والشيعة ولكن ينبغي أن نتذكر أن الشيعة والسنة لم يحتلوا قضية الألوهية - وهي محور الخلاف الرئيسي بين المذاهب المسيحية المختلفة - ولا في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم . إنما كان في مبدئه خلافا سياسيا حول خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم تطور إلى أمور أخرى .

٢ . - كانت لغة الكتاب المقدس هي الاغريقية واللاتينية ولم تكن أيهما لغة شعبية .

يصاحبه في ذات الفترة تقريبا تمرد من نوع آخر وفي جهة أخرى ، هو أشد خطرا على الوحدة من تمرد الملوك .. ذلك هو تمرد رجال الدين ، المعروف باسم « حركة الإصلاح الديني » !

لقد كان تمرد الملوك نزاعا سياسيا على السلطة الزمنية . البابا يدعى لنفسه السلطة الروحية والسلطة الزمنية كليهما ، والملوك يطالبون بالسلطة الزمنية أن تكون في أيديهم ، على أن تبقى السلطة الروحية وحدها في يد البابا .. وإلى هنا كان يمكن أن يستقل الملوك بالسلطة الزمنية ولكن تظل الوحدة الدينية قائمة ، ويظل السلطان الروحي للبابا قائما ، فتظل الدعامتان اللتان كونتا الوحدة الأوروبية قائمتين .

ولكن حركة الإصلاح الديني كانت موجهة إلى صميم العقيدة الجامعة ، وهي العقيدة الكاثوليكية التي لم تكن - حتى ذلك الحين - موضع نزاع في داخل أوروبا .

كان من نتيجة الطغيان الروحي للبابا ورجال دينه أن رغبت « كنائس » مختلفة في أوروبا أن تنفصل عن كنيسة روما وتستقل عنها ، متخذة في الغالب صورة خلاف مذهبي مع الكاثوليكية التي كانت تخضع لها كل الكنائس من قبل ، فانفصلت كنيسة بريطانيا وكنيسة ألمانيا وتبعته كنائس أخرى ، وحرص الملوك على السيطرة على تلك الحركات لا رغبة في الإصلاح الديني الذي كانت تنشق تلك الكنائس عن كنيسة روما باسمه ، ولا رغبة في تنمية روح التدين الحقيقية عند شعوبهم ، فليس شيء من ذلك في صالح السيطرة السياسية المطلقة التي ادعواها لأنفسهم حين طالبوا بفصل السلطة الزمنية عن السلطة الروحية ، ولكن لأن كل حركة تمرد على الكنيسة البابوية من أي نوع هي كسب لهم في معركتهم ضدها ، لأنها تضعفها وتضعف سلطاتها ، فيسهل عليهم التخلص من نفوذها .

يقول ولز في كتاب « معالم تاريخ الانسانية » (ج ٢ مقتطفات من ص ٩٨٩ - ٩٩١ من الترجمة العربية) :

« كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمامن الأمراء وذوى اليسار والاقنطار من الناس . وكذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها وثقتهم فيها . وكان من نتيجة انحطاط سلطانها الروحي على الطبقة الأولى أن جعلتهم ينكرون تدخلها في شئونهم ، وقيودها الخلقية عليهم ، ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم ،

وإدعاءها الحق في فرض الضرائب وفي حل ارتباطات الولاء .. لذلك كفوا عن احترام مالها من سلطان وممتلكات .

« ولقد ظل هذا الخروج عن الطاعة يصدر من الأمراء والحكام طوال العصور الوسطى بأكملها ، بيد أن الأمراء لم يشرعوا في التفكير جدياً في الانفصال عن المذهب الكاثوليكي وإقامة كنائس جزئية منفصلة إلا عندما أخذت الكنيسة في القرن السادس عشر تنضم علناً لخصمها القديم - الإمبراطور - عندما قدمت إليه التأييد وقبلت منه المساعدة في حملتها على الهراطقة . وماكانوا ليقدموا على ذلك أبداً لولا أنهم أيقنوا أن سيطرة الكنيسة على أذهان الجماهير قد ضعفت .

« ولما انفصلت إنجلترا واسكتلندا والسويد والنرويج والدانمارك ، وشمال ألمانيا وبوهيميا عن الارتباط بروما ، أظهر الأمراء وغيرهم من الوزراء أقصى بوادر القلق والاهتمام بحفظ زمام الحركة في أيديهم .. وذلك أنهم كانوا لايسمحون من الإصلاح إلا بالقدر الذي يمكنهم من فصم العلاقة مع روما . فأما ماتجاوز ذلك ، وأما أى انفصام خطر يتجه بالأفكار إلى تعاليم يسوع البدائية ، أو التفسير الفج المباشر للكتاب المقدس فكانوا يقاومونها .

والذي يهمننا الآن - بصدد موضوعنا الذي نعالجه - أن حركات الانفصال هذه - أياكان العنوان الذي قامت تحته - كانت هي البداية لظهور القوميات في أوروبا .

يقول الاستاد الندوى (ص ٢١١ - ٢١٢ من كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ») .

« والدين السماوي مهما تحرف وتغير لايعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ، ولايفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ، فجمعت النصرانية الأمم الأوروبية تحت لواء الدين ، وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة ، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فقلت العصبية القومية والنصرة الوطنية ، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة ، ولكن لما قام لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية رأى أن من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان بنى جنسه ، ونجح في عمله نجاحاً لا يستهان بقدره . وانهزمت الكنيسة اللاتينية في عاقبة الأمر فانقرط عقدها ، واستقلت الأمم ، وأصبحت لاتربطها رابطة ، ولم تزل كل يوم تزداد

استقلالاً في شئونها وتشتتاً ، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها في أوربا قويت العصبية القومية والوطنية . وكان الدين والقومية ككفتي ميزان ، كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى .. ومعلوم ان كفة الدين لم تزل تخف كل يوم ، ولم تزل كفة منافستها راجحة . وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الانجليزي المعروف لورد لوثرين - السفير البريطاني في أمريكا - في خطبته التي القاها في حفلة جامعة عليكرة في يناير سنة ١٩٢٨ م . »

وربما يعجب الإنسان لأول وهلة حين يعرف أن « حركة الإصلاح الديني » هذه كانت نابعة من مؤثرات إسلامية ، ومع ذلك لم تؤت الثمار الطيبة التي كان يمكن أن تنشأ عنها . ولكن العجب يزول حين يدرك الإنسان أن أوربا - وهي تقتبس جزئيات من الحياة الإسلامية - كانت ترفض الإسلام ذاته بدافع العصبية الصليبية . ومن ثم يضع الخير الجزئي الذي اقتبسته من الإسلام ! ولسنا هنا بصدد رصد المؤثرات الإسلامية التي أنتجت حركة الإصلاح الديني في أوربا . ويكفي أن نشير إلى كلمة القار والقرطبي التي نقلناها في الفصل السابق عن تأثر شباب النصارى في الأندلس بالوجود الإسلامي هناك ، إلى حد أنهم كانوا ينظرون بزرارية إلى كتب اللاهوت المسيحي ويعتبرونها غير جديرة بالالتفات . ولنا أن نتوقع أن تأثيرات مشابهة - ولو كانت على درجة أقل - قد سرت في أوربا عند احتكاكها بالمسلمين سواء في الحروب الصليبية أو في الاحتكاك السلمي حين بدأت أوربا ترسل مبعوثيها إلى مدارس المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وغيرها من البلاد الإسلامية ليتعلموا العلم ، حيث لم يكن هناك علم في الأرض إلا عند المسلمين .

وقد رأى النصارى عند احتكاكهم بالمسلمين عالماً مختلفاً تمام الاختلاف ، عالماً لا كنيسة فيه ولا « بابا » ولا رجال دين .. إنما فيه علماء يتفقهون في الدين ، وغالباً ما يتفقهون في علوم أخرى مع العلوم الدينية كالطب أو الفلك أو الرياضيات .. الخ .. بلا تعارض بين تفقهم هنا وهناك .. وليس لهم - مع تفقهم - كهانة على الناس ولا سلطان إلا توقيع العلماء من أجل علمهم فحسب ، ولا وساطة لهم بين الناس وبين ربهم الذي يعلمهم أنه لا وسطاء ولا شفعاء عنده ، وأنه ماعلى العباد إلا أن يدعوه ، فيستجيب لهم بلا وسيط :
« وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » « ١ »

« وإذا سألك عبادى عنى فإننى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » ١ »
عندئذ تحركت نفوس الذين يرغبون فى الإصلاح لمحاولة إصلاح مفاسد
الكنيسة المتراكمة خلال القرون ، وخلع السلطان الطاغى الذى فرضه البابا
ورجاله على الناس باسم الدين . ولكن محاولاتهم كانت كالرقعة فى الثوب الخلق
بسبب رفضهم الدخول فى الإسلام ، وسعيهم إلى الإصلاح بغير عدته الحقيقية
التي تؤدى إليه .. واستغل الملوك هذه الحركات لحسابهم الخاص كما أسلفنا ،
لا يريدون الإصلاح الدينى الحقيقى ، ولا يريدون للناس أن يستقيموا على دين
صحيح فيخرجوا على طاعتهم ! إنما رأوا فيها أداة تساعد على الانسلاخ من
سلطان البابا فاستغلوها فى هذه الحدود .

ولم يكن الملوك وحدهم وراء اللعبة ، إنما كان وراءها كذلك اليهود ،
المتربصون لأية فرصة تسنح لهم للانتقام من النصارى الذين اضطهدوهم
وآذلوهم على أساس أنهم تسببوا فى صلب السيد المسيح ٢ » . فلما قامت
حركات تؤذن بتفريق كلمة النصارى وتشيتت سلطان الكنيسة ، كان من
صالحهم ولاشك أن يحتضنوها ويوجهوها خلسة أو علانية لتوسيع الشقة بينها
وبين الكنيسة الأصلية ، وكل قُرقة - سواء قامت باسم الإصلاح أو بهدف
الإفساد - هى فى النهاية فى صالح اليهود مادامت لاتؤدى إلى إصلاح
حقيقى ! وإن صلة اليهود بالبروتستانتية بالذات لأمر معلوم لكل من يدرس
تاريخ تلك الحركة ، وإن أنكرت تلك الصلة هؤلاء وهؤلاء ! ٣ » .

هكذا كان مولد القوميات فى أوربا ..

حركات إصلاحية مبتورة غير ناضجة ، استغلها ذوو الأهواء لحسابهم
الخاص ، فأفسدوها وحولوها إلى اتجاه شرير ..

إن القومية فى ذاتها نزعة غير إنسانية ، لا يتوقع أن ينشأ منها إلا الشر .
إنها بادئ ذى بدء تحد عالم « الإنسان » ، فبدلاً من أن يكون أفقه العالم

١ . سورة البقرة [١٨٦]

٢ . يعلم المسلمون من القرآن أن المسيح عليه السلام لم يصلب ، لقوله تعالى « وما قتلوه وما صلبوه ولكن
شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه
وكان الله عزيزاً حكيماً » [سورة النساء ١٥٧ - ١٥٨] ولكن هذا لا يعفى اليهود فى الحقيقة من وصمة
الاجرام ، فقد ظلوا يحرضون الحاكم الرومانى بيلاطس حتى أصدر حكمه بصلب المسيح ، فإذا كان الله قد
رفعه إليه ولم يمكنهم من صلبه فإن جريمة التحريض باقية تصم اليهود بالكفر والإحرام .
٣ . كما تنكر ذلك فى الوقت الحاضر حركة « شهود يهوه » وتدعى أنها مسيحية ومى يهودية لحما ودما

والانسانية ، إذا أفقه هو قومه ، والرقعة الضئيلة من هذا العالم التى يسكن فيها قومه .. وبدلاً من أن تكون قيمه « معانى » رفيعة من التى تقاس بها رفعة الانسان ، ويتميز بها إنسان عن إنسان ، إذا قيمه هى مصالح قومه ، ومصالح هذه الرقعة الضئيلة من الأرض التى يسكن فيها قومه ، وهى مصالح مادية يتعارك عليها مع غيره من الهابطين مثله إلى دركه ، « كالمصالح » التى يتعارك عليها الحيوان ، من أرض وكلأ إذا كان من الضعاف أكلة العشب ، أو أرض وصيد إذا كان من الوحوش التى يفترس القوى منها الضعيف !

ثم إنها تقيم تجمعها على الأمور التى لا خيار فيها للإنسان .. من المولد فى أرض معينة ، والكلام بلغة الأرض التى ولد فيها ، والمصالح المادية القاهرة ، فى الوقت الذى تنبذ فيه كل الأمور التى يكون للإنسان فيها الخيار ، والتى يتفاضل فيها إنسان على إنسان بناء على ذلك الخيار .. تنبذ العقيدة فى الله ، التى يختار فيها الإنسان بين الايمان والكفر ، ويتفاضل الناس فيها على أساس الايمان والكفر .. وتنبذ القيم المنبثقة من العقيدة ، وهى نظافة المشاعر ونظافة السلوك مع الاصدقاء والأعداء سواء .. أى الصدق مع كل الناس ، والأمانة مع كل الناس ، والعدل مع كل الناس ، ثم الحب فى الله والبغض فى الله (لا للمصالح الأرضية) أى الحب لمن هو جدير بالحب بالفعل بالمقاييس الإنسانية الرفيعة ، والبغض لمن هو جدير بالبغض حقاً بتلك المقاييس .. وهى القيم التى يختار فيها الإنسان بين الالتزام وعدم الالتزام .. أى بين الرفعة والهبوط .. انظر فى مقابل ذلك هذه الآية الكريمة من القرآن :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم » ١ .

فكون الناس شعوباً وقبائل ، هذه حقيقة واقعة ملموسة ، وهى من إرادة الله لأنه هو الذى « جعل » الناس كذلك ، ولكن الله لم يشأ سبحانه أن ينحبس الناس فى داخل شعوبهم وقبائلهم وينغلقوا فى حدودها وهو ماتفعله القوميات والوطنيات بادية ذى بدء ، ولا أراد للناس أن يلتقوا من داخل الاطار الذى تشكله شعوبهم وقبائلهم فى عراك مع الشعوب والقبائل الأخرى ، وهو ماتفعله القوميات والوطنيات بعد ذلك أى بعد انحسارها فى داخل حدودها ، وبحثها عن « مصالحها القومية » !

١ . سورة الحجرات [١٣]

إنما جعل الله الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا .. يتعارفوا كما يتعارف بنو الانسان .. لأن الخطاب في الآية كان للناس : « يا أيها الناس .. » لا للوحوش ولا للأفاعى ولا للحشرات ! ثم قرر الله قاعدة التعارف التي تليق ببنى الإنسان حين يتعارفون ، وهى التقوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وهى الكلمة الجامعة لكل ما فى الحياة الإنسانية من معانى الخير ..

ولكن الجاهلية الأوربية ماكان لها أن تهتدى إلى هذه المعانى وهى ترفض أصل الهدى ومنبعه ، وهو الإسلام .. ولو اهتدت إلى شئ من تلك المعانى لاستصغرت الأفق الذى تدور فيه القومية والوطنية وأحست نحوه بالازدراء ! ففى اللحظة التى تحس أن الرباط الحقيقى الذى يربط « نفسا إنسانية » بنفس أخرى إنسانية ليس هو المصالح المادية ، ليس هو الأرض والكلأ والمتاع الحسى ، وليس هو الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها من الأرض والمولد واللسان والدم .. إنما هو « المشاعر » التى ميزت الإنسان من لحظة مولده عن سائر المخلوقات من دونه ، وهى العقيدة الواعية فى الله ، والقيم المتعلقة بالعقيدة من نظافة سلوكية مع كل الناس ، وحب فى الله وبغض فى الله .. فى اللحظة التى ترتفع فيها إلى ذلك المستوى ستحس على الفور بأن ماتمارسه القوميات والوطنيات هبوط لا يلىق « بالإنسان » ! ونكسة إلى الوراء فى ميزان « الإنسانية » وليس تقدما إلى الامام !

وعلى الرغم من أن هذه الجاهليات قد حاولت أن تستعير من الإسلام رقعة ترفع بها ثوبها الخلق ، فيما يسمى بحركة الإصلاح الدينى ، فإن رفضها الأساسى لأصل الهدى وقاعدته الحقيقية قد جعل هذه الرقعة تضيع ضياعا كاملا فى ذلك الثوب .. وسرعان ما بلت الرقعة كما بلت الثوب من قبل ، وألقى صاحب الثوب ثوبه البالى كله ، وخرج من الدين جملة ، واستبدل به قوميات علمانية لا صلة لها بالدين ، أقصى ما يتسع صدرها له أن تتسامح فى وجوده ، فلا تنبذ أصحابه ولا تطاردهم ، وإن كانت كثيرا ما يضيق صدرها به وبهم ، فتلفظهم لفظا وتلقى بهم خارج الساحة ، إن لم تفعل ما هو أسوأ من ذلك كثيرا ، فتلقيهم فى غياهب السجون !

على أن الشر الذى نجم من القوميات والوطنيات لم يكن شرا شخصا ينتهى أمره بهبوط أصحابه عن إنسانيتهم، وقبوعهم فى داخل حدودهم وهم متشحون بذلك الهبوط .

كلا ! ليس ذلك من « شيم » القوميات والوطنيات، إلا أن تكون في حالة من الضعف الشديد لاتقدر فيها على العدوان ! أما إن كانت في حالتها « الطبيعية » أى تملك وسائل القوة ، فإن أول ماتتجه إليه هو السعى إلى توسيع رقعتها على حساب قومية أخرى أضعف منها ، أو تظن فيها أنها أضعف منها ! كما يسعى الوحش إلى الصدام مع من يتوسم فيه الضعف ليفترسه !

يقول الاستاذ الندوى بعد النص الذى نقلناه :

« لما قضت حركة لوثر التى تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية انقسمت هذه القارة في إمارات شعبية مختلفة ، وأصبحت منازعاتها ومنافساتها خطرا خالدا على أمن العالم » « ١ » .

وبالفعل نشب صراع عنيف داخل أوربا بين هذه القوميات الناشئة بعضها وبعض .

ولنأخذ مثالا واحدا على ذلك مايعرف في التاريخ الأوربى بالحروب الإيطالية .

يقول الدكتور عبدالعزيز محمد الشناوى استاذ التاريخ الحديث بقسم الدراسات العليا بكلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر في كتابه « أوربا في مطلع العصور الحديثة » تحت عنوان « تعريف بمصطلح الحروب الإيطالية » : « الحروب الإيطالية هى حروب منقطعة نشبت بين فرنسا وإسبانيا خلال فترة استطالت خمسة وستين عاما (١٤٩٤ - ١٥٥٩) وكانت هذه الحروب مظهرا من مظاهر التنافس الدولى بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة والنفوذ في أوربا ، والرغبة في التوسع الإقليمى داخل القارة ، وقد بدأ هذا التنافس بين فرنسا وإسبانيا قبل ان يلفظ القرن الخامس عشر أنفاسه الأخيرة ، واقترن بصراع حربى مرير خاضته الدولتان ، وكانت شبه الجزيرة الإيطالية ميدانا لتصارع الجيوش الفرنسية والأسبانية خلال المراحل الأولى لهذه الحروب التى تطورت بعد ذلك إلى نضال أوربى اتسع نطاقه وانتقل إلى ميادين متعددة خارج شبه الجزيرة الإيطالية » « ٢ » .

ثم يقول بعد ذلك بصفحات تحت عنوان « الموقف الدولى عند نشوب الحروب الإيطالية » :

١ . ص ٢١٢ من كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

٢ . ص ١٥٤ من الكتاب المشار اليه .

« كانت فرنسا وأسبانيا قد تطلعتا إلى إيطاليا واستهدفنا تحقيق غرضين هما : التوسع الإقليمي بالاستيلاء على ممتلكات جديدة في شبه الجزيرة الإيطالية ، ثم السيطرة والتفوق السياسى فى القارة الأوروبية . كانت كل منهما تمثل الدولة الملكية الموحدة ذات الحكومة المركزية ، وكانت كل منهما أيضا ، (والقرن الخامس عشر يلفظ أنفاسه الأخيرة) ، فى طليعة الدول اللاتينية والكاثوليكية فى غرب أوربا ، وقد بلغت كلتاهما مستوى من التقدم الحضارى - الثقافى والمادى - يفوق كثيرا المستوى السائد فى شرقى أوربا ، وكان من المتوقع أن تركز هاتان الدولتان جهودهما لتنشيط حركة البعث الكشفية الجغرافية لتحقيق مزيد من النجاح بعد أن بدت تبشیر اكتشاف عالم جديد يتيح آفاقا جديدة رحيبة للتجارة والثراء والقوة ، ولكن بدد ملوك أسبانيا وفرنسا قواهم طوال فترة امتدت زهاء خمسة وستين عاما فى صراع مرير استهدف السيطرة على إيطاليا ، وأنزل بهم جميعا أضرارا فادحة ، وأذل بلادا متحضرة شهدت مولد النهضة الأوروبية فى فجر التاريخ الحديث .. وقد أدى هذا الصراع إلى أفول النهضة الإيطالية ، وخضوع إيطاليا لصرامة الحكم الأجنبى » « ١ »

ولنستعرض فقط بعض عناوين الكتاب ذات الدلالة على الدوامه التى اجتاحت أوربا فى ذلك الحين بسبب التنافسات القومية : أحلام شارل الثامن ملك فرنسا - مقدمات التدخل الفرنسى فى إيطاليا - الزحف الفرنسى الخاطف على إيطاليا - نجاح انسحاب الجيش الفرنسى من إيطاليا - فرنسا تكتسح دوقية ميلان - فرنسا تروم استكمال سيطرتها على إيطاليا - هزيمة ملكة نابولى - بابا جديد يكتل نصف أوربا ضد جمهورية البندقية - الحلف المقدس ضد فرنسا سنة ١٥١١ - انتصار الفرنسيين فى معركة رافنا سنة ١٥١٢ - توسيع قاعدة الحلف المقدس ضد فرنسا - انتكاس فرنسا عسكريا - انتقام البابا - أطماع البابا - عودة إلى سياسة الأحلاف العسكرية - القوات السويسرية تحسم الموقف لصالح حلف مالين - أطماع فرنسوا الأول ملك فرنسا - موقعة مارينيان ونتائجها - اشتداد المنافسة بين ملكى فرنسا وأسبانيا على منصب الإمبراطور - انتخاب ملك أسبانيا

إمبراطورا - عودة إلى الصدام المسلح - عدوان ثلاثى على فرنسا - معركة
بافى (٢٤ من فبراير ١٥٢٥) - الموقف الداخلى فى فرنسا بعد كارثة بافى -
حملة سنة ١٥٢٨ - فرنسا تحرز انتصارات خاطفة - جيش فرنسى جنوبى
إيطاليا يضطر إلى التسليم - هزيمة جيش فرنسى فى شمالى إيطاليا وأسرقائده
- اسباب التعجيل فى عقد الصلح - تجدد الحرب ومعركة سيريزول -
استمرار الصراع بين فرنسا وأسبانيا على عهد هنرى الثانى - الصدام
المسلح بين فرنسا والإمبراطورية - استمرار الصراع الحربى على عهد فيليب
الثانى - البابا يورط ملك فرنسا فى صدام مسلح ضد ملك أسبانيا الجديد -
فرنسا تتعرض لهزيمة محققة - فرنسا تنتزع ثغر كاليه من انجلترا - نهاية
الحروب الايطالية !!

وهذه كلها حرب واحدة من الحروب العديدة التى جرت فى أوربا على فترات
متتابعة .. وتكفى حروب نابليون الشهيرة مثلا ثانيا على تلك الروح الشريرة
التي اجتاحت أوربا منذ ظهرت فيها حمى القومية ، ولسنا فى حاجة إلى تتبع
تفصيلاتها فلن يزيدنا ذلك معرفة بتلك الروح التعسة ، كما أن قصة نابليون
بصفة عامة معروفة عند كثير من القراء ..

ثم جد عامل جديد زاد من حدة الصراع .. ذلك هو الثورة الصناعية ..
إن « أخلاق » الثورة الصناعية هى « الأخلاق » اليهودية - إن سميت
هذه أخلاقا - أى السعى إلى الربح بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة ، ولم
يكن غريبا أن تتخلق الثورة الصناعية بهذه الأخلاق الهابطة ، مذ كانت خاضعة
للسيطرة اليهودية منذ نشأتها ، كما بينا فى التمهيد الثانى من هذا الكتاب « ١ »
ولما كانت القوميات قد اتجهت أساسا إلى تحقيق « المصالح القومية »
بصرف النظر تماما عن « المصالح الإنسانية » .. وإذ كانت المصالح القومية
مصالح مادية بالدرجة الأولى .. فنستطيع أن نتصور الحال حين تدخل
القوميات بصراعاتها المادية فى دوامة الثورة الصناعية ، فإن هذه الصراعات
لا بد أن تتضاعف عدة مرات ، ولا بد أن تأخذ صورة الصراع المادى البحت ..
وكانت « الفلسفة » التى قام عليها هذا الصراع - إن سميت هذه فلسفة
- هى الفلسفة الرأسمالية المتذرعة بقول الداروينية : « البقاء

١٠ . راجع فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا » .

للأصلح « ١ » ولما كانت كل قومية تزعم لنفسها أنها هي الأجدر بالبقاء ،
وتريد أن تثبت ذلك بالفعل ، فلنا أن نتصور كيف يعنف الصراع بين القوميات
المختلفة ويصل إلى حد الوحشية ! وتموت في دوامة الصراع الوحشى كل المعانى
« الإنسانية » ويسمى هذا « تقدما » حسب التفسير الداروينى للحياة ،
والتفسير المادى للتاريخ !

ومع الثورة الصناعية الرأسمالية المتلبسة في ذات الوقت بالقومية ، اتسعت
رقعة « الاستعمار » .

لقد كان الاستعمار الأوروبى في منشئه دفعة صليبية بحتة .

فحين سقطت الأندلس في يد المسيحيين أصدر البابا قرارا بتقسيم أرض
« الكفار » - أى المسلمين ! - إلى دولتين هما أسبانيا والبرتغال « ٢ » ،
وقامت محاكم التفتيش بمجهد وحشى ضخم للقضاء على بقايا الإسلام في
الأندلس ، فاستخدمت أبشع وسائل التعذيب التى عرفها التاريخ لمطاردة
الإسلام في كل شبر من أرض ماضى يسمى أسبانيا والبرتغال ، حتى صارت
الهيمنة في جوف الليل مبررا لدخول رجال التفتيش أى بيت تسمع فيه ، لأنها
مظنة قراءة القرآن سرا في هدأة الليل ، وصار وجود حمام في أى بيت يدخله
رجال التفتيش مبررا لصب أفظع ألوان التعذيب على أهله ، لأن الحمامات
داخل البيوت كانت في ذلك الوقت خصيصة من خصائص المسلمين ! ومع ذلك
كله فقد استغرق الأمر مائتى عام حتى أفلح التعذيب الوحشى في تنصير الأندلس
كلها، ومحو كل أثر للإسلام فيها .

ولما تم « رسميا » إزالة الحكم الإسلامى - أى منذ ١٤٩٢م - شجع
البابا النصارى على متابعة المسلمين خارج الأندلس ، في حرب صليبية جديدة ،
بغية القضاء على الإسلام في كل الأرض . ولكن وجود الدولة العثمانية القوية في
الشرق ، التى أزالته الدولة البيزنطية باستيلائها على القسطنطينية عام
١٤٥٣م ، لم يكن يتيح للحرب الصليبية الجديدة أن تتجه إلى الشرق نحو بيت

١ . تفهم هذه العبارة خطأ على أن « الأصلح » هو الأصلح خلقا أو معنويا أو على أساس أية قيم رفيعة ،
والتعبير في لغته الأصلية لا يحمل شيئا من هذه المعانى فكلمة Fittest معناه « الأنسب » أى الذى يجعل
المواصفات التى تجعله يتفوق في الصراع الدائري الكائنات وتبين البنية لأن هذه المواصفات هى « الأنسب
للظروف البيئية المحيطة » فحين يحدث الجفاف مثلا يكون الكائن « الأنسب » هو السات أو الحيوان الذى
يحتل العطش أكثر من غيره . ولكنها حملت معنى « الأصلح » من إحياءات الداروينية العامة

٢ . كلمة البرتغال ، برتقال ، هى كلمة عربية فقد كان المسلمون يسمون هذه المنطقة أرض البرتقال .

المقدس كما اتجهت الحروب الصليبية الأولى الفاشلة ، فحاولت الدوران حول العالم الاسلامى من جهة الغرب ، وكانت البرتغال أول دولة استجابت للتحريض البابوى وسارعت إلى تنفيذه .

فى عام ١٤٩٧ قام فاسكوداجاما برحله الشهيرة التى كشف فيها للأوربيين طريق رأس الرجاء الصالح « ١ » وبمعاونة البحار العربى المسلم « ابن ماجد » وعلى هدى الخرائط الإسلامية للشواطىء الأفريقية والآسيوية « ٢ » ، دار فاسكوداجاما حول أفريقيا متجها إلى الشرق حتى وصل إلى جزر الهند الشرقية ، وهناك قال قولته الصليبية المشهورة ، التى تقطع بأن رحلته لم تكن « علمية » كما يدعى لها ، ولم تكن من أجل الكشف الجغرافى الخالص كما قيل عنها ، فقد قال عند وصوله إلى تلك الجزر « الآن طوقنا عنق الإسلام ، ولم يبق إلا جذب الحبل ليختنق فيموت ! »

وبعد ذلك تتابعت « الكشوف » وتتابع « الرحلات العلمية » التى مهدت للاستعمار الصليبي للعالم الإسلامى ..

ولما برزت القوميات فى أوربا تلبست بالروح الصليبية تجاه المسلمين ، فأصبح التنافس يتمثل - من بين ما يتمثل - فى التنافس على استعمار العالم الإسلامى، ومحاولة تنصير أهله عن طريق الحملات التبشيرية التى صاحبت الاستعمار الصليبي دائما ، مهددة له أحيانا ، ومسقطة إلى وجوده أحيانا ، ولكنها مصاحبة له على الدوام !

وحتى حين أصبحت تلك القوميات « علمانية » تماما لم يؤثر ذلك فى صليبية الحملات الاستعمارية ، ولا قللت مقدار ذرة من النشاط التبشيري المصاحب للاستعمار الصليبي .

وقد يبدو ذلك متناقضا لأول وهلة .. فكيف تهمل أوربا « الدين » فى حياتها الخاصة ، ثم تتذكره فى الهجوم على العالم الإسلامى ؟ الواقع أن الذى تذكرته أوربا - ولاتزال إلى هذه اللحظة تتذكره - تجاه العالم الإسلامى ليس هو « الروح الدينية » فقد انسلخت أوربا من دينها تماما .. إنما هو « الروح الصليبية » التى كانت ذات يوم متلبسة بالدين ، ولكنها ظلت على ضراوتها حتى

« ١ » كان هذا الطريق معروفا للمسلمين قبل ذلك بعدة قرون

« ٢ » كان لدى المسلمين خرائط دقيقة للشواطىء الآسيوية والأفريقية يستخدمونها لرحلاتهم التجارية من شواطىء الصين شرقا إلى بريطانيا غربا وشمالا .

بعد أن فقدت منبعها الأصلي ، وصارت شيئا قائما بذاته ، لا علاقة له بتدين أصحابه .. إنما هي كراهية وحقد ومقت للإسلام والمسلمين ، لا لحساب النصرانية كدين ، ولكن لحساب الأوروبيين بوصفهم أعداء للمسلمين .

يقول ليوبلدفائيس (محمد أسد) في كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » :
« إن الاصطدام العنيف الأول بين أوربة المتحدة من جانب وبين الإسلام من جانب آخر - أى الحروب الصليبية - يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوربية . في ذلك الحين أخذت هذه المدنية - وكانت لاتزال على اتصال بالكنيسة - تشق سبيلها بعد تلك القرون المظلمة التي تبعت انحلال رومية . حينذاك بدأت آداب أوربة ربيعاً منوراً جديداً . وكانت الفنون الجميلة قد بدأت بالاستيقاظ ببطء من سبات خلفته هجرات الغزو التي قام بها القوط والهون والآفاريون . ولقد استطاعت أوربا أن تتخلص من تلك الأحوال الخسنة في أوائل القرون الوسطى ، ثم اكتسبت وعياً ثقافياً جديداً ، وعن طريق ذلك الوعي كسبت أيضاً حساً مرهفاً . ولما كانت أوربة في وسط هذا المأزق الحرج حملتها الحروب الصليبية على ذلك اللقاء العدائى بالعالم الإسلامى .. إن الحروب الصليبية هي التي عينت في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو . ولقد كانت الحروب الصليبية في ذلك حاسمة لأنها حدثت في أثناء طفولة أوربة ، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها » ١ ، وكانت لاتزال في طور تشكلها . والشعوب كالأفراد ، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية ، وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً ، حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة ، والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة ، ثم يندر أن تزول آثارها تماماً . وهكذا كان شأن الحروب الصليبية ، فإنها أحدثت أثراً من أعماق الآثار وأبقاها في نفسية الشعب الأوربي . وإن الحمية الجاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوربة من قبل ولا تفق لها من بعد ..
« ومع هذا كله فإن أوربة قد استفادت كثيراً من هذا النزاع . إن النهضة » أو إحياء الفنون والعلوم الأوروبية باستمدادها الواسع من

١ . يقصد : أخذت تظهر

المصادر الإسلامية والعربية على الأخص ، كانت تعزى في الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب . لقد استفادت أوربة أكثر مما استفاد العالم الإسلامى ، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل : وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام ، بل كان الأمر على العكس ، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ، ثم استحالت عادة . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة « مسلم » ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوربى ، رجلا كان أم امرأة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى . ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوربة شيعا ، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها في وجه كل شيعة أخرى ، ولكن العداء للإسلام كان عاما فيها كلها . بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو ولكن العداء للإسلام استمر .

« ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق أن نفورا قديما مثل هذا - وقد كان دينيا في أساسه وممكنا في زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية - يستمر في أوربة في زمن ليس الشعور الدينى فيه إلا قضية من قضايا الماضى !

« ليست مثل هذه العضلات موضع استغراب أبدا ، فإنه من المشهور في علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة - التى كانت من قبل تدور حول هذه الاعتقادات المهجورة - في قوتها تتحدى كل تعليل عقلى في جميع أدوار ذلك الإنسان ، وهذه حال الأوربيين مع الإسلام . فعلى الرغم من أن الشعور الدينى الذى كان السبب في النفور من الإسلام قد أخلى مكانه في هذه الأثناء لاستشراف على الحياة أكثر مادية ، فإن النفور القديم نفسه قد بقى عنصرا من الوعى الباطنى في عقول الأوربيين . وأما درجة هذا النفور فإنها تختلف بلاشك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لاريب فيه . إن روح الحروب الصليبية - في شكل مصغر على كل حال - مازال يتسكع فوق أوربة ، ولا تزال مدنياتها تقف من العالم الإسلامى موقفا يحمل آثارا واضحة من ذلك الشبح المستميت في القتال » ١ .

١ . الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ ، مقتطفات من ص ٥٢ - ٥٩ .

ويقول « ولفرد كانتول سميث » المستشرق الكندي المعاصر في كتاب « الاسلام في التاريخ الحديث Islam in Modern History :
« إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية ، كان النبي (يقصد الإسلام)
هو التحدي الحقيقي الوحيد للحضارة الغربية الذي واجهته في تاريخها كله ،
وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدي حقيقيا ، وكم كان يبدو في يوم من
الأيام تهديدا خطيرا حقا .

« لقد كان الهجوم مباشرا ، في كلا الميدانين الحربى والعقيدى ، وكان قويا
جدا . ولاشك أنه بالنسبة للمسلمين يبدو أنه الحق والصواب ، والأمر الطبيعى
المحتوم ، أن يمتد الإسلام كما امتد . ولكن الأمر كان مختلفا بالنسبة للشخص
الواقع خارج نطاق الإسلام ، الذى لم يكن يرى فيه شيئا من ذلك كله ، والذى
كان التوسع الإسلامى يقع على حسابه . وقد كان هذا التوسع إلى حد كبير على
حساب الغرب . فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة « أجمل مقاطعات
الإمبراطورية الرومانية » لتسلمها منها القوة الجديدة ، وكانت في خطر من
ضياغ الإمبراطورية بأكملها . وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع - تماما
- في يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا ، فقد استمر الضغط عليها
فترة طويلة . وفي موجة التوسع الإسلامى الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل
سنة ١٤٥٣ ، وفي قلب أوروبا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا سنة ١٥٢٩
بينما ظل الزحف الذى بدا عنيدا لايلين ، مستمرا في طريقه . وحدث ذلك مرة
أخرى في وقت قريب لم يتناول عليه العهد في سنة ١٦٨٣ ، وإن وقوع
تشييكوسلوفاكيا في قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨ لم يكن له قط في العصر الحديث
ذلك الفزع في نفوس الغرب المتهيب ، كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد
قرن ، من تلك القوة الضخمة المهددة التى كان لاتكف ولا تهدأ ويتكرر انتصارها
مرة بعد مرة .

« وكما هو الأمر مع الشيوعية كذلك كان التهديد والانتصارات
(الإسلامية) قائمين في عالم القيم والأفكار أيضا . فقد كان الهجوم الإسلامى
موجها إلى عالم النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع .. وقد عملت العقيدة
الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسى للعقيدة المسيحية ، التى كانت
بالنسبة لأوروبا العقيدة السامية التى أخذت في بقاء تبني حولها حضارتها ..
وكان التهديد الإسلامى موجها بقوة وعنف وكان ناجحا ومكتسحا في نصف

العالم المسيحي تقريبا .. والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التى انتزعت من بين المسيحيين أناسا دخلوا فى الدين الجديد وأمنوا به .. بعشرات الملايين . وهو القوة الوحيدة التى أعلنت أن العقيدة المسيحية ليست مزيفة فحسب ، بل إنها تدعو إلى التقزز والنفور .

« وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون - حتى أولئك الذين لا يدركون إطلاقا أنهم اشتبكوا فى مثل هذه الأمور - قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيسى المتطاوّل الأمد .. أو على آثار الحروب الصليبية التى استغرقت قرنين من الحرب « العقيدية » العدوانية المريعة » ١ «
وفى هذا وذاك تفسير لهذه الظاهرة التى تبدو غريبة لأول وهلة ، وهى أن أوربا قد أهملت الدين فى حياتها ، ولكنها لم تنس الروح الصليبية التى أججت ظروف الحرب والصراع فى نفوسهم من قديم .

وحين قامت الثورة الصناعية اتسم « الاستعمار » عامة بالصبغة الاقتصادية لأنه كان بحثا عن الموارد الرخيصة من جهة ، والأسواق المضمونة لتوزيع فائض الإنتاج من جهة أخرى .. وشمل الاستعمار كل أرض مستضعفة سواء كانت أرضا إسلامية أو غير إسلامية . ومع ذلك لم ينس الصليبيون صليبيتهم إزاء المسلمين . فحيثما كانت الأرض المستعمرة غير إسلامية اكتفى الاستعمار بنهب الخيرات وتوزيع فائض الإنتاج .. أما حيث تكون الأرض إسلامية فبالعناية الأولى موجهة لمحو الإسلام عن طريق التبشير والغزو الفكرى ومناهج التعليم التى تفرض على المسلمين ووسائل الإعلام التى توجه إليهم . ثم يأتى بعد ذلك نهب الخيرات وتوزيع فائض الإنتاج . وخير مثال لذلك استعمار البريطانيين للهند . فقد كان أول عمل لهم هناك هو إزالة الحكم الإسلامى فى الهند . ثم تركوا الهنود لمعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم لم يتعرضوا لهم بشيء ، ووجهت الحرب الضارية ضد المسلمين وحدهم ، فصودرت الأوقاف المرصودة للتعليم الإسلامى فجفت منابعه ، وحارب المسلمون فى الوظائف العامة وأعطيت للوثنيين الهنود ، ووجه الغزو الفكرى ضد المسلمين لإخراجهم من حقيقة الإسلام !

وايا ماكان الامر فقد ارتبطت القوميات في اوربا بالاستعمار بكل سفالاته ، وكل بشاعاته ، ونشبت الحروب بين القوميات المختلفة أبشع ماتكون ... وصارت نهاية الأمر حروبا عالمية ، تشترك فيها كل القوميات ، ويصلاها العالم كله بذنب وبغير ذنب .

في الحرب الكبرى الأولى التي استمرت من ١٩١٤ - ١٩١٨ م قتل عشرة ملايين شاب . غير الذين شوهوا أو أصيبوا إصابات تقعدهم عن العمل . واستخدمت الغازات السامة والقنابل المحرقة وغيرها من الوسائل الإجرامية ، التي لم تجد أوربا في ضميرها حرجا من إستخدامها ، لأن الغاية تبرر الوسيلة . ولأن المصالح القومية مقدمة على كل اعتبار !

صحيح انه كان هناك تكتل بين مجموعة من القوميات سمت نفسها « الحلفاء » لأنها - في لحظة من اللحظات - وجدت أن مصالحها القومية - رغم اختلافها فيما بينها وتنافسها - تقتضى التجمع لتحقيق هدف مشترك .. وكان الهدف في الحرب الأولى مزدوجا : القضاء على الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية - لأمر يراد « ١ » - والقضاء على القومية الألمانية التي تطالب بأن يكون لها مستعمرات كما لبقية القوميات مستعمرات .. !!

وربما يظن الإنسان لأول وهلة أن أوربا قد فطنت إلى حماقة التجمع القومى ومايؤدى إليه من فساد في الأرض وتقطيع للروابط الإنسانية فأنشأت تجمعا جديدا على أساس المبادئ لا على أساس القوميات .. أو هكذا قالوا هم في دعاياتهم ! ولكن الحقيقة أن التجمع الجديد كان هو أيضا تجمع مصالح يتستر وراء المبادئ ، ويريد لمجموعة من الشعوب ، أو مجموعة من القوميات على الأصح ، أن يكون لها السيطرة على العالم ، وحدها من دون العالمين .. لأمر يراد !

وتم - على أى حال - لهذا التجمع ماأريد له من السيطرة في الأرض مايقرب من عشرين عاما ، حتى قامت الحرب العظمى الثانية ، التي استمرت من عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٤٥ م ، وقتل فيها أربعون مليوناً من الشباب ، غير المدن التي دمرت ، والمدنيين الذين قتلوا في الغارات الجوية .. وغير قنبلتى هيروشىما ونجازاكى الذريتين ، اللتين قضتا على الوجود الحى كله من نبات

١٠ . سياىى بيان هذا الامر فى سياىى الحديث .

وحیوان وإنسان فی مساحة واسعة من الأرض ، وماتزال تولد أجنة مشوهة من
لثر الاشعاع الذرى السام الذى انتشر من القنبلیتین فی أماكن بعيدة عن مكان
الانفجار ، بعد ما یقرب من أربعین عاما من الحدث البربرى الفظیع ، الذى
سمح به الضمیر الأمريكى بلا تحرج ولا تأثم تأمینا « لمصالح » ذلك التجمع
الشریر ! وماكان التجمع الآخر الذى انهزم بأقل شرا ولاخبثا ولا انعدام
إنسانية عن التجمع الذى انتصر ! فلو أن هتلر سبق إلى استكمال القنبلة الذرية
قبل أن یداهمه « الحلفاء » ویسرقوا « العلماء » الذين يعملون فی صنعها ،
لكان قمینا أن یفعل بها مثل ما فعلوا أو اشد !

وبرز من الحرب الثانية « معسكران » مختلفان ، هما المعسكر الشیوعى
والمعسكر الرأسمالى ، یبدو فی ظاهر الأمر أنهما تجمعان قائمان على « مبادئ »
مختلفة .. خاصة وأن الشیوعية على الأقل تحمل مبادئ محددة ، وتحمل دعوة
عالمية لنشر هذه المبادئ فی الأرض .

وقد مر بنا الرأى فی هذا الاختلاف وهل هو فی الجوهر الحقیقى أم فی القشرة
الاقتصادية والسیاسية والاجتماعية .. ولكن هذا لیس معرض حديثنا هنا ..
إنما نتكلم عن « المبادئ الإنسانية » التى تقوم عليها هذه التجمعات أو تزعم
أنها تقوم عليها !

تعلن الشیوعية - دائما - أن الدين لايجوز أن یكون أساسا للتجمع !
إنما هو من الآثار البالية التى أحدثتها عصور الرق والإقطاع والرأسمالية ..
وأن تصحیح الأوضاع الذى تحدثه الشیوعية یقضى على تلك الآثار البالية ،
ویقیم مجتمعا إنسانیا « حرا » لا تقوم فيه التفرقة على أساس الدين .. وطالما
أبدت رأیها صریحا فی استنكار رغبة المسلمين فی شبة القارة الهندية فی إنشاء
دولة « إسلامية » وقالت إن هذه اتجاهات رجعية لا ینبغى تشجيعها .

ثم قامت الدولة اليهودية عام ١٩٤٨م ، على أساس الدين . فهى من
منشئها ، أو من منشأ الدعاية لها وطن « لليهود » ودولة « لليهود » وتجمع
« لليهود » .

وفی منتصف الليل ، بتوقيت المنطقة التى أقيمت فیها الدولة اليهودية ،
أعلنت أمريكا اعترافها بالدولة ، وبعد عشر دقائق اعترفت روسيا ! روسيا
القائمة على أساس « المبادئ » التى تنكر قیام أى تجمع على أساس الدين !

ومنذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة ، تجتمع أمريكا الرأسمالية الإمبريالية
التوسعية الرجعية ، وروسيا الشيوعية العقائدية التقدمية على الوقوف في صف
إسرائيل وعدوانها المستمر الذى لم ينقطع ، ضد العرب والمسلمين !
ثم تختصم روسيا وأمريكا في كل شيء عدا ذلك ، ففى أى شيء تختصمان ؟
على إقامة الحق والعدل في الأرض ؟

على تقرير حرية الشعوب في اختيار مصيرها ؟
كذلك تقول الدعاية المستمرة من الجانبين .. ولكن ماهي حقيقة الواقع ؟
ما الذى يحدث حين تمس المصالح القومية لأمريكا أولروسيا .. أوقف حائل
دون « التوسع » و « السيطرة » و « السلطان » ؟

إنهما تختصمان على توزيع « مناطق النفوذ » في العالم .. أى تختصمان على
توزيع « المستضعفين في الأرض » هل يكونون في هذا المعسكر أم ذاك المعسكر ،
وكلثاهما لاتسمح لأحد من « الخاضعين لنفوذها » أن يتحرر ويقرر لنفسه
مصيره .

كيف فعلت روسيا في المجر حين أرادت الأخيرة أن تختار مصيرها بنفسها
وترجع عن الشيوعية عام ١٩٥٦م ؟ كيف هدمت الدبابات الروسية البيوت على
أصحابها تأديبا لهم على تجرؤهم على هذا العمل الشنيع الذى ارتكبوه ؟

وكيف فعلت حين أراد العمال في بولندا ، الذين تزعم الشيوعية أنها قامت
لتحريرهم ورد الحقوق المغتصبة إليهم .. كيف فعلت حين أراد هؤلاء العمال أن
يعلنوا أن الشيوعية لم تحقق مطالبهم ، ولم ترد إليهم إنسانياتهم الضائعة ،
وأنهم في ظلها مقهورون مظلومون مسحقون ، وأن لهم « مطالب » يريدون
تحقيقها في مقدمتها ممارسة الحرية ، والمشاركة في إدارة دفة الأمور ؟

أما أمريكا ودورها الاستعماري ، ودور أجهزتها الخفية في نشر الفساد في
الأرض عن طريق الانقلابات العسكرية ، التى يختار أصحابها من غلاظ الأكباد
قساة القلوب المرضى بجنون العظمة المتعطشين إلى السلطة لينفذوا لها
مخططاتها في إذلال الشعوب وجرها إلى العبودية .. فأمر غنى عن البيان . وإن
كان الذى يغيب عن أذهان كثير من الناس مدارة كل من المعسكرين على عميل
المعسكر الآخر ومدته بالمساعدة حين يكون دوره هو تذبيح المسلمين والقضاء على
حركات البعث الإسلامى !

وتلك هى التجمعات التى قامت فى العالم على اساس قومى .. وإن تسترت
أحيانا وراء مختلف العناوين !

إلى هنا كنا نتحدث عن القوميات والوطنيات فى أوروبا ، كيف نشأت وكيف
تطورت خلال التاريخ الحديث والمعاصر ، وما كان من أثارها الشريرة فى حياة
العالم كله ، حين صارت « المصالح القومية » هى الأصل المعترف به فى حياة
الناس ، على حساب القيم والمبادئ ، وكل معنى من معانى « الإنسانية » عرفته
البشرية فى يوم من الأيام ..

ولكن هناك جانبا من الموضوع مازال فى حاجة إلى بيان .. ذلك هو « تصدير »
دعوى القومية والوطنية إلى الشرق الإسلامى !

ولن نتحدث عنا عن « العدوى » التى جاءت إلى العالم الإسلامى من أوروبا
حين ضعف المسلمون وتخلوا عن مقومات حياتهم الأصيلة ، وانبهروا بما عند
الغرب ، وتابعوه فى انحرافاته ظنا منهم أن هذا هو الطريق الذى يخلصهم من
ضعفهم وتخلفهم .. فذلك مبحث آخر نعالجه فى غير هذا الكتاب « ١ » ولكن
نتحدث عن التصدير المتعمد لهذه التيارات من أوروبا إلى العالم الإسلامى .
حين وقع لويس التاسع فى الأسر فى الحروب الصليبية الأولى وسجن فى سجن
المنصورة أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، جعل يتفكر فى سجنه ويتدبر ..
فلما فك أسره وعاد إلى قومه حدثهم بما هداه إليه فكره ، فقال لهم : إن التغلب
على المسلمين بالسلاح وحده أمر غير ممكن .. وإن على أوروبا إذا أرادت التغلب
على المسلمين أن تحاربهم من داخل نفوسهم ، وأن تقتلع العقيدة الإسلامية من
قلوبهم .. فهذا هو الطريق !

ووعى الصليبيون المحدثون نصيحة الصليبي القديم حين بدأوا جولتهم
الصليبية الثانية ضد العالم الإسلامى . فجاءوا - لا بالسلاح وحده كما
جاؤوا فى المرة الأولى - ولكن بما هو أخطر منه كثيرا وأشد فاعلية ، ذلك هو
« الغزو الفكرى » الذى يهدف إلى اقتلاع العقيدة من قلوب المسلمين ،
وتحويلهم عن صراط الله المستقيم إلى سبيل الشيطان :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن

سبيله » ٢

يقول شاتلييه في مقدمة كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » (تعريب محب الدين الخطيب) :

« ولاشك فى أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزعزع العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ولا يتم ذلك إلا ببيت الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوروبية . فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحثك الإسلام بصحف أوروبا ، وتتمهد السبيل لتقدم إسلامى مادى ، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها » .

وقد كانت دعاوى القومية والوطنية المصدرة عن عمد إلى العالم الإسلامى ، من بين وسائل الغزو الفكرى الذى استخدمه الصليبيون المحدثون فى « غزو العالم الإسلامى » كما سسمى « شاتلييه » كتابه السالف الذكر^١ .

والهدف من ذلك واضح ولاشك .. قطالما كان المسلمون « مسلمين » فسيصعب على الغزاة ابتلاعهم مهما كانوا عليه من الضعف والتخلف . ذلك أن العقيدة الإسلامية عقيدة جهاد . وقد ذاق الفرنسيون فى الشمال الأفريقى وذاق الإنجليز فى الهند وغيرها من أقطار أفريقيا وآسيا من عقيدة الجهاد هذه مالا يزال عالقا بنفوسهم برغم كل الضعف والتخلف الذى كان عليه المسلمون . فاقتلاع هذه العقيدة واستبدال غيرها بها أمر ذو أهمية بالغة ، سواء من وجهة النظر الصليبية أو من وجهة النظر الاستعمارية البحتة ، فالمسلمون لا يقبلون الاستعمار ولا يرضخون له طالما كانوا « مسلمين » . فإذا اجتمعت وجهة النظر الصليبية ووجهة النظر الاستعمارية تجاه الاسلام - كما هو واقع الأمر - كانت الرغبة فى اقتلاع هذه العقيدة أكد ، والعمل على استبدال غيرها بها أعنف وأشد .

وبالفعل بذرت بذور الوطنية أولا فى العالم الإسلامى . ثم جاء دور القومية بعد ذلك (لظروف سنيبينها بعد قليل) فحققت أكثر من هدف فى وقت واحد .. كان الهدف الأول هو تحويل حركات الجهاد الإسلامى ضد الاستعمار الصليبي إلى حركات وطنية ، كما فعل سعد زغلول فى مصر وغيره من الزعماء « الوطنيين » على اتساع العالم الإسلامى . والحركة الوطنية تفترق عن حركة

١ . الكتاب فى أصله الفرنسى يسمى « La Conquete du Monde Musulman » أى غزو العالم الإسلامى ، ولكن العرب اختار له اسم « الغارة على العالم الإسلامى » .

الجهاد الإسلامى بادئ ذى بدء فى أنها لا تنظر إلى « العدو » على أنه « صليبي مستعمر » ولكن على أنه « مستعمر » فقط .. و الفرق واضح فى درجة العداء وطريقة المجاهدة بين أن يكون العدو منظورا إليه على حقيقته ، وبين أن يكون مغلفا برداء الاستعمار فحسب .

والهدف الثانى هو تحويل حركات الجهاد الإسلامى إلى حركات « سياسية » عن طريق تحويلها إلى حركات وطنية .. فالعدو غير قادر على « التفاهم » مع الحركات الإسلامية : لأنه لا سبيل إلى التفاهم معها فى الحقيقة إلا بإخراج ذلك العدو خارج البلاد ، ومن ثم فلا سبيل إلى استعمال « السياسة » من جانب العدو . أما الحركات الوطنية فالتفاهم معها سهل وممكن ! وعود من المستعمر بالجلاء ، ويأتى الوقت الموعد فيتذرع المستعمر بشتى المعاذير لتأجيل جلائه ، ويعطى وعودا جديدة يعتذر عنها بدورها إذا جاء دورها .. والسياسة « الوطنيون » يغضبون - أو يتظاهرون بالغضب لإرضاء الجماهير ! - والجماهير تثور ثورة صاخبة - لكنها فارغة - سرعان ما تنطفئ بعد الاستماع إلى خطبة رنانة من الزعيم الوطنى يعد فيها بأنه لن يفرط فى شبر من الأرض ، ولن يرضى بغير « الجلاء التام أو الموت الزؤام » ! « ١ » وبين هذا وذاك تجرى « مفاوضات » بين السياسة والاستعمار تنتهى إلى أشياء تافهة يلعب بها السياسة على عقول الجماهير فيوهمونها أنها « مكاسب وطنية » وقد تنتهى إلى غير شيء على الإطلاق ، ومع ذلك يقول زعيم يعتبر من كبار الزعماء الوطنيين فى العالم الإسلامى فى العصر الحديث وهو سعد زغلول : « خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الانجليز ! » ويقول : « الإنجليز خصوم شرفاء معقولون » !! وهو شيء ما كان يمكن أن يحدث لو بقيت حركة الجهاد الإسلامية كما كانت فى مبدئها ، ولم تتحول إلى حركة وطنية على يد الزعيم الكبير !

والهدف الثالث هو تيسير عملية « التغريب » من خلال تحويل حركة الجهاد الإسلامى إلى حركة وطنية سياسية .. فحين تقوم حركة الجهاد على أساس إسلامى يكون الباب موصدا تماما بين المجاهدين وعدوهم ، لا يأخذون شيئا من فكره ولا عقائده ولا تقاليده ولا أنماط سلوكه المنافية للإسلام . أما حين يتحول الجهاد إلى حركة وطنية سياسية فالحاجز أرق . يسمح بالأخذ .. ومعاذير الأخذ

١ . « كانت تلك من هتافات الحركة الوطنية فى مصر »

كثيرة ، فقد قال « أستاذ الجيل » لطفى السيد : إن الانجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر . وليس السبيل أن نحاربهم ، بل السبيل أن نتعلم منهم ، ثم نتفاهم معهم !! « ١ »

وأى شئ تعلم المصريون من الإنجليز ؟ هل تعلموا منهم جلدتهم على العمل وانضباطهم فيه ؟ أم تعلموا منهم السكر والعريضة وفساد الأخلاق ؟ إنما يتعلم الأولى « المجاهد » لأن المجاهد يتعلم من عدوه فضائله إن كانت له فضائل ، أما « السياسى » المتسبب فالرذائل أقرب إلى قلبه لأنها سهلة لا تكلف جهدا ولا تحتاج إلى مجاهدة !

وعملية التغريب - أو الغزو الفكرى - كانت أهم ما يحرص عليه الصليبي المستعمر .. فحين يفقد المسلم شخصيته الإسلامية فإنه يفقد في الحقيقة نقطة ارتكازه .. ومن ثم فإنه يتهاوى ويضيع .

حين يظل المسلم مسلما فإنه يمكن أن « يستعير » من العالم حوله ما يحس أنه في حاجة إليه ، دون أن يفقد شخصيته ، ودون أن يفقد استعلاءه الذى يستمد من الإيمان .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » « ٢ »

وذلك ما فعله المسلمون الأوائل حين بدأوا يتشئون حضارتهم ، فقد كانوا في حاجة إلى أشياء لاسابقة لهم بها وهى عند عدوهم - البيزنطى أو الفارسى - فلم يجدوا في أنفسهم حرجا على الإطلاق أن يأخذوا ما يحتاجون إليه من هنا ومن هناك ، ولكن في استعلاء المؤمن الواثق المطمئن . فأخذوا ما رأوا أنه نافع لهم ، وأعرضوا عن كثير مما وجدوه عند أعدائهم، لأنهم نظروا إليه بعين المسلم فأنكروه . وهذا يفسر لنا لماذا أخذوا العلوم الإغريقية ولم يأخذوا الأساطير !

أما حين « يستغرب » المسلم فإنه يفقد - أول ما يفقد - إيمانه بأنه هو الأعلى بعقيدته الصحيحة ونظامه الربانى وأخلاقياته المتطهرة وقياسه كل شئ بالمقياس الربانى .. وينظر إلى عدوه نظرة الإكبار والإجلال ، فينقل عنه كل شئ بلاتحيز ، بل ينقل عنه ما يضر وما يفسد في حين يعجز عن نقل ما ينفع ، لأنه

١ . لا يمكن لمسلم ، فضلا عن مسلم مجاهد أن يقول عن عدو دينه إنه ول أمره مهما تغلب الأخير عليه في معركة السلاح وقهره . أما الزعيم السياسى فما أيسر عليه أن يقول ذلك .
٢ . سورة آل عمران [١٣٩]

« واهن » بعد فقدانه الإيمان ، والواهن لا يقدر على بذل الجهد الذى يحتاج إليه

تعلم النافع من الأمور - « ١ »

لذلك لم يتعلم « المستغربون » من الغربيين قط قدرتهم الفائقة على
« التنظيم » ولا جلدتهم الشديد على « العمل » ولا التزامهم الشديد
« بالانضباط » فى كل شئ . إنما تعلموا اللهو والعبث والمجون والرتانة بلغة
الأعاجم .. وتعلموا - أسوأ من ذلك كله - التباهى بالانسلاخ من الدين
والعرض والأخلاق الدينية المتطهرة من الرجس .

وكان ذلك هو التنفيذ الدقيق لوصية الصليبي القديم للصليبيين المحدثين .

أما القومية العربية فقد كان لها دور أخيب وأشد ..

لقد كنا حتى اللحظة نتكلم عن الصليبي المستعمر ..

ولكن دخل معه - على نفس خطه - عدو آخر ، هو اليهودى المستعمر ،
لغرض آخر خاص به ، ولكنه يلتقى معه فى النهاية فى بغض الإسلام ، والرغبة فى
القضاء على الكيان الإسلامى .

فى عام ١٨٩٧م عقد هرتزل - أبو الصهيونية كما يسمونه - مؤتمره
الشهير فى مدينة « بال » بسويسرا ، ذلك المؤتمر الذى قرر فيه زعماء اليهود
ضرورة إنشاء الدولة اليهودية خلال خمسين عاما فى فلسطين .

وذهب هرتزل إلى السلطان المسلم عبد الحميد يعرض عليه كل المغريات التى
يطمع فيها حاكم أرضى . ذهب يعرض عليه إنعاش الاقتصاد العثمانى وكان
متدهورا بسبب ماتفقه الدولة لإخماد المناوشات المستمرة التى يقوم بها
الاعداء لإحراج الدولة العثمانية أو « الرجل المريض » كما أطلقوا عليها فى
أواخر أيامها . ويعرض عليه قروضا طويلة الأجل ويعرض عليه التوسط لدى
روسيا وبريطانيا بالكف عن إثارة الأقليات ، فقد كانت روسيا تتعهد بإثارة
الأقليات الأرثوذكسية وخاصة الأرمن وكانت بريطانيا تتكفل بإثارة بقية
الأقليات ! وكان ذلك من أشد ما يزعج الدولة ويعرض ميزانيتها للخراب .. وفى

١ . يقول القسيس المبشر « زويمر » الذى كان له نشاط تبشيري ضخم فى العالم العربى فيما ينقل عنه كتاب
« الغارة على العالم الإسلامى » فى خطاب للمبشرين . « إنكم أعددتُمْ نشئا (فى بلاد المسلمين) لا يعرف الصلوة
بالله ، ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية ، وبالتالى جاء النشء
الإسلامى طبقا لما اراده الاستعمار المسيحى لايهتم بالعظام ويحب الراحة والكسل ، ولا يصرف همه إلا فى
الشهوات . فإذا تعلم للشهوات ، وإذا جمع المال للشهوات ، وإن تبوأ اسمى المراكز فى سبيل الشهوات
يجود بكل شئ » .

مقابل هذا العرض السخى كله طلب هرتزل منح اليهود وطناً قومياً لهم في فلسطين .

وكان من المتوقع من أى رجل يحرص على الدنيا ، ويحرص على السلطان المستبد « ١ » أن يتقبل العرض ويستجيب للمغريات . ولكن السلطان المسلم رفض ذلك كله ، وقال لهرتزل قولته الشهيرة « إن هذه ليست أرض ولكنها أرض المسلمين ، وقد رووها بدمائهم ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها » ٢ . عندئذ وقعت الواقعة ، ودبر اليهود لخلع السلطان عبد الحميد ، ثم لإزالة الخلافة كلها على يد اليهودى المتسلم كمال أتاتورك . وكانت الوسيلة لكل ذلك هى « القومية » .

فاليهود المتسلمون ، المعروفون بيهود الدونما ، الذين هاجروا من المغرب واستوطنوا البلقان ، كانوا هم المنظمين الحقيقيين لحزب الاتحاد والترقى ، الذى نادى بالقومية الطورانية (وهى قومية الأتراك فى جاهليتهم قبل دخولهم فى الإسلام) ورفع شعار الذئب الأغبر (وهو معبود الأتراك فى جاهليتهم) كما نادى بضرورة « تترك » الدولة ، أى جعل المناصب فيها وقفا على الأتراك وحدهم . ومعنى ذلك - كما حدث بالفعل - أن يحس « العرب » أنهم مظلومون فى ظل الحكم التركى وأنهم مهضومو الحقوق .. عندئذ تلقفتهم الصليبية - حليفة اليهودية فى الحرب ضد الإسلام - فأرسلت إليهم « لورنس » ليؤجج فيهم روح « القومية العربية » ردا على القومية الطورانية .. ويؤلف « الثورة العربية الكبرى » ضد دولة الخلافة ! وببساطة تم الأمر .. فى غفلة من « المسلمين » !

يقول التاريخ إن أول من نادى بالقومية العربية هم نصارى لبنان وسوريا وانضم إليهم « المسلمون » الذين تربوا فى مدارس التبشير .. ثم انضم إليهم المستغفلون من المسلمين الذين لم يجدوا تعارضا بين الإسلام والعروبة على أساس أن العروبة هى عصب الإسلام، وأن العرب هم الذين حملوا الإسلام إلى كل البشرية !

والنصارى فى لبنان وسوريا كانوا جزءا من أدوات أوروبا لإزعاج « الرجل المريض » وإرباكه ، بغية تسهيل القضاء عليه وتوزيع تركته بين المتربصين

١ . هكذا تصف الدعاية المغرضة السلطان المسلم
٢ . وذلك هو سر كراهية اليهود له وتشجيعهم به ونشر الدعايات المغرضة ضده .

الذين ينتظرون الساعة « العظمى » التى يقضون فيها على بقايا الإسلام . وماكان نصارى لبنان وسوريا فى تلك الفترة يجروون أن يخرجوا على الحكم الإسلامى علانية وبالاسم الصريح للخروج ، فقد كانوا أقلية محوطة بأكثرية مسلمة ، تدين بالولاء القلبى والسياسى لدولة الخلافة ، ولا تتصور لنفسها حكومة غير الحكومة الإسلامية . فلم يكن فى وسع أولئك النصارى أن يقولوا : لانريد حكم الإسلام علينا ولانريد حكم الخلافة الإسلامية ! ولذلك كان نشاطهم سرىا من جهة ، وباسم غير اسم الخروج على الحكم الإسلامى من جهة أخرى .. كان نشاطهم يقوم باسم العروبة والقومية العربية ، وهو شعار يمكن أن يلتبس فيه الأمر على المسلمين العرب ، ولا يروا - لغفلتهم - أنه موجه ضد الإسلام .. وضدهم هم !

كانت دعوى القومية الطورانية تحز فى نفوس العرب المسلمين فينفخ الشياطين فى الحزازة لتشتعل . وكان يقال لأولئك العرب المسلمين أنتم أولى بالخلافة من أولئك الطورانيين ! فلماذا تسكتون على الظلم ؟ لماذا لاتثورون وتستقلوا عن الأتراك ؟

وكان عبد الحميد يقظا للعبة كلها « ١ » ولكن أحوال دولة الخلافة يومئذ وأحوال المسلمين جميعا فى العالم الإسلامى ، كانت أضعف من أن تصمد للكيد .. فمضى الكيد فى سبيله حتى بلغ غايته .

ولسنا هنا نؤرخ لتلك الفترة « ٢ » .. إنما نحن نتحدث عن القوميات والوطنيات ، ودورها فى اللعبة التى أريد بها القضاء على الإسلام ، وإنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

كان عبد الحميد يطارد تلك الجماعات السرية التى تنادى بالعروبة والقومية العربية كما يضيق على النشاط السرى لحزب الاتحاد والترقى ، لإدراكه المقصود من ورائهما ، فيتخذ ذلك ذريعة لمزيد من الكيد ضده ويتهم بالدكتاتورية والطغيان فى داخل تركيا ، وباضطهاد الأقليات خارجها ! وتصنع من هذه وتلك مادة للدعاية ضده ونشر البغض والكراهية له ، تمهيدا لما يخطط من عزله ، عقابا له على عدم موافقته على إنشاء الدولة اليهودية !

وجرت الأمور فى مجراها المقدر فى علم الله ، ولكن بسبب من غفلة المسلمين

« ١ » كما تدل على ذلك مذكراته

« ٢ » راجع إن شئت مذكرات السلطان عبد الحميد .

التي مكنت الأعداء من تنفيذ مخططاتهم . والله يحذرهم في كتابه المنزل :
« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا
ما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكم
الآيات إن كنتم تعقلون » « ١ » .

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء
بعض . ومن يتولهم منهم فإنه منكم » « ٢ »

ومع ذلك التحذير فقد كان مسلمون يتولون اليهود في حزب الاتحاد
والترقى ، ومسلمون آخرون يتولون النصارى في الجمعيات السرية القائمة
باسم العروبة والقومية العربية . ومسلمون آخرون يتولون « لورنس العرب ! »
ويتبعونه وهو يدعوهم إلى قتال دولة الخلافة التي ظلت تحميهم من الغزو
الصليبي قرابة أربعة قرون !

يقول لورد اللنبي ، قائد الجيش « العربى » الذى حارب الخلافة ! لولا
مساعدة الجيش العربى والعمال العرب ما استطعنا أن نتغلب على تركيا !!
ولقد كانت الحرب العظمى الأولى تدبيرا يهوديا نصرانيا للقضاء على دولة
الخلافة ، وتقسيم تركيا « الرجل المريض » والتمهيد لإنشاء الدولة اليهودية في
الأمد الذى حدده مؤتمر هرتزل سنة ١٨٩٧م .. في غفلة من « المسلمين » ! إلى
جانب الهدف الآخر الذى تحقق كذلك من تلك الحرب ، وهو القضاء على القومية
الألمانية لحساب القومية البريطانية والقومية الفرنسية .. ولكن الهدف الأعظم
من هذه الحرب كان ولاشك تدمير الخلافة الإسلامية لحساب اليهود والنصارى
مجتمعين ، وحساب اليهود بصفة خاصة !

ووزعت الأسلاب بين بريطانيا وفرنسا ، صديقتى اليهود يومئذ ، ووضعت
فلسطين بصفة خاصة تحت الانتداب البريطانى ، والانتداب درجة أسوأ من
الحماية ، والحماية درجة أسوأ من مجرد الاستعمار .. وكان ذلك بعد وعبد
بلفور الشهير ، الذى صدر عن وزير خارجية بريطانيا اليهودى « اللورد بلفور »
سنة ١٩١٧ فى أثناء الحرب ، وبدأت دولة الانتداب فى تنفيذه عقب الحرب
مباشرة تحت إشراف المندوب السامى البريطانى اليهودى السير صمويل هور !

١٠ . سورة آل عمران [١١٨]

٢٠ . سورة المائدة [٥١]

وخلال خمسين عاما من مؤتمر هرتزل قامت الدولة اليهودية سنة ١٩٤٧ « ١ » ولكن الأمر احتاج إلى حرب « عظمى » ثانية !
وسواء كانت الحرب الثانية « طبيعية » نتيجة القهر العنيف الذى وقع على القومية الألمانية من القومية البريطانية والقومية الفرنسية ، ونزوع القومية الأولى للانتقام لنفسها من القوميتين الآخرين - كما نعتقد نحن - أو كانت تدبيرا خالصا لليهود - كما يعتقد « وليم كار » فى كتاب « أحجار على رقعة الشطرنج » « ٢ » فقد استغلها اليهود استغلالا واسعا لصالحهم ، لاستدرا عطف العالم كله عليهم - بوصفهم من ضحايا النازية - ليوافق عن طيب خاطر على سلب العرب جزءا من وطنهم لإقامة الدولة اليهودية فيه . وقد سبقت الإشارة إلى الكاتبة الألمانية التى تقول فى كتابها إن اليهود هم الذين دبروا عملية تعذيب النازى لهم ليتخذوها مادة دعاية لهم على أنهم المظلومون المضطهدون المشردون فى الأرض ، الذين يبحثون عن مأوى يقيهم من التشريد والظلم والطغيان ، وأن حجم التعذيب - الذى دبروا له تدبيرا - كان أضال بكثير مما قيل فى الدعاية اليهودية العالمية التى ظلت طيلة سنوات الحرب تجلجل فى كل أرجاء الأرض لتصل إلى الهدف المطلوب .

وايا كان الأمر فقد تم لليهود ما أرادوا بمناصرة الصليبية العالمية لهم ، وبغفلة المسلمين ..
وقد كان التدبير اليهودى الصليبي ما بين الحربين الأولى والثانية محكما فى الحقيقة .

فقد قسم العالم العربى إلى دويلات ضعيفة مسلوبة القوة لاحول لها ولاطول . فالقوة السياسية والعسكرية ذهبت بذهاب دولة الخلافة وصارحكام تلك الدويلات يعتمدون اعتمادا كاملا على بريطانيا وفرنسا - صديقتى اليهود - وصارت جيوشها جيوش استعراض وزينة لاجيوش قتال حقيقى ، تعتمد فى سلاحها وذخيرتها اعتمادا كليا على بريطانيا وفرنسا ، واقتصادياتها غاية فى التخلف .. أما شباب تلك الشعوب - وهو قوة خطيرة إذا وجد التوجيه

١ . قامت الدولة واقعا سنة ١٩٤٧ ولكنها لم تعلن رسميا إلا عام ١٩٤٨ بعد مسرحيات الحرب التى مثلتها الحىوش العربية حسب مخطط متفق عليه
٢ . يبالغ وليم كار فى نسبة كل أحداث العالم الكبرى إلى اليهود ، ولانواقفه ل ذلك رغم إخلاصه فى كتابته .
راجع فصل . دور اليهود فى إفساد أوروبا .

الجاد - فقد سلط عليه « التغريب » يقتلعه من إسلامه ومن روح الجهاد الإسلامية ، وسلطت عليه السينما والإذاعة والمسرح والقصة والصحيفة والشواطئ العارية .. كلها تصب الميوعة في نفسه وتصرفه عن الاهتمامات الجادة ، وتفسد أخلاقه وتشغله بفتنة الجنس .. فوق انشغال كل بلد بقضاياها ومشاكله الخاصة ، وفوق بذر بذور البغضاء بين كل بلد والآخر حتى لا تجتمع كلها على قضية واحدة ولا أمر واحد مشترك .

وفي ظل ذلك قامت الدولة اليهودية بعد مسرحية « الحرب » ثم الهدنة .. ثم الحرب ثم الهدنة الثانية بعد وقوف الجيوش « المتحاربة » عند خط التقسيم المتفق عليه ! ولكن أمرا حدث لم يكن على خاطر الصليبيين واليهود .. فوجئوا به جميعا مفاجأة لم تكن في الحسبان .. فقد اشترك في القتال فدائيون مسلمون ، يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة ، وحين عركهم اليهود وعرفوا حقيقتهم ، كانوا إذا جابهوهم يفرون من مستعمراتهم ، تاركين أسلحتهم وذخيرتهم ومثونتهم لينجوا بجلودهم !

كانت المفاجأة من جهتين ..

فقد كان الصليبيون واليهود يظنون أن الإسلام كله قد شاخ ولم يعد بوسعه أن يخرج مثل هذه العينات من البشر ، وكانت المفاجأة الثانية أنهم ظنوا أن مصر بالذات التي عمل الصليبيون على دك معاقلها الإسلامية منذ وقت مبكر ، منذ الحملة الصليبية الفرنسية بقيادة نابليون ، لا يمكن أن تخرج هذه العينات الصلبة المستميتة في القتال بروح جهاد إسلامية خالصة لا يريدون بذلك جزاء ولا شكورا .

عندئذ تقرر أمران في وقت واحد ..

الأمر الأول ضرورة القضاء على حركة البعث الإسلامي التي أخرجت مثل هؤلاء المجاهدين . والأمر الثاني ضرورة إيجاد بديل من الراية الإسلامية التي أخرجت أولئك المقاتلين وتوشك أن تمتد ظلالها من مصر إلى البلاد العربية الأخرى ..

وكان البديل هو « القومية العربية » .

يقول جورج كيرك « George Kirk » مؤلف كتاب موجز تاريخ الشرق الأوسط « A Short History of the Middle East » « إن القومية العربية ولدت في دار المندوب السامي البريطاني !!

ولقد كانت بريطانيا قد فكرت من قبل في إيجاد « الجامعة العربية » على مستوى الحكومات ، فطار « أنتوني إيدن » وزير الخارجية البريطاني إلى القاهرة عام ١٩٤٦م ودعا الملوك والرؤساء العرب إلى الاجتماع به هناك ، وعرض عليهم في الاجتماع فكرة إنشاء الجامعة العربية في القاهرة لتتبنى قضايا العرب وتدافع عن مصالحهم !! ولكن ذلك لم يكن كافياً ، فقد كان لابد من رفع راية « القومية العربية » على مستوى الجماهير !

فلما ورثت أمريكا بريطانيا وفرنسا بعد الحرب وبسطة نفوذها على « الشرق الأوسط » ١ ، أقامت - عن طريق الانقلابات العسكرية - زعامات كاملة تدافع عن « القومية العربية » في الوقت الذي تحارب فيه الإسلام والمسلمين ! وقالت الدعاية - التي أقامتها أمريكا وإسرائيل - إن أمريكا وإسرائيل لاتخشيان شيئاً خشيتهما للقومية العربية ، ولاتخشيان أحداً خشيتهما لزعيم القومية العربية !

وفي ظل القومية العربية التي أقامتها الصليبية العالمية ، توسعت إسرائيل وتوسعت حتى توشك أن تبتلع فلسطين كلها .. وتتطلع إلى المزيد !
لقد كانت « القومية » التي صدرت إلى العالم الإسلامي هي القومية المأكولة لا القومية الأكلة التي قامت في أصلها هناك !

ليس هنا مجال التفصيل للظروف التي أحاطت « بالمسلمين » وأدت بهم إلى هذا الضياع كله وهذا الهوان .. إنما نقول في ختام هذا الفصل إن الإسلام لايعرف تلك الدعاوى الزائفة التي روجها أعداء الإسلام بغية القضاء عليه ، وتشريها « المسلمون » في غفلتهم ، غافلين عما فيها من السموم .
إن الإسلام لا يغير انتماء الناس إلى أرضهم ولا شعوبهم ولا قبائلهم ، لأن هذا أمر مادي حسي واقع لا سبيل إلى تغييره ، فالذي يولد في الأرض المصرية مصري بحكم مولده والذي يولد في الأرض العراقية عراقى بحكم مولده . والذي يولد في الأرض الباكستانية باكستاني بحكم مولده .. وهكذا .
ولكن الإسلام ينكر أن تكون صلة التجمع شيئاً غير الإسلام ! غير العقيدة

١ « كلمة » الشرق الأوسط ، ذاتها كلمة دخيلة من تخطيط الأعداء من أجل تسويق إقامة الدولة لليهودية في المنطقة . فانها لو بقيت في التسمية منطقة إسلامية أو حتى عربية فكيف تقوم فيها دولة لليهود ؟ أما حين تصبح منطقة جغرافية لا انتماء لها فكل شيء ممكن ١

الصحيحة في الله ! لا الدم ولا الأرض ولا اللغة ولا « المصالح » الأرضية .
« قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال
اقتربتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله
ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لايهدى القوم
الفاسقين » « ١ »

وانظر إلى قصة نوح مع ابنه :

« وهى تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني
اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء ! قال :
لأعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .
وقيل : يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى . وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت
على الجودى وقيل بعداء « ٢ » للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى
من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من
أهلك . إنه عمل غير صالح ! فلاتسألن ماليس لك به علم . إني أعظك أن تكون
من الجاهلين . قال : رب إني أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى
وترحمنى أكن من الخاسرين » « ٣ »

لقد وعد الله نوحا أن ينجو أهله معه ، إلا من سبق عليه القول :
« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك
إلا من سبق عليه القول ومن آمن . وما آمن معه إلا قليل » « ٤ »
فلما رأى ابنه في معزل ناداه ليركب معه سفينة النجاة .. ولكنه عصى وقال
سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء .. وكانت عاقبته أن غرق مع المهلكين .
ولما قضى الأمر ونجا من نجا وهلك من هلك راح نوح - في مرارة الفقد التى
تشوب فرحة النجاة - ينادى ربه ، ويسأل عن تفسير ماحدث : لقد وعده الله
بنجاة أهله ، وابنه من أهله ، ومع ذلك كان من الهالكين !
وكان الرد الربانى : « إنه ليس من أهلك ! إنه عمل غير صالح » .

١ . سورة التوبة [٢٤]
٢ . بعدا أى هلاكا من بؤس أى هلك كما جاء في قوله تعالى .. « الا بعدا لمدین كما بَعِثْتُ نوحا » .
[سورة هود . ٩٥]
٣ . سورة هود [٤٢ - ٤٧]
٤ . سورة هود [٤٠]

ذلك أن الأصرة الحقيقية التى تجعله من أهلك ليست هى رابطة الدم التى تجمع بينه وبينك . إنما هى رابطة العقيدة . وقد رفض الابن أن يكون على العقيدة الصحيحة فانفصم ما بينه وبين أبيه من رباط ، لأنه « عمل غير صالح » !

ذلك هو ميزان الإسلام .

وقد مرت بنا الآية التى تجعل الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة ، والأموال والتجارة والأرض وهى مقومات القومية كلها فى كفة ، وفى الكفة الأخرى حب الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله .. والمفاصلة الكاملة بين هذه وتلك .

وليس معنى ذلك أن الإسلام يحرم كل تلك الروابط^١

كلا ! إنما يجيزها كلها حين تقع تحت رابطة العقيدة وداخلها :

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » « ١ »

أى حين يكونون كلهم مؤمنين .

أما حين تكون تلك الروابط حاجزا يحجز بين المؤمن والمؤمن بسبب رباط الدم أو اللغة أو الأرض أو المصالح .. فهذه التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « دعوها فإنها منتنة » « ٢ »

فكيف إذا كانت تلك القومية تقول لك فى صراحة إن المشرك الذى يشاركك فى قوميتك أقرب إليك من المسلم الذى ينتمى إلى قومية أخرى !
هذه .. ماميزانها فى كتاب الله !؟

١ . سورة الأنفال [٧٥]

٢ . رواه البخارى .

الإنسانية

الإنسانية - أو العالمية كما يدعونها أحيانا - دعوى براءة ، تظهر بين الحين والحين ، ثم تختفى لتعود من جديد ! يا أخى ! كن إنسانى الزعة .. وجه قلبك ومشاعرك للإنسانية جمعاء .. دع الدين جانبا فهو أمر شخصى .. علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب .. لكن لاتجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك فى الدين .. فإنه لاينبغى للدين أن يفرق بين البشر .. بين الإخوة فى الإنسانية ! تعال نصنع الخير لكل البشرية غير ناظرين إلى جنس أولون أو وطن أو دين !

دعوى براءة كما ترى .. يخيل إليك حين تستمع إليها أنها تدعوك للارتفاع فوق كل الحواجز التى تفرق بين البشر على الأرض . تدعوك لترتفع فى عالم النور .. تدعوك لتكون كبير القلب ، واسع الأفق ، كريم المشاعر .. تنظر بعين إنسانية ، وتفكر بفكر عالمى ، وتعطى من نفسك الرحبة لكل البشر على السواء ، بدافع الحب الإنسانى الكبير !

أى رفعة ، وأى سمو ، وأى نبل ، وأى عظمة فى القلب والفكر والشعور ! ولكن مهلا ! انتظر حتى يخفت الرنين الذى تحدثه الكلمات والعبارات ، وفتش عن الحقيقة بعيدا عن العواطف والانفعالات ، وانظر أين تجد هذه الشعارات مطبقة فى واقع الأرض ؟! هل لها رصيد حقيقى من الواقع أم إنها شعارات زائفة ترفع لأمر يراى ؟!

ثم انظر إلى تلك العبارة الماسونية « اخلع عقيدتك على الباب كما تخلع نعليك » !

ألا ترى شبهها بين هذه الدعوة وتلك ؟ أما ترى أنهما قريبتان ؟ بل شقيقتان ؟!

« اخلع عقيدتك على الباب (أى عند دخولك الماسونية) كما تخلع نعليك .. »
وادخل بلا عقيدة .. فهكذا يريدك الشياطين ليستعبدوك .. ليسخروك لمصالحهم !

« الامميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار » ..

والحمار الأدمى هو ذلك الذى خلع عقيدته على الباب كما يخلع عليه ..
ودخل ، حيث أريد له أن يدخل .. بلادين ومن ثم بلا أخلاق !
وفى القديم ، حين كان الدين قويا لايقوون على مواجهته ، لم يكونوا يجروون
على التلفظ بمثل هذه العبارة ، بل كانوا ينساقون ليصلوا إلى أغراضهم من
« إغواء » الآخرين ..

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ! وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا
معكم ! إنما نحن مستهزئون ! » ١ «
« وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه
النهار ، واكفروا آخره لعلهم يرجعون » ٢ «

ولكنهم اليوم آمنون ، فلاحاجة بهم إلى التظاهر بالإيمان بما أنزل على
المؤمنين .. بل إنهم لينشرون الإلحاد اليوم بجسارة فى كل الأرض .. ولكنه
بضاعة للتصدير فقط ! يصدرونها للأمميين لإغوائهم عن الدين ، ولكن
لايستخدمونها بين أنفسهم . فالهدف الأخير من التخطيط كله هو محو كل دين
لدى الأمميين ، لكى يبقى اليهود وحدهم فى الأرض أصحاب الدين ! وهم على
جبلتهم لايفيرونها .. يتظاهرون أمام الناس بشيء ، فإذا خلوا إلى شياطينهم
قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون !

وهزاة اليوم هى هذه الدعوة : « اخلع عقيدتك على الباب كما تخلص عليك ! »
فإذا صدقها الأمميون وخلصوا عقيدتهم كما يخلصون نعالهم ، فرك الشياطين
أيديهم سرورا حين يخلو بعضهم إلى بعض ، وقال بعضهم لبعض : إنا معكم ،
مانزال على دين الشياطين .. إنما نحن نهزأ بالأمميين !
والفارق بين دعوى الإنسانية ودعوى الماسونية ضئيل ..

الفارق أنه فى تعبير الماسونية الخشن المتوقع يوضع الدين جنبا إلى جنب مع
النعال ، لأن المقبل على الماسونية لايقبل عليها إلا وقد خلع دينه بالفعل أو أوشك
على خلعها ، فالكلمة الخشنة لا تؤذيه ، بل قد تكون منه موضع ترحيب ! فهى
كلمة للتوكيد .. وقد تكون للتهديد ! تهديد من بقيت فى قلبه بقية خفية من بقايا
الدين .. فليتنبه وليخلصها قبل الدخول !

١ . سورة البقرة [١٤]
٢ . سورة آل عمران [٧٢]

أما في دعوى الإنسانية فالتعبير للترغيب والتحييب ، ومن ثم فهو مهذب لطيف يبتلعه من يبتلعه وهو مسرور ، أو قل إنه يبتلعه وهو أشبه بالمخدور .
ولكن هذا وذاك يدعوك في النهاية أن تترك دينك وتواجه الحياة بلا دين ' فإذا فعلت ذلك اجتالتك الشياطين !

ولكن أناسا قد يخدعون بدعوى الإنسانية لما فيها من بريق ، فيؤمنون بها أو يدعون إليها غافلين عن الحقيقة التي تنطوى عليها . وقد لا يصدقون أصلا أنها دعوة إلى التحلل من الدين يبيثها الشياطين في الأرض لأمر يراد .
فلنصدق - مؤقتا - أنها دعوى مخلص للارتفاع بالإنسان عن كل عصبية تلون فكره أو سلوكه أو مشاعره ، ليلتقى بالإنسانية كلها لقاء الصديق المخلص الذي يحب الخير للجميع ..
فلنصدق ذلك في عالم المثل .. في عالم الأحلام .. فما رصيد هذه الدعوى في عالم الواقع ؟!

ما رصيدها في العالم الذي تجتاحه القوميات من جانب ، والعصبية العرقية والدينية والسياسية والاجتماعية من كل جانب ؟
فلنأخذ مثلا واحدا من العالم المعاصر .. من المعاملة التي يلقاها المسلمون في كل مكان في الأرض يقعون فيه في حوزة غير المسلمين ، أو في دائرة نفوذهم من قريب أو من بعيد ..
فلننظر إلى « الإنسانية » التي يعاملون بها و « السماحة » التي يقابلون بها ، « وسعة الصدر » و « حب الخير » الذي ينهال عليهم من كل مكان !
خذ مثال الحبشة ..

يبلغ المسلمون فيها ٥٥٪ على الأقل من مجموع السكان وذلك قبل ضم أريتريا - عنوة - إليها ، وأريتريا كلها مسلمون ، فكيف تعاملهم الدولة المسيحية المتسلطة عليهم ؟

لا يوجد في الدولة وزير مسلم واحد يمثل أغلبية السكان ! ولا موظف واحد من كبار الموظفين ! ومدارس الدولة لا تعلم القرآن لأبناء المسلمين ولا تلقنهم مبادئ دينهم « ١ » ، وحين يفتح المسلمون « كتاتيب » لتعليم القرآن لأبنائهم

١ . في مصر يدرس للتلاميذ الأقباط مبادئ دينهم على يد مدرسين مسيحيين ، وتوضع دروسهم في الحدود الرسمية للدراسة وتعطى لهم الحرية الكاملة يقولون في دروسهم كل ما يريدون بلا رقيب عليهم

على نفقتهم الخاصة ، تظل الدولة تفرض عليها من الضرائب ما يتقل كاهلهم حتى يغلقوها !^١ » ويحرم عليهم أن يتلقوا أى معونات من المسلمين من الخارج^٢ » وإلى عهد غير بعيد كان المسلم الذى يستدين من مسيحي حبشى ويعجز عن وفاء دينه يسترق لدائنه ! ووقف هيلاسلاسى عام ١٩٦٢ فى هيئة الأمم فالقى خطابا « ضافيا » أعلن فيه أنه فى خلال اثنى عشر عاما لن يكون فى الحبشة إلا دين واحد ! ولم يرتفع صوت واحد فى تلك « المؤسسة الإنسانية » يستنكر ذلك التصريح^٣

والقلبين كانت ذات يوم أرضا إسلامية فغزاها الصليبيون^٤ » ٢ » وحكموها قهرا عن أصحابها ، فكيف عاملوا المسلمين فيها ؟

لقد ظلوا يطاردونهم ويخرجونهم من أرضهم وديارهم وأموالهم حتى حصروهم فى قطاع من أصل أرضهم ، ثم سموهم « متمردين » فاستباحوا لأنفسهم قتلهم ، وقتالهم، وتحريق مزارعهم ، بل تحريقهم هم أنفسهم شفاء للحقد الصليبي المتأصل فى نفوسهم .. ولا يتحرك واحد فى الأرض كلها ليرد البلاء عن المسلمين ، وكيف عدوان المعتدين !

والهند حكمها المسلمون ثمانية قرون فلم يكرهوا أهلها على الإسلام ، ولم يضطهدوهم وهم يعبدون البقر ويعبدون الأوثان ، فلما حكمها الهنود فانظر كيف يعاملون المسلمين :

لا تنقطع أخبار « الشغب » كما تسميه الدولة والصحافة .. وخلاصتها أن يهجم الهندوس على القرى الإسلامية فيحرقوها على أصحابها ويقتلوا منها من تطوله أيديهم .. فيحتج المسلمون ، ويخرجون لرد العدوان فتعتقلهم الشرطة بتهمة إثارة الشغب وتودعهم فى السجون ! هذا وحكومة الهند حكومة « علمانية » أى أنها لا تقيم حكمها على الدين ، ولا تتعرض لأصحاب الدين ! ومن سنوات غير بعيدة صرح نهرو تصريرا عجبا قال فيه إن تقرير المصير حق لكل الناس .. إلا فى كشمير !! ولم يستنكر ذلك أحد فى العالمين !

١ - وفى مصر يفتح الأقباط - بجانب الدروس الدينية الرسمية التى يتلقونها فى مدارس الدولة - مدارس دينية خاصة تسمى « مدارس الأحد » لا تتعرض لها الدولة أى نوع من التعرض .

٢ - وفى مصر يتلقى الأقباط المعونات من الدول المسيحية والهيئات والأفراد فلا تسألهم الدولة من أين يأخذون ولا فيم ينفقون .

٣ - كان « ماجلان » الذى يطلق عليه لقب « الرحالة العظيم » ممن قاموا بغزوة صليبية على الدلبين بعد إلحاح شديد على « البابا » أن يأذن له فى فتح تلك البلاد وضعها إلى المسيحية . وقد قتله الأماوى فى المعركة التى جرت عن أثر تجرؤه على رفع الصليب على أرض بلادهم الإسلامية فسموا « المتبريرين » .

وفلسطين ظلت أربعة عشر قرنا من الزمان أرضا إسلامية .. ثم جاء اليهود ليقيموا عليها دولة يهودية .. ولم يستنكر أحد من « الإنسانيين » طرد السكان الأصليين وإجلاءهم عن أرضهم بالقنابل والمدافع ، بل بشق بطون الحوامل والتلهى بالتراهن على نوع الجنين كما فعلت العصابات اليهودية التى كان يرأس إحداها مناحم بيجن .. وإنما استنكرت من المسلمين أن يطالبوا بأرضهم ، وألا يخلوها عن طيب خاطر للغاصبين !

ويطول الأمر بنا لو رحنا نستعرض أحوال المسلمين الواقعين في قبضة غير المسلمين ، أو الذين يتعرضون : مدوان غير المسلمين في كل مكان في الأرض .. في روسيا الشيوعية التى قتلت ما يقرب من أربعة ملايين من المسلمين ، وفي يوغسلافيا التى قتلت ثلاثة أرباع مليون منهم ، وفي أفغانستان التى تستخدم فيها الأسلحة المحرمة « دوليا » و « قانونيا » و « إنسانيا »! وفي أوغندا ، وفي تنزانيا ، وفي .. وفي .. وفي ..

فما بال « الانسانيين » ؟ ما بالهم لا يتحركون ؟! ما بالهم لا يصرخون في وجه الظلم الكافر الذى لا قلب له ولا ضمير ؟!

إنما توجه دعوى « الانسانية » فقط ضد أصحاب الدين ! فمن كان متمسكا بدينه فهو « المتعصب » « ضيق الأفق » الذى يفرق بين البشر على أساس الدين ، ولا يتسع قلبه « للإنسانية » فيتعامل معها بلا حواجز في القلب أو في الفكر أو في السلوك ! أو قل على وجه التحديد إن الذين يحاربون اليوم بدعوى « الإنسانية » هم المسلمون !

يحاربون بها من طريقتين ، أو من أجل هدفين : الهدف الأول هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه الناشئ من إحساسه بالتميز عن الجاهلية المحيطة به في كل الأرض . لكى تَنبَهُمْ شخصيته وتتميع ؛ والهدف الثانى هو إزالة روح الجهاد من قلبه .. ليطمئن الأعداء ويستريحوا !!

في الهدف الأول يقول المستشرق النمساوى المعاصر « فون جرونباوم Von Grunebaum » في كتاب له يسمى « الإسلام الحديث Modern Islam » إن

١ . لا يتسع المجال هنا للتعليق على عنوان الكتاب الذى يقصد به أن الإسلام ليس شيئا ثابتا محدد المعالم ، وإنما هو شيء دائم التغير . فالإسلام الأول شيء ، وإسلام القرون الوسطى (وهذا عنوان كتاب آخر لنفس المؤلف) شيء آخر ، والإسلام الحديث شيء ثالث ، وهذه القضية ذاتها عن وسائل الحرب التى يستخدمها المستشرقون ضد الإسلام .

الحاجز الذى يحجز المسلم عن « التغريب Westernization » هو استعلاؤه بإيمانه ، وإنه لابد من تحطيم ذلك الحاجز لى تتم عملية التغريب !
أرايت ! إنه هدف مقصود لذاته .. ألا يشعر المسلم بالاستعلاء بالإيمان !
يراد له أن تذوب شخصيته وتتميع ، ولا تكون لها تلك السمة المميزة التى ارادها الله :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ١ .
إن أعداء الإسلام لن يستريحوا حتى يزيلوا ذلك التميز الذى يحسه المؤمن .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » ٢ .
وتلك قضية قديمة عمرها الآن أكثر من أربعة عشر قرنا .. أى منذ وجد المجتمع الإسلامى فى المدينة .. ولكن وسائل القتال تتغير ، ومن بينها اليوم ما نسميه « الغزو الفكرى » ومن بين الغزو الفكرى هذه الدعوى .. دعوى الإنسانية !

فباسم الإنسانية يقال للمسلم الحق : يا أخى لا تعتزل الناس ! إن الانسانية كلها أسرة واحدة ، فتعامل مع الأسرة كفردها منها ، ولا تميز نفسك عنها ! وشارك فى النشاط « الإنسانى » ومظاهر الحضارة « الإنسانية » !
ولا نقول لهؤلاء : هل تعاملون أنتم المسلمين كأفراد من أسرتم « الإنسانية » « العالمية » فتعطونهم حقهم بوصفهم أفرادا فى تلك الأسرة، فلا تطاردونهم ، ولا تنبذونهم ، ولا تتعصبون ضدهم ، ولا تتجمعون على أذاهم ؟!
لا نقول لهم ذلك لأنه لا فائدة من جدالهم . ولكن نقول « شهد شاهد من أهلها » فهو غير متهم فيما يشهد به ! ذلك هو « توينبى » المؤرخ المعاصر المشهور ، وتعصبه ضد الاسلام والمسلمين أمر كذلك مشهور !

يقول فى محاضرة له باسم الإسلام والغرب والمستقبل بعد أن قسم العالم تجاه عملية « التغريب » إلى متحمسين بغير عقل « ٣ » ، ومقلدين بلا تحفظ ، وبعد أن امتدح حركة كمال أتاتورك المقلدة للغرب :

١ . سورة البقرة [١٤٣]

٢ . سورة البقرة [٢١٧]

٣ . يقصد بهم - بصفة خاصة - المسلمين المحافظين على إسلامهم .

« ويجب على المراقب الغربى أن يراعى حدود اللياقة ولا يسخر » ١ « لأن ما يحاول (المقلدون) الأتراك القيام به هو تغيير وطنهم ومواطنيهم مما هم فيه إلى حالة كنا نحن منذ التقاء الغرب بالإسلام ننتقدهم لعدم وجودها طبيعة فيهم . وما هم حاولوا - ولو متأخرين - إقامة صورة طبق الأصل لدولة غربية وشعب غربى .

« وعندما ندرك تماما هدفهم الذى رموا إليه لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة :

هل يبرر هذا الهدف حقا الجهد الذى بذلوه فى صراعهم لبلوغه » ٢ « ؟!

« من المؤكد أننا لم نكن نحب التركى التقليدى المسلم الذى كان يثير حنقنا

عندما ينظر إلينا من عل على أننا فريسيون زناديق ! ويحمد الله على أنه لم يجعله

مثلا . وبما أن التركى التقليدى القديم كان يعتبر نفسه من طينة خاصة ،

حاولنا أن نحط من كبريائه بتصوير هذه الطينة الخاصة شيئا معقوتا وسميناه

« التركى النكرة » .. إلى أن استطعنا أخيرا أن نحطم سلاحه النفسى

وحرصناه على القيام بهذه الثورة (المقلدة) التى استهلكها الآن أمام أعيننا... » ٣ «

« والآن ، وبعد أن تغير التركى بتحريضنا ورقابتنا ، وبعد أن أصبح يفتش

عن كل وسيلة لجعل نفسه مماثلا لنا ، وللشعوب الغربية من حوله ، الآن نحس

نحن بالضيق والحر ج ، بل ونميل إلى الشعور بالسخط والحنق ، تماما كما شعر

صموئيل عندما اعترف بنو إسرائيل بفظاظة غايتهم ورغبوا فى وجود ملك ..

« لذلك فإن شكوانا الجديدة من الأتراك فى هذا الظرف أمر أقل ما يقال فيه

إنه غير لائق » ٤ « . وبإمكان التركى أن يخبينا أنه مها فعل فهو مخطئ فى نظرنا ..

« على كل حال ، قد يكون انتقادنا للأتراك فظا وغير لائق ، ولكن ليس فيه أى

تحامل » ٥ « ولا هو خارج عن الموضوع ، إذ ما الذى سيكسبه التراث

الحضارى ، فى حالة عدم ذهاب جهود الأتراك سدى ؟ أى فى حالة نجاحهم -

فرضا - النجاح المرجو ؟ وهذه النقطة تكشف حركة المقلدين عن نقطتى

ضعفها الأصيلتين فيها :

١ . هذا اعتراف من المؤلف بأن الغربيين يسخرون من الأتراك بعد أن تغربوا وتركوا إسلامهم ' .

٢ . لاحظ سخريه المؤلف بالأتراك . مع أنه ينصح الغربيين بعدم السخريه بهم ' .

٣ « يلتقى الصليبيون جميعا فى كراهيتهم لهذا » السلاح النفسى « وهو استعلاء المسلم بإيمانه . راجع قوله « جرونيانوم » المشار إليها آنفا .

٤ « وهذا اعتراف بأن سخريه الغرب بالأتراك المقلدين تصل إلى حد « عدم اللياقة » أى سوء الادب ' .

٥ « يعود إلى سخريته - على طريقته الخاصة - فيقول إن سخريه الغرب بالأتراك المقلدين ليس فيها أى تحامل ! يعنى أنهم يستحقون ذلك ' .

« أولاهما : أن الحركة مقلدة متبعة ، وليست مخترعة ، لذا ففي حالة نجاحها - جدلا - لن تزيد إلا في كمية المصنوعات التي تنتجها الآلة في المجتمعات المقلدة ، بدل أن تطلق شيئا من الطاقة المبدعة في النفس البشرية . » ثانيهما : في حالة النجاح الباهت - المفترض - هذا ، وهو أقصى ما يمكن للمقلدين الوصول إليه ، سيكون هناك خلاص - مجرد خلاص - لأقلية ضئيلة في أي مجتمع تبني طريقة التقليد ، لأن الغالبية لا تأمل في التحول إلى أعضاء في الطبقة الحاكمة للحضارة المقلدة ، ومال هذه الغالبية هو تضخيم عدد بروليتاريا الحضارة المقلدة .

« كانت ملاحظة موسولينى ملاحظة حادة عندما قال : هناك شعوب بروليتارية « ١ » مثلما هناك طبقات بروليتارية وأفراد بروليتاريون « ٢ » تلك هي القضية ! إن تمسك المسلم بإسلامه شيء يغيظ أعداء الإسلام بصورة جنونية .. ولا يهدأ لهم بال حتى يذهبوا عنه ذلك التمسك ويميعوه (ومن وسائل ذلك كما أسلفنا دعوى الإنسانية والعالمية) فإذا تميع بالفعل ، ولم تعد له سمته المميزة له ، احتقروه كما احتقرت أوروبا الأتراك بعد أن أزال أتاتورك إسلامهم و « فرنجهم » و « غربهم » ! بينما يقول أحد المبشرين في كتاب « الغارة في العالم الإسلامي » إن أوروبا كانت تفزع من « الرجل المريض » (وهو مريض) لأن وراءه ثلثمائة مليون من البشر مستعدون أن يقاتلوا بإشارة من يده « ٣ » وهذا النص الأخير يدخل بنا إلى النقطة الثانية أو الهدف الثاني من استخدام دعوى « الإنسانية » في محاربة المسلمين .

١ ، أي شعوب ذليلة تابعة مقدر عليها الذل والتبعية لا فكاك لها منها !
٢ ، تعريب الدكتور نبيل صبحي باسم « الإسلام ... والغرب .. والمستقبل » ص ٥١ - ٥٢
٣ ، ظهر في بريطانيا في أوائل الستينات كتاب بعنوان « معضلة الرجل الأبيض » The White Man's Dilemma شرح فيه مؤلفه موقف الرجل الأبيض من الرجل الملون ، وخلاصة فكرة الكتاب أن الرجل الأبيض يتصالح اليوم بضرورة تحديد نسل الرجل الملون ، ويحاول إقناع الرجل الملون بتحديد نسله بشتى الوسائل على أساس أن اقوات الأرض لا تكفى لمواجهة « الانفجار السكاني » في المستقبل . ويناقش المؤلف هذا الزعم ، ويثبت أن موارد الأرض لم تستثمر كلها بعد ، فضلا عن أن موارد البحر تعتبر غير مستثمرة أصلا . وأن الأرض - ببابسها ومياهها - تحمل من الاقوات ما يكفي أضعاف أضعاف العدد الحالي من البشر . ولكن الحقيقة الكامنة وراء هذه الصيحة أن الرجل الأبيض يخشى على سيادته وسيطرته ورفاهيته الناعمة من يقظة الرجل الملون الذي سلب الرجل الأبيض خيرات عن طريق السيطرة والاستعمار . فإذا ظل نسل الرجل الملون يتزايد بنسبته الحالية - بينما نسل الرجل الأبيض يتناقص بسبب عمل المرأة وانشغالها بالمحافظة على رشاقتها وانشغالها بملذاتها عن الحمل والأمومة - فسيستيقظ الرجل الملون إلى الحقيقة الواقعة ، وهي أن خيرات التي تشتت حاجته إليها بسبب تزايد أعداده مسلوقة بيد الرجل الأبيض . وعندئذ سيثور على الرجل الأبيض لاسترداد خيرات المسلوقة ، فيفقد الرجل الأبيض سلطانه ورفاهيته .. ومن أجل ذلك ينصحه بتحديد نسله ويخوفه بالجوع !!

إن أشد ما يخشاه أعداء الإسلام من الإسلام هو روح الجهاد الكامنة فيه !
وقد مر بنا في الفصل الماضى كلام المستشرق الكندى المعاصر « ولفرد كانتول
سميث » الذى يقرر فيه أن أوروبا لا تستطيع أن تنسى الفزع الذى ظلت تزاوله
عدة قرون من الفتح الاسلامى ، وأن هذا الفزع لا يدانيه شئ فى العصر
الحديث ، ولا فزع أوروبا من استيلاء الشيوعية على تشيكوسلوفاكيا سنة
١٩٤٨ !

وهذا هو المستشرق الأمريكى « روبرت بين Robert Payne يقول فى
مقدمة كتابه السيف المقدس The Sacred Sword :

« إن لدينا أسبابا قوية لدراسة العرب والتعرف على طريقتهم . فقد غزوا
الدنيا كلها من قبل . وقد يفعلونها مرة ثانية ! إن النار التى أشعلها محمد
ما تزال تشتعل بقوة ، وهناك ألف سبب للاعتقاد بأنّها شعلة غير قابلة
للاطفاء » !

ولنترك المستقبل لعلم الله .. فما ندرى ماذا يكون من أمر المسلمين غدا .
ولكننا ننظر إلى الحاضر ذاته فنلمح السبب فى فزع أعداء الإسلام من روح
الجهاد الكامنة فيه ..

إن أوروبا لم تتضخم كما تضخمت اليوم ، ولم تصل إلى الرفاهية الناعمة
التي تعيش فيها إلا باستعمار العالم الإسلامى ونهب خيراته واستعباد أهله
وإخضاعهم لنفوذها . فماذا يكون إذا استيقظت فى المسلمين روح الجهاد
فطردوا ذلك الاستعمار بكل أنواعه الخفية والظاهرة ، العسكرية منها
والسياسى والاقتصادى ، واستردوا سيادتهم على أرضهم وأرواحهم وأفكارهم
وضمائرهم ؟!

ماذا يحدث لأوروبا لو تم ذلك ؟ ومن أين لها الرفاهية الناعمة التى تعيش فيها
اليوم ، إذا احتفظ المسلمون بخيراتهم لأنفسهم ، أو باعوها لأوروبا ببيعاً حراً
بالسعر الحقيقى الذى تستحقه فى التجارة الحرة المتكافئة ؟ ومن أين لها
التضخم الذى تمارسه اليوم ، سواء التضخم العسكرى أو العلمى أو المادى ،
إذا انحسرت مواردها وكسدت بضاعتها التى توزعها اليوم على « المتخلفين »
وتربح فيها بغير حساب ؟!

كلا ! ما يحب أعداء الإسلام قط أن تستيقظ روح الجهاد الكامنة فيه ، ولولم
يتحقق شئ من كلام روبرت بين ، الذى يزعم به أعصاب الغرب ليشثدوا فى

الضغط على المسلمين ولا يتيحوا لهم أى فرصة للنهوض .. أو - على وجه التحديد - لا يتيحوا لهم أى فرصة للرجوع إلى حقيقة الإسلام التى فقدوها بعملية « التغريب » !
ودعوى الإنسانية من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين .

يا أخى ! لقد تغيرت الدنيا ! لا تتكلم عن الجهاد ! أو إن كنت لابد فاعلا فتكلم عن الجهاد الدفاعى فحسب ! ولا تتكلم عنه إلا فى أضيق الحدود ! فهذا الذى يتناسب اليوم مع « الإنسانية المتحضرة » ! لقد كانت للجهاد ظروف تاريخية وانقضت ! أما اليوم فقد أصبحت الإنسانية أسيرة واحدة ! وهناك قانون دولى وهيئات دولية تنظر فى حقه وتحل قضاياك بالطرق « الدبلوماسية » ! فإذا فشلت تلك الهيئات فى رد حقه المقتضب فعندئذ لك أن تقا تل دون حقه ولكن لاتسمه جهادا ... فالجهاد قد مضى وقته ! إنما سمه دفاعا عن حقوق المشروعة !!

أما نشر الدعوة فأياك أن تتحدث فيه عن الجهاد ! هناك اليوم وسائل « إنسانية » لنشر الدعوة فاسلكها إن شئت .. هناك الكتاب والمذيع والتلفاز والمحاضرة والدرس .. إياك إياك أن تتحدث عن الجهاد فتكون مضغة فى أفواه المتحضرين !

ولا نقول لهؤلاء : أين هى الهيئات الدولية فى قضية فلسطين ؟ وفى قضية الفلبين ؟ وفى قضية كشمير ؟ وفى قضية افغانستان ؟ وفى كل قضية كان المسلمون طرفا فيها ؟ أين هى الحقوق التى ترد بالطرق الدولية أو العدوان الذى يصد ؟!

ولا نقول لهم : ماقيمة هذه الهيئات الدولية والقانون الدولى وكل الاجراءات الدولية ، إذا كان هذا القانون يعترف رسميا بأن هناك جبايرة خمسة فى الأرض لهم الحق - الشرعى !! - أن يوقفوا أى إجراء لا يوافق أهواءهم ومطامعهم العدوانية - مهما يكن عادلا فى ذاته - عن طريق « الفيتو » (حق الاعتراض) ؟!

لا نقول لهم ذلك لأنه لا فائدة من جدالهم ! إنما نقول لهم إن إسرائيل تضرب بقرارات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن عرض الحائط ، وتعلن فى تبجح - وهى المعتدية دائما - أنها لن تخضع لهذه القرارات ولن تلتزم بها ،

ولا يتحرك « الإنسانىون » لتأديبها .. إنما يشهر سلاح « الإنسانىة » فى وجه المسلمين فقط حين يطالبون بحقوقهم المشروع !

الإسلام - دين الله - صريح غاية الصراحة ، حاسم كل الحسم ، لا يداور ولا يناور ، ولا يتاجر بالشعارات .

« خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » « ١ »

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » « ٢ »

« وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ،

وما يستوى الأحياء ولا الأموات .. » « ٣ »

ويقرر فى صراحة حاسمة أن ولاء المسلم هو لله ولرسوله وللمؤمنين ، ويحرم الولاء فيما وراء ذلك :

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا .. » « ٤ »

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس

من الله فى شيء » « ٥ »

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء

بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم » « ٦ »

ويقرر فى صراحة حاسمة كذلك أن الجهاد لنشر الدعوة ماض الى يوم القيامة :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » « ٧ »

ولكنه لا يقاتل من أجل فرض عقيدته على الناس وهم كارهون . إنما يقاتل كما قلنا من قبل لإزالة القوى الجاهلية التى تمنع وصول الحق للناس دون حواجز نفسية أو حسية مادية ، ممثلة فى نظم جاهلية لها فى حس الناس ثقل « الأمر الواقع » وجيوش ودول تحمى تلك النظم الجاهلية وتعطيها ثقلها فى الأرض ، فإذا أزيلت الحواجز فلا إكراه فى الدين :

١ . سورة التغابن [٢]

٢ . سورة الزمر [٩]

٣ . سورة فاطر [١٩ - ٢٢]

٤ . سورة المائدة [٥٥]

٥ . سورة آل عمران [٢٨]

٦ . سورة المائدة [٥١]

٧ . سورة الأنفال [٢٩]

« لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي .. » ١ »

إنما يقام العدل الرباني ليستمتع به الناس ويعيشوا في ظله ولو كانوا لا يعتنقون عقيدة الإسلام .

وقد فتح المسلمون مصر وكان سكانها على دين النصرانية ، فلم يكرههم المسلمون على اعتناق الإسلام . ولو كان هناك إكراه مابقى الأقباط على دينهم حتى هذه اللحظة !

إنما أقام المسلمون العدل الرباني كما أمرهم الله فردوا للأقباط كرامتهم الإنسانية المفقودة التي سلبهم إياها حكامهم الرومان وهم على نفس الدين ولكن على مذهب مخالف . فقد كان الرومان يلهبون ظهور الأقباط بالسياط لمخالفتهم إياهم في المذهب فلا يتحرك الأقباط لرد العدوان ، ولا يجدون ملجأً يلجئون إليه يمنحهم الحرية الاعتقادية ويمنحهم العدل والكرامة . فلما جاء المسلمون منحوهم كل ذلك . وقصة القبطى الذى ذهب إلى المدينة ليشتكو إلى عمر بن الخطاب ضربة العصا التي وقعت على ظهر ابنه من ابن عمرو بن العاص شهيرة لا تحتاج إلى إعادة . ولكن دلالتها واضحة ، فهذا القبطى الذى كان يتلقى سياط الرومان ولا يشكو ولا يثار لكرامته المسلوبة ، يسافر هذه الرحلة الطويلة طلباً للعدل ، لأن الإسلام رد له كرامته فصار يستنكر الظلم ويطلب العدل ، ولأن الإسلام أوجد له ملجأً حقيقياً يتحقق له العدل فيه فطلبه هناك .

ومن أجل هذا يقاتل المسلمون ، لا لفرض عقيدتهم ، ولا للتوسع الاستعماري ، ولا لسلب أقوات الناس والاستئثار بها لأنفسهم ، ولا لأى فائدة أرضية من التي تسعى الدول إليها ، ولكن قياماً بأمر الله ، ونشراً لهذا العدل الرباني في الأرض .

وفتح المسلمون الأندلس ، وظلوا هنالك ثمانية قرون .. فلم يفرضوا عقيدة الإسلام على نصارى الأندلس، بل دخل منهم من دخل الإسلام حباً فيه وإيماناً بصدقته ، وبقي النصارى نصارى حتى ردوا للمسلمين الجميل بطردهم من الأندلس مع التعذيب والتنكيل والتشريد على أبشع صورة وعاءها التاريخ . ونشر المسلمون النور في الأندلس وغيرها من البلاد عن طريق مدارسها وجامعاتها وأساتذتها وكتيبها وعلومها وحضارتها ، التي مرت شهادات الشاهدين بها من

١ . سورة البقرة [٢٥٦]

منصفى الغرب على قتلهم ! وكانت الأندلس هى الملاذ الآمن لليهود والنصارى على السواء ، يشعرون فيها بالأمن الكامل فى ظل الحكم الإسلامى ، بينما أوروبا كلها تضطهد اليهود وتنكل بهم ، وبينما النصارى المخالفون لمذهب الكنيسة يعيشون فى رعب دائم من الإرهاب .

وفتح المسلمون الهند ، وحكموها ثمانية قرون .. فلم يفرضوا العقيدة الإسلامية على الوثنيين الهنود ، بل تركوهم لعقائدهم مع أن فيها مالا يعقله عاقل ، من عبادة للبقر ، وتبرك بروثها وبولها .. وإنما فرضوا عليهم فقط أن يكفوا عن بعض عاداتهم الوحشية التى كانوا يمارسونها من دفن الأرملة حية مع زوجها المتوفى ، أو حرقها حية .. من أجل رفع هؤلاء الناس إلى درجة آدمية فى بعض تصرفاتهم دون المساس بعقائدهم . وظل الهندوس محافظين على عقائدهم وتقاليدهم فى ظل الحكم الإسلامى حتى تسلموا حكم الهند بمساعدة الصليبيين الإنجليز، فردوا الجميل للمسلمين بالعدوان المستمر عليهم وتحريق قراهم وتعمد الاثارة الدائمة لهم ، والتهيج الدائم لخواطرمهم ،

كذلك كان فتح المسلمين للأرض .. ومن أجل هذه المعانى الرفيعة أمرهم الله بالقتال لنشر الدعوة .. ومع ذلك فهم لا يبدأون بالقتال ، إنما يبدأون بعرض الإسلام ، فإن لم يقبل منهم فالجزية ، فإن لم تقبل فالقتال من أجل إخراج الناس من ظلمات الجاهلية وظلمها إلى عدل الإسلام وسماحته ، على النحو الذى تم به الأمر فى واقع التاريخ .

وللحرب مع ذلك تقاليد .. بل قل إنها أخلاقيات الإسلام فى كل شئ حتى مع المشركين المعاندين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجيشه يعلمه أخلاقيات الحرب فى الإسلام « اغزوا باسم الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا .. » الحديث « ١ »

ثم إن أعطوا الأعداء عهدا أو موثقا فانه يأمرهم أن يوفوا بالعهد ولا ينقضوا الميثاق ، تحت أى ظرف من الظروف ولأى هدف من الأهداف . فإن خافوا منهم خيانة فلينبذوا إليهم عهدهم علانية ولا يغدروا ولا يفاجنوا عدوهم بالقتال قبل انقضاء العهد :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة . إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجهلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون . ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثيوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم » « ١ »

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين » « ٢ »

ولقد كان معاوية قد أعطى عهدا للروم إلى أمد محدد ، ثم جاءت عيونه تخبره أن القوم يستغلون الهدنة للاستعداد للانقضاض على المسلمين ، فأراد أن يباغتهم ، فاستشار قأبى عليه مستشاروه ، وقالوا له إما أن تنبذ إليهم عهدهم على سواء وإما أن تنتظر إلى نهاية العهد ، والله ينصرك بالطاعة . فانتظر حتى نهاية العهد وانتصر بإذن الله .

ويروى التاريخ كيف غدر الصليبيون بعهدهم مع صلاح الدين وفاجئوا المسلمين الأمنين على بغتة فاحتلوا المسجد فدخلوا عليهم المسجد وأعملوا فيهم القتل حتى غاصت الخيل إلى ركبها في الدماء .. فلما دارت الدورة وانتصر صلاح الدين أبى أن ينتقم منهم - سماحة - ولم يغدر قط بميثاق واحد أعطاهم إياه .

وظل وفاء المسلمين بمواثيقهم في السلم والحرب مضرب المثل خلال التاريخ ، اتباعا لتعاليم الاسلام ، وتخلقا بأخلاق لا إله الا الله .



والاسلام صريح في توجيه أتباعه إلى التميز عن أحوال الجاهلية ، التميز بنظافة السمات ونظافة الأخلاق ونظافة السلوك ، والاستعلاء بالايمان على كل مصدر ليس إسلاميا أو متعارض مع الإسلام ، حتى لو لحقت بهم هزيمة مؤقتة أو ضعف طارئ :

١٠ . سورة السجدة [٩١ - ٩٤]
٢٠ . سورة الأنفال [٥٨]

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ١ .
ومصدر التمييز هو الإحساس بأنهم على الهدى وغيرهم على الضلال ، وإن
المنهج الذى يعيشون به هو المنهج الأعلى لأنه المنهج الربانى ، والذى يعيش
عليه غيرهم هو المنهج الأدنى لأنه منهج جاهل . فهو ليس تميزا مبنيا على
الجنس ولا اللون ولا الجاه ولا الغنى ولا القوة ولا أى معنى من المعانى الأرضية
التي تعتز بها الجاهلية وتستعلى بها على الناس . إنما التمييز المستمد من معرفة
المنهج الربانى واتباعه ..

ومع ذلك كله فكيف يكون التعامل الإسلامى مع غير المسلمين ؟
« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن
تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » ٢ .
« وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من
المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن
محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » ٣ .

كما أنه ليس مقتضى التمييز والاستعلاء هو « مخاصمة » كل ما يأتى من
مصدر غير إسلامى ، إن كان شيئا نافعا فى ذاته ، ولم يكن متعارضا مع
الإسلام ، فقد أخذ المسلمون الأوائل من الحضارة الفارسية والحضارة
البيزنطية ما راوه نافعا لهم ولا يتعارض مع عقيدتهم وأخلاقهم وأفكارهم
وتصوراتهم الإسلامية . إنما مقتضى ذلك ألا يأخذوا من مصدر غير إسلامى
أمرا يتصل بالعقيدة أو يتصل بالقيم أو يتصل بالشرعية أو يتصل بالأخلاق لأن
مرجعهم فى ذلك كله هو كتاب الله وسنة رسوله ، وهو حسبهم وفيه كل
ما يحتاجون إليه فى هذه الأمور . أما « الأدوات » الحضارية ، وأما « العلم »
وأما « التجارب » النافعة فلا خصومة معها ، ولا عداء مادامت لاتصادم أصلا
من أصول الاسلام .

ذلك هو الواقع الإسلامى .. وخلاصته أن « الإنسانية » الحقيقية
« والسماحة » الحقيقية هى الإسلام !

١ . سورة ال عمران [١٢٩]

٢ . سورة الممتحنة [٨]

٣ . سورة المائدة [٥]

فحيث تكون دعاوى الانسانية والعالمية والتسامح في كل النظم مجرد شعارات لارصيد لها من الواقع ، فإنها في الإسلام واقع حقيقى ، لدعاوى ولاشعارات مرفوعة بغير رصيد .

والإسلام دين الله الحق ، وكل أمر فيه - بما في ذلك الجهاد لنشر الدعوة ، والتميز والاستعلاء بالإيمان ، واعتزال أدران الجاهلية وعدم المشاركة فيها - هو أمر ربانى ، لم يبتدعه المسلمون من عند أنفسهم ، ولا قاموا به لصالح أنفسهم ، إنما تنفيذاً لأمر الله . سواء نألمهم منه في الأرض الغنم أو الغرم - بالمقاييس البشرية المحدودة - إنما يصنعونه ابتغاء مرضاة الله ، وطمعا في الجزاء في الآخرة .

ولكن غير المسلمين لا يؤمنون بذلك بطبيعة الحال ، فلانناقشهم بمنطق الإيمان الذى لا يلزمهم . بل نفترض - جدلا - أن كل النظم ذات حق متساو في الوجود وفي الانتشار في الأرض .. فلننظر في الواقع التاريخى نظرة « علمية » « موضوعية » « مجردة » . أى النظم مارس حقه في الوجود وفي الانتشار في الأرض بروح إنسانية حقيقية ، وأياها مارس الوجود والانتشار بسلوك خال من القيم الإنسانية هابط إلى الحضيض ؟!

فمن كان في شك فلينظر إلى الواقع المعاصر وما يتم فيه من ألوان من البربرية الوحشية لاتخطر على البال ، وألوان من نقض المواثيق لاتخطر على البال ، وألوان من العبث بكرامات الشعوب والاستخفاف « بحقوق الإنسان » لاتخطر على البال !

وذلك رغم كل الشعارات المرفوعة ، والقيم المسطرة في ديباجات الدساتير والمعاهدات والمواثيق !

أما الإسلام فلا يداور ولا يناور ، ولا يرفع الشعارات البراقة بلا رصيد . إنما هو رغم الصراحة الحاسمة التى يعالج بها كل أمر ، هو الذى يطبق الروح الانسانية الحقيقية والتسامح الحقيقى .. ولا عجب في ذلك ، فإنما هو المنهج الربانى الحق لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الصراط المستقيم الذى لا عوج فيه .

الاحاد

الإلحاد - بمعنى إنكار وجود الله ، والقول بأن الكون وجد بلاخالق أو أن المادة أزلية أبدية ، وهى الخالق والمخلوق فى ذات الوقت - بدعة جديدة فى الضلالة فيما أحسب ، لم توجد من قبل فى جاهليات التاريخ السابقة ، ومن المؤكد على أى حال أنها لم توجد بهذه الصورة وبهذا الاتساع الذى تمارسه الجاهلية المعاصرة ، فى أى فترة سابقة من فترات التاريخ .

وبعض الناس يشير إلى الآية الكريمة : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ١ « ويستدلون منها على أنه وجد فى الجاهلية العربية (وبالتالى فى غيرها) من ينكرو وجود الله ، وأن هؤلاء الدهريين كما أطلق عليهم هم صنو القائلين بالطبيعة المنكرين لوجود الله .

والآية - فيما أرى - لاتعطى هذه الدلالة بصورة قاطعة ، فإنها تقطع فقط بأن القوم المشار إليهم ينكرون البعث ، ولكنها لاتقطع بأنهم ينكرون وجود الله .

وما لم يثبت من مصدر يقينى ٢ « أنه وجد فى العرب أو فى غيرهم من الأمم من قبل من ينكر وجود الله ، فأغلب الظن عندى أن هؤلاء القوم المشار إليهم فى الآية هم الذين يؤمنون بوجود الله وبأنه هو الخالق المدبر ثم ينكرون قدرته سبحانه وتعالى على بعث الموتى بعد أن يصيروا ترابا وعظاما : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » ٣ « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل : من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ٤ « ومع إقرارهم بذلك كله فقد كانوا ينكرون البعث إنكارا شديدا ويعجبون ممن

١ « سورة الجاثية [٢٤]

٢ « أى حديث مقطوع بصحته .

٣ « سورة لقمان [٢٥]

٤ « سورة المؤمنون [٨٤ - ٨٩]

يقول به : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » ١ .

فتكذيبهم بالبعث لم يكن ناشئا من إنكارهم لوجود الله، إنما من إنكارهم قدرته سبحانه وتعالى على إحياء الموتى بعد أن بليت أجسادهم وضلوا في الأرض : « وقالوا إذا ضللنا في الأرض أثنا لفي خلق جديد » ٢ .

ولذلك كان الجدل معهم في هذا الموضوع يدور كله حول معنى واحد هو أن الذى خلق الخلق من العدم أول مرة قادر على أن ينشئهم مرة أخرى :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » ٣ .

« وقالوا إذا كنا عظاما ورفاتا أثنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ؟ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا » ٤ .

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه . وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ٥ .

والذين أطلق عليهم اسم « الدهريين » قوم ينكرون البعث إنكارا مطلقا ، ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا ، أى لا توجد حياة أخرى بعدها . يموت منا من يموت ويحيا منا من يحيا ، وما يهلكنا إلا مرور الزمن . فكلما مر الزمن ماتت نفوس .. ولكن لا بعث وراء ذلك ولا حياة . أما إنكارهم لوجود الله فاستدلال لاتدل عليه الآية دلالة صريحة ولادلالة لازمة . والقوم إنما نسبوا إلى الدهر - أى إلى مرور الزمن - أنه هو الذى يهلكهم ، ولكنهم لم يقولوا إن الدهر هو الذى خلقهم أو هو الذى منحهم الحياة . أى أنهم لم يتخذوه إلها بدلا من الله !

١ . سورة سبا [٧ - ٨]

٢ . سورة السجدة [١٠]

٣ . سورة يس [٧٨ - ٨٢]

٤ . سورة الإسراء [٩٨ - ٩٩]

٥ . سورة الروم [٢٧]

وحتى لو فرضنا جدلا - بغير دليل يقيني - أنهم أنكروا وجود الله ، فليس هناك من يقول إنهم كانوا كثرة يحسب لها حساب ، ولا إنهم كانوا هم الصورة الغالبة للجاهلية . أما إنكار وجود الله على النحو الذى تتبجح به الجاهلية المعاصرة ، وبالسعة التى تمارس بها ذلك التبجح ، فأمر غير مسبوق فى تاريخ البشرية ..

ذلك أن الفطرة بذاتها تعرف وجود الله ، وتتجه إليه اتجاها فطريا بالعبادة على نحو من الأنحاء .. ولو ضلت الطريق ! ولم يكن الضلال الغالب على البشرية فى جاهلياتها هو إنكار وجود الله ، إنما كان الضلال الغالب هو الشرك ، وتصور الله على غير حقيقته . فقد يتصورون أنه هو الشمس أو هو القمر أو هو النجم أو ما إلى ذلك من المخلوقات . « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » ١ «

« وأنه هورب الشعرى » ٢ «

أو يتصورونه آلهة متعددة متعادلة فى القوة والسطوة كإله الخير وإله الشر عند الفرس ، يتنازعان أبدا ولا يغلب أحدهما الآخر ، أو غير متعادلة كما كان الرومان والإغريق يؤمنون بوجود إله كبير هورب الأرباب ، ودونه آلهة شتى ، وكما كان العرب فى جاهليتهم يؤمنون بأن الله هورب الأرباب الخالق الرازق المهيمن ، وثمة آلهة أخرى يشاركونه فى بعض الأمر فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى :

« والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ٣ « . ولم يبعث الله رسولا ولا نبيا ليقول للناس إن هناك إلهاء فالفطرة تعرف ذلك بغير رسول ! ولا ليقول لهم إن هناك إلهاء فاعبدوه . فالفطرة تتجه بالعبادة تلقائيا إلى الإله الذى تعتقد بوجوده بغير رسول ! فقد أودع الله ذلك كله فى الفطرة والبشر ما زالوا فى عالم الذر :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا » ٤ « !

١ « سورة فصلت [٢٧] ٢ « سورة الزمر [٤]
٣ « سورة النجم [٤٩] ٤ « سورة الأعراف [١٧٢]

إنما الذى أرسل به الرسل جميعا هو « التوحيد » :

« فاعلم انه لا إله إلا الله » ١ .

« اعبدوا الله مالكم من إله غيره » ٢ .

وذلك لتصحيح مسار العقيدة وتقويم الفطرة مما تقع فيه من الضلال ، لا لإنشاء العقيدة ابتداء وإثبات وجود الله :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ٣ .

نعم .. تعرف الفطرة بذاتها وجود الله ، وتتجه إليه بالعبادة منذ أن أخذ الله من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم .. ولاندرى نحن كيف تم ذلك ..

ولكننا نلاحظ من أحوال الفطرة مصداق تلك الحقيقة .

هناك منافذ فى الفطرة تتلقى إيقاعات من الكون والحياة ، فتستيقظ من غفلتها ، إن كانت غافلة ؛ فتروح تتسأل : ما وراء ذلك ؟ ومن وراء ذلك ؟ ..

فتتهدى إلى وجود الله ثم تتصوره على حقيقته ، فردا صمدا خالقا رازقا مدبرا مهيمنا .. فتعبده العبادة الحقة وتخلص له العبادة ، أو تضل فتتصوره على غير حقيقته ، وتشرك معه إلهة أخرى . ولكنها فى الحالين تعرف وجوده ، وتتوجه إليه بالعبادة على نحو من الأنحاء .

هناك بادئ ذى بدء هذا الكون الهائل ، الذى يروع الحس بضخامته المعجزة .

وبغير الأدوات التى استحدثها الإنسان لتزيد بصره حدة ، وتجعله ينفذ فى أماد الكون المتطاولة التى لا تنفذ إليها النظرة بالعين المجردة ، كان الإنسان يحس بضخامة الكون وسعته المعجزة ، من رؤية السماء التى لا يحيط بها بصره ، ورؤية الشمس والقمر ، ورؤية العدد الهائل من النجوم التى يعجز عن إحصائها .. وكان يروعه ذلك كله ويسترعى انتباهه فيظل يفكر فيه ، ويتساءل .. أو تتساءل فطرته ، من وراء ذلك ؟ وماذا وراء ذلك .. فيتهدى الى الله الحق ، أو يضل فيتصور الشمس هى الله ، أو القمر هو الله ، أو النجم هو

١ . سورة محمد [١٩]

٢ . سورة هود [٦١]

٣ . سورة الروم [٢٠]

الله .. أو أنها جميعا آلهة في وقت واحد . ولكنه في كل حالة يعلم أن هناك خالقا لهذا الكون الهائل ، فيتخيله على صورة من الصور ، ويعبده لونا من العبادة ، يحتوى على ركوع وسجود ، وشعائر أخرى والتزامات .
وحيث مد الإنسان ببصره إلى داخل الكون من خلال المناظير رأى عجباً يأخذ بالآلياب !

رأى أن الشمس كلها والمجموعة الشمسية من حولها ليست إلا « نجما » واحدا من نجوم لا تحصى في مجموعة واحدة تعرف « بالمجرة » وأن المجرة التي فيها شمسنا ليست إلا واحدة من مجرات أخرى غيرها في الكون تعد بالملايين ! كلها ذات نجوم تعد بالملايين !

ورأى أن هناك نجوما تبعد عنا عدة آلاف .. لا من الأميال .. ولا من ألوف الأميال (أى ألوف الألف) ولكن من السنين الضوئية ! أى المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة وهى رقم فلكى لا يتعامل به البشر على سطح الأرض :

$$= 186000 \times 60 \times 60 \times 24 \times 36525 = 58697136000 \text{ ميلا تقريبا .}$$

ورأى من حيث الحجم أن هناك نجوما تبلغ أضعاف حجم شمسنا ، التى لانراها بطبيعة الحال في حجمها الطبيعى لأنها تبعد عنا حوالى ٩٣ مليون ميل ، وأن هذه النجوم تبدو لنا مجرد نقط في الفضاء رغم حجمها الهائل ذلك ، لأن مسافتها منا شيء مذهل ، لا يقاس إليه بعد شمسنا منا .. وأن المسافة بين نجم ونجم في هذا الفضاء لا يكاد يتصورها العقل .. فما بال الفضاء كله ؟ كم حجمه ؟ ما أبعاده ؟ هل هو منته أم ممتد بلا انتهاء !

وعلم - من طريق المناظير - أن الكون المرئى كله إن هو إلا جزء من الكون فحسب ، وأن نسبته إلى الكل أمر لا يمكن تحديده ، لأنه لم يمكن بعد تحديد مقدار ذلك « الكل » .. لأنه كلما اخترع الإنسان آلة أبعد .. بداله من الكون مزيد لم يكن يراه من قبل ، ولم يكن يحسب أنه كائن في الوجود !

ومع هذه الضخامة المعجزة يلحظ الحس البشرى دقة معجزة كذلك .
ومن قبل أن يتوصل الإنسان إلى الأجهزة الدقيقة البالغة الدقة ليقيس بها مقدار الدقة في هذا الكون ، كان يرى ما يروع حسه ويستغرق انتباهه .
كان يرى الدقة العجيبة في تتابع الليل والنهار بمواعيد مضبوطة على مدار

العام ، والدقة العجيبة في مسار الظل وتغيره يوما عن يوم حتى يعود إلى نفس مكانه بعد عام كامل من كل يوم .. ومن هنا نبتت فكرة المذولة ثم فكرة الساعة وكان يرى الدقة في مسار القمر وتغير أوجهه ليلة بعد ليلة حتى يعود إلى نفس وضعه بعد شهر كامل من كل يوم يرصد فيه .. وكان يرى دورة النبات من البذرة المغمورة في الأرض ، إلى الشطأ الذي يخرج منها ، إلى الساق والأغصان والأوراق ، إلى الزهرة والثمرة والبذرة في نهاية المطاف .. وكان يرى الزهرة الملونة تتكون من خيوط دقيقة ومساحات دقيقة من اللون يعجز الرسام الماهر أن يرسمها بهذه الدقة ، ويعجز عن تكرارها بنفس الصورة في رسم آخر فضلا عن ألوف وملايين ؛ ولكنها في الطبيعة تبرز ملونة بهذه الدقة في كل زهرة دون جهد مبذول . ويرى ريشة الطائر الملون مكونة من عدد لا يحصى من الخطوط والخيوط ، كل يحمل نصيبا دقيقا من اللون يعجز الرسام أن يرسم مثله في دقته ، ثم يحدث من تجمعها في الريشة ذلك المنظر البهيح الذي يروع النظر ويروع الحس . وكان يرى دقة دخول الليل في النهار حتى يتلاشى الضوء ، ودقة دخول النهار في الليل حتى يتلاشى الظلام .. وكان يرى أشياء وأشياء توقظ فطرته إن كانت غافلة فيتساءل : هل يمكن أن توجد هذه الدقة العجيبة كلها بغير موجد ؟ ثم يروح يتطلع الى الموجد ، فيهتدى إلى أنه حقيقة لا تدركها الأبصار فيؤمن بالله على بصيرة ، ويعبده على بصيرة ، أو يضل فيتصور أنه الشمس أو القمر أو النجوم أو الروح الساكنة في التمثال الذي ينحته بيديه .. ولكنه في كل حال يعلم أنه لابد من خالق خلق هذا الوجود بتلك الدقة التي يلحظها في تلك الكائنات حوله .

ثم مد الإنسان ببصره إلى داخل هذا الكون المعجز عن طريق الأدوات التي استحدثها فرأى عجا لم يكن يخطر له على بال ! رأى هذا الكون العجيب كله مكونا من ذرات متناهية في الدقة لا تراها العين المجردة ، إنما ترسمها الأدوات التي استحدثها الإنسان ، في صورة شمس تدور حولها كواكب على ذات النمط الذي تتكون منه المجموعة الشمسية ولكن في دقة متناهية لا يدركها الحس . وفي كل قطعة صغيرة من المادة ملايين وملايين من هذه الذرات متراكبا بعضها مع بعض ، ومشدودا بعضها إلى بعض ، بذات القوة التي تمسك الكون كله ببعضه إلى بعض ، وتسمح له بالحركة الدائبة دون أن يصطدم أو يتناثر ، والتي أطلق عليها اسم « قوة الجاذبية »

بل رأى أعجب من ذلك حين فتت الذرة وأطلق منها « الطاقة » .
إن الذرة ليست « مادة » مصمته كما كان يتخيل أول الأمر ، وليست هي الصورة النهائية « للمادة » ولكنها جسيمات كهربية موجبة وسالبة ومتعادلة ، يمكن تفتيتها وتفكيكها فتتحول إلى طاقة ، والطاقة يمكن أن تتحول إلى مادة . ولا يوجد ذلك الحاجز الذي كان يتخيله بين المادة وبين الطاقة .. والكون في النهاية طاقة تأخذ صوراً شتى . صورة متكتلة في هيئة المادة ، وصورة منطلقة في هيئة شعاع ضوئي ، وصورة منطلقة في هيئة جاذبية مغناطيسية ، أو مغناطيسية كهربية تحير الألباب !

ورأى من بين ما رأى عجباً عجباً في تكوين الجنين ونموه المتتابع حتى يصبح خلقاً تام التكوين .

فهو في أصله بويضة ملقحة وحيدة الخلية ، تتكاثر عن طريق الانقسام المستمر إلى خلايا جديدة متشابهة في التكوين ولكنها متخصصة . وإلى أن تكون مضغة لا يظهر للعين ذلك التخصص . ولكن في وقت معين مقدر محدد ، تصدر لكل خلية أوامر خفية . فهذه الخلية يصدر لها أمر أن تكون هي الأنف ، وتلك الخلية يصدر لها أمر أن تكون هي العين ، وثالثة يصدر لها الأمر أن تكون هي القلب . ثم تتكاثر كل منها على النحو المقدور لها فيتكون من تكاثرها أنف وعين وقلب وبقية الأعضاء ..

ثم هناك « الجينات » أو « المورثات » متناهية في الصغر كالذرات .. عجيبة كل العجب في شأنها كله .

فكل جنس من أجناس الكائنات له عدد محدد من « الكروموسومات » حاملات الصفات الوراثية لا يتجاوزها في كل فرد من أفرادها ، تحدد له خصائصه كلها من أعضاء وقدرات وأعمال ، فالكلب له عدد من « الكروموسومات » معين ، والحصان له عدد معين والقرد له عدد معين .. والإنسان هو أكثرها عدداً .. ولا يتجاوز كل جنس حدوده إلى جنس آخر ، محكوماً بعدد هذه الكروموسومات وماتحملة في داخلها من الخصائص .. فلا يستطيع القرد أن يكون إنساناً في يوم من الأيام ولا في جيل من الأجيال ! ثم هذا الإنسان ، أعجب مخلوقات الله وأشدّها إعجازاً ، وإن كان الخلق كله معجزاً بالنسبة إلينا ، وهينا بالنسبة للمخلوق الذي يقول للشيء كن فيكون ، ولا يتعب في تشكيله وتكوينه كما تتعب المخلوقات !

عدد « الكروموسومات » بالنسبة للإنسان كله واحد .. ولكن الإنسان أكثر كائنات الخلق تعدداً في صورته وأشكاله . فهذا قصير وهذا طويل ، وهذا أبيض وهذا أسود ، وهذا أزرق العينين وهذا داكن .. وهذا عبقرى وهذا خامل .. وهذا موهوب في الأدب وهذا موهوب في الرياضيات .. وهذا جلد صبور وهذا مستثار حائر .. كل إنسان تركيبة وحده ، وهو مكون من ذات العناصر .. من ذات العدد من حلاَمَلات الصفات الوراثية التي يحملها « الإنسان » ولكنها في كل فرد غيرها في الفرد الآخر ، فلايكاد يتماثل اثنان في ملايين البشر في الجيل الواحد ولا في جميع الأجيال . بل تصل الدقة في بصمات الأصابع إلى حد تصبح معه من وسائل التعرف لأنها لا تتكرر في فردين اثنين من بين ملايين الأفراد !

كيف يحدث ذلك كله ؟ كيف تحدث هذه العجائب التي لا ينقضى العجب منها سواء في تكوين المادة أو في تكوين الكون كله ، أو في المادة الحية من أول الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان ، أو التناسق و « التوازن » في بنية الكون ، وخاصة ذلك التوازن الكائن في تلك المجموعة الشمسية التي منها أرضنا ، والتي يتبدى التنسيق الدقيق فيها بحيث لو اختلف عنصر واحد منها ما أمكنت الحياة على صورتها الحالية ولا أمكن استمرار الحياة .. لو اقتربت الأرض من الشمس أكثر تحترق الكائنات الحية ولو ابتعدت أكثر تهلك من الصقيع .. لو اقترب القمر من الأرض أكثر لارتفع المد حتى يفرق كل الأرض .. ولو زاد الأكسجين لاشتعلت الكائنات ولو قل لم تجد كفايتها للحياة .

كيف يحدث ذلك كله ؟ من غير خالق مدبر حكيم ؟

ويتلقى الحس البشرى إيقاعات من الحياة من حوله . الحياة ذاتها إعجاز .. كيف تكونت الحياة أول مرة من الموات ؟

ثم كيف تعددت على هذا النحو الذي نراه ، من نبات وحيوان وإنسان ؟ ثم في أنواع النبات المختلفة وأنواع الحيوان المختلفة وأشكال الإنسان المختلفة ؟

ما الحياة ؟ وما سرها ؟ من واهبها ؟ وكيف يهبها ؟

كيف « ينمو » الكائن الحي وتتغير أحواله من طور إلى طور .. ؟

والكائن البشرى بالذات .. المعجز في كل تفصيلاته .. كيف تتم عمليات النمو المختلفة فيه .. كيف يتعلم الكلام ؟

إن الكلام ذاته معجزة لا يحيط بها العقل البشرى ! كيف تم للبشر أن ينطقوا

بلغلة ذات رموز وتراكيب ؟ كيف تأتّى للأصوات المبهمة أن تكون ألفاظا محددة ، وكيف تم للألفاظ أن تعبر عن المعانى .. وكيف تعددت اللغات التى تعبر عن ذات المعانى ما بين شعب من البشر وشعب ، وكلهم « نوع » واحد ، يعانى تجربة واحدة هى تجربة الحياة فى هذه الأرض ؟!

وهذه المعانى .. هذه الأفكار المجردة .. كيف تمت ؟

وعملية التفكير ذاتها .. وعملية التذكر .. كيف تتم هذه وتلك ؟

وكيف « ينمو » هذا كله مع نمو الطفل .. كيف تنمو قدرته على الكلام ، وقدرته على التفكير والتذكر ؟

وكيف اختص « الإنسان » - دون مقدمات من الكائنات الأدنى منه - بخاصية التفكير المجرد ، وخاصية الرمز للأفكار بالكلمات ذات الأصوات والحروف والمقاطع ، وخاصية الإبداع المادى والمعنوى ، فصارت له حضارة وصار له تاريخ ؟!

ثم .. ذلك الجانب الآخر من « الحياة » الذى يسمى « الموت »

ماسره ؟ كيف يحدث ؟ من الذى يملكه ؟

إن الطفل - لفرط حيويته - يتخيل الوجود كله « حيا » مثله .. ويتخيل أن الحياة هى الأمر الطبيعى لكل الأشياء .. فيتعامل مع اللعبة التى يلعب بها ، كما يتعامل مع الباب والنافذة والكرسى والعصا على أنها كائنات حية ، تفهم عنه لغته التى لم تتبلور بعد ، وتتجاوب معه وإن لم تنطق بحرف !

ثم ينمو إدراكه ويعرف بطبيعة الحال أن هناك أحياء حقيقيين ، وأشياء أخرى لاشياة فيها ، كان هو يخلع الحياة عليها فى طوره السابق ، واليوم يعلم أنها لا تتحرك من ذات نفسها ولا تأكل ولا تشرب ولا تتغير حالها كما تتغير أحوال الأحياء ، ولكنه من فرط حيويته لا يزال يخلع عليها الحياة وهو عالم بأنها غير حية فى حقيقتها ، ويكلمها ويتخيل أنها ترد عليه ، ويضربها أو يربت عليها ، ويتخيل أنها تتألم وتبكي أو تسر وتفرح ، كما يتخيل الشاعر فيما بعد وهو يكلم الأطلال ويستوحىها ويناجى « الطبيعة » ويتخيل أنها ترد عليه !

ثم ينضج فى يوم من الأيام حتى يدرك إدراكا لالبس فيه أن هناك فارقا حاسما بين الأحياء وغير الأحياء من الكائنات ، ولكنه بعد يفترض أن الحياة دائمة فى الأحياء كما أن الجمود دائم فى الجوامد من الأشياء .

ولكنه ذات يوم يفاجأ بحقيقة الموت ، وبأن « الحياة » ليست دائمة كما كان

يظن . ذلك حين يموت أمامه كائن حتى يعرفه ، سواء كان القطة التي كان يلهو بها ، أو العصفور الذي يراه يقفز فوق الأغصان ، أو قريبا له كان يحبه ويتعلق به .. وعندئذ تفعل المفاجأة فعلها في نفسه ، فتتهزه من أعماقه وتثير الآسى في قلبه .. ويظل التأثر بالموت يصاحبه كلما جد له داع من دواعيه .. حتى يأخذ دوره في الركب الراحل عن الحياة ..

وتظل الظاهرتان معا ، ظاهرة الموت وظاهرة الحياة ، تهزان كيانه ، وتبعثانه يتساءل : من وراء ذلك ؟ من وراء الحياة يخلقها بكل مظاهرها ، ومن وراء الموت الذى ينهى الحياة ويقف دفعتها عن السريان ؟! ويهتدى فيعرف الله على حقيقته ، وأنه هو المحيى المميت ، أو يضل فينسب الحياة إلى مصدر والموت إلى مصدر آخر كما كان يفعل « الدهريون » ، أو ينسبهما معا إلى آلهة أخرى غير الله . ولكنه يعلم - على الأقل - أن واهب الحياة هو خالق الخلق فيتعبده ويترضاه .

ويتلقى الحس البشرى إيقاعات كذلك من جريان الأحداث من حوله :

فهذا الوجود حوله ليس ساكنا في أى حالة من حالاته .

فهناك الليل والنهار حركة يومية دائبة تنقل الأشياء كلها من النور إلى الظلمة ومن الظلمة إلى النور ، وهناك دورة الفلك حركة سنوية دائمة تنقل الأشياء كلها من الربيع إلى الصيف ، ومن الصيف إلى الخريف ومن الخريف إلى الشتاء ومن الشتاء إلى الربيع ، مع ما يصحب ذلك من اختلاف مستمر في الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة واخضرار الزرع وجفافه وإيناعه وإثماره ونضجه وسقوطه ، واختلاف مستمر في نشاط الإنسان وأحواله بما يناسب الجو وأحواله والعمل وأحواله .

وهناك حركة الحياة والموت في الأحياء لايوصفها « ظاهرة » ولكن بوصفها حركة تنتج عنها أحداث . هذا يولد وهذا يموت ، وهذا يكون صغيرا فينمو ، وصحيحا فيمرض أو مريضا فيصح . وهذا غنى فيفتقر أو فقير فيغنى . وتولد دول وتولد أخرى ، وتحدث حروب وسلم ، وهزيمة ونصر ، ورفع في مكانة الناس وخفض ، وتقدم وتأخر ، وعز وذل ..

وتتشد الأحداث انتباه الناس وتهزهم ، فيروحون يتساءلون : هل هناك « رابط » بين الأحداث ؟ وهل هناك « نظام » ؟ أم إنها تحدث كيفما اتفق ؟ وهل

وراءها غاية أم يسير الوجود كله بلاهدف ولاغاية ؟ وماالغاية إن كان هناك ؟
ومن صاحب الغاية ؟ ومن يدبر الأحداث ؟ ويهتدى الإنسان إلى الحقيقة ،
فيعلم أن مدبر الأحداث هو خالق الكون ، وأنه يجرى الأحداث بمشيئته
وقدره ، وأن له حكمة من وراء ذلك يعلمها البشر أحيانا ويجهلونها أحيانا .. أو
يضل فلايعرف الغاية ولايعرف الحكمة ويحسب الأمور تجري خبط عشواء ..
ولكنه في كل حالة يعلم أن هناك مشيئة تجري بمقتضاها الأحداث ، وأنها ليست
مشيئة البشر إنما مشيئة كائن أعلى من البشر ، فيشعر نحوه بالرهبة وقد يشعر
نحوه بالإجلال ..

ويتلقى حس الإنسان إيقاعات « ذاتية » دائمة من شعوره الدائم بالعجز ..
يولد الطفل عاجزا تمام العجز لايقدر على شيء .. ولولا رعاية الذين يحيطونه
وإمدادهم له بالغذاء وقضاؤهم له حاجاته مااستطاع أن يعيش . ورويدا رويدا
يقدر على شيء من الحركة وهو محمول في حضن والديه أو المكلفين برعايته ،
حتى يستطيع في وقت من الأوقات أن يجلس مستقلا بعض الشيء . وفي اللحظة
التي « يقدر » فيها على الجلوس يحس « بالعجز » عن المشي ! ويجاهد حتى
يتمكن أخيرا من الحبو على الأرض .

وفي اللحظة التي يقدر فيها على الحبو يحس بالرغبة في الوقوف والعجز عن
تحقيق تلك الرغبة ! وفي مرحلة تالية يتمكن من الوقوف ولكنه يحاول المشي فيقع
على الأرض ويحس بالعجز عن تحقيق مايريد .. وتمضى الأيام والسنون فيمشي
ويجرب ويخرج إلى الطريق ويتعلم العلم ويحس « بالقدرة » على أشياء كثيرة لم
يكن يقدر عليها من قبل ..

فهل تنقضى رغباته ؟ وهل يكف عن الشعور بالعجز ؟

كلا ! إنه هكذا ركب في طبيعته .. كلما حقق حلما راح يشفق جديدا ، ولم
يقنع بما وصل إلى تحقيقه بالفعل ، حتى حين ركب الصاروخ ووصل إلى القمر
ونزل على سطحه .. حتى حين سيطر على كثير من شئون البيئة من حوله ونظمها
حسبما يريد .. حتى حين اخترع من الآلات ما صار يحقق في جزء من الثانية
ماكان يتسغرق منه الساعات والأيام والشهور ولايحكم تنفيذه .. حتى حين
وصل إلى ذلك كله فهل رضيت نفسه ، وقال : لقد حققت وجودى كاملا فما أربغ
المزيد ؟!

كلا ! إنه يريد في حقيقة الأمر شيئا لا يقدر عليه ، ويحس « بالعجز » الدائم عن تحقيقه ، يريد أن يسيطر على الكون . يريد أن يقول للشيء كن فيكون ! ويعلم الإنسان في دخيلة نفسه أنه عاجز عن تحقيق ذلك . وأنه مهما أوتى من القدرة والسيطرة على بعض جوانب الوجود ، فإن بينه وبين السيطرة الحقيقية التي يحلم بها أمدا لا يمكن بلوغه ، لأن مدى قدرته محدود بحدود ، ومدى عمره محدود بحدود ، ومدى تمتعه - في عمره المحدود - بالصحة والقوة والنشاط والقدرة محدود بحدود !

وهكذا يشعر الإنسان بالعجز كلما شعر بالقدرة ! ولا يصفوله قط الشعور بالقدرة الكاملة التي يحلم بها في كل مراحل عمره ، فضلا عن أنواع العجز التي يعلم أنها مفروضة عليه لا محالة ، ومن بينها الموت الذي يعجزه عن الخلود ! ومن شعور الإنسان بالعجز الدائم الذي يلاحقه حتى آخر لحظة من حياته يلتفت الحس البشرى إلى الكائن الذي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض !

كل شيء يعجز عنه هو يقدر عليه ذلك الكائن الذي لا يعجزه شيء ! الخلق من العدم بادئ ذي بدء ، والسيطرة المطلقة على كل شيء ، والتسخير المطلق لكل شيء ، والقوة التي لا يقهرها شيء وهى تقهر كل شيء ، والمشيئة التي تحقق كل شيء في لمح البصر لأنها تقول للشيء كن فيكون .. والخلود الأزلى الأبدى صفة يتفرد بها ذلك الكائن الذي لا يعجزه شيء .. وكل ما عداه يفنى ويذول ..

عندئذ يتحول الحس إلى ذلك الكائن الذي قدرته لاتحد .. فيهتدى ، ويعرف الله على حقيقته ويعبده حق عبادته : أو يضل فيظن ذلك الكائن هو الشمس أو القمر أو النجم أو الروح القاطن في الوثن الذي ينحته بيديه .. ولكنه يعلم في كل حالة أنه هناك . أنه موجود ، وأنه إله ، وأنه معبود ، فيتقدم إليه بالشعائر ، ويلتزم نحوه بلون معين من السلوك .

رغبة أخرى من رغبات الإنسان لاتقل عمقا في نفسه عن رغبة السيطرة ورغبة الخلود ، يحس فيها الإنسان بالعجز المطلق الذي لاتحده حدود ، تلك هى رغبته في استكناه الغيب !

الرغبة في معرفة الغيب قديمة قدم الإنسان على الأرض .. وستظل تصاحبه طالما كان هناك بشر يعيشون في الأرض !

يريد الانسان أن « يطمئن » على حياته .
كم سيعيش ؟
هل يسلم من الأحداث ؟
هل يستمتع بالقوة والصحة والنشاط والحيوية فيما قدرله من العمر ؟
هل يحقق أحلامه ؟ يتزوج ويسعد ويحصل على الثروة والجاه .. أو يكون
بطلا مجاهدا .. أو يكون زعيما قائدا .. أو ..
ماذا يكسب غدا ؟
بأى أرض يموت ؟
عشرات من التساؤلات ومئات .. يريد أن يعرفها « ليطمئن » ..
ويروح يستكنه الغيب فلا يقدر ..
لاغيب السنوات القادمة ولا الشهور ولا الأيام .. بل غيب الساعات القليلة
القادمة .. بل غيب اللحظة المقدمة عليه ، التى دخل أولها من الباب ومازال
أخرها محجوبا بحجاب !
كيف يَقْدِرُ والغيب وراء الأستار ؟!
هل تنزاح الأستار ؟!
يمضى الإنسان - فى جاهليته - نحو الكاهن والعراف ، يستلهمه أمر
الغيب ، ويتعلق بكل كلمة تخرج من شفثيه كأنها أسرار الغيب الحقيقى ..
ولكن .. هل يستطيع ؟ هل « يطمئن » ؟
وحين يهتدى يعرف أن الكاهن والعراف والمنجم وضارب الرمل والشياطين
والجن كلهم محجوبون مثله عن الغيب ، فيكف عن طلب الغيب منهم ، ولكن هل
تغادره الرغبة فى أن يعلم سر الغيب ، ويطمئن على نفسه ومن يحبهم من حوله
ويخاف عليهم ؟
يروح يستلهم حسه الباطن .. ويستلهم الرؤى .. ويستلهم تلك القوة الخفية
فى نفسه التى تقدر على الاستشفاف .. ولكن هل يستطيع ؟ هل « يطمئن » ؟
كلا ! إنه يشعر بالعجز الكامل عن النفاذ وراء الأستار ، ويظل الغيب
المحجوب ملفعا بالحجاب ..
عندئذ يتحول الحس إلى الكائن الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات
ولا فى الأرض ، لأنه هو العليم بكل شيء ، وهو خالق الأحداث والأشياء وكل شيء
سائر بمشيئته وحده لا بمشيئة أحد سواه .

ويهدى فيعرف أن الله الحق علام الغيوم ، أو يضل فيظنه كائننا آخر ..
ولكنه يعلم دائما أن أسرار الغيب مكشوفة للكائن العلوى الذى يخلق ويبدع
وينتهى إليه مصير كل شيء ، فيعبده لونا من العبادة ، ويلتزم نحوه بلون من
السلوك .

تلك بعض منافذ الفطرة التى تتلقى إيقاعات الكون والحياة ، فتستيقظ من
غفلتها إن كانت غافلة ، فتروح تبحث عن الله سواء اهتدت إلى الله الحق أم
ضلت في الطريق ..

لذلك فإن الفطرة دائما تعرف وجود الله ، وتؤمن به في داخل أعماقها ، وإن
ضلت عن الهدى فتصورت الله على غير حقيقته أو اشركت به آلهة مزعومة ليس
لها وجود .

أما أن تنكر الفطرة وجود الله أصلا ، وتقول إن الخلق قد وجد بلا خالق ..
فبدعة في الضلال غير مسبوقة في التاريخ .

صحيح أن الحس البشرى بحكم الإلف أو العادة يتبدل ..
يتبدل على المنظر المكرور فلا يعود يهزه كما هزه أول مرة . ويتبدل على المعنى
المكرور أو الحدث المكرور فلا يعود يستجيش مشاعره كما استجاشها أول
مرة . فيعيش في وسط الآيات غافلا عن دلالتها ، ويموت قلبه فلا يتحرك لمعنى
الآلهية كما ينبغي له أن يتحرك .. فيعيش كما تعيش السائمة :
« أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » ١

وصحيح أن البشرية حين يطول عليها الأمد « تتعب » من الإيمان بمالا
تدركه الحواس ، وتتجه إلى المحسوس ، فتنشئ آلهة محسوسة تعبدها من دون
الله أو تعبدها مع الله ، في صورة أوثان وأصنام ، أو في صورة بشر ، أو في
صورة أفلاك .. وذلك لأن الإيمان بما لاتدركه الحواس يستلزم أن يكون
الإنسان في وضعه الطبيعى - أو الفطرى - كما خلقه الله ، تعمل كل أجهزته
في وقت واحد ، فتعمل أجهزة الإدراك الحسى جنباً إلى جنب مع أجهزة الإيمان
المعنوى أو الإيمان بما لاتدركه الحواس ، عملاً فطرياً طبيعياً متناسقاً ينتج عنه
الإيمان بالله عن طريق رؤية آياته في الكون ، والإيمان به إيماناً مباشراً عن

١ « سورة الإعراف [١٧٩]

طريق الروح ، فيعمق كل منهما الآخر فيوصل إلى درجة اليقين .
فإذا طال على البشرية الأمد يحدث « هبوط » في كيان الإنسان ، يعطل
أجهزة الإدراك المعنوى تعطيلًا جزئيًا أو كاملاً ، وتبقى أجهزة الإدراك الحسى
هى التى تعمل ، وعلى قدر الهبوط يكون نوع الشرك ودرجته .. فيظل صاحبه
مؤمنًا بالله ويشرك به آلهة محسوسة ، أو يؤمن بالآلهة المحسوسة وحدها من
دون الله .

وصحيح أن البشرية فى حالة هبوطها تنجح إلى ثقل الأرض فتشدها
الشهوات إلى أسفل ، فتتغلب من تكاليف الدين والتزاماته . تتغلب من « قيد
الإنسان » الذى تصاحبه « حرية الإنسان » وتجنح إلى « حرية الحيوان » التى
تصاحبها قيود الحيوان « ١ » ولكنها - فى مبدأ أمرها على الأقل - تحب أن
تسند هذا التغلب بأمر شرعى !

« وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ٢ »
ورويدا رويدا تحتاج إلى اختراع آلهة تسند إليها ذلك التغلب ، من البشر أو
غير البشر ، تتخذ أربابا مع الله أو من دون الله :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما
أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » ٣ »
وصحيح أن الطغاة فى الأرض يضيّقون بالقيد الربانى الذى يجعلهم عبيدا
لله ككل العبيد ، خاضعين لأمره منفذين لشريعته ، ويريدون أن يكون لهم
السلطان الطاغى فى الأرض ، ويريدون أن يكون الولاء لهم لا لله . فيضيّقون
دائما بديانة التوحيد ، وبإخلاص العبادة لله وحده ، فيفرضون أنفسهم بالقوة
الغاشمة وبالإرهاب أربابا من دون الله أو مع الله ، هم الذين يشرعون ، وهم
الذين يفرضون التشريع ، وهم الذين يعاقبون « عبيدهم » إذا خرجوا على ذلك
التشريع .

وفى هذه الحالات كلها يقع الشرك الذى تجنح إليه البشرية كلما ضلت
الطريق . ولكنها فى كل حالاتها السابقة لم تكن تنكر وجود الله .
وحتى فرعون حين قال لموسى عليه السلام « وما رب العالمين » ٤ » .

١ « انظر الفصل القادم

٢ « سورة الأعراف [٢٨]

٣ « سورة التوبة [٣١]

٤ « سورة الشعراء [٢٣]

وحين قال لهامان : «ياهامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ الاسباب ، اسباب السماوات فاطلع إلى إله موسى ، وإننى لأظنه كاذبا » « ١ » .
وحين قال لقومه : « ما علمت لكم من إله غيرى » « ٢ »
وحين قال لهم : « أنا ربكم الأعلى » « ٣ »

لم يكن ينكر وجود إله خالق لهذا الكون ، ولم يكن يقصد أنه هو الإله الخالق ، والدليل على ذلك قول الملامن قومه له :
« أنذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك » « ٣ »

فقد كان له هو إله يعبد ، هو الذى يؤمن بأنه خالق السماوات والأرض وخالق الكون كله « ٤ » . وعلى الرغم من أنه - كما سجلت الآثار الفرعونية - كان يدعى « الإله ابن الإله » وكانت تقدم له شعائر التعبد من ركوع وسجود كما كانت تقدم لقيصر وكسرى ، إلا أن الوهية وبنوته للإله الأكبر كانت فى حسه كما هى فى حس « الجماهير » من قومه الوهية مجازية لا حقيقية . وكان يقصد من أقواله لموسى وهامان ولقومه أمرين فى آن واحد . الأمر الأول أن الإله الذى يتحدث عنه موسى ، ويقول إنه مرسل من عنده ، ويعطى نفسه بناء على ذلك سلطانا يأمر به فرعون وينهاه ، ويطلب منه أن يطلق سراح بنى إسرائيل . هذا الإله لا وجود له ، وموسى كاذب فى دعواه بوجوده ، وبإرساله من عنده ، إنما الإله الموجود حقيقة هو الإله الذى يعبد هو وقومه ، وينحتون له التماثيل ويرسمون له الرسوم ، الإله المحسوس الذى تعبد به الجاهلية هبوطا منها عن الإيمان بما لاتدرکه الحواس ، والأمر الثانى - وهو مشتق من الأول - أنه يقول لقومه خاصة : ما علمت لكم من سلطة تأمر فتطاع إلا سلطتى ، فأطيعونى ولا تطيعوا ذلك الخارج على سلطانى ، الذى يزعم أنه صاحب الكلمة التى ينبغى أن تطاع !

وحتى النمرود حين حاج إبراهيم فى ربه لأنه يرى نفسه ملكا ذا سلطان وإبراهيم فرد من أفراد « الشعب » لايحق له أن يناقش صاحب السلطان ولا يأمره ولا ينهاه .. لم يكن يعتقد أنه هو الإله الخالق ، إنما كان يصدر عن كبر

١ . سورة عافر [٣٥ - ٣٦]

٢ . سورة النازعات [٢٤]

٣ . سورة الاعراف [١٢٧]

٤ . هو الإله ، امون « الذى يرمزون له بقرص الشمس

أجوف بإزاء إبراهيم عليه السلام ، ولكن في حماقة أشد من حماقة فرعون الذى كان يعلن على الملأ أن له إلها يعبد هو وقومه .. أما النمرود فقد جره الاستكبار على إبراهيم إلى الادعاء بأن له سلطانا فى الأرض يشبه سلطان الله ، وأنه - مثل الله - يحيى ويميت ! حتى حابه إبراهيم عليه السلام فأخرسه :
« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ! قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ! » ١ «

وهذا الشرك - الذى ينجم عن مثل الأسباب التى ذكرناها فى الفقرة السابقة - هو الذى يبعث الرسل لتقويمه وتصحيحه ، ويوقع الوحي الربانى على ذات الأوتار التى خلقها الله فى الفطرة ، وجعلها تهتز لإيقاعات الكون والحياة ، فتستيقظ من غفلتها إن كانت غافلة ، وتروح تبحث عن الله لتعبده وتخشاه .

فعن الكون بضخامته المعجزة ودقته المعجزة وما يحدث فيه من حركة معجزة يقول الوحي الربانى :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ٢ «

« إن ربكم الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » ٣ «

« خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض راسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ٤ «

١ . سورة البقرة [٢٥٨]

٢ . سورة البقرة [٦٤]

٣ . سورة الأعراف [٥٤]

٤ . سورة لقمان [١٠]

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه
دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » « ١ »
وعن قدرة الله لا في الخلق فحسب ، بل في تنويع الخلائق كذلك :
« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه
خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من
أعناق والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر
وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » « ٢ »
« وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناق وزرع ونخيل صنوان وغير
صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات
لقوم يعقلون » « ٣ »
« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن
الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب
والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز
غفور » « ٤ »
وفي أطوار الجنين :
« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم
خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام
لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » « ٥ » .
وفي عجائب الخلق في الأرض عامة وفي الإنسان خاصة :
« وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » « ٦ »
وفي الموت والحياة :
« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير . الذى خلق الموت والحياة
ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » « ٧ »
« الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت في منامها ، فيمسك التى قضى

-
- ١ . سورة الفرقان [٤٥ - ٤٦]
٢ . سورة الأنعام [٩٩]
٣ . سورة الرعد [٤]
٤ . سورة فاطر [٢٧ - ٢٨]
٥ . سورة المؤمنون [١٢ - ١٤]
٦ . سورة الذاريات [٢٠ - ٢١]
٧ . « سورة الملك [١ - ٢]

عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن في ذلك لآيات لقوم
يتفكرون « ١ »

« هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » « ٢ »
وفي جريان الأحداث :

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من
تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار
وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وترزق من
تشاء بغير حساب » « ٣ »

وفي العجز البشرى مقابل القدرة الإلهية :
« أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟
بل لا يوقنون ! أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم
يستمعون فيه ؟ قليات مستمعهم بسلطان مبين ! أم له البنات ولكم البنون ؟ أم
تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون
كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما
يشركون » « ٤ » .

وفي علم الغيب خاصة :
« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده
بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن
جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسار بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن
خلفه يحفظونه من أمر الله .. » « ٥ »
« يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ،
وهو الرحيم الغفور . وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل : بلى وربى
لتأتينكم ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا
اصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » « ٦ »

١ . سورة الزمر [٤٢]

٢ . سورة عاف [٦٨]

٣ . سورة آل عمران [٢٦ - ٢٧]

٤ . سورة الطور [٣٥ - ٤٢]

٥ . سورة الرعد [٨ - ١١]

٦ . سورة سبأ [٢ - ٢]

« إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » « ١ »
« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما في البر والبحر ، وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » « ٢ »

والقرآن كله في الحقيقة توقيعات على أوتار القلب البشرى لاقتلاع كل دواعى الشرك واستنبات بذرة الإيمان .

فأما الغفلة التى ترين على القلب بحكم الالف والعادة ، فالقرآن يستعرض آيات الله فى الكون بطريقة موحية تعرضها كأنما يشهدا الحس لأول مرة ، فيتلقى شحنتها كاملة ، ويتيقظ لدالتها يقظة كاملة . فإذا استثير الوجدان بالآيات المعروضة على هذا النسق الفريد ، قال له الحقيقة المطلوبة : « ذلكم الله ربكم فأنى تؤفكون » فيتلقى الوجدان الحقيقة حية متحركة تزيل عنه الغفلة وتذهب عنه « الران » .. فيتطلع القلب إلى الله ، شاعرا بعظمته ، مقرا بألوهيته وربوبيته ، مستيقنا بوجدانيته ، فيعبده وحده بلا شريك .

وأما الهبوط الذى تهبط به البشرية عن الإيمان بما لاتدركه الحواس ، فإن القرآن يعيد الروح البشرية إلى طلائعها وإشراقها ، تارة بعرض سعة الكون الهائلة وإحاطة قدرة الله بها ، وتارة بعرض الدقة المعجزة فى الكون وارتباطها بقدرة الله ، وتارة بعرض إحاطة علم الله بكل ما فى الكون من أشياء وأشخاص وأحداث ، وتارة بعرض مشاهد القيامة حية مجسمة كأنها الحاضر الذى يعيشه الإنسان فى هذه اللحظة ، والحياة الدنيا كأنها ماض كان منذ زمان سحيق ، وتارة باستجاشة الوجدان بآيات رحمة الله بالإنسان ورعايته له فى سرائه وضرائه ، وتارة بعرض هيمنة الله المطلقة على كل شئ فى هذا الكون ، سماواته وأرضه وأفلاكه ، وناسه وأجدائه ، سواء فى الحياة الدنيا أو الآخرة ، يوم يبعث الموتى ويعرضون للحساب « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا » « ٣ » « وعنت الوجوه للحى القيوم » « ٤ »

١ . سورة لقمان [٣٤]

٢ . سورة الأنعام [٥٩]

٣ . سورة طه [١٠٨]

٤ . سورة طه [١١١]

وحين يخاطب القرآن « الإنسان » كله ، من جميع جوانبه ، وفي كل حالاته ، يعود إلى وضعه الفطري ، فتعمل أجهزته كلها في وقت واحد ، فتعود لأجهزة الإيمان بما لا تدركه الحواس حيويتها الطبيعية ، فيؤمن الإنسان بالله الذي « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ١ « بلا جهد يبذله في ذلك الإيمان ، بل بشعور عميق بالطمأنينة والرضا والاسترواح والسكينة التي تغمر القلوب :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، لا يذكر الله تطمئن القلوب » ٢ ، فتصبح لحظات القلق هي لحظات البعد عن النور الإلهي الفياض وساعات الرضا هي ساعات الاقتراب .

وأما ثقله الشهوات التي تجنح بالإنسان إلى التفلت من أمر الله ، وتؤدي به في النهاية إلى الوان مختلفة من الشرك ، فإن القرآن يرفع الإنسان عنها بتوسيع أفاقه ، ورفع اهتماماته ، وتوجيه طاقاته إلى جوانب الخير في الحياة ، فيحدث « التسامي » أو « التصعيد » الذي يظهر النفس من الأرجاس :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ . وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقْنَا عَذَابَ النَّارِ : الصَّابِرِينَ ، وَالصَّادِقِينَ ، وَالْقَانِتِينَ ، وَالْمُنْفِقِينَ ، وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » ٣ «

وحين تصل النفس إلى هذه الرفعة فإنها لا تعود تستنكر القيد الرباني وتسعى إلى التفلت منه ، بل تحس أنه القيد الذي يمنح الإنسان الحرية اللائقة به .. حرية الإنسان . وتعود تنفر من ذلك الهبوط الذي كانت تتشاه من قبل ، وتلمس فيه القيود الكريهة التي لم تكن تراها من قبل .. قيود الحيوان .. وعندئذ تقبل النفس على الله راضية بعبادته وحده دون سواه .
وأما الطغاة الذين يستعبدون الناس في الأرض ، ويصنعون من أنفسهم

١ . سورة الأنعام [١٠٣]

٢ . سورة الرعد [٢٨]

٣ . سورة آل عمران [١٤ - ١٧]

أربابا مع الله أو من دون الله ، ويسوقون الناس إلى الشرك في نهاية المطاف ، فالوحي الرباني يجند النفوس المؤمنة لجهادهم وإجلالهم من الأرض على أساس من إخلاص العبادة لله ، ذلك الإخلاص الذي يتضمن الاعتقاد اليقيني في القلب بوحداية الله ، والتوجه بالشعائر التعبدية لله وحده ، وتحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض أى شريعة أخرى لم يأذن بها الله . وبهذه الوسائل كلها مجتمعة تفيء الفطرة إلى سوائها ، وتعود إلى صفائها ، ويصبح الإنسان في أحسن تقويم ..

ولقد كانت « مؤهلات » الشرك كلها قائمة في الجاهلية المعاصرة منذ « النهضة الأوروبية » إلى اليوم ، مما ران على القلوب من غفلة ، ومن الهبوط الذي يعطل أجهزة الإيمان بما لاتدركه الحواس ، ومن الهبوط الخلقي واتباع الشهوات ، ومن تحكيم غير شريعة الله . ولكن لأمر ما لم تؤد هذه « المؤهلات » بأوروبا إلى الشرك - كما كان شأنها في الجاهليات السابقة - ولكنها أدت بها إلى الإلحاد ! ولا بد من وقفة لدراسة هذا الأمر الذي لامثيل له من قبل في كل جاهليات التاريخ .

الكنيسة الأوروبية - بحماقاتها - هي المسؤول الأول عن ذلك ولاشك . فهذه الحماقات هي التي أدت إلى جعل العلم بديلا من الدين ، وجعل السبب الظاهر بديلا من السبب الحقيقي ، وجعل الطبيعة بديلا من الله .. فالعلم - في وضعه الطبيعي - ليس بديلا من الدين ! إنما هو نافذة من نوافذ المعرفة التي تؤدي في النهاية إلى المعرفة الحقبة بالله ، ومن ثم إلى إخلاص العبادة لله ، حين يدرك العقل البشرى عظمة الخلق ويطلع على أسرارهِ العجيبة التي تحير الألباب :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » « ١ »

وحين قالت أوروبا أن الدين قد أخلى مكانه للعلم وإن العلم هو البديل من الدين ، لم تكن تتحدث عن حقيقة موضوعية ولاحقيقة مطلقة .. إنما كانت تتحدث عن « واقع » حدث في أوروبا بسبب حماقة الكنيسة حين حاربت العلم والعلماء ، وخيرتهم بين اتباع الخرافة للمحافظة على « الدين » - دينها الذي

١ - سورة فاطر [٢٨]

ابتدعته وشكلته على حسب أهوائها - وبين اتباع العلم والخروج من الدين .
وقد اختار العلماء اتباع العلم لأنهم يعرفون قدره ، ويعلمون أنه أحق بالاتباع
من الخرافة . فلما طردتهم الكنيسة من « الدين » كان العلم - بالنسبة إليهم
- هو البديل من الدين . لا لأنه في الحقيقة بديل عنه ، ولا لأنه بطبيعته يغنى
عنه ، ولكن لأن حماقة الكنيسة وضعت الأمور في هذا الوضع .

والسبب الظاهر ليس بديلا عن السبب الحقيقي ، لأنه يفسر فقط كيف تحدث
الأشياء على النحو الذى تحدث به ، ولكنه لا يفسر لماذا كانت الأشياء على هذا
النحو !

فقانون السببية مثلا يفسر كيف يتحول الماء إلى بخار بالتسخين . ولكنه لا يفسر
لماذا كان التسخين يحول الماء إلى بخار ! فلولا أن الله خلق الماء على النحو الذى
يجعله التسخين يتحول إلى بخار ماتحول !

بعبارة أخرى : إن العلم بخواص المادة يفسر لنا الظواهر التى تحدث في عالم
المادة ، ولكنه لا يفسر لنا لماذا كانت المادة بهذه الصورة وبهذه الخواص . ذلك
أن هذه الصورة ليست هي الصورة الوحيدة الممكنة عقلا .. بل هي إحدى
الصور الممكنة ، وقد كان يمكن - لو أراد الله - أن تكون على صورة أخرى
وذات خواص مختلفة . فالذى جعلها على هذه الصورة ، وأعطاهم هذه الخواص
هو مشيئة الله وحدها . وهذا هو السبب الحقيقي الذى لا يغنى عنه معرفة
السبب الظاهر ، وإلى ذلك تشير سورة الواقعة :

« أفرايتم ماتمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم
الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد
علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟ أفرايتم ماتحurثون ؟ أنتم تزرعون أم
نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناهم حطاما فظلمتم تفكهنون : إنا لمغرمون . بل نحن
محرومون ! أفرايتم الماء الذى تشربون ؟ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن
المنزلون ؟ لو نشاء لجعلناه جحاما فلا تشربون » ١ .

وحين قال علماء أوروبا في عصر النهضة وما بعده إن السبب الظاهر بديل من
السبب الغيبى ، أو إن « الطبيعة » بديل عما « وراء الطبيعة » لم يكن ذلك
حقيقة موضوعية ولا حقيقة مطلقة .. إنما كان « واقعا » عاشته أوروبا بسبب

١ . سورة الواقعة [٥٨ - ٧٠]

حماقة الكنيسة ، التى كانت تمنعهم - أو لا تتيح لهم - أن يبحثوا عن السبب الظاهر ، وتبرز لهم السبب الغيبى وحده مع إبقائهم فى ظلمات الجهل ، فلما اكتشفوا السبب الظاهر ، وانبهروا « بالعلم » الذى كَشَفَ لهم - عن طريق معرفة السبب الظاهر - أفاقا لم يكونوا يعرفونها من قبل ، كان الأمر الواقع بالنسبة إليهم أن السبب الغيبى لم يعلمهم شيئا عن ظواهر الكون المادى من حولهم ، وأن السبب الظاهر هو الذى علمهم ؛ ومن ثم كان وضع السبب الظاهر بديلا من السبب الغيبى هو الأنسب لهم والأكسب ! فقالوا قولتهم من واقعهم الضيق الذى عاشوه ، وخيل إليهم فى بهرة « العلم » أن مايقولونه هو الصواب !

وحين جعلت أوروبا الطبيعة بديلا من الله لم يكن ذلك - كما بينا فى فصول الكتاب الأولى - إلا مهربا من إله الكنيسة الذى تستعبد الناس باسمه وتفرض عليهم الإتاوات والعشور ، والخضوع المذل لرجال الدين ، مع محاربة العلم ، والحجر على حرية الفكر ، ومع الوقوف الظالم مع رجال الإقطاع ضد المطالبين بالإصلاح .. ولم يكن قط حقيقة علمية ، وإن بلغ الحمق « بالعلماء » أن يصدقوا الخرافة ، ويقدموها على الحقيقة ، ويصنعوا ذلك باسم « العلم » ! ولكن هذا كله على أى حال كان إلحاد « العلماء » و« الفلاسفة » و« المفكرين » .. أما الجماهير فكانت ماتزال تؤمن « بالدين » . ولانتعرض هنا لما كان فى ذلك الدين الذى أمنت به الجماهير من تحريف وتشويه وخرافة .. وإنما نتحدث عنه باعتبار أنه « دين » يحوى على أقل تقدير إيمانا بوجود الله وإيمانا بالوحى ، وإيمانا باليوم الآخر ، فى مقابل « اللادين » .. فى مقابل الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله ، وإنكار الوحى ، وإنكار اليوم الآخر ..

كيف انتقلت الجماهير من الدين إلى اللادين ؟

الكنيسة هى المسئول الأول ماتزال ..

والفتنة بالعلم من الأسباب ..

والعودة إلى « الحضارة الإغريقية » أو بالأحرى « الجاهلية » الإغريقية الوثنية هى كذلك من الأسباب ، فقد كانت تلك الجاهلية بالذات تصور العلاقة بين الإنسان والآلهة علاقة صراع وخصام متبادل . الآلهة تريد أن تقهر الإنسان وتستذله ، وتتشفى فى كل مصيبة يقع فيها ، والإنسان يريد أن يلقي

عنه نير الآلهة وينطلق بفاعليته دون قيود . « ١ » ،
والعودة إلى « الحضارة » الرومانية أو بالأحرى « الجاهلية » الرومانية هي
كذلك من الأسباب ، فقد كانت تلك الجاهلية بالذات تزين للإنسان لذاثد الحس،
والفتنة بها إلى حد الاستغراق مع كل ماتبدعه في الأرض من رقى مادي وتنظيم .
ولكن هذه الأسباب كلها مجتمعة كان يمكن أن تؤدي إلى الشرك - كما
أدت إليه في كل جاهلية سابقة - ولم يكن من الضروري - ولا من
الطبيعى - أن تؤدي إلى الإلحاد بين الجماهير ..
إنما الذى نشر الإلحاد في الأرض - تأسيسا على هذه الأسباب كلها ،
واستغلالا لها - كانوا هم اليهود !
كتب اليهود في « البروتوكولات » « ٢ » أنهم سينشرون الإلحاد في الأرض ..
وقد نشروه بالفعل ..
الثورة الفرنسية .. الداروينية .. الثورة الصناعية .. النظريات « العلمية »
التي تهاجم الدين والأخلاق والتقاليد .. إنشاء مجتمع بلا دين ولا أخلاق ..
مابنا من حاجة لأن نعيد شيئا مما قلناه من قبل « ٢ » .. وإنما نذكر فقط
بهذه الحقيقة : أن اليهود استغلوا الأحداث التي هيأتها لهم حماقة الكنيسة ،
ورود الفعل التي نشأت من تلك حماقة ، فركبوا الموجة إلى نهايتها ، ونفذوا
كل مافي جعبتهم من مخططات الإفساد في الأرض ، لاستحمار الأممين
واستعبادهم لصالح الشعب الشرير .
والإلحاد بالذات هدف أساسى من أهداف المخطط الشرير .. فالهدف الأخير
من المخطط كله هو إزالة كل دين في الأرض ، ليبقى اليهود وحدهم في الأرض
أصحاب الدين !

« ١ » راجع أسطورة « بروميثيوس » سارق النار المقدسة ، وانظر ان شئت ملخصا لها في كتاب « قيسات من
الرسول » .

« ٢ » بعض الذين يتمسكون « بالمنهج العلمى » يشككون في حجية كتاب « البروتوكولات » كوثيقة توضعون في
الاحتمال أن يكون بعض الناس قد تقولوا عليهم ماجاء في البروتوكولات . ونحن لانقطع بصحة الكتاب من
الناحية الوثائقية البحتة ، ولكن ذلك - في نظرنا - لا يؤثر في صدق ماجاء في شأيا الكتاب ؛ لأنه سواء كان هذا
الكلام كلام اليهود بالفعل أو كلام إنسان أتبع له أن يطلع على فكر اليهود ويترجمه في هذه الصورة ، فإن كل
ما جاء فيه قد نفذ بالفعل ! جاء فيه أنهم سينشرون الإلحاد وتشرده . وجاء فيه أنهم سينشرون الشيوعية
وتشردها . وجاء فيه أنهم سيضحكون على الأممين بشمار الحرية والإخاء والمساواة وضحكوا بالفعل . فسواء
كان هذا كلامهم أو كان ترجمة أفكارهم فالنتيجة لأخيرة واحدة : أن هذه مخططاتهم وقد نفذوها بالفعل في غفلة
من الأممين !

« ٢ » راجع فصل « دور اليهود في إفساد أوروبا » في أوائل الكتاب .

إن اليهود في هذه المرة لم يفسدوا عقائد الأمميين كما كانت محاولاتهم السابقة في التاريخ ، إنما أفسدوا فطرتهم . وقد أسلفنا القول بأن الفطرة - وإن ضلت - لا تتجه إلى الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله ، وإنما تتجه إلى الشرك . فاتجاهها إلى الإلحاد في الجاهلية المعاصرة ليس مجرد ضلال ككل ضلال سابق ، إنما هو فساد في أعماق الفطرة قام به اليهود استغلالاً للأرضية الفاسدة التي كانت قائمة في أوروبا منذ « النهضة » . وسواء كان الجهد الذي بذلوه في هذا الشأن عسيرا أو ميسرا فقد استغرقوا قرابة قرنين من الزمان حتى وصلوا به إلى صورته الشاملة الموجودة اليوم في الأرض ، سواء في المعسكر الشرقي حيث يفرض الإلحاد فرضا في مناهج التعليم ووسائل الإعلام، يعاقب من يضبط « متلبسا » بمجرد الحديث في الدين لفتى أو فتاة دون سن الرشد .. أو المعسكر الغربي حيث لا يفرض الإلحاد على الناس بتلك الصورة ولكن يشجع الناس عليه بكل وسائل التشجيع !

والإلحاد لا يستحق منا مناقشة « علمية » جادة لأنه ليس من الأمور الجادة التي عرضت للبشرية في مسيرتها على هذه الأرض ، إنما هو عبث صنعه الشياطين، وأوقعوا فيه المستغفلين من الأمميين في فترة كانوا فيها « كأنهم حمير مستنفرة » ، فرت من قسورة « ٢ » ولقد كانت « الحمير » فارة من طغيان الكنيسة وحماقاتها ، فأسرع الشياطين فركبوها وألهبوا ظهورها بالسياط لتجرى إلى آخر المشوار ، بدلا من أن تفيق من نفرتها المجنونة وتفتى إلى الدين الصحيح الذي يخلصها من كل ما كانت تشكو منه من مشكلات أو انحرافات أو عماقات ..

وقد تحدثنا في مقدمة هذا الفصل عن بعض منافذ الفطرة التي توصلها إلى الإيمان بوجود الخالق المدبر المهيمن المسيطر، سواء عرفت على حقيقته فعبدته العبادة الحقة أم تصورته على غير حقيقته وأشركت به آلهة أخرى ، وما بنا من حاجة إلى مزيد في مثل بحثنا الحاضر . ولكننا هنا - في هذا الفصل - بصدد شيء واحد هو التأكيد على هذه الحقيقة : أن الإلحاد ليس من شأن الفطرة حتى في حالة ضلالها ، وأنه أمر مصطنع ، لاتصل إليه الفطرة من تلقاء نفسها مهما وصل بها الحال من الضلال .

ونكتفى بالتعرض لنقطة واحدة مما جاء في التواءات الجاهليين المعاصرين في شأن الدين ، أو في شأن الإلحاد .

تلك هى قولة جوليان هكسلى في كتابه « الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World » إن الإنسان قد خضع لله بسبب عجزه وجهله ، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد أن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يليق به من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله .
نعوذ بالله .

« إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه : فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير » « ١ »

نفترض جدلا أن العجز والجهل - وحدهما - هما سبب خضوع الإنسان لله في صورة دين وعقيدة وعبادة .. فما الذى تغير في حياة الإنسان المعاصر ليخرجه من الخضوع لله ؟!

تلك القشور من العلم التى وصل إليها ، وهذا القدر الضئيل من السيطرة على « البيئة » ؟!

فأما العلم فندع « ول ديورانت » الفيلسوف المعاصر يتحدث عنه في كتاب « مباحث الفلسفة »

« ما طبيعة العالم ؟ ما مادته وما صورته ؟ وما مكوناته وهيكله ؟ وما موادها الأولى وقوانينه ؟ وما المادة في كيفها الباطن وفي جوهر وجودها الغامض ؟ وما العقل ؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها ؟ أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها ؟ أ يكون كلا العالمين : الخارجى الذى ندركه بالحس والباطنى الذى نحسه في الشعور ، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية كما قال الشاعر « مايكتبه الخالق في مطلع النهار نقرؤه في آخر النهار » ؟ أم ثمة في المادة ، أو في العقل ، أو في كليهما ، عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية ؟ .. هذه أسئلة يسألها قلة من الناس ، ويجيب عليها جميع الناس . وهى منابع فلسفاتنا الأخيرة ، التى يجب أن يعتمد عليها في نهاية الأمر كل شئ آخر ، وفي نظام متماسك من الفكر .. إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيارات الأرض .

« ولنسلم أنفسنا في الحال لإخفاق ما مناص منه . لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج في إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس فقط ، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل .. فهذه النظرة الكلية - وهي فتنتنا في هذه المغامرات اللطيفة - ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن . ويكفى أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع وشيء من الأمانة ، لنؤكد أن الحياة في غاية من التعقيد والدقة بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما . وأكبر الظن أن أكثر نظرياتنا تبجيلا قد يكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شيء » ١ . فكل مانستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوى جهلنا ! وكلما كثر علمنا قلت معرفتنا ، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة ، وشكوك جديدة . « فالجزيء » يتكشف عن « الذرة » والذرة عن الإلكترون (الكهر ب) والإلكترون عن الكوانتوم « Quantum » (الكويمية) . ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا « Categories » وقوانيننا وينطوى عليهما . والتعليم تجديد في العقائد وتقدم في الشك ، وألاتنا كما ترى مرتبطة بالمادة وحواسنا بالعقل .. وفي خلال هذا الضباب يجب علينا نحن « الزغب » على الماء ، أن نفهم البحر ! » ٢

وعن تقلب « العلم » يقول :

« إلى أي نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة ؟ هل يؤيدها علم الفلك الحديث أو يسخر من وجهها المغير ؟
« وأين ذهبت قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتاين وميكوفسكى وغيرهما الكون رأسا على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم ؟
« وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة في الفيزيكا المعاصرة ، وما يكتنفها من فوضى وتنازع ؟

« وأين إقليدس المسكين اليوم ، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية ، ليرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعادا جديدة بحسب أهوائهم ، وبيتدعون لامتناهيات يحتوى أحدها الآخر كجزء منه ، ويثبتون في الفيزيقيا - والسياسة كذلك - أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين ! »

١ . انظر أثر الجاهلية الاغريقية في انحرافات الفكر الغربي
٢ . ص ٦١ - ٦٢ من الترجمة العربية . ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الامواني .

« وأين علم الأجنة ليرى أن « البيئة الناشئة » تحل محل « الوراثة » التي كانت إله العلم « ١ » ؟ وأين « جريجوري » و« مندل » الآن ليشهدا انصراف علماء الوراثة عن « وحدة الصفات » ؟ وأين « داروين » الهدام الدقيق ليرى كيف حلت طريقة « التغيرات السريعة » محل « الاختلافات الذاتية والمتصلة » في التطور ؟ وهل هذه التغيرات هي الثمرة المشروعة لاختلاط الهجائن ؟ وهل نضطر إلى الرجوع في تفسيرنا للتطور إلى الوراء عند نظرية « انتقال الصفات المكتسبة » ؟ أنجد أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضي نعانق رقبة زرافة « لامارك » ؟

« وماذا نصنع اليوم بمعمل الاستاذ فونط « Wundt » وباختبارات « استانلي هول » حين لا يستطيع أى عالم نفسانى من اتباع السلوكيين أن يكتب صحيفة واحدة في علم النفس الحديث دون أن يلقي بمخلفات أسلافه في الهواء ؟!

« وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم في تاريخ قدماء المصريين كشفا بالأسرار وتواريخها على هواه ، ولايختلف عن كشوف غيره إلا ببضعة آلاف من السنين ؟! وحيث يسخر علماء الأجناس من « تيلور » و« وستر مارك » و« سبنسر » ؟ وحيث يجهل « فريزر » كل شيء عن « الدين البدائي » لأنه قد رحل إلى العالم الآخر ؟!

فماذا أصاب علومنا ؟ هل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية ؟ أيمكن أن تكون « قوانين الطبيعة » ليست سوى فروض إنسانية ؟ ألم يعد هناك يقين أو استقرار في العلم ؟ « ٢ »

وعن « حقيقة » المادة يقول :

« وأول شيء نكتشفه هو أن المادة القديمة غير المتحركة التي وصفتها طبيعيات القرن التاسع عشر قد ذهبت . وكانت « مادة » تندال ومكسلي غير فاسدة . فهي تقعد وتنام أنى وضعتها ، كذلك الصبى البدين في قصة « أوراق بكويك » « ٣ » . وهي تقاوم بكل ما فيها من وقار الحجم والثقيل كل جهد لتحريكها ، أو لتغيير وجهة حركتها متى أخذت في الحركة . ويبين « برجسون » في سر شديد أن مادة

١ . انظر الى اثر الحاملة الاغريقية مرة أخرى

٢ . ص ٢٢ - ٢٤ من الترجمة العربية

٣ . قصة مشهورة لشارل ديكنز . وكان مستر بكويك بطل القصة المترجم

في مثل هذا الخمود لا يمكن أبدا أن تفسر الحركة ، ومن باب أولى لاتحدث الحياة والعقل . ولكن رجال الطبيعة مع ذلك ، كما كتب برجسون ، كانوا في سبيلهم إلى هجر تصور المادة خامدة ، وإلى الكشف فيها عن حيوية لاريب فيها . فهذه مثلا الكهرباء لا يمكن تفسيرها في صيغ من الخمود والذرات . فما هذه القوة الخفية التي تضاف إلى الكتلة فتزيد في طاقتها ولكنها لاتضيف شيئا إلى أبعادها وثقلها ؟ وكيف تسرى الشحنة الكهربائية في سلك أو في الهواء اللاسلكي ؟ أهى شيء يتحرك في داخل السلك والذرات ؟ فهناك إذن ذرات أصغر من الذرات ؟ وما الذي يتحرك في تلك الموجات الكهربائية التي تكاد تبلغ في سرعتها سرعة الضوء نفسه ؟ أهى الذرات ؟ أو « الأثير » أو لاشيء ؟ وفي أشعة إكس ، عندما تمر شرارة كهربية في فراغ باعثة أشعة تنفذ من جذران الأنبوبة وتغير من اللوح الحساس كيميائيا ، فما هذا الذي يمر خلال الفراغ أو الجدران ؟ وعندما بدت المادة نشيطة لاتفرغ ، كما هو الحال في الراديوم ، وبدت الذرات (التي لا يمكن أن تنقسم) منقسمة إلى مالا نهاية ، وأصبحت كل ذرة نظاما كوكبيا من الشحنات الكهربائية تدور حول شيء لايزيد جوهره عن شحنة كهربية أخرى .. فأى مأزق وقعت المادة فيه حين فقدت كتلتها ووزنها وطولها وعرضها وعمقها وعدم قابليتها للنفاذ ، وسائر تلك الخصائص الثقيلة التي ظفرت باحترام كل مفكر واقعى ؟ أكان الخمود أسطورة ؟ أم يمكن أن تكون المادة حية ؟ « ١ »

« لقد كانت هناك دلائل من قبل على وجود هذه الطاقة في المادة . فالتماسك والتآلف ، والتنافر ، كانت توحى بها . ويبدو اليوم من المحتمل أن تكون هذه الصفات وكذلك الكهربائية والمغناطيسية صورا من « الطاقة الذرية » وهى ظواهر ترجع إلى حركة الالكترونات الدائبة في الذرة .. ولكن ، ما الالكترونون ؟ أهو جزء من « المادة » يظهر في ثوب من الطاقة ؟ أو هو مقدار من الطاقة منفصل تمام الانفصال عن أى جوهر مادي ؟ ولا يمكن أن نتصور الفرض الأخير ! ويقول ليبون « قد يمكن ولاريب لعقل أسمى من عقلنا أن يتصور الطاقة بغير مادة .. ولكن مثل هذا التصور في غير مقدورنا . فنحن لانستطيع أن نفهم الأشياء إلا بوضعها في الإطار المشترك لأفكارنا . ولما كانت ماهية الطاقة مجهولة فنحن

١ - انظر المحاولة المتتوية للتخلص من التحدى القائم في نشأة الحياة من الموات ، وهو التحدى الذى يؤدى - فطرة - الى الإيمان بالله .

مضطرون إلى صوغها صياغة مادية حتى نفكر فيها . فنحن كما يقول برجسون ماديون بالطبع ، فقد ألفنا التعامل مع المادة والأمور الميكانيكية . ولذا لم ننصرف عنها كي ننظر في أنفسنا فإننا نتصور كل شيء كآلة مادية . ومع ذلك فإن أوستولد « Ostwald » يصف المادة على أنها صورة من الطاقة وحسب . ويرد رذرفورد الذرة إلى وحدات الكهرباء الموجبة والسالبة . ويعتقد لودج أن الإلكترون لا يشتمل على نواة مادية أكثر من شحنته . ويقول ليبون ببساطة « المادة صورة مختلفة من الطاقة » ويقول ج . ب . س . هالدين : « يعتبر بعض الناس من أقدر المفكرين في العالم اليوم المادة كمجرد ضرب خاص من الاضطراب التموجي » . ويقول إدنجتون : « إن المادة مركبة من بروتونات وإلكترونات ، أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء . فاللوح هو في الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا وهناك » . ويقول هوايتيد : « إن مفهوم الكتلة في طريقه إلى فقدان امتيازه الوحيد ، باعتبارها المقدار الواحد الدائم في النهاية .. فالكتلة الآن اسم لكمية من الطاقة في علاقتها ببعض آثارها الديناميكية » . وإلى هذه المرتبة الوضيعة سقط الجبار ورجعنا إلى بوسكوفيتش « Boscovich » « ١ » « الجزويتى القديم ، إلى تلك العبارة غير المفهومة : من أن المادة التى تشغل « المكان » مركبة من نقط لاوجود لها ! وفي ذلك يقول نيتشه : « لقد كان بوسكوفيتش وكوبرنيك حتى الآن أعظم خصمين وأكثرهما نجاحا في دحض شهادة العيان » . فلاغربة أن يستنتج ديوى أن « مفهوم المادة الذى يوجد بالفعل في تطبيق العلم لا يمت بصلة إلى مادة الماديين » !

« يمكن أن يكون شيء أكثر غموضا وغرابة من هذا القول الذى يقوله علماء الطبيعة من أن « المادة » بمعنى « الجوهر المتحيز » « Spatial » قد بطلت عن الوجود ؟ فهم يقولون إن الإلكترونات ليس فيها شيء من خصائص المادة ، فهي ليست صلبة ، ولا سائلة ، ولا غازية ، وهي ليست كتلة ، أو صورة ، وانحلالها إلى نشاط إشعاعى يلقي شكوكا على أعز عقيدة في العلم الحديث ، أى عدم قابلية المادة للفناء .. ولنسمع رأى أحد علماء الطبيعة مرة أخرى « إن عناصر الذرات التى تنحل تفنى تماما ، فهي تفقد كل صفة للمادة ، بما في ذلك الثقل وهو أكثر

١ . فيلسوف يوغسلافى من دالماتيا أذاع في بلاده فلسفة نيوتن « المترجم »

صفاتها أساسية . ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ولاشئ يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة ، فقد اختفت في عظمة الأثير .. والحرارة والكهرباء والضوء إلى غير ذلك .. تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها في الأثير .. والمادة التي تنحل تخرج عن ماديتها بمرورها في حالات متتابة تنتزع منها تدريجيا صفاتها المادية ، حتى تعود في النهاية إلى الأثير الذي لا يمكن وزنه ، ذلك الأثير الذي يبدو أنها نشأت عنه

« الأثير ؟ .. ولكن ماهو الأثير ؟ لأحد يعرف ! ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبورى إلا اسما على الفعل « يتموج » والأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث . فهو غامض غموض الشبح أو الروح ! وافترض أينشتين وجود الأثير حين أعاد تفسير الجاذبية ، وعزم أخيرا أن يدخره إلى حين مع تحديد سلطانه ! وكلما يعجز عالم من علماء الطبيعة ويتحير يقول : « الأثير » ! ويقول الاستاذ إدنجتون أحدث حجة في هذا الموضوع : « ليس الأثير نوعا من المادة ، فهو لامادى

» ومعنى ذلك أن شيئا لاماديا يحيل نفسه إلى مادة بوساطة بعض الالتواءات Contortions ، الغامضة (دوامات Vortices ، كما سماها كيلفن) ويصبح ذلك الذى لم يكن له بعد أو ثقل ، بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض ، مادة متحيزة ، ويمكن أن توزن . أهو اللاهوت قد أعيد ؟ أم هو علم مسيحى جديد ؟ أم هو صورة من البحث الطبيعى ؟ وفي الوقت الذى يحاول علم النفس بكل سبيل أن يتخلص من « الشعور » حتى يرد « العقل » « للمادة » يأسف علم الطبيعة في تقريره أن المادة لا توجد ! ولقد قال نيوتن متعجبا : « أيتها الطبيعة احفظينى مما بعد الطبيعة » الميتافيزيقا . فيالأسف لن تقدر الطبيعة أن تفعل أكثر من ذلك ! .

« يقول برتراند رسل : « يقترب علم الطبيعة من المرحلة التى يبلغ فيها الكمال » وجميع الدلائل تدل على العكس من ذلك .. أما هنرى بوانكاريه فيرى أن علم الطبيعة الحديث في حالة من الفوضى ، فهو يعيد بناء جميع أسسه ، وفي أثناء ذلك لا يكاد يعرف أين يقف . وقد تغيرت الأفكار الأساسية عن الطبيعة تغيرا تاما في العشرين السنة الأخيرة فيما يختص بالمادة والحركة كليهما . ولم تسمح أعمال كورى ورذرفورد وسودى وأينشتين ومينكوفسكى لأى تصور قديم عن الطبيعة النيوتونية بالبقاء . وكان لابلاس يحسد نيوتن لأنه كشف

النظام الوحيد للعالم وحزن على عدم وجود نظم أخرى تكشف ! ولكن عالم نيوتن قد انتهى اليوم جانبا . ولم يعد التثاقل « Gravitation » مسألة جاذبية « Attraction » وتمزقت « قوانين » الحركة في كل جهة بنظرية النسبية . وقد كانت الفلسفة تبحث ذات يوم في « الأشباح » والمجردات ، وكان العلم يبحث في « المادة » و « المحسوس » و « الحقائق الواقعة » . أما الآن فعلم الطبيعة مجموعة مستورة « Esoteric » من القوانين المجردة . « وفكرة المادة مفقودة بالكلية في الدوائر العلمية » « ١ » . وكان على الفلسفة أن تتنحى جانبا (ولا يزال بعض الناس يتوقعون موتها خلال خمسين عاما) أما العلم فعليه أن يحل مشكلاتنا . والآن في الوقت الذي يحمل رجل الشارع العلم والعلماء جميع أفكار الإلهام واليقين التي كانت متصلة ذات يوم بالإنجيل والكنيسة ، « ٢ » يقال لنا في تواضع إن : « البحث العلمي لايفضى إلى معرفة طبيعة الأشياء الباطنة » « ٣ » (ص ٦٨ - ٧٣ من الترجمة العربية)

وأما السيطرة - أو قل العجز - فقد تحدثنا عنه في إحدى فقرات هذا الفصل ، وبيننا أنه عجز دائم أصيل لايؤثر فيه ولاينقص منه هذا القدر من السيطرة الذي يحققه الإنسان « بالعلم » والتكنولوجيا « وإن فتت الذرة وأطلق طاقتها ، وإن ركب الصواريخ وطاف بها في أرجاء الكون ، لأن الذي يرغب فيه الإنسان ، ويحس بالعجز عن تحقيقه هو أمر بالنسبة إليه مستحيل التحقيق : أن يسيطر سيطرة كاملة على الكون . أن يقول للشئ كن فيكون . أن يخلد في الأرض . أن يعلم الغيب . وبعض هذه كان من المغريات التي أغرى بها الشيطان آدم منذ بدء الخليقة :

« وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » « ٤ »

ومن هنا فإن الشعور بالعجز شعور دائم ملازم للإنسان في كل أحواله وفي جميع أوضاعه . وليس إنسان العصر الحديث ناجيا منه حتى يقول جوليان

١ . الانجوتون ص ٢٧٤

٢ . يقصد الدين

٣ . الانجوتون ص ٢٠٢

٤ . سورة الاعراف [٢٠]

هكسل إنه قد أن للإنسان أن يأخذ على عاتق نفسه ماكان يلقيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » « ١ »
ونحب أن نضيف إلى ذلك أن الانسان السوى يعلم أن مايققه من تسخير طاقات السماوات والأرض ليس « اغتصابا » من الإله كما تصور ذلك الأساطير الإغريقية المجنونة ، حتى يكون مبررا للخروج على طاعة الله ، بله التبجح بإنكار وجود الله كما تفعل الجاهلية المعاصرة ، إنما هو من قدر الله للإنسان ، ومن رحمة الله بالإنسان ، ومن فضل الله على الإنسان ،لأنه هو الذى سخره ابتداء للإنسان ، ثم أعانه على تحقيقه :

« وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه » « ٢ »

« وعلم آدم الأسماء كلها » « ٣ »

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون » « ٤ »

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » « ٥ »

« الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . إن الانسان لظلوم كفار » « ٦ »

وأخيرا ، فنحن نزع من الدين من الفطرة ، وهم يزعمون انه طلل بال يتبغى ان تزال آثاره ، ليحل محله « العلم » و« الإلحاد »
ونحن نستشهد عليهم من أنفسهم كما أشرنا من قبل .

-
- ١ . سورة الروم [٧]
 - ٢ . سورة الجاثية [١٣]
 - ٣ . سورة البقرة [٢١]
 - ٤ . سورة النحل [٧٨]
 - ٥ . سورة الملك [١٥]
 - ٦ . سورة ابراهيم [٣٢ - ٣٤]

نستشهد عليهم برائد الفضاء الأول « يورى جاجارين » الذى قال بعد هبوطه من الفضاء فى المؤتمر الصحفى العالمى الذى أعد لاستقباله : « حين صعدت إلى الفضاء أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله » ! ولاعبرة « بالتصحيح » الذى أضافته الدولة على تصريحه أوامره ان يضيفه ، فقال

« فمضيت أبحث عن الله فلم أجده » !
إنه تحمل واضح ..

ولا يمكن أن يكون « جاجارين » قد قاله ابتداء ! فما الذى يجعله يتحدث عن الله ابتداء إذا كان قصده هو النفى ، ولا أحد من الحاضرين قد أثار القضية حتى يتعرض لنفيها ؟ ! إنما المعقول أن يكون ذكره لله ابتداء للإثبات لا للنفى . لإثبات استجابة « الفطرة » الطبيعية لعظمة الكون وروعته حين رآه لأول مرة من خارج الغلاف الجوى ، فراه فى صورة مختلفة عما تبدل عليه حسه بحكم الالف والعادة .. فاتجهت الفطرة اتجاهها تلقائيا إلى فاطر السماوات والأرض ، رغم كل « الإلحاد » الذى صبته الدولة فى قلبه وفكره منذ مولده إلى لحظة انطلاقه فى الفضاء !

وهى شهادة « أفلتت » من المعسكر الملحد بغير قصد منه ولا تدبير :
« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ١ .
ونستشهد عليهم بما يقوله « علماء » من علمائهم ، تربوا فى « الإلحاد العلمى » ! فآجأهم « العلم » ذاته إلى الإيمان بوجود الله ، ونكتفى بهذه المقتطفات من كتاب « العلم يدعو للإيمان » ٢ ، وكتاب « الله يتجلّى فى عصر العلم » ٣ « فهى تغنينا عن المزيد .

يقول « ١ . كريسي موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك :
« فى خليط الخلق قد أتيج لكثير من المخلوقات أن تبدى درجة عالية من أشكال معينة من الغريزة أو الذكاء أو ما لاندري .. فالديور مثلا يصيد الجندب النطاط ، ويحفر حفرة فى الأرض ، ويخذ الجندب فى المكان المناسب تماما حتى يفقد نوعيه ، ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ . وأنثى الديور تضع بيضا فى

١ . سورة فصلت [٥٢]

٢ . تأليف كريسي موريسون ترجمة محمود صالح الفلكى

٣ . تأليف جماعة من العلماء ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان

المكان المناسب بالضبط ، ولعلها لاتدرى أن صغارها حين تنفقس يمكنها أن تتغذى دون أن تقتل الحشرة التى هى غذاؤها فيكون ذلك خطرا على وجودها . ولا بد أن يكون الدبور قد فعل ذلك من البداية وكرره دائما ، وإلا مابقيت زنابير على وجه الأرض .. والعلم لايجد تفسيرا لهذه الظاهرة الخفية : ولكنها مع ذلك لايمكن أن تنسب إلى المصادفة !

« وإن أنثى الدبور تغطى حفرة فى الأرض وترحل فرحا ثم تموت . فلاهى ولا أسلافها قد فكرت فى هذه العملية وهى لاتعلم ماذا يحدث لصغارها : أو أن هناك شيئا يسمى صغارا . بل إنها لاتدرى أنها عاشت وعملت لحفظ نوعها ! » « ١ »

« وفى بعض أنواع النمل يأتى العملة بحبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل فى خلال فصل الشتاء ، وينشئ النمل ما هو معروف « بمخزون الطحن » وفيه يقوم النمل الذى أوتى فكاكا كبيرة معدة للطحن ، بإعداد الطعام للمستعمرة . وهذا هو شاغلها الوحيد . وحين يأتى الخريف ، وتكون الحبوب كلها طحنت فإن « أعظم خير لأكبر عدد » يتطلب حفظ تلك المؤونة من الطعام .. ومادام الجيل الجديد سينتظم كثيرا من النمل الطحان ، فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن الموجود ، ولعلها ترضى ضميرها الحشرى بأن ذلك النمل قد نال جزاءه الكافى ، إذ كانت له الفرصة الأولى فى الإفادة من الغذاء أثناء طحنه !

« وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير (واخترمنهما ما يحلو لك) إلى زرع أعشاش للطعام فيما يمكن تسميته « بحدائق الأعشاش » وتصيد أنواعا معينة من الدود والأرق أو اليرق ، (وهى حشرات صغيرة تسبب آفة الندوة العسلية) فهذه المخلوقات هى بقر النمل وعنزاتها ! ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاما له .

« والنمل يأسر طوائف منه ويسترقها . وبعض النمل حين يصنع أعشاشه يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب .. وبينما تضع بعض عملة النمل الأطراف فى مكانها ، تستخدم صغارها - التى تقدر أن تغزل الحرير وهى فى الدور اليرقى - لحياكتها معا ! وربما حرم طفل النمل عمل شرنقة لنفسه ولكنه قد خدم الجماعة !

« فكيف يتاح لذرات المادة التي تتكون منها النملة أن تقوم بهذه العمليات المعقدة ؟

« لاشك أن هناك خالقا أرشدها إلى كل ذلك » ١ «

ويقول عالم الطبيعة « فرانك ألن »

« ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات الكون تفقد حرارتها تدريجيا وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة .. ولانخفاض من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضى الوقت :

« أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث ، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوى ليست لقدرته حدود . ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه » ٢ «

ونكتفى بهذه المقتطفات ولانحتاج إلى المزيد . فهي كلها ناطقة بمدى سخف تلك البدعة الضالة التي نشرها الشياطين في الجاهلية المعاصرة . حين يسرت لهم « الحمر المستنقرة » أن يركبوا ويهيئوا بها في وديان الضلال ! أما الذين يحسون اليوم أن « وجودهم الذاتي » أو مجدهم الذاتي مرتبط باعتناق الإلحاد بدلا من اعتناق الدين ، فهم فقاقيع ستنفث غدا حين تعود البشرية إلى رشدها .. ونحسب أنها - بحكم الظروف كلها - عائدة إليه ، مالم يكتب الله عليها الغناء ! » ٣ «

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » ٤ «

١ « مقتطفات من كتاب « العلم يدعو للإيمان » ص ١٣١ - ١٣٢

٢ « من كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٥ - ٦

٣ « انظر الفصل القادم

٤ « سورة الرعد [١٧]

الإسلام ومستقبل البشرية

تفزع أوروبا من الدين كما يفزع الملدوغ من الحبل .. ولو كان بالنسبة إليه حبل النجاة !

وأوروبا تسيطر اليوم بقوتها السياسية والعسكرية والعلمية والاقتصادية والتكنولوجية على العالم كله . وتجرب البشرية معها إلى الهاوية بسبب ذلك الموقف الأحمق المفزع من الدين !

ولقد زعمت الجاهلية المعاصرة في أول أمرها في عصر النهضة أنها تستطيع أن تدير ظهرها للدين ثم تظل تمارس الحياة بصورة طبيعية لا يعتورها نقص ولا اختلال . بل زعمت أنها حين تتخلص من الدين فستعالج ما كان في حياتها من نقص واختلال ! ولقد كانت ظروفها كما بينا من قبل تؤدي بها إلى الانسلاخ من ذلك الدين الذي يعكر صفو الحياة ، ويعطل دفعاتها ، وينشر الجهالة ، ويحجر على الفكر، ويحجب عن البشرية النور .

وحين بدأت أوروبا تنسلخ من دينها لم يكن في مقدورها أن تنسلخ دفعة واحدة من « القيم » التي كانت تصاحب ذلك الدين ، وربما لم يكن ذلك في نيتها في مبدأ الأمر .

فراح القوم - مخلصين فيما نحسب - يبحثون عن مصدر آخر للقيم التي لا يمكن أن تعيش بدونها البشرية .

ولكن التجربة العلمية أثبتت أنه لا يوجد مصدر حقيقى للقيم غير الدين ! قالوا العقل .. وقالوا الطبيعة .. وقالوا النفس البشرية .. وقالوا العلم .. وقالوا الفلسفة .. وقالوا كل ما يخطر في بالهم . ثم خرجوا من ذلك كله بما وصلوا إليه آخر الأمر : القلق والجنون والضياع والحيرة والأمراض النفسية والعصبية والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة والانحلال والمسخ الذي يشوه الفطرة .. والهبوط الخلقي والفكرى والروحي في كل ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب والدول كلها على السواء ! وتحول الإنسان إلى آلة للإنتاج المادى في صباحه ، وحيوان

هائج في الليل يبحث عن المتاع الحسى الغليظ ، ويبحث عنه أحيانا في تبذل
يتعفف عنه بعض أنواع الحيوان !
وتلك نهاية طبيعية لبعد الناس عن الدين ، وهى تجربة مكررة في تاريخ
البشرية وإن ظنت الجاهلية المعاصرة أنها تجربة « رائدة » تخوضها البشرية
لأول مرة ، لأنهم - في جهالتهم « العلمية » - لا يقرأون التاريخ ، ولا يحبون
أن يأخذوا العبرة من التاريخ !
« قل انظروا ماذا في السماوات والأرض . وما تنفى الآيات والنذر عن قوم
لا يؤمنون » « ١ »

ثم إن الإنسان عابد بطبعه كما بينا في الفصول السابقة من الكتاب .
فلا تستطيع أن تحول الإنسان من العبادة إلى « اللاعبادة » . إنما تستطيع أن
تحوله من نوع من العبادة إلى نوع آخر . وليس الخيار - كما خيل للجاهلية
المعاصرة - بين العبادة وعدم العبادة، إنما الخيار فقط في المعبود .. هل يكون
هو الله جل جلاله أم يكون شيئا آخر غير الله .
الخيار - بالتعبير القرآنى الحاسم - هو بين عبادة الله وعبادة الشيطان .
« ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وإن
اعبدوني هذا صراط مستقيم » « ٢ »
وصراط الله المستقيم واحد ، ولكن سبل الشيطان كثيرة متعددة :
« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن
سبيله » « ٣ »

والمعبودات في الجاهلية المعاصرة شتى ، والسبل إليها متعددة ، من عبادة
« الدولار » إلى عبادة الهوى والشهوات، مرورا « بالإنتاج » و« المصالح
القومية » و« العلم » و« العقل » و« التقدم » و« التطور » و« الحرية
الشخصية » و« الطبيعة » و« الانسانية » .. ولكل معبود من هذه المعبودات
تكاليفه والتزاماته التى ينبغى أن تلتزم ..
فأين يذهب الإنسان حين يخرج من الدين ، أى من عبادة الله ؟

١ . سورة يونس [١٠١]
٢ . سورة يس [٦٠ - ٦١]
٣ . سورة الانعام [١٥٢]

تقول الجاهلية المعاصرة إنه « يتحرر » من « القيد » .

نعم ! يتحرر من « القيد الإنسانى » ليقع فى قيود الحيوان !

فالقضية كما قلت مرة فى كتاب « فى النفس والمجتمع » ليست خيارا بين القيد والحرية كما يتوهم الناس لأول وهلة حين ينفلتون من الدين والقيم المصاحبة له . إنما الخيار هو بين قيد من نوع معين يصاحبه نوع معين من الحرية ، وبين حرية من نوع آخر يصاحبها نوع آخر من القيود . قيد الإنسان ومعه حرية الإنسان ، او حرية الحيوان ومعه قيد الحيوان « ١ »

الدين قيد لاشك فيه ، لأنه التزام بما أنزل الله .. قيد على شهوات النفس ، وقيد على أهواء الإنسان .. ولكنه فى الوقت ذاته يحرر الإنسان من ضغط الشهوات وثقله الأرض والخضوع المذل للقوى القاهرة التى تقهر الإنسان فى الأرض ممثلة فى بشر يستبدون بالبشر ، او ضغوط مادية واقتصادية تسحق كرامة الإنسان .

والانفلات من الدين والقيم المصاحبة له هو « تحرر » دون شك . تحرر من القيود التى فرضها الله على الانسان فى تصرفاته ، والحدود التى رسمها للناس وقال لهم : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » « ٢ » « تلك حدود الله فلا تقربوها » « ٣ » . ولكنه فى الوقت نفسه يمسك الإنسان من خطامه ، ويجره من حبل الشهوات او من حبل الضغوط القاهرة فلا يملك الا يستجيب !

وحين انفلت الناس فى الجاهلية المعاصرة من قيد « الدين » فقد وقعوا فى عيوبيات لاحدود لها ، سواء للحاكمين عليهم ، الذين لا يحكمون بما أنزل الله ، فيتخذون من أنفسهم اربابا يشرعون للناس ، ويخضعونهم لهم بالسلطان القاهر ، اولشهواتهم التى لا يملكون الفكاك منها ، او لاعراف وقيم وموازين ما أنزل الله بها من سلطان ، كلها تهبط بالإنسان من مكانه الكريم الذى كرمه الله به يوم خلقه ، وتمرغه فى الأوحال .

فهل هذه هى « الكرامة » التى يحققها الإنسان لنفسه حين يتمرد على الدين ويخرج من عبادة الله ؟

١ . انظر - ان شئت - فصل « القيد والحرية » من كتاب « فى النفس والمجتمع »

٢ . سورة البقرة [٢٢٩]

٣ . سورة البقرة [١٨٧]

كلا ! وماستطيع البشرية أن تستمر في الحياة على هذه الصورة .
فمن ناحية تظل أمراضها الرئيسية تتضاعف لأنها تعرض عن تناول
الدواء .

ومن ناحية أخرى تصيبها السنة الحتمية التي لا تتبدل ولا تتخلف ولا يتغير
مجراها على مر الدهور :

« فلما نسوا ماذكروا به ففتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد
لله رب العالمين » ١

ولقد مضت السنة الربانية مع أوروبا في جاهليتها المعاصرة خطوة خطوة :
نسوا ماذكروا به ففتح عليهم أبواب كل شيء ، من قوة اقتصادية وعلمية
وتكنولوجية وعسكرية وسيلسية .. الخ ففرحوا بما أوتوا ، أي طفوا في الأرض
بغير الحق ، ولم تبق إلا الخطوة الأخيرة حتى تتم السنة بتمامها ، وهي أخذهم
بغتة إذا أصروا على ما هم فيه . والبغتة هي دائما بغتة وإن رأى بعض الناس
بوادرها وتوقعوا حدوثها .

« أقامن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أويأتيهم العذاب
من حيث لا يشعرون ؟ أويأخذهم في قلبهم فما هم بمعجزين . أويأخذهم على
تخوف فإن ربكم لرؤف رحيم » ٢

و« العقلاء » في الجاهلية المعاصرة بدأوا يتخوفون على أقوامهم من الدمار
المؤكد إن لم يغيروا حياتهم من قواعدها .

قال العيلسوف الإنجليزي المعاصر « برتراند رسل » في تصريح له :
« لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض .. وبقاء تلك السيادة إلى
الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة » ٣ « وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى
أياما رضية كذلك التي لقيها خلال أربعة قرون .. » ٤ «
وقال « جون فوستر دالاس » وزير خارجية أمريكا في كتاب « حرب أم
سلام » :

١ . سورة الانعام [٤٤ - ٤٥]

٢ . سورة النحل [٤٥ - ٤٧]

٣ . لا يريد الرجل أن يقول « السنن الربانية » فيسميها - بفعل الجاهلية - قوانين الطبيعة :

٤ . « عن المستقبل لهذا الدين (ص ٥٥) »

« إن هناك شيئا مايسير بشكل خاطئ في أمتنا ، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية . ولايجدربنا أن نأخذ موقفا دفاعيا (لعله يقصد تبريريا) وأن يملكنا الذعر .. إن ذلك أمر جديد في تاريخنا !

« إن الأمر لايتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية . إن ماينقصنا هو إيمان صحيح قوى . فبدونه يكون مالدينا قليلا .. وهذا النقص لايعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها ! فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية فإن النتائج السيئة تصبح أمرا حتميا .

« وفي بلادنا لاتجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها . وهناك حيرة في عقول الناس وتآكل لأرواحهم . وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادى - كما كشف عنه نشاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن - ولن تستطيع أى إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا في هذه الظروف » ١ «

وقال « الكسيس كاريل » في كتاب « الإنسان ذلك المجهول » :
« إن هدف هذا الكتاب هو أن يضع تحت تصرف كل شخص مجموعة من المعلومات العلمية التى تتعلق بالكائنات الحية في عصرنا . فقد بدأنا ندرك مدى ما فى حضارتنا من ضعف .. وكثيرون يرغبون فى أن يلقوا عنهم التعاليم التى فرضها عليهم المجتمع الحديث . ولهؤلاء أكتب هذا الكتاب .. كذلك كتبت لأولئك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا - ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية - بل أيضا ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشرى » (ص ١١ - ١٢ من الترجمة العربية لشفيق أسعد فريد) .

« إن الحضارة الغربية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لاتلائمنا . فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقة ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى

١ . عن المستقبل لهذا الدين (ص ٨٢)

الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا .. » (ص ٢٨)

« يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب في العالم الذى ابتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجمارد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية .. فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء ، نخطأ أخلاقيا وعقليا .. إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من غيرها إليها .. ولكنها لاتدرك ذلك ، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها .. وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدن التى سبقتها أوجدت أحوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لاتزال غامضة .. إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. » (ص ٤٤)

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة ، وعادات الحياة والتفكير التى يفرضها عليه المجتمع العصري .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات فى حسه وشعوره .. وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التى خلقتها » التكنولوجيا « وأن مثل هذه البيئة تؤدى إلى انحلاله ، وأن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن المسئولون لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع .. لقد نقضنا قوانين الطبيعة « ١ » فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى . الخطيئة التى يعاقب مرتكبها دائما .. إن مبادئ « الدين العلمى » و « الآداب الصناعية » قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية . فالحياة لاتعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن فى السماح بارتداد « الأرض المحرمة » .. تضعف السائل ! ولهذا فإن الحضارة آخذة فى الانهيار .. » « ص ٣٢٢ » « ٢ »

« ١ » انظر كيف يتأثر الرجل بالعرف الجاهل رغم كل ثورته على الجاهلية المعاصرة !

« ٢ » عن « المستقبل لهذا الدين » ص ٧٢ - ٧٥ .

ولكن تخوف هذه القلة القليلة من « العقلاء » في خضم الجاهلية المجنونة لن
ينقذها من الدمار إلا أن تصيح لصوت العقل وتعود إلى الله :

* * *

ولقد كان الدين الذى انسلخت منه الجاهلية المعاصرة ديناً فاسداً ، لأنه من
صنع البشر .. ديناً لا يصلح للحياة . ولقد كانت - وهى تنسلخ منه - على
مشارف الرشد .. ولكنها ضلت الطريق ..

وعلى البشرية اليوم - إن أرادت النجاة من الهاوية المحتومة - أن تبحث
عن الدين الحق . الدين الذى يُؤمّن العقيدة الصحيحة فى الله ، والمنهج الصالح
للحياة .

الدين الذى لا يوجد فصاماً مصطنعاً بين الإيمان بالغيب والإيمان
بالمحسوس . بين الإيمان بالعقيدة والإيمان بالعلم . بين نشاط الروح ونشاط
الجسد . بين الدنيا والآخرة . بين العمل والعبادة . بين التقدم المادى
والحضارى والالتزام بالقيم « الإنسانية » .. ولابين أى جانب من الكيان
البشرى السوى وجانب آخر .

الدين الذى يقيم حضارة « إنسانية » متكاملة لأنه يأخذ الإنسان كله
ولا يهمل جانباً منه . لا يهمل قبضة الطين من أجل إشراقة الروح ، ولا يهمل
إشراقة الروح من أجل قبضة الطين . ولا يهمل عمارة الأرض فى جميع جوانبها
وأشكالها من أجل الفوز بالخلاص فى الآخرة ، ولا يهمل أمر الخلاص فى الآخرة
من أجل عمارة الأرض . لا يهمل المشاعر الدينية الشفافة الرفيعة المرفرفة من
أجل النظر العلمى والتجربة العلمية ، ولا يهمل النظر العلمى والتجربة العلمية
من أجل شفافية المشاعر الدينية . لا يهمل القيم الخلقية من أجل « النجاح » فى
الأرض ، ولا يهمل النجاح فى الأرض من أجل القيم الخلقية ..

الدين الذى يُؤمّن العدل السياسى والعدل الاجتماعى والعدل الاقتصادى ،
والذى يؤمن فى الوقت ذاته التجدد والنمو فى الحياة البشرية .

الدين الذى ينشئ الحضارة التى تليق بالإنسان، الذى صورته الله فى أحسن
صورة ، وكرمه وفضله على كثير ممن خلق :

« الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم

ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين « ١ »
« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » « ٢ »
« وإن يكون هذا الدين إلا الإسلام ، فهو عند الله هو الدين :
« إن الدين عند الله الإسلام » « ٣ »
وهو الذى تمت به نعمة الله على البشر واكمل به شرع الله ومنهجه :
« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام
دينا » « ٤ »

وهو الذى يشهد واقعه - وقت أن طبق في عالم الواقع - أنه أنشأ تلك
الحضارة « الإنسانية » المتكاملة التى شملت كل جوانب الحياة وكل جوانب
النفس البشرية . والتى كانت للإنسانية كلها نورا وهداية ، والتى استمدت
منها أوروبا العلم والحضارة حين انبعثت - بعد احتكاكها بالمسلمين -
تطلب النهوض .

وحين تعتنق أوروبا هذا الدين فلن تحتاج أن تتخلى عن شيء من تقدمها
العلمى والمادى والتكنولوجى ، ولا شيء من عبقريتها التنظيمية ، ولا شيء من
جلدها الدؤوب على العمل والإنتاج ، وهى العوامل التى حفظت لها بقاءها حتى
هذه اللحظة ، وإن كانت - كما أشار جون فويستر دالاس - لا تستطيع أن
تحميها من الدمار الحتمى الذى يحرق عليها غياب « الروح » ..
كلا ! لا تحتاج أن تتخلى عن شيء من ذلك ، إنما تحتاج فقط أن تقيم ذلك كله
على قاعدته الصحيحة، وهى الإيمان بالله وتطبيق منهجه فى الأرض ، كما تحتاج
أن تتخلى عن عبوديتها للمادة وعبوديتها للشهوات .

والمسلمون بطبيعة الحال يحملون المسئولية الكبرى فى هذا الشأن ، فهم
الذين أخرجهم الله ليكونوا هداة البشرية فى الحياة الدنيا ، والشاهدين عليها
يوم القيامة :

١ . سورة غافر [٦٤]
٢ . سورة الاسراء [٧٠]
٣ . سورة آل عمران [١٩]
٤ . سورة المائدة [٣]

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ١ «

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ٢ «

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ٣ «

ولن يكونوا شهداء على الناس يوم القيامة حتى يؤدوا الشهادة في الدنيا لهذا الدين ، بإقامته في الأرض كما أمر الله ، والدعوة إليه كما أمر الله ، فتقوم الحجة على الناس إن قبلوه فقد اهتدوا ، وإن أعرضوا فقد أعدت الأمة الإسلامية إلى ربها ، ويوم القيامة يشهدون على الناس أمام ربهم : لقد أقمنا الدين في الأرض كما أمرتنا ، ودعونا الناس إليه كما أمرتنا فأعرضوا فحق عليهم الجزاء .. والمسلمون اليوم في حضيض من الذلة والهوان والضعف والتخلف لم يهبطوا إلى مثله في تاريخهم كله بسبب تخلفهم عن هذا الدين ، وإضاعة عقائده وأحكامه ، والغفلة عنه ، والتفريط فيه .

ولكنهم يحملون مسئوليتهم مع ذلك .. مسئوليتهم نحو انفسهم ، ومسئوليتهم نحو البشرية ، لا يعفيهم منها كل ما وقعوا فيه من الهوان والذلة ، بل إن ذلك كله ليضاعف مسئوليتهم ، فإنهم ما وقعوا فيه إلا لتفريطهم في هذا الدين الذي قال الله فيه :

« فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » ٤ «

فماذا هم قائلون لربهم غدا حين يسألهم ؟!

وأى وزر يحملونه إذا احتاجت إليهم البشرية غدا فلم تجدهم في المكان الذى ينبغى أن يكونوا فيه ، مكان الأمة التى تحمل الهدى الربانى وتبينه للناس ؟! فآما الله سبحانه وتعالى فلن يعجزه تخاذل الذين يحملون اسم الإسلام اليوم

١ - سورة ال عمران [١١٠]

٢ - سورة ال عمران [١٠٤]

٣ - سورة البقرة [١٤٣]

٤ : سورة الزخرف [٤٣ - ٤٤]

وهم غافلون عنه ، إذا أراد أن يهدي البشرية غدا إلى الدين الحق ، فقد قال سبحانه يحذر المسلمين من قبل :

« وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » ١ ،
فإذا أراد الله للبشرية الهدى فسيقضي لهذا الدين من يحمله وينافح عنه كما قال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ٢ ،
وإنا لنرى بواكير هذا الفضل الرباني في حركات البعث الإسلامي التي تنبعث اليوم من كل مكان في الأرض ، تسعى إلى تحقيق الإسلام في الواقع ، وتجاهد في سبيل الله لاتخاف لومة لائم ، وتتعرض لأبشع ألوان التعذيب الوحشي ، ثم تظل صامدة في سعيها إلى إقامة هذا الدين في الأرض كما أمر الله . كما نرى بواكير هذا الفضل فيمن يدخلون في هذا الدين في أوروبا وأمريكا من البيض والسود بعشرات الألوف ويتزايدون على الدوام .
أما البشرية فقد بدأت تطلعها على الأقل تضيق بالضياح والحيرة وتتلمس الطريق إلى النور .. والنور هو دين الإسلام .

يقول « توينبي » في محاضراته التي أشرنا إليها من قبل :
« صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة . ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا العالمية للعالم المتغرب » ٣ ، ضد السيطرة الغربية ونادت بزعامة معادية للغرب . فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لاحصر لها في إيقاظ الروح النضالية للإسلام ، حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف ، إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولي للإسلام .
« وهناك مناهستان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقي في انتصاره على الدخيل الغربي :

١ . سورة القتال [٢٨]

٢ . سورة المائدة [٥٤]

٣ . يقصد الدول الخاضعة للنفوذ الغربي

« ففى عهد الخلفاء الراشدين ، بعد الرسول حرر الإسلام سورية ومصر من السيطرة اليونانية التى أثقلت كاهلها مدة ألف عام تقريبا .
« وفى عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول .
« فإذا سبب الوضع الدولى الآن حربا عنصرية فيمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى .. وأرجو ألا يتحقق ذلك ! » « ١ »
أما نحن فنرجو أن يتحقق ذلك ! لا على أساس حرب عنصرية كما يقول توينبى ، الذى يحصر تصوراتهِ فى حدود التفكير الغربى الضيق الأفق ، بل على أساس من الصراع الصحيح بين الحق والباطل الذى قال الله فيه :
« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرون الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » « ٢ »
نرجو أن يتحقق ذلك لا بوصفنا مسلمين فحسب ، بل انطلاقا من كل الحب الذى نكنه للبشرية .. لكى تهتدى إلى النور ..
« والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « ٣ »

١ . ص ٧٣ من الترجمة العربية .
٢ . سورة الحج [٤٠ - ٤١]
٣ . سورة يوسف [٢١]

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
التمهيد الأول . الدين والكنيسة . نبذة تاريخية	٩
أولا : تحريف الدين	٩
ثانيا : طغيان الكنيسة ورجال الدين	٢٥
ثالثا : فساد رجال الدين	٥٣
رابعا : الرهبانية وفضائح الأديرة	٥٨
خامسا : مهزلة صكوك الغفران	٦٣
سادسا : محاكم التفتيش	٦٧
سابعاً : مساندة الكنيسة للظلم السياسى	
والاقتصادى والاجتماعى	٧٠
الخلاصة	٧٦
التمهيد الثانى . دور اليهود فى إفساد أوروبا	٧٩
١ - النظريات العلمية	٩٣
٢ - واقع المجتمع الصناعى	١١٩
الديمقراطية :	١٧٨
الشيوعية	٢٥٨
تمهيد	٢٥٩
أولا : المادة الجدلية	٢٦٨
١ (المادة : أزليتها وأبديتها ، واسبقيتها فى الوجود على الفكر ..	٢٧٠
٢ (قوانين المادة التى تحكم الطبيعة وتحكم البشرية كذلك	٢٧٣
ثانيا : المادة التاريخية	٢٨١
١ (التفسير المادى للتاريخ	٢٨٣
٢ (التفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة	٢٩٣
تقويم النظرية المادية	٣٠٥
التفسير الجاهل للتاريخ	٣٨٥
التفسير الإسلامى للتاريخ	٣٩١
ثالثا : المذهب الاقتصادى بين النظرية والتطبيق	٤١٠
النظرية الشيوعية	٤١٤
بين النظرية والتطبيق	٤٢٣
بين الشيوعية والإسلام	٤٤٠

صفحة

٤٤٥	العلمانية
٤٦٣	١ (في السياسة
٤٧١	٢ (في الاقتصاد
٤٧٧	٣ (في الاجتماع
٤٧٩	٤ (في العلم
٤٨٣	٥ (في الأخلاق
٤٨٧	٦ (في الفن
٤٩٥	العلمانية والاسلام
٥٠٠	العقلانية
٥٥٤	القومية والوطنية
٥٨٩	الانسانية
٦٠٥	الاحاد
٦٤٢	الاسلام ومستقبل البشرية

بصدر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

كتب للمؤلف :

- * الإنسان بين المادية والإسلام
- * منهج الفن الإسلامي
- * منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
- * منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- * معركة التقاليد
- * في النفس والمجتمع
- * التطور والثبات في حياة البشرية
- * دراسات في النفس الإنسانية
- * هل نحن مسلمون
- * قبسات من الرسول
- * شبهات حول الإسلام
- * جاهلية القرن العشرين
- * دراسات قرآنية
- * مذاهب فكرية معاصرة
- * مفاهيم ينبغي أن تصحح
- * كيف نكتب التاريخ الإسلامي

تحت الطبع :

- * المستشرقون والإسلام .

رقم الإيداع : ٨٨ / ٥٩٢٨
الترقيم الدولى . ٧ - ٢٦٣ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨٠ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

مكتبة
محمد قطب

- | | |
|---|--|
| <input type="checkbox"/> دراسات فى النفس الإنسانية | <input type="checkbox"/> قبسات من الرسول |
| <input type="checkbox"/> التطور والثبات فى حياة البشرية | <input type="checkbox"/> معركة التقاليد |
| <input type="checkbox"/> منهج التربية الإسلامية | <input type="checkbox"/> مذاهب فكرية معاصرة |
| <input type="checkbox"/> منهج الفن الإسلامى | <input type="checkbox"/> مفاهيم ينبغى أن تصحح |
| <input type="checkbox"/> جاهلية القرن العشرين | <input type="checkbox"/> كيف نكتب التاريخ الإسلامى |
| <input type="checkbox"/> الإنسان بين المادية والإسلام | <input type="checkbox"/> لا إله إلا الله عقيدة وشرعية |
| <input type="checkbox"/> دراسات قرآنية | <input type="checkbox"/> دروس من مخنة البوسنة والهرسك |
| <input type="checkbox"/> هل نحن مسلمون | <input type="checkbox"/> العلمانيون والإسلام |
| <input type="checkbox"/> شبهات حول الإسلام | <input type="checkbox"/> هلم نخرج من ظلمات التيه |
| <input type="checkbox"/> فى النفس والمجتمع | <input type="checkbox"/> واقعنا المعاصر |
| <input type="checkbox"/> حول التأصيل الإسلامى للعلوم الإجتماعية | <input type="checkbox"/> قضية التنوير فى العالم الإسلامى |